هويدا عبد العظيم رمضان

المجتمع في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي

الجزء الأول

تقديم

د. عبد العظيم رمضان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجتمع فى مصر الإسلامية

من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى

الجزء الأول

هويدا عبد العظيم رمضان

تقديم

د. عبدالعظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبد الواحد

إهداء

لوالدى وأستاذى الدكتور عبد العظيم رمضان

ولأستاذتى الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

إعترافا بالفضل وتقديرا لدورهما فى تكوينى الفكرى و العلمى .

تقديم

بقلم د. عبد العظيم رمضان

ربما كان من غير المألوف أن يكتب أستاذ فى التاريخ الحديث والمعاصر مثلى تقديما لكتاب فى التاريخ الإسلامى! ولكن الغرابة تزول إذا عرفت الأسباب. وأول هذه الأسباب هو أنه على الرغم من كونى أستاذاً للتاريخ المعاصر، الا أنى لست غريبا عن التاريخ الإسلامى . ففى عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ حين كنت أستاذا زائرا فى جامعة لندن ، وكنت فى الوقت نفسه أغذى بعض الصحف العربية بمقالاتى، طلبت منى جريدة «العرب» التى تصدر بلندن أن أعد لها دراسة تصدر فى حلقات اسبوعية عن العلاقات بين العرب وأوروبا، وقد استجبت لهذه الدعوة، ورأيت أن أبدأ بها منذ ظهور الاسلام حتى انتهاء الحروب الصليبية، وهو ماتم بالفعل، واستمر نشر حلقات هذه الدراسة عاما وثلاثة أشهر، ثم أصدرتها فى كتاب بعد عودتى الى مصر تحت عنوان «الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية».

وقد كان السبب فى قبولى القيام بدراسة فى التاريخ الاسلامى على الرغم من كونى أستاذا للتاريخ الحديث والمعاصر، هو ايمانى بأن منهج البحث التاريخى هو منهج واحد فى تعرضه لجميع العصور التاريخية. فهذا المنهج يقوم على أساس واحد هو استرداد الحدث التاريخى من الماضى كما كان، أو قريبا مما كان، ويستوى فى ذلك أن يكون هذا الحدث فى العصر الاسلامى أو الحديث أو المعاصر. أما بالنسبة للشكل الأكاديمى للدراسة التاريخية فهو شكل واحد، كما أن كيفية الوصول الى الحقيقة التاريخية هى كيفية واحدة فى كل العصور، يتعلمها طلبة قسم التاريخ فى الجامعات تحت اسم «منهج البحث التاريخى» وهو منهج جمع بقايا الحدث التاريخى ـ أى مصادره ووثائقه ـ ونقد هذه المصادر والوثائق نقدا علميا تاريخيا، ثم إعادة تصوير الحدث التاريخى ـ أو اعادة تركيب صورة هذا الحدث ـ وفقا لثقافة المؤرخ ومكانه الجغرافى وأيديولوجيته.

وهذا ـ تماما ـ هو ما حدث فى دراستى عن « تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام حتى انتهاء الحروب الصليبية»، الذى طبعته دار المعارف فى يناير ١٩٨٣، أى منذ عشر سنوات تقريبا.

وقد شجعنى ذلك على تقبل فكرة أن تتخصص ابنتى هويدا فى التاريخ الاسلامى عند تعيينها معيدة فى قسم التاريخ بكلية بنات عين شمس، على الرغم من أنه كان من اليسير تحويلها الى فرع التاريخ الحديث.

وكنت فى ذلك متأثرا بقولة فيلسوف التاريخ الشهير كروتشة Croce إن التاريخ كله تاريخ معاصر.

فالتاريخ ليس استعادة رفات الأحداث من الماضى، وانما إحياؤها وبعثها من مرقدها. والمؤرخ لا يجب ان يكتفى بمجرد فهم مادته التاريخية، وانما يتجاوب معها الى حد أن تعيش معه فى ذاته حتى يستطيع أن يبث فيها الحياة من روحه.

وقد كان هذا هو ما اهتممت بزرعه فى ذهن ابنتى هويدا حتى لا تفهم أن الكتابة التاريخية هي مجرد قص ولصق للمادة التاريخية المجمعة، وانما التفاعل مع الأحداث، والعيش فى محيطها، وتمثلها. كما اهتمت بزرع حقيقة أخرى فى ذهنها، وهى أن الدراسة التاريخية هى بحث دؤوب عن الحقيقة، واستخراجها من أكوام الأساطير والأكاذيب والافتراءات.

على أنه كان على أيضا أن اقنعها بأن التاريخ لا يتحرك عشوائيا أو بمحض الصدفة، وانما هو يتحرك وفقا لقوانين صارمة توجب حدوث الحدث التاريخى اذا توافرت شروطه، وأنه لا يمكن تفسير الحدث التاريخى بنفسه وانما تفسيره فى ضوء بنائه التحتى المتمثل فى علاقات الانتاج، وأهمها علاقة الملكية، وبالتالى فمن الضرورى دراسة واستيعاب علاقات الملكية أولا اذا أريد تفسير الادارة والقوانين والشرائع والفنون والآداب والعادات والتقاليد تفسيرا علميا.

كان دورى ـ اذن ـ فى بناء هويدا العلمى هو بناؤها فكريا وأيديولوجيا ومنهجيا. أما البناء العلمى المتخصص فقد كان على يد أساتذة من أعظم

أساتذة التاريخ الاسلامي في مصر، وهي الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف، التي أشرفت عليها أثناء إعداد رسالتها للماجستير ـ وهي الرسالة التي بين يدي القارئ ـ ووالتها بتوجيهاتها وارشاداتهاالتي كان لها أهمية خاصة، نظرا لأن الدكتورة سيدة كاشف متخصصة في الفترة الزمنية التي تعالج فيها هويدا موضوع المجتمع في مصر الاسلامية.

ولقد عن لي أن عنوان الرسالة ينبغي أن يكون : «المجتمع المصرى فى صدر الاسلام»، ثم اقتنعت بأن مثل هذا العنوان لن يكون معبرا تماما عن الواقع الاجتماعي لمصر في تلك الفترة، فلم يكن مجتمعا مصريا بحتا كما هو الحال في المجتمع المعاصر، وانما كان مجتمعا مختلطا تعيش فيه عناصر غير مصرية الى جانب العناصر المصرية، وبالتالي فإن عنوان : «المجتمع في مصر الاسلامية» أكثر علمية ودقة.

على أن حجم الرسالة التي كان يزيد يوما بعد يوم أقلقني ، خصوصا بعد أن أخذت السنوات تمضي دون أن تنتهي هويدا من رسالتها، حتى بلغت خمس سنوات تقريبا! وكانت هويدا تتذرع بأنه عليها أن تقرأ كل سطر في المؤلفات الاسلامية القديمة، التي لم يتبع مؤلفوها طرق البحث العلمي الحديثة، و تختلط فيها المعلومات على نحو لا يتيسر معه فرزها، كما افتقرت الى الكشافات التي تذلل مهمة الباحث ـ وهي مهمة شاقة تتطلب وقتا طويلا.

وقد خشيت أن تكون هذه الزيادة في التفصيل وجمع المعلومات على حساب التحليل الذي هو مهمة الباحث الحق. ولكن هويدا ردت بأن الرسالة قامت أساسا على التحليل، فكيف يكون التفصيل علي حساب التحليل؟ لقد قامت الرسالة على المنهج الجدلي الذي يفسر الظواهر التاريخية بعلاقات الانتاج المتمثلة في علاقات الملكية، وبالتالي فان كل تفصيل في الدراسة هو تفصيل يستوجبه التحليل ولا يمكن الاستغناء عنه.

ومع ذلك كان على انتظار رأي اللجنة العلمية التي أسند إليها مناقشة الرسالة، والتي كانت مكونة من أكبر أساتذة التاريخ الاسلامي في مصر، وهم : الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف، والأستاذ الدكتور حسن حبشي، والأستاذة الدكتورة زبيدة عطا.

وقد جاء رأيهم معززا لرأى هويدا ، اذ أجمعوا على أن الرسالة على النحو الذى أعدت به تعتبر عدة رسائل مجمعة وليست رسالة واحدة، وأن كل فصل فيها كان يمكن تقديمه كرسالة منفصلة. وكان رأى البعض أنه لوكان قانون الجامعات يسمح بما تسمح به بعض الجامعات فى أوروبا لاستحقت الرسالة درجة الدكتوراه بدلا من درجة الماجستير. ومن هنا جاء اجماع الأساتذة على منح هويدا درجة الماجستير بتقدير « ممتاز ».

هذه هى الأسباب التى دعتنى الى كتابة هذا التقديم لهذا العمل العلمى، وفى الوقت نفسه تقديم هويدا كمؤرخة جديدة أنبتتها هذه التربة المعطاءة.. تربة مصر العظيمة التى علمت البشرية منذ آلاف السنين عندما كان العالم يسبح فى بحر من ظلام الجهل، وأقامت على ضفاف النيل حضارة مازالت تبهر العالم المتحضر. والله الموفق.

مصر الجديدة فى ١٩٩٣/١١/٢٧

أ. د . عبد العظيم رمضان

تقديم المؤلف

تعالج هذه الرسالة مرحلة ربما كانت أهم مراحل التحول فى تاريخ مصر الطويل ، وهى مرحلة التحول من الحكم البيزنطى إلى الحكم العربى ، ومن الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى ، ومن اللغة القبطية ـ اليونانية إلى اللغة العربية ، ومن الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، ومن الشريعة والقوانين المسيحية إلى الشرائع والقوانين الإسلامية ، ومن العادات والتقاليد القبطية إلى العادات والتقاليد العربية ـ الإسلامية ، ومن الفنون القبطية إلى الفنون الإسلامية . وفى عبارة وجيزة من الحضارة القبطية ـ الاغريقية إلى الحضارة الإسلامية العربية .

فلم يحدث فى تاريخ مصر الطويل أن تم التحول فيها بهذا الشكل الشامل الذى غطى كل تفصيلة من تفاصيل الحياة الاجتماعية ، فقد تحول المجتمع المصرى برمته تحولا حاسما ونهائيا ، وحتى يومنا هذا ، من المرحلة القبطية إلى المرحلة الإسلامية .

إن هذه الرسالة تتتبع بدقة مرحلة التحول الهائلة هذه ، وتتناول كل جانب من جوانبها وترسم صورة متكاملة بقدر الإمكان للمجتمع الجديد الذى ظهر على أنقاض المجتمع القديم .

ولتحقيق هذا الغرض ، كان من الضرورى للباحثة أن تمهد لذلك بفصل تمهيدى ترسم فيه صورة تفصيلية للمجتمع المصرى قبل الفتح العربى ، صورة تشمل أوضاعه الاقتصادية ، وعلاقاته الانتاجية ، وتكويناته الاجتماعية ، وثقافته ، وشرائعه ، حتى يمكن متابعة كل ما حدث من تحول فى هذا المجتمع نقله إلى الصورة الإسلامية التى استقر عليها .

وربما كان هذا الفصل التمهيدى مما يميز هذه الدراسة عن الدراسات القيمة التى سبقتها ، والتى ركزت من البداية على المرحلة الإسلامية .

كذلك كان من الضرورى تحديد المنهج العلمى الذى تتم فى إطاره هذه الدراسة ، وهو المنهج الذى يربط الظواهر بأسبابها .

ولما كان من المعروف أن نوعية علاقات الملكية هى الأساس الذى ينبنى عليه البناء الحضارى المتمثل فى النظم السياسية والادارية والقانونية والفنية والأدبية وغيرها ، فقد كان هذا هو المنهج الذى اتبعته فى هذه الدراسة ، فقد قسمت الدراسة إلى خمسة أبواب ترتبط ببعضها البعض ، إرتباط الظاهرة بأسبابها :

الباب الأول ، وهو النظام الاقتصادى ،والباب الثانى عن نظام الحكم، والباب الثالث عن التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى ، والباب الرابع عن الحياة العقلية فى المجتمع المصرى ، والباب الخامس عن حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى .

وبالنسبة للباب الأول ، وهو عن النظام الاقتصادى ، فقد قسمته إلى ثلاثة فصول ، الفصل الأول :

تناولت فيه الملكية العقارية فى مصر ، وقد مهدت له ببحث عن أنواع الأراضى فى الدولة الإسلامية ، ثم طبيعة الفتح العربى لمصر ، نظرا لأهميتها فى تحديد نوعية علاقات الملكية فى مصر ، ثم أنواع الأراضى فى مصر بعد الفتح ، وأشكال الحيازة العقارية التى تناولنا منها : الاقطاع ، والأحباس أو الأوقاف ، ونظام القبالات .

وفى الفصل الثانى ، تناولت نظام جباية الخراج والجزية فى مصر ، وتعرضت فيه لخلط المصادر العربية بين معنى كل من الخراج والجزية ، وتحدثت عن المقصود بمصطلح خراج مصر ، وقيمة هذا الخراج ، وطريقة إرساله إلى الخليفة .

وقدخصصت فصلاثالثا فى هذا الباب تناولت فيه طبقة الفلاحين ، وطبقة الصناع ، وطبقة التجار .

أما الباب الثانى وهو عن نظام الحكم فى المجتمع المصرى، فقد قسمته الى ثلاثة فصول، تناولت فى الفصل الأول النظام الادارى، وتحدثت فيه عن طبيعة النظام الادارى الذى وضعه العرب للمجتمع المصرى ، والمناصب الرئيسية التى تولاها العرب وهى : منصب الوالى ، وصاحب الخراج، وصاحب البريد، والمحتسب، وصاحب الشرطة.

أما الفصل الثانى فتناولت فيه النظام الحربى، وقد تعرضت فيه للجيش من حيث قوته وعدده وحامية الاسكندرية، وديوان الجند، ونظام التجنيد. كما تعرضت ثانيا للأسطول من حيث نشأته على يد العرب ، وتصنيعه، ونظام تشغيل الاقباط على السفن، واهتممت بالاسطول فى الدولتين الطولونية والاخشيدية.

أما الفصل الثالث من نظام الحكم، فقد تحدثت فيه عن النظام القضائى، وتناولت فيه أنواع المحاكم، من حيث المحاكم العادية، ومحاكم النظر فى المظالم، ومحاكم أهل الذمة، وقضاء الجند، كما تعرضت للشهود، وأماكن انعقاد المحاكم، وإنشاء سجل للقضايا، ورواتب القضاة، كما خصصت جزءا من هذا الفصل لنظام السجون فى الدولة الاسلامية عامة، وفى الدولتين الطولونية والاخشيدية بصفة خاصة.

أما الباب الثالث ، وهو التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى، فقد قسمته الى ثلاثة فصول، تناولت فى الفصل الأول تعريب المجتمع المصرى ،

وعوامل اصطباغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية، فتحدثت أولا عن هجرة القبائل العربية، وبداية نزوحها إلى مصر ، ومناطق سكناها ، والعوامل التى أدت إلى هجرتها ، وأسباب اختلاطها بالمصريين ، والأعمال التى اشتغل بها العرب فى مصر . كما تناولت أيضا ثورات العرب ، وأسماء القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر ، حسب مناطق سكناها .

كذلك تحدثت عن عاملى انتشار اللغة العربية ، وانتشار الدين الإسلامى فى صبغ المجتمع بالصبغة العربية .

أما الفصل الثانى ، فقد تحدثت فيه عن المرأة ودورها فى المجتمع المصرى ، على الرغم من أن المصادر العربية كانت ضنينة فى الكلام عن هذا الدور ، خاصة فى الفترة الخاضعة للبحث .

أما الفصل الثالث ، فقد تناولت فيه العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى ، وما طرأ عليها من تحول وفقا لانتقال المجتمع المصرى إلى الإسلام والعروبة ، وتحدثت عن الأعياد الدينية للقبط والمسلمين واليهود والأعياد القومية ، كما تحدثت عن إحتفالات الزواج ، والألعاب ، والملابس ، والأطعمة والأشربة ، والقرافة والجنائز .

أما الباب الرابع ، وهو عن الحياة العقلية فى المجتمع المصرى ، فقد قسمته إلى فصلين : الفصل الأول عن الحركة العلمية والأدبية ، وقد تعرضت فيه لتأثير الفتح العربى على الحركة الفكرية فى مصر ، والقوى الاجتماعية التى أسهمت فى الحركة العلمية ، واهتممت بتوضيح مدى تأثر المركز الفكرى للأسكندرية بالفتح العربى وتحدثت عن المراكز الجديدة للحركة الثقافية والعلمية التى أشعلت مصباح الحضارة الاسلامية ، والتى حلت محل الحضارة اليونانية المسيحية ، وتناولت ثلاثة مراكز : المركز الأول ، وهو الجوامع والمساجد والزوايا، والمركز الثانى ، وهو مجالس الوزراء والعلماء ،

والمركز الثالث ، وهو المراكز الثقافية العامة مثل سوق الوراقين . وتحدثت عن أبرز الشخصيات ، وأهم الأعمال العلمية والفكرية والثقافية التى ظهرت فى تلك الفترة الخاضعة للبحث .

أما الفصل الثانى فقد خصصته للكلام عن الفنون . فلقد كان تغير الفن فى مصر ضرورة تحتمها طبيعة النظام العربى الجديد الذى يدين بالديانة الإسلامية ، فظهر فيها مايعرف بالفن الإسلامى . وقد قسمت تاريخ الفن فى مصر فى الفترة الخاضعة للبحث إلى مرحلتين : المرحلة الأولى ، من الفتح العربى إلى العصر الطولونى ، والمرحلة الثانية ، من العصر الطولونى إلى العصر الفاطمى ، وتناولت فيها التغيرات التى طرأت على زخارف النسيج ، وعلى زخارف الخشب ، وعلى التصوير ، وعلى عمارة المساجد .

أما الباب الخامس ، وهو عن البناء والتشييد فى المجتمع المصرى ، فقد قسمته الى ثلاثة فصول : الفصل الأول : العمائر المدنية ، وقد تناولت فيها العواصم والمدن والجواسق والمارستانات ، والحمامات ، والعيون والقناطر وغيرها .

أما الفصل الثانى فتناولت فيه العمائر الدينية ، وتحدثت فيه عن الجوامع والمساجد والكنائس والمصليات والرباطات .

أما الفصل الثالث فتناولت فيه العمائر التجارية ، وقد تحدثت فيه عن القيساريات والفنادق .

وقد تمثلت أكبر صعوبة فى هذا البحث فى اعتماده بصفة أساسية على المصادر الأصلية فى كتب المؤرخين القدامى . فبالاضافة الى ندرة هذه المصادر التى تتحدث عن الحياة الاجتماعية فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر ، فإن هذه المصادر فى الأساس تتراكم فيها المعلومات بشكل غير مفروز ، وعلى الرغم من أن بعض المحققين قد قدموا فيها كشافات إلا أنها

غير كافية ، كما أن هناك معلومات هامة للغاية وردت فى سياق وقائع لا تمت لها بصلة ، الأمر الذى تطلب منى قراءة هذه المصادر صفحة صفحة ، وجملة جملة ، وكلمة كلمة ، حتى لا تفوتنى معلومة هامة يفيد منها هذا البحث . يضاف إلى هذه الصعوبة بعد الفترة الزمنية بين أقرب كتاب من هذه الكتب عن هذه الفترة ، والأحداث التى وقعت فيها ، فقد كان أقرب كتاب اليها هو كتاب : « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم الذى يبعد عنها بحوالى قرنين .

وهذا يدعونى إلى الاعتراف بكل صدق وأمانة بجميل أستاذتى الجليلة الفاضلة الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، أستاذة كرسى التاريخ الاسلامى والوسيط ، فقد كان من العسير إلى أبعد الحدود المضى فى هذا البحث ، لولا أن مهدت لى الطريق بأعمالها القيمة ، وبحوثها التى غطت مساحات كبيرة من هذه الفترة ، وعلى رأسها : « مصر فى فجر الاسلام » ، « مصر فى عصر الولاة » ، و« مصرفى عصر الاخشيديين » ، و « عبد العزيز بن مروان » ، و« أحمد بن طولون » ، و « مصر الاسلامية وأهل الذمة » ، و « مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه » . هذا فضلا عن البحوث القيمة التى نشرت فى المجلات العلمية المختلفة وعلى رأسها : « دراسات فى المجتمع الإسلامى قبل العصر الفاطمى » ، و « الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية » ، و« تعريب مجتمع الاسكندرية » ، و « دراسات فى النقود الإسلامية » ، و « العرب والبحار » ، و « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى » .

يضاف إلى هذه الأعمال المكتوبة النصائح الثمينة التى لم تدخر وسعا فى تزويدى بها على طول الدراسة والتى كانت خير هدى لى فى عملى فى إعادة تكوين الصورة التاريخية للتحول الكبير الذى طرأ على المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، وما زودتنى به من كتب ومصادر من مكتبتها الخاصة .

وفوق ذلك كله ، ما حبتنى به من عطف وود وحب كان له الأثر الأكبر فى إقبالى على البحث رغم مشاقه .

كذلك أقدم خالص الشكر والتقدير لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى والوسيط بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وأستاذتى الفاضلة الأستاذة الدكتورة زبيدة محمد عطا، أستاذة تاريخ العصور الوسطى ورئيسة قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا ـ لما تفضلا به من فحص هذه الرسالة ومناقشتها مناقشة علنية مع أستاذتى الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، ومنحى درجة الماجستير بتقدير « ممتاز » .

وأود أن أقول إنه عند إعدادى هذه الرسالة للطبع فى كتاب ، ونظرا لضخامة حجمها الذى وصل إلى ٧٦٦ صفحة ، كان على تخفيف حجمها : إما عن طريق إختصار المادة العلمية للرسالة ، وإما عن طريق حذف حواشيها . وقد رأيت أنه ليس من حقى اختصار المادة العلمية ، لما فى ذلك من إجحاف بحق القارىء فى الحصول على المادة العلمية كاملة كما وردت فى الرسالة الأصلية ، وفى الوقت نفسه رأيت أن حذف الحواشى بأكملها يحرم القارىء من الاطلاع على الايضاحات والشروح التى فسرت بها ما ورد فى المتن . وأخيراً لجأت إلى حل وسط يتمثل فى الإبقاء على جميع الحواشى التى تتضمن معلومة جديدة أو إضافة أو توضيحاً ، مما يهم القارىء الإطلاع عليه ويعتبر استكمالا لما ورد فى المتن ، وحذفت الحواشى التى تشير إلى المصادر والمراجع التى لا تهم سوى القارىء المتخصص جداً، إكتفاء بثبوتها فى النسخة الأصلية للرسالة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من إلقاء مزيد من الضوء على جوانب هذه المرحلة من تاريخ مصر ، والله ولى التوفيق .

عرض لأهم المصادر والمراجع

ربما كان أهم ما يأتى فى مقدمة هذه المصادر ، مجموعة أوراق البردى العربية التى نشر نصوصها وعلق عليها الدكتور أدولف جرومان ، وتقع فى ستة أجزاء .

ولهذه الأوراق أهمية كبيرة فى دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، وقد استفدت منها فى بحثى فى الحياة الاجتماعية ، خاصة الأوراق التى تتعلق بعقود الزواج ، فقد أوضحت لى الكثير من عادات وتقاليد الزواج فى الفترة الخاضعة للبحث . كما أفادتنى فى الموضوع الخاص بالأرض والفلاح ، فعن طريقها توصلت إلى قيمة أجرة الزراع وشروط دفع الخراج ، هذا إلى جانب أسماء بعض الموظفين الاداريين الذين تتعلق وظيفتهم بالزراعة والاشراف على الأراضى الزراعية .

ويعتبر كتاب « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧هـ / ٨٧٠ م) من أنفس المصادر لتاريخ مصر الاسلامية ، ولا ترجع أهميته فقط إلى أنه من أقدم المصادر التى وصلت الينا عن تاريخ مصر الاسلامية ، وقدنقل عنه الكثير من كتاب الاسلام ومورخيه ، وانما ترجع أيضا الى أن مولفه مصرى ولد وعاش بمصر ، ودرس مجتمعاتها وتقاليدها ، وهو سليل أسرة من الفقهاء والمحدثين كما ذكرت فى الفصل الخاص بالحركة العلمية فى مصر .

وقد كان كتاب ابن عبد الحكم خير عون لى فى تزويدى بأخبار الفتح الاسلامى لمصر ، وما تخلل هذا الفتح من سفارات ومفاوضات بين العرب

والروم ، تلقى الكثير من الضوء على سياسة العرب الدينية ، والنظام الذى كانوا يتبعونه فى فتح البلاد وادارتها ، ثم الآراء التى قيلت عن طبيعة الفتح العربى لمصر ، وهل فتحت صلحا أو عنوة ؟ كما أفادنى هذا الكتاب فى الموضوع الخاص بخطط القبائل العربية فى مصر ، حيث عنى بايراد القبائل العربية التى نزلت مصر ، ومناطق سكناها ، وخططها ، سواء كانت فى الفسطاط أو فى الجيزة أو فى الأسكندرية ، كما أشار أيضا إلى حركة الارتباع .

وقد استعنت به فى الفصل الخاص بجباية الخراج والجزية ، فكتاب ابن عبد الحكم يقدم لنا بحثا هاما عن الجزية وأحكامها ، وكيف طبقت على مصر ، وعن الخراج وجبايته ، كما أشار إلى الرسائل المتبادلة بين عمرو بن العاص والخليفة عمر بن الخطاب فى هذا الشأن . كذلك أفادنى فى الموضوع الخاص بالجيش فى مصر وتحديد طبيعة مهام رجال الجيش من العرب الذين كان يقتصر عملهم فى بداية الأمر على الجندية دون الأعمال الأخرى. ولم تقتصر أهمية هذا الكتاب على ذلك فقط ، وإنما أفدت منه كذلك فى الموضوع الخاص بالقضاة فى مصر ، حيث أمدنى بأسماء الكثيرين منهم .

كذلك استعنت به فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية ، وتراجم بعض الشخصيات ، حيث أورد عددا هاما من أسماء الصحابة الذين دخلوا مصر، وروى المصريون عنهم الكثير من الأحاديث .

ويلى كتاب ابن عبد الحكم فى الأهمية للرسالة كتاب « الولاة وكتاب القضاة » للكندى (أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى المتوفى عام ٣٥٠ هـ / ٦٩١ م) .

وكتاب الولاة يتناول ذكر الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من الفتح حتى وفاة محمد بن طغج الاخشيد عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ويلى ذلك ذيل للكتاب يصل أخبار الدولة الاخشيدية بايجاز إلى مجيىء الفاطميين إلى

مصر ، مع ذكر طرف من أعمالهم وحروبهم ، وبمعنى آخر فهو يعنى بالتاريخ الادارى لمصر . ولذلك فقد اعتمدت عليه اعتماداً كلياً خاصة فى النظام الادارى بمصر ، وما يتعلق بوظيفة الوالى وصاحب الخراج ، والمحتسب ، وصاحب البريد .

كذلك أفادنى فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية فى مصر ، حيث أمدنى بأسماء الشعراء فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى ، كما ورد فيه العديد من أشعارهم التى قيلت فى مناسبات مختلفة .

أما كتاب القضاة فقد اعتمدت عليه اعتمادا كليا كذلك فى الموضوع الخاص بالقضاة فى مصر ، فهو يتناول تاريخ القضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح إلى عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ويليه ذيلين أولهما منسوب لأبى الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد ويصل تاريخ القضاة إلى ولاية أبى الحسن على ابن النعمان فى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، والثانى لكاتب مجهول ويلخص ذكر القضاة من عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م إلى عام ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م. ولم يكن الكندى هو صاحب الفضل فى معالجة هذا الموضوع فقد سبقه ابن عبد الحكم كما ذكرت آنفا ، إلا أن أهمية كتاب القضاة للكندى تكمن فى إحتوائه على تفاصيل أحوال القضاة وبعض القضايا والأحكام ، مما أفادنى كثيرا فى تناولى لهذا الموضوع .

ومن الكتب الهامة كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على المتوفى عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) وقد استفدت من هذا الكتاب فى عدة مواضيع من البحث ، فقد أفادنى فى الموضوع الخاص بالعادات والتقاليد المتعلقة بالأعياد ، خاصة أعياد القبط واليهود ، وكذلك المتعلقة بالزواج ، خاصة زواج اليهود .

كما أفادنى فى الموضوع الخاص بالبناء والتشييد ، سواء بناء الفسطاط ، أو العسكر أو القطائع . وفى بناء الكنائس فى الفترة الخاضعة للبحث .

واستعنت به فى الموضوع الخاص بالصناعة ، وخاصة صناعة المنسوجات ، وذلك بما أورده عن المدن الصناعية والتجارية ، فأعطانى معلومات وافية فيما يتعلق بالصناعات فى هذه البلاد أو بالزراعات أو بالعادات والتقاليد فيها .

كما أفرد فى كتابه صفحات عديدة لتاريخ الدولة الطولونية والأخشيدية جمع فيها تاريخها السياسى والاجتماعى والحضارى .

ومن كتب المقريزى أيضا التى استفدت منها كتابه «البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » ، وذلك فى الموضوع الخاص بالقبائل التى نزلت مصرومناطق سكناها .

ومن الكتب التى أفادتنى خاصة فى الموضوعات التى تتعلق بالدولة الطولونية ، كتاب «سيرة أحمد بن طولون » للبلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) . فقد استفدت منه بصفة خاصة فى الحديث عن كتاب الدولة الطولونية ، فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية . كما أفادنى فى موضوع البناء والتشييد ، خاصة ما يتعلق بالأبنية فى الدولة الطولونية ، وما أنفق عليها ، هذا إلى جانب ذكره للكثير من العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وكان من أهم الموضوعات التى اعتمدت عليه فيها هى وصفه لجنازة أحمد بن طولون .

كذلك من الكتب التى استعنت بها كتاب «فضائل مصر» للكندى (عمر ابن محمد بن يوسف الكندى توفى بعد عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) وأهمية هذا الكتاب أنه يعتبر من أقدم المصادر العربية التى خصصت لوصف مصر وما خصها الله سبحانه وتعالى به من الفضائل ، وقد نقلت عنه معظم المصادر العربية ، كما تكمن أهميته فى أنه من المصادر التى كتبت فى أثناء الفترة الخاضعة للبحث ، فقد كتب فى زمن كافور (٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ / ٩٦٥ ـ ٩٦٧م) الذى طلب من ابن الكندى تأليفه .

ومن الكتب كذلك التى استعنت بها فى دراستى كتاب : «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد (على بن موسى بن سعيد المغربى المتوفى عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م) الجزء الأول القسم الخاص بمصر ، تحقيق الدكتور زكى محمد حسن والدكتورة سيده اسماعيل كاشف والدكتور شوقى ضيف .

وقد أفادنى فى ذكره سيرة أحمد بن طولون ، خاصة وأن ابن سعيد نقل هذه السيرة عن ابن الداية ، كما أفادنى بصفة خاصة فى الموضوعات التى تتعلق بتاريخ الدولة الاخشيدية ، فهو من أوائل المصادر العربية التى وصلت إلينا وتحدثت عن سيرة محمد بن طغج الاخشيد بشىء من التفصيل وكان قد نقلها عن ابن زولاق .

كذلك استعنت به فى الموضوع الخاص بالحركة العلمية ، وخاصة عن الشعراء فى مصر ، فقد ذكر تراجم لبعضهم .

أما بالنسبة لذكره تراجم بعض القضاة الذين تولوا منصب القضاء فى مصر ، فقد كانت هذه التراجم منقولة عن الكندى كما أشار هو بنفسه عن ذلك ، لذلك لم أستفد منها كثيرا .

ومن الكتب التى أفادتنى كذلك كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لأبى المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى توفى عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) وهذا الكتاب يتناول ذكر من ولى مصر من الملوك والسلاطين من عام ٢٠ هـ / ٦٤٠م إلى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م مع ذكر الحوادث الهامة التى وقعت فى كل سنة ، فهو يعنى بالتاريخ الادارى والاجتماعى والسياسى لمصر ، ويبدو أن مؤلفه قد سار على نهج الكندى فى تأليفه لكتابه «الولاة» لذلك فقد أفادنى فى النظام الادارى سواء ما يتعلق بالوظائف الخاصة بالوالى ، أو صاحب الشرطة ، أو غيرهما ، كما أفادنى فى ذكره لبعض عادات وتقاليد المجتمع المصرى فى الفترة الخاضعة للبحث، وفى الموضوع الخاص بالبناء والتشييد . وأهمية هذا الكتاب تكمن فى حرصه فى نهاية كل سنة على ذكر أمر النيل فيها من حيث الزيادة

والنقصان .لذلك فقد أفادنى كذلك فى الموضوع الخاص بالزراعة ومقاييس النيل .

ومن الكتب الهامة التى تناولت حياة مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كتاب « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » للسيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر المتوفى عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وقد استعنت به عند الكلام عن الزراعة فى مصر ، من حيث أنواع المزروعات ، والاهتمام بالاصلاحات الزراعية ، ومقياس النيل .

كذلك أفادنى فى الموضوع الخاص بالصناعات فى مصر ، واستعنت به عند تناولى للعمائر الدينية كالجوامع ، فقد أشار فى كتابه إلى جامع عمرو ، وجامع ابن طولون . إلا أن أهميته تكمن - فى رأيى - فى محاولته حصر العلماء فى شتى التخصصات ، فقد ذكر كل تخصص على حده مثل : المحدثين ، والفقهاء ، وتقسيمه للفقهاء إلى شافعية ، ومالكية ، وحنفية ، وغيرهم ، كذلك ذكره أئمة القراء ، وأئمة النحو واللغة ، والأطباء ، والمنجمين ، والوعاظ ، والقصاص ، والزهاد ، والمؤرخين كما أشار إلى الشعراء والأدباء.

ومن الكتب التى زودتنى بمعلومات وافية فى بحثى كتاب « المقدمة » لابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون توفى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م) فقد أفادنى فى الحركة العلمية ، خاصة فى تعريف العلوم سواء فى الدراسات الدينية أو الدراسات الفلسفية ، كما استعنت به فى الموضوع الخاص بالقضاة ، والحسبة ، والنظام الحربى .

كذلك أفدت من كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » لساويرس بن المقفع (الذى عاش حتى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / أواخر العاشر الميلادى) وهو من الكتب الهامة التى تناولت الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التى حدثت فى مصر ، من خلال تراجم

لبطاركة الكنيسة المصرية . وقد أشار الى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، وتسامح بعض الولاة والخلفاء ، وتشدد بعضهم .

وقد أفادنى فى الموضوع المتعلق بالنظام الادارى ، خاصة عن أحمد بن المدبر صاحب خراج مصر ، فقد أورد قيمة الجزية فى زمنه ، وتشدده فى جمعها ، ومعاملته القاسية للأقباط ، وكانت له رواية مخالفة للمصادر فى الأسلوب الذى اتبع مع أحمد بن المدبر عندما سجن ، وتحدث عن أحمد بن طولون ، ومعاملته للرهبان ، وإعفائه لهم من الجزية ، وصداقته لبعضهم .

كذلك أفادنى فى النظام الادارى . فقد أورد أسماء بعض الموظفين من الأقباط الذين تولوا الوظائف فى الفترة الخاضعة للبحث . واستعنت به فى النظام الحربى فقد أورد نصا فى غاية الأهمية عن نظام تشغيل الأقباط على السفن ، مما يوحى بالحالة المتردية التى كانوا عليها فى ذلك الوقت .

وبالاضافة إلى المصادر السابقة كتاب « المذمة فى استعمال أهل الذمة» لابن النقاش (أبو إمامه محمد بن على المتوفى عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م) وقد استعنت به فى موضوع النظام الادارى ، خاصة فيما يتعلق بتعيين أهل الذمة فى الوظائف . فالكتاب يعرض مواقف بعض الخلفاء والسلاطين والملوك من استخدام أهل الذمة فى الوظائف .

وكانت فكرة كتابة هذا الكتاب قد نشأت من أسئلة وجهت إلى ابن النقاش من بعض معاصريه عن فتوى استخدام أهل الذمة فى الوظائف الادارية ، فبدأ كتابه بذكر الآيات القرآنية ، وتلاها بالأحاديث النبوية التى تحرم استخدامهم ، ثم أخذ فى عرض مواقف بعض الخلفاء والسلاطين والملوك من استخدام أهل الذمة .

ومن الكتب التى أفادتنى كذلك كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار» لابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى المتوفى عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) خاصة فى الموضوع الخاص بالبناء والتشييد ، فهذا الكتاب فى نظرنا هو موسوعة عامة دقيقة لجغرافية مدينة الفسطاط ، منذ بنائها ، وذكر

خطط القبائل بها ، فهو يذكر كل الأبنية والدور والحارات والشوارع والأزقة الممكن ذكرها ، مع تحديد أماكنها بدقة ، هذا إلى جانب ذكر الجوامع . وكان له الفضل الأكبر فى تحديد الزيادات التى طرأت على جامع عمرو بن العاص، مع ذكر الوالى الذى تمت الزيادات فى ولايته ، كما أفادنى فى العمائر التجارية كالفنادق والقيساريات ، كذلك أفادنى فى موضوع التجارة بذكره للأسواق فى مصر .

ومن الكتب التى استعنت بها كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى (الأسعد بن مماتى المتوفى عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) فقد اعتمدت عليه اعتمادا كليا فى موضوع الزراعة ، وخاصة فيما يتعلق بأهم المحصولات الزراعية ، وأوقات غرسها ، وحصادها ، وأنواع الأراضى الزراعية ، وتعريفاتها ، ومساحتها ، ومقدار زيادة النيل ونقصانه .

كما استفدت منه فى تعريف بعض الوظائف الادارية التى تتعلق بالزراعة فى الفترة الخاضعة للبحث .

ومن كتب الفقه التى اعتمدت عليها وأفادتنى كتاب « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » للماوردى (أبو الحسن على بن محمد حبيب البصرى البغدادى المتوفى عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وقد استفدت به فى الموضوع الخاص بالاقطاع ، كما افادنى فى الموضوع الخاص بالجزية والخراج ، كذلك استعنت فى الموضوع الخاص بوظيفة المحتسب ، وفى النظام الحربى ، وخاصة ديوان الجند ، واستعنت به كذلك فى النظام القضائى وولاية المظالم.

هذا إلى جانب كتب الفقه الأخرى مثل : كتاب « الخراج » للقاضى ابو يوسف (يعقوب بن إبراهيم المتوفى عام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م)، وكتاب « الخراج » ليحيى بن ادم المتوفى عام ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م ، وكتاب «الأموال » لأبى عبيد (القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م) ، وكتاب « الاستخراج لأحكام الخراج » للحافظ بن رجب الحنبلى المتوفى عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م .

ومن الكتب التى أفادتنى كذلك كتب الحسبة مثل : كتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » للشيزرى (عبد الرحمن بن نصر المتوفى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ، وكتاب « معالم القربة فى أحكام الحسبة » لابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى المتوفى عام ٧٢٩ هـ /١٣٢٨ م) ، وكتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » لابن بسام المحتسب (محمد بن أحمد بن بسام عاش قبل عام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م) .

فقد استعنت بها فى الموضوع الخاص بوظيفة المحتسب من حيث تعريف طبيعة عمله ، والشروط التى يجب توافرها فيه ، واتخاذه مساعدين لمساعدته ، والشروط التى يجب توافرها فى هؤلاء المساعدين .

ومن كتب التراجم التى أفادتنى : كتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر المتوفى عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وقد امتاز هذا الكتاب بأنه يعد أشمل كتاب يضم تراجم للنحويين واللغويين ، لذلك فقد أفادنى عند ذكر النحاة فى مصر .

كذلك كتاب « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الاندلسى المتوفى عام ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) فهو مصدر مهم لتراجم النحاة ، وكان مما سهل على الإفادة منه أنه أفرد تراجم نحاة كل بلد على حدة .

ومن كتب التراجم أيضا كتاب « الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب» لابن فرحون (القاضى برهان الدين بن فرحون المالكى المتوفى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) وأهمية هذا الكتاب فى دراستى تكمن فى أنه أرخ لطبقات المالكية حتى عصر الموطف أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، مما سهل على معرفتهم بسهولة .

كذلك كتاب « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » للأدفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعى المتوفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) وأهمية هذا الكتاب فى دراستنا أن كاتبه مصرى وهو تراجم

خاصة بالعلماء فى صعيد مصر ، وهذا الكتاب يعتبر مصدرا للكثير من المصادر التى جاءت بعده .

هذا إلى جانب كتب الذهبى (شمس الدين أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى المتوفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) فى ذكر وفيات الكبار من الخلفاء والقراء والزهاد والفقهاء والمحدثين والعلماء وغيرهم . وهذه الكتب هى : « كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان » ،وكتاب « العبر فى خبر من غبر » ، وكتاب « تذكرة الحفاظ » ، وكتاب « معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار » .

ومن كتب الطبقات أيضا التى أفادتنى كتاب « الأغانى » للأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين بن محمد المتوفى عام ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) ، فقد أفادنى إفادة بالغة خاصة فى الشعر وذكر أبيات من أشعارهم .

ومن كتب الطبقات التى حوت فى تراجمها أخبارا تخص الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد فى الفترة الخاضعة للبحث : كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر المتوفى عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، وكتاب « معجم الأدباء» لياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادى المتوفى عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، هذا بالاضافة إلى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم المتوفى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م) وقد استعنت به فى ذكر الأطباء بمصر وأخبارهم .

الدراسات :

تعتبر دراسات الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف الأساس الذى اعتمدت عليه فى كتابة هذه الرسالة ، لصلتها الوثيقة بموضوعها . وقد تعرضت لها فيما سبق .

ومن الدراسات التى أفادتنى أيضا دراسات الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن خاصة « الفن الاسلامى في مصر » ، و« فنون الاسلام » ، و«فى الفنون الاسلامية » ، و « كنوز الفاطميين » و البحث القيم « بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية » . وقد اعتمدت عليها اعتمادا كليا فى موضوع الفنون فى مصر ، والتغييرات التى طرأت عليها بعد الفتح العربى ، كذلك اعتمدت عليها فى موضوع الصناعات مثل : صناعة المنسوجات ، وصناعة الزجاج ، وصناعة الخشب ، وصناعة الخزف وغيرها.

ومن الدراسات التى استعنت بها كذلك دراسات الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ، وخاصة « تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ويقع فى أربعة أجزاء ، ودراسة « النظم الاسلامية » (وهو تأليف مشترك مع آخرين) .

وقد استفدت بهذه الكتب فى الموضوع الخاص بالنظام القضائى ، والنظام الحربى ، والنظام الادارى ، كما استعنت بها فى الموضوع المتعلق بالأرض والفلاح فى مصر ، وطبقة الصناع ، وطبقة التجار .

ومن هذه الدراسات كذلك « تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » للدكتور عبد المنعم ماجد .

ويشمل النواحى الادارية والاجتماعية والاقتصادية والمالية والثقافية ، وقدأفدت منه فى النظام الادارى فى مصر ، وفى العادات والتقاليد ، وفى الحركة العلمية .

ومن هذه الدراسات التى أفدت منها « الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين ، فقد زودنى بمعلومات وافية عن الحركة العلمية والأدبية فى مصر .

ومن هذه الدراسات أيضا كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان ، خاصة كتابه « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » الذى أفادنى عند تناولى

حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى ، وكتاب « مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى » الذى أفادنى فى الحركة العلمية والأدبية بمصر وخاصة المتعلقة بالمؤرخين .

ومن الدراسات الهامة كتاب « الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن » للدكتور محمد كامل مرسى بك .

وقد أفادنى فى موضوع الملكية العقارية فى مصر منذ الفتح العربى ، وتطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية على مصر ، وتقسيمات الملكية ، ونظام قبالات الأراضى .

ومن هذه الدراسات أيضا كتاب « النقود العربية والاسلامية وعلم النميات » للأب أنستاس الكرملى . وفى الحقيقة أن أهمية هذا الكتاب تتمثل فى تجميعه لكل ما كتبته المصادر الاسلامية والدراسات الحديثة عن النقود مثل : « رسالة فى النقود » للبلاذرى (ت عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ، وما ورد فى « المقدمة » لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥) ، و « رسالة فى الدنانير المسكوكة مما يضرب بالديار المصرية » للقلقشندى (ت عام ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) ، وكتاب «النقود القديمة الاسلامية » للمقريزى (ت عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، وكتاب « تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال وبيان النقود المتداولة بمصر » لمصطفى الذهبى الشافعى ، وكتاب « النقود العربية » لعلى باشا مبارك .

كما تتمثل أهمية الكتاب فى التعليقات الضافية على هذه الكتب .

ومن الدراسات التى استعنت بها أيضا كتاب « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة » للدكتور عبد الله خورشيد . وهى من الدراسات الهامة التى حصرت أسماء القبائل العربية التى نزلت مصر ومناطق استيطانها ، وقد كان خير دليل لى فى مراجعة موضوع القبائل العربية ، كما اعتمدت عليه فى توضيح أسباب اختلاط القبائل العربية بالمصريين .

ومن الدراسات أيضا دراسة « الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي ٢٠ ـ ٥٦٧ هـ / ٦٤١ ـ ١١٧١م » للدكتور السيد طه السيد أبو سديرة . فقد أفدت منه فى موضوع الصناعة فى مصر .

ومن الدراسات التى أفادتنى دراسة « الحسبة فى مصر الاسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى » للدكتورة سهام مصطفى أبوزيد . وقد استعنت بها فى الموضوع الخاص بوظيفة المحتسب فى مصر .

كذلك دراسة « الشرطة فى مصر الاسلامية » للدكتور أحمد عبد السلام ناصف . وقد استعنت بها خاصة عند الكلام عن وظيفة صاحب الشرطة فى مصر .

ومن الكتب الهامة المترجمة التى استعنت بها كتاب « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » لادم متز وقد ترجمه الى العربية الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبوريدة وهو فى جزءين، ويتناول كافة النواحى الاقتصادية والمالية والاجتماعية والثقافية والادارية . وقد استعنت به فى النظام القضائى ، والحركة العلمية فى مصر ، كما استعنت به فى موضوع العادات والتقاليد خاصة الأعياد ، كما أفادنى فى الموضوع الخاص بالتجارة .

كذلك كتاب « أهل الذمة فى الاسلام » للدكتور أ . س . ترتون وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن حبشى . وهو من الكتب التى تناولت الحياة الاقتصادية والمالية والاجتماعية والثقافية والادارية ، وقد افادنى افادة بالغة خاصة فى النظام الادارى فى المجتمع المصرى ، حيث أمدنى بأسماء عديدة لموظفين بيزنطيين ، كما أفادنى فى موضوع البناء والتشييد خاصة بناء الكنائس ، واختلاف الآراء حول قرارات بنائها وهدمها.

فصل تمهيدى :

المجتمع المصرى قبل الفتح العربى

- النظام الادارى فى الدولة الرومانية ثم البيزنطية .
- النظام الحربى .
- المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى :

على الصعيد البشرى :

الرومان ـ الاغريق ـ اليهود ـ المصريين .

على الصعيد الطبقى :

طبقة ملاك الاراضى الزراعية .

طبقة الفلاحين .

طبقة الصناع .

طبقة التجار .

. الدين ونظام الرهبنة .

. الحياة الفكرية.

. الحياة الفنية.

. الحياة القضائية.

الفصل التمهيدى

المجتمع المصرى قبل الفتح العربى

ربما كانت البداية الصحيحة لمعالجة موضوعنا هى الكلام عن نظام الحكم فى مصر قبل الفتح العربى ، حتى يتسنى لنا تحديد الطبقات الاجتماعية التى كانت تحكم والطبقات التى لم تكن تحكم ، وحتى يتسنى لنا - فيما بعد - متابعة التغيير الذى طرأ على المجتمع المصرى بعد الفتح العربى .

فمن المعروف أن الحكم فى أى بلد من البلاد ، يكون عادة فى يد الذين يملكون من أهل البلاد ولكن الأمر اختلف فى مصر ، حيث وقع الحكم أولا فى يد الغزاة الرومان ، الذين استطاعوا أن يشرعوا لمصر نظاما للحكم تكون لهم فيه اليد العليا ، واستطاعوا به أن يخضعوها لسيطرتهم .

نظام الحكم :

عندما فتح العرب مصر فى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م ، كانت مصر تقع تحت سيادة الدولة البيزنطية ، فقد ضم الامبراطور اغسطس (اكتافيوس) Augustus (٣٠ ق . م - ١٤ م) مصر إلى الامبراطورية الرومانية فى عام ٣٠ ق . م ، ورأى أغسطس أن يضع لحكم مصر نظاما خاصا لما تمتاز به سائر الولايات الرومانية الأخرى من مركزها الجغرافى الهام وثروتها الطائلة.

فعندما قسمت الولايات الرومانية عام ٢٧ ق . م إلى ولايات خاضعة للسناتو ، وأخرى للامبراطور وقعت مصر ضمن الولايات الخاضعة للامبراطور ، واكتسبت مكانة ممتازة بين هذه الولايات ، فقد أ قيم عليها

حاكم ذو مرتبة رفيعة يدعى Praefectus ، وتقرر ألا يتقلد رجال السناتو مناصب إدارية فى مصر ، بل حظر عليهم زيارتها دون استئذان الامبراطور فى ذلك .

على أن هذا الوضع تغير فى العصر البيزنطى (٢٨٤ ـ ٦٤٠ م) ، فعندما أعاد دقلديانوس (Diocletianus) (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) تنظيم الولايات . ألغى التفرقة بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية (وعلى هذا الأساس وقعت مصر فى دوقية الشرق) ، كما فصل السلطة العسكرية عن المدنية ، وقسمت مصر الى ثلاثة أقسام هى :

(Aegyptus Jovia - Aegyptus Herculia - thebais) وبالنسبة للولاية الأولى (Aegyptus Jovia) ، فهى تشمل غرب الدلتا بما فيها الاسكندرية ، (وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الأولى فى مصر ، ولأن دقلديانوس اتخذ لنفسه لقب جوفيوس Jovius أى أنه بمثابة ممثل كبير الآلهة على الأرض) .

وبالنسبة للولاية الثانية (Aegyptus Herculia) ، فهى تشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى ، (وسميت الهرقلية نسبة الى اللقب الذى اتخذه شريك دقلديانوس فى ادارة الولايات الغربية Maximian Herculius) .

أما الولاية الثالثة (Thebais) ، فهى تشمل الصعيد جنوبى اسيوط وقد وضع كل من القسمين الثانى والثالث تحت إمرة حاكم يحمل لقب (Praeses)، ووضع القسم الاول الذى يشمل الأسكندرية تحت امره حاكم يحمل لقب (Praefectus Aegypti) أى حاكم مصر ، ويتمتع بسلطة أعلى من سلطة زميليه الآخرين ، ولكنه يخضع مثلهما لسلطة كونت الشرق ، والتى كانت مصر تابعة لادارته ، وكان حكام مصر الثلاثة موظفين مدنيين .

وفى خلال القرن الرابع تكونت ولاية رابعة هى (Augustamnica) من الأقاليم الشرقية ، ثم أضيفت ليبيا إلى مصر ، فأصبحت الولايات خمسا ، وغير اسم الولايتين الأولى والثانية ، فعرفت الأولى باسم (Aegyptus)، والثانية باسم (Arcadia) أما السلطة العسكرية ، فقد وضعت فى يد قائد يسمى (dux Aegypti) أو « دوق مصر ».

وفى عام ٥٥٤ م حدث تغيير فى الادارة على جانب كبير من الأهمية ، عندما أصدر جستنيان Justinian(٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) مرسومه الثالث عشر ، وفيه تمزقت وحدة مصر ، فلم يعد لحاكم مصر أى سيطرة على الولايات الأخرى التى وضعت كلها تحت الاشراف المباشر لحاكم عام الشرق ، وزود كل حاكم فى ولايته بسلطات عسكرية ومدنية ، وانقسمت مصر (فيما عدا ليبيا) منذ ذلك الحين إلى أربع ولايات متساوية فى المراكز وهى :

Aegyptus وعلى رأسها دوق .

Augustamnica وعلى رأسها دوق .

Arcadia وعلى رأسها كونت .

thebais ويديرها دوق .

وقسمت كل ولاية من هذه الولايات عدا (Arcadia) الى قسمين ، على رأس كل منهما مدير مدنى يسمى Praeses .

وهكذا حصل الدوق على سلطات واسعة فى إقليمه ، بجمعه بين السلطتين العسكرية والمدنية فى يده ، فأصبح بذلك الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة ، وأصبح ـ بالتالى ـ يمثل السلطة الامبراطورية أى أصبح نائبا للملك .

وكان من نتيجة وضع السلطة العسكرية والمدنية فى يد حاكم كل ولاية، أن زاد من تقسيم الدولة إداريا وعسكريا معا ، كما زاد من سلطان كبار الملاك الذين سيطروا على أقاليمهم سيطرة تامة ، ناهيك عن المنافسات الصغيرة التى نشأت بين هؤلاء الحكام . كما أن قوتهم العسكرية لم تكن قادرة على مواجهة أى خطر حقيقى من الخارج ، وإنما اقتصرت قوتها على القيام بأعمال البوليس ، أو قمع فتنة صغيرة محلية .

أيضا كان من نتائج تقسيم البلاد على هذا النحو ، وضعف الادارة المركزية بالتالى ، أن زاد شأن الكنيسة فأصبحت مالكة لمساحات كبيرة من الأراضى ، وذلك بفضل الهبات والأوقاف التى كانت تقدم لها ، كما أصبح للكنيسة نشاط كبير فى مجال التجارة ، هذا الى جانب أنها كانت تمتلك مستشفيات لعلاج المرضى وبيوتا لإيواء الغرباء واللاجئين .

هذا ـ على كل حال ـ فيما يتصل بالنظام الادارى فى مصر قبل الفتح العربى.

أما بالنسبة للجيش ، فتشير المصادر الى وجود نوعين من القوات العسكرية ، النوع الأول ويتمثل فى الحاميات العسكرية الرومانية ، والنوع الثانى ويتمثل فى الجيش الاقليمى .

وفيما يتصل بالحاميات العسكرية ، فإن اشتداد الحاجة إلى الأمن كانت قد تطلبت إقامة حامية عسكرية رومانية فى مصر ، لهذا وضع أغسطس فى مصر ما لا يقل عن ثلاث فرق رومانية ، فضلا عن القوات المساعدة الملحقة بها .

وفى عهد تيبيروس Tiberius (١٤ ـــ ٣٧ م) الذى خلف أغسطس فى الحكم ، سحب فرقة من الفرق الثلاث ، وذلك عندما وجدأن الحاجة ليست ملحّة لمثل هذا الجيش الضخم .

أما فيما يتصل بالجيش الاقليمى ، ونقصد به الجيش الخاص بكل إقليم ، فقد جرى تجنيد هذا الجيش من سكان البلاد ، ونلاحظ أنه لم يكن يخضع لقيادة موحدة ، فكل دوق يتولى قيادة الجند المرابطين بدوقيته ، وعليه أن يقاتل بمفرده ، فمثلا نجد أن دوق ليبيا لم يشترك فى القتال ضد المسلمين الا بعد أن استولوا على وادى النيل بأكمله ، وبعد أن تعرض لتهديدهم ، كذلك فعل دوق طيبة ، ولم يشترك فى الحرب ضد المسلمين إلا جنود دوقية مصر ، ودوقية أوجستامنيكا ، ثم اشترك بعد ذلك جند أركاديا .

وقد وصل حال هذا الجيش الى حد من الضعف لم يكن فى وسعه أن ينهض بأعباء الدفاع عن البلاد ، فقد اغفل التدريب والنظام العسكرى ، واشتغل كثير من الجند بالأعمال المدنية الى جانب مهنة الحرب ،وصاروا يستثمرون ما يملكون من منازل واراضى .

المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى :

لما كان من الثابت أن المجتمع المصرى قبل الفتح العربى لم يكن مجتمعا متجانسا بشريا ، وانما كان يتكون من عدة جنسيات مختلفة ، فربما كان المنهج العلمى السليم أن نتناول هذا المجتمع بالدراسة على صعيدين :

الصعيد الأول : هوالصعيد البشرى.

الصعيد الثانى : هوالصعيد الطبقى .

وبالنسبة للصعيد البشرى ، ووفقا لما ذكره الدكتور ابراهيم نصحى ، فان المجتمع المصرى فى ذلك الحين كان يتكون من العناصر الآتية : الرومان - الاغريق - اليهود - والمصريين .

وبالنسبة للرومان فقد كانوا يتكونون من رجال الحاميات والحكام ، ويتمتعون بمركز ممتاز فى المجتمع ، ولم يكونوا يخضعون إلاّ لكبار الحكام فى السلطة المركزية . على أنه يجب علينا أن نلاحظ أن غالبية المواطنين الرومانيين الذين تتحدث عنهم الوثائق التاريخية ، لم يكونوا رومانيين أصليين ، وانما كانوا من الاغريق أو المتأغريقين ، الذين اكتسبوا الحقوق المدنية الرومانية .

أما الاغريق فكانوا يكوِّنون العنصر الذى يلى العنصر الرومانى فى الأهمية . لقد كان الرومان ينظرون الى الحضارة الاغريقية نظرة احترام ، ولذلك منحوا الاغريق مزايا خاصة ، فخصصت لهم الوظائف التى تلى الوظائف الرئيسية ، هذا الى جانب اشتغالهم بالتجارة والصناعة وامتلاك الأراضى ، وقد استطاعوا الحصول على الحقوق المدنية الرومانية عن طريق الالتحاق بالفرق الرومانية الاضافية فى الجيش . وكان من أهم المزايا التى حصلوا عليها هى إعفاؤ هم من ضريبة الرأس التى كانت ترمز للعبودية، وابقاء اللغة الاغريقية لغة رسمية، واقتصر استخدام اللغة اللاتينية على الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى .

أما اليهود فكانوا أقل منزْلة من الاغريق ، رغم تمتعهم بنفس المزايا التى تمتعوا بها فى عهد البطالمة ، وإن كانو الم يمنحوا الحقوق المدنية فى الاسكندرية. وكانت الاسكندرية تمثل أكبر مركز لتجمع اليهود ، فقد كانوا يشتغلون بالتجارة بوجه خاص، وكانت الاسكندرية من أكبر أسواق العالم .

أما المصريون فكانوا يمثلون الطبقة الدنيا فى المجتمع ، وقد فرض الرومان عليهم كافة أنواع الضرائب .على أن زعماء الكنيسة المصريين كانوا يتمتعون بسلطان واسع ونفوذ كبير ، نظرا لوضعهم الدينى والاقتصادى كما سيأتى ذكره .

وقد برز من المصريين فئة عرفت باسم المصريين المتأغريقين ، وذلك لأنهم اختلطوا بالاغريق ، وحاكوهم فى لغتهم وملبسهم وأسمائهم ، وتميزوا على سائر المصريين بدفع ضريبة الرأس ، وقد امتلكوا الأراضى واشتغلوا بالحرف المختلفة .

هذا على كل حال فيما يتصل بالصعيد الأول ، وهو الصعيد البشرى .

أما ما يتصل بالصعيد الثانى ، وهو الصعيد الطبقى ، فنلاحظ أن المجتمع قد انقسم من الناحية الطبقية الى أربع طبقات :

الطبقة الأولى : هى طبقة ملاك الأراضى الزراعية .

الطبقة الثانية : هى طبقة الفلاحين .

الطبقة الثالثة : هى طبقة الصناع .

الطبقة الرابعة : هى طبقة التجار .

وفيما يختص بالطبقة الأولى وهى طبقة ملاك الأراضى ، نلاحظ أنهم كانوا ينقسمون الى قسمين: كبار الملاك ـ وصغار الملاك .

وبالنسبة لكبار الملاك ، فيهمنا فى البداية أن نعرف كيف نشأت هذه الطبقة ؟

لقد كان الملك فى العصر البطلمى ـ وفقا لآيدرس بل ـ هو المالك الوحيد للأرض من الناحية النظرية الا أنه لم يستحوذ عليها كلها ، فقد كان جزء كبير من أجود الأراضى يظل تحت إشرافه الفعلى ، وتلك كانت الأراضى الملكية ، ولكن الى جانب هذا الجزء وجدت صورة من صور الملكية الخاصة بدأت منذ أيام البطالمة الأولى ، وازدادت وضوحا فى أواخر عهد البطالمة ، ومن هذا النوع ضياع المعابد التى كانت تسمى بالأراضى المقدسة. أما النوع الثانى ، فهى الاقطاعات التى منحت للجنود المقيمين فى مصر ، فى مقابل الانتظام فى سلك الخدمة العسكرية . وقد عرف هؤلاء باسم أرباب الاقطاعات ، وكانت هذه الاقطاعات تمنح مدى الحياة فقط ، ثم أصبح الاقطاع يؤول الى أكبر الأبناء بعد وفاة الأب فأصبحت هذه الاقطاعات وراثية ، واكتسبت بذلك مظهر الملكية الخاصة ، ولكنها لم تكن ملكية كاملة ،

أى أن إمتلاك حق التصرف فيها لم يكن كاملا ليشمل الهبة والتنازل والبيع.

وهناك نوع ثالث ، وهوالضياع الكبيرة التى منحت لكبار الموظفين والمقربين للملك ، وكانت تمنح مدى الحياة فقط ويستردها التاج عقب الوفاة . وأخيرا هناك نوع رابع ، يسمى أراضى الامتلاك الخاص ، وتتألف عادة من البساتين ومزارع الخضروات والنخيل والكروم ، وكانت تمنح لاصحابها - أغلب الظن - بموجب عقود إيجار طويلة الأجل أو عقود وراثية ، وبرغم أن القانون كان يسمح بانتقال ملكية هذه الأراضى من شخص إلى آخر ، الا أنه لا يرجح أن أصحابها قد امتلكوها امتلاكا فعليا فى أي فترة من خلال عهد البطالمة ، ومعنى هذا أن أراضى الامتلاك الخاص لم تكن ملكية تامة بالمعنى المعروف .

وعندما انتقلت مصر الى العصر الرومانى ، بقيت الأراضى الملكية التى توءلف معظم الأراضى الجيدة كما هى وبنفس الاسم ، كما بقيت الأراضى المقدسة أيضا ، رغم أن جانبا كبيرا منها صادرته الحكومة .

أما أراضى الاقطاعات العسكرية ، التى أصبح أربابها وقتئذ يمتلكونها ملكية تامة ، فكانت لا تزال توءلف قسما منفصلا ، ولو أن الحكومة أوقفت منحها للعسكريين .

أما أراضى الضياع الكبيرة ، التى منحت فى العصر البطلمى لكبار الموظفين والمقربين للملك ، فكانت تقابلها فى العصر الرومانى بعض الضياع الكبيرة التى منحها الأباطرة فى صدر العصر الرومانى لأعضاء من الأسرة المالكة ، أو لنبلاء من الرومان ومواطنى الأسكندرية ، ولكن ، عن طريق المصادرة وغيرها من الطرق أدمجت كثير من هذه الضياع فى أملاك الامبراطور الخاصة ، التى أصبحت منذ ذلك الحين (أى فى العصر الرومانى) توءلف قسما من الأراضى تسمى أراضى الضياع تحت إشراف ناظر خاصة الامبراطور .

وقد شجع الرومان ملكية الأراضى الخاصة ، وزادت مساحتها ، لأنهم كانوا يفضلون إرساء الجهاز المالى والادارى على عاتق سكان يملكون عقارا

ثابتا يكفل اضطلاعهم بالمسئوليات ، ويضمن تحصيل التعويض منهم فى حالة حدوث عجز أو تقصير .

وكانت الحكومة الرومانية قد صادرت جانبا كبيرا من الأراضى ، وباعت بعضها بالمزاد ، بينما عرضت الأراضى المهجورة أو غير الجيدة للإيجار بشروط مرضية ، حتى تغرى الناس على إستئجارها واستصلاحها للزراعة .

ويتضح من ذلك أن الملكية الخاصة للأراضى ، ظهرت فى العصر الرومانى .

وسرعان ما ظهر نتيجة ذلك فى العصر البيزنطى ، حيث ساعد ذلك على زيادة عدد الضياع الكبيرة تدريجيا ، وظهور طبقة من كبار الملاك .

ويتضح من دراستنا لأوضاع هذه الضياع الكبيرة ، أنه كان هناك مصدران رئيسيان لزيادة مساحة هذه الأراضى ، وبمعنى آخر أن هذه الاراضى اتسعت على حساب نوعين من الأراضى : النوع أو المصدر الأول :

هو أراضى الدولة ، والنوع أو المصدر الثانى : هو أراضى صغار الملاك .

وبالنسبة للمصدر الأول ، فقد اخذت هذه الملكيات الكبيرة تتسع على حسابها ، بسبب ما صادف الحكومة من عقبات أدت الى عجزها عن زراعتها ، كما يقول الدكتور السيد الباز العرينى .

أما المصدر الثانى لاتساع الملكيات الكبيرة وهو أراضى صغار الملاك ، فيرجع السبب فى ذلك أن كبار الملاك كانو ا قد حصلوا قبل نهاية القرن الرابع الميلادى من الحكومة على حق جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم الخاصة بأنفسهم ، ودفعها لخزانة الولاية مباشرة دون وساطة الجباة المحليين .

ولما كان الكثيرون من الملاك الصغار قد أعجزهم دفع ما عليهم من الضرائب للدولة ، فقد اضطروا الى الدخول فى حماية كبار الملاك ، على أساس التنازل لهم عن أرضهم والعمل فيها كمستأجرين ، وخدمتهم فى

مقابل تولى كبار الملاك دفع الضرائب ، وهكذا نرى أنه فى الوقت الذى كانت تزداد فيه مساحة الملكيات الكبيرة ، كانت تختفى تدريجيا الملكيات الصغيرة ويتحول الملاك الصغار الى مستأجرين مربوطين بالأرض لا يختلف وضعهم عن وضع الأقنان . ومع أن الحكومة لم تكن راضية تماما عن انتشار نظام الحماية ، الاانها سلمت بالأمر فى عام ٤١٥ م ، وأصدرت مرسوما باحتفاظ أصحاب الأراضى بمقتضى نظام الحماية بأراضيهم ، فى مقابل دفع الضرائب ، مع إلغاء لقب «حامى ».

حتى اذا ماوصلنا الى القرن السادس ، كانت ظاهرة الاقطاعات الكبيرة قد استفحلت ، وأصبحت طبقة كبار الملاك على درجة عظيمة من القوة ، كما يدل على ذلك الحالة أوردها ايدرس بل ، وهى حالة عائلة أبيون Apion التى كانت تمتلك ضياعا فى أكسير ينخوس ، وكينوبوليتيس cyno-politês (قوص) ، وأرسينو يتيس Arsinoites (الفيوم) ، وقدانعكست ملكياتها الكبيرة وثروتها فى وضعها الاجتماعى واشتراكها فى السلطة والحكم ، فتولى أفرادها أرقى المناصب الادارية ، كما تولى أحدهم منصب القنصلية فى الامبراطورية ، وتشير المصادر الى أنها كانت تمتلك جيشا خاصا مؤ لفا من الجنود المأجورين (البقلار) Buccellarii ، كماأنشأت سجونا خاصة ونظاما للبريد ومستشفيات ، وحمامات شعبية ، كما شيدت كنائس وأديرة ، وكانت بلا شك تشرف على هذه المنشآت ، بل إنها كانت تملك أسطولا من المراكب النيلية ، وكان لديها عدد كبير من الموظفين والكتبة والمحاسبين ومحصلى الضرائب ، وكانت لاتدفع ضرائبها لخزانة الولاية ، بل للاسكندرية مباشرة .

واذا أضفنا الى ذلك نظام الحماية الذى سبق لنا الكلام عنه ، والذى كان من نتيجته تحول الملاك الصغار إلى أقنان ، فنحن إذن أمام نظام يشبه النظام الاقطاعى فى أوربا ، وأمام أسرة تشبه الأسرة الاقطاعية ، وهذا ما يقوله الدكتور مصطفى العبادى .

على أن «أيدرس بل» يحدد لنا بدقة الفرق بين هذا النظام فى مصر والاقطاع فى الغرب ، فيذكرأن نظام الاقطاع فى الغرب ، كان نظاماً عسكرياً

فى جوهره ، يحصل فيه الاقطاعى الصغير على أرضه طالما كان يؤدى الخدمات لسيده فى الحرب ، بعكس ملكية الأراضى فى مصر التى لم تكن مشروطة بالخدمة العسكرية .

أيضا يرى أن الضياع فى الغرب كانت تتألف من أراضى متجاورة ، بعكس الضياع فى مصر التى كانت تتألف من أراضى متناثرة فى أنحاء البلاد ، فمثلا نجد أحيانا جزءاً من أراضى إحدى القرى تابعا لضيعة من هذه الضياع ، بينما نجد الجزء الآخر فى يد ملاك صغار غير ملزمين بتقديم خدمات لها . وأخيراً يرى أن الأمير الاقطاعى فى الغرب كان يعيش فى قصره وسط مزارعه ، بينما كان المالك الكبير فى مصر يقيم فى منزله أو قصره الكائن بعاصمة الاقليم . وينهى « بل » هذه المقارنة بقوله : « إن التشابه فى الوضع بين هؤلاء الملاك ، وبين أمراء الاقطاع فى الغرب ، يبرر أن نطلق عليهم إسم الملاك شبه الإقطاعيين » .

وفى رأينا أن وجود بعض سمات النظام الاقطاعى فى أوربا فى مجتمع من المجتمعات ، وفى أى حقبة زمنية من الحقب ، لا يعنى أن هذا النظام هو نظام اقطاعى على النمط الغربى ، لأننا سوف نفتقد دائما فى هذا المجتمع الهرم الاقطاعى الذى فى قمته الملك ، وتحته سلسلة طويلة من الاقطاعيين الذين يتدرجون نزولا فى الثروة والقوة والنفوذ ، وفى سفح هذا الهرم يوجد الأقنان.هذا إلى جانب أنه لا يوجد لدينا أى دليل على أن هذه الأسرة وغيرها من الأسر ، قد حصلت على أراضيها فى شكل إقطاع من إقطاعى أكبر .

لكن يجب أن نلاحظ أن نمو هذه الملكيات الكبيرة ، لم يقض نهائيا على الملكيات الصغيرة فقد استمرت قرى تتمتع بحريتها ، ويمتلك أرضها صغارالملاك الذين حصلوا لأنفسهم ـ بمسئولية جماعية بينهم ـ على حق دفع ضرائبهم للدولة مباشرة ، وظلت هذه القرى موجودة حتى الفتح العربى لمصر .

أيضا عملت الكنيسة على إستغلال أموالها فى التجارة الخارجية ، وقد بلغ من ثراء الكنيسة أنها كانت تمتلك أسطولا تجاريا فى البحر المتوسط .

ومعنى هذا أن الكنيسة القبطية فى مصر كانت تحتل وضع الكنيسة فى أوربا كمالك كبير ، وقد انعكس وضعها الاقتصادى بالتالى على وضعها السياسى ، فاستطاعت الكنيسة أن تنافس كبار الملاك بما تمتلكه من ضيعات واسعة ، بل أصبح فى استطاعتها مقاومة أى جور من جانب الحكومة .

وقد انعكس هذا على نفوذ رئيس أساقفة الاسكندرية فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، حيث اعترف له مجمع نيقية بحق السيادة الدينية ، فجعل له السلطة على أساقفة مصر وليبيا وبرقة ، وصار له ما لأسقف روما من الامتيازات والحقوق فى رئاسة الأساقفة .

والأكثر من ذلك أن الكنيسة كان لها قضاء خاص بها ، وكان يحق للمتخاصمين فى الأمورالمدنية أن يلجأوا باختيارهم إلى تحكيم الأسقف ، وهكذا صار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام .

أما بالنسبة لصغار الملاك ، فقد رأينا كيف زادت الأعباء المالية عليهم ، فى الوقت الذى استطاع فيه كبار الملاك بنفوذهم تخفيف ما هو مقرر من الضرائب على أراضيهم ، ونتيجة لذلك لم يجد صغار الملاك أمامهم إلا أحد طريقين :

إما أن يفروا من قراهم . ولكن الحكومة لم تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من نواحى البلاد المختلفة ، بل أخذت قيمة هذه الضرائب تزداد على من بقوا فى بلادهم ، بنسبة الذين يفرون منها .

وإما ـ كما ذكرت سابقا ـ أن يطلبوا حماية أحد كبار الملاك فى نظير تنازلهم عن أراضيهم لهذا المالك أو السيد الكبير ، وهكذا تحول المالك الصغير من مالك حر إلى تابع .

وللتخلص من هذا الوضع السيىء ، سعت بعض القرى إلى أن تطلب من الامبراطور أن يمنحها حق الجباية الذاتية . على أن القرى كانت تفقد هذا الحق إذا عجزت عن تحصيل ضرائبها كاملة. هذا على كل حال فيما يتصل بطبقة ملاك الأراضى .

أما ما يتصل بطبقة الفلاحين ، فقد انقسمت هذه الطبقة إلى فئتين :

الفئة الأولى : مزارعو الضياع الكبيرة .

والفئة الثانية : المزارعون الأحرار ، وقد انقسمت هذه الفئة بدورها إلى نوعين :

ملاك ومستأجرين لدى ملاك متوسطين .

وبالنسبة لمزارعي الضياع ، فقد وصفهم « بل » بأرقاء الأرض . وقد بلغ من شدة ارتباطهم بالأرض أن أصبحوا من مقوماتها ، إذ استقروا فيهابنسائهم وأطفالهم وماشيتهم ومتاعهم ، ولم يكن بوسعهم أن يغادروها .

ولعل هذا الوضع كان شبيها بأوضاع الأقنان فى أوربا فى العصور الوسطى .

أما بالنسبة للمزارعين الأحرار بنوعيهم ، فقد كان وضعهم أسوأ من وضع مزارعى الضياع الكبيرة ، فقد كانوا يدفعون ضرائبهم لمديرى المقاطعات ، الذين كانوا يختارون من بين الأسر النبيلة مثل أسرة أبيون - التى تناولت أوضاعها سابقا - كما أن المالك الكبير كانت مصلحته تقتضى أن يحرص على العناية والاهتمام بمزارعيه ، بينما لم يلاقوا هم من أحد مثل هذه الرعاية ، وفى الوقت نفسه كانوا مربوطين بالأرض ، فقد منعوا من مبارحتها لصالح الدولة ، وحين ضاقت الدولة بفرار الفلاحين ، سواء الأجراء أو المزارعين من القرى هربا من ضريبة الرأس ، أصدرت القوانين التى تحرم إنتقال الفلاح من قريته ، وذلك حين تضمن الدولة جمع ضرائبها، وبذلك فقد الفلاح حريته فى الحركة والانتقال وإرتبط بالأرض .

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة الصناع ، وكان المشتغلون بالصناعة فى مصر هم - كما تروى المصادر التى بين أيدينا - من القبط ، الذين كان لهم الفضل فى حفظ الصناعات فى البلاد ، كما يذكر « بتلر » .

وعلى أية حال ، فقد كانت الدولة تحدد عدد المشتغلين بكل حرفة فى كل مدينة أو قرية على حسب ما تقتضيه حاجات البلاد ، وكان هؤلاء الصناع يحصلون على ترخيصات عمل من الدولة سواء كانوا أفراداً أو جماعات ،

كما كانت تتقاضى منهم الضرائب ، وكان فى وسع هؤلاء تأجير حق إحتكار تلك الصناعات لغيرهم .

ويلاحظ أن الدولة كانت قد تخلت عن أغلب الصناعات التى كانت تحتكرها دولة البطالمة ، تشجيعا للمجهودات الخاصة .

وكانت الدولة تحدد قيمة الضريبة وفقا لنوع الصناعة من جانب ، والمكان الذى تزاول فيه من جانب آخر ، وكانت تقدر قيمتها سنويا .

وكان لهؤلاء الصناع نقابات ، وكانت هذه النقابات هى المسئولة عن سد حاجات الحكومة ، وعن تأدية الضرائب المفروضة على أعضائها الذين ارتكبوا مخالفات ولم يتموا أعمالهم .

وقد اشتغل هؤلاء الصناع فى كثير من الصناعات التى كانت تشتهر بها مصر ، ومنها صناعة المنسوجات ، وصناعة الزجاج ، وصناعة الورق ، وصناعة بناء السفن ، هذا إلى جانب صناعة العطور والتوابل .

وبالنسبة لصناع المنسوجات ، نلاحظ أن انتشار المسيحية بينهم ، قد أثر على طابع هذه الصناعة ، إذ اصطبغت بالصبغة المسيحية .

أما صناع الزجاج ، فيستدل من تأخر مستوى الزجاج المصرى الذى عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة الفيوم ، على أن مستوى العاملين فى هذه الصناعة قد أخذ يتدهور .

وبالنسبة لصناع الورق ، فيبدو أن رواج صناعة الكتب من رق الجلد ، قد أثر على رواج صناعاتهم ، وإن استمر تصدير الورق بكميات كبيرة إلى الخارج كما كان الحال من قبل .

أما الطبقة الرابعة فهى طبقة التجار ، وقد كانت هذه الطبقة تتمركز فى الأسكندرية ، التى كانت تعتبر أكبر مركز تجارى فى العالم بأسره .

وتكونت هذه الطبقة خاصة من اليهود الذين اشتهروا باشتغالهم بالتجارة ، ومن الروم والأقباط وأيضا من عناصر أخرى مثل السوريين .

وفى عهد أغسطس ، كان لهذا الطبقة شأن عظيم ، كما زادت أموالهم زيادة ملحوظة ، وذلك عندما أعلن سياسة حرية الاقتصاد ، فقد سمحت هذه

السياسة لأثرياء التجار فى مصر أن يستثمروا أموالهم فى التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل .

ونتيجة لذلك زادت تجارة الشرق زيادة ملحوظة ، فكانت الأساطيل تعود من الهند وغيرها محملة بأغلى البضائع إلى مصر ، ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد ، وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها ، وحين تصدر منها .

وحدث انتعاش ملحوظ فى التجارة ، يظهر من كثرة عدد السفن التى كانت تعمل فى تجارة الهند الشرقية ، فقد بلغت أكثر من مائة وعشرين سفينة ، كما زاد حجم السفن ، وأصبحت المستخدمة فى البحار الشرقية من احجام أكبر وقدرة أكثر فى سرعة الملاحة .

إلا أن هذه الرحلات كانت كثيرة التكاليف ، نظراً لانتشار القرصنة فى هذه المناطق ، حتى إن السفن التجارية كانت تسير عادة فى حراسة سفن مسلحة ، لذلك كان من الطبيعى أن يرفع التجار أسعارهم ليعوضوا تكاليفهم وخسائرهم .

وهكذا تمكن كثير من الرأسماليين فى الأسكندرية ، من مضاعفة ثرواتهم ، خاصة اذا علمنا أن البضائع الشرقية كانت تباع فى الغرب بمائة مثل ثمنها الاصلى .

ويكفى للدلالة على مابلغته هذه الطبقة من شأن عظيم ،أن نذكر أن بعضهم قد تمكن من الوصول إلى أرقى المناصب فى القصر الامبراطورى فى روما، كما أن احدهم قد تمكن من أن يقود ثورة ناجحة فى الإسكندرية تأييداً لإحدى الملكات فى القرن الثالث ، وأن هذا الشخص قد تمكن من تسليح جيش كامل من دخله من تجارة البردى والصمغ العربى .

وفى العصر البيزنطى يبدو أن تجار الإسكندرية قد نجحوا فى المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية ، فاستمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند ، كما امتدت خطوط الملاحة من الإسكندرية إلى جميع الموانىء الرئيسية فى البحر الأبيض المتوسط ، خاصة وأن الدولة قد تركت

هذه التجارة حرة فى أيدى الافراد ، باستثناء الجزية التى كان على مصر إرسالها الى القسطنطينية .

ويجب هنا أن نشير إلى أن صادرات مصر قد انقسمت الى نوعين:أحدهما للتجارة ،والآخر هو الضريبة النوعية التى كان على مصرأن تدفعها سنويا لروما ثم القسطنطينية فيما بعد ، وكان أهم مقوماتها القمح .

وبالنسبة للتجارة ، فقد كان التجار يقومون بتصدير القمح والكتان والبردى والعاج والعطور والتوابل ، أماالزجاج فلم يعد يصدر فى العصر البيزنطى ، وذلك لتدهور مستواه كما ذكرنا من قبل ، كما أن تجارة الورق قد تأثرت بالاقبال على استخدام رقوق الجلد ، وكان التجار فى مصر يستوردون المعادن (خاصة الفضة والصفيح) والخمور والحرير والعطور والتوابل ، من أجل صناعتها محليا، واعادة تصديرها .

وفى مجال النشاط المالى ظهر ما يعرف بالقروض المالية من الخارج التى مارسها كبار المولين ، وقد كان لهؤلاء المولين مكاتب فى الإسكندريه ، حيث يستطيع المدين أن يدفع المبلغ المقترض بالاضافة الى الفا ئدة المقررة. ويدلل الدكتور مصطفى العبادى على ذلك بوثيقة بردية من ا لقرن السادس الميلادى فيها ذكر لمصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال فى القسطنطينية بفائدة ٨٪ ، ويرد الدين فى الإسكندرية ، ويرى أن هذا المكتب يقوم بوظيفتين ، الاولى عقد الصفقات التجارية ، والثانية القيام بأعمال البنوك الدولية ، فالمبلغ الذى سيدفعه المدين المصرى فى الإسكندرية لم يكن ليرسل الى القسطنطينية ، وانما كان يبقى فى الاسكندرية ليستغل فى عقد الصفقات التجارية .

واخيرا يجب الا نغفل نشاط الكنيسة فى مجال التجارة ، وخاصة التجارة الخارجية ، فقد كانت تمتلك أسطولا من السفن التجارية الذى يعمل لحسابها الخاص .

والسؤال الذى يفرض نفسه الان :هو هل يمكن أن نعتبر هذه الطبقة التجارية طبقة بورجوازية كتلك التى نشأت فى أوربا ؟

للاجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نقوم بعمل مقارنة بين الطبقة التجارية التى نشأت فى مصر ، والطبقة البورجوازية التى نشأت فى اوربا .

نلاحظ فى البداية أن الطبقة البورجوازية فى اوربا قد ظهرت من بين أدنى الطبقات فى المجتمع الاقطاعى، أى من الاقنان الذين لم يكن فى حيازتهم أى أرض يزرعونها ،فاضطر وا للعمل كأجراء فى أوقات الحصاد، أو كمرتزقة فى الجيش ، كما اتجهواالى التجارة لتفتح لهم بابا للربح .

أما فى مصر ، فان طبيعة موقعها الجغرافى جعلهاأكبر مركز تجارى فى العالم ، لذلك نشأت هذه الطبقة نشأة طبيعية ، وتكونت من اليهود خاصة والروم والسوريين وغيرهم الى جانب الأقباط .

هذا إلى جانب أن النقابات الطائفية التى ظهرت فى اوربا نشأت لتخدم مصالح طبقتها ، أى لتؤمن أعضاءها من حوادث الحريق وغرق السفن وغيرها من الكوارث ، كما كانت تفرض على أعضائها أن يمدوا يد المساعدة لزملائهم فى حالات المرض والكوارث والسجن .

وذلك بعكس النقابات فى مصر، فمثلا كانت نقابات الصناع – كما رأينا– مسئولة عن سد حاجات الحكومة من العمال ، وتأدية الضرائب المفروضة على أعضاء النقابات الذين ارتكبوا مخالفات ولم يتموا أعمالهم ، وبالتالى لم يكن لها نفس الدور الكبير الذى لعبته نقابات أوربا ، وذلك لأن هذه النقابات كانت جزءا من النظام ، وليست خارجة عليه كما هو الحال فى اوربا .

كذلك فقد ارتبط ظهور الطبقة البورجوازية فى أوربا بظهور المدن الجديدة ، بمعنى أن هذه الطبقة هى التى أنشأت المدن الجديدة.

بعكس الوضع فى مصر ، فان مركز مدينة الاسكندرية التجارى هو الذى أوجد هذه الطبقة بالفعل .

أيضا يجب الاشارة إلى أن ظهور الطبقة البورجوازية فى أوربا ، أدى إلى صراع تاريخى مع الطبقة الاقطاعية الحاكمة .

بعكس الوضع فى مصر ، فلم يحدث أى تصادم مع الطبقة الاقطاعية ، وذلك لاختلاف وضع الطبقة شبه الاقطاعية فى مصر عن وضعها فى أوربا ، فقد كانت فى أوربا هى التى تحكم ، ولكنها فى مصر كانت جزءا من الطبقة الحاكمة التى تتكون أساساً من الرومان .

كذلك فإن ظهور الطبقة البورجوازية فى أوربا أدى الى تناقض ومصادمات بينها وبين رؤساء الأديرة والأساقفة ، لأن الكنيسة كانت جزءا من الطبقة الاقطاعية .

وذلك بعكس الوضع فى مصر ، التى لم يحدث بها أى تصادم بين هذه الطبقة والكنيسة ، بل نلاحظ أن الكنيسة كان لها نشاط كبير فى التجارة ، وتمتلك أسطولا من السفن التجارية الذى يعمل لحسابها الخاص .

وأخيرا يجب أن نشير إلى أن ظهور الطبقة البورجوازية الجديدة فى أوربا ، قد أدى الى تغير وجه الحياة فيها ، فقد أدى تغير علاقات الإنتاج إلى انهيار النظام الاقطاعى بكل سماته .

بعكس الوضع فى مصر ، فقد ظهرت الطبقة التجارية جنبا إلى جنب مع الطبقة شبه الاقطاعية ، وذلك لأنها كانت جزءا من النظام ، وليست انقلابا عليه كما ذكرنا .

وبعد هذه المقارنة ، يتضح لنا أن الطبقة التجارية التى نشأت فى مصر تختلف عن الطبقة البورجوازية التى نشأت فى أوربا . ومع ذلك نستطيع أن نطلق عليها اسم الطبقة البورجوازية من ناحية أنها طبقة تجارية، وكانت تعيش فى المدن .

وبعد هذا العرض للمجتمع المصرى وتركيباته الطبقية وعلاقاته الاقتصادية ، نرى أن المجتمع المصرى كان مجتمعا يخضع لنظام انتاجى لا هو نظام إقطاعى ولا هو نظام بورجوازى وإنما هو خليط .

تعرضنا فى الصفحات السابقة لطبقات المجتمع المصرى وعلاقات الملكية، ونتناول هنا انعكاسات ذلك على الحضارة أى على الدين واللغة والفكر والدستور .

الدين :

وبالنسبة للدين ، لما كانت الدولة البيزنطية تسيطر على مصر وبالتالى على علاقات الملكية ، وكان دين الدولة الرسمى فى بداية تاريخ هذه الدولة هو العقيدة الوثنية ، لذلك فإن إنتشار المسيحية فى مصر قد صاحب حركة إضطهاد واسعة للمسيحيين وخاصة فى عهد دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) . فقد أصبح المسيحيون يكونون عنصرا غريبا نافرا بين مواطنى الامبراطورية ، لذا كان من الضرورى أن تتخذ الاجراءات اللازمة لإدماجهم أو استئصالهم ، فكان هذا الاضطهاد هو أعنف اضطهاد تعرض له المسيحيون ، حتى إن الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة لا زالت تورخ الأحداث بعصر دقلديانوس الذى تسميه عصر الشهداء .

على أن هذا الوضع لم يلبث أن تغير عندما اعترف الامبراطور قسطنطين الأول Gonstantinus 1 (٣٢٣ ـ ٣٣٧ م) بالمسيحية دينا مسموحا به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية ، وبذلك تخلص المسيحيون فى مصر من الاضطهاد الدينى .

ولم يلبث التغيير الذى بدأه قسطنطين أن اكتمل فى عام ٣٨٠ م عندما اصدر الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) مرسوما باعتبار المسيحية هى الدين الرسمى الوحيد فى جميع أنحاء الأمبراطورية الرومانية .

وبذلك أصبحت الوثنية دينا غير معترف به فى مصر ، وبالتالى بدأت مرحلة من الاضطهاد الدينى وقع فى هذه المرة على الوثنيين ، فقد أخذ المسيحيون يعملون على القضاء على الوثنيين ونشر دينهم بنفس القسوة التى حاول بهاأنصار الوثنية القضاء على المسيحية .

على أن المسيحيين أنفسهم ما لبثوا أن وقعوا تحت اضطهاد دينى من نوع آخر ، ففى ذلك الحين كانوا قد دخلوا فى خلاف دينى حول تفسير طبيعة المسيح عليه السلام وصفته ، وذلك عندما دب الخلاف بين زعيمى المسيحيين فى مصر : اثنازيوس Athanasius (٣٢٨ ـ ٣٧٣ م) ، وأريوس Arius (ت ٣٣٦ م) .

فقد كان من رأى أريوس الذى جهر به فى عام ٣١٨ م ، أن المسيح عليه السلام (الابن) له طبيعة مختلفة عن طبيعة الاله (الأب) ، باعتبار أن المسيح له بداية ، فى حين أن الاله ليس له بداية فهو قديم وأبدى .

وقد صدم هذا الرأى الكثير من رجال الكنيسة فى الاسكندرية ، الذين كانوا يعتقدون أن الابن مثل الأب قديم ودائم ، وانهما من طبيعة واحدة ، وكان على رأسهم الأسقف اسكندر Alexandrus (٣١١ ـ ٣٢٨) ، أسقف كنيسة الاسكندرية ، الذى عقد مجمع فى الاسكندرية عام ٣١٩ من القساوسة فى مصر وليبيا ، وأصدروا استنكارا لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة .

وقد دعا الامبراطور قسطنطين Constantinus (٣٢٣ ـ ٣٣٧ م) إلى عقد مجمع دينى يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة فى الشرق والغرب لوضع حد لهذه الانقسامات العقائدية ، وكان هذه المجمع هو مجمع نيقيا (Nikaia) الذى عقد فى عام ٣٢٥ م بآسيا الصغرى ، وقد اقترح فيه قسطنطين وصف العلاقة بين الأب والابن بأنهما من طبيعة واحدة ، وكان ذلك لكسبه ولاء الأكثرية التى رفضت عقيدة أريوس ، كما قرر المجلس حرمان أريوس من الكنيسة وطرده من مصر مع اثنين من أتباعه الذين ظلوا على عقيدته .

إلا أن قسطنطين وجد أن الأريوسية لم تمت بنفى زعيمها ، فأصدر عفو عن أريوس ، وأمر بإعادته إلى منصبه فى الاسكندرية ولكن الاسقف اسكندر رفض إجابة طلب الامبراطور، وبذلك بدأ الخلاف بين كنيسة الاسكندرية والقصر الامبراطورى.

وعندما تولى أثنازيوس الأسقفية خلفاً للأسقف اسكندر فى عام ٣٢٨م، أصر أيضا على رفض طلب الامبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الاسكندرية ، مما دفع الامبراطور قسطنطين الى عقد مجمع دينى فى مدينة صور عام ٣٣٥ م لمحاكمة أثنازيوس ، وفيه قرر المجمع عزل أثنازيوس من منصبه ونفيه من مصر .

وهكذا تدخل قسطنطين ومن أتى بعده من الأباطرة فى هذه المنازعات الدينية ، وعقدوا من أجل ذلك المجامع الدينية .

ولم يلبث أن ظهر خلاف جديد بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية منذ حوالى القرن الخامس الميلادى دار حول طبيعة المسيح من الناحيتين الالهية والبشرية ، عندما ذكر أسقف القسطنطينية فى عام ٤٢٨م وهو نسطور (Nestorius) (ت ٤٥١م) أن للمسيح طبيعة بشرية الى جانب طبيعته الآلهية . فانقسمت الكنائس المختلفة إلى فريقين :

فريق يؤيد الدعوة النسطورية ، وهم اتباع مذهب الدوفيزيت (Duophysite) الذين نادوا بأن للمسيح طبيعتين ، طبيعة بشرية إلى جانب طبيعته الالهية .

وفريق يعارضها أشد المعارضة ، وقد تمثل هذا الفريق المعارض فى مصر وسوريا وأرمينيا ، وهم أتباع مذهب المونوفيزيت (Monophysite) الذين نادوا بأن للمسيح طبيعة واحدة وهى الطبيعة الالهية .

وفى عهد الامبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠ ـ ٤٥٧م) بلغ الخلاف الدينى أقصاه بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ، عندما دعا إلى عقد مجمع دينى فى خلقدونية Chalkedon بآسيا الصغرى عام ٤٥١م ، وأقر هذا المجمع مذهب الطبيعتين ، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان ديوسقورس Dioscorus (٤٤٤ ـ ٤٥١م) بطرك الاسكندرية من الكنيسة .

وبالطبع لم يقبل ديوسقورس ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية ، مما أدى إلى انفصالهم عن كنيسة القسطنطينية ، وأطلقوا على انفسهم « الأرثوذكسيين » Orthodos أى أتباع الديانة الصحيحة ، كما عرفت كنيستهم باسم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أو فيما بعد بالكنيسة اليعقوبية[١] . أما اتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين Melkites ، نسبة الى كلمة « ملك » وذلك لاتباعهم مذهب الامبراطور. على كل حال فباتباع كنيسة القسطنطينية وهى كنيسة الدولة البيزنطية صاحبة السيادة على مصر مذهب الطبيعتين ، واتباع الكنيسة المصرية المذهب المخالف لها وهو مذهب الطبيعة الواحدة ، عاد التناقض القديم الذى أدى فى البداية إلى اضطهاد الوثنيين للمسيحيين ، ثم اضطهاد المسيحيين للوثنيين فيما بعد ، فبدأت دورة جديدة من الاضطهاد الدينى اتخذت فى هذه المرة شكلا مذهبيا .

ولما تم تتويج هرقل Heraclius (٦١٠ ـ ٦٤١م) امبراطورا فى عام ٦١٠م ، رأى أنه لابد من اعادة الوحدة إلى الكنيسة ، فعقد مجمعا دينيا وأصدر صورة توفيق Mono tha lma تقضى بان يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بان له ارادة واحدة .

---

(١) الكنيسة اليعقوبية نسبة إلى يعقوب البرادعى (Jacob Baradeus) أسقف مدينة الرها المونوفيزيتى فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، الذى زار مصر ضمن بلاد الشرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية .

ولتنفيذ قراراته أرسل الامبراطور فى سنة ٦٣١م قيرس Cyrus إلى مصر وأعطاه كل السلطات التى تساعده فى تأدية مهمته ، سواء أكانت سلطات سياسية أم دينية .

وما أن قدم قيرس إلى الاسكندرية فى سنة ٦٣١م ، حتى بدأ الاضطهاد الأعظم ، فقد كان يعرض على الناس أحد امرين إما الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد .

وقبل وصول قيرس إلى الاسكندرية هرب البطرك القبطى بنيامين توقعا لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جرّاء فرض المذهب الجديد . وقد فاق اضطهاد قيرس للأقباط كل اضطهاد ، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب الى المذهب الجديد ومنهم بعض الاساقفة . ومن هنا فقد صحت مقولة « إن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين إلى الدولة البيزنطية » .

ويرى د . ابراهيم نصحى أن تدخل الأباطرة فى الشئون الدينية واضطهادهم للمسيحيين فى مصر ، جعل رجال الدين ليسوا قادة دينيين فحسب ، بل أيضا زعماء وطنيين فى مقاومة الاباطرة ، وبذلك اتخذت الخلافات الدينية طابعا وطنيا .

ومما يدل على أن المسألة فى مصرتطورت إلى مسألة قومية أو امتزجت بها ما يذكره ساويرس عن رهبان أحد الأديرة بأنهم لم يحيدوا عن المذهب الأرثوذكسى ، ولم يقبلوا المذهب الخلقدونى لانهم مصريون .

على كل حال فان هذا الصراع الدينى الطويل لم يكن ليتم لولا قوة الكنيسة القبطية فى مصر ، فقد عرفنا سابقا أن الكنيسة القبطية كانت مالكة لمساحات كبيرة من الأراضى ، كما كانت تمتلك اسطولا تجاريا فى البحر الابيض المتوسط ، وبالتالى استطاعت أن تنافس كبار الملاك بما تمتلكه من ضيعات واسعة ، وعرفنا أنه كان فى استطاعتها أن تقاوم أى جور من جانب الحكومة .

نظام الرهبنة :

وقد كانت الخلافات الدينية والمذهبية والاضطهاد الدينى فى مصر سببا - كما تذكر جميع المراجع - فى نشأة نظام الرهبنة الذى يعتبر أهم نظام إستحدثته مصر فى الديانة المسيحية .

والرهبنة تعنى الانعزال والانفراد فى الأماكن النائية ، وتدريب النفس على ترك متاع الدنيا ، وتطهير الروح واحتقار الجسد والاعراض عن شهواته، اعتقادا بأن ذلك يقرب الانسان الى ربه ، ويكفل له الخلاص والنجاة.

وكانت الرهبنة بمعناها هذا معروفة فى العالم قبل ظهور المسيحية ، فقد مارسها البوذيون ، كما عرفها قدماء المصريين ، وايضا عرفت الديانة اليهودية الرهبنة ، كما دعت الفلسفة الافلاطونية الحديثة الى التقشف واذلال الجسد والزهد والبعد عن المجتمع .

واختلف المؤرخون فى أسباب نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر ، فرأى بعض المؤرخين أنها تأثرت بالبوذية ، ورأى البعض الاخر أنها تأثرت بالرهبنة اليهودية ، ورأى فريق ثالث من المؤرخين أنها تأثرت بالفلسفة الافلاطونية ، على أن البعض يرى أن أصول الرهبنة وجدت فى الديانة المسيحية نفسها لأن الأناجيل دعت الى حياة التنسك .

وهكذا لم تكن فكرة الرهبنة جديدة فى العالم القديم ، وانما الجديد هو انتشار هذه الرهبنة فى مصر بالذات ، والجديد ايضا هو اتخاذ الرهبنة شكلا تنظيميا ، ومؤسسات وأديرة حتى اصبحت جزءاهاما من الديانة المسيحية .

وينسب كثير من المؤرخين انتشار الرهبنة الى أسباب كثيرة بعضها اقتصادى مثل : سوء الاحوال الاقتصادية فى مصر فى القرن الرابع الميلادى وزيادة الضرائب ، وبعضها سياسى مثل : القانون الذى أصدره قسطنطين باعفاء الاعزب ومَن لا أولادله من الضرائب ، واعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية ، وبعضها اجتماعى مثل الخلافات الأسرية وغيرها .

وفى رأينا أن انتشار الرهبنة يرجع بالدرجة الاولى الى الاضطهاد الدينى الذى يدفع المرء الى الفرار بدينه والتقرب من الله ، ولم تكن الرهبنة بمعناها الذى ذكرته سابقا من القرارات السهلة التى يتخذها الفرد ، فلو كانت سوء الأحوال الاقتصادية وزيادة الضرائب هى التى دفعت الفرد الى الرهبنة لكان المسيحيون جميعا ترهبنوا حتى يتخلصوا من عبء الضرائب ايضا ، يطبق ذلك بالنسبة لقانون قسطنطين . فالهرب سواء من الضرائب أو من الخدمة العسكرية لم يكن رهبنة بالمعنى الصحيح ، وانما كان القصد منه الالتجاء الى الاماكن النائية للاختباء المؤقت ، فالرهبنة تحتاج الى فرد يكون متدينا بطبعه ،غيور على دينه ، وملتزم به ، فاذا حدث الاضطهاد بسبب

هذا الدين الذى يدين به ، فانه يرفض الاستسلام ويفضل الهرب بهذا الدين، حتى يعبد الله فى حرية تامة .

ويحدد بعض المؤرخين بداية انسحاب المسيحيين الى الصحراء فى عهد الامبراطور ديكيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١ م) ، فقد أورد ديونيسيوس الأول Dionysius I بطرك الاسكندرية فى الخطاب الذى أرسله الى بطرك انطاكية فابيوس Fabius أن عددا كبيرا من المسيحيين قد فروا الى الصحراء والجبال بسبب الاضطهاد والتعذيب الذى تعرضوا له من قبل هذا الامبراطور ، وأنهم هاموا فى الصحراء ، كما وقع عدد كبير منهم فى قبضة الأعراب ، والذين عجزوا عن دفع الجزية تحولوا الى رقيق كما هلك منهم خلق كثير ، كما يذكر المؤرخون أيضا أن هذا الاضطهاد تكرر فى عهد الامبراطور فاليريان Valerian (٢٥٣ ـ ٢٦٠ م) فقد هجمت القوات الرومانية على منازل المسيحيين ، مما أدى الى هروب عدد كبير منهم الى الجبال ، الا أن هذه الحالات الخاصة بالهرب والاقامة فى الصحراء لايجوز تسميتها بداية لحياة الرهبنة المصرية لأنها كانت موقتة .أما بداية قيام أول منشأة رهبانية فى مصر ، أو بمعنى آخر دير قبطى ، فكان فى سنة ٣٠٥ م ، وهو دير القديس انطونيوس .

وقد عرفت مصر نظامين من نظم الرهبنة :

النظام الأول ويعرف بنظام الرهبنة التوحدى الذى وضع أسسه القديس انطونيوس Antonii الذى يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها الحقيقى، وكان هذا النظام يلزم الفرد منهم أن يعيش متوحدا تحتويه صومعة ، كانت أصلا قبر أو فجوة كهف .

أما النظام الثانى فيعرف بالنظام الديراتى ، وقد وضع أسسه القديس باخوم pachomius (٢٩٢ ـ٣٤٦) ، الذى أسس فى عام ٣١٥ م تقريبا ديرا لجماعة الرهبان الذين التفوا حوله ،وذلك بالقرب من دندرة ، وكان هذا النوع الجماعى من حياة الزهد جديدا على عالم المسيحية ، وقد وضع القديس باخوم الأسس التى تقوم عليها العلاقات بين افراد الدير الباخومى ، والواجبات التى يلتزم بها كل منهم تجاه الاخرين .

ومما يذكر ان النظام الديرانى هو الذى نقله العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، وحاول تطبيقه كل على النحو الذى يتلاءم وطبيعة المكان الذى يحيا فيه . الا أن الأديرة فى مصر قد اختلفت عن تلك التى نشأت خارجها ـ كما يذكر الدكتور رأفت عبد الحميد ـ فى عدة نواحى :أولها ويتعلق بالمكان الذى

أنشئت فيه ، فقد أقام الرهبان المصريون الأديرة فى جوف الصحراء بعيدا عن الناس أى منعزلين ، أما الاديرة التى فى الخارج فقد أقيمت قريبا من المدن أو على أطرافها أو على الطرق الموعدية إليها .

أما الثانى فيتعلق بالخدمات التى يقدمها الدير ، فقد انصرف الرهبان المصريون الى مباشرة أمور العقيدة وطقوسها ، واعتمدوا فى كثير من الأحيان على ما تمدهم به المناطق المجاورة ، بينما جعل رهبان الخارج من أديرتهم موءسسات دينية تقدم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية إلى جوار رسالتها الدينية إلى أهالى المنطقة التى يوجد فيها الدير .

أما الناحية الثالثة فتتعلق بصلة الدير بالعالم الخارجى ، فلم يكن للرهبان المصريون من علاقة خارج أسوار هذه الأديار الا بالكنيسة ، مما جعل نصيبهم من الثقافة والمعرفة قليلا بالنسبة لاخوانهم فى الأديرة الخارجية الذين كانوا على إتصال بالعالم الخارجى من حولهم ، وكانوا بالتالى أكثر تطورا من الناحية الفكرية .

كذلك يتميز الرهبان المصريون فى ذلك الوقت بأنهم كانوا يمثلون قوة ضخمة أو « جيشا » ـ على حد تعبير أحد الموءرخين ـ يقف فى مواجهة أى إجراء مجحف يصدره الأباطرة البيزنطيون ، ويحتمون فى ذلك بهذه الأديرة التى كانت تجمع فى شكلها العام صفتى الدير والقلعة ، فتحميها الأسوار العالية والبوابات الضخمة .

ونرى أن سبب هذه الفروق بين الأديرة المصرية والأديرة في الخارج، ترجع إلى أن الأديرة المصرية نشأت خارج المجتمع نتيجة للأضطهاد الدينى ولمقاومة هذا الاضطهاد الدينى، بينما نشأت الأديرة فى الخارج داخل المجتمع المسيحى ولخدمة هذا المجتمع المسيحى.

الحياة العقلية :

بعد أن أنتهينا من دراسة الحياة الدينية فى مصر، وتحول الكنيسة المصرية لتصبح القوة الوطنية الكبرى التى يلتف حولها الشعب ، ننتقل إلى دراسة الحياة العقلية فى مصر .

فقد كانت مصر قبل الفتح العربى تتكلم ثلاث لغات أساسية هى :

أولا : اللغة اليونانية : التى كانت اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالمة حتى الفتح العربى ، فعندما دخل الرومان مصر أبقوا على اللغة اليونانية لغة

رسـمـيـة ، تصـدر بهـا كـافـة القـرارات والقـوانين والأوامـر حـتى بيـانات الامبـراطور وخطاباته التى كـانت تكتب أصـلا بـاللاتينيـة كـانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها فى الاسكندرية .

ثانيا : اللغـة اللاتينيـة : وقـد أعلن دقلديـانوس فى اصـلاحاته المعروفة اعتبارها لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت الاغريقية لا تزال تحتل فيـها هذه المكانة مـثل مصـر ، لكن التغييـر لم يكن فـعـالا ، فقد ظلت اللغة الاغريقية لغة رئيسـيـة فى المحاكم والادارات الحكومية وكانت تصـدر بها القرارات العامة ، لكن نلاحظ أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى إطار لاتينى ، أى أن العنوان والتـاريخ ومـوضـوع القـضـيـة كـانت تكتب باللاتينيـة ، وأحـيانا كـانت ملاحظات الحـاكم نفسـه (Praefectus) تكتب بهـذه اللغة ، أما أقوال طرفى القضية والشهود والقضـاة ، وكذلك رئيسـهم فى كثير من الأحيان ، فظلت تكتب بالاغريقية .

ثالثا : اللغـة القبطيـة : وهى لغة المصريين أهل البلاد ، واللغة القبطية هى التـعـبيـر الكتـابى عن اللغـة المصـرية من الحـروف اليـونانيـة ، وكـانت اللغة المصرية القديمة تكتب بالخط الديموطيقى المنحدر من الحروف الهيروغليفية ، ولما كـانت هذه الحـروف مـقيـدة لحـرية اللغـة ، وكـان تعلم الديمـوطيقيـة أمـرا عسـيـرا ، لذلك فـقـد اتخـذوا الحـروف اليونانية بديلا عن الديموطيقية لكتابة لغتـهم ، وأضـافوا اليـهـا سـتة حـروف من الكتـابة الديمـوطيقـيـة ، وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثـالث الميـلادى . ومع ذلك فقـد كـان على المصـريين الذين يريدون تولى الأعمال الادارية فى الحكومة ، أن يتقنوا اللغة اليونانية .

وعندمـا انتشـرت الديانة المسـيـحية فى مـصـر ، اسـتـخـدم أقـبـاط مصـر لغتهم أى اللغة القبطية فى التبشير بهذه الديانة الجديدة مما أدى إلى زيادة انتشـار هذه اللغة ، وقد تزايد اسـتعمال اللغة القبطية ـ كما يذكر أيدرس بل ـ فى القرن السـابع ، خـاصة فى تحـرير العقود القانونية وغيرها من الوثائق ، مما يدل على أن اللغة الاغريقية كانت قد بدأت فى الاندثار ، بل لقد وجد بين أقطاب الكنيسة من كانوا يجهلون الاغريقية .

وقد أثرت الديانة المسيحية على الحياة العقلية فى مصر تأثيرا كبيرا ، فـأصـبـحت مـعظم الكتـابات كـتـابات دينيـة ، ومـعظمـهـا عن تراجم لحـيـاة القديسيين أو سـير الشـهداء وقصص الأتقياء الصالحين ، وقد جرى التأليف

فيها باللغة القبطية ، كما جرى ترجمة الانجيل إلى اللغة القبطية الذى يعتبر فى نظر الدكتور مصطفى العبادى من أعظم أعمال اللغة القبطية لأنها على حد قوله نقلت الانجيل إلى المصريين فى لغة مصرية وثوب مصرى .

وعندما انقسم المسيحيون فى القرن الرابع الميلادى إلى مذاهب وفرق ، وجدنا أتباع كل مذهب وفرقة يؤلفون ويكتبون فى الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنها .

وقد استمرت الاسكندرية فى العصر البيزنطى مركزا للعلم والثقافة ، يقصد اليها الد ارسون من شتى الأقطار .

وقد تمثلت الحياة الفكرية بالاسكندرية فى وجود مدرستين كبيرتين بها، الاولى : وهى المدرسة اللاهوتيةالتى أسسها القد يس مرقس ، وكانت تشتغل فى أول الأمر بدرس وتدريس مبادىء الديانةالمسيحية بنوع خاص على طريقة السؤال والجواب ، على أن نطاقها اتسع بعد ذلك ، وصارت تشتغل بالعلوم والاداب والفلسفة ، وقد وجدت بين علمائها وعلماء المدرسة الرثنية الأولى علاقات اتحاد متينة العرى حتى قال الامبراطور أدريانوس : إن عباد سيرابيس بالاسكندرية مسيحيون ، كما أن أساقفة النصرانية يعبدون سيرابيس . وقد عظم شأن هذه المدرسة كثيرا ، وبلغت منزلة عالية من الرقى وبعد الصيت ، حتى إن منصب رئيسها لأهميته كان يلى المنصب البطريركى فى الرتبة ، وظل أساقفة وبابوات الكرسى الاسكندرى زمنا طويلا فى أوائل النصرانية ، ينتخبون غالبا من بين رؤسائها ، وكان تلاميذها يدربون على عيشة النسك والبتولة ، حتى تخرج منها أعظم بابوات الاسكندرية الذين اشتهروا بسعة العلم والاطلاع مثل : الكسندروس وأثناسيوس وديونسيوس وكيرلس وديسقوروس .

وقد كان لهذه المدرسة العامل الأكبر فى نشر الدين المسيحى بالأقطار المصرية خاصة ، وفى تعميم نفوذ مدرسة الاسكندرية فى الشرق عامة . ولكن عندما حدث الانشقاق بسبب المجمع الخلقيدونى فى أواسط القرن الخامس ، بدأ نجم هذه المدرسة يأفل ، اذ أخذت تضعف تدريجيا حتى اندرست معالمها.

أما المدرسة الثانية ، فهى المدرسة الفلسفية التى أسسها أمونيوس الصقاس حوالى عام ١٩٣م ، وخصصها لتعليم الفلسفة الافلاطونية

الجديدة، وهى خلاصة مذهبى افلاطون وارسطو ، وقد استمرت هذه المدرسة الى عام ٥٢٩م .

وإلى جانب هاتين المدرستين وجدت أماكن أخرى للتعليم وهى :

١ ـ مدرسة الكنيسة ، وهى المدرسة الملحقة بالكنيسة .

٢ ـ مدرسة الدير : وقد كان لكل ديرنوعان من المدارس . النوع الأول وهو المدارس التى يقيمها لتعليم رهبانه وتسليمهم التراث الرهبانى . أما النوع الثانى فهو المدارس التى يقيمها خارجه لتعليم أبناء الشعب .

٣ ـ الكتاب القبطى : وكان الكتاب إما أنه يكون تابعا للكنيسة ، أو تابعا للدير الذى قام بانشائه ، أو يكون تابعا لأسقف الإبراشية .

أما عن نظام التعليم فى العصر القبطى فيذكر الدكتور سليمان نسيم أن التعليم فى العصر القبطى قد مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة التعليم الأولى .

وميدانها المدرسة الأولية الملحقة بالكنيسة أو بالدير القريب بديلا عن المعبد فى العصور المصرية القديمة ، والتى كان الطفل يلتحق بها عادة فى الخامسة من عمره ليدرس اللغة ، وتعاليم الكتاب المقدس ، ويستظهر بعض المزامير والألحان الكنسية ، أى أن تعليم أدوات المعرفة كان دائما يأتى فى مقدمة مناهج التعليم وهذا أمر طبيعى ، ولكن كانت تضاف اليها دراسة الرياضيات التقليدية والمعروفة لدى المصريين منذ الأزمة القديمة وهى حسابات المساحات والموازين والمكاييل .

وحتى منتصف القرن الثانى الميلادى كانت اللغة الأساسية التى تعلم للأطفال هى اللغة اليونانية إلى أن وضع بنتينوس الأبجدية القبطية فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، فأصبحت اللغة القبطية تعلم بالمرحلة الأولى ، وكان التعليم بهذه المرحلة مجانيا واجباريا، وللجنسين دون تمييز ، ولما كانت المدرسة ملحقة بالكنيسة فاحتياجاتها تقوم بها الأسر المسيحية عن رغبة واختيار .

المرحلة الثانية : مرحلة التخصص .

وتقوم على أساس التلمذة لمعلم خاص إلى جانب الدراسة بالمدرسة اللاهوتية التى تعد طلابها لوظائف الكهنوت والشموسية ، على أن هذا

التخصص لم يمنع من وجود المدارس المدنية الحكومية التى تعد طلابها للخدمات المدنية المختلفة .

ثم وجدت مرحلة التعليم العالى فى العصر القبطى فى المدرسة اللاهوتية ، فقد نجح المفكرون والعلماء المسيحيون فى تطوير أساليب التعليم المسيحى ، والوصول ببحوثهم ودراساتهم إلى مستوى عال جدا ، يقف جنبا إلى جنب مع تعليم وآراء الفلاسفة الوثنيين . وبذلك لم تقل اسكندرية العصر المسيحى عن اسكندرية العصر الاغريقى . وكان أساتذة هذه المدرسة نموذجا للحياة المسيحية المتكاملة التى تجمع بين العلم والدين ، واتجهوا إلى أسلوب التلمذة على النمط نفسه الذى اتبعه السيد المسيح والآباء الرسل من بعده . وتدريجيا أصبحت المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، بمن انضم إليها من أهل الفكر والفلسفة ، الذين كانوا أصلا وثنيين واعتنقوا المسيحية - عقل المسيحية المفكر ، مما أتاح لبابواتها رئاسة المجامع المسكونية ، والتصدى بجدارة لمقاومة البدع والهرطقات .

أما عن مناهج هذه المدرسة فقد اشتملت على أصول العقيدة مع تفسيرها وشرحها ، كما وجه الاهتمام إلى تنمية قوى التفكير والملاحظة التى كانت وسيلتها الدراسات العلمية البحتة كالهندسة وعلم وظائف الأعضاء ، والفلك والفلسفة والشعر .

وقد أشار بتلر فى كتابه إلى وجود مكتبات خاصة بالاسكندرية يملكها أفراد ، فيقول نقلا عن كتاب لحنامسكوس : إن « كرماس » العالم كان يمتلك « خير مكتبة فى الاسكندرية ، وكان يعير من كتبها فى سخاء لمن يحب أن يقرأ ، وكان فقيرا فقرا شديدا ، فلم يكن فى بيته شىء من الأثاث إلا فراشه ومنضدة ، على أن الكتب كانت تملوءه ، وكان يبيح لكل من شاء أن يدخل مكتبته ، ومن أراد من القائمين كتابا طلبه وقرأه هناك ».

ومن المكتبات الخاصة كذلك مكتبة الدير، فقد وجدت بكل دير فئة النساخ والكتاب ، وكانت تمثل عملا من أهم الأعمال داخل الدير إذ انحصرت مهمتهم فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات بمكتبة الدير ، ومن هذه المخطوطات : أسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وسير الأباء البطاركة ، وخطاباتهم الخاصة بالرد على البدع ، وترجمات حياة الشهداء وأعمالهم وقوانين الكنيسة ، والردود على الخلافات العقائدية واللاهوتية .

وكان الرهبان يقومون بنسخ كتبهم مستخدمين الزخارف المختلفة وخاصة التى على شكل صليب . وجدير بالذكر أنه كان لكل من المخطوطات الثمينة جراب إما من الجلد ، أو من الخشب ، أو من الفضة أو من الذهب .

وهكذا كانت الاسكندرية مقر الاداب فى العالم أجمع ، ومقصد طلاب العلم ، فكان يدرس بها التاريخ والفلسفة وفقه الدين والطب ، وإن كان أكثر العلم فيها خاصا بالدين . على أن اقبال أهل العلم فى الاسكندرية لم يكن على آداب الاغريق وفقه الدين وحدهما ، فقد كانت مشهورة بخدمتها لعلم الفلك ،ومهارة علماء الرياضة وعلم الحيل (الميكانيكا) ، وكان أكبر علماء الفلك هو (اسطفن الاسكندرى) وكان معروف أيضا بدرايته بعلم التنجيم .

ومن العلوم أيضا التى عرفت فى ذلك الوقت علم تقويم البلدان ، فقد زادت معرفة الناس بالبحار الشرقية بفضل رحلات الكشف التى قام بها (كزماس) المعروف بالبحار الهندى وكان تاجرا من أهل الاسكندرية قام برحلات علمية طويلة حول بلاد العرب والهند .

الحياة الفنية :

أما بالنسبة للحياة الفنية ، فقد تمثلت فى مجالات عديدة منها : النحت، والتصوير ، وفن البناء ، وفن المنسوجات .

وقد ظهر فى مصر البيزنطية فنا بيزنطيا ، ولكن بعد إنتشار الديانة المسيحية ، وفى القرن الرابع الميلادى بالتحديد ظهر ما يعرف بالفن القبطى الذى امتاز بالواقعية ، وصار بعد أن تخلص من المؤثرات الهلينستية فنا مصريا خالصا ، استوحى فى رسومه وصوره من مصر الفرعونية إلى جانب الموضوعات الدينية المسيحية ، كما تأثر بالفن بالسورى والايرانى .

ففى مجال النحت : نجد أن الاسكندرية قد شهدت نشاطا فنيا خاصة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين ـ وقد تأثر فن النحت بالفن الهلينى ، كما تأثر بالفن القبطى فى تماثيل القديسيين ، وهكذا أسهمت مصر فى نمو فن الأيقونات .

أما فى مجال التصوير : فقد احتلت الاسكندرية فى هذا الفن مركز الصدارة . وبعد انتشار المسيحية أعتبر هذا الفن خاصة عند المسيحيين

الشرقيين هو فن الكنيسة الذى بدأ فى القرن الرابع الميلادى ، وقد نشأ هذا الفن لخدمة الكنيسة .

أما فن البناء : فقد كان بنيان مدينة الاسكندرية يأخذ بالألباب بعظمته ورونقه، وبعد انتشار المسيحية أنشئت الكنائس الفخمة . وكان فن التصوير يتبع فن البناء ، فقد كان يستخدم لتجميل الجدران فى داخل البناء .

أما فن المنسوجات : فقد كان هذا الفن يميل الى الاحتشام والبساطة وعدم التنوع ، لكن بعد انتشار المسيحية خاصة فى القرن السادس الميلادى صار متعدد الالوان ، وظهر فيه الفن المصرى المستمد من مصر الفرعونية ، كما جرى زخرفة المنسوجات بموضوعات دينية .

الحياة القضائية

أما بالنسبة للحياة القضائية :

ففى العصر الرومانى ـ كما يذكر الدكتور ابراهيم نصحى ـ كان الحاكم العام على رأس هذا النظام ، وكانت اختصاصاته لا تحد ، وكان يعقد محكمته فى الاسكندرية فى شهرى يونية ويولية للفصل فى قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفى بلوزيم فى شهر يناير للفصل فى قضايا المديريات الشرقية وفى منف فى شهرى مارس وأبريل للفصل فى قضايا بقية المديريات .

وكانت محكمة الحاكم العام تتكون منه رئيسا ، ومن مساعدين له كانوا فى الولايات الأخرى يختارون من جنس المتخاصمين ، أما فى مصر ـ وعلى حد قول الدكتور ابراهيم نصحى ـ فلم نسمع عن محاكم تتألف من قضاة مصريين أو اغريق فقد كان الناس يحاكمون وفقاً للقانون الرومانى أو الاغريقى أو المصرى بحسب أجناسهم، فالأغريق كانوا يلجئون عادة إلى القواد الذين كانوا من جنسهم للفصل فى قضاياهم ، والمصريين كانوا يلجئون إلى شيوخهم ورجال الشرطة للفحص فى شكاويهم .

أما فى العصر البيزنطى ، خاصة بعد إصلاحات جستنيان التى عن طريقها زود كل حاكم فى ولايته بسلطات عسكرية ومدنية كما ذكرت سابقا ، فقد أصبح حاكم كل مقاطعة ـ باعتباره مسيطرا على شئونها المدنية ـ هو الرئيس الأعلى فى شئونها القضائية ، وهكذا حل رؤساء المقاطعات مكان حاكم أقسام مصر .

وبالنسبة لأنواع المحاكم ، فقد وجد فى العصرالبيزنطى إلى جانب المحاكم العادية ، محاكم أخرى خاصة للفصل فى القضايا التى تمس طبقات معينة مثل المحاكم العسكرية .

أيضا وجد نوع آخر من المحاكم وهو « محكمة الامبراطور » فقد كان من حق سكان مصر أن يرفعوا قضاياهم وشكاويهم مباشرة إلى محكمة الامبراطور بالقسطنطينية فى صورة ملتمس ، وكان الحكم يصدر فى هذه الحالة فى صورة أمر ، وقد استغل جستنيان هذه الفرصة حتى تظهر سلطته عند سكان مصر فى مظهر أعلى من سلطة كبار الملاك ، إلا أن اللجوء إلى محكمة الامبراطور كانت تتطلب نفقات باهظة فى السفر والاقامة ، فضلا عما اشتهر به هذا القضاء من بطء كما يقول الدكتور الباز العرينى فيذكر أن القضية التى رفعها أهل أفروديتو بشأن حق القرية فى الجباية الذاتية ، استغرق النظر فيها ما لا يقل عن خمسة عشر عاما .

وبانتشارالمسيحية ظهر مايعرف بالقضاء الكنسى زمن الامبراطور قسطنطين، ولم يكن هذا القضاء مقصورا على رجال الدين ، وذلك لعدم أحقية رجال الدين فى اللجوء إلى المحاكم المدنية إلاّ اذا كانت الدعوى جنائية ـ وإنما جاز للمتخاصمين فى الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم إلى تحكيم الأسقف ، فقد كانت أحكامه معترف بها قانونا . وفى عصر هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) زادت سلطات رجال الدين القضائية ، فصار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام ، هذا إلى جانب أنه لايجوز للمتهم اللجوء إلى القضاء المدنى بعد أن اعتبرته الكنيسة مذنبا .

الباب الأول

النظام الاقتصادى

الفصـــل الأول : الملكية العقارية فى مصر

الفصــل الثانى : النظـام المـالى فى مـصر

الفصل الثالث : الأرض والفلاح - طبقة الصناع

طبقة التجار

الفصل الأول :

الملكية العقارية فى مصر

- أنواع الأراضى فى الدولة الإسلامية .
- طبيعة الفتح العربى لمصر .
- أنواع الأراضى فى مصر بعد الفتح العربى.
- أشكال الحيازة العقارية فى مصر بعد الفتح العربى .
- الاقطاع .
- الأحباس أو الأوقاف .
- نظام القبالات .

الفصل الأول
الملكية العقارية فى مصر

بفتح عمرو بن العاص مصر فى خلافة عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ/٦٤١م ، انتقلت مصر من يد الدولة البيزنطية إلى يد العرب . وقد أدى هذا الانتقال إلى حدوث تغييرات فى النظام الاقتصادى ونظام الحكم فى مصر ، وأيضا إلى حدوث تغييرات فى التركيب الطبقى للمجتمع المصرى ، حيث ظهرت طبقات جديدة على قمة هذا المجتمع ، واختفت طبقات أخرى ، مما أدى إلى تغير علاقات الملكية .

ومن المعروف أن علاقات الملكية هى الأساس الذى ينبنى عليه البناء الحضارى المتمثل فى النظم السياسية والادارية والقانونية والفنية والأدبية وغيرها ، ومن هنا فان هذا يتطلب منا دراسة شكل ملكية الأراضى فى مصر بعد الفتح العربى ، ومعرفة ما اذا كانت ملكية تامة أم ملكية حق الانتفاع فقط ، أم تشمل النوعين . ولكن فى البداية وقبل أن نخصص الكلام عن مصر ، يجدر بنا أن نستعرض فى إيجاز أنواع الأراضى التى ظهرت فى الدولة الإسلامية بعد الفتوح العربية ثم الانتقال منها إلى مصر .

أنواع الأراضى فى الدولة الإسلامية :

يقول أبو عبيد فى أحكام فتوح الأراضى : «وجدنا الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، قد جاءت فى افتتاح الأرضين بثلاثة أحكام :

١ـ أرض أسلم عليها أهلها ، فهى لهم ملك أيمانهم ، وهى أرض عشر لاشئ عليهم فيها غيره .

ويضيف أبو يوسف : « لا يخرجون عنها فيما بعد ، ويتوارثونها ، ويتبايعونها» .

٢ ـ وأرض افتتحت صلحا على خرج معلوم، فهى على ماصولحوا عليه ، لا يلزمهم أكثر منه .

٣ ـ وأرض أخذت عنوة ، فهى التى اختلف فيها المسلمون ، فقال بعضهم :

أ ـ سبيلها سبيل الغنيمة ، فتخمس وتقسم ، فيكون أربعة أخماسها خططا بين الذين افتتحوها خاصة ، ويكون الخمس الباقى لمن سمى الله تبارك وتعالى . (١)

ب ـ وقال بعضهم : بل حكمها والنظر فيها الى الامام ، إن رأى أن يجعلها غنيمة ، فيخمسها ويقسمها ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر (٢) ، فذلك له وان رأى أن يجعلها فيئا (٣) فلا يخمسها ولا يقسمها ، ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ما

---

(١) المقصود بأهل الخمس هم ما نزلت فيهم الآية الكريمة " واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير " (سورة الانفال اية رقم ٤١)
فالخمس الذى لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سمى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم

(٢) خيبر : وهى ناحية علي ثمانية برد (١٢ ميلا تقريبا) من المدينة لمن يريد الشام . يطلق هذا الاسم على الولاية ، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن ، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر . وقد فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة سبع للهجرة عنوة .

(٣) الفيء . جمع أفياء وفيوء . والفئ هوما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج . بعكس الغنيمة وهى ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة . وبالنسبة لأوجه صرف أموال الفئ . فهى تصرف فى مصالح المسلمين عامة ، وتعيين ذلك بالاجتهاد ، فهى تصرف فى أعطيات الجيش ، وأرزاق القضاة ، وكل العاملين فى المصلحة العامة .

بقوا ، كما صنع عمر بالسواد (١) . فهذه أحكام الا راضى التى تفتح فتحا " .

ويشير الماوردى فى كتابه الى وجود ثلاثة أنواع من الأراضى :

أولا : النوع الأول : وهو ما ملكت عنوة وقهرا .

وقد اختلف الفقهاء فى حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها :

فيقول الشافعى (٢) : تكون غنيمة ، وبالتالى تقسم بين المسلمين ، الا اذا رضوا بتركها فتوقف على مصالح المسلمين .

وقال مالك (٣) : تصير وقفا على المسلمين حين غنمت ، ولا يجوز قسمها بين الغانمين .

---

(١) السواد · يراد به رستاق العراق ، وضياعها التى افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار ، وكانوا يسمون الأخضر سوادا ، والسواد اخضر . أما كتاب " المنجد " فيقول عن السواد : هو اسم الأرياف فى العراق ، أطلق سابقا على السهول الواقعة بين دجلة والفرات ، وجاء أيضا مرادفا لكلمة العراق

(٢) هو ابو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، ولد سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م بغزة أو بعسقلان أو اليمن أو منى ، ونشأ بمكة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وتفقه على مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ، وأذن له فى الإفتاء وعمره خمس عشرة سنة ، ثم لازم مالكا بالمدينة وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وأقام بها حولين وصنف بها كتابه القديم ، ثم عاد الى مكة ، ثم خرج الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر ، وصنف بها كتبه الجديدة كالأم والأمالى الكبرى والاملاء الصغير ومختصر البويطى ومختصر المزنى ومختصر الربيع والرسالة والسنن ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م .
وانظر عنه فى الفصل الخاص بالحركة العلمية .

(٣) هو مالك بن انس بن مالك بن عامر بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن الحارث ، وهو ذو أصبح الحميرى ، أبو عبد الله المدنى إمام دار الهجرة فى زمانه . روى مالك عن غير واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة . قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، الا أبا أمية . قال أبو مصعب . سمعت مالكا يقول . ما افتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك . وكان عظيم المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبالغا فى تعظيم حديثه حتى كان لا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه ، ويقول . لا أركب فى بلد فيها جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفون . توفى بالمدينة عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ودفن بالبقيع .
وأنظر عنه فى الفصل الخاص بالحركة العلمية .

أما أبو حنيفة [(١)] فيقول : الامام فيها بالخيار

أ ـ إما أن يقسمها بين الغانمين فتكون أرضا عشرية.

ب ـ أو يعيدها الى أيدى المشركين بخراج يضربه عليها ، فتكون أرض خراج، ويكون المشركون فيها أهل ذمة .

جـ ـ أو يقفها على كافة المسلمين ، وتصير هذه الأرض دار إسلام ، سواء سكنها المسلمون أو أعيد اليها المشركون .

ثانيا : النوع الثانى : ما ملك منهم عفوا لانجلائهم عنها خوفا ، فتصير بالاستيلاء عليها وقفا ، ويضرب عليها الخراج ، ويكون أجرة لرقابها تؤخذ ممن عومل عليها من مسلم أو معاهد . ويجمع فيها المسلم بين العشر والخراج .

أما مالك فقد رفض اجتماع العشر والخراج فيها ، وقال : يسقط العشر بالخراج ، وتصير هذه الأرض دار اسلام ، ولا يجوز بيعها ولارهنها .

ثالثا : النوع الثالث : أن يستولى عليها صلحاً على أن تقر فى أيديهم بخراج يؤدونه عنها . وتنقسم إلى قسمين:

القسم الأول : أن يصالحهم على أن ملك الأرض لنا ، فتصير بهذا الصلح وقفا من دار الاسلام ، ولا يجوز بيعها ولارهنها ، ويكون الخراج أجرة لايسقط عنهم باسلامهم ، فيؤخذ خراجها اذا انتقلت إلى غيرهم من المسلمين .

---

(١) هو الامام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمى مولاهم الكوفى ، فقيه العراق ، وأحد أئمة الاسلام وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ، وهو أقدمهم وفاة ، لانه أدرك عصر الصحابة ، ورأى انس بن مالك ، قيل وغيره . وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة ، كما روى جماعة من التابعين . قال يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ، ولم يتهم بالكذب . وقال سفيان الثورى وابن مبارك : كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض فى زمانه . وقد ختم القرآن فى الموضوع الذى توفى فيه سبعين الف مرة ، وتوفى فى رجب سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧م .
وانظر عنه فى الفصل الخاص بالحركة العلمية .

والقسم الثانى : أن يصالحوا على أن الأرض لهم ، ويُضرب عليها خراج يؤدونه عنها ، وهذا الخراج فى حكم الجزية ، متى أسلموا سقط عنهم ، ولا تصير أرضهم دار إسلام ، وتكون دار عهد ، ولهم بيعها ورهنها واذا انتقلت إلى مسلم لم يؤخذ خراجها ، ولا تؤخذ جزية رقابهم لأنهم فى غير دار الاسلام .

أما أبو حنيفة فيقول : قد صارت دارهم بالصلح دار اسلام ، وصاروا به أهل ذمة ، فتؤخذ منهم جزية رقابهم .

طبيعة الفتح العربى لمصر :

ومن هذا العرض الموجز يتضح أن أنواع الأراضى ـ وبالتالى أشكال الملكية ـ كانت تتحدد بطبيعة الفتح وما اذا كان عَنْوَة أو صلحا .

فما هى طبيعة الفتح العربى لمصر ؟ هل تم عَنْوَة أو صلحا ؟

إن الاجابة على هذا السؤال ليست بالسهولة التى يتصورها البعض . فنلاحظ من دراستنا للمصادر العربية اختلاف الآراء حول طبيعة هذا الفتح ، فقد انقسم المؤرخون العرب إلى ثلاث فرق :

الفريق الأول : يرى أن مصر قد فتحت صلحا .

الفريق الثانى : يرى أن مصر قد فتحت صلحا ماعدا الاسكندرية وثلاث قرى هى : سلطيس [١] ، ومصيل [٢] ، وبلهيب [٣] .

---

(١) سلطيس : بضم اوله ، وسكون ثانيه ، وفتح الطاء ، وياء ساكنه ، وسين مهملة . من قرى مصر القديمة. وفى المعجم الجغرافى لمحمد رمزى باسم سنطيس ويقول عنها : إنها قرية قديمة ، اسمها الاصلى سلطيس ، وردت فى معجم البلدان بأنها من قرى مصر القديمة ، ذكرت فى فتوح مصر ، وفى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الارشاد من أعمال حوف رمسيس ، وفى التحفة سنطيس من أعمال البحيرة .

(٢) وهذه القرية قد خربت ولا تزال اطلالها تعرف اليوم باسم كوم المدينة بأراضى ناحية بسنتاوای بمركز ابى حمص غربى مدينة المحمودية .

(٣) بلهيب : بالفتح ثم السكون ، وكسر الهاء ، وياء ساكنة ، وياء موحدة . وقد ذكرها محمد رمزى فى قاموسه باسم بلهيت وهى منية الزناطرة بالبحيرة ، ومحلها اليوم مزارة التى بمركز المحمودية .

الفريق الثالث : يرى أن مصر قد فتحت عنوة .

وسنحاول هنا أن نعرض آراء كل فريق على حدة ، حتى نتبين اذا كانت مصر قد فتحت صلحا أم عنوة .

أولا : الفريق الذى يرى أن مصر كانت قد فتحت صلحا :

نذكر منهم عبد الملك بن مسلمة الذي نقل عن يحيى بن ميمون الحضرمى [1] أنه قال : لما فتح عمرو بن العاص مصر ، صولح علي جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ، ليس فيهم إمرأة ولا صبى ولا شيخ – على دينارين دينارين ، فأحصوا لذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف . ومنهم هشام بن اسحاق العامرى [2] عن عبيد الله ابن أبى جعفر [3] ، فقد قال : " سألت شيخا من القدماء عن فتح مصر ، فقال : هاجرنا الى المدينة أيام عمر بن الخطاب وأنا محتلم ، فشهدت فتح مصر . قلت له : فان ناسا يذكرون أنه لم يكن لهم عهد . فقال : ما يبالى ألا يصلى من قال إنه ليس لهم عهد .

فقلت : فهل كان لهم كتاب ؟ قال : نعم ، كتب ثلاثة : كتاب عند طلما صاحب إخنا [4] ، وكتاب عند قزمان

---

(١) هو يحيى بن ميمون الحضرمى المصرى أبو عمره القاضى . تولى قضاء مصر عام (١٠٥ – ١١٤ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٢ م) .
وانظر عنه فى الموضوع الخاص بالقضاة .

(٢) هشام بن اسحاق العامرى : ربما يكون هو هشام بن اسحاق بن عبد الله بن الحرث المدنى ، عن ابيه وعنه حفيده اسماعيل بن ربيعة الثورى . قال : أبو حاتم : شيخ .

(٣) هو عبيد الله بن أبى جعفر الليثى مولاهم المصرى الفقيه ، أحد العلماء والزهاد ، ولد سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩م . قال محمد بن سعد :كان ثقه ، فقيه فى زمانه . وقد قتل بمصر فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م .

(٤) إخنا : بالكسر ، ثم السكون ، والنون المقصور . والبعض يقول : إخنو ، وتقع بالقرب من الاسكندرية ، وهى مدينة قديمة . وكان صاحبها يقال له أيام الفتوح طلما ، وكان عنده كتاب من عمرو بن العاص بالصلح على بلده ومصر جميعها ، فيما رواه بعضهم .
واسمها الصحيح – كما يقول محمد رمزى – اجنا او اجنوا Agnouوقد ذكر المقريزى ان هذه البلدة كانت من ثغور مصر القديمة الواقعة فى إقليم نستراوه على ساحل البحر الابيض بين البرلس ورشيد . وقد اندثرت هذه القرية ، ومحلها اليوم كوم مشعل الواقع على ساحل البحر الابيض بين رشيد والبرلس باراضى ناحية عزب الخليج بمركز فوة بمديرية الغربية .

صاحب رشيد ، وكتاب عند يحنس صاحب البرلس [1] . قلت : كيف كان صلحهم ؟قال : دينارين على كل إنسان جزية ، وأرزاق المسلمين . قلت : فتعلم ما كان من الشروط ؟ قال : نعم ، ستة شروط : لا يخرجون من ديارهم، ولا تنزع نساؤهم (وأضاف أبو عبيد : «ولا أبناؤهم ») ، ولا كفورهم(وفى كتاب أبو عبيد « كنوزهم ») ، ولا أراضيهم ، ولا يزاد عليهم.»

ونلاحظ أنه لم يذكر غير خمسة شروط فقط ولكن المقريزى ذكر الشرط السادس وهو " ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم " .

ومنهم كذلك عبد الملك بن صالح الذى نقل عن عبيد الله بن أبى جعفر عن رجل من كبراء الجند أنه قال : كتب معاوية بن أبى سفيان الى وردان عامل خراج مصر (٤٣ هـ / ٦٦٣ م) : زد على كل رجل منهم قيراطا [2] . فكتب وردان الى معاوية : كيف تزيد عليهم ، وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم شئ ؟ويرجع سبب الخلاف بين وردان ومعاوية ـ وفقا لرأى أبو عبيد ـ الى أن وردان كان يرى أن مصر قد فتحت صلحا " فكره الزيادة " ، فى حين أن معاوية كان يرى أن مصر قد فتحت عنوة " فلهذا استجاز الزيادة " .

ثانيا : الفريق الذى يرى أن مصر فتحت صلحا ما عدا الاسكندرية وثلاث قريات :

نذكر منهم حسين بن شفى [3] الذى قال : « لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية ، بقى من الأسارى بها ممن بلغ الخراج ، وأحصى يومئذ ستمائة ألف ، سوى النساء والصبيان ، فاختلف الناس على عمرو فى قسمهم ،

---

(١) برلس : بفتحتين ، وضم اللام وتشديدها . وهى بليدة على شاطئ نيل مصر ، قرب البحر من جهة الاسكندرية . وهى من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بين دمياط ورشيد ، وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة الآن في شمال مديرية الغربية بالوجه البحرى وتعرف الآن باسم قرية البرج .

(٢) القيراط جمع قراريط . ووزنه عند الجوهريين : نصف دانق (الدانق سدس الدرهم) أى أربع حبات ، أو ٢٢ سنتيجرام . ويختلف وزنه بحسب البلاد .فبمكة : ربع سدس دينار ، وبالعراق : نصف عشره والكلمة تعريب اليونانيةKeration . ولا يتخذ القيراط فى عهدنا هذا إلا لوزن الماس والدر وما أشبههما من الحجارة الكريمة .

(٣) هو الحسين بن شفى الأصبحى المصرى ، عن أبيه وعبد الله بن عمرو إن صح ، وعنه حيوة بن شريح ويحيى بن عمر الشيبانى . قال أبو يونس : توفى سنة تسع وعشرين ومائة .

فكان أكثر المسلمين يريد قسمتها ، فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ، وأن المسلمين طلبوا قسمها ، فكتب اليه عمر رضى الله عنه : لا تقسمها ، وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم ، فأقرها عمرو ، وأحصى أهلها ، وفرض عليهم الخراج ، فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين ، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع إلا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم ، لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة » .

ويقول ايضا عبد الملك بن صالح عن يزيد بن أبى حبيب : " إن المقوقس - الذى كان على مصر - كان صالح عمرو بن العاص على أن يفرض على القبط دينارين دينارين ، فبلغ ذلك هرقل - صاحب الروم - فتسخطه أشد التسخط ، وبعث الجيوش ، فأغلقوا الاسكندرية ، وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب ، فقاتلهم ، وكتب الى عمر بن الخطاب : أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى فتح علينا الاسكندرية عنوة قسرا بلا عهد ولا عقد . قال : فمصر كلها صلح فى قول يزيد بن أبى حبيب غير الاسكندرية (1) . قال : وبهذا القول كان يقول الليث بن سعد (2) ".

---

(1) وانظر راى يزيد هذا فى عدة مصادر عربية وهى : ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ٨٤ ؛ ابن السعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٧ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام (حوادث وفيات ١١ - ٤٠ هـ) ، ص ١٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ١٠٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٥ ، ص ١١٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٥ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ (القسم الاول) ، ص ١٠٠ .
وانظر عن ترجمة يزيد بن أبى حبيب فى الفصل الخاص بالحركة العلمية (طبقات الفقهاء) .

(2) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى أبو الحرث المصرى ، احد الاعلام . ولد بقرقشندة سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م قال ابن سعد : كان ثقة ، كثير الحديث صحيحه ، وكان قد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر . وقال يحيى بن بكير : ما رأيت احدا اكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر . وقد أراده المنصور لولاية مصر فأبى وتولى قضاءها وتوفى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

وقال أيضا يحيى بن أيوب [1] : « فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين : سلطيس ، ومصيل ، وبلهيب » « فانه كان للروم جمع فظاهروا الروم على المسلمين ، فلما ظهر عليها المسلمون استحلوها ، وقالوا : هؤلاء لنا فئ مع الاسكندرية . كتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ، ويضربون عليهم الخراج ، ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين ، لا يجعلون فيئا ولا عبيدا » .

ثالثا : الفريق الذى يرى أن مصر فتحت عنوة بلا عهد ولا صلح .

فمنهم سفيان بن وهب الخولانى [2] الذى قال : لما فتحنا مصر بغيرعهد ، قام الزبير بن العوام [3] فقال : ياعمرو أقسمها . فقال عمرو بن العاص : لا أقسمها . فقال الزبير : والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر . فقال عمرو : والله لا أقسمها حتى أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين . فكتب اليه عمر بن الخطاب : أقرها حتى تغزو منها حبل

---

(١) هو يحيى بن أيوب الغافقى المصرى ، روى عن بكير بن الأشج وجماعة ، وكان لا يحتج به . وقال النسائى . ليس بالقوى . وقال الدارقطنى : فى بعض حديثه اضطراب . وقد ذكره ابن عدى فى كامله وقال : هو عندى صدوق . وتوفى سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م .
وانظر عنه فى فصل الحركة العلمية (طبقات الفقهاء) .

(٢) هو سفيان بن وهب الخولانى ، يكنى أبا أيمن وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، وحضر حجة الوداع ، وشهد فتح مصر وافريقية ، وسكن المغرب . روى عنه أبو الخير مرثد بن عبد الله ، وأبو عشانة ، ومسلم بن يسار . توفى عام ٩١ هـ / ٧٠٩ م .

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى الأسدى . يكنى أبا عبد الله . أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكان إسلامه بعد أبى بكر رضى الله عنه بيسير ، كان رابعا أو خامسا فى الاسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبى حواريا ، حوارى الزبير بن العوام . وكان الزبير أول من سل سيفا فى سبيل الله . وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحدا والخندق والحديبية وخيبر والفتح وحنينا والطائف وشهد فتح مصر . وجعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الستة أصحاب الشورى الدين ذكرهم للخلافة بعده ، وقال : هم الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . وهو احد العشرة المشهود له بالجنة . وكان قتله يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى من سنة ٣٦ هـ/٦٥٦.

الحبلة (١) . قال عبد الملك فى حديثه : وإن الزبير صولح على شئ أرضى به.

كما روى عن الصلت بن أبى عاصم ، أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن سريج (عامله على خراج مصر عام ٩٩ هـ / ٧١٨م) : «إن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد» .

وقد قال عبد الملك بن مسلمة عن داود بن عبد الله الحضرمى إن أبا حيان أيوب بن أبى العالية ، حدثه عن أبيه : «أنه سمع عمرو بن العاص يقول: لقد قعدت مقعدى هذا ، وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد الا أهل أنطابلس (٢) فإن لهم عهدا يوفى لهم به ... وزاد : إن شئت قتلت ، وإن شئت خمست ، وإن شئت بعت» .

وقد روى عن زيد بن أسلم (٣) أنه قال : كان تابوت لعمر بن الخطاب ، فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده ، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد».

كذلك روى عن عمرو بن شعيب (٤) عن أبيه عن جده أنه قال : «إن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب فى رهبان يترهبون بمصر ، فيموت أحدهم وليس له وارث ، فكتب إليه عمر : إن من كان منهم له عقب فادفع ميراثه إلى عقبه ، ومن لم يكن له عقب فاجعل ماله فى بيت مال المسلمين ، فان ولاءه للمسلمين» .

وقد كتب حيان بن سريج إلى عمر بن عبد العزيز يسأله أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، فسأل عمرعراك بن مالك، فقال عراك: ما سمعت

---

(١) معنى ذلك أن تكون فينا موقوفا للمسلمين ما تناسلوا ، يرثه قرن بعد قرن ، فتكون قوة لهم على عدوهم .

(٢) أنطابلس : بعد الالف باء موحده مضمومة ، ولام مضمومة ايضا ، وسين مهملة ، ومعناها بالرومية خمس مدن ، وهى مدينة بين الاسكندرية وبرقة ، وقيل هى مدينة ناحية برقة .

(٣) هو زيد بن أسلم العدوى مولاهم الفقيه العابد . لقى ابن عمر وجماعة ، وكانت له حلقة للفتوى والعلم بالمدينة . قال أبو حازم الأعرج . لقد رأينا فى حلقة زيد بن أسلم أربعين فقيها . وله تفسير القرآن يرويه عنه إبنه عبد الرحمن . توفى عام ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م .

(٤) وهو عمرو بن شعيب بن محمد عبد الله بن عمرو بن العاص السهمى أبو إبراهيم . روى عن زينب ربيبة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو تابعى وثقه يحيى بن معين وابن راهويه ، وهو حسن الحديث . توفى سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م .

لهم بعهد ولا عقد، وإنما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد. فكتب عمر إلى حيان بن سريج أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم.

وقال يحيى بن عبد الله بن بكير [1] : «خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن[2] يريد الاسكندرية فى سفينة ، فاحتاج إلى رجل يقذف به (وفى المقريزى : احتاج إلى رجل يجذف) ، فسخر رجلا من القبط ، فكلم فى ذلك فقال: «انماهم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم». وقد روى عن ابن الأثيرأن ملوك بنى أمية كانوا يقولون: «إن مصر دخلت عنوة ، وأهلها عبيدنا ، نزيد عليهم كيف شئنا ، ولم يكن كذلك» .

وعن عبيد الله بن أبى جعفر أنه قال : «إن كاتب حيان حدثه أنه احتيج إلى خشب لصناعة الجزيرة ، فكتب حيان إلى عمر يذكر ذلك له ، وأنه وجد خشبا عند بعض أهل الذمة ، وأنه كره أن يأخذ منهم حتى يعلمه . فكتب اليه عمر خذها منهم بقيمة عدل ، فانى لم أجد لأهل مصر عهدا أفى لهم به» .

وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب [3] أنه قال : «كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعها ذمة ، وحملهم على ذلك» .

على هذا النحو ، اختلف المؤرخون فى طبيعة الفتح العربى لمصر ، واستند كل فريق إلى الأدلة القاطعة التى تؤيد وجهة نظره والتى تعارض وجهة نظر الفريق الآخر . فاذا ما حاولنا أن نصل إلى حل لهذه القضية ، نجد أمامنا مجموعة من الحقائق التى ارتبطت بفتح مصر .

---

(١) هو الحافظ أبو زكريا بن عبد الله بن بكير المخزومى مولاهم المصرى . سمع مالكا والليث وخلقا كثيرا، وصنف التصانيف ، وسمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة . قال ابن ناصر الدين : هو صاحب مالك والليث ، ثقة . وإن كان أبو حاتم والنسائى تكلما فيه ، فقد إحتج البخارى ومسلم فى صحيحيهما بما يرويه . وتوفى سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥م.

(٢) هو أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف الزهرى المدنى ، أحد الأئمة الكبار . قال الزهرى : أربعة وجدتهم بحورا : عروة وابن المسيب وأبو سلمة وعبيدالله . توفى سنة ٩٤ هـ/٧١٢م وقيل سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢م .

(٣) ابن شهاب وربما يكون هو أبو بكر ، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى أحد الفقهاء والمحدثين ، وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فانكم لاتجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه . ولد عام ٥١ هـ / ٦٧١م توفى عام ١٢٤ هـ / ٧٤١م .

أولها : أن عمرو بن العاص عندما قدم إلى مصر ، دخل فى حرب مع البيزنطيين وعلى رأسهم المقوقس ، فى الفرما [1] وقد ظل بها حوالى شهر ، وفى بلبيس [2] ، وفى أم دنين [3] (أو المقس) ، ثم فى حصن بابليون [4] ، الذى أقام المسلمون فيه محاصرين للروم حوالى سبعة أشهر حتى فتحوه .

---

(١) الفرما : وهى مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قطية (وهى قرية فى طريق مصر قرب الفرما) ، وشرقى تنيس (وهى جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ، مابين الفرما ودمياط) ، على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر ، وبينها وبين بحر القلزم المتصل ببحر الهند أربعة أيام ، وهو أقرب موضع بين البحرين بحر المغرب وبحر المشرق ، وهى كثيرة العجائب غريبة الآثار .

والفرما مدينة من أقدم الرباطات المصرية بقرب الحدود المصرية لمصر ، وكانت فى زمن الفراعنة حصن مصر من جهة الشرق لأنها فى طريق المغيرين على مصر . إسمها المصرى القديم «برآمن» أى مدينة الاله آمون ومنه اسمها العبرى «برمون» والقبطى «برما» ، ومن هذا أتى الاسم العربى وهو «الفرما» وسماها الروم «بيلوز» ومعناها الوحلة لأنها كانت واقعة فى منطقة من الأوحال بسبب تغطية ماء البحر الأبيض لأراضى تلك المنطقة .

وقد اندثرت هذه المدينة ، وتعرف اليوم آثارها بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلو مترات عن ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وعلى بعد ٢٣ كيلو متر شرقى محطة الطينة الواقعة على السكة الحديدية التى بين بورسعيد والاسماعيلية .

(٢) بلبيس : بكسر البائين ، وسكون اللام ، وياء وسين مهملة . وهى مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام . وكانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقى أيام العرب ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية إلى آخر عهد الحكم الجركسى ، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة ١٨٣٢ ، وفى تلك السنة أصدر محمد على باشا والى مصر أمرا بنقل ديوان المديرية والمصالح الاميرية الاخرى إلى مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المديرية ، وبذلك أصبحت بلبيس قاعدة لقسم بلبيس الذى أنشئ فيها بدلا من ديوان المديرية من تلك السنة ، وفى سنة ١٨٧١ سمى مركز بلبيس .

(٣) أم دنين : وهى قرية كانت بين القاهرة والنيل ، لختلطت بمنازل ربض القاهرة ، وقد عرفت بهذا الاسم قبل الاسلام ، غير أنها عرفت بعد الاسلام باسم «المقس» لأن العامل على المكس كان يقعد عندها ، وقد قلب وسمى المقس .

وكانت هذه القرية ، وقت فتح العرب مصر ، تشغل المنطقة التى تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد ، فشارع الملكة نازلى ، فشارع عماد الدين ، ومن الجنوب شارع قنطرة الدكة ، وشارع القبيلة ومن الشرق شارع الكنيسة المرقسية (الدرب الواسع سابقا) وسكة شق التعبان وحارة الحدرة ، ومن الشمال شارع بين الحارات إلى أن ينتهى الحد بميدان باب الحديد . ويدخل فى هذه المنطقة القسم البحرى من شارع إبراهيم باشا وفيه جامع أولاد عنان وهو فى مكان الجامع الذى أنشاه فى المقس الحاكم بأمر الله أبو المنصور على فى سنة ٣٩٣هـ باسم الجامع الأنور ويقال له جامع المقس أو الجامع المقسى أو جامع باب البحر . ولا يدخل فى حدود قرية أم دنين شارع كامل الذى كان جزءا من شارع إبراهيم ولا حديقة الأزبكية .

(٤) بابليون : وهو اسم عام لديار مصر بلغة القدماء ، وقد اشتق ادريس عليه السلام اسمها من اسم أرض بابل ، مقام آدم عليه السلام ، وكانت بابل تعنى الفرقة فسماها «بابليون» ومعناها الفرقة الطيبة. وقيل هو إسم لموضع الفسطاط خاصة .

وحصن بابليون هو الحصن الذى بناه الامبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧)م وكان يسميه العرب قصر الشمع أو الحصن .

ثانيا : أنه عندما طلب المقوقس الصلح مع عمرو بن العاص ، كان على أساس أن للروم الخيار فى الصلح ، إلى أن يوافى كتاب ملكهم ، فان رضى تم ذلك ، وان سخط انتقض مابينه وبين الروم ، وأما القبط فبغير خيار .

ثالثا : أنه عندما أرسل المقوقس نص الصلح إلى الامبراطور البيزنطى، أرسل إليه رسالة يعنفه فيها ويطلب منه مواصلة القتال ، فواصل عمرو القتال مع الروم حتى انتصر عليهم . ونلاحظ هنا أن المقوقس كان قد طلب من عمرو الصلح بمفرده ، ولم يواصل مع الروم القتال .

رابعا: ان المصادر العربية تشير إلى أن القبط كانوا خير أعوان للعرب فى القتال ، حتى إن أسقف الاسكندرية فى ذلك الوقت ، وهو بنيامين ، أرسل إلى القبط يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ، ويطلب منهم مساعدة العرب .

كما تشير المصادر أيضا إلى أن الصلح الذى تم بين الأقباط من جهة، وبين عمرو بن العاص من جهة أخرى لم ينقضه الأقباط كما نقض الروم الصلح مع عمرو بن العاص .

ومن هذه الحقائق نجد أن مصر لم تكن دولة ذات سيادة عند فتح العرب لها ، وانما كانت واقعة تحت سيطرة البيزنطيين ، وهو ما يعنى من الناحية الشرعية أن المصريين لم تكن لهم إرادة فى أمرهم ، وهو ماعبرت عنه هذه العبارة التى وردت فى الصلح بين المقوقس وعمرو «وأما القبط فبغير خيار» .

وفى ذلك يقول أبو عبيد إن قصة قبط مصر «شبيهة بقصة أهل السواد، إنما كانت الروم ظاهرة عليهم ، كظهور فارس على هؤلاء ، ولم تكن لهم منعة ولا عز ، فلما أجليت الروم صاروا فى أيدى المسلمين ، فلذلك اختلفت الروايات فيهم ، فقال بعضهم أخذوا عنوة ، وقال بعضهم صالحت عنهم الروم المسلمين صلحا ، وفى كل ذلك أحاديث» .

على أن المصادر العربية ـ كما رأينا ـ تشير كذلك إلى مساعدة الأقباط للعرب أثناء الحرب . غير أن «بتلر» يرى أن مساعدة المصريين للعرب

كانت مستحيلة قبل فتح حصن بابليون ، وأنهاحتى بعد فتح الحصن ، لم تكن إلا مساعدة قليلة لاتعدو بعض الأمور .

وفى الواقع أن مساعدة الأقباط للعرب كانت وضعا طبيعيا ، وذلك لأن الأقباط لم ينعموا بالحكم البيزنطى وانما وقعوا تحت طائل من العذاب ، سواء كان بسبب اقتصادى وهى الضرائب الباهظة التى فرضت عليهم ، أو بسبب دينى وهو الاضطهاد الدينى الذى تعرضوا له ، لذلك قاموا بمساعدة العرب أملا فى وضع أفضل أو حتى اذا لم يكن أفضل ، فلن يكن أسوأ من الوضع الذى كانوا فيه بالفعل ، «لهذا لا نعجب اذا رحب المصريون بالعرب ، واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر» ـ كما تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف .

كما تشير المصادر أيضا إلى إبرام صلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر يذكر فيه «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر» .

وهذا ماجعل المؤرخين يختلفون فى طبيعة الفتح ، فالذين اعتبروا أن الفتح كان صلحا ، كانوا يقصدون الصلح مع أهل مصر ، بل إنه عندما أرسل هرقل رسالة إلى المقوقس يعنفه فيها ويطلب منه مواصلة القتال طلب المقوقس من عمرو أن لاينقض القبط ، على اعتبار أن «النقض لم يأت من قبلهم» .

والذين اعتبروا أن الفتح كان عنوة ، كانوا يقصدون استيلاء العرب على مصر عنوة من يد البيزنطيين وقد كان من بين الذين اعتبروا أن فتح مصر كان عنوة ، يعقوب أرتين باشا ، الذى كتب يقول :

« إذا لم يكن فى إمكان المؤرخين مساعدتنا على حل هذه المسألة وايضاحها ، فلم يبق علينا الا أن نستند على العادات والتقاليد ، علنا نقتبس منها نورا يهدينا فى ظلمات هذا المقام . فنرى أن أئمة المذاهب الأربعة متفقون على القول بأن الديار المصرية فتحت عنوة، ونرى أيضا أن الخطباء يرتقون منابر الصلاة يوم الجمعة فى كل جوامع مصر، متقلدين سيفا حقيقياً أو شبه سيف من خشب، فنستنتج من ذلك أن المسلمين فى كل

الأزمان اعتبروا أن الديار المصرية فتحت عنوة. أما فى البلاد التى استولى عليها الاسلام بغير السيف ، فيرتقى الخطيب منبر الصلاة ، ويداه مرفوعتان كمن يصلى ، وفى إحداهما ورقة أو نسخة من الكتاب ، دلالة على أن تلك البلاد انضمت إلى حكم الاسلام ، رغبة من أهليها فى ذلك ، أو بعد معاهدة صلح ، أو اقتناعا بالبراهين الدينية» .

أما الذين اعتبروا أن مصر فتحت صلحا ماعدا الاسكندرية وثلاث قريات ، فنجد أنه من الطبيعى أن تكون الاسكندرية قد فتحت عنوة [1] ، خاصة لأنها كانت عاصمة البيزنطيين ، وبالطبع كان بها نسبة كبيرة منهم ، سواء من المدنيين أو العسكريين . وهذا الكلام ينطبق أيضا على وضع القريات الثلاث ، فقد رأينا أنها كانت تضم عددا كبيرا من الروم . وقد قام الروم فى كل من الاسكندرية والقريات الثلاث بمحاربة العرب ، ولذلك اعتبر العرب أن الاسكندرية والقريات الثلاث فتحت عنوة وليس صلحا .

ومن ذلك يتضح لنا أن فتح العرب لمصر كان عنوة وصلحا فى نفس الوقت ، فهو عنوة من زاوية العلاقة بين العرب والبيزنطيين ، وهو صلح اذا نظر إليه من زاوية العلاقة بين العرب والاقباط ، وهذا مايتضح من نصوص

---

(١) فتحت الاسكندرية مرتين : المرة الأولى عام ٢٠ هـ / ٦٤١م وفيها عقدت معاهدة بين الطرفين عرفت باسم معاهدة بابليون الثانية وذلك لانعقادها فى بابليون وتمييزا لها عن بابليون الأولى ، أو معاهدة الاسكندرية ، لانها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها . وقد نصت هذه المعاهدة على عقد هدنة بين الروم والعرب مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى سبتمبر سنة ٦٤٢م وأواخر سنة ٢١ هـ يكف فى أثنائها الروم والعرب عن القتال ، كما يتم خلالها جلاء حامية الروم عن الاسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط الا يعود جيش رومى ثانية إلى الاسكندرية ، والا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين او يتدخلوا فى امورهم ، وأن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية . ولضمان نفاذ هذه الشروط نصت المعاهدة على أن يأخذ المسلمون مائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند رهائن.

اما المرة الثانية فكانت عام ٢٥ هـ / ٦٤٥م . ففى هذه السنة ارسل الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨م / ٢١ - ٤٨ هـ) حفيد هرقل إلى الاسكندرية أسطولا كبيرا لاجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما . وبالفعل نجح الجيش البيزنطى فى الاستيلاء على الاسكندرية ، وزحف من بعدها إلى مايليها من بلاد الوجه البحرى ، وتحرج مركز العرب فى مصر ، وكان واليها اذ ذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وقد بعث أهل مصر إلى عثمان يسألونه أن يرسل عمرا لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه ، واستولى عمرو بن العاص فى هذه المرة على الاسكندرية عنوة

الصلح الذى تم بين كل من عمرو بن العاص والمقوقس من جانب ، والذى تم بينه وبين الأقباط من جانب آخر ، وهى على النحو الآتى :

أولا : نص الصلح الذى تم بين عمرو بن العاص والمقوقس :

يقول ابن عبد الحكم : إن العرب والروم «اجتمعوا على عهد بينهم ، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم ممن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شيء وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لايعرض لهم فى شيء منها . فشرط هذا كله على القبط خاصة ، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة ممن بلغ منهم الجزية ، وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة. فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا ، وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة » .

ثم يقول ابن عبد الحكم : « وشرط المقوقس للروم أن يخيروا ، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا ، أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه ، ممن أقام بالأسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها . ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج ، وعلى أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة ، حتى يكتب الى ملك الروم ويعلمه ما فعل ، فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم ، وإلا كانوا جميعا على ماكانوا عليه » .

ثانيا : نص الصلح الذى تم بين عمرو بن العاص والأقباط ، وفيه يقول الطبرى :

وكان صلحهم على النحو التالى

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ماأعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لايدخل عليهم شيء من

ذلك ولا ينتقض ، ولا يساكنهم النوب (النوبة) . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ماجنى لصوتهم (أى لصوصهم) فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدرذ لك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا . عليهم ماعليهم أ ثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم ، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين .وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر ».

ثم أشار الطبرى الى رد فعل المصريين تجاه هذا الصلح بقوله : «فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم ، وقبلوا الصلح » .

وقد أطلقت الدكتورة سيدة كاشف على هذا الصلح الذى تم بين عمرو ابن العاص والأقباط فى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م اسم « معاهدة بابليون الأولى » تمييزا لها عن معاهدة بابليون الثانية أو معاهدة الاسكندرية عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م .

بعد أن انتهينا من معالجة هذه القضية التاريخية الهامة ، المتعلقة بطبيعة الفتح العربى لمصر ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه : كيف انعكست طبيعة الفتح العربى على أوضاع الملكية فى مصر ؟

عندما تم لعمرو بن العاص فتح مصر ، طالبه العرب بتقسيمها ، إلا أنه عندما استطلع رأى الخليفة عمر بن الخطاب رفض وقال : « ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب الىّ من فئ يقسم ، ثم كأنه لم يكن ، كما قال عمر بن الخطاب : : تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شىء » ؟ وقال أيضا : " لولا آخر الناس ما افتتحت قرية الا قسمتها " .

وأرسل الى عمرو بن العاص يقول : " لا تقسمها ، وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين ، أو قوة لهم على جهاد عدوهم » ، « على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه الجزية ما يوضع على أهل دينه (١) ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به . قال : فبعث عمرو الى صاحب الاسكندرية يعلِمه الذى كتب به أمير المؤمنين . قال : فقال : قد فعلت .

قال : فَجمعنا مافى أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل فى أيدينا ، ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية ، فمن اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية ، قال : ثم نحوزه الينا ، واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم. قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم» .

أنواع الأراضى فى مصر بعد الفتح العربى

على كل حال ، فقد كانت الأرض فى مصر قبل الفتح العربى تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أراضى التاج البيزنطى ، وأراضى الاقطاعات العسكرية، وأراضى الاقطاعات التى منحت للشخصيات الكبيرة المنتمية للحكم السابق .

النوع الثانى : الأراضى المقدسة سواء التى خصصت للكنائس أو التى خصصت للأديرة .

---

(١) وقد اشار ابن اياس فى كتابه الى الرسالة التى أرسلها عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، وأنها كانت على النحو الاتى : " من كان من القبط والروم ، فى ايديكم ، فخيروه بين الاسلام وبينه فان أسلم فهو من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ماعليهم ، وان اختار دينه ، فابقوه على دينه ، وقرروا عليه فى كل سنة دينارين ".

النوع الثالث : الأراضى التى كانت مع الأقباط .

وبالنسبة للنوع الأول ، وهو أراضى البيزنطيين عامة ، فقد استولت عليها الخلافة على أساس أن أصحابها وقفوا بالسلاح فى وجه المسلمين ، كما استولت أيضا على الأراضى التى تركها أصحابها ، والأراضى الخراب . وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : إن هذه الأراضى التابعة لحكومة العرب قد زادت تدريجيا بما أضيف اليها من الأراضى الموات أو الأراضى المهجورة أثناء الحكم العربى نفسه ، أو عن طريق الشراء ، أو بتجفيف المستنقعات مثل مستنقعات الدلتا والفيوم ، أو بمصادرة أراضى موظفين ماتوا بدون وارث ، أو موظفين فصلوا من وظائفهم لأسباب جعلت الدولة تصادر أراضيهم .

أما بالنسبة للنوع الثانى ، وهو الأراضى المقدسة سواء التى خصصت للكنائس أو للأديرة ، فتذكر الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : أنه فى إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) فرض الخراج على الأراضى التى تمتلكها الكنائس والأديرة ، أما قبل عام ٦٥ هـ فلم تتخذ حكومة العرب أى موقف تجاه الأديرة ، أو حتى تجاه لجوء الأقباط إلى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب .

وبالنسبة للنوع الثالث : وهى الأراضى التى كانت مع الأقباط :

نجد أن هذه الأراضى ، كما تذكر الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف - كانت موزعة بين :

أصحاب الاقطاع ، وكبار الملاك ، وأصحاب الملكيات المتوسطة أو الصغيرة ، فضلا عن الأعداد الكبيرة التى تستأجر الأراضى الزراعية .

ولكن ماهو شكل الملكية العقارية فى الأراضى التى كانت فى يد الأقباط ؟ هل كان للمصريين حق الملكية التامة أو كان لهم فقط حق الانتفاع؟ نلاحظ أن المؤرخين المحدثين قد اختلفوا فى ذلك ، وانقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول : ويرى أن الأقباط لم يكن لهم سوى حق الانتفاع فقط .

أما الفريق الثاني : فيرى أن الأقباط كان لهم حق الملكية التامة .

وبالنسبة للفريق الأول ، ومنهم محمد كامل مرسى ، فيبنى رأيه على أن الفاتحين العرب قد تركوا للمصريين حقوقهم التى كانت لهم فى ذلك الوقت .

ولما كان المصريون - فى رأيهم - لم يكونوا يتمتعون بالملكية التامة قبل الفتح ، فان ترك العرب للمصريين حقوقهم التى كانت لهم قبل الفتح ، تعنى منحهم حق الانتفاع فقط .

وبالنسبة للفريق الثانى الذى يقول إن الملكية فى مصر كانت ملكية تامة ، ومنهم الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، فيبنى رأيه على أن المصريين قبل الفتح العربى كانوا يتمتعون بالملكية التامة ، وأنه وجدت ملكيات تامة زمن البطالمة وزادت تلك الملكيات فى عهد الرومان (وقد تعرضت لها فى الفصل الأول) ، لذلك فان ترك العرب للمصريين حقوقهم التى كانت لهم قبل الفتح ، تعنى اعطاءهم حق الملكية التامة .

وقد أكدت الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف رأيها بما أوردته الأوراق البردية التى ترجع إلى عهد الولاة ، فهى تشير إلى أنه كان يحق لأهالى مصر التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة ، وأن الخراج الذى فرضه العرب على أراضى المصريين ماهو إلا ضريبة عقارية على الأرض .

وفى رأينا أن اختلاف المؤرخين فى شكل الملكية العقارية فى مصر ، لايرجع فقط إلى الاختلاف حول شكل الملكية العقارية فى مصر قبل الفتح ، بل يرجع أيضا إلى الاختلاف فى طبيعة الفتح العربى لمصر مما سبق ذكره ، وهو اختلاف لم يكن فقط بين المؤرخين ، وانما بين الخلفاء وعمال الخراج فى مصر أيضا .

فقد ذكرت سابقا أن معاوية (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠م) كتب إلى وردان عامل خراج مصر (٤٣ هـ / ٦٦٣م) : زد على كل رجل منهم قيراطا .

فكتب وردان اليه : كيف تزيد عليهم وفى عهدهم أن لايزاد عليهم ؟ وقد رأى أبو عبيد أن سبب هذا الخلاف يرجع إلى أن وردان كان يرى أن مصر قد فتحت صلحا ، فى حين أن معاوية كان يرى أن مصر قد فتحت عنوة .

وقد انعكس هذا الخلاف على عمليات البيع والشراء للأراضى فى مصر ، فنجد أن المصادر العربية تذكر أن مالك بن أنس كان ينكر على الليث ابن سعد شراءه أرضا من مصر ، لأنها أرض خراج باعتبار أنها فتحت عنوة، الا أن أبا عبيد كان يرى أن الليث اشترى أرضا من مصر ، لانه كان يعتبر أن مصر فتحت صلحا ، معتمدا فى ذلك على روايات يزيد بن أبى حبيب الخاصة بفتح مصر صلحا .

وعلى كل حال ، فان مصر عوملت معاملة البلاد المفتوحة صلحا (١) كما تذكر معظم المصادر العربية ، فلم تقسم بين الفاتحين ، ولم يقفها الامام على المسلمين ، وانما تركها فى أيدى أصحابها وفرض عليهم الخراج ، وكانت شروط الصلح التى ذكرتها سابقا ـ ستة شروط ـ كما أشارت اليها المصادر العربية : لا يخرجون من ديارهم ، ولا تنزع نساؤهم ولا أبناؤهم ، ولا كنوزهم ، ولا أراضيهم ، ولا يزاد عليهم ، ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم .

لذلك عندما طالب عقبة بن عامر معاوية بن سفيان أرضا ، قال له مولى كان عنده : «أنظر ، أصلحك الله أرضا صالحة ، فقال عقبة : ليس لنا ذلك»، ثم ذكر له شروط الصلح الستة ، وأنه شاهد على ذلك .

على كل حال ، فقد اتفق المؤرخون على أن أراضى مصر ، سواء كانت قد فتحت عنوة أو صلحا هى أراضى خراجية .

---

(١) وقد رأى ابن مماتى أن مصر قد فتحت صلحا ، فهو يقول : «فقيل فتحت عنوة ، وقيل فتحت صلحا ، والصحيح أن عمرو بن العاص صالح عليها ، واستأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمضى الصلح وأجابه إليه» .

فيقول محمد كامل مرسى : «إذا كانت مصر قد فتحت صلحا كما يذهب بعضهم ، فان الامام لم يحتفظ فى الاتفاق المبرم بينه وبين أهل البلاد بملكية الأرض للمسلمين ـ فتصير من هذا الصلح وقفا من دار الإسلام ، ولا يجوز بيعها ولا رهنها ـ بل بالعكس أقر المصريين على أراضيهم مقررا ألا تنزع منهم أراضيهم ولا مساكنهم .. الخ . واذا كانت البلاد قد فتحت عنوة ، فان الأراضى تكون خراجية كذلك ، اذ بناء على رأى معظم من يذهب إلى ذلك ، لم يقسم الامام الأراضى بين الفاتحين ، بل تركها للأهالى» . [١] .

على أن هذا لم يمنع من وجود الأراضى العشرية فى مصر ، نتيجة لاستيلاء الدولة الحاكمة على أراضى البيزنطيين والأراضى التى تركها أهلها، أو أراضى من قتل منهم فى الحرب ، وكل أرض لم يكن فيها أحد ، ولم يوضع عليها خراج ، بل إن هذه الأراضى التابعة للعرب قد زادت تدريجيا كما ذكرت سابقا .

ويقول يحيى بن آدم إن هذه الأراضى تكون للامام «إن شاء أقام فيها من يعمرها ويؤدى إلى بيت مال المسلمين عنها شيئا ، ويكون الفضلة له . وإن شاء أنفق عليها من بيت مال المسلمين ، واستأجر من يقوم فيها ، ويكون فضلها للمسلمين . وإن شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين» . ويظهر من قول يحيى بن آدم أن هذه الأراضى كانت من حق الامام التصرف فيها كما يتراءى له ، وتبعا للمصلحة العامة ، وكان يوضع عليها العشر باعتبار أنها أرض لم يوضع عليها الخراج .

وأرض العشر التى ظهرت فى مصر كانت ـ كما تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ـ إما عن طريق الاقطاع ، أو عن طريق الشراء من حكومة العرب ، أو عن طريق احتلال الأرض الموات .

وهذا كله يتطلب منا معرفة ماهو معنى الأراضى الخراجية والأراضى العشرية ، وهو ما نعالجه فى الصفحات القادمة .

---

(١) ويقول أبو يوسف فى ذلك: «وايما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الامام ، وتركها فى أيدى أهلها فهى أرض خراج ، وإن قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر .. وكل أرض من أراضى الأعاجم صالح عليها أهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج» .

أولا : الأراضى الخراجية

يقصد بالأراضى الخراجية ـ وفقا لمحمد كامل مرسى ـ الأراضى التى تتوافر فيها الشروط الآتية :

أولا : أن تكون من الأراضى الواقعة فى غير بلاد العرب (جزيرة العرب) .

ثانيا : أن تكون من الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة أو صلحا .

ثالثا : أن تكون مملوكة لأهالى البلاد الذين لم يعتنقوا الإسلام ، وأقروا فى حيازتهم لها . أما ما أحياه المسلم من الأرض الميتة فقال أبو يوسف : إن كانت من حيز أرض العشر فهى عشرية ، وإن كانت من حيز أرض الخراج فهى خراجية .

وقال البعض : إن أحياها بماء العشر فهى عشرية ، وإن أحياها بماء الخراج فهى خراجية [1] . وأرض الموات التى أحياها ذمى فهى خراجية ، وكذلك أرض الغنيمة التى رضخها الامام لذمى كان يقاتل مع المسلمين .

وبالنسبة للضريبة المفروضة على أراضى الخراج فهى على نوعين :

النوع الأول : خراج المقاسمة ، وهى ضريبة تفرض على المحصول ، وبالتالى تشبه ضريبة العشور ، وإن كانت تزيد عنها فى المقدار ، لأن خراج المقاسمة يحدد وقت الفتح ، على أن لايقل عن خمس المحصول ولا يزيد على نصفه .

النوع الثانى : خراج الوظيفة ، وهى ضريبة ثابتة تفرض على الأرض متى كانت صالحة للزراعة ، بصرف النظر عن كونها تزرع فعلا أو لا تزرع ويجبى خراج الوظيفة عينا أو نقدا ، ويستحق مرة فى كل عام حتى ولو انتجت الأرض محصولين فى العام الواحد ، وبذلك فهو يختلف عن الضرائب الأخرى التى تتجدد بتجدد المحصول فى العام الواحد .

---

(١) ماء العشر : هو ماء السماء والابار والعيون والانهار . اما ماء الخراج . فهو ماء الانهار الصغار التى حفرتها الأعاجم .

ويقول الحافظ بن رجب : إن الخراج إن وضع مقاسمة اعتبر بكمال الزرع وتصفيته ، وإن وضع على مساحة الأرض أعتبر بالسنة الهلالية ، أو على مساحة الزرع ، فقد قيل إنه يـ تبر بالسنة القمرية .

وقد أجمعت الأراء على كراهة شراء المسلم لأرض خراج ، فيقول أبو عبيد فى ذلك : «فقد تتابعت الآثار بالكراهة بشراء أرض الخراج ، وإنما كرهها الكارهون من جهتين : إحداهما أنها فىء للمسلمين ، والأخرى أن الخراج صغار» . (١)

وقد منع عمر شراء أرض أهل الذمة أو رقبتهم على أساس أن شراء عبيدهم يلزمهم بدفع جزيتهم ، وشراء أرضهم يلزمهم بدفع خراجهم ، وبهذا يقبل على نفسه الذل والهوان بأن يصير من أهل الجزية والخراج ، فيقول أبو عبيد : «حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن عمر قال : لا تشتروا رقيق أهل الذمة فانهم أهل خراج ، وأراضيهم فلا تبتاعوها ، ولايقرن أحدكم بالصغار بعد ، اذ نجاه الله منه .

وقد ذكر بعضهم مأخذا آخر لكراهة شراء المسلم للأرض الخراجية ، وهو أنه يسقط خراجها ، فيسقط بذلك حق المسلمين .

غير أن يحيى بن آدم يقول فى كتابه : إن الحسن بن صالح اذا كان قد كره شراء ارض الخراج التى أخذت عنوة فوضع عليها الخراج ، إلا أنه لم ير بأسا بشراء أرض أهل الصلح .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : ماهو حكم أرض الخراج التى يشتريها مسلم ؟ هل تتحول إلى أرض عشرية أو تظل أرضا خراجية ؟ وفى هذه الحالة هل يدفع المسلم عنها الخراج فقط أو يدفع العشر أيضا ؟

يذكر الدكتور محمد ضياء الدين الريس أنه فى بداية الفتوحات العربية وفى خلافة بنى أمية ، كانت الأراضى الخراجية تتحول إلى أراض عشرية ، وذلك عن طريق بيعها أو غير ذلك ، حتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩م) ، الذى منع ذلك التحويل ، فقد رأى أن

---

(١) صغار : أى ذل .

المسلم الذى يشترى أرض خراج، يدفع خراجها المفروض عليها إلى جانب العشر، على أساس أن الخراج أشبه بفريضة على الأرض لاتتنافى مع إيجاب العشر الذى هو حق مقرر على المسلم فيما يخرجه من أرضه من زرع أو ثمر ، فيقول أبو عبيد : «إن عمر بن عبد العزيز قال : من أخذ أرضا بجزيتها لم يمنعه أن يؤدى عشر مايزرع وإن أعطى الجزية» . وبعد موته رجعت الأوضاع إلى ماكانت عليه ، فاستمر التصرف فى الأراضى ، إلى أن جاء المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٣ -٧٧٤م) ، فأمر بابطال ذلك التحويل ، وأن ترد الأراضى إلى أراضى خراجيه كما كانت ، وأن لايسمح بتحويل أراضى الخراج إلى أراضى عشرية ، وهذا الاجراء ـ كما يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس ـ كان من شأنه حتما أن يزيد من إيراد الدولة .

وفى رأينا أن شراء المسلم لأرض خراج (سواء كانت أرضا فتحت عنوة، أو فتحت صلحا على أن الأرض للعرب) ، ليس معناه شراء حق تمليك الأرض ، وانما هو شراء حق الانتفاع فقط! لأن هذه الأرض الخراجية ، ليست ملكا لأصحابها ، وانما لهم حق الانتفاع فيها ، وبالتالى ليس لهم حق بيع ملكيتهاالكاملة للمسلم الذى يشتريها منهم ، وطالما أن الشراء هنا هو شراء حق الانتفاع فقط ، فلا يمكن أن يدفع عنها العشر ، لأن العشر يدفع عن الأرض المملوكة ملكية تامة ، وإنما يدفع عنها الخراج فقط . (وسنتناول ذلك فى أرض العشر) .

على كل حال فان هذا هو ما يتعلق بشراء المسلم أرض ذمى ، ولكن ماهو الوضع بالنسبة للذمى الذى يدخل فى دين الإسلام ، هل يظل يدفع الخراج على أرضه ، أو يدفع العشر بإعتباره مسلما؟ .

لقد اتفقت الآراء على أن هذا الوضع يتحدد بطبيعة الفتح ، وهل كان صلحا أو عنوة . فيذكر يحيى بن آدم أن الذمى الذى يسلم يظل يدفع الخراج عن أرضه التى فتحت عنوة ، ولكن ترفع عن رأسه الجزية . فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول له : «إنى قد أسلمت ، فضع عن أرضى الجزية . قال : لا ، إن أرضك أخذت عنوة» .

والسبب فى ذلك أن أرض العنوة ليست ملكا لأهلها ، وليس للذمى حق بيعها ولا شرائها ، وبالتالى تظل أرض خراج .

وفى ذلك يقول مالك بن أنس : «اذا أسلم كافر من أهل العنوة ، أقرت أرضه فى يده يعمرها ويؤدى الخراج عنها ، ولا اختلاف فى ذلك» .

أما بالنسبة لأرض الصلح فيقول الحافظ بن رجب : إنه اذا أسلم أهلها يسقط عنهم الخراج. ولكن من دراستنا - التى قدمناها - لأنواع الأراضى التى ظهرت بعد الفتوحات العربية ، يظهرأن أرض الصلح كانت تخضع لما صولحت عليه ، فاذا صولحت على أن تكون لأهلها ، كانت ملك أيمانهم ، واذا صولحت على أن تكون للعرب ، فالخراج يعتبر هنا أجرة لا يسقط بالاسلام ، أو هو كما يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس ضريبة لازمة على الأرض سواء كانت فى يد الذميين أو المسلمين .

ثانيا - الأراضى العشرية :

وتشمل الأراضى العشرية مايلى :

أولا : الأراضى الواقعة فى بلاد العرب ، سواء أملكها مسلمون أم غير مسلمين ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، لم يأخذوا من أرض العرب خراجا .

ويقول أبو يوسف: إن هذه البلاد هى : أرض الحجاز ، والمدينة ، ومكة، واليمن ، ولا يحل للامام أن يضع عليها خراج .

ثانيا : الأراضى التى أسلم أهلها طوعا .

ثالثا : الأراضى التى فتحت عنوة وقهرا ، وقسمت بين الغانمين المسلمين .

وقد سميت الأراضى العشرية بهذا الاسم ، لأنها تدفع عشر المحصول عينا .

كما أجمعت الآراء على أن أصحاب الأراضى العشرية لهم حق وضع اليد التام وحرية التصرف .

والسؤال هنا : هل تتحول أرض العشر إلى أرض خراج اذا اشتراها ذمى ؟

لقد اختلف الفقهاء فى ذلك ، فيقول أبو حنيفة " «اذا اشترى الذمى أرض عشر تحولت إلى أرض خراج» . أما مالك بن أنس فيقول : «لا شىء عليه فيها ، لأن الصدقة إنما هى على المسلمين زكاة لأموالهم ، وطهرة لهم ، ولا صدقة على المشركين فى أراضيهم ومواشيهم ، وإنما الجزية على رؤوسهم ، صغارا لهم ، وفى أموالهم اذا مروا بها فى تجارتهم » .

أما بالنسبة لعدم وضع الخراج ، فلأن الخراج ـ كما يقول أبو عبيد ـ يسقط عن الذمى اذا كان يملك رقبة الأرض .

وهذا الرأى ، وهو عدم دفع الذمى عشرا أو خراجا على أرض العشر التى يشتريها ـ يعد غير مقبول عقلا ، لأنه معناه حرمان الدولة من عائدها ، سواء كان ممثلا فى شكل عشر أو فى شكل خراج . ولما كان الأصل فى منح الأرض فى شكل أرض عشرية ، أو فى شكل أرض خراجية ، هو استفادة الدولة من العشر أو من الخراج ، فإن شراء الذمى لأرض عشرية لايعنى إعفاءه من دفع الضريبة التى عليها . وفى ذلك يقول أبو يوسف : إنه يجب «أن يوضع عليها العشر مضاعفا ، فهو خراجها، فاذا رجعت إلى مسلم بشراء ، أو أسلم النصرانى ، أعدتها إلى العشر الذى كان عليها فى الأصل» .

ورأيه هذا مبنى على أن أرض العرب هى أرض لا يوضع عليها خراج ، فماذا لو اشترى الذمى أرضا من أرض العرب ؟ فهو لن يدفع عنها خراج لأنها ليست بأرض خراج ، ولن يدفع عنها عشر لأنه ذمى والعشر زكاة للمسلمين ، لذلك فمن رأيه أن تضاعف عليها الصدقة . وهذا الرأى معقول ، لأنه اذا تركت الدولة الذميين يشترون الأراضى العشرية ، ولايدفعون عنها خراجا لأنها أرض عشر ولا عشرا لأنهم ذميين ، تكون قد حرمت خزانتها من دخل هذه الأراضى .

أشكال الحيازة العقارية فى مصر بعد الفتح العربى :

يمكن القول أن ملكية الدولة للأرض كانت هى الشكل السائد للملكية فى مصر . فعندما دخل العرب مصر استولوا على أراضى البيزنطيين ، الى

جانب الأراضى التى تركها أهلها ، والأراضى الخراب ، وهذه الأراضى قرر عمر ضمها الى بيت مال المسلمين ، فعرفت « بالصوافى » لأنه « استصفاها » أى جعلها خالصة لبيت المال ، وسميت أيضا « القطائع » لأنها اقتطعت فيما بعد لمن يتعهدونها . وقد ذكرت سابقا كيف أن هذه الأراضى قد زادت تدريجيا بما أضيف اليها من الأراضى الموات ، أو الأراضى المهجورة ، أو عن طريق الشراء ، أو بتجفيف المستنقعات وغير ذلك .

وقد أشرت الى أن هذه الأراضى كان من حق الامام التصرف فيها ، فهو إما يقطعها ، أو يستأجر من يقوم بخدمتها لبيت مال المسلمين ـ كما يذكر يحيى بن آدم . على أنه وجد الى جانب هذا الشكل من أشكال الملكية، أشكال أخرى :

أهمها : أولا : الاقطاع :

ويختلف هذا الاقطاع عن نظام الاقطاع فى أوربا الذى نشأ بوصفه اقطاعا حربيا ، هدفه رغبة الملك أو الأمير فى الحصول على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف . فلم يدخل هذا النظام الاقطاعى الحربى فى مصر إلا على يد الأيوبيين والمماليك ـ كما تذكر الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ـ وقد دخل بأسلوب آخر يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة ، بغير منحهم الأراضى للاقامة فيها وزراعتها ، كما لم يوجد فى الاقطاع الحربى بمصر حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا .

وحتى يمكننا معرفة الفرق بين نظام الاقطاع الذى نشأ فى مصر ، والنظام الاقطاعى فى أوربا ، فاننا سنورد هنا أحكامه فى الاسلام كما أوردها الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » .

لقد قسم الاقطاع الى قسمين : القسم الأول ، وهو اقطاع تمليك .

القسم الثانى ، وهو اقطاع استغلال .

أولا : اقطاع تمليك

وفيه تنقسم الأرض المقطعة الى ثلاثة أقسام : موات ـ وعامر ـ ومعادن .

أما الموات فهو نوعان :

النوع الأول :وهو مالم يزل مواتا من قديم الدهر ، ولم يعمر اطلاقا ، وليس ملكا لأحد ، وهذا النوع يجوز للسلطان أن يقطعه من يحييه ومن يعمره [1] .

النوع الثانى : فهو ما كان عامرا فخرب ، فصار مواتا عاطلا ، وينقسم هذا النوع إلى :

أولا : ما كان جاهليا كأرض عاد وثمود ، فهى كالموات التى لم يثبت فيها عمارة ، ويجوز اقطاعه .

ثانيا: ما كان اسلاميا جرى عليه ملك المسلمين ، ثم خرب حتى صار مواتا عاطلا ، فقد اختلف فيه الفقهاء :

فقال الشافعى : « إنه لا يملك بالإحياء سواء عرف أربابه أو لم يعرفوا» .

وقال مالك : « يملك بالإحياء سواء عرف أربابه أو لم يعرفوا » .

أما أبو حنيفة : فقد رأى أنه لو عرف أربابه لم يملك بالإحياء وإن لم يعرفوا ملك بالإحياء . وكان يرى أنه لا يجوز أن يملك بالإحياء من غير اقطاع فان عرف أربابه لم يجز اقطاعه ، وكانوا أحق ببيعه وإحيائه ، وإن لم يعرف أربابه جاز اقطاعه ، وكان الاقطاع شرطا فى جواز إحيائه .

ويقول أبو حنيفة : إن الاقطاع ملكا لمن خصه الامام به إلا بعد احيائه، أما اذا لم يشرع فى احيائه فانه يرى أنه اذا كان لعذر ظاهر ، أقر فى يده إلى زوال عذره ، وإن كان غير معذور لا يعارض فيه قبل مضى ثلاث سنوات ، وإلا بطل حكم إقطاعه بعدها ، وذلك لأن عمر رضى الله عنه جعل

---

(١) وقد اشار يحيى بن ادم فى كتابه «الخراج» إلى هذا الموضوع فى فصل خاص به تحت عنوان «باب من احيا ارضا ميتة» .

أجل الاقطاع ثلاث سنين . أما الشافعي فله رأى آخر ، فهو يرى أن موقف عمر رضى الله عنه هنا ، يجوز أن يكون لسبب اقتضاه فى قضية معينة ، لأنه لا ضرورة لهذه المهلة ، وأنه اذا مضى عليه زمان يقدر على إحيائه فيه قيل له : إما أن تحييه فيقر فى يدك ، وإما أن ترفع يدك عنه ليعود إلى حاله قبل اقطاعه .

أما بالنسبة لمن تغلب على هذا الموات المستقطع فأحياه ، فقد اختلف العلماء فى حكمه على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : وهو المذهب الشافعى ، الذى يرى أن محييه أحق من مستقطعه .

والمذهب الثانى : وهو مذهب أبو حنيفة، الذى يرى أنه اذا أحياه قبل ثلاث سنين كان ملكاً للمقطع ، وإن أحياه بعدها كان ملكاً للمحيى.

أما المذهب الثالث : فهو مذهب مالك، الذى يرى أنه إذا أحياه عالما بالاقطاع كان ملكا للمقطع ، وإن أحياه غير عالم بالاقطاع خير المقطع بين أخذه وإعطاء المحيى نفقة عمارته ، وبين تركه للمحيى والرجوع عليه بقيمة الموات قبل إحيائه .

هذا بالنسبة للقسم الأول من اقطاع التمليك وهى الأرض الموات .

أما بالنسبة للقسم الثانى من اقطاع التمليك فهو الأراضى العامرة وتنقسم إلى نوعين :

النوع الأول من العامر : وهو ماتعين مالكه ، فليس للسلطان سلطة عليه إلا فيما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال اذا كانت فى دار الإسلام سواء كانت لذمى أو مسلم . أما اذا كانت فى دار الحرب التى لا يثبت للمسلمين عليها يد ، وأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها ، جاز له ذلك .

وقد اختلف الاقطاع والتمليك بالنسبة لهذا النوع من الأراضى تبعا لطبيعة الفتح ، فاذا كان الفتح صلحا خلصت الأرض لمقطعها ، وكانت خارجة عن حكم الصلح . فعندما أراد خالد صلح أهل الحيرة قال له حريم ابن أوس بن حارثة الطائى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل له بنت

نفيلة ، فلا تدخلها فى صلحك . وشهد له بشير بن سعد ومحمد بن مسلمة ، فاستثناها من الصلح ، ودفعها إلى حريم ، فاشتريت منه بألف درهم ... فقيل له : «ويحك لقد أرخصتها ، كان أهلها يدفعون اليك ضعف ماسألت بها، فقال : ما كنت أظن أن عددا يكون أكثر من ألف» .

أما اذا كان الفتح عنوة ، كان المستقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين. ويقول الماوردى : إنه اذا علم الغانمون بالاقطاع والهبة قبل الفتح ، فليس لهم المطالبة بعوض ما استقطع ووهب ، وإن لم يعلموا حتى فتحوا ، عاوضهم الإمام عنه . وإن كان أبو حنيفة يرى : أنه لا يلزمه (أى الامام) استطابة نفوسهم عنه ، ولا عن غيره من الغنائم ، اذا رأى المصلحة فى أخذها منهم .

أما النوع الثانى من العامر : فينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ما اصطفاه الامام لبيت المال من فتوح البلاد ، إما بحق الخمس فيأخذه باستحقاق أهله له ، وإما بأن يصطفيه باستطابة نفوس الغانمين عنه ليصرف فى مصالح المسلمين . فمثلا : اصطفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته ، وماهرب عنه أربابه أو هلكوا ، فكان مبلغ غلتها تسعة آلاف ألف درهم ، فكان يصرفها فى مصالح المسلمين ، ولم يقطع منها شيئا . وعندما جاء عثمان رضى الله عنه أقطعها ، لأنه رأى أن إقطاعها أوفر لغلتها من تعطليها ، وشرط على من أقطعها إياه أن يأخذ منه حق الفىء ، فكان ذلك منه إقطاع إجارة لا إقطاع تمليك .

ويرى الماوردى : أن هذا النوع من الأرض العامر لايجوز إقطاع رقبته، لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال ملكا لكافة المسلمين ، فجرى على رقبته حكم الوقوف المؤبدة ، وصار استغلاله هو المال الموضوع فى حقوقه .

والسلطان فيه بالخيارين فى الأصلح : بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر رضى الله عنه وبين أن يتخير له من يقوم بعمارة رقبته بخراج

يوضع عليه كما فعل عثمان رضى الله عنه [1] . ويكون الخراج أجرة تصرف فى وجوه المصالح، إلا أن يكون مأخوذا بالخمس فيصرف فى أهل الخمس .

أما القسم الثانى من النوع الثانى من العامر : فهو أرض الخراج .

وأرض الخراج لايجوز إقطاع رقبتها تمليكا ، لأن هذا النوع من الأراضى تكون فيه الأرض :

أ - إما أرض وقف ، وبالتالى خراجها أجرة . وأرض الوقف لايجوز تمليكها لا باقطاع ولا ببيع ولا بهبة (فتكون إقطاع إجارة وليس تمليك) .

ب - أو تكون أرضا لها مالك ، وبالتالى خراجها جزية ، لأنها أرض خراج فلا يجوز اقطاعها لأنه قد تعين مالكها .

أما القسم الثالث من النوع الثانى من العامر : فهو مامات عنه أربابه ولم يكن له وارث ، فينتقل إلى بيت المال ميراثا لكافة المسلمين ، مصروفا فى مصالحهم .

ويرى أبو حنيفة : أن ميراث من لا وارث له يصرف فى الفقراء خاصة، صدقة عن الميت .

أما الشافعى فيرى : أنه يصرف فى مصالح المسلمين عامة ، لأنه كان من الأملاك الخاصة ، وصار بعد الانتقال إلى بيت المال من الأملاك العامة .

وبالنسبة لبيت المال ، وما ينتقل إليه من رقاب الأموال : فقد اختلف أصحاب الشافعى فى ذلك وانقسموا إلى فريقين كما يذكر الماوردى :

الفريق الأول : يرى أنها لا تصير وقفا لعموم مصرفها الذى لا يختص بجهة ، فعلى هذا لا يجوز بيعها ولا إقطاعها .

الفريق الثانى : يرى أنها تصير وقفا حتى يقفها الامام ، فعلى هذا يجوز له بيعها اذا رأى بيعها أصلح لبيت المال ، ويكون ثمنها مصروفا فى

---

(1) ويرى ابو يوسف انه من الافضل للبلاد ، والاكثر للخراج ، هو ان لا يترك الامام أرضا لاملك لأحد فيها ولا عمارة ، بل عليه أن يقطعها .

عموم المصالح ، وفى ذوى الحاجات من أهل الفيء وأهل الصدقات (١) .

وأما إقطاعها فقد اختلف فيه : فمنهم من أجازه ، على أساس أنه طالما قد جاز بيعها ، وصرف ثمنها إلى من يراه من ذوى الحاجات ، فقد جاز إقطاعها لـه ، ويكون تمليك رقبتها كاقطاع ، كتمليك ثمنها كبيع .

ومنهم من قال : إن اقطاعها لايجوز ، وان جاز بيعها ، أى لاتكون اقطاع تمليك بل اقطاع إجارة .

وأخيرا ، القسم الثالث من اقطاع التمليك وهو : إقطاع المعادن .

وهى البقاع التى أودعها الله تعالى جواهر الأرض ، وهى نوعان :

معادن ظاهرة ـ ومعادن باطنة .

وبالنسبة للنوع الأول وهى المعادن الظاهرة : أى ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط .

فهى كالماء لايجوز اقطاعها ، والناس فيها سواء ، يأخذه من ورد اليه. .وقال آخرون فى إقطاع المعادن الظاهرة ، إنها اذا أقطعت هذه المعادن الظاهرة لم يكن لاقطاعها حكم ، وكان المقطع وغيره فيها سواء ، فان منعهم المقطع منها كان بالمنع متعديا .

أما النوع الثانى ، وهى المعادن الباطنة أى ماكان جوهرها مستكنا فيها لايوصل إليه إلا بالعمل ، كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد .

وفى جواز إقطاعها قولان : أحدهما ، أنه لايجوز كالمعادن الظاهرة ، وكل الناس فيها شرع . والقول الثانى يجوز اقطاعه .

على أنه اذا أقطع اختلف فى حكم إقطاعه ، وفى حكمه قولان :

أحدهما : أنه اقطاع تمليك ، يصير به المقطع مالكا لرقبة المعدن كسائر أمواله فى حال عمله . وبعد قطعه يجوز له بيعه فى حياته وينتقل إلى ورثته بعد موته .

---

(١) أهل الصدقات هم الذين عينتهم الآية الكريمة :

«إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» (سورة التوبة آية رقم ٦٠) .

والقول الثانى : أنه إقطاع إرفاق ، بمعنى أنه لا يملك بهذا الاقطاع رقبة المعدن ، ويملك فيه الارتفاق أو الانتفاع بالعمل فيه مدة مقامه عليه ، وليس لأحد أن ينازعه فيه ما أقام على العمل ، فاذا تركه زال حكم الاقطاع عنه .

ثانيا : اقطاع الاستغلال :

يختص اقطاع الاستغلال بالأراضى العشرية والأراضى الخراجية .

وبالنسبة للأراضى العشرية : فاقطاع هذا النوع من الأراضى لايجوز الا للمسلمين على اعتبار أنها زكاة ولا تجوز لغيرهم .

أما بالنسبة للاراضى الخراجية : فيعتبر أهل الجيش أخص الناس بجواز هذا الاقطاع ، لأن لهم أرزاق مقدرة تصرف إليهم مصرف الاستحقاق، لأنها تعويض لهم لحمايتهم البلاد .

فاذا صح أن يكونوا من أهل الاقطاع ، روعى حينئذ مال الخراج . وهو على حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون مال الخراج جزية ، وفى هذه الحالة لا يجوز إقطاعه أكثر من سنة ، لأنه غير موثوق باستحقاقه بعدها ، على اعتبار أنه مأخوذ مع بقاء الكفر ، وزائل مع حدوث الإسلام .

الحالة الثانية : أن يكون مال الخراج أجرة (إقطاع إجارة) ، وفى هذه الحالة يجوز إقطاعه سنتين ، ولا يلزم الاقتصار منه على سنة واحدة .

وبالنسبة لاقطاع الاستغلال للأراضى الخراجية ، نلاحظ أن حال إقطاعه لا يخلو من ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يستقطعه لمدة معلومة . مثلا : كاقطاعه عشر سنين .

وفى هذا القسم يجب أولا : أن يكون قدر الخراج معلوماً عند المقطع ، وعند باذل الاقطاع فان كان مجهولا عندهما أو عند أحدهما لم يصح .

ثانيا : أن يراعى حال المقطع فى مدة الاقطاع ، وهو على ثلاث حالات:

الحالة الأولى : أن يبقى على قيد الحياة سالما من الأمراض ، فهو على استحقاق الاقطاع الى انقضاء المدة .

الحالة الثانية : أن يموت قبل انقضاء مدة الاقطاع ، فيبطلُ الاقطاع فى المدة الباقية بعد موته ، ويعود الى بيت المال .

الحالة الثالثة : أن يبقى على قيد الحياة ، لكنه مفقود الصحة ، وهناك قول فى هذه الحالة ، وهى أن يبقى على الاقطاع الى انقضاء مدته .

وهذا حكم القسم الأول اذا قُدر الاقطاع فيه بمدة معلومة .

القسم الثانى : أن يُستقطعه مدة حياته ، ثم لعقبه وورثته بعد موته ، وهذا إقطاع باطل ، لأنه خرج بهذا الاقطاع من حقوق بيت المال الى الأملاك الموروثة .

القسم الثالث : أن يُستقطعه مدة حياته فقط .

على هذا النحو ، قسم الماوردى الاقطاع الى نوعين :

النوع الأول : إقطاع تمليك .

وقد اختص هذا النوع بتملك الأفراد للأراض الزراعية أو للمناجم (المعادن) . وهذه الملكية هى ملكية تامة للأفراد ، يدفعون عنها العشر كزكاة لأموالهم ، وذلك بالنسبة للأراض الزراعية ، وتذكر الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أن الأهالى كانوا يتسلمون إيصالا أو براءة بعد تأدية مايجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسلامية .

أما بالنسبة للمعادن ، خاصة المعادن الباطنة ، فيذكر أبو يوسف فى كتابه : أن قيمة الزكاة المفروضة عليها كانت الخمس . فيقول : «فى كل ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير الخمس ... إنما الخمس فى الذهب الخالص ، وفى الفضة الخالصة ، والحديد والنحاس والرصاص ... وما استخرج من المعادن سوى ذلك من الحجارة ، مثل : الياقوت والفيروزج والكحل والزئبق والكبريت والمغرة ، فلا خمس فى شىء من ذلك ، إنما ذلك كله بمنزلة الطين والتراب».

ونسبة الزكاة المفروضة على المعدن واحدة ، سواء كان المعدن فى أرض العرب أو أرض العجم ، فيقول يحيى بن آدم :«فيه الخمس ، والمعدن فى أرض العرب وأرض العجم سواء».

النوع الثانى : اقطاع الاستغلال .

والفرد فيه ليس له حق ملكية الأرض ، وانما استغلالها فقط .

وقد اختص هذا النوع من الاقطاع بنوعين من الأراضى : ـ

أولا : إما أرض خراج ، وهذا النوع مستغِلهُ يدفع عنه الخراج المفروض عليه للحاكم ، ويُعرف بخراج جزية .

ثانيا : وإما أرض استصفاها الامام لبيت المال ، ورأى الامام أن فى المصلحة أن يوءجرها لشخص بخراج يوضع عليه ، ويعرف بخراج أجرة .

ومن هذا العرض لأحكام الاقطاع فى الاسلام ، ننتقل الى دراسة الاقطاع فى مصر

تشير المصادر العربية الى أن أقدم إقطاع فى مصر ، هو إقطاع الخليفة عمر بن الخطاب مُنْيَة الأصبغ [1] لابن سندر ، فيقول ابن عبد الحكم فى كتابه :

«لم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر إلا لابن سندر ، فانه اقطعه مُنْيَة الأصبغ ، فحاز لنفسه ألف فدان ، فلم

---

(١) منية الأصبغ : تقع فى شرقى مصر .

وعن موقعها الحالى يذكر محمد رمزى فى قاموسه ان قرية منية الاصبغ التى عرفت فى أيام الدولة الفاطمية بقرية الخندق كانت واقعة على الخليج المصرى فى المنطقة التى يتوسطها الآن دير الملاك البحرى بين محطة الدمرداش والزاوية الحمراء . والآن اصبح فى مكان منية الأصبغ أو الخندق دور ومنازل آهلة بالسكان تكون خطة كبيرة بجوار دير الملاك البحرى ، يراها السالك فى شارع الملك بقسم الوايلى بالقاهرة .

تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز من ورثته فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل».

ويبدو من هذا النص أن ابن سندر كان يمتلك مُنْيَة الأصبغ امتلاكا تاما ، فلم ينته امتلاكه لها بوفاته ، وإنما كانت لورثته من بعده ، كما كان لهؤلاء الورثة أنفسهم الحق فى بيعها فيما بعد . وبالطبع كان على ابن سندر أن يدفع العشر كزكاة مسلم .

كما يذكر ابن عبد الحكم فى كتابه إقطاعا آخر ، فيقول : «وأقطع عمرو بن العاص ، حين ولى ، وردان مولاه ، الأرض التى خلف القنطرة». كما يشير أيضا إلى اقطاعات كانت للوليد بن عبد الملك فى مصر .

ويقول المقريزى : «وقد كان خلفاء بنى أمية ، وخلفاء بنى العباس ، يقطعون الأراضى من أرض مصر النفر من خواصهم ... وما أقطع من الأرض فانه بيد من أقطعه» .

وقد كان هؤلاء - فى رأينا - يدفعون عنها العشر .

هذا فيما يتعلق بالاقطاعات التى كانت للعرب فى مصر . ولكن هل كان للمصريين اقطاعات؟

نلاحظ أن المقريزى فى كتابه قد أشار إلى قرية طاء النمل [1] التى كانت ضيعة تابعة لسيدة قبطية تدعى ماريه ، وقد أشار اليها خلال زيارة المأمون لقرى مصر ، ويقول المقريزى : إن المأمون لم يدخل هذه القرية لحقارتها ، إلا أن السيدة مارية القبطية دعته إلى حد التوسل لدخول القرية، «فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ونزل ، فجاء ولدها إلى صاحب

---

(١) وهى قرية طنامل إحدى قرى مركز اجا من مديرية الدقهلية . وفى عام ١٢٢٨ هـ قسمت طنامل إلى ناحيتين احداهما هذه وهى طنامل الاصلية وقد تميزت بالشرقية بالنسبة لموقعها من طنامل الغربية وهى المستجدة .

المطبخ (١) وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادة ، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة . و كان مع المأمون أخوه المعتصم ، وابنه العباس ، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكثم (٢) . والقاضى أحمد بن أبى دواد (٣) ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ، ولم تكل أحدا منهم ، ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا ، حتى إنه استعظم ذلك.

فلما أصبح ، وقد عزم على الرحيل ، حضرت إليه ومعها عشر وصائف، مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بُعد ، قال لمن حضر : قد جاءتكم القبطية بهدية الريف ، الكامخ (٤) ، والصحناه والصير (٥) . فلما وضعت ذلك بين يديه ، اذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فاستحسن ذلك، وأمرها باعادته ، فقالت : لا ، والله لا أفعل . فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله ، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك . فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن فى بعض ما صنعت الكفاية ، ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك.

---

(١) وهو المسئول عن طعام المأمون وحاشيته .

(٢) يحيى بن أكثم القاضى أبو محمد المروزى ثم البغدادى ، كان فقيها مجتهدا مصنفا ، غلب على المأمون حتى أخذ بمجامع قلبه وقلده القضاء وتدبير مملكته ، وكانت الوزراء لا تعمل الشيء الا بعد مطالعته . وقد ولى قضاء البصرة عام ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م وهو ابن ثمان عشرة سنة . وتوفى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦م

(٣) هو أحمد بن أبى دواد ، أبو عبد الله . يذكر ابن خلكان انه عندما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤١ م) جعله قاضى القضاة وعزل يحيى بن أكثم . وأحمد بن أبى دواد هو الذى امتحن الإمام أحمد بن حنبل ، وألزمه بخلق القرآن الكريم وذلك فى عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م وقد توفى عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وقد ذكره المقريزى باسم أحمد بن داود، والاسم الذى ذكرته فى المتن هو الصحيح .

(٤) الكامخ بفتح الميم وربما كسرت . جمع كوامخ : إدام يؤتدم به . وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشتهى الطعام ، وهى كلمة فارسية .

(٥) الصحناه والصير أنظر عنهما فى الموضوع الخاص بالطعام والشراب .

فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت : ياأمير المؤمنين ، هذا - وأشارت إلى الذهب - من هذا . وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ، ثم من عدلك يا أمير المؤمنيين ، وعندى من هذا شىء كثير .

فأمر به ، فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج ، وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها » .

ونفهم من هذا النص ، أن الأقباط كانت لهم اقطاعات فى مصر ، وأن هذه الاقطاعات كانت ملكية تامة يدفع عنها الخراج كضريبة للأرض ، بدليل إعفاء المائتى فدان من قريتها من الخراج ، واقطاعها ضياعا أخرى إلى جانب ذلك .

ثانيا : الأحباس أو الأوقاف

بعد الفتح العربى ظهرت أراضى الوقف ، وهى أرض تحبس أو توقف على مشروعات خيرية ، أو على أشخاص بشروط يحددها الواقف ، وقد أنشىء ديوان الأحباس أو الأوقاف فى مصر عام ١١٨ هـ / ٨٣٦ م . وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه .

ثالثا : نظام القبالات

نظرا لعجز الدولة عن تحصيل الخراج بواسطة عمالها ، فقد لجأت إلى نظام القبالات أو نظام الإلتزام . وهذا النظام يعنى إيجار حق جباية الضرائب ، وخاصة خراج الأرض للذين يقدمون أعلى مبلغ عنه فى عمليات مزايدة .

ولم يقتصر هذا الحق - أى حق جباية الضرائب - على فئة بعينها ، وانما كان لكل إنسان الحق فى أن يكون ضامنا أو ملتزما ، سواء أكان من الأمراء أم الجند أم وجوه البلاد أم سكان القرى أم العرب أم القبط وكان يجب على كل منهم دفع الخراج فى المواعيد المعينة .

وقد قسم جرجى زيدان المتقبلين إلى نوعين : الولاة ، والملتزمون .

أولا : بالنسبة للولاة ، فان الشرع الإسلامى قد أبطل تضمين الولاة للخراج، «لأن العامل مؤتمن يستوفى ما وجب ويؤدى ما حصل ، فهو كالوكيل الذى أدى الأمانة ، لم يضمن نقصانا ولم يملك زيادة ، لذلك فإن الصحابة فى صدر الإسلام منعوا هذا التضمين . ويستدل على ذلك بما ذكره الماوردى فى كتابه ، فهو يقول :

« فأما تضمين العمال لأموال العشر والخراج فباطل ، لا يتعلق به فى الشرع حكم . وحكى أن رجلا أتى ابن العباس رضى الله عنه يتقبل منه الأبلة (١) بمائة ألف درهم ، فضربه مائة سوط وصلبه ، تعزيزا وأدبا» .

ويقول أيضا أبو يوسف للرشيد فى كتابه عن تضمين الولاة :

«ورأيت أن لا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد ، فان المتقبل اذا كان فى قبالته فضل عن الخراج ، عسف أهل الخراج ، وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم» .

ثانيا : بالنسبة للملتزمين ، وهم أناس من أهل الغنى أو النفوذ ، فقد كانوا يتقبلون الأراضى ، أى يضمنونها ، من متولى الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة ، فيضمن الواحد قرية أو بلدا أو كورة فيزرعها ويستغلها ويدفع ماعليها من الخراج ويستولى على الباقى .

ويقول جرجى زيدان : إن هذا النظام كان معروفا من أيام اليونان ، ثم شاع فى المملكة الرومانية واقتبسه العرب عنهم .

ويذكر الحافظ بن رجب فى كتابه أن تقبل الأرض بخراجها ، عقد لازم من جهة الامام ، مادام المتقبل قادرا على أداء خراجها وعمارتها ، فان عجز عن عمارتها رفعت يده عنها ، وكذا إن امتنع عن أداء الخراج .

ومن المتقبلين الذين ذكرتهم المصادر العربية : أحمد بن يحيى الوزير ابن سليمان بن المهاجر التجيبى ، أبو عبد الله المصرى الحافظ النحوى ، يقول عنه السيوطى : ولد عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤م . وكان من أعلم أهل زمانه

---

(١) الأبلة : بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها . وهى بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ، وهى أقدم من البصرة ، لأن البصرة مصرت فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح من قبل كسرى وقائد .

بالشعر والأدب وأيام الناس ، صحب الشافعى وتفقه به ، وكان يتقبل ـ فيما ذكر ـ بعضهم ، أى يستأجر الأراضى للزرع ، ويعمل للفلاحة ، فانكسر بعض الخراج ، فحبسه أحمد بن محمد بن المدبر على ما انكسر عليه ، فمات فى السجن عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥م وقيل عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م .

وقد أخذ نظام القبالة فى الانتشار تدريجيا فى العصر العباسى ، حتى وجد قبالون يستأجرون الخراج عن مصر كلها ، بل إن الخليفة كان هو الذى يطلب ذلك .

فقد أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٣-٧٧٤م) إلى نوفل بن الفرات ، عامل خراج مصر، أن يعرض على محمد بن الأشعث والى مصر (١٤١ ـ ١٤٣هـ/ ٧٥٨ ـ ٧٦٠م) ضمان خراجها ، فيقول الكندى : «بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات : أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر ، فان ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلى ، وإن أبى فاعمل على الخراج» .

كما تشير المصادر العربية إلى أن محفوظ بن سليمان ، عامل خراج مصر (١٨٧ هـ / ٨٠٣م) ، قد أرسل إلى الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) يضمن له خراج مصر ، فيقول الكندى : «فرفع محفوظ إلى أمير المؤمنين يضمن له جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولاعصا ، فولاه أمير المؤمنين الخراج ، وصرف الليث بن الفضل عن صلاتها وخراجها» .

ويرى جرجى زيدان أن ضمان الولاة لخراج مصر ، قد أعطى لهم الحق فى الاستيلاء على مايتبقى من خراج البلاد مهما كان مقداره .

وقد أشار المقريزى فى كتابه إلى نظام القبالات ، وكيفية توزيع الأراضى على القبالة فيقول : «وكان من خير أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها ، واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ـ أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط . فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ،

وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج ، يكتبون ماينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فاذا انقضى هذا الأمر ، خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها ، إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها ، بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ماينفقه على عمارة جسورها وسد تراعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين - يقال لما تأخر من مال الخراج «البواقى» - وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها ، وعدلوها تعديلا جديدا، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها . ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه ، وصار العسكر منزلا لأمراء مصر ، فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون ، ثم نقل أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس . فلما مات الوزير نقل الديوان إلى القصر بالقاهرة ، واستمر به مدة الدولة الفاطمية ، ثم نقل منه بعدها» .

يتضح من هذا النص الحقائق الآتية :-

أولا : ان القائم بتوزيع القبالات هو متولى الخراج ، وأنه كان يدون مكان وأسماء من تولى هذا الحق فى كتاب يعرف بكتاب الخراج .

ثانيا : أن المكان الذى كان يقوم فيه متولى الخراج بتوزيع القبالات ، كان يختلف باختلاف الدولة الحاكمة ، ففى عصر الولاة كان متولى الخراج يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، وبمجىء أحمد بن طولون وتأسيسه للدولة الطولونية انتقل إلى جامع أحمد بن طولون ، ثم عندما جاءت الدولة الفاطمية انتقل فى البداية زمن العزيز نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس ، ولما مات الوزير انتقل الديوان إلى القصر بالقاهرة ، واستمر به طوال قيام الدولة الفاطمية ، ثم نقل

منه بعدها ـ على حد قول المقريزى ، وهكذا ارتبط مكان متولى الخراج بالدولة الحاكمة .

ثالثا : أن عملية توزيع القبالات كانت تقوم فى علنية أو عن طريق اعلان مسبق برجل ينادى فى البلاد «صفقات صفقات» .

رابعا : أن مدة ايجار حق جباية خراج الأراضى كان يمتد فى كثير من الأحيان إلى أربع سنوات تبعا لحالة الأرض الزراعية أو أوقات الجفاف [1] .

خامسا : وبعد مرور ثلاثين سنة [2] كانوا يقومون بتعديل تقاسيم البلاد كلها، فتمسح الأراضى ، فيزيد فيما يحتمل الزيادة ، وينقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها .

---

(١) يقول المقريزى فى هذا النص عن سبب امتداد مدة ايجار حق جباية خراج الأرض : إنه كان «لاجل الظمأ والاستبحار» ، والاستبحار هنا ربما يقصد به المقريزى (الأرض المستبحر) أرض منخفضة تشبه البركة فاذا انحدر اليها الماء تجمع فيها ، ولا يجد الفلاح سبيلا إلى صرفه عنها ، فيقعدها عن الزراعة إلى أن يزول عنها الماء ، وقد ينتفع بهذا الماء عند الجفاف فيرفع بآلات رفع الماء كالطنبور والساقية فى رى ماجاورها من أراضى .

(٢) يقول المقريزى فى هذا النص «فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة» . وقد اقتضت منا هذه العبارة جهدا كبيرا لمعرفة ماهو المقصود منها ؟ وقد تبين لنا من دراسة كل مايتعلق بهذا الموضوع ، أن هذا القول يتعلق بنظام التقويم الهجرى . فما هو هذا النظام ؟

التقويم الهجرى يعتبر السنة ١٢ شهرا قمريا أى ٣٥٤ يوما تقريبا ، بإعتبار أن الشهر الأول وهو «محرم» يكون ٣٠ يوما ، ثم يليه «صفر» ٢٩ يوما ، ثم «ربيع الأول» ٣٠ يوما ، ثم «ربيع الآخر» ٢٩ يوما.. وهكذا حتى نصل إلى الشهر الأخير وهو «ذو الحجة» فيكون ٢٩ يوما . غير أن حساب الشهور بهذه الطريقة يجعل السنة المدنية تساوى ٣٥٤ يوما تقريبا ، فى حين أن السنة القمرية الحقيقية تساوى ٣٥٤ر٣٦٧٠٥٦ يوما ، أى تزيد عن السنة المدنية بقدر ٣٦٧ر. من اليوم تقريبا . ويبلغ بذلك هذا الفرق ١١ يوما كل ٣٠ سنة ، لذلك يلزم اضافتها فى هذه المدة ، ولتحقيق ذلك اتفق على أن يعتبر فى كل ٣٠ سنة ، ١١ سنة كبيسة محتوية على ٣٥٥ يوما . وترتيب السنين الكبيسة فى مدة ٣٠ سنة هو - السنة الثانية ـ والسنة الخامسة ـ والسنة السابعة ـ ثم السنة رقم ١٠ ـ ورقم ١٣ ـ ورقم ١٦ ـ ورقم ١٨ ـ ورقم ٢١ ـ ورقم ٢٤ ـ ورقم ٢٦ وأخيرا السنة رقم ٢٩ . أى أنه فى كل سنة من هذه السنوات يضاف إليها يوما لتصبح ٣٥٥ يوما ، وتسمى بالسنة الكبيسة .

ولمعرفة السنة الكبيسة من السنة البسيطة ، تقسم السنة على ٣٠ ، فإذا كان الباقى أحد=

سادسا : يظهر من النص أن متقبلى الأراضى كانوا يقومون بتولية زراعة الأراضى ، وإصلاح جسورها ، وسد ترعها ، وحفر خلجها وغير ذلك من الأعمال ، وأنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال بأنفسهم مع أهاليهم ، أو ينتدبون غيرهم لذلك .

سابعا : كما يبين النص أن خراج الأراضى كان يدفع فى أوقاته على أقساط ، وكان يحسب للمتقبل من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها .

ثامنا : وأخيرا يبين النص أن المتقبلين كانوا يتأخرون كل سنة فى دفع مبلغ الخراج المفروض عليهم ، وكان يطلق على المتأخر من مال الخراج «البواقى» .

=السنوات التى ذكرتها كانت كبيسة ، وإلا فإنها بسيطة .

فمثلا . سنة ١٣٥٩ لمعرفة ما اذا كانت هذه السنة بسيطة أم كبيسة ، تقسم على ٣٠ (وهى مدة التقويم الهجرى) وذلك لمعرفة كم فترة ثلاثينية تضمها سنة ١٣٥٩ .

فنجد أن ١٣٥٩ ÷ ٣٠ = ٤٥٫٣ تقريبا . أى أنها تضم ٤٥ فترة ثلاثينية تقريبا ، لان ٤٥ × ٣٠ = ١٣٥٠ . فإذا ما طرحنا منها السنة المراد معرفة نوعيتها أى : ١٣٥٩ - ١٣٥٠ = ٩ فيكون الباقى ٩ ، وهذا الباقى يوازى السنة التاسعة ، وهى ليست سنة كبيسة . ولذلك تعتبر سنة ١٣٥٩ سنة بسيطة .

أما سنة ١٣٧١ فنجد أن ١٣٧١ ÷ ٣٠ = ٤٥٫٧ تقريبا . أى أنها تضم ٤٥ فترة ثلاثينية تقريبا . وحاصل ضرب ٤٥ × ٣٠ = ١٣٥٠ . وطرح ١٣٧١ - ١٣٥٠ = ٢١ .

وهذا الباقى يوازى السنة رقم ٢١ وهى سنة كبيسة . لذلك تعتبر سنة ١٣٧١ سنة كبيسة .. وهكذا وهذا التقويم جعل كل ٣٠ سنة محتوية على ٣٠ سنة × ٣٥٤ يوما + ١١ يوما (الفرق بين السنة المدنية والسنة القمرية) = ١٠٦٣١ يوما .

أى أن متوسط أيام السنة = $\frac{١٠٦٣١}{٣٠}$ = ٣٥٤٫٣٦ يوما

وهذا ينقص عن السنة الحقيقية بنحو ٠٫٠٠٠٤ من اليوم ، ويبلغ هذا الفرق بعد مضى ٢٥٠٠ سنة ، يوما كاملا لان (٠٫٠٠٠٤ × ٢٥٠٠ = ١٫٠٠٠٠) ، لذلك ينبغى اضافة يوم لهذه الفترة .

وهكذا يتضح مما سبق أن مدة الثلاثين عاما ، هى المدة التى اعتمد عليها نظام التقويم الهجرى . وتعتبر فترة الثلاثين سنة الأولى تبدأ من أول محرم سنة واحد ، والثانية من أول محرم سنة ٣١ ، وهكذا تتوالى الفترات بعد كل ٣٠ سنة .

لذلك فإن مرور ثلاثين سنة يعتبر فترة جديدة ، وهذا ماكان يقصده المقريزى .

الفصل الثانى :

النظام المالى فى مصر

نظام جباية الخراج والجزية

جباية الخراج

جباية الجزية

خلط المصادر العربية بين معنى كل من الخراج والجزية

خراج مصر

المقصود بمصطلح " خراج مصر "

قيمة خراج مصر

طريقة إرسال خراج مصرالى الخليفة

الفصل الثانى
النظام المالى فى مصر

لم يختلف موقف مصر كثيرا بانتقالها من يد الدولة البيزنطية الى يد العرب، فكما كانت مصر خزانة للدولة البيزنطية صارت خزانة للعرب ، ويظهر ذلك بوضوح من رد عمرو بن العاص على صاحب إخْنَا عندما أراد أن يخبره ما عليهم من الجزية ، فقال له ، وهو يشير الى ركن الكنيسة : « لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثُر علينا، كثرنا عليكم ، وإن خُفف عنا ، خَففنا عنكم . » فلم تختلف درجة استغلال مصر اختلافا كبيرا وهى تحت سيطرة بيزنطة عن درجة استغلالها وهى تحت سيطرة العرب ، فكما كانت مصر تدفع جزية عينية وترسل قمحا إلى القسطنطينية ، أصبحت ترسل الى مقر الخلافة آنذاك وهى المدينة ، وكما كان المصريون يدفعون ضريبة الرأس باعتبارهم خاضعين للروم ، أصبحوا يدفعونها الى العرب باعتبارهم تحت حمايتهم (ذميين) ، ويظهر ذلك من قول صاحب الاسكندرية - أى المقوقس - الى عمرو بن العاص : « إنى قد كنت أُخرج الجزية الى من هو أبغض الىَّ منكم معشر العرب لفارس والروم ، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبايا أرضى ، فعلت » .

ويدافع الدكتور محمد ضياء الدين الريس عن فرض العرب لهذين النوعين (أى الخراج والجزية) من الضرائب بقوله : إنه اذا كان الاسلام قد أبقى على هذين النوعين إلا أنه قد ألغى أكثر الضرائب ، هذا الى جانب أن معنى أنه أبقاهما يعنى أنه لم يكن المبدع أو الواضع لهما ، وانما كان

استمرارا لما كان موجودا فى عهد الدولتين السابقتين لمدى قرون عديدة . وهذا بالطبع ليس له عندنا غير معنى واحد ، وهو ما ذكرته سابقا من أن موقف مصر لم يختلف كثيرا بانتقالها من يد الدولة البيزنطية الى يد العرب ، خاصة وأن العرب لم يجهلوا ثروة مصر قبل الفتح ، بل إن ثروتها كانت من أسباب فتحهم لها - كما تذكر الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف .

وهنا يجدر بنا أن نفرق بين ما نص عليه الاسلام من تحديد قيمة كل من الجزية والخراج تبعا لطاقة الفرد ، وبين السياسة التى طبقت بالفعل من قبل الخلفاء أو من قبل الولاة فى البلاد التى تولوها ، فقد ذكرت سابقا كيف أن محفوظ بن سليمان ، عامل خراج مصر عام (١٨٧ هـ / ٨٠٣ م) ، يطلب من الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) ضمان خراج مصر كله " بلا سوط ولا عصا " ، مما يدلنا على أن الولاة كانوا يُكرهون الناس على دفع الخراج ويعذبونهم . لذلك - نرى - أن سياسة التعسف فى جمع الضرائب وعدم مراعاة طاقة الفرد هى التى أدت الى قيام الأهالى بالثورات فيما بعد لعجزهم عن دفع الضرائب ، كما أدت الى نشأة نظام مثل نظام القَبّالة الذى كان من أهم أسباب نشأته هو ضمان حصول الدولة على الضرائب كاملة وبأعلى عائد ممكن .

وقد ذكرت سابقا كيف أن قواد العرب طلبوا من عمرو بن العاص تقسيمها ، إلا أن عمر بن الخطاب رفض ، على أساس أن جزية قائمة تكون لهم ولمن بعدهم من المسلمين أفضل من فئ يقسم " ثم كأنه لم يكن " .

وأذكر هنا بعض العبارات التى وردت فى الخطابات المتبادلة بين عمر ابن الخطاب وعمرو بن العاص بشأن إرسال الخراج للخلافة وابطاء عمرو فى ارساله ، وقلة الخراج فى ولايته ، لأدلل بها كيف كانت الخلافة تستغل مصر أقصى استغلال . فتذكر المصادر العربية أنه عندما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج من قبل عمرو بن العاص أرسل له خطابا وردت فيه العبارات الآتية :

« أما بعد ، فانى فكرت فى أمرك ، والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة ، عريضة رفيعة ، قد اعْطَى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر،و أنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عُتُوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ! وأعجب ما عجبت أنها لاتؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . » ثم يقول له : « لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك » .

فرد عليه عمرو بن العاص قائلا : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين . . . فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى ، واعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، لأنهم كانوا – على كفرهم وعتوهم – أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ، وذكرت أن النهر يخرج الدرُّ ، فحلبتها حلبا قطع ذلك دَرّها» .

فأرسل عمر بن الخطاب خطابه الثانى اليه قائلا فيه : « ولم أُقْدِمْك الى مصر أجعلها لك طُعْمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج ، وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فانما هو فئ المسلمين» .

فرد عليه عمرو برسالة ورد فيها : « ولكن أهل الأرض استنظرونى الى أن تُدْرِك غَلّتهم ، فنظرت للمسلمين ، فكان الرفق بهم خيرا من أن يُخْرَق بهم، فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه »

ومن هذه الرسائل المتبادلة يظهر لنا الآتى :

أولا : حرص عمر بن الخطاب على الخراج ، ومقارنته بين قيمة الخراج بعد الفتح وقيمته قبل الفتح ، وإلحاحه على عمرو حتى يصل المبلغ المستخرج من وادى النيل الى ما كان عليه أيام الحكم البيزنطى .

ثانيا : كما تظهر مسألة غاية فى الأهمية وهى عدم اهتمام ولاة العرب بالاصلاحات فى مصر ، ويظهر ذلك بوضوح شديد فى قول أحد أقباط

مصر لعمر بن الخطاب ، عندما طلب من عمرو إرسال أحدهم ليخبره عن مصر وخراجها قبل الاسلام ، فقد قال له : « يا أمير المؤمنين ، كان لا يؤخذ منها شئ إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر الى العمارة ، وإنما يأخذ ما ظهر له ، كأنه لا يريدها إلا لعام واحد » .

وكان عمر بن الخطاب قد كتب الى عمرو بن العاص ليسأل المقوقس عن العوامل التى تؤدى الى خراب مصر أو عمارتها ، فقال له المقوقس : تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه :

أولا : أن يستخرج الخراج فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم .

ثانيا : ويُرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها .

ثالثا : وتحفر فى كل سنة خُلُجها .

رابعا : وتُسد ترعها وجسورها .

خامسا : ولا يُقبل مطل أهلها . فاذا فعل هذا فيها ، عمرت ، وإن عمل فيها بخلافه خربت .

ويذكر أبو المحاسن فى كتابه السبب فى عدم اهتمام الولاة بالزراعة وإقامة الجسور وبناء القناطر وغيرها ، وبالتالى نزول خراج مصر ، فيقول :

« وسبب نزول خراج مصر أن الملوك لم تسمح لهم نفوسهم بما كان ينفق فى حفر ترعها واتقان جسورها ، وازالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالقصب والحلْفاء وغير ذلك » .

وفى رأيى أن سبب عدم اهتمام الولاة بالاصلاحات يرجع الى :

١ - أن المرحلة الأولى من الفتح كانت مرحلة غزو .

٢ - قِصر مدة تولى الوالى مصر ، وعلمه بذلك جعلته لا يهتم بشئون مصر ، لأن مهمته هى الدفاع عنها واستخراج الخراج وارساله الى الخليفة ، سواء أكان هو المتولى للخراج أم هناك آخر متوليه ، بدليل أن الولاة

الذين تولوا مصر مدة طويلة كان لهم نشاط ملحوظ . وقِصر مدة تولى الوالى مصر لم تؤدِ فقط إلى عدم الاهتمام بالاصلاحات ، وإنما الى جمع المال بأية وسيلة أيضا ، مما أدى الى ظلم الأهالى ، فاشتهر معظم ولاة ذلك العصر بالشدة فى جمع الخراج .

٣ ـ أن مصر لم تكن للوالى بلدا له بقدر ما هى خزانة تدر على خلافته ربحا ، لذلك عندما جاء الطولونيون ثم الاخشيديون الى مصر ، واتخذوها وطنا لهم ولأولادهم ، وأقاموا بها الدولتين الطولونية ثم الاخشيدية ، قاموا بكافة الاصلاحات بها . فيذكر المقريزى أن أحمد بن طولون عندما تسلم أرض مصر من أحمد بن المدبر كانت قد خربت حتى إن خراجها بلغ ٨٠٠ ألف دينار ، فقام أحمد بن طولون بالاصلاحات فى مصر ، وكما يقول المقريزى " وبالغ فيها " ، حتى وصل خراجها الى ٤ مليون و ٣٠٠ ألف دينار ، وذلك فى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م .

ثالثـا : أيضا يظهر لنا – من قراءتنا لهذه الرسائل المتبادلة بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب – أن النظام الادارى يقوم لخدمة النظام الاقتصادى الذى تفرضه الدولة الحاكمة ، مما جعل عمر بن الخطاب يُذكّر عمرا بأن تعيينه فى وظيفة والى على مصر تحتم عليه توفير الخراج اللازم ، ويبرر الدكتور مصطفى طه بدر هذا الموقف لعمر بن الخطاب بأن عمر بن الخطاب كان يرمى من ذلك ضبط النظام ، وأنه كان يخشى أن يأخذ الولاة الأموال لأنفسهم ، ويختتنوا على حساب بيت المال . فهو يرى أن عمر بن الخطاب كان معروفا طوال مدة خلافته بتحرى العدل بين الناس جميعا وبالعطف على رعيته . ثم أورد فى كتابه قصة الشيخ اليهودى الذى رآه عمر بن الخطاب فى زيارة له فى بلاد الشام وهو يتسول ، وعرف أنه يفعل ذلك ليجمع الجزية المفروضة عليه، فأمر باعفائه من الجزية هو وأمثاله من العاجزين الفقراء .

ويظهر لنا أيضا استغلال العرب لمصر ، من استيلاء عمرو بن العاص على أموال الأقباط فى مصر على الرغم من أن مصر قد عوملت كدولة فتحت

صلحا ، وكان من ضمن شروط الصلح أن لا تنزع كنوزهم ، فعندما فتحت مصر طالب عمرو بن العاص الأقباط باعطائه كنوزهم ، حتى إنه قتل أحدهم عندما علم باخفائه كنزه . ويدافع أبو عبيد عن موقف عمرو هذا بأنه كان قد صالحهم " على أن لا يكتموه أموالهم " ، وبالتالى فعندما كتمه أحدهم استحق القتل .

كما يظهر هذا الاستغلال من رد عمرو على عثمان بن عفان ، فعندما أرسل عبد الله بن سعد - والى مصر (٢٤ هـ/ ٦٤٤ م) من قبل عثمان بن عفان - خراج مصر ، وكان يقدر بأربعة عشر ألف ألف دينار أى زيادة على خراج مصر زمن عمرو بن العاص ، قال عثمان لعمرو : « هل تعلم أن تلك اللقاح درّت بعدك ؟ فقال عمرو : إن فصالها هلكت » ! ويذكر ابن عبد الحكم أن عثمان قال لعمرو : « يا أبا عبد الله درّت اللقحة بأكثر من درها الأول ، قال عمرو : أضررتم بوليدها » .

كما يبدو بوضوح استغلال العرب لمصر من رسالة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ/ ٧١٤ - ٧١٧ م) الى أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر (٩٦ هـ/ ٧١٤ م) ، فقد أرسل اليه يقول : « احلب الدّر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم » ، وعندما فعل أسامة ما أمره به ، أعجب به وقال : " هذا أسامة لا يرتشى دينارا ولا درهما ، فقال له ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ، ولا يرتشى دينارا ولا درهما . قال سليمان : ومن هو ؟ قال عمر : عدو الله ابليس . فغضب سليمان وقام من مجلسه " . وهكذا يظهر لنا أن الخليفة كان فى أوقات كثيرة هو الذى يحث متولى الخراج على الزيادة .

أولا : (جباية الخراج)[1]

يتضح مما أورده ابن عبد الحكم فيما يختص بقيمة وطريقة جباية الخراج فى مصر ، أنها كانت استمرارا للنظام البيزنطى وفى ذلك يقول :

" كان عمرو بن العاص ، لما استوثق[2] له الأمر ، أقر قبطها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء[3] كل قرية ورؤساؤها ، فيتناظرون[4] فى العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور[5] ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ، ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبدءون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا إلى مافى كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيها

---

(١) يذكر الدكتور محمد ضياء الدين الريس فى كتابه « الخراج والنظم المالية » ان كلمة الخراج ليست عربية اصيلة ، وانما هى نقلت عن اللغة اليونانية عن طريق البيزنطيين ، أو هى تعريب الكلمة الأرامية «Choregia» وكانت تعنى الضريبة بصفة عامة . غير انه راى أن استعارة العرب لهذه الكلمة كانت قبل مجئ الاسلام على اعتبار أنها قد استعملت فى القرآن ، وتكرر ورودها فى الأحاديث ، وعلى لسان العرب قبل بدء الفتوح .

(٢) استوثق: والصحيح استوسق أى انتظم له الأمر

(٣) والعريف دون الرئيس . والعريف ـ وكما تذكر الدكتور سيدة إسماعيل كاشف ـ معناها كاتب ، وهى المقابلة للكلمة اليونانية جرافس اى كاتب .
وكان ينصب على كل جمع عريفا لمعرفة من اسلم منهم ومن مات ، ومن بلغ من صبيانهم ، ومن قدم عليهم ، او من سافر منهم ، وعليه احضارهم لأداء الجزية أو عند تقديم شكوى من تعدى الذمى على أحد من المسلمين ونحو ذلك .

(٤) يتناظرون أى يتجادلون .

(٥) الكورة : جمع كور وهى البقعة التى تجتمع فيها المساكن والقرى . وترى الدكتور سيدة إسماعيل كاشف أن « كورة لفظ يونانى احتفظ به العرب .. وكانت الكور مقسمة بدورها إلى قرى »

جالية (١) قسموا عليها بقدر احتمالها ، وقل ما كانت إلا للرجل الشاب أو المتزوج ، ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز احد وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا(٢) قسموا ذلك على عدتهم (٣) ، وكانت قسمتهم على قراريط ، والدينار أربعة وعشرين قيراطا ، يقسمون الأرض على ذلك (٤) – وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا " – وجعل عليهم لكل فدان نصف إردب (٥) قمح وويبتين (٦) من شعير إلا القرط (٧) فلم يكن عليه ضريبة ، والويبة يومئذ ستة أمداد (٨) " .

ويتضح من هذا النص الحقائق الآتية :

أولا : أن عمرو بن العاص عندما أقر قبط مصر على جباية الروم ، كان يقصد من ذلك الضرائب التى فرضها الروم سواء كانت خراجا أو جزية أو غيرهما .

---

(١) جالية : اختلف المؤرخون فى تفسير معناها ، فيذكر محقق كتاب السيوطى : " ان الجالية هى اهل الذمة، لان عمر اجلاهم عن جزيرة العرب" . أما احمد صادق سعد فيقول فى كتابه : إن اعيان الروم الذين ظلوا بمصر بعد الفتح العربى سموا " بالجالية " . وفى رايى أن هذا هو الراى الاقرب للصواب لمعنى كلمة "جالية" ، لان عبارة " لو كانت فيها (اى القرية) جالية " ، تدل على وجود عنصر آخر يسكن القرية ، لان قرى مصر بالطبع كان سكانها من أهل الذمة .

(٢) تشاحوا : اى بخل به بعضهم على بعض .

(٣) عدتهم : اى جماعتهم ، والعدة جمع عدد .

(٤) اى يدفع عن كل فدان (الذى يساوى ٢٤ قيراط) دينارا .

(٥) إردب : جمع أرادب ، مكيال ضخم وهو ٢٤ صاعا (مكيالا) ، والصاع ٤ أمداد . والإردب من وضع المصريين الاقدمين ، وقد سبقوا جميع الامم الى وضعه . والإردب يساوى اليوم عند المصريين ١٩٨ لترا.

(٦) الويبة : اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مداً . وهو مكيال للحبوب ، سعته سدس الإردب ، وتستعمل فى مصر .

(٧) القرط : أى علف الماشية .

(٨) أمداد : المد يساوى ١٨ ليترا افرنجيا على التقريب .والمد من الكلمة اللاتينى Modium او Modius وهو عند الرومان مكيال للسوائل والجوامد ، ثم اطلق عندهم على المكيال ، ويختلف عندهم باختلاف البلدان والازمان .

ثانيا : أن طريقة الجباية كانت تبدأبعقد اجتماع سنوى بين مشايخ القرى لمناقشة العمارة والخراب فى كل قرية ، ثم يجتمعون برؤساء الكور ، ثم يوزعون الخراج على احتمال القرى وسعة المزارع ، وتقوم كل قرية ، قبل توزيع الخراج ، باستبعاد فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان . بعد ذلك يقومون بتحديد الجزية للصناع والأجراء ، ويقسمون عليهم بقدر احتمالهم، ولو كانت فى القرية جالية قسموا عليها بقدر احتمالها . بعد ذلك يقسمون الأرض التى زادت عن القرية بين من يريد الزرع ، فان عجز أحد بسبب ضعفه عن زرع أرضه ، تعطى لآخر يريد الزيادة .

ثالثا : أن الخراج كان ينقسم الى نوعين . خراج نقدى ، وخراج عينى . وبالنسبة للخراج النقد ى فكان يقدر بدينار عن كل ٢٤ قيراط (أو عن كل فدان) . أما الخراج العينى فكان يقدر بنصف إردب قمح وويبتين من شعير عن كل فدان ، ويضيف ابن عبد الحكم فى موضع آخر : « لا أدرى كم من الودك [١] والعسل ، وعليهم من البز [٢] والكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس ، ويضيّفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاث ليال » . ويضيف البلاذرى الى ذلك إلزام « كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطى زيت، وقسطى عسل، وقسطى خل، رزقاً للمسلمين، تجمع فى دار الرزق، وتقسم فيهم».

وكان يطلق على الضريبة التى تدفع عيناً فى أوراق البردى العربية اسم ضريبة الطعام. وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: إن الضرائب العينية كانت ترسل إلى أهراء الفسطاط أو بابليون، أما الضرائب النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال عن طريق فروعه فى الأقاليم .

---

(١) الودك : أى الدسم من اللحم والشحم .

(٢) البز : جمع بزوز ، أى السلاح او الثياب من الكتان أو القطن .

رابعاً : أن قيمة هذا الخراج كانت - كما يقول ابن عبد الحكم «بالتعديل» - أى لم يكن الخراج مبلغاً ثابتاً يُفرض على وحدة المساحة الزراعية، بل يتغير سنوياً تبعاً لحالة الفيضان، وبالتالى حالة المحصول. كما كان يراعى فى تقدير الخراج ك ية المحصول التى تنتجها الأرض، وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو غامرة.

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن تعديل الخراج بالنقص لابد أن يكون نتيجة لسبب خارج عن إرادة المالك، مثل : الفيضان. أما إذا أهمل المالك استغلال أرضه عَمْداً، فيستحق الخراج المفروض.

أما تعديل الخراج بمعنى زيادته، فنلاحظ أن هذه الزيادة تكون تبعاً لزيادة مساحة الأرض والزرع، لذلك يقول ابن عبد الحكم في موضع آخر: «لا يُزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يُلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع». وقد أورد الحافظ ين رجب في كتابه: «أنه لا تجوز زيادة الخراج لزيادة الأسعار، ولا نقصه لنقصها».

خامساً : يُفهم من طريقة الجباية أن الخراج بنوعيه النقدى أو العينى، وأيضا الجزية، كانت توضع إجمالاً على القرية بأكملها، وأن شيخ القرية يُعتبر هو المسئول عن الخراج أو الجزية أمام صاحب الكورة أو القُبَّال، الذى يسأل عنها بدوره أمام الوالى . وبمعنى آخر، فقد كانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها. وينطبق هذا الوضع على طوائف الصناع والتجار، فقد كانت الجزية تفرض على كل الطائفة إجمالاً، وتوزع على أفرادها بمعرفة شيخها الذى هو منها.

سادساً : يظهر أيضاً من النص أن قيمة جزية القرية الإجمالية كانت بالتعديل أيضاً، وذلك فيما يبدو تبعاً لزيادة أو نقص عدد أهل القرية. فيقول ابن عبد الحكم : «إذا عَمرت القرية، وكُثر أهلها زيد عليهم، وإن قل أهلها وخربت نقصوا». فلو كان ابن عبد الحكم يقصد من ذلك الخراج، لما احتاج لذكر عدد سكان القرية، لأن الخراج يفرض على الأرض، ويتأثر بالعمارة والخراب، وليس على الرؤوس.

لذلك كان الولاة ـ فيما يبدو ـ يقومون باحصاء عدد سكان كل قرية بصفة دورية. فتشير المصادر إلى قيام الوالى ابن رفاعة، عند توليه مصر عام (١٠٩هـ/٧٢٧م) من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/٧٢٣ ـ ٧٤٢م) بإحصاء عدد السكان بنفسه، يساعده الأعوان والكتاب، حتى إنه ظل فى ذلك مدة ستة أشهر بالصعيد، وثلاثة أشهر بأسفل الأرض، وذلك بغرض تعديل الجزية. فيقول ابن عبد الحكم : «فأحصوا من القرى أكثرَ من عشرة آلاف قرية، فلم يُحصَ فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية .

سابعاً : إن من يعجز عن دفع ضرائبه كاملة بسبب عدم إمكانية زراعة أرضه، تعطى أرضه لمن يقدر على زراعتها، أو كما يقول المقريزى : «ذوى الاحتمال» .

ثانياً : (جباية الجزية)

إذا كان الخراج ضريبة على الأرض ، فالجزية ضريبة على الرءوس. واسم الجزية مشتق من الجزاء، والأصل فيها قوله تعالى:

﴿ قَاتِلُوا الذين لا يُؤمِنُونَ بِالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمُون ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ وهُم صَاغِرون﴾ (١) .

ويذكر الدكتور محمد ضياء الدين الريس فى كتابه أن الجزية «كانت بمثابة ضريبة مالية، للمساهمة فى واجب الدفاع نظير ضريبة الدم التى كان يدفعها المسلم فى حومة القتال، للدفاع عن الدولة كلها» .

وكان المصريون يعرفون الجزية باسم «دُمزيا».

وقد أجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس.

ورأى أبو حنيفة عدم جواز أخذ الجزية من العرب، حتى ولو كانوا من عبدة الأوثان.

---

(١) سورة التوبة (آية رقم ٢٩) .

والجزية لا تكون إلا على الأحرار، لأن الأسير إذا استرق فلا جزية عليه، لذلك يقول ابن عبد الحكم: «حدثنا عبد الملك بن مسلمة قال : كان لعبد الله بن سعد موالى نصارى، فأعتقهم، فكان عليهم الخراج»، ويقصد بالخراج هنا الجزية.

والجزية لا تجب أيضاً على إمراة ولا صبى ولا مجنون، لأنهم أتباع. ويرى الدكتور محمد ضياء الدين الريس أن الإسلام ألغى الامتياز الذى كانت تتمتع به طوائف خاصة تعفى من ضريبة الرأس أو حتى من غيرها، كالطبقات الأرستقراطية فى عاصمة مصر.

أما قيمة الجزية :

فيقول ابن عبد الحكم إن عمر بن الخطاب إذا فتح بلداً صلحاً، فإنه كان يأخذ من أهلها الجزية التى يتفقون عليها، بدون أن ينقص منها أو يزيد عليها، أما مَن لم يتفق معه على جزية معينة، فان عمر كان ينظر فى أمره، فيخفف عنهم أو يزيد على حسب إمكانياتهم، فيقول فى ذلك : «وكان عمر ابن الخطاب يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمّى على نفسه، لا يضع من ذلك شيئاً ولا يزاد عليه، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسمٍّ شيئاً يؤديه، نظر عمر فى أمره، فإذا احتاجوا خفف عنهم، وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم» .

وبدراستنا للمصادر الإسلامية نلاحظ أن الفقهاء قد اختلفوا فى قدر الجزية الواجبة على الفرد، فأبو حنيفة قد حدد الجزية على حسب الغِنى والفقر (أو حالة الفرد المادية)، فمثلاً : الأغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً، أما الفقراء فيؤخذ منهم إثنا عشر درهماً، ثم أشار إلى وجود طبقة متوسطة بين الأغنياء والفقراء، وذكر أنهم يُؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً، وهكذا جعلها مقدرة، كما منع من اجتهاد الولاة فيها.

وبالنسبة لمالك، فلم يحدد لها قيمة معينة، وإنما تركها لاجتهاد الولاة.

أما الشافعى فقد حدد القيمة الصغرى لها بدينار، وإن لم يحدد

القيمةالكبرى ، على أساس أنها ترجع لاجتهاد الولاة، وإن كانت لا تقل عن دينار، غير أنه رأى أن اتفاق الولاة فى تحديد قيمتها يجعلها لازمة لجميعهم ولأعقابهم قرناً بعد قرن، وأنه لا يجوز لوالى بعده أن يغيره إلى نقصان منه أو زيادة عليه.

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية التطبيقية فى مصر، فان قيمة الجزية التى صولح عليها الأقباط كانت على النحو الآتى :

يقول المقريزى نقلاً عن ابن عبد الحكم: «لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع مَن فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك، ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ على دينارين»، «لايزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين».

ثم يذكر ابن عبد الحكم أن وضع الاسكندرية بالنسبة للجزية، أو حتى للخراج، كان مختلفاً بالنسبة لوضع مصر، على أساس أنها فتحت عَنْوَة بغير عهد ولا عقد، فيرى «أنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يَرى مَن وليهم».

وتري الدكتورة سيدة كاشف: أن العرب عندما فتحوا مصر، لم يساووا الأقباط في دفع الجزية، وإنما كانت تتناسب مع ثروة الشخص، وتستند فى ذلك إلى أوراق البردى، ففى كتاب قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوة [1]، نجده يأمره بأن يرسل كشفاً بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان، والجزية الواجب عليهم أداؤها، وما يملكه كل رجل من الأراضى وما يقوم به من الأعمال، ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد مجال للشكوى أو الاستياء منه، ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً، ومعاقبة من يتنكب طريق العدل.

وتقول الدكتورة سيدة كاشف إنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص، وما يقوم به من

---

(١) أشقوة : كانت كورة من كور الصعيد، وهى الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا في محافظة أسيوط وقد عثر فيها عام ١٩٠١م على مجموعة من الأوراق البردية التى ألقت شعاعاً من النور على حكم قرة ابن شريك فى مصر .

عمل، وبالجزية الواجبة عليهم، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلاً في عمله، ولما هدده إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أي مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته، وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم.

وفى أحيان كثيرة كانت الجزية تؤخذ من أملاك أهل الذمة عيناً بقيمتها، ثم يتولى المسلمون بيعها. ولم يتورع الولاة عن أخذ الخمر والخنازير وبيعها، مما دفع بلال إلى استنكار هذا الأمر، ورفعه إلى عمر بن الخطاب الذى أمر بأن يتولى أهل الذمة البيع، ثم يأخذوا ذلك من أثمانها، على اعتبار أن الخمر والخنازير مال من أموال أهل الذمة، ولا تكون مالاً للمسلمين.

ويقول ابن عبد الحكم في ذلك أيضاً: «إن ما باع القبط فى جزيتهم، وما يؤخذون به من الحق الذى عليهم من عَبْد أو وليدة أو بعير أو بقرة أو دابة، فان ذلك جائز عليهم، جائز لمن ابتاعه منهم، غير مردود إليهم إن أيْسَروا».

ومعنى ذلك أن القبطى الذى يُعطى من أملاكه شيئاً بغرض استيفاء الجزيةُ التى عليه بسبب ضائقة ما، فانه ليس من حقه استرداد أملاكه مرة أخرى مقابل دفع الجزية المفروضة نقداً إذا زالت هذه الضائقة.

ويشترط عليهم فى عقد الجزية شرطان ـ كما يذكر الماوردى: مستحق، ومستحب. أما شرط المستحق فيتفرع إلى ستة شروط:

الأول: أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

الثانى: أن لا يذكروا رسول الله صلى عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء.

الثالث: أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه.

الرابع: أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح.

الخامس: أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه.

السادس: أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يُودوا أغنياءهم.

وهذه الشروط الستة حقوق ملزمة، يكون ارتكابها بعد ذلك نقضاً لعهدهم.

وأما شرط المستحب فيتفرع أيضاً إلى ستة شروط :

الأول : تغير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار.

الثاني : أن لايُعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساويين لهم.

الثالث : أن لا يُسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزير والمسيح.

الرابع : أن لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

الخامس : أن يُخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.

السادس : أن يُمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً [1] ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير.

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة، ولا يكون ارتكابها بعد ذلك نقضاً لعهدهم، ولكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون بها زجراً، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم.

وبالنسبة للوقت الذي يجب أن تجبى فيه الجزية، فقد ذكر الماوردي أنها تجب عليهم مرة واحدة في السنة بعد انقضائها بشهور هلالية.

ويذكر أبو يوسف: أنه في وقت جباية الجزية كانت تختم رؤوس أهل الذمة، وذلك حتى يفرغوا من عرضهم.

وفي زمن عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ/ ٧١٨ - ٧٢٠م) أصدر الكثير من التشريعات الخاصة بالجزية، وأرسلها إلى عماله على البلاد ومنها :

---

(١) والهجين من الخيل هو الذي ولدته برذونة (التركي من الخيل) من حصان عربي. وبمعنى آخر عندما يكون الأب عتيقاً أي كريماً والأم ليست كذلك، كان الولد هجيناً.

أولاً : جزية موتى القبط على أحيائهم: وكانت بداية هذه الفتوى عندما أرسل حيان بن سريج عامل الخراج فى مصر عام (٩٩هـ/٧١٨م) من قبل عمر بن عبد العزيز يسأله فى هذه الفتوى «فسأل عمر عن ذلك عراك بن مالك (١) ... فقال: ما سمعت لهم بعقد ولا عهد، وإنما أُخذوا عَنْوَة بمنزلة العبيد، فكتب عمر إلى حيان بن سريج يأمره أن يجعل جزية الأموات على الأحياء».

ويقول ابن عبد الحكم إن فتوى جعل جزية موتى القبط على أحيائهم ليست دليلاً على أن مصر فُتحت عَنْوَة، لأن الفتح سواء كان صلحاً أو عنوة فان الجزية المفروضة على القرية ثابتة عليهم، فاذا فتحت عَنوة فان «موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئاً»، وإذا فتحت صلحاً فان «موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئاً».

على أن أبا يوسف يرى عدم جواز أخذ الجزية من ورثة مَن مات من أهل الذمة، أو حتى من تركته «لأن ذلك ليس بدين عليه».

ثانياً : جزية الرهبان: فقد فرض عمر بن عبد العزيز على كل راهب دينارين. وكانت أول جزية أخذت من الرهبان زمن عبد العزيز بن مروان الذى تولى مصر عام (٦٥هـ/٦٨٤م)، الذى أمر باحصاء الرهبان وفرض جزية عليهم تقدر بدينار عن كل راهب .

فزادت هذه القيمة فى زمن عمر بن عبد العزيز الذى جعلها دينارين. وقد برر أبو عبيد لعمر بن عبد العزيز هذا التشريع أو القرار بقوله: «ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له، وأن أهل دينهم يتحملون

(١) وهو عراك بن مالك الغفارى المدنى فقيه أهل دَهْلَك (ودَهْلَك جزيرة قريبة من أرض الحبشة من ناحية اليمن) عن أبى هريرة، وحفصة، وعائشة، وابن عمر وعنه مكحول، والحكم بن عتيبة وجعفر بن ربيعة ويحيى بن سعيد الانصارى. قال أبو الحسن: كان يصوم الدهر. قال الواقدى: توفى بالمدينة فى زمن زيد بن معاوية. وقال أبو حاتم وغيره: ثقة. ويقول ابن العماد: توفى بعد المائة .

ذلك لهم، كما أنهم يكفونهم جميع مؤوناتهم». إلا أن هذا التشريع ـ على ما يبدو ـ قد ألغى زمن الخليفة المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/٨٦٦ ـ ٨٦٨م) الذى أصدر قراراً «بأن من يرفض العالَم ويسكن الجبال، لا يجب أن يُلزم بخراج ولا جزية». وكان ذلك بعد الالتماس الذى قدمه أحد الرهبان للخليفة بهذا الشأن.

ويذكر البلوى أيضا أن رهبان دير القصير اشتكوا لأحمد بن طولون من جزية الرهبان، ويبدو أن جزية الرهبان كانت قد ألغيت قبل ذلك، وذلك لقولهم : «فشكونا إليه (أى لأحمد بن طولون) يوماً، أمْر ابن المدبر صاحب الخراج بمصر، وقلنا له : إنه يطالبنا بجزية رؤوسنا، وقد أسقطت عن أمثالنا على مر السنين».

وفى سنة (٣١٣هـ/٩٢٥) ألزم الوزير على بن عيسى بن الجراح [(١)] الأساقفة والرهبان بأداء الجزية، مما دفعهم إلى الاستغاثة بالمقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/٩٠٧ ـ ٩٣٢م) الذى كتب إلى مصر: «بأن لا يؤخذ من الأساقفة والرهبان والضعفاء جزية، وأن يُجروا على العهد الذى بأيديهم».

ثالثاً : إعفاء أهل الذمة من جزية من أسلم منهم: وكان الحجاج بن يوسف قد أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة، ولكن فى زمن عبد الملك

---

(١) هو على بن عيسى بن داود بن الجراح ابو الحسن البغدادى الحسنى، وزير المقتدر العباسى والقاهر، وأحد العلماء الروساء من أهل بغداد، فارسى الأصل، ولد سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م ونشأ كاتباً لابيه، وولى مكة واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢م، فولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة وحمدت سيرته، ثم عزله المقتدر سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦م وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ هـ/٩٢٣م ومنها إلى صنعاء، وأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م فعاد، وولى فيها الإطلاع على أعمال مصر والشام فكان يتردد إليهما، وأعاده المقتدر إلى الوزارة فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤ هـ ونقم عليه سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م فعزله وقبض عليه. ثم جعل له النظر فى الدواوين سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م. وهكذا كانت حياته ملؤها الاضطراب. وقد عاش تسعين عاماً، ويقال إنه كان فى الوزراء كعمر بن عبد العزيز فى الخلفاء، وتوفى ببغداد عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ويقال توفى عام ٣٣٥هـ/٩٤٦م له كتب منها «ديوان رسائل»، و«معانى القرآن» أعانه عليه ابن مجاهد المقرى، و«جامع الدعاء»، و «كتاب الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء»

بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٥م) أرسل إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٥ـ ٨٦ هـ/٦٨٤ ـ ٧٠٥م) بوضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وعندما حاول ابن حجيرة [1] عدوله عن ذلك وقال له:

«أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر، فو الله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم؟»، ولكن يبدو أنه لم يخرج بقرار قاطع للحد من هذه المسألة، وذلك لقول المقريزى: «فتركهم عند ذلك». واستمر هذا الوضع حتى زمن عمر ابن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/٧١٧ ـ ٧١٩)، الذى أعفى أهل الذمة من جزية من أسلم منهم . فقد أرسل عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن سريج عامله على مصر «أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة»، وقد استند عمر فى دعواه على هذه الآية الكريمة التى تقول :

﴿ فإن تَابُوا وأَقَامُوا الصَلاةَ وآتَوا الزكَاةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُم إن اللهَ غفورٌ رحيم [2] . وقال تعالى : ﴿ قَاتلوا الذينَ لا يُؤْمِنُون بالله ولا باليومِ الآخرِ ولا يُحَرِمُون مـا حَرَمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولا يَدينُون دينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُتُوا الكِتَابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ وهُم صَاغِرون﴾ [3].

ويبدو أن حيان بن سريج لم يقتنع بذلك فأرسل إلى عمر بن العزيز رسالة يوضح فيها مساوئ إسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، لأن نقص حصيلة الجزية قد دفعه إلى الاقتراض لكى يدفع مرتبات أهل الديوان، وكانت رسالته على النحو الآتى: «أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية، حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار، تممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل»!

(١) وهو عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى قاضى مصر، روى عن ابى ذر وغيره، وكان عبد العزيز بن مروان يرزقه فى السنة الف دينار فلا يدخرها، وقد توفى عام ٨٣ هـ .

(٢) سورة التوبة (آية رقم ٥) .

(٣) سورة التوبة (آية رقم ٢٩) .

نرى كيف أن المسألة ـ فى نظر بعض عمال الخراج ـ تحولت
تصادية! وأن عامل تشجيع الأقباط على الدخول فى الإسلام قد
مل زيادة حصيلة الجزية! وهو ما دفع عمر بن عبد العزيز إلى
ى هذا الوضع قائلاً: «إن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه
ولم يبعثه جابياً».

ر الماوردى أن أبا حنيفة قد أفتى باسقاط الجزية عن من أسلم
ن أهل الذمة [1] .

تعرضنا لموضوع الخراج والجزية يجدر بنا الإشارة إلى أوجه
لاتفاق بين كل منهما، فهما يجتمعان من ثلاثة أوجه، ويفترقان
ـه ـ حسب تعبير الماوردى ـ فيقول: «أما الأوجه التى يجتمعان
ما، أن كل واحد منهما مأخوذ من مشرك، صَغاراً له وذمة.

ـهما مال فئ، يصرفان فى أهل الفئ.

تهما يجبيان بحلول الحول ولا يستحقان قبله.

يم الجوزية فى كتابه:
ـقطت عنه الجزية سواء أسلم فى أثناء الحول أو بعده ولو اجتمعت عليه جزية سنين ثم
ن كلها: هذا قول فقهاء المدينة وفقهاء الراى وفقهاء الحديث إلا الشافعى وأصحابه فإنه
م بعد الحول لم تسقط، لانه دين استحقه صاحبه واستحق المطالبة به فى حالة الكفر، فلم
ـلام كالخراج وسائر الديون. وله ـ فيما إذا أسلم فى أثناء الحول ـ قولان :أحدهما أنها
انى أنها تؤخذ بقسطه. والصحيح الذى لا ينبغى القول بغيره سقوطها، وعليه تدل سنة
ﷺ وسنة خلفائه، وذلك من محاسن الإسلام وترغيب الكفار فيه، وإذا كان رسول الله ﷺ
ار على الإسلام حتى يسلموا يتألفهم بذلك، فكيف ينفر عن الدخول فى الإسلام من أجل
هذا من ترك الأموال للدخول فى الإسلام ؟ قال سفيان الثورى عن قابوس بن أبى ظبيان
ى : قال رسول الله ﷺ : (ليس على مسلم جزية) . قال أبو عبيد : تأويل هذا
لو أن رجلا أسلم فى آخر السنة وقد وجبت الجزية عليه، أن إسلامه
عنه فلا تؤخذ منه، وإن كانت قد لزمته قبل ذلك، لأن المسلم لا يؤدى الجزية
عليه ديناً. وقد روى عن عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز ما يحقق هذا المعنى:
د الرحمن عن حماد بن سلمة بن عبيد الله بن رواحه قال: كنت مع مسروق
، فحدثنى أن رجلاً من الشعوب ـ يعنى الأعاجم ـ أسلم، وكانت تؤخذ منه
ـأتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، أسلمت والجزية
ى. فقال: لعلك أسلمت مستعوذاً، فقال: أما فى الإسلام ما يعيذنى؟ قال:
لاتؤخذ منه الجزية.

أما الأوجه التى يفترقان فيها: فأحدهما، أن الجزية نص، وأن الخراج اجتهاد. والثانى، أن أقل الجزية مقدر بالشرع ، وأكثرها مقدر بالاجتهاد ، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد . والثالث، أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر، وتسقط بحدوث الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكفر والاسلام ».

خلط المصادر العربية بين معنى كل من الخراج والجزية :

على أننا نفاجأ بأن ابن عبد الحكم ـ ومن نقل عنه مثل السيوطى ـ يخلط بين معنى الخراج والجزية، فيكتب الجزية أحياناً بمعنى الخراج، ويكتب الخراج بمعنى الجزية . وعلى سبيل المثال يذكر أن رجلا أسلم على عهد عمر بن الخطاب، فقال: «ضعوا الجزية عن أرضى ». رغم أن الجزية لا تكون على الأرض وإنما الخراج! كذلك يذكر فى موضع آخر أنه لما ولى ابن رفاعه مصر، خرج ليحصى عدد أهلها، وينظر فى تعديل الخراج عليهم. «فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يُحصَ فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية». ونلاحظ أنه فى بداية كلامه ذكر كلمة الخراج، فى حين أنه فى سياق الكلام الذى أورده يشير إلى الجزية، إذ يتحدث عن إحصاء الجماجم من الرجال فى كل قرية الذين يفرض عليهم الجزية!

ويقول ابن عبد الحكم أيضاً: «كان لعبد الله بن سعد موالى نصارى، فأعتقهم، فكان عليهم الخراج» . وهويقصد بالخراج هنا الجزية، وذلك لارتباط الحرية بالجزية، فقد ذكرت آنفا كيف أن الجزية لا تكون إلا على الحر وليس على العبد، فإعتاق العبد معناه اعطاؤه حريته التى يلزم بها إعفاؤه من الجزية.

كذلك يورد ابن عبد الحكم مصطلح «الخراج» بمعنى يشمل كلا من الجزية والخراج. فيقول: إن عمرو بن العاص عندما تم له الأمر فى مصر «أحصى أهلها وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين على كل رجل، لا يُزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر

من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع». فنراه هنا استخدم مصطلح الخراج فى معنى الجزية، لأن فرض الخراج لا يحتاج إلى إحصاء السكان، فهو على الأرض، ونراه استخدم مصطلح الخراج بمعنى كُلاً من الجزية التى على الرؤوس والخراج الذى على الأرض والزرع.

المقصود بمصطلح خراج مصر

يتساءل «بتلر» عما يعنيه المؤرخون المسلمون من «إرسال خراج مصر» إلى الخلافة: أيقصدون كلَّ ما يُجبى من أموالها؟ أم يقصدون الجزية وحدها، أم الخراج وحده؟ وكان من رأيه أنهم إنما يقصدون الخراج وليس الجزية، غير أنه عندما أرادأن يدلل على رأيه هذا، انتهى إلى أن المقصود الجزية! فهو يقول: «فقد جاء عنهم أن عدد من فرضت عليهم الجزية دينارين، ستة آلاف ألف نفس، وجاء بعد ذلك أن مقدار المال الذى جبى من مصر كان اثنى عشر ألف ألف دينار، ويقول مؤرخو المسلمين إن هذا المال أقل مما كان يجبيه المقوقس ومقداره عشرون ألف ألف دينار. فإذا صح لنا أن نصدق هذه الأعداد ونثق فى أنها قُدّرت على أساس واحد فى الحالين، وأنها تصلح لأن تكون أساساً للمقارنة، كانً لابد أن نتخذها دليلاً على أن حكم العرب كان بركة على المصريين خفف عنهم وطأة الضرائب. على أن الأمر كان على غير ذلك، إذ أن المال الذى يذكره العرب لا يَقصد منه إلا مال الجزية، فى حين أن ما يُذكر عن أموال الروم لا يُقصد به فى أغلب الظن الجزية وحدها، إذ أن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد».

ونرجح أن مصطلح «خراج مصر» كان المقصود به الجزية والخراج معاً، فلو كانت جزية مصر وحدها قد قدرت بإثنى عشر ألف ألف دينار فى ولاية عمرو بن العاص، وضرائب الروم كلهاقدرت فى عهد المقوقس بعشرين ألف ألف دينار، فليس هناك معنى إذن لقول عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص فى رسالته الأولى التى أرسلها إليه: «وأعجب مما عجبت أنها لا

تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك»! ثم قوله: «لست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك!» مما دفع عمرو بن العاص إلى الرد عليه بقوله: «ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر، والأرض أعمر، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم، أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسـلام». مما يدل على أن قيمة الاثنى عشر ألف ألف دينار هى قيمة الضرائب المفروضة كلها فى ذلك الوقت والتى تشمل الخراج والجزية، لذلك قارن بينهاوبين جباية الروم، وبالتالى، وفى ضوء ما سبق، لا نستطيع أن نثق فى مقولة ابن حوقل والمقريزى: «وهذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج».

وعلى كل حال، ففى رأى الدكتور محمد ضياء الدين الريس أن كلمة «الخراج» كانت ذات معنى عام ومعنى خاص. فالمعنى العام: وهى أنها تعنى الأموال العامة أو إيراد الدولة، أما المعنى الخاص: فحين يراد بها ضريبة الأرض.

ويقول الحافظ بن رجب نقلاً عن الأزهرى [(١)] فى معنى الخراج، إنه : اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال، يقع على الضريبة (أى ضريبة الأرض وهى خراج الأرض)، وعلى مال الفئ، ويقع على الجزية، وعلى الغلة».

قيمة خراج مصر :

لقد حقق الدكتور محمد ضياء الدين الريس قيمة خراج مصر ـ فى كتابه ـ تحقيقاً وافياً يستحق أن نعرضه هنا. فقد لاحظ أن المصادر العربية قد اختلفت فى تقدير قيمة خراج مصر الذى جُبى فى ولاية عمرو بن العاص، فهناك بعض المصادر التى ذكرت أن قيمة خراج مصر بعد الفتح العربى كان يقدر بإثنى عشر ألف ألف دينار، وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد

(١) الأزهرى: هو محمد بن أحمد الأزهر بن طلحة، صاحب كتاب (تهذيب اللغات)، ولد عام ٢٨٢ هـ وتوفى عام ٣٧٠ هـ .

جباها فى ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان - أربعة عشر ألف ألف دينار، وأن هناك بعض المصادر الأخرى التى ذكرت أن قيمة خراج مصر فى ولاية عمرو بن العاص قد قُدرت بألفى ألف دينار، وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد جباها أربعة آلاف ألف.

وقد رأى الدكتور محمد ضياء الدين الريس أن التقدير الثانى هو الأصوب وذلك للحقائق الآتية:

أولاً : أن البلاذرى وقُدامةَ كلاهما متقدم عن المقريزى، والأول حجة فى الفتوح، والثانى فى الخراج.

ثانياً: أن المقريزى نفسه نَص على أن الذى جباه عمرو ثم عبد الله، «إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج» - أى كانت على الرؤوس فقط، وما دام أن الجزية بالاتفاق هى ديناران على كل رجل دون النساء والصبيان والشيوخ، فيكون معنى ذلك أن عدد الرجال الذين أدوا الجزية ستة ملايين، فإذا اعتبرنا الرجال المفروض عليهم الجزية ثلث أو ربع أو خمس عدد السكان، كان عدد السكان الكلى: ١٨ أو ٢٤ أو ٣٠ مليوناً على الترتيب، وهذا غير معقول بالمرة، وقد قرر مؤرخو مصر البيزنطية أن عدد سكانها كان فقط ٧ ملايين بالإضافة إلى ثلاثمائة ألف فى الاسكندرية، ويرجح الدكتور محمد ضياء الدين الريس أن هذا العدد قد نقص فى عهد الخلفاء، وخاصة بعد جلاء الروم.

ثالثاً : وبالنسبة لقيمة خراج مصر قبل الفتح العربى، وما ذكر من أن المقوقس قد جباها عشرين ألف ألف دينار، فهذا أيضاً غير قابل للتصديق، إذ تدل أبحاث مؤرخى مصر البيزنطية أن الضرائب كان «يدفع أكثرها عيناً. ويشكّون فى أن تبلغ ضريبة الرأس هذا المقدار نقداً. وبالتالى وكما يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس فإن كل هذه الأرقام التى أوردها المقريزى خيالية، وقد يكون منشأ هذا تحريف الناسخ أو غير ذلك.

رابعاً : أن هناك إجماعاً فى الآراء على أن خراج مصر، فى العهدين الأموى والعباسى، كان فى المتوسط لا يزيد على أربعة ملايين دينار، وأنه استمر حافظاً هذه النسبة فيما تلا من عصور. أى أن الخراج ، إذا قبلنا التقدير الأول، يكون قد هبط فجأة، فبعد أن كان أربعة عشر مليوناً نزل إلى أربعة أو نحوها! ويعلل المقريزى ذلك بأنه بسبب خراب الأرض وفساد الزمان ما بين عهد عثمان ومعاوية، على أن الذى يدل عليه التاريخ هو العكس ـ كما يذكر الدكتور محمد ضياء الدين الريس ـ فإن بنى أمية كانوا أكثر عناية بتعهد مصادر الإنتاج وبجباية الخراج.

خامساً: أن قيمة الخراج فى عهد عمر قد قدر بحوالى مائة أو مائة وعشرين ألف ألف درهم، ولم يزد على ذلك كثيراً في العهود التالية، فلو أن مصر جزيتها فقط كانت اثنى عشر ألف ألف دينار، لكان هذا معناه أن هذا الخراج يساوى ـ باعتبار أن الديار عشرة دراهم ـ مائة وعشرين ألف ألف درهم. «. وبذلك يكون مساوياً لخراج العراق، مع أن مساحة الأرض الزراعية في العراق كانت أكبر، إذ كانت لا تقل عن عشرة ملايين من الأفدنة، هذا إلى جانب اشتهارها بالجودة والخصوبة.

سادساً: أن أبا يوسف وغيره من المؤرخين قد أثبتوا أن عدد من ضربت عليهم الجزية فى العراق لم يزيدوا على خمسمائة ألف وخمسين ألفاً، فكيف يُعقل أن يكون عدد من فرضت عليهم الجزية في مصر ثمانية أو ستة ملايين؟ أى يكون سكان مصر البيزنطية أكثر من سكان العراق الكسروى باثنى عشر أو أربعة عشر ضعفا!

وأخيرا يرى الدكتور محمد ضياء الدين الريس أنه فى ضوء هذه الحقائق والأدلة، فإن تقدير البلاذرى وقدامة هو الصحيح، وبالنسبة للتقدير الآخر، فربما كانت كلمة «عَشر» قد زيدت فى الرواية، أو حدث خطأ أو تحريف.

فالجزية التى جبيت فى عهد عمر كانت تقدر بألفى ألف دينار فقط، ثم فى عهد عثمان صارت أربعة آلاف ألف فقط، ويكون من نتائج ذلك أن نحكم بأن الخراج قد ارتفع في عهد بنى أمية عما كان في عهد الخلفاء لا نقص، ويكون عدد السكان ما بين أربعة وسبعة ملايين، منهم حوالى مليون أو مليونين من الرجال، أما مساحة الأرض الزراعية في مصر فقد قدرها مؤرخو مصر البيزنطية بحوالى ثلاثة ملايين من الأفدنة فقط، وهو رقم قابل للتصديق.

طريقة إرسال الخراج إلى الخليفة :

أما بالنسبة لطريقة إرسال الخراج إلى الخليفة، فتبين لنا المصادر العربية أن هناك من الأمراء من كان يتولى بنفسه إرسال الخراج إلى الخليفة، ومنهم من كان ينيب عنه غيره.

فمثلا: فى ولاية عمرو بن العاص على مصر (٢٠ هـ / ٦٤١م) نجد أنه كان ينيب عنه غيره فى إرسال الخراج إلى الخليفة. وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم: إن عمرو بن العاص أرسل الخراج إلى الخليفة مرتين، المرة الأولى كان ينيب عنه زكريا بن جَهْم العَبْدرى. والمرة الثانية كان ينيب عنه إبنه عبد الله بن عمرو.

إلا أننا نجد أن الليث بن فضل الذى تولى مصر (١٨٢ هـ/٧٩٨م) كان يسافر بنفسه إلى الخليفة الرشيد (١٧٠ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٨م) فى كل عام، حاملاً مال الخراج معه وفى ذلك يقول المقريزىُ: «فكان (أى الليث) كلما أغلق خراج سنة وفرغ من حسابها، خرج بالمال إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ومعه الحساب».

وكان إرسال الخراج إلى عاصمة الخلافة يتم بعد حبس نصيب مصر المقدر لها، والذى كان يطلق عليه اسم «فريضة»، وقد قدرت فريضة مصر فى ولاية عمرو بن العاص بحوالى ١٢٠ ألف دينار، وذلك لاستخدامها فى الخدمات العامة مثل : حفر الخلجان، وإقامة الجسور، وبناء القناطر. وكان المسَّاحون يقومون بكشف دورى على هذه الخدمات.

ويذكر محمد كامل مرسى «أن الإدارات كانت تقوم بتوزيع فئ الخراج بين الأمراء والتابعين والجند وفقا لِرتَبِهم، ومقدار ما تخولهم مناصبهم من الحقوق، ويُدفع ما بقى إلى الخزانة».

ويجدر بنا فى النهاية أن نشير إلى ما أورده الجهشيارى فى كتابه من مماطلة أهل مصر في دفع الخراج. ويبدو أن هذه المماطلة كان الولاة قد اعتادوا عليها، مما دفع عمر بن مهران عندما تولى مصر (١٧٦ هـ/٧٩٢م) أن يكتب على كل هدية أرسلها له أهل مصر اسم صاحبها، حتى إذا جاء الموعد الثالث لتسديد الخراج المفروض ـ وكان الخراج كما ذكرت سابقاً يدفع على ثلاث أقساط فى السنة ـ ولم يدفعوا الخراج كالمعتاد. أخرج هذه الهدايا وباعها وأخذ من ثمنها الخراج، ثم نظر فيما بقى، فطالب به الأهالى، الذين أسرعوا إلى تكملة ما بقى من أموال الخراج. وكان عدم قدرة الأهالى على دفع قيمة الخراج المطلوب هو السبب فى هذه المماطلة.

الفصل الثالث :

الأرض والفلاح ـ طبقة الصناع ـ طبقة التجار

الأرض والفلاح :

- طبقة الفلاحين .
- الوظائف الإدارية الخاصة بالزراعة .
- الاهتمام ببناء مقاييس للنيل .
- الاهتمام بالإصلاحات الزراعية .
- مساحة الأراضى الزراعية .
- أهم المحصولات الزراعية .

طبقة الصناع :

- طبقة الصناع .
- نظام النقابات .
- أنواع الصناعات :
  - صناعة المنسوجات واهم مراكزها
  - صناعة الورق
  - صناعة الزجاج
  - صناعة الخشب
  - صناعة الجلود

- صناعة الحصر
- المعاصر وصناعة السكر والزيوت
- صناعة الخزف
- صناعة الفخار
- صناعة الصابون
- صناعة الشمع
- صناعة حضانة الفراريج
- صناعة المعادن
- صناعات مختلفة

طبقة التجار :

- طبقة التجار .
- الأسواق .
- نظام المعاملات المالية .
- أزمات الغلاء بمصر.
- حفر خليج أمير المؤمنين.
- النشاط التجارى الخارجى .
- طرق التجارة .
- أهم موانىء مصر.
- الضرائب على التجارة .
- مقاييس التجارة او الأوزان.

الفصل الثالث

أولاً : الأرض والفلاح

الأرض فى مصر تعد الأداة الرئيسية للإنتاج ، وعليها يعتمد المصريون فى معاشهم . وتشير المصادر العربية إلى أن مصر كان يطلق عليها فى كتب القدماء «أم البلاد» وأنها كانت مصورة فى كتب الأوائل ، وسائر المدن وهى تمد أيديها إليها لا طعامها ، ويرى الحميرى أن السبب فى ذلك أنهاكانت«أكثر بلاد الله زرعا» .

وحين جاء العرب لفتح مصر كانوا يعلمون بثرواتها وخيراتها ، وفى ذلك نشير إلى الحوار الذى دار بين الخليفة المأمون الذى كان فى زيارة إلى مصر عام (٢١٧ هـ / ٨٣٢ م) وسعيد بن عفير ، لكى ندرك نظرة العرب لمصر بعد مرور حوالى قرنين من فتح العرب لها ، يقول السيوطى :

حكى أن المأمون لما دخل مصر ، قال : قبح الله فرعون إذ قال : (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ) (١) فلو رأى العراق ! فقال له سعيد بن عفير : لا تقل هذا يا

(١) سورة الزخرف آية (٥١) .

أمير المؤمنين فإن الله تعالى قال : (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) (١) ، فما ظنك بشيء دمره الله هذه بقيته ؟ فقال : ما قصَّرت ياسعيد . فقال سعيد : ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر ، وجميع الأرض يحتاجون اليها ، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير ، حتى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاءوا ، ويرسلونه متى شاءوا ، وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله الى آخره مابين أسوان الى رشيد لا تنقطع ، ولقد كانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج الى خمار لكثرة الشجر ، ولقد كانت المرأة تضع المِكّتَل على رأسها فيمتلىء مما يسقط فيه من الشجر» .

طبقة الفلاحين :

نقصد بطبقة الفلاحين هنا ، طبقة العمال الزراعيين والمستأجرين ، وكانت هذه الطبقة عند الفتح العربى من الأقباط ، وظلت كذلك بعد الفتح ، والسبب فى ذلك أن العربى ساكن الجزيرة العربية لم يكن يشتغل بالفلاحة وذلك للطبيعة الصحراوية التى عاش فيها بالمقارنة بمصر الزراعية . وكذلك ظل الأقباط هم المشتغلون بالزراعة دون غيرهم ، خاصة مع تحريم عمر بن الخطاب العمل بالزراعة على الجند فى مصر .

وهكذا ظل الأقباط حوالى قرن من الزمان هم المشتغلون وحدهم بالزراعة حتى جاءت قبيلة قيس إلى مصر عام ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ونزلت بلبيس (الحوف الشرقى) ، وكان مجيئها مشروطابعملها بالزراعة ، وهنا ظهر عنصر بشرى آخر إلى جانب الأقباط وهم العرب . وبعد مرور حوالى قرن آخر على مجىء قبيلة قيس أسقط المعتصم العرب من الديوان ، فلم يكن أمامهم سوى الاشتغال بالحرف المختلفة التى كان من ضمنها الزراعة .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٣٧) .

وعلى هذا النحو وبعد مرور قرنين من الزمان من فتح العرب لمصر ، كانت طبقة الفلاحين تتكون من عنصرين هما : المصريون والعرب .

ولم يكن يطلق على من يزرع الأرض فى مصر بعد الفتح العربى اسم فلاح ، وانما كان يطلق عليه اسم «نبطى» ، وتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن لفظ «نبطى» لم يكن معروفا فى مصر، وانما هو لفظ مستورد من العراق وشرق العالم الاسلامى ، اذ كان يعُرف الفلاحون فى العراق باسم أنباط ونبط .

وكان العمال الزراعيون فى مصر يعملون إما بأجر سنوى أو يومى أو موسمى . ووفقا لكشوفات بردية من القرنين الثالث والرابع الهجريين عثر عليها فى الأشمونين فى صعيد مصر ـ تتضمن قيمة ما قبضه كل مزارع ، نجد أن أجرة الفلاح كانت تتراوح بين دينار أو اثنين ، أو أقل من دينار أو اكثر . ولكن هذه القوائم والكشوفات لا توضح ما اذا كان هذا الأجر عن العمل السنوى ، أو عن الزراعة الصيفية ، أو عن الزراعة الشتوية ، فقد كانت جداول الأجور عبارة عن أسماء أشخاص وبجانب كل اسم قيمة ما أخذه .

وبالنسبة لمستأجرى الأراضى الزراعية فقد كان هناك شرط جزائى فى العقود يلزمهم بدفع الخراج عن الأرض فى حالة بوارها ، وكان نصه «وما بورتَ فعليك خراجه» .وقد دفع هذا الشرط المستأجرين الى العناية بالأراضى حتى لا يدفعوا خراجاً على أرض بور . وقد كان السبب الذى دعا المؤرخين الى أن ينصوا هذا الشرط فى عقود الايجار ـ كما ترى الدكتورة سيدة كاشف ـ هو حرص الحكومة على زراعة الأرض ، وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج . كذلك أوردت عقود الايجار اشتراط زراعة محصول معين .

وكان ايجار الأرض يدفع نقدا أونقدا وعينا ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الايجار كان يدفع عينا فقط .

وكان إيجارفدان القمح يتراوح فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه بين دينار ودينارين ، وأحيانا يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار ، ليكون الإيجار $\frac{1}{2}$ دينار أو $\frac{1}{2}$ ٢ دينار .

وقد كانت العادة أن يدفع الشخص ما عليه إلى الجسطال [١] أو الجِهْبِذ [٢] ، ويذكر اسمه وفى حضرة شهود ينص على أسمائهم . وفى بعض الإيصالات لا ينص على وجود شهود . ولدينا براءة كتبت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكتب فيها «شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً» .

ونجد فى الأوراق البردية أسماء لوظائف إدارية تعلقت بالزراعة والإشراف على الأرض الزراعية ، بعضها لا يزال معروفا للآن والبعض بطل استخدامه ، فمثلا نقرأ عن الكاتب والخولى والوكيل ، وعن وظيفة متقبل البقط وعامل البقط. أما وظيفة متقبل البقط وعامل البقط نجدها فى الأوراق البردية التى ترجع إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فمعناها العامل الذى يجمع إيجار الأراضى الزراعية أو خراجها ولعل البقط هنا مشتق من بقط الأرض أى ما يخرج منها .

كان النيل هو عمارة مصر فى الزراعة ، وصح قول السيوطى إن «خراب مصر من جفاف النيل» . لذلك فقد بالغ المؤرخون القدماء فى وصف نيل مصر وذِكْر الأحاديث التى قيلت عنه . فقد روى يزيد بن أبى حبيب أن معاوية بن أبى سفيان سأل كعب الأحبار : هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبرا ؟ قال : أى والذى فلق البحر لموسى عليه السلام ، إنى لأجده فى كتاب الله عزوجل ، أن الله يوحى اليه فى كل عام مرتين : يوحى إليه عند جريْه : «إن الله يأمرك أن تجرى ، فيجرى ما كتب الله له .» ثم يوحى إليه بعد ذلك : « يانيل عد حميدا » .

(١) الجسطال أو القسطال هو الموظف المختص برئاسة فروع ديوان الخراج بالأقاليم حسب ما جاء فى أوراق البردى العربية .

(٢) الجِهْبِذ : بكسر الجيم وسكون الهاء وكسر الباء ، كاتب برسم استخراج المال وقبضه ، ويقوم بعمل المخازيم والختمات وتواليها ، ويطالب بما يقتضيه تخريج ما يرفعه من الحساب اللازم له لا الحاصل .

وعن يزيد بن حبيب أيضا عن كعب الأحبار أنه كان يقول : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا ، فالنيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة ، وسَيْحَان (١) نهر الماء في الجنة ، وجَيْحان (٢) نهر اللبن في الجنة .

كما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر من المشرق إلى المغرب ، فإذا أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر ، أمر الله كل نهر أن يُمدَّه ، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجَّر الله له الأرض عيونا ، فإذا انتهت جِرْيَتُه إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .

ومن هنا كان من الطبيعى أن يهتم العرب عقب فتحهم لمصر مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فى مياهه ، وليكون المقياس معيارا صادقا للزراعة والرى ، وبالتالى للضرائب كل عام . فيقول المقريزى : إنه لما فتحت مصر عَرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّه فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره ، وإن فرط الإستشعار يدعوهم إلى الإحتكار ، وإن الإحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار بغير قحط . فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله عن شرح الحال ، فأجابه : «إنى وجدت ماتروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا ، والحدّ الذى يروى منه سائرها ، حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا ، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار، اثنتا عشر ذراعا فى النقصان، وثمانى عشرة ذراعاً فى الزيارة. هذا والبلد فى ذلك محفور

(١) سيّحان : بفتح أوله، وسكون ثانيه ، ثم حاء مهملة ، وآخره نون . وهو نهر كبير بالثغر من نواحى المصيصة ، وهو نهر أذَنَة بين انطاكية والروم ، يمر بأذنه ، ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال فيصب فى بحر الروم .

(٢) جيّحان : بالفتح ثم السكون ، والحاء مهملة ، وألف ونون . نهر بالمصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ، ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكَفَرْ بيا بإزاء المصيصة ، وعليه عند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة عريضة ، فيدخل منها إلى المصيصة ، وينفذ منها فيمتد أربعة أميال ثم يصب فى بحر الشام .

الأنهار ، معقود الجسور ، عندما تسلموه من القبط ، خمير العمارة فيه . «فاستشار عمر بن الخطاب عليّ بن أبى طالب فى ذلك . فأمره أن يكتب إليه بأن يبنى مقياسا .

ولم يكن العرب هم أول من بنوا المقاييس فى مصر ، فعندما دخلوها وجدوا بها عددا من المقاييس ، إذ كان هناك مقياس بأنْصِنا [١] ، ومقياس بِمَنْف [٢] ، ومقياس بقصر الشمع [٣] . وبعد فتح مصر بنى عمرو بن العاص مقياسابدَنْدرة [٤] ، وفى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤٠ ـ ٦٠ هـ / ٦٦٠ ـ ٦٧٩) بنى مقياسا أخر بأنصنا ، ثم بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان . وفى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٥ م) بنى أسامة بن زيد مقياسا بالجزيرة . ثم كتب أسامة إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافة (٩٦ ـ ٩٩ هـ / ٧١٤ ـ ٧١٧ م) ببطلان هذا المقياس المذكور ، وأن المصلحة تقتضى بناء مقياس آخر ، فكتب إليه سليمان ببناء مقياس فى الجزيرة ، أى الروضة ، فبناه أسامة فى عام ٩٧ هـ / ٧١٥م . ثم بنى المأمون مقياسا بالبشرودات [٥] . ولما كان أيام الخليفة جعفر

---

(١) انصنا : بالفتح ثم السكون ، وكسر الصاد المهملة والنون مقصور . مدينة ازلية من نواحى الصعيد على شرقى النيل . وقد ظل اسمها يطلق على زمامها لغاية أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وبسبب خراب مساكن هذه البلدة قيد زمامها فى سنة ١٢٣٠ هـ باسم الشيخ عبادة وهى نزلة من توابع ناحية أنصنا المذكورة ، وبذلك اختفى اسم انصنا من عداد النواحى المصرية ، ومكانها اليوم الاطلال الواقعة فى حوض مدنية النصله (المحرفة عن أنصنا) رقم ١١ بأراضى ناحية الشيخ عبادة الواقعة شرقى النيل بمركز ملوى بمدينة أسيوط .

(٢) منف : بالفتح ثم السكون ، وفاء . اسم مدينة فرعون بمصر ، وهى أول مدينة عمرت بعد الطوفان . بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ ، وذكر بعضهم أن من مصر لمنف ثلاثين ميلا .

(٣) قصر الشمع وهو حصن بابليون وانظر عن موقعه فى الفصل الأول .

(٤) دندرة : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، ودال أخرى مفتوحة . مدينة على غربى النيل من نواحى الصعيد . ومدينة دندرة القديمة كانت واقعة بجوار الجبل الغربى ، وقد خربت ولم يبق منها إلا اطلالها ، ومعبد «هاتور» . وأما دندرة الحالية ، فقد انشأها العرب على النيل ، فى شاطئه الغربى ، غربى مدينة قنا ، وهى أقرب محطة لدندرة ، وبينهما النيل .

(٥) ويبدو ان المقصود بالبشرودات «البشرود» : بالتحريك ، وضم الراء ، وسكون الواو والدال مهملة . وهى كورة من كور بطن الريف بمصر ، من كور أسفل الارض . ويقول محمد رمزى فى قاموسه : إنها كانت واقعة فى أراضى ناحية سيدى غازى (الكفر الغربى سابقا) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، ويدل عليها حوض البشروط رقم ١١ المحرف عن البشرود بأراضى الناحية المذكورة .

المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/٨٤٦ ـ ٨٦١م)، أرسل إلى يزيد بن عبد الله والى مصر (٢٤٢ ـ ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ ـ ٨٦٧ م) يأمره ببطلان سائر المقاييس التى كانت بمصر ، وبناء مقياس فى الروضة ، وكان ذلك فى عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م ، وجعل العمل على هذا المقياس ، وسماه المقياس الجديد ، وقد تولى بناءه مهندس من العراق هو محمد بن كثير الفرغانى ـ أو أحمد بن كثير الفرغانى كما يذكر ابن الداية .

ويقول أبو المحاسن : وهذا المقياس هو المعهود الآن ، وبطل بعمارته كل مقياس كان قد بنى قبله من الوجه القبلى والبحرى بأعمال الديار المصرية ، ولما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون الديار المصرية أمر باصلاحه وقدرله ألف دينار . ويقول أبو المحاسن : إن هذا المقياس قد «بُنى بعد تعب زائد وكلفة واضحة يطول شرحها» ، ويرى أن النظر إلى بنائه «مايُغنى عن ذكر مصروف عمارته » .

وتصف المصادر العربية المقياس الجديد بأنه كان عبارة عن فسقية مربعة ، يدخل إليها الماء من أسربة بين الحيطان ، وفى وسطها عمود من رخام أبيض ، طوله نحو عشرين ذراعا ، وله قاعدتان سفلية وعلوية ، وقد قسم هذا العمود على أذرع بها أصابع مخطوطة كالقراريط ، ومساحة الذراع إلى أن يبلغ اثنى عشر ذراعا ، ثمانية وعشرون أصبعا ، ومن اثنى عشر ذراعا إلى ما فوق ذلك ، يصير الذراع أربعة وعشرين أصبعا . فإذا كان أوان زيادة النيل ، يدخل الماء الجديد على الماء القديم الذى فى الفسقية، فتارة تكون القاعدة عالية من الماء القديم ، وتارة تكون واطية من قلة الماء ، وأقل ما يكون فى قاع المقياس من الماء القديم ثلاثة أذرع،وفى تلك السنة يكون النيل شحيحاً. وقد قيل إن أكثر ما وجد فى قاع المقياس من الماء القديم تسعة أذرع واحدى وعشرون أصبعا ، وكان ذلك عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م ، وأقل ما وجد فى قاع المقياس من الماء القديم ، ذراع واحد وعشرين إصبعا ، وذلك فى عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، فبلغ النيل تلك السنة اثنى عشر ذراعا وتسعة عشر اصبعا ، ثم انهبط .

ويقول المسعودى : إن الأذرع التى كان يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان : منكر ونكير ، وهى الذراع الثالث عشر ،والذراع الرابع عشر، فاذا انصرف الماء عن هاتين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخامس عشر، استسقى الناس بمصر ، وكان الضرر شاملا لكل البلدان إلى أن يأذن الله عز وجل فى زيادة الماء ، وإذا تم خمسة عشر ودخل فى ستة عشر ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وكان ذلك نقصا من خراج السلطان ، وإذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعا ، ففيه تمام الخراج وخصب الأرض ، وفيه ظمأ ربع البلد ، وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلأ . وأتم الزيادات كلها العامة النافعة للبلد كله سبعة عشرذراعا وفى ذلك كفايتها ، ورى جميع أراضيها ، واذا زاد على السبعة عشروبلغ ثمانية عشر ذراعا استبحر من أرض مصر الريع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع، وان كانت الزيادة ثمانية عشرذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر . وأكثر الزيادات ثمانية عشر ذراعا ، وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسعة عشر ذراعا وذلك فى عام ٩٩ هـ / ٧١٧م فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ويقول الكندى : اذا تم الماء ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج ، فاذا زاد عن ذلك ذراعا واحدا زاد فى الخراج مائة ألف دينار لما يروى من الأعالى ، فإذا زاد بعد ذلك ذراعا أخرى نقص مائة ألف دينار بسبب الفيضان ، ويعلق ابن مماتى على ذلك بقوله : «ولا يبعد أن يكون ذلك فيما تقدم من السنين عند بلوغ العمارة إلى حد اعتبر به هذا القدر» .

وعن ميعاد القياس تذكر المصادرالعربية أن نيل مصر يبدأ فى الزيادة بقية بوءونة (يونية) وبالتحديد فى الثانى عشر منه ، ثم يقاس فى الخامس والعشرين منه ، ثم يبدو إندفاعه فى الثانى من أبيب (يولية) ، ويكون كمال الزيادة وانتهاء مدته فى الثامن من بابه (اكتوبر) ويأخذ فى النقص من العشرين منه ، فتكون مدته من حين زيادته ونهايته إلى حين نقصه ثلاثة

أشهر وعشرون يوما وهى : أبيب (يولية) ، مسرى (اغسطس) ، توت (سبتمبر) ، وعشرون يوما من بابه (أكتوبر) .

وقد جرت عادة صاحب المقياس ، أن يقيس الزيادة فى المقياس فى كل يوم وقت العصر ، ويكتب بهذه الزيادة رقاعا لأعيان الدولة ، فيذكر زيادته فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقه من القبطى ـ من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، والفرق بين العام الماضى والوقت الحاضر بزيادة أو نقص ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ، فإذا وفى ستة عشر ذراعا صرح فى المنادة فى كل يوم بما زاد من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعا عند كل أحد .

وتذكر المصادر العربية أن متولى القياس كانوا ينادون على النيل بقولهم : نعم لا تحصى ، من خزائن لا تفنى ، زاد الله فى النيل المبارك كذا وكذا ، وكانت زيادته فى العام الماضى فى هذا اليوم كذا وكذا ، وعلى الله التمام . وكان المنادى يجعل فى أيديهم عودا وهو مخلق بالزعفران . ومعهم الرياحين ، وكانوا يتجهون إلى الجامع ، وهناك يقفون حلقة ، ويرمون بما معهم من الرياحين اليهم وينادون أن الله عزوجل زاد فى النيل كذا وكذا ، فيستبشر الناس ويكثرون حمد الله والشكر له .

وقد كان من عادة ماء النيل قبل الزيادة ، أن يخضر لونه ، ويتغير طعمه ، فيقول العوام من أهل مصر «البحر بيتوحم» . والسبب فى ذلك كما تقول المصادر العربية : أن النيل اذا انهبط بعد الزيادة ، يرسب الماء فى تلك البطائح [١] التى فوق الجنادل ، فينقطع ماؤها ، ويتغير لونه وطعمه ، فإذا جاءت السيول بالماء الجديد ، ينحدر الماء القديم من البطائح إلى أراضى مصر .

---

(١) البطيحة جمع بطائح والأبطح جمع اباطيح . مسيل (موضع سيل الماء) واسع فيه رمل ودقاق الحصى .

وفى بداية الفتح العربى كان يتولى قياس النيل ، جماعة من النصارى الأقباط ، فلما بنى الأميريزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ - ٨٦٧ م) المقياس الجديد بالجزيرة (الروضة) ، ورد كتاب المتوكل على بكار ابن قتيبة القاضى بأن لا يتولى أمر المقياس إلا مسلم تختاره ، فاختار أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد البصرى وكان ذلك فى عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١م ، وكان أصله من البصرة ، وقدم مصر ، وأقام بها ، وكان مؤذنا بجامع عمرو بن العاص .وأجرى عليه فى كل شهر سبعة دنانير، ولم يزل المقياس بيد أبى الرداد حتى توفى عام ٢٦٦ هـ / ٨٧٩م وقيل عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م ، فاستمر المقياس فى عقبه حتى عصر المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) .

ولما كانت زيادة الضرائب ونقصانها مرتبطة بحالة الاقتصاد الزراعى - خاصة - فى مصر، فلذلك اهتم العرب بعد الفتح بحفر الترع وإقامة الجسور وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم للرى والزراعة . وتذكر المصادر العربية أن عمر بن الخطاب طلب من عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن العوامل التى تؤدى إلى خراب مصر أو عمارتها ، فقال له المقوقس : تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه - وعدد له هذه الوجوه - وما يهمنا منها قوله: وتحفر فى كل سنة خلجها ، وتسد ترعها وجسورها . لذلك يذكر ابن عبد الحكم أن فريضة مصر لحفر خليجها وإقامة جسورها ، وبناء قناطرها ، وقطع جزائرها ، كانت ١٢٠ ألف عامل ، يقومون بهذا العمل صيفا وشتاء ، وكانوا منقسمين على النحو الآتى : سبعون ألفا للصعيد ، وخمسون ألفا لأسفل الأرض .

ومع ذلك فلم يكن الاهتمام بهذه الاصلاحات ، هو قاعدة جميع الولاة ، فكثير من الولاة تقاعسوا مع مرور الزمن عن القيام بهذه الاصلاحات ، واقتصر الاصلاح على المصلحين من الولاة . وفى ذلك يذكر المقريزى : أن أحمد بن طولون عندما تسلم أرض مصر من أحمد بن المدبر كانت قد خربت

حتى إن خراجها بلغ ٨٠٠ ألف دينار ، فقام أحمد بن طولون بالاصلاحات في مصر ، كما يقول المقريزي : «وبالغ فيها» حتى وصل خراجها إلى ٤ مليون و ٣٠٠ ألف دينار وذلك في عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣م .

كما يقول أيضا ابن اياس عن أحمد بن طولون : «لما ولي الأمير أحمد على مصر ، تسلمها من أحمد بن المدبر ، وقد تلاشى أمرها ، وانحط خراجها ، فاهتم الأمير أحمد في عمارة جسورها ، وبناء قناطرها ، وحفر خلجانها ، وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية في أيامه ، ووقع العدل والرخاء .

وتروي المصادر أن الجسور في مصر كانت تنقسم الى قسمين : سلطانية وبلدية . والجسور السلطانية هي الجسور العامة . أما الجسور البلدية فهي الخاصة بناحية دون الأخرى .

ويذكر المقريزي أنه كان للجسور السلطانية رسوم موظفة على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية . ويقول ابن مماتي : إن هذه الرسوم كانت تقدم عينا ونقدا ، وانها بمرور الوقت صارت لازمة للفلاحين « كأنه من بعض الخراج . ويجري فيما بينهم بنسبة ما يزرعه كل منهم » .

أما الجسور البلدية فيتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية . ويقول المقريزي في الفرق بين الجسور السلطانية والبلدية : إن الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذي يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته ، وكفاية الرعيه أمره . أما الجسور البلدية فهي محل الدور التي من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن جباية العرب لضريبة الجسور كان استمرارا لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبى ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور . غير أن المقريزي يذكر أن هذه الضرائب قد أبطلت في زمانه (أي في القرن ٩ هـ / ١٥ م) ، ولكننا لا نعرف ـ كما تقول الدكتورة سيدة

كاشف ـ متى فرضت هذه الضريبة ، وفى أى تاريخ أبطلت . وفى بردية ترجع الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وجدنا حسابات خاصة بأحد الملاك عن الضرائب التى دفعها عن القمح والرز والقرط ، وكذلك ضريبة للجسور عبارة عن $\frac{١}{٤}$ والغالب أنها $\frac{١}{٤}$ دينار لأن الحسابات المالية فى مصر كانت بالدنانير وكسورها .

ونظرا لأهمية الجسور فى حماية مصر من عوامل الفيضان ، وارتباطها بخراب البلاد أو عمارها ، فلم يكن العمل عليها يترك للاختيار ، بل كان يتم عن طريق القسر والارغام ، أى عن طريق السخرة . فتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن العمال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترع والجسور ، وإقامة القناطر ، كانوا يعملون بطريق السخرة ، وهو ما كان عليه الحال قبل الفتح العربى ، وكما أصبح بعد الفتح حتى العصور الحديثة . بل إن السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان ، ويعرفها الأهالى باسم « العونة » للعناية بالجسور والمحافظة عليها ، حتى ألغيت فى عام ١٩٣٧ م ، فأصبح الأهالى يتقاضون أجورا عن أعمالهم ، بعد أن كانوا يعملون بدون أجر .

كانت مساحة الأرض الزراعية فى مصر تتفاوت من آن لآخر تبعا لعاملين أساسيين : العامل الأول : هو نهر النيل ، فقد كان النيل منذ قديم الزمان يحدث تغييرات بصفة دائمة فى الأرض الزراعية بسبب الفيضان السنوى ، فتارة يجرف أرضا ، وتارة يطرح أرضا ، وتارة يغيرمن حدود الأرض أما العامل الثانى ، فهو العناية بالأرض وحفر الترع وصيانة الجسور أو العكس . لذلك فقد اهتمت حكومة مصر الاسلامية كما اهتمت الحكومة البيزنطية من قبلها ، بعمل مسح شامل للأرض الزراعية والأرض البور ، وقياسها على فترات متفاوتة ، خاصة اذا علمنا أن قيمة الخراج كان يتوقف على مساحة الأرض الزراعية .

وتذكر المصادر العربية أنه فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ / ٧٢٣ ـ ٧٤٢ م) تم عمل مسح شامل للأرض

الزارعية فى مصر ، على يد ابن الحبحاب الذى خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها ، عامرها وغامرها مما يركبه النيل ، فوجد فيها ثلاثين مليون فدان ، وفى رواية أخرى ١٠٠ مليون فدان ، والفدان أربعمائة قصبة ، والقصبة عشرة أذرع .

وقيل : إن أحمد بن المدبر اعتبر ما يصلح للزراعة بمصر فوجده أربعة وعشرين مليون فدان ، والباقى مستبحر وتلف من قلة الزراعة . واعتبر أيضا مدة الحرث فوجدها ستين يوما ، والحراث يحرث خمسين فدان ، فكانت محتاجة الى ٤٨٠ الف حراث .

وفى الدولة الطولونية وصلت مساحة الأرض المزروعة الى حوالى مليون فدان .

وقد أشارت أوراق البردى الى أسماء موظفين إداريين تتعلق وظيفتهم بمهمة مسح الأراضى الزراعية ،(١) ومن هؤلاء ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ـ لفظ المساح الذى يرد كثيرا بها ، وكذلك لفظ القصاب، والمقصود بوظيفة القصاب فى الأوراق البردية هو الموظف الذى يستخدم القصبة لقياس الأرض . هذا الى جانب الكتبة الذين كانوا يدونون فى دفاترهم أو سجلاتهم القياسات المختلفة ، وأسماء أصحاب الأرض ، وتحديد الحدود للأراضى المختلفة .

وكانت جميع أراضى مصر تقاس بالفدان كما هو الحال الآن . على أن مساحة الفدان فى العصر الاسلامى كانت ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف أكبر من مساحة الفدان فى عصرنا الحالى ، فقد ذكرت المصادر العربية أن مساحة الفدان أربعمائة قصبة ، وكان طول القصبة ـ كما يستنتج

---

(١) ويبدو لنا من الأوراق البردية ان مهمة مسح الأراضى الزراعية الخاصة بالأفراد ، كان يتخللها بعض المجاملات لزيادة مساحتها

مما ذكره القلقشندى ، ومن أبحاث العلماء الفرنسيين فى كتاب وصف مصر، ومن القصبة التى أقرها السلطان سليم حين فتح العثمانيون مصر ، ٣,٨٥ أى أن الأربعمائة قصبة مربعة كانت تعادل ٥٩٢٩ متر مربع . وظلت مساحة الفدان على هذا النحو منذ فتح العرب لمصر حتى حكم محمد على فى العصر الحديث ، ففى عهد محمد على خفض مساحة الفدان الى ٣٣٣ قصبة مربعة فأصبح مساحته ٤٢٠٠ متر مربع .

ومنذ عهد الفراعنة كان الفلاحون يفلحون الأرض ، ويحصدون الزرع على أساس الشهور المصرية القديمة ، وهى ما عرفت باسم الشهور القبطية. وهذا هو السبب فى أننا نجد فى إيصالات الخراج بصفة خاصة هذه الظاهرة الفريدة ، وهى ذكر الشهر القبطى الى جانب السنة الهجرية ! فنجد مثلا : شهر توت (سبتمبر) عام ٢٣٣ هـ ، أو شهر مسرى (اغسطس) عام ٣٢٨ هـ ، أو برمودة (أبريل) عام ٤٠٥ هـ ، وهو ما ليس له مثيل فى التقاويم .

ونظرا لأن العرب قدموا من بيئة صحراوية ، فلم يكن منتظرا منهم ادخال طرق جديدة للزراعة والرى ، لذلك ظلت الطرق القديمة بمصر هى السائدة ، وهى طريقة رى الحياض ، اللهم إلا فى بعض الجهات التى كان يمكن ريها ريا دائما ، مثلما كان يحدث فى أراضى الحدائق بالفيوم .

وكان رى الحياض يعنى زراعة الأرض مرة واحدة فى العام بعد أن تغمر بمياه الفيضان . وقد أدى اتباع هذه الطريقة ـ كما يذكر الدكتور سعيد عاشور ـ الى جعل البلاد والعباد تحت رحمة فيضان النيل ، فاذا جاء الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأرض فى اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعيا فى مقداره وأثمانه ، أما اذا جاء الفيضان منخفضا فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلات ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة فى البلاد .

وكان أهم المحصولات الزراعية التي يزرعها الفلاحون المصريون ، القمح الذى كان أهم ما ترسله مصر الى الخلافة بعد الفتح العربى ويذكر ابن مماتى أن أصلح ما زرع من القمح يكون فى أثر الباق[1] والشراقى ، [2] و يزرع فى مدة أولها نصف بابه (أكتوبر) وأخرها سلخ هاتور (نوفمبر) ، ويدرك فى بشنس (مايو). وكان أطيب حب هو القمح اليوسفى ، ولم يكن يوجد إلا بمصر فقط ، وكان يزرع فى مدينة يقال لها بشمور[3] . كذلك اشتهر أيضا قمح منفلوط كما يذكر ابن جبير . وكان القمح يخزن فى أهراء[4] ، فيذكر ابن دقماق أنه فى غربى مسجد القرون ،[5] كان يوجد الأهراء التى يخزن فيها القمح للجند من زمن معاوية الى خلافة بنى هاشم . كذلك كان الفلاحون المصريون يزرعون البرسيم الذى كان يعرف وقتها باسم «القرط» . وكان يعد من محاسن مصر كما تذكر المصادر العربية ، ويزرع زمن الربيع فتربط عليه

---

(١) الباق : يطلق على الأرض الزراعية بعد حصاد البرسيم والفول منها ، وهذا هو المعروف عند الزراع فى أيامنا هذه . أما ابن مماتى فيعرفها بأنها أثر القرط والقطانى والمقاثى ، وهى خير الارضين ، وأغلاها قيمة وأوفاها سعرا وقطيعة لانها تصلح لزراعة القمح والكتان . والمعروف الآن أن الارض الباق تزرع ذرة لأن القمح يزرع فى أوائل الشتاء .

(٢) الشراقى : كانت تطلق على الأرض بعد حصاد المحاصيل الشتوية منها كالفول والبرسيم والقمح والشعير ، فكانت هذه المحاصيل تحصد فى شهر مايو ويونيو ، وتظل معرضة للشمس حتى أوائل شهر سبتمبر ، وهو يوافق شهر مسرى ، حيث يفيض النيل وتكثر المياه ويبدأ الفلاح فى رى أرضه استعدادا لزراعة الذرة . والشراقى تطلق على الفترة بعد حصاد هذه المحاصيل الشتوية وحتى الرى ، وفيها تتشقق الأرض وخاصة الارض الباق . ويعرفها ابن مماتى بأن الشراقى يتبع الباق فى الجودة ، ويلحق فى القطيعة لان الأرض تكون قد ظمأت فى السنة الماضية ، واشتدت حاجتها الى الماء ، فاذا ما رويت حصل لها من الرى مقدار ما حصل لها من الظمأ ، وكانت أيضا مستريحة ، ويجود زرعها ، ويؤتى محصولا أكثر .

(٣) البشمور : بالضم . كورة بمصر قرب دمياط . وهى تشمل منطقة الاراضى الزراعية التى تقع اليوم بين فرع النيل الشرقى وهو فرع دمياط وبين البحر الصغير بمديرية الدقهلية وذلك فى المسافة الواقعة على فرع دمياط بين قرية محلة انشاق وقرية السرو بمركز فارسكور ، وفى المسافة الواقعة على البحر الصغير بين قرية القباب الكبرى وقرية برمبال القديمة بمركز دكرنس .

(٤) الأهراء : هى حواصل لخزن أنواع الغلال المتنوعة ، تحمل اليها من جهات مختلفة ، ولا تفتح إلا عند الضرورة . وكل من أراد بيع غلة ، اتجه الى الأهراء لبيعها . وكان للأهراء ديوان وله ناظر يسمى ناظر الأهراء . وتعرف الأهراء فى مصطلحنا الحديث بالشونة .

(٥) وقد ذكره ابن عبد الحكيم من ضمن المساجد التى بنيت بالفسطاط .

الخيول والبهائم ، وتكثر فى تلك الأيام الرعى ، ويطيب اللبن . وأول زراعته فى بابه (أكتوبر) ، ويدرك أخضر فى آخر كيهك (ديسمبر) .

وقد زرع القطن (١) فى مصر ، واستمرت زراعته فى العصر الاسلامى ، وإن كانت النصوص التاريخية الخاصة بالعصر الأخشيدى لا تذكره - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف . وكان يزرع فى برمودة (أبريل) ويحصد فى توت (سبتمبر) .

وكان محصول مصر الرئيسى هو الكتان ، الذى تشير أوراق البردى التى ترجع الى عصر الولاة الى زراعته بكثرة فى مصر . وكان يزرع فى هاتور (نوفمبر) ويدرك فى برمودة (أبريل) .

كما زرع أيضا ما عرف باسم البلسان ، وهو نبات تشبه أوراقه أوراق الملوخية ، وله رائحة ذكية وغريبة ، وكان هذا النبات ذا أهمية خاصة بالنسبة للأقباط فى مصر ، ولموسمه عيد للقبط يسمونه عيد المشمشة . وكانت العامة تطلق عليه اسم البلسم ، وكان يزرع ببقعة مخصوصة بأرض المطرية من ضواحى القاهرة على القرب من عين شمس ، ويسقى من بئر مخصوصة هناك . قال ابن الأثير فى « عجائب المخلوقات » : وطول هذه الأرض ميل فى ميل ، وشأنه أنه يفصد فى شهر كيهك (ديسمبر) من شهور القبط ، ويجمع ما يسيل من دهنه ويصفى ويطبخ ويحمل الى خزانة السلطان ، ثم ينقل منه قدر معلوم الى الشام والبيمارستان ليستعمل فى بعض الأدوية . وملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج يستهدونه من صاحب مصر ويهادونه

---

(١) لم يكن القطن فى تلك الفترة يزرع لأغراض تجارية ، وانما كان يزرع لاغراض الزينة ، وقد استمر ذلك حتى عصر محمد على ، فيذكر جون مارلو انه « فى عام ١٨١٩ قام جوميل Jumel† وهو مهندس زراعى فرنسى ، يعمل تجارب على بعض أنواع نبات القطن الذى كان يزرع لاغراض الزينة فى إحدى حدائق القاهرة ، واستنبت قطنا طويل التيلة تراءى له امكانية زراعته للاغراض التجارية نظرا لصلاحيته لانوال القطن الميكانيكية الجديدة فى أوربا الغربية بصفة خاصة ، فوجه اهتمام محمد على للفكرة ، وفى خلال سنوات قلائل كان القطن يزرع فى جميع انحاء مصر السفلى كمحصول هام للتصدير . »

بسببه ، لما يعتقدونه فيه من أثر المسيح عليه السلام فى البئر ، ولا يساويه عندهم ذهب ولا جوهر . والنصارى كافة تعتقدفيه ما تعتقد ، وترى أنه لا يتم تنصر نصرانى حتى يوضع شيء من هذا الدهن فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها . ويقول السيوطى : إن دهنه يستعمل فى علاج أمراض كثيرة ، أما ابن حوقل فيذكر أنه يزرع كالقضبان ، وأن لحاء هذا القضبان تؤكل ، فيكون له طعم صالح وفيه حرارة وحروفه لذيذة .

ويذكر ابن اياس أنه قد بطل زرعه فى المطرية ، وإن كان لم يذكر متى كان ذلك .

ولقد زرع فى مصر ذلك الحين أيضا نبات الخشخاش الذى يعمل منه الأفيون ، فكان يوجد بأبو تيج[1] من الصعيد « الخشخاش الكثير الذى يعمل منه الأفيون » . كما كان يعمل الأفيون أيضا فى أسيوط يعتصر من ورق الخشخاش الأسود والخس ويحمل الى سائر الدنيا ، ولا سيما بلاد الهند .

ومن النباتات التى زرعها الفلاحون المصريون أيضا نبات النيلة الذى كان يستخدم فى الصباغة ، وكان المصريون يستخدمون النيلة للتلوين باللون الأزرق . وكان شجر النيلة يزرع فى الصعيد وفى الواحات ، ويحصد كل مائة يوم ، ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين ، وفى السنة الأولى يسقى فى كل عشرة أيام دفعتين ، وفى السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفى الثالثة أربع دفعات .وكان أوان زراعته بشنس (مايو) وبؤونة (يونيه) ، وادراكه فى أبيب (يوليه) ومسرى (أغسطس) .

ولم تكن مصر تعرف البطيخ قبل الفتح العربى ، وقد قيل إن عبد الله ابن طاهر والى مصر (٢١١ هـ / ٨٢٦ م) هو الذى زرعه بمصر ، واليه ينسب بالعبدلى ، ولم يكن هذا النوع ببلد خلاف مصر .

---

(١) ابو تيج : وردت فى معجم البلدان تحت اسم (بوتيج) بكسر التاء ، وياء ساكنة ، وجيم . وهى بليدة بالصعيد الادنى من غرب النيل وهى قاعدة مركز ابو تيج ، فعندما انشئ قسم أبو تيج فى سنة ١٨٢٣ جعلت مدينة ابو تيج قاعدة لها وسمى مركز ابو تيج سنة ١٨٩٠ .

وتشير أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) الى زراعة قصب السكر فى مصر . وقد نسب الى الامام الشافعى الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى أنه قال : « لولا قصب السكر ما أقمت مصر » . ويزرع قصب السكر بكثرة فى أسيوط . وأوان زرعه نصف برمهات (مارس) ، ووقت إدراك الرأس فى طوبة (يناير)، والخلفة فى النصف من هاتور (نوفمبر) وقيل فى النصف من كيهك (ديسمبر) .

كما كان فى مصر البلح ، ويذكر ابن اياس أنه « ليس فى الدنيا بلد بها نخيل بلح مثل اقليم مصر ، يأكلون من ثمره : البسر [1] ، والرطب ، والتمر على أنواع ، والعجوة ، وينتفعون بخشبها وجريدها ، وخوصها ، وليفها ، ويعمل منه جملة أنواع مفيدة ، لا يستغنى عنها أحد من الناس ، وهى عمارة مصر .

وقال القائل فى المعنى :

أرى أهل الشام يفاخرونا	وتلك وقاحة فيهم وخصلة
وكيف يفاخرون بالشام مصرا	وشهوة كل من فى الشام نخلة

وعن التمر يذكر الادفوى أن فى صعيد قوص أنواع التمر التى توجد بالعراق والتى ليس فيها «وأنه لايوجد تمر يصيرتمراً قبل أن يكون رُطبا إلا بالصعيد» .

كما يذكر ياقوت أن بأسوان رُطبا أشد خضرة من السلق ، ويقول إن الرشيد قد أمر بأن تحمل إليه أنواع التمور من أسوان من كل صنف تمرة واحدة ، فجمعت له ويبة، «وليس بالعراق هذا ولا بالحجاز ، ولا يعرف فى الدنيا بسر يصير تمرا ولا يرطب الا بأسوان ، ولا يتمر من بلح قبل أن يصير بسرا إلا بأسوان ، قال : وسألت بعض أهل أسوان عن ذلك ، فقالوا

---

(١) البسر : التمر اذا لون ولم ينضج . (أوله طلع ثم خلال بالفتح ثم بلح بفتحتين ثم بسر ثم رطب ثم تمر) .

لى : كل ماتراه من تمر أسوان ليناً فهو مما يتمر بعد أن صار بسرا ، وما وجدته أبيض فهو مما يتمر بعد أن صار بلحاً .

ويذكر ابن اياس أنه كان «بالصعيد نخلة تحمل كل سنة من التمر عشرة أرادب ، تباع منه كل ويبة بدينار ، فجعل عليها بعض ولاة الناحية مكسا ، فلم تحمل من بعد ذلك شيئا» .

كما يقول فى موضع آخر إنه كان ببعض ضياع البهنسا نخلة بلح ، تطرح ١٢١ عرجون [١] بلح فاخر فى كل سنة ، فيتحصل منها اثنى عشر أردب بلح فى كل سنة .

ويذكر الكندى أن بالفرما نخلا عجيبا ، يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا ، فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجىء البلح فى الربيع ، ولا يوجد ذلك فى بلد من البلدان ، لا بالبصرة ولا بالحجاز ولا باليمن ، ولا بغيرها من البلدان ، ويكون فى هذا البسر ماوزن البسرة منه عشرون درهما أو أكثر .

ومن الفواكه ، الرمان وقد عرفت مدينة أشمون باسم أشمون الرمان لكثرته بها . ومن الموالح اترج [٢] كبار ، وأترج حلو . ومن الفواكه الجميز ، والسفرجل الذى يوجد فى أسيوط بكثرة .

ومن انواع الفواكه أيضا التى توجد فى مصر وذكرها ابن اياس : الخوخ الزهرى وهو لا يوجد إلا بها ، والعنب البحيرى ، وبها التفاح السكرى ، والكمثرى البلدى ، والخوخ المشعر النوى ، وهو غاية فى

---

(١) العرجون ويقال له أيضا العرجد جمع عراجين . أصل العذق الذى يعوج ويبقى على النخل يابسا بعد أن تقطع عنه الشماريخ (العذق عليه بسر) .

(٢) الاترج : شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون الكبار ، وهو ذهبى اللون ، ذكى الرائحة ، عصيره حامض .

ويقول المقريزى : «الاترج المدور حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سنى الهجرة ، فزرع بعمان ثم نقل منها إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس ، وغيرها من الثغور الشامية ، وفى أنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر ، وماكان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الارايح الحمراء الطيبة واللون الحسن الذى كان فيه بأرض الهند ، لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد» .

الحسن ، وبها التين البرشومى وهو صادق الحلاوة ، وبها الجميز ، وهو نوع شهى لا يوجد الا بها ، وبها نوع يسمى الشقير مثل البرقوق لا يوجد الا بها ، وبها النبق ، واللوز الأخضر ، وكان بها نوع يسمى السبخ وهو مثل اللوز الأخضر ، ولكن انقطع من مصر عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ، وبها الموز الدمياطى لا يوجد إلا بها ، وبها الليمون الأحمر الفرنسيس وقد نقل الى مصر عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

ومن مزروعات مصر : الأرز ويعتبر من أكثر غلات الفيوم . والشعير ، ويزرع فى أثر القمح وغيره ، وتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام ، وكذلك حصاده وادراكه فى برمودة (أبريل) .

الترمس : يزرع فى طوبة (يناير) وادراكه فى برمودة (أبريل) .

السمسم : يزرع فى برمودة (أبريل) ووقت ادراكه فى أبيب (يوليه) ومسرى (أغسطس) .

الفول : يزرع فى أثر البروبية [1] ، فى أول بابه (أكتوبر) ويؤكل أخضر فى كيهك (ديسمبر) ويدرك فى برمودة (أبريل) .

الحمص والجلبان [2] والعدس : أوان زراعتهم أولها هاتور (نوفمبر) وآخرها كيهك (ديسمبر) ويدرك فى برمودة (أبريل) .

كذلك زرع الفلاحون المصريون البامية ، والقلقاس الذى يزرع فى نصف برمهات (مارس) ويدرك فى هاتور (نوفمبر) ، والباذنجان ، وكانت زراعته فى برمهات (مارس) وبشنس (مايو) وبؤونة (يونية)وادراكه فى بؤونة (يونية) وأبيب (يولية) ومسرى (أغسطس) ، كما زرعوا الكرنب والقرع والاسفاناخ والسلق وغير ذلك من المزروعات .

---

(١) البروبية : يسميها العامة من الفلاحين « البرايب » وهى تطلق على الارض عقب حصاد محصول القمح والشعير منها، وهذا هو المعروف الآن. ويعرفها ابن مماتى بانها أثر القمح والشعير وهى دون الباق لأن الارض تضعف بزراعة الصنفين، فمتى زرع احدهما على الآخر لم ينجب كنجابة الباق، ويجب أن يزرع قرطا وقطانى ومقاثى لتستريح الارض وتصير باقا من السنة الآتية.

(٢) الجلبان وهو غذاء الجمال .

كما كان يزرع فى مصر الورود . فتذكر المصادر العربية أن من محاسن مصر السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد بمصر ، وذلك فى أوائل فصل الربيع ، وهى النرجس وهى أول ما يقدم ، ثم البنفسج ، ثم البان، ثم الورد النصيبى ، ثم الزهر ، وهو زهر النارنج ، ثم الياسمين ، ثم الورد الجورى ، ويعرف أيضا بالقحابى ، ويأتى أواخر هذه الأزهار ، فهؤلاء هم السبع زهرات . وأما زهر النسرين ، وإن كان من أعظم الزهور رائحة ، فانه غير معدود فى جملة هذه السبع زهرات لأنه يأتى فى آخر أيام الورد الجورى، فلا يلحق النرجس ولا البنفسج، لذلك لم يكن معدوداً فى جملة السبع زهرات لتأخره عنهم . أما الأزهار التى تأتى فى الصيف فمنها : الياسمين ، والنسرين ، والتمرحنا ، والريحان، وشقائق النعمان ، والأقحوان، والآس ، والريحان . وأكثر أزهار الصيف : الياسمين والتمر حنا والآس .

ويذكر ابن اياس أنه كان يوجد مكان فى الجيزة يعرف بالجانكى كان مكانا لشجر الورد ، وقد كان من متنزهات مصر القديمة إلى سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢م ، ثم انقطع الورد من هناك وبطل أمره .

هذا إلى جانب زراعة الأعشاب الطبية بها ، فيذكر ابن إياس أن من محاسن مصر ما بها من أعشاب عقاقير مفيدة فى الطب وهى :

بذر الهند با [(١)] ، والشمار [(٢)] ، والحبة السوداء ولها منافع مفيدة ، والشاهنزاج وله جملة منافع مفيدة للسوداء ، والماسكة وهو طين أصفر داخل حجر أسود يحل فى الماء ويشرب منه لوجع المعدة ، وكان نافعا ولكن انقطع عن مصر وكان يجلب من وادى هبيب من أراضى الصعيد . ومن الأعشاب أيضا العوسج [(٣)] ، والموميا [(٤)] ، ولها منافع .

---

(١) الهندبا : وتستخدم لعلاج إلتهاب الكبد والمعدة ، ولعلاج القلب ، كما تستخدم لعلاج أورام العين الحارة اذا خلطت مع السويق والخل ، واذا خلطت مع السويق تستخدم لعلاج الحمرة .

(٢) الشمار : وهو الرازيانج عند أهل مصر والشام . ويستخدم فى إدرار البول لذلك يوافق وجع الكلى ، واذا شرب بالماء البارد سكن الغثيان .

(٣) العوسج : يستخدم لعلاج أمراض العيون . والحمرة والجذام .

(٤) الموميا : يقول ابن البيطار : إنها موجودة بمصر كثيرا ، وهو خلط كانت الروم قديما تلطخ به موتاهم حتى تحفظ اجسادهم بحالها ولا تتغير . وكان يستخدم فى علاج الصداع والصرع والدوار والمعدة والطحال .

ثانيا : طبقة الصناع

على الرغم من أن وسيلة الإنتاج الرئيسية فى مصر كانت هى الأرض ، وكانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية لأهلها ، إلا أنه كان من الطبيعى أن تنشأ إلى جانب حرفة الزراعة حرفة أخرى تواجه حاجات المجتمع الأخرى من مصنوعات ، وكانت هذه الحرفة هى حرفة الصناعة .

وقد كانت طبقة الصناع فى مصر قبل الفتح العربى تتكون من الأقباط، واستمر الأقباط يعملون بالصناعة تحت الحكم العربى أيضا ، سواء من بقى على دينه ، أو من أسلم منهم ، فالعرب لم يعملوا فى الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كانوا يعنون بالأمور السياسية فى الدولة ، وحتى بعد أن بدأ العرب فى الاختلاط بالأهالى وتملك الأراضى والاشتغال بالزراعة ، وذلك منذ القرن الثانى الهجرى ، وسقوطهم من الديوان فى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م)، ظل أهل البلاد الأصليين يشكلون طبقة الصناع .

وكان هؤلاء الصناع قبل الفتح العربى ينتظمون فى نقابات منذ العصر الرومانى والبيزنطى ، وكانت هذه النقابات ـ كما ذكرنا فى الفصل التمهيدى ـ مسئولة عن سد حاجات الحكومة ، وعن تأدية الضرائب المفروضة على أعضائها .

ولا نعلم ما اذا كانت هذه النقابات قد إستمرت بعد الفتح العربى أم أنها لم تستمر ، وقد أشار الدكتور السيد طه أبو سديرة إلى إستمرارها تحت الحكم العربى فيقول : «ورث العرب نظام النقابات من بين تلك النظم والتقاليد البيزنطية التى أبقوا عليها ، ولم يحاولوا القضاء عليها ، ولم يطرأ أى تغيير يذكر سوى شيوع إستخدام الطوائف والأصناف ، واختفاء لفظ النقابات فى عصر الولاة والعصور اللاحقة» . ولكنه يعود فينقل عن برنارد لويس أن بحثه فى هذا الموضوع قد أسفر عن أنه لا توجد أية اشارة إلى وجود نقابات إسلامية قبل القرن العاشر الميلادى ، وقد أيده فى ذلك Goitein جواتين زميله الباحث اليهودى ـ فهو لم يعثر على كلمة نقابة ، ولم يرد ذكرها

فى أوراق الجنيزة Geniza[1] التى عثر عليها بالفسطاط القديمة ، وقام بفحصها، ويعلق على ذلك قائلا : «لأنه لم يكن هناك مثل هذا النظام» .

ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نبت فى ذلك برأى طالما أن المصادر التى تناولت هذه الفترة قد صمتت عن هذا الموضوع .

وقد اشتغل هؤلاء الصناع فى كثير من الصناعات التى كانت تشتهر بها مصر من قبل الفتح ومنها : صناعة المنسوجات ـ صناعة الورق ـ صناعة الزجاج ـ صناعة الخشب ـ صناعة الجلود ـ صناعة الحصر ـ صناعة السكر والزيوت ـ صناعة الخزف ـ صناعة الفخار ـ صناعة الصابون ـ صناعة الشمع ـ صناعة حضّانة الفراريج ـ صناعة الحلى والجواهر ـ صناعة سك النقود ـ صناعة الأسلحة هذا إلى جانب صناعات أخرى .

وقد كان هؤلاء الصناع على درجة عالية من المهارة كما يتضح من عرضنا لهذه الصناعات .

أولا : صناعة المنسوجات

كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات التى قام بها الأقباط فى مصر، حتى إنها عرفت بهم، فقد كان العرب يطلقون على المنسوجات المصرية اسم «قباطى» نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى

(١) وثائق الجنيزة هى وثائق خطية كثيرة وجدت فى منطقة مصر القديمة وعرفت لعلماء الغرب فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ووزعت على مكتبات أوربا وامريكا . وكانت هذه الوثائق محفوظة قبل اكتشافها، فى حجرة خصصت للأوراق المهملة فى معبد الفسطاط اليهودى ، ووجد بعض آخر من هذه الوثائق فى جبانة البساتين القريبة من المعبد ، وأطلق على المجموعتين اسم وثائق جنيزة القاهرة . ويرجع تاريخ معظم هذه الوثائق ، التى تتكون فى غالبيتها من خطابات متبادلة بين اليهود وذويهم ، إلى الفترة مابين القرنين الرابع والسابع الهجريين ، وقليل منها يرجع إلى فترة متقدمة من القرن الرابع الهجرى . ويقدر عدد الأوراق التى كانت فى هذه الجنيزة بما يزيد عن الربع مليون ورقة معظمها قطع من كتب عبرية ، وقد كتبت غالبية هذه الأوراق باللغة العربية بالحروف العبرية ، وهى تعكس لنا الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان البحر المتوسط والشرق فى تلك الفترة وقد نشر بعض هذه الوثائق ولكن بعضها الآخر لم ينشر حتى الآن .

ميدان النسج . وكان العرب يعرفون ثياب مصر قبل الفتح ، فيذكر ابن اياس أنه كان من ضمن هدية المقوقس للرسول (ص) «كسوة من بياضات مصر» ، ويذكر أن بعض الثياب بقيت عنده عليه الصلاة والسلام حتى إنه كفن فى بعضها . وعن عبد الله بن عمر عن ابن مسعود قال: «قلنا يارسول الله ، عند الموت فيم نكفنك ؟ قال : فى ثيابى هذه أو فى ثياب مصر» .

وقد كانت صناعة النسيج فى مصر صناعة يدوية ، فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجونه. كما اشتغل الرهبان والراهبات فى الأديرة المصرية بحرفة النسج .

وبعد الفتح العربى احتكرت الحكومة العربية صناعة النسيج فى مصر، كما كانت تحتكرها الحكومة البيزنطية من قبل . ونظرا لأهمية صناعة النسيج فقد أنشات الدولة إلى جانب المصانع الأهلية ، مصانع حكومية يطلق عليها اسم دور الطراز [1] وكانت تنقسم إلى قسمين : طراز الخاصة وطراز العامة . وبالنسبة لطراز الخاصة ، فقد كان لا يعمل فيها إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته أو حاشيته . أما طراز العامة فقد كان يعمل فيها لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب . وكانت دور الطراز الخاصة والعامة تتبع بيت مال الحكومة .

أما المصانع الأهلية ، وهى المملوكة للأفراد ، فلم تكن حرة بالمعنى المعروف ، فقد كانت الحكومة تراقب صناعة النسيج فيها مراقبة دقيقة ، ولم تكن حرة فى نسج ماتشاء بالقدر الذى تريده ، بل كانت الحكومة تمدها

(١) ولفظ طراز مشتق من الفارسية «ترازيدن» ، و «تراز» بمعنى التطريز ، وعمل المذبح broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان أو رجال الحاشية لاسيما اذا كان فيها شىء من التطريز ، وعليها أشرطة من الكتابة . واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى فى العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات . على أن كلمة «طراز» استعملت فى معان أخرى ، مثل الدلالة على اى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من اى نوع كان، سواء كان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفورا من الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر، بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الإسلامية كسوريا والعراق وإيران وآسيا الصغرى وإسبانيا وجزيرة صقلية .

بالمواد الخام ، وتختم الأقمشة بخاتم رسمى بدور الطراز أو المصانع الحكومية للنسيج ، وكانت الحكومة تحتكر بيع تلك المواد الخام وتحدد سعرها بمعرفة موظفى دور الطراز ، وكانت لاتسمح بأن يتولى التجارة فيها إلا التجار الذين ترخص لهم بمزاولة هذا العمل ، وكان عليهم تقييد مايبيعونه فى سجلات رسمية . كما كانت دور الطراز الحكومية تكلف النساج فى تلك المصانع الأهلية أن يحملوا ماينسجون إلى مكان خاص يحدد لهم ، حيث تطوى فيه الأثواب وتشد وتوضع فى الأسفاط [1] ، وقد كانت عملية حزم الأقمشة وربطها وشحنها لايقوم به إلا عمال من طرف الحكومة يتناول كل منهم أجرا معينا كموظف مسئول عن هذه الصناعة . وكانت الحكومة تفرض الضرائب الباهظة على هذه الصناعة .

وقد كان يشرف على الطراز موظف كبير يسمى «صاحب الطراز» ، أو «ناظر الطراز» ، ولسنا نعرف مدى سلطانه فى هذه الفترة ، ولكنا نستطيع أن نتصوره مما نعرفه عن حاله فى العصرين الفاطمى والمملوكى ، حين كان من أعلى الموظفين مقاما وأحسنهم راتبا وأوسعهم سلطانا . وكان لصاحب الطراز مساعدون فى مصانع النسج بالبلاد المصرية كلها ، كما كان له مقر رسمى فى الحاضرة ، ومراكب ينتقل بها فى النيل . وكان يعاون صاحب الطراز فى الاشراف على المصانع فى كل إقليم من الأقاليم المصرية فى فجر الإسلام موظف يسمى «المتوكل بطراز الاقليم» ، كما يتبين من وثيقة بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى جاء فيها «قبض حسين بن يحنس من رماح ابن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى».

ونلاحظ أن اهتمام الولاة والخلفاء العرب بتشجيع صناعة المنسوجات المصرية يرجع لعدة أسباب :

السبب الأول : هو استعمالهم الشخصى لهذه المنسوجات لملابسهم أو للخلع التى كانوا يخلعونها على كبار رجال دولتهم فى صورة مكافأة أو

---

(١) السفط جمع أسفاط . وعاء كالقفة .

لإظهار رضاهم عنهم . وقد كانت هذه المنسوجات ، وبخاصة التى تصنع للخلفاء ، عظيمة القيمة ، ومما يدل على ذلك ماذكره المسعودى فى تاريخه من أن ثوبا صنع فى أحد مراكز صناعة المنسوجات بمصر ، وكان هذا الثوب من عرض واحد ، ومع ذلك بلغ ثمنه ألف دينار لأنه كان مصنوعا من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من الكتان . وسنعرف فى الصفحات القادمة أن تنيس كانت مشهورة بصنع ثوب خاص للخليفة يعرف باسم البدنة ، كان ينسج من الذهب الخالص ماعدا أوقيتين فقط .

ومن المعروف أيضا أن الهدايا التى أرسلها أحمد بن طولون إلى الخليفة المعتمد والتى أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد ، كان فيها شىء كثير من المنسوجات النفيسة ، ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد تاريخها عام ٢٧٨ هـ / ٨٩١م . وهناك أيضا قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى بالله والأمير الطولونى هارون بن خمارويه تاريخها عام ٢٩١ هـ / ٩٠٣م .

وقد ظل الخلفاء العباسيون فى عهد الاخشيديين يستمدون من مصر أكثر مما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة .

كما يذكر المقريزى أنه لما حج الوزير أبو بكر محمد بن على الماذرائى كان من بين ماوهبه القرمطى بمكة المكرمة نحو مائتى قميص من طراز دبيق ، ثمن الثوب الواحد منها خمسون دينارا .

أما السبب الثانى : فهو أن المنسوجات كانت سلعة هامة للتصدير . فيذكر ابن حوقل أن تنيس وحدها كانت تصدر إلى العراق من الأقمشة مايبلغ ٢٠ ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار ، وقد استمر ذلك إلى مابعد عام ٣٦٠ هـ / ٩٧٠م ، فى زمن الدولة الفاطمية حين انتهى على يد أبى الفرج

يعقوب بن كلس[1] وزير العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) .

وكان يرد إلى تنيس فى كل عام خمسمائة مركب من موانى الشام لشراء منسوجاتها . كذلك كانت تصدر المنسوجات المصرية إلى بيزنطة ، خاصة ماينتج فى مدينتى إخميم وأسيوط اللتين كانتا مركزين هامين لصناعة النسج فى العصر القبطى . وكثيرا ماعمل الأباطرة البيزنطيون على شراء تلك الأنواع الفاخرة لتزيين قصورهم ، كما أن بابوات روما أنفسهم كانوا يحصلون من الأسواق على تلك المنسوجات النفيسة ويقدمونها هدايا للكنائس .

أما **السبب الثالث** : فلأن المنسوجات كانت من ضمن الجزية .

فقد كانت مصانع النسيج ملتزمة بانتاج كميات من الثياب الصوفية حيث كانت تعطى كنوع من الجزية ، فيقول البلاذرى : «فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنس أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام ، أو عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا» . ولعل شهرة مصر فى ذلك الوقت بانتاج الصوف أو غيره من أنواع النسيج هو الذى شجع الحكام العرب على تقرير ذلك .

ومما يذكره الكندى أنه فى ولاية الحسن بن التختاخ على مصر (١٩٣ - ١٩٤ هـ / ٨٠٨ - ٨٠٩م) قدم العطاء كاملا لديوان الخلافة ببغداد ، وكان قيمة الثلث منه من البز أو الثياب .

---

(١) يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن كلس ، أبو الفرج ، ولد ببغداد وتعلم الكتابة والحساب ، وعندما جاء إلى مصر ، صار ملازما لكافور . وكان يهوديا وأسلم فى عام ٣٥٦هـ / ٩٦٦م ، وعندما مات كافور سجنه أبو الفضل ، جعفر بن الفرات وزير كافور ، وعندما خرج من السجن سار إلى بلاد المغرب فلقى القائد جوهر بن عبد الله مولى المعز فى الطريق ، وهو متوجه بالعساكر إلى مصر ليملكها فرجع معه وقيل ذهب إلى افريقية ثم رجع إلى مصر . على أية حال ، فقد ترقى فى الوظائف حتى تولى الوزارة للعزيز نزار بن المعز عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م وقيل ٣٦٥هـ/٩٧٥م . وتوفى عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠م

وفى عهد الدولة الطولونية كانت الضريبة التى ترسلها مصر إلى بلاط الخليفة العباسى تشمل كثيرا من الأقمشة الثمينة والمنسوجات النفيسة .

وأخيرا السبب الرابع : ، وهو كسوة الكعبة :

فقد عنى الخلفاء منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة من المنسوجات النفيسة التى كانت تصنع بها . فقد كسا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - من بعده - الكعبة القباطى ، وهى ثياب بيض من صنع مصر ، فلما كان معاوية بن أبى سفيان كساها كسوتين ، كسوة عمر بن الخطاب القباطى ، وكسوة الديباج ، فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان .

ويجدر بنا أن نذكر - كما تقول د . سيدة كاشف - أن مصر كما استمرت ترسل القمح سنويا إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة ، وحتى بعد أن استقلت عنها - استمرت ترسل كسوة الكعبة سنويا . بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الإسلامى كله ، وذلك منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

وقد كانت المدن التى تنسج فيها كسوة الكعبة هى :

مدينة تنيس : وكانت تصنع بها كسوة الكعبة ، فيذكر الفاكهى فى كتاب أخبار مكة : «ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة ١٥٩ هـ» .

ويقول الفاكهى أيضا : « ورأيت من كسوة من كسا المهدى عليها بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة ١٦٢ هـ » .

مدينة شطا : وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا ، فيقول الفاكهى : « ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها : بسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة ١٩١ هـ » .

تونة : وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة يعمل بها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا . قال الفاكهى : « ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها : بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة ١٩٠ هـ».

كما ذكر المقريزى نقلا عن الفاكهى وجود قطعتين من كسوة الكعبة احداهما كانت عام ٩١٧ هـ / ٨١٢ م والثانية كانت عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وإن لم يذكر المدينة أو القرية التى نسجت فيها .

فيقول المقريزى : قال الفاكهى فى كتاب أخبار مكة : « ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربى ، يعنى من الكعبة ، مكتوبا عليها : مما أمر به السرىّ ابن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة ١٩٧ هـ » .

« ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها ، إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود : مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ٢٠٦ هـ » .

وكانت المواد الخام التى تستخدم فى صناعة النسيج فى مصر هى :

١ ـ الكتان : وكان الكتان هو النبات الوحيد الذى تعتبر أليافه أقدم الألياف التى استعملت فى صناعة الغزل والنسيج منذ أقدم عصور مصر التاريخية . وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته وكان مادة تصدير ، حتى ـ كما يذكر آدم متز ـ ربما بلغ فارس .

ومن المدن التى تنتج الكتان ـ كما يذكر ابن بطوطة ـ مدينة « بُوش» [١] ويقول عنها : « وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى أفريقيا ». ومدينة « دَلاص » [٢] أيضا ويقول عنها : « وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل الذى ذكرنا قبلها ، ويحمل أيضا منها إلى ديار مصر وأفريقيا » .

٢ ـ الصوف : وهو يعد ثانى خامات النسيج فى الأهمية بعد الكتان ، وذلك فى العصر الإسلامى وقد أهتمُ بالصوف فى مصر منذ العصر البطلمى ، فلم يكن الصوف فى العصر الفرعونى ذا أهمية تذكر فى صنع الأقمشة .

٣ ـ الحرير : يعتبر الحرير ثالث خامات النسيج الطبيعية أهمية ، وقد عرفته مصر منذ عصر البطالمة وكانت من أهم السلع التجارية فى الاسكندرية ، واستمر الحال على ذلك حتى العصر الرومانى .

وقد كان خام الحرير يستورد من الهند والصين قبل انتاجه محليا فى الشام ومصر فى القرن السادس الميلادى .

إلا أن نسج الحرير فى العصر الإسلامى قد تعرض لنوع من التقييد بسبب تحريم لبس الحرير على الرجال ، فقد ظهرت الأحاديث النبوية التى تحرم ذلك ، فقد ورد عن حُذيفة بن اليَمان [٣] قال : « نهانا النبى (ص) أن

---

(١) بُوش : كورة ومدينة بمصر من نواحى الصعيد الأدنى في غربى النيل . هى بمركز بنى سويف .

(٢) دَلاص : بفتح أوله ، وآخره صاد مهملة . كورة بصعيد مصر على غربى النيل .

ويقول محمد رمزى فى قاموسه : إنها فى سنة ١٩٣٦ صدر قرار بالحاقها بمركز بنى سويف لقربها منه .

(٣) حُذيفة بن اليمان وهو حُسيل بن جابر من بنى عبس حلفاء بنى عبد الأشهل ، ويكنى أبا عبد الله . شهد أحدا ، وتوفى بالمدائن عام ٣٦ هـ / ٦٥٦ م .

نشرب فى آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيهما ، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه ». وقدكان لهذا التحريم أثره، فوقف صنع الأقمشة الحريرية وفرض على استعمال الخيوط الحريرية فى التطريز أوامر صارمة، وبعد نقاش طويل دار حول كمية الحرير التى يسمح بوضعها فى الثوب ، انتهى الأمر بتحديد قدر معين من الحرير يباح نسجه فى الثوب .

ويلاحظ أن القطن لم يكن يستخدم فى تلك الفترة فى صناعة النسيج ، نظرا لأنه لم يكن يزرع لهذا الغرض ، وإنما كان يزرع لأغراض الزينة ، كما ذكرت ذلك فى الموضوع الخاص بالأرض والفلاح .

مراكز صناعة المنسوجات :

وقد ظلت مراكز صناعة المنسوجات فى العصر الإسلامى هى نفسها المدن التى اشتهرت بالنسج فى العصر القبطى . ومن هذه المدن ما كانت تشتهر بانتاج أنواع معينة من المنسوجات البيضاء أو الملونة الرقيقة أو الثقيلة .

وهذه المدن هى :

أولا : تِنِّيس : [1] وكان بها خمسة آلاف منسج ، وكان ينسج بتنيس انواع عديدة من الأثواب أهمها :

١ ـ البدنة : وهو اسم للنسيج الثمين المخصص للسلطان ينسج من الذهب بصناعة محكمة ، ولا يدخل فيه من الغزل سداة [2] ولحمة [3] غير أوقيتين ، وقد أحكمه صانعه حتى إنه لا يحتاج إلى تفصيل ولا خياطة

---

(١) تِنِّيس : بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة . وهى جزيرة فى بحر مصرقريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، والفرما فى شرقيها .
ويقول محمد رمزى فى قاموسه : إن الجزيرة التى كانت بها مدينة تنيس لا تزال موجودة إلى اليوم ببحيرة المنزلة ، ومعروفة بجزيرة تنيس وبها بعض بقايا من الطوب الاحمر المخلف من مبانيها القديمة .
وهذه الجزيرة واقعة فى الجنوب الغربى لمدينة بور سعيد وعلى بعد تسعة كيلو مترات منها .

(٢) السَّدَى من الثوب جمع أسدية . اى مامد من خيوطه وهو خلاف اللحمة .

(٣) اللحمة جمع لحم . أى مانسج عرضا وهو خلاف سداه

(٤) البنيقة والبنقة . رقعة تزاد فى نحر القميص ـ طوقه ـ لتوسيعه .

غير الجيب والبنائق [٤] وكان يصنع لكل ملك من ملوك مصر هذا الثوب فى كل عام ، كما كان يحمل من مصر إلى بغداد برسم الخلفاء . وكانت تباع كل بدنة منها بألف دينار ، وفى رواية أخرى بخمسمائة دينار .

٢ ـ ثياب الشروب : وهو نوع من الحرير أو الكتان النقى الفاخر. ويذكر صاحب كتاب « الاستبصار » أن بتنيس « تحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا » .

٣ ـ طراز من الكتان : ويذكر ابن اياس أنه كان يعمل بها طراز من الكتان بغير ذهب ، يباع كل طراز منها بمائة دينار ، ويذكر الكندى أنه لا يبلغ قيمة ثوب الكتان هذا الثمن إلا اذا كان مصنوعا فى تنيس أو دمياط .

٤ ـ الحلل التنيسية : يذكر ابن حوقل أنه ليس فى جميع الأرض مايدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة، وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتين دنانير اذا كان فيها ذهب ، وقد يبلغ مالا ذهب فيه منها مائة دينار.

٥ ـ القصب التنيسى : يقول الكندى : وكان بها القصب التنيسى ، وهى ثياب رقيقة جدا من الكتان ، وصفها الكتاب المسلمون بأنها « مهلهلة النسج كأنها المنخل » ، وكان هذا القصب يلون ، ويعمل منه عمائم للرجال وملابس للنساء .

٦ ـ الثوب الدبيقى : وكان يُعمل بها ، كما يعمل بدمياط ، وسنذكره عند الكلام عن دبيق .

ثانيا : دمياط :

وكان بسبب قربها من مناطق زراعة الكتان أن تفوقت فى صنع المنسوجات الكتانية خاصة ، هذا إلى جانب صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية .

وكان ينسج بدمياط نفس الأنواع التى كانت تنسج بتنيس تقريبا ، فكان ينسج بها :

١ ـ ثياب الشروب : وكانت صناعته فيها أجود من صناعته فى تنيس.

٢ ـ طراز الكتان : وكان يعمل بها ، كما كان يعمل بتنيس .

٣ ـ وكان بها مناشف الأبدان والأرجل .

٤ ـ وكان لا يعمل بدمياط مصبوغ ولا بتنيس أبيض .

٥ ـ وكان يعمل بها كذلك الثوب الأبيض الدبيقى ، وسيأتي ذكره عند الحديث عن دبيق التى تنسب إليها .

٦ ـ كما كان يعمل بها ثياب القصب الأبيض .

وعن أثمان الأثواب في دمياط ، يذكر ياقوت أن الثوب الأبيض بدمياط كان يبلغ ثمنه ثلاثمائة دينار وليس فيه ذهب ، أو مائة أو مائتين دينار ، وربما بلغ الثوب اذا كان مطرزا بالذهب الف دينار . وكانت الأمتعة الفاخرة فيها يباع الذراع منها من عشرة دراهم إلى عشرة دنانير .

ثالثا : دبيق (١)

ومن أنواع الثياب بها :

١ ـ الثوب الدبيقى : وينسب إليها وهو من النسيج الحريرى المنسوج بالذهب يبلغ قيمة الثوب منها مائة دينار .

٢ ـ عمائم الشرب المذهبة : وكانت تعمل بقرية دبيق ، ويصل طول كل عمامة مائة ذراع ، وفيها رقمات منسوجةبالذهب ، تبلغ قيمة العمامة منها مائة دينار ذهب في رواية ابن اياس ، أما المقريزى فيذكر أن قيمتها بلغت خمسمائة دينار. وقد اختلفت رواية ابن اياس عن المقريزى فى الوقت الذى ظهرت فيه هذه العمائم ، ففى الوقت الذى يذكر فيه ابن اياس أنها ظهرت حتى عام ٣٦٥ هـ ، نرى المقريزى يخبرنا أنها لم تظهر إلا فى عام ٣٦٥ هـ أى فى الدولة الفاطمية وبالأخص فى أيام العزيز بالله بن المعز (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) .

٣ ـ القماش الدبيقى الثقيل : وكان هذا القماش ـ كما يذكر آدم متز ـ جيد النسج ، اذا انشق كان له صوت عال ، وكان يستعمل فى رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشمعة ، وربما بلغ ثمن الثوب من هذا الدبيقى مائة دينار ، فإذا كان به ذهب بلغ المائتين .

---

(١) دبيق : من قرى مصر قرب تنيس . وقد اندثرت ، ومكانها اليوم يعرف بتل ديقو أوديجو بالقرب من شاطىء بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى لناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمديرية الشرقية وعلى بعد ٥٥٠٠ متر من صان الحجر .

رابعا : الاسكندرية :

وعن ثياب الاسكندرية يقول المقريزى:«والثياب المنسوجة لا نظير لها وتحمل الى أقطار الأرض».

ومن أنواع الثياب التى كانت تنسج بالاسكندرية:

١ ـ الشرب: وهو ثوب من الكتان كانت الاسكندرية تبيع منه كل زنة درهم بدرهم فضة.

٢ ـ طراز من الكتان: أما مايدخل من الكتان فى الطراز فكان يباع بنظير وزنه مرات عديدة كما يقول المقريزى.

٣ ـ الوشي: وهو نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير وهى مرقومة بألوان شتى. وكان يصنع منها فى كل من الاسكندرية واليمن والكوفة.

٤ ـ الاقمشة الحريرية: وكانت تنسج فى الاسكندرية كما كانت تنسج فى دبيق.

خامسا : البهنسا :[1]

وكان بها قيسارية للبز وكان ينسج بها:

١ ـ الستور البهنسية: وكان يبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا، ويقدر قيمة الزوج بمائتى مثقال ذهب. وقد ذكر ابن حوقل أن الزوج من هذه الستور كان يساوى نحو ثلاثمائة دينار.

٢ ـ المضارب الكبار [2].

٣ ـ وكان يعمل بالبهنسا ايضا البسط، وأجلة(٣) الدواب، والبراقع، والأكسية (٤) ، والطيالسة، والقساطيط العظام.

٤ ـ ويذكر ابن بطوطة في كتابة ان بمدينة البهنسا «ثياب الصوف الجديدة».

٥ ـ وعن طراز البهنسا، يذكر الكندى أن طراز البهنسا من الستور

---

(١) البهنسا: بالفتح ثم السكون، وسين مهملة مقصورة. وهى مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربى النيل، والبهنسا الآن قرية من قرى مصر، مركز بنى مزار مديرية المنيا.

(٢) المضرب جمع مضارب: اى الخيمة العظيمة.

(٣) الجل جمع جلال وأجلال : للدابة كالثوب للانسان تصان به.

(٤) الكساء جمع اكسية: الثوب .

والمضارب يفوق طراز أهل الدنيا، فكان يبلغ ثمن الطراز بغير ذهب مائة دينار. ويقول المقريزى إنه كان اذا صنع بالبهنسا شيء من الستور والأكسية والثياب من الصوف، فلابد أن يكون اسم المتخذ له مكتوبا، وقد استمروا على ذلك جيلا بعد جيل. وكان نسيج الصوف والكتان بالبهنسا يتم بأصباغ وألوان تثبت فيها .

سادسا : شطا : (١)

١ ـ وتنسب إليها الثياب الشطوية. وعن الثياب الشطوية يقول المقدسى: «وأما الثياب الشطوية فلا يمكن للقبطى أن ينسج شيئا منها إلا بعد ما يختم عليها بختم السلطان، ولا أن تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم، وصاحب السلطان يثبت ماييباع في جريدته، ثم تحمل الى من يطويها، ثم الى من يشدها بالقش، ثم الى من يشدها فى السفط، والى من يحزمها. وكل واحد منهم له رسم يأخذه. ثم على باب الفرضة يوء خذ أيضا شيء، وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند إقلاعها».

٢ ـ كما كانت مصانع شطا تنسج الشرب الرفيع الذى تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة درهم .

٣ ـ وتعمل بها كسوة الكعبة كما ذكرت سابقا.

سابعا: مدينة قيس : (٢)

١ ـ وينسب اليها الثياب القيسية.

٢ ـ ولهم ثياب الصوف وأكسية المرعز(٣) من الصوف العسلي الذى لم يكن له نظير فى المناسج الأخرى. ويذكر ابن اياس أن الأكسية العسلية التى

---

(١) شطا: بالفتح، بليدة بمصر على ثلاثة اميال من دمياط على ضفة البحر المالح (بحيرة المنزلة) . وشطا مركز فارسكور مديرية الدقهلية.

(٢) قيس : وكما يقول المقريزى ـ هى قرية بصعيد مصر فى غربى النيل، كان فتحها على يد قيس بن الحارث المرادى، فسميت باسمه، وكان شهد فتح مصر. ويرى محمد رمزى أن هذه الرواية غير صحيحة، لأن القيس كانت معروفة بهذا الاسم، قبل فتح العرب لمصر، وانما يحتمل أن الذى فتحها بعد دخول العرب لمصر، هو قيس بن الحارث المرادى، ولمصادفة تشابه اسمه باسم القيس ظن مورخو العرب أنها سميت اليه والقيس بمركز بنى مزار ـ مديرية المنيا.

(٣) المرعز اللين من الصوف وهو نوع من النسيج يصنع من شعر الماعز

تعمل بها من صوف المرعز، تغنى فى الشتاء عن لبس الفرو. وتذكر المصادر العربية أن معاوية «لما كبر كان لا يدفأ، فأجمعوا أنه لا يدفئه إلا أكسية تعمل فى مصر من صوفها المرعز العسلى غير مصبوغ، فعمل له منها عدد، فما احتاج منها إلا الى الواحد » .

٣ ـ كما كانت مدينة قيس تشارك البهنسا فى شهرتها فى طراز الستور والمضارب .

ومن مراكز النسيج كذلك :

القس (١) : وتنسب اليها الثياب القسية.

دمنهور: ونعنى بها دمنهور الوحش، وإليها تنسب الثياب الدمنهورية.

أسيوط: وكان يعمل بها الفرش القِرْمِز(٢) الذى يشبه الأرمنى، ويقول عنها ياقوت إن بها مناسج الأرمنى والدبيقى المثلث (٣). كذلك كان يعمل بها مناديل من الكتان كانت تصدر الى الحجاز.

وقد اكتسب صوفها شهرة واسعة فى عصر الولاة، وكان يسمى بالصوف المصرى.

إخميم: وكان يعمل بها الفرش القطوع الذى يسمى نطوع الخز(٤).

وقد ظلت مدينتا أسيوط وإخميم فى صعيد مصر من أهم مراكز نسج الحرير، وليس لدينا من دليل يشير الى توقف تلك الصناعة منذ ازدهارها فى العصر البيزنطى، بل إنه يوجد من الأدلة ماينفى ذلك فقد عثر فى إخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان، ولم يذكر تاريخ صناعته أو نسجه لمعرفة المقصود بالخليفة هنا: هل هو مروان بن عبد الحكم أو أنه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، ومهما كان الاختلاف فى نسبة الاسم، فانه يكفى كدليل واضح على استمرار تلك الصناعة فى ذلك العصر.

---

(١) القس : بالفتح ناحية من بلاد الساحل قريبة الى ديار مصر، قريبة من الساحل بين الفرما والعريش، وتعرف اليوم باسم القلس على ساحل البحر الابيض المتوسط فى الشمال الشرقى لمحطة بئر العبد.

(٢) القرمز صبغ احمر أرمنى الاصل.

(٣) وربما يقصد المثلوث اى المنسوج من صوف ووبر وشعر.

(٤) الخز جمع خزوز: الحرير، مانسج من صوف وحرير او من حرير فقط .

أهناس : وكانت تعمل بها الأكسية وقد عرفت بها.

تونة ·[١] ويضرب المثل بحسن معمول ثيابها وطرازها كما يقول ياقوت.

صناعة الورق :

كانت مصر منذ العهد الرومانى تشتهر بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم. وقد استمرت هذه الصناعة فى مصر بعد الفتح العربى فيقول ابن فقيه: إن فى مصر القراطيس [٢] «التى لا يشركهم فيها أحد». وكانت مصر تصدر أوراق البردى الى الشعوب الأخرى، فيقول آدم متز: وكان الناس طول استعمالهم للبردى يعتمدون على مصر. وكان أهم مراكز البردى فى مصر هى: بورة [٣] وهى على ساحل البحر غربى فرع رشيد. ويبدو أن الفسطاط كانت توجد بها مصانع القراطيس منذ وقت مبكر، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن العرب كانوا يختطون حول أصحاب القراطيس الدور والسكن. كما يشير ابن ظهيرة الى أن مدينة أسيوط بالصعيد كانت تضم مصنعا لانتاج الورق. ولا شك أن أهم مصانع الورق ما كان يوجد منها بالاسكندرية، فقد اشتهرت منذ العصور القديمة بانتاجها.

وقد كان الصناع المصريون يجيدون عمل أنواع من البردى، منه مانعم وغلا، ومنه ما خشن ورخص، حتى قيل إنه كانت المصانع المصرية تنتج سبعة أصناف من ورق البردى.

وقد بلغ من اجادة هؤلاء الصناع لورق البردى أن المعتصم عندما أنشأ مصانع للورق جلب لها الأساتذة والصناع من مصر.

---

(١) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط وهذه الجزيرة تعرف اليوم بجزيرة عبد الله بن سلام الواقعة فى بحيرة المنزلة شرقى بلدة المطرية، وعلى بعد أربعة كيلو مترات منها، ولا تزال آثار أطلال هذه القرية ظاهرة بالجزيرة المذكورة باسم كوم ابن سلام.

(٢) تسمى العرب ما يكتب فيه القرطاس، وجمعه قراطيس .

(٣) بورة : مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط ويقول محمد رمزى فى قاموسه إن بورة كانت واقعة على الشاطىء الغربى للنيل تجاه قريتى العادلية والبستان الواقعتين على الشاطىء الشرقى منه. ومكانها اليوم القرية المعروفة بكفر البطيخ إحدى قرى مركز شربين بمديرية الغربية، وواقعة فى الجنوب الغربى لمدينة دمياط وعلى سبعة كيلو مترات منها. والظاهر انه لكثرة زراعة صنف البطيخ بأراضيها اشتهرت به فتغلب اسمه عليها واختفى اسم بورة .

وقد ذاعت شهرة مصر بانتاجها من الورق، فقد كان من أهم منتجاتها ذات القيمة الاقتصادية حيث كان يتم تصديره الى بيزنطة وغيرها من بلاد العالم الخارجى، بالاضافة الى أسواق بغداد.

وقد استمرت شهرة مصر بانتاج الورق وتصديره للخارج حتى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى عندما ظهرت كواغيد سمرقند التى عطلت قراطيس مصر - على حد قول الثعالبى - والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق، وكانت هذه الكواغيد لا تصنع إلا بسمرقند والصين فقط. ويقول كراباتشك Karabacek : «يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح إن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة، قد أصبحت منتهية بالاجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)، فنجد أن الورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣هـ / ٩٣٥م انتهاء تاما، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ/٩١٢».

صناعة الزجاج :

كانت صناعة الزجاج مزدهرة فى مصر منذ العصور القديمة، وكان مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية. وقد بلغ ما كانت تنتجه مصر من المصنوعات الزجاجية حدا من الاتقان والوفرة حتى إن الامبراطور الرومانى سيفروس Alexander severus طلب أن يكون جزء من جزية مصر من مصنوعاتها الزجاجية. كما قيل إن الامبراطور نيرون، قد دفع خمسين جنيها ذهبيا ثمنا لكوبين من الزجاج من صناعة طيبة.

وقد استمرت مصانع مدينة الاسكندرية فى انتاج الزجاج فى فجر الاسلام، على الرغم من أن مدينة الفسطاط - التى كان فيها أكثر من مصنع للزجاج فى القرن الثانى الهجرى - انتزعت منها القيادة فيه.

وكان صناعة الزجاج يقومون بصنع الأوزان الزجاجية والخواتم التى كان يطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة، كما كانوا يصنعون الأوانى الزجاجية بمختلف الاشكال والأحجام فضلا عن القوارير لحفظ العطور، وغير ذلك .

ولعله أقدم ما وصلنا حتى الآن من الزجاج الاسلامى المؤرخ هى صنج وأختام ومكاييل والى مصر قرة بن شريك التى ترجع الى سنة ٩٠هـ/٧٠٨م، وقد كانت المكاييل تتألف عادة من أوان زجاجية يميل لونها الى اللون الأخضر، أما شكلها فهو إما مخروطى أو بيضاوى أو كروى، ذات فوهات واسعة أو ضيقة حسب الغرض الذى صنعت من أجله.

وعندما استقلت مصر تحت حكم الطولونيين والاخشيديين شهدت نشاطا ملحوظا فى سائرالحرف والصناعات، فقد تطلبت نشأة القطائع ومظاهر الترف فى القصور الطولونية المزيد من انتاج مصانع الزجاج.

ومن أشهر الصناع الذين سجلوا توقيعهم على احدى التحف الزجاجية فى عهد الدولة الطولونية، كان نصير بن أحمد بن هيثم، فقد صنع لأحد أمراء هذه الدولة تحفة من الزجاج مكتوبا عليها « مما عمل للأمير ربيعة» (١) ولعل نصير الزجاج هذا كان ابنه اسحق الذى أشار اليه ابن النديم فى أخبار الكيمائيين، وقد جاء فى ترجمته أنه كان يخرط الزجاج ويصنف الكتب فى هذه الصناعة، ومنها كتابه المسمى بالتلاويح وسيول الزجاج، وكتاب صناع الدر الثمين، وقد توفى سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م فى بداية عهد الاخشيديين.

صناعة الخشب :

اشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة بصناعة الخشب على الرغم من قلة الأخشاب فى مصر، وان مايوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا لأعمال النجارة البسيطة، مثل شجر الجميز والسنط والزيتون والسرو والنبق. وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والابنوس والساج، وغيرها من أنواع الخشب المتين، وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب فى حالة جيدة. ويذكر ابن الفقيه أن بمصر الأبنوس الأبيض الذى يتخذ منه الأسرة.

(١) والأمير ربيعة هو فى الغالب ابن أحمد بن طولون الذى قيل انه قام بثورة ضد ابن اخيه هارون بن خمارويه فى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، وكانت قد انتهت بالفشل وقتل ربيعة.

وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضا وأتقنها الكثير منهم، فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة في يد الأقباط خاصة واذا علمنا أن العرب قد استعانوا، قبل ظهور الاسلام، بأحد النجارين من الاقباط فى إعادة بناء الكعبة عندما صدع جدرانها نتيجة لسيل عظيم تعرضت له، وكان هذا النجار يسكن مكة، وكان معه تاجر رومى اسمه باقوم، كان البحر قد عصف بسفينته القادمة من مصر، فتحطمت فى ثغر جدة، وكانت تحمل مواد بناء معدة لكنيسة فى بلاد الحبشة.

وقد وصلت الينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف، مستعملة فى الأبنية، أو فى قطع الاثاث. وأقدم هذه القطع يرجع الى القرنين الثانى والثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى)، وقد وجد فى القرافة القديمة بالفسطاط حيث كان يستعمل بعد كسره من الأبنية والأثاث، لمنع انهيار الأترية فى المدافن، وقد ظهرت في هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة، مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة اسلامية. وقد وصلت الينا قطع خشبية ترجع الى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة، فى القرن الأول الهجرى (٧م) والصناعة الاسلامية فى القرن الثالث الهجرى (٩م)، وهذه القطع مزخرفة بالنقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر المسيحى، وبعض القطع المذكورة لا نكاد نميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية.

وكان من الطبيعى أن يستخدم العرب قطع الأثاث القبطية، كالدواليب والموائد، ولعلهم أخذوا عنهم أيضا الكرسى الذى يحمل عليه المصحف، والذى يعرفه باسم منجليه (أى محل الانجيل).

صناعة الجلود فى مصر :

يبدو أن المصريين فى القرن الرابع الهجرى ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ـ تعلموا من الزنوج صناعة بعض أنواع الجلود.

ومن المراكز التى تصنع الجلود بها :

مدينة إخميم : وتنسب اليها الجلود الاخميمية.

ومدينة دلاص : وينسب اليها اللجم الدلاصية.

وكان يعمل بالصعيد من الجلود الأنطاع [١].

صناعة الحصر فى مصر :

ومن الصناعات التى عرفتها مصر أيضا صناعة الحصر، وكان الحصر نوعان كما يقول ابن زولاق :

النوع الأول، وهو نوع فاخر غالى الثمن يستخدمه الأغنياء، منه ما يعرف باسم حصر السامان وحصر العبادان. وقد عرف حصر العبادان بهذا الاسم لأنه كان يصنع بمدينة عبادان، وهى جزيرة على نهر شط العرب، وكانت مصر وفارس تقلد صناعته.

أما النوع الثانى فهو حصر الحلفاء،يستخدمه الفقراء لرخص ثمنه فيما يبدو. ويبدو لنا أن صناعة الحصر فى مصر لم تقتصر على هذين النوعين فقط، وإنما كانت هناك أنواع أخرى، فيقول السيوطى: إن بمصر أصناف لا حصر لها من الحصر.

المعاصر وصناعة السكر والزيوت :

كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر، ونعرف ذلك مما جاء فى الأوراق البردية. وكان عصر قصب السكر يتم فى شهر كيهك (ديسمبر)، فيقول المقريزى : وفى شهر كيهك «كسر قصب السكر واعتصاره، واستخدام الطباخين لطبخ القنود» [٢] .

---

(١) النطع جمع أنطاع ونطوع وهو بساط من الجلد، وتعرف أيضا باسم الأنماط فيقول ابن خلكان عن الأنماط :«وهى البسط التى تفرش، وغير ذلك من آلة الفرش من الأنطاع والوسائد، وأهل مصر يسمون هذه الالات الأنماط وبائعها الانماطى». وقد اشتهرت حرفة الانماط فى مصر، خاصة في العصر الفاطمى وذلك لاحتياج المنزل الفاطمى لاعداد كبيرة منها، حيث كانت تستخدم لتوضع على مائدة الطعام. وغالبا ما كانت الانماط او الانطاع يتم زخرفتها بألوان جميلة ورسومات دقيقة. وترى ـ الدكتورة أمينة الشوربجى ـ أنها تشبه مفرش السفرة فى عصرنا الحالى. وكانت تصدر الى الشام وغيرها من البلاد.

(٢) القند جمع قنود. وعمل القنود هى عسل قصب السكر اذا جمد .

وتذكر المصادر أن الفسطاط كان بها مطابخ السكر.

ومن البلاد التى كان بها معاصر لقصب السكر، خاصة وأنها تقوم بزراعته : مدينة ملوى، فقد كان بها احدى عشرة معصرة للسكر، «وكان من عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها، فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها، ثم يخرجها، وقد امتلأت سكرا، فينصرف بها».

ومن البلاد أيضا سمهود [1] وهى كثيرة المعاصر لقصب السكر، فقد كان بها سبعة عشر حجرا.

كذلك كان فى مصر معاصر لاستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول. ويذكر ابن دقماق أن درب المعاصر بالفسطاط عرف بدرب المعاصر لأن فى بدايته معصرة زيت لم يكن بمصر مثلها لجودة عمارتها، وكثرة أعوادها وعدة أحجارها.

ويذكر ابن اياس أن مدينة تنيس كان بها مائة معصرة، الا أنه لم يذكر هل كانت للزيت أو للسكر ! !

صناعة الخزف :

كما اشتهرت مصر بصناعة الخزف، وقد ظل صناع الخزف فى مصر محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة.

وأشهر ما عمل من الخزف هى أوانى الخزف للماء (لتخزين الماء فيها)، ويذكر المقريزى أن هذه الأوانى أفضلها ما عمل فى شهرأمشير (فبراير) حيث تمتاز بتبريد الماء فى الصيف أكثر من تبريد مايعمل فى غيره من الشهور.

---

(١) سمهوط : بفتح أوله، وسكون ثانيه ويقال بالدال المهملة مكان الطاء. قرية كبيرة على شاطىء غربى النيل بالصعيد. وسمهوط مركز نجع حمادى مديرية قنا. وكانت قد قسمت فى عام ١٢٤٥هـ الى خمس نواح، وهى سمهوط هذه وهى الأصلية، والبحرى سمهود، والقبلى سمهود، والاوسط سمهود والشرقى سمهوط.

وقد استطاع صناع الخزف أن يبتكروا أنواعا جديدة من الخزف كالأطباق والصحون العميقة والمسطحة التى كانت تستخدم فى الطعام، وقد شجع المسلمون هؤلاء الصناع، حيث زاد الاقبال والطلب على الأوانى الخزفية بدلا من الأوانى الذهبية والفضية التى كره الاسلام استعمالها.

ولم تقتصر مراكز صناعة الخزف على الفسطاط، بل كانت أسوان وإسنا واخميم وأسيوط والأشمونين والفيوم وغيرها من المدن المصرية، وكانت الفيوم تنتج أنواعا من الخزف المسمى بخزف الفيوم، كما اشتهرت البهنسا أيضا بمصانعها الخزفية.

وفى الدولة الطولونية ظهر نوع جديد من الخزف عرف باسم الخزف ذى البريق المعدنى، وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أدخله الى مصر نقلا عن سامرا [1] .

وقد اختلف علماء الآثار عن نشأة الخزف ذى البريق المعدنى، فقد قال فريق العلماء الفرنسيون بأنه نشأ فى ايران، أما فريق العلماء الألمان فيقولون بنسبته للعراق وخاصة فى مدينة سامراء، أما بتلر فيؤكد نسبته الى مصر، بل ويرجعه الى العصر القبطى .

صناعة الفخار :

كما كان يصنع بمصر أيضا الفخار ، وخاصة فى الاقصر ، فيذكر الأدفوى أن بالأقصر الفخار الأقْصُرِيّ الذى « ليس فى ديار مصر مثله » ، وكان يصدر إلى الخارج .

صناعة الصابون :

كان المصريون أسبق الأمم إلى اكتشاف المواد التى يصنع منها الصابون . وكان المصريون يصنعون الصابون من زيت الزيتون وزيت الفجل والسلجم [2] والخس .

---

(١) سامرّاء : بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا ، يقال لها سُرَّ مَن رأى ، فخففها الناس وقالوا سامراء، وسر من رأى هى المدينة الثانية من مدن خلفاء بنى العباس سكنها ثمانية منهم ، وهم : المعتصم وهو الذى انشاها ، والواثق هارون ابنه ، والمتوكل جعفر بن المعتصم ، والمنتصر محمد بن المتوكل ، والمستعين أحمد بن محمد بن المعتصم ، والمعتز أبو عبد الله بن المتوكل ، والمهتدى محمد بن الواثق والمعتمد احمد بن المتوكل .

(٢) السلجم او الشلجم وهو اللفت .

وعن انواع الصابون فى مصر يذكر البغدادى أن صابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر، وبه شبهت الصابونية التى كانت من أنواع الحلوى

أما بالنسبة لمراكز صناعة الصابون فيبدو لنا انها كانت منتشرة فى كثير من البلاد فتذكر المصادر العربية أن الفسطاط كان بها مطابخ للصابون . كما يذكر الحميرى أن قفط [1] كان صابونها معروف النظافة .

صناعة الشمع :

وقد اشتهرت مصر ابان الفتح العربي وفى عصر الولاة بإنتاج الشمع من خلايا النحل ، وفضله العربى على غيره من الشمع . وكان صالح بن على والى مصر أول من اتخذ الشموع الطوال . وكان للمصريين مهارةكبيرة في صنع الشموع ، فكانوا يصنعون منه أنواعاً مختلفة وقد شاع استخدامه في ذلك العصر.وفى عهد الطولونيين ،لما زفت قطر الندى بنت الأمير أبي الجيش خمارويه على الخليفة المعتضد بالله، قال المعتضد : اكرموها بشمع العنبر .

صناعة حضانة الفراريج :

وقد كانت صناعةحضانة الفراريج إحدى الصناعات التى مارسها المصريون منذ العصور القديمة فقد كان التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى وهكذا انفرد المصريون فى قيامهم بعملية التفريخ بطريقة الترقيد الصناعى التى برعوا فيها منذ فجر الإسلام. ويظهر أن هذه الطريقة لم تنتقل من مصرالى غيرها من بلاد العالم الخارجى حتى العصر الأيوبى، يوءيد ذلك ما اوضحه البغدادى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى بانها إحدى الصناعات التى إختصت بها مصر وحدها .

---

(١) قِفْط : بكسر اوله ، وسكون ثانيه . وهى مدينة شرقى النيل ، بصعيد مصر الاعلى ، وليست على ضفة النّيل ، بل بينهما نحو الميل ، وساحلها يسمى بُقطر ، وبينها وبين قوص نحو الفرسخ . وقفط مركز قنا - مديرية قنا .

وقد كان المصريون يتاجرون فى هذه الصناعة ويتكسبون منها. وكانت طريقة بناء هذه المعامل تتم بطريقة معينة ، فتعمل كالتنانير ، وتوقد بنار تحاكى بها نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة للبيض، ويخرج من تلك المعامل الفراريج، وهى معظم دجاجهم، ولا تعمل هذه التنانير الا بمصر.

وكان البيض يرقد فى هذه المعامل أربعة أشهر آخرها شهر بشنس (مايو).

صناعة المعادن :

كانت أنواع المعادن فى مصر هى :

١ ـ الذهب [١] وكان الذهب يستخرج من الصحراء الشرقية بين أسوان وعيذاب ، وكان وادى علاقى مركز الذين يبحثون عن هذا المعدن النفيس، وكان سكان هذا الوادى وهم البجة عبيد من الزنوج يعملون فى استخراج التبر . وفى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣ م كان سيد قبيلة ربيعة هو صاحب السلطان فى هذه المنطقة .

ويذكر ياقوت أن المحتفر اذا وجد ذهبا فجزء منه للمحتفر وجزء منه لسلطان العلاقى ، وهو رجل من بنى حنيفة من ربيعة .

٢ ـ الزمرد [٢] : وكان هذا المعدن تنفرد به مصر ، ومنها يحمل إلى سائر الدنيا ، فتذكر المصادر العربية أنه ليس فى الدنيا معدن الزمرد إلا بمصر من نواحى الصعيد ، وهو على القرب من مدينة قفط ومن منطقة الذهب . وقد استمر استخراج هذا المعدن إلى أواخر الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، ثم أهمل لقلة ما يتحصل منه مع كثرة التكلفة .

---

(١) يوجد الذهب فى الطبيعة منتشرا بكثرة على هيئة معدن ، ولم يوجد فى حالة نقية . بل يكون دائما محتويا على كميات من الفضة أو النحاس ، وأحيانا نجد فيه آثار حديد ، ومعادن أخرى . ويوجد الذهب فى الطبيعة عادة فى شكلين ، اما فى عروق غير منتظمة فى ثنايا صخور الكوارتس ، أو فى الرمال الفريانية والحصا . وهذا ناتج من تفتت صخور تحتوى على مادة الذهب ، قد حملها تيار ماء جف فيما بعد . وقد عثر على الذهب فى هاتين الحالتين . ولما كان من السهل معرفة الذهب بلونه الأصفر البراق ، وكذلك بسهولة استخراجه فقد عرفه المصرى واستعمله منذ عصور سحيقة ترجع إلى ما قبل الأسرات . والذهب يوجد فى مناطق شاسعة فى مصر بين وادى النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة فى الصحراء الشرقية جنوبا من طريق قنا والقصير إلى حدود السودان . وقد وجد أن عدد المناجم التى شغلت قديما فى الكوارتس لاستخراج الذهب يبلغ عددها نحو المائة ، والواقع أن المصريين كانوا من أمهر الباحثين عن هذا المعدن ، إذ لم يوجد مكان يشعر بوجود الذهب فيه ، إلا وجدنا المصريين قد سبقوا إليه ، وقتلوه لحصا وتنقيبا .

(٢) الزمرد من الأحجار الكريمة ، ولونه أخضر أو أزرق باهتا أو أصفر أو أبيض . غير أننا لا نعرف منه =

٣ ـ الزبرجد : وكان يستخرج من منطقة فى صعيد مصر من جنوب النيل فى برية منقطعة عن العمارة . وقد ظل المصريون يستخرجون هذا النوع من الزبرجد حتى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م ، وهكذا يمكن القول بأنه حتى زوال الدولة الفاطمية كانت مصر تعمل على استخراجه ، وتشتغل بتجارته ، ولها الشهرة فى مجال تصديره إلى الخارج .

٤ ـ الشب : يقول عنه ابن مماتي : وهو حجر معروف يحتاج إليه فى أشياء كثيرة ، أهمها صبغ الأحمر ، وكان الروم يستخدموه بكثرة ، ومعادنه بصحراء صعيد مصر والواحات . وكانت العرب تهبط به إلى ساحل قوص ، والى ساحل إخميم ، وآلى البهنسا ، إن كان أتى به من الواحات ، ويحمل من اى ساحل كان فيه إلى الاسكندرية .

٥ ـ النطرون [١] : وكان يستغل من منطقتين احداهما تسمى الطرانة من أعمال البحيرة بالوجه البحرى ، ويذكر صاحب « التعريف» انه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغل منها اكثر مما يستغل منها ، فإنها نحو مائة فدان تغل نحو مائة الف دينار فى كل سنة ، أما المنطقة الثانية فهى منطقة فاقوس بشرق الدلتا، ولم يكن معدنها على جودة معدن المنطقة الأولى .

= إلا الاخضر الذى كان يستعمل فى مصر قديما ، ويوجد الزمرد فى منطقة سقاية زبارة فى تلال البحر الاحمر حيث توجد مناجم عظيمة له ربما كانت من عهد الاغريق الرومانى. ومن المحتمل أن أنواعا جميلة من هذا الحجر قد وجدت قديما ولم يمكن العثور عليها الآن. والزمرد يكون دائما شفافا، ولا يكون قط مظلما، وكان المصرى يستعمله دائما فى قطعة السداسية الشكل ، وذلك لأنه أصلب من حجر الكوارتس فكان يصعب عليه بطريقة منظمة. والظاهر أن الزمرد المصرى لم يستعمل قط فى مصر القديمة قبل عصر البطالسة ، ولذلك فان الأحجار الكريمة التى وجدت فى مجوهرات دهشور ، وكان يقال عنها إنها من الزمرد عندما فحصت لأول مرة كانت فى الواقع من الفلسبار الاخضر ، وكذلك كل الاحجار التى اطلق عليها اسم زمرد أو زبرجد قبل عصر البطالسة ، فانها ليست منهما بل من أحجار اخرى ، وذلك بعد أن فحصها العالم الكيمائى « لوكاس» فحصا فنيا .

(١) كان النطرون يستعمل فى مصر قديما فى احتفالات التطهير، وبخاصة لتطهير الفم ولعمل البخور، ولصناعة الزجاج، والطلاء، وفى الطهو فقد كان المصريون يستعملون النطرون فى طبخ الفجل، وكذلك يستعمل فى الطب وفى التحنيط .

وكان استخراج النطرون مباحا للناس منذ الفتح العربى، وكان أول من حجر عليه هو أحمد بن محمد بن مدبر عندما ولى خراج مصر بعد عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م.

وكان من هذه المعادن وغيرها تقوم عدة صناعات أهمها:

صناعة الحلى والجواهر ـ صناعة سك النقود ـ صناعة الأسلحة.

اولا : صناعة الحلى والجواهر:

وقد استمر الصناع الأقباط فى عصر الولاة فى صناعة الحلى والجواهر الكريمة. وكانت مدينة الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الحلى والجواهر فى مصر الاسلامية، فقد بقيت الى مابعد الفتح الاسلامى بزمن طويل تحافظ على صناعة الذهب وتطعيم المعدن، كما تشير المصادر الى وجود طائفة صياغ الذهب وصانعى الحلى من الفضة بها منذ فجر الاسلام. كما كانت الفسطاط من مراكز صناعة الحلى والجواهر الثمينة.

وليس من المستبعد ـ كما يقول الدكتورالسيد طه أبو سديرة ـ احتراف الفرس الذين دخلوا مع عمرو بن العاص واختطوا بالفسطاط لمهنة الصياغة منذ وقت مبكر، حيث كانت صناعة الحلى قد بلغت على أيديهم شانا عظيما فى الدقة والجمال، ولا سيما وأنهم وفدوا من صنعاء باليمن، وقد اشتهر العنصر اليمنى منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة، وتذكر المصادر أن هؤلاء الفارسيين كانوا يرصعون الزجاج بالجوهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم .

وفى العصر الطولونى توضح لنا المصادر اهتمام الطولونيين بأنواع الحلى وأدوات الترف والزينة، ويعتبر جهاز قطر الندى إبنة خمارويه خير شاهد على ذلك، فقد تفنن صناع الحلى والجواهر فى ابداع الأشكال العجيبة من التحف الذهبية وغيرها من الطرائف. يذكر المسعودى أن ابن

الجصاص الذى تولى أمر صنع جهازها، حمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة قط. فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، فى كل عين من التشبيك قرط فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة، وصناديق مملوءة بالشمعدانات وأوانى الذهب والفضة. ومما لا شك فيه أن ما حفلت به المصادر التاريخية فى هذا الصدد، انما يعكس فى جلاء ووضوح مدى تقدم الصناع ومهارتهم الفائقة فى صناعة أنواع الحلى والجواهر أيام الطولونيين. كما ازدهرت أيضا صناعة الحلى والجواهر فى عهد الاخشيديين، خاصة واذا علمنا أن محمد بن طغج الاخشيد مؤسس الدولة كان يهتم بصناعة الجواهر، فيذكر ابن سعيد أن الاخشيد كان مغرما بجمع المال واقتناء الجواهر، وقد بلغ ماخلفه من الثروة حين وفاته عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ماقيمته مائتا ألف دينار من نوع المجوهرات الثمينة.

ثانيا : صناعة النقود :

يذكر المقريزى أن عمر بن الخطاب قد قبل، بعد فتح الشام ومصر، ضرب النقود العربية بهما على الطراز البيزنطى دون معارضة، فضرب الدراهم على نقش الدراهم الفارسية، وشكلها بأعيانها، غير أنه زاد فى بعضها «الحمد لله»، وفى بعضها «رسول الله»، وفى البعض منها «لا اله الا الله وحده»، وفى البعض الآخر «عمر» الا أن الصورة لم تكن لعمر وانما للملك.

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ضرب دراهم ونقشها «الله أكبر». كذلك ضرب معاوية دنانير وكان عليها صورة رجل متقلدا «سيفا».

وكان عبد الله بن الزبير هو أول من ضرب الدراهم المستديرة، ونقش بأحد الوجهين «محمد رسول الله» وبالآخر «أمر الله بالوفاء والعدل».

غير أن النقود التى سكها خلفاء الدولة الاسلامية وأمراؤها لم تثبت على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان. كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنبا الى جنب مع النقود الاسلامية.

وقد استمر هذا الوضع الى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٥م) فابطل استعمال النقود الرومية والفارسية، وضرب نقودا اسلامية عربية وأوجب التعامل بها، وأمر بأن تسحب الدنانير التى ضربت قبله، ليعاد سكها على الطراز العربى الجديد. وقد نقش على أحد وجهى الدرهم «قل هو الله أحد»، وعلى الآخر «لا اله الا الله» وطوق الدرهم من وجهيه بطوق، وكتب فى الطوق الواحد «ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا»، وفى الطوق الآخر «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ».

وقد كان لعبد الملك بن مروان الفضل الأول فى إصلاح السكة وتوحيدها فى أنحاء الدولة الاسلامية، وجعلها وزنا واحدا، والاستغناء عن النقود الأجنبية (عام ٧٦هـ/٦٩٥م)، وربما حمل ذلك المورخين على القول بأن عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب النقود فى الاسلام.

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لم يسمح بضرب النقود الذهبية بعد تعريبها تماما فى غير مصر وسوريا، فانحصر انتاج الدنانير العربية فى عهده فى دار السك بكل من الفسطاط ودمشق.

وقد استقلت سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة عندما استقلت عنها، وذلك فى الدولة الطولونية، فضربت فيها الدنانير التى عرفت بالدنانير الأحمدية نسبة إلى أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية .

وقد كتب عليها بالخط الكوفى الصغير اسم كل من الخليفة المعتمد بن المتوكل على الله ، واسم أحمد بن طولون .

وقد ضربت النقود التى نعرفها من العصر الطولونى فى بلاد مختلفة ، مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية .

أما فى الدولة الأخشيدية ، فيذكر المؤرخون أن محمد بن طغج الأخشيد أمر بضرب الدينار الأخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها .

ثالثا : صناعة الأسلحة :

تشير المصادر إلى أن حركة صناعة الأسلحة بالاسكندرية وتجارتها كانت رائجة عند دخول العرب إلى البلاد ، وقد اشتملت قوانين جستنيان الصادرة فى سنة ٥٣٩ م بعض الفقرات التى تقضى بوجوب حرص حكام الأقاليم واهتمامهم بصناعة الأسلحة فى مصانع الحكومة ، ولا يجرى بيعها إلى الأفراد ، ولا تستخدم فى الفتن والاضطرابات الداخلية ، وعلى من يخالف ذلك دفع غرامة . ولاشك أن مصانع الأسلحة التى كانت تملكها الدولة فى الاسكندرية والفرما والفيوم وغيرها من عواصم الأقاليم المصرية ، قد زادت من حجم إنتاجها ، خاصة وأن مصر ظلت قاعدة للفتوحات والتوسع .

وقد جاء فى وصف الجيش فى العصر العباسى ، أنه لم يكن يختلف على مدى قرن كامل من تأليفه ، فى عدته وعتاده وتدريبه ، عن الجيش البيزنطى ، فاستعمل نفس الأسلحة وهى القوس والسهم والرمح والقلاع والسيف والبلطة ، ولا شك فى أن دار الصناعة بجزيرة الروضة منذ انشائها فى عام ٥٤ هـ/ ٦٧٣م كان بها فريق من الصناع يعملون فى انتاج بعض معدات السفن الحربية ، ولا سيما تلك التى كانت تصنع من الحديد أو الفولاذ ، فضلا عما كانت تحتاج إليه تلك السفن فى تركيبها من المسامير والسلاسل ونحوها .

وفى عهد الدولة الطولونية ثم الاخشيدية من بعدها لقيت صناعة الأسلحة رواجا كبيرا، بسبب العدد الكبير للجيش في ذلك الوقت، الى جانب الرغبة فى المحافظة على الاستقلال. وتظهر ضخامة الاسلحة وتنوعها عند ذكر المصادر العربية لعرض الجيوش، سواء فى الدولة الطولونية أو الدولة الاخشيدية.

هذا الى جانب انشاء دار جديدة للصناعة بساحل الفسطاط والتى سميت الصناعة الكبرى فى عهد الاخشيد.

صناعات مختلفة :

وكان يعمل بمصر الخيش فى الفيوم.

كما كان يعمل بها الريش.

وكان يصنع فى الفرما الحبال من الليف وهى فى غاية الجودة.

كما كان يعمل من جلد طير الحواصل الخفاف الناعمة، والفراء الأبيض الذى يقوم مقام الفنك(١) فى لينه ورقته.

ثالثا : طبقة التجار

عندما دخل العرب مصر ، عملوا على استغلال الوضع التجارى المزدهر فيها لصالحهم ، فساروا على نفس سياسة الدولة البيزنطية وهى سياسة حرية التجارة . وفى ذلك يقول الدكتور على حسنى الخربوطلى : إن القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) كان عصر تجارة غير مقيدة فى البحر المتوسط . وهذه الحرية التجارية ، هى التى تفسر لنا مقدار ما بلغته مصر من رخاء حتى عام ٧٠٥م (حوالى سنة ٨٦هـ) برغم الحروب والغارات البحرية ، حتى يقول الرحالة الأوربى (أركولف) الذى زار مصر عام ٦٧٠م (حوالى سنة ٥٠ هـ) : إن الاسكندرية أصبحت ملتقى تجارة العالم كله ، وتوافدت عليها أعداد غفيرة من التجار لشراء ما بها من بضائع . وهذا الرخاء الذى عم وادى النيل حوالى عام ٧٠٠م (حوالى ٨١ هـ) ، جعل واليها يبعث إلى دمشق العاصمة الأموية ، يبلغها أن خزانته لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة ، ويطلب من الخليفة أن يدله على ما يفعل ؟ فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد .

كانت طبقة التجار فى العصر البيزنطى تتركز بصورة رئيسية فى الاسكندرية ، وكانت تتكون من اليهود خاصة الذين اشتهروا بمهارتهم التجارية ، ومن الروم والأقباط والسوريين وعناصر أخرى . وقد استمرت

---

(١) الفنك : حيوان صغير من فصيلة الكلبيات شبيه بالثعلب لكن أذنيه كبيرتان، لا يتجاوز طوله أربعين سنتيمترا بما فيه الذنب. فروته من أحسن الفراء، معروف فى مصر.

طبقة التجار هذه فى مزاولتها للتجارة تحت الحكم العربى ، بعد أن أضيفت إليها طبقة من التجار العرب الذين استوطنوا مصر .

وقد تغير هذا التكوين الاجتماعى لطبقة التجار فى الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٤ م) عندما وفدت جالية عظيمة من تجار فارس منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) سواء من المسلمين أو اليهود الذين كانوا يعملون فى تجارة الشرق عبر الخليج العربى ، وذلك بسبب تعطل هذا الطريق ، وعودة تجارة الشرق إلى طريقها الأول (طريق البحر الأحمر) . وفى عهد الدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٦٨م) وفد إلى مصر مجموعات أخرى من التجار اليهود من سوريا ، قاموا بدور هام فى تجارة المرور بين مصر والشرق .

وقد استطاعت هذه الطبقة أن تكون ثروات طائلة من عملها بالتجارة ، انعكست بالضرورة على نفوذها السياسى ، فقد استطاعت أن تتولى أعلى المناصب فى الدولة ، ومن هؤلاء :

« أبو بكر محمد بن على المادرائى» (ت عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦م) وهو من أصل فارسى ، وتقول عنه الدكتورة سيدة كاشف إنه مُنح سلطانا واسعا فى مصر منذ قدومه عام ٣٠١ هـ/ ٩١٣م، فقد قُلد فى هذه السنة أعمال مصر ، والاشراف على أعمال الشام ، وتدبير الجيوش ، وقد بلغ من سلطته أن ابن زولاق يعتبره « أمير البلد فى الحقيقة » .

وقد كان من أشهر تجار مصر فى عصر الدولة الطولونية التاجر « محمد الجوهرى » صديق ابن طولون والذى كان له وكلاء كثيرون فى أسواق الشرق كلها .

كذلك من أشهر التجار فى الدولة الأخشيدية التاجر « يعقوب بن كلس» وهو تاجر يهودى وصل قادما من سوريا عام ٣٣١ هـ/ ٩٤٢م وأقام بالفسطاط واشتغل بتجارة الشرق ، واتصل بكافور الاخشيدى حين بدأ فى الثراء ، وأصبح يعرف باسم (تاجر كافور) ، وكان من فرط ثقة كافور به أنه كان يستشيره فى كل أمور البلاد الاقتصادية والمالية والسياسية .

ومنهم التاجر « عفان بن سليمان بن أيوب أبو الحسن » ويقول عنه ابن كثير : إنه أقام بمصر وأوقف بها أوقافا على أهل الحديث ، وعلى سلالة

العشرة رضى الله عنهم [1] وكان تاجرا موسعا عليه فى الدنيا ، مقبول الشهادة عند الحكام ، توفى فى شعبان عام ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م .

وتقول عنه الدكتورة سيدة كاشف : إنه عندما توفى ، استطاع الأخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار .

الأسواق :

كانت الأسواق منتشرة فى جميع مدن مصر ، وكان للفسطاط أسواق ضخمة ، إلا أنها ضيقة . ويقول المقريزى : إنه كان بمصر عشرة أسواق ، وكان هناك سوق عظيم خارج مدينة الفسطاط يحتوى على مقادير هائلة من الأطعمة ، حتى ليذكر المقريزى أنه كان به ٣٩٠ قدر حمص مسلوق ، سوى الحوانيت التى بها الحمص ، ومن المعروف أن الأسواق التى بداخل المدينة تكون أعظم من الاسواق التى هى خارجها ، ومع ذلك ففى هذا السوق من صنف واحد من المأكل هذا القدر ، فكم تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المأكل؟ ويقول المقريزى أيضا : إن العشرة الأسواق التى كانت بمصر كانت كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق .

ومن الأسواق أيضا « سوق وردان » وهو منسوب إلى وردان الرومى مولى عمرو بن العاص ، وكانت دارا له أقطعه اياها معاوية بن أبى سفيان .

ومنها أيضا « سوق الأفضل » وهو خاص بالأمير جيوش بن خمارويه ابن أحمد بن طولون . ومن الأسواق أيضا « سوق البزازين » وهو بمدينة الفسطاط ويقال إنه وقع فيه حريق عظيم زمن كافور ، فركب كافور ، وأمر المنادى ينادى بأن من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء الناس بالقرب وأطفأوا النار ، فكان عدة ما احترق من الدور ألف وسبعمائة دار ، غير البضائع والأقمشة وغير ذلك .

---

(١) والعشرة المبشرون بالجنة هم : ابو بكر الصديق – عمر بن الخطاب – عثمان بن عفان – على بن أبى طالب – ابو عبيدة بن الجراح – سعد بن ابى وقاص – عبد الرحمن بن عوف – الزبير بن العوام – طلحة ابن عبيد الله – سعيد بن زيد .

ومن الأسواق أيضا «سوق العراقيين» وهى بمدينة الفسطاط. وقد نسبت الى جماعة من الأزد، كانوا قد خرجوا على زياد بن أمية (١) بالبصرة فعاقبهم معاوية بن أبي سفيان بتغريبهم عن أوطانهم، فسيرهم الى مصر، وذلك فى عام ٥٣هـ/ ٦٧٢م وكان أميرها فى ذلك الوقت مسلمة بن مخلد (٤٧ ـ ٦٢هـ/ ٦٦٧ ـ ٦٨١م)، وكان عددهم حوالى ٢٣٠، فأنزلوا بالظاهر وهو أحد خطط مصر، فبنوا لهم مسجدا، واتخذواسوقا لأنفسهم، فسمى سويقة العراقيين.

كما وجدت أسواق تقام ليوم واحد فقط، كما الحال عندنا اليوم فى الريف والمدن، ومن هذه الأسواق سوق «رحبة الحارث»، وهو سوق يتبايع الناس فيه يوم الجمعة فقط، وقد أمر ببنائه الحارث بن مسكين عندما تولى القضاء من قبل المتوكل فى عام ٢٣٧هـ/٨٥١م.

كما كان يقام فى الجيزة سوق كل يوم أحد ، وهو من الأسواق العظيمة كما يذكر ابن جبير.

كذلك تذكر المصادر العربية أسواقا لبيع الرقيق (٢) منها :

١ ـ دار البركة، ويعتبر أول سوق بناه المسلمون فى مصر بعد فتحها، وكان ذلك زمن عمرو بن العاص ولم يكن يقصد ببناء هذه الدار ان تكون سوقا، وانما كان الغرض منها بناء مسكن للخليفة عمر بن الخطاب، وعندما تم البناء كتب اليه عمرو بن العاص يخبره بذلك، فكتب اليه :

---

(١) وهو زياد بن أبي سفيان بن حرب بن امية وكان بعضهم يقول : زياد بن أبيه. ولى البصرة لمعاوية وضم اليه الكوفة، فكان يشتو بالبصرة، ويصيف بالكوفة، ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء، ولكنه كان معروفا، وكان كاتبا لابى موسى الأشعرى. مات بالكوفة وهو عامل عليها لمعاوية بن ابى سفيان عام ٥٣هـ/٦٧٢م.

(٢) كانت تجارة الرقيق رائجة فى مصر منذ الفتح العربى . وفى العصر الاخشيدى أصبحت مصر من أعظم أسواق الرقيق الاسود والابيض ، وكان الرقيق الأسود يجلب إليها من الجنوب . اما الرقيق الابيض فكان يصل إلى اسواقها من بيزنطة وارمينية وثغور البحر الابيض المتوسط ومن أسواق الرقيق فى سائر ديار الإسلام . وكان تجار اليهود يستأثرون بجلب الغلمان والجوارى من اوربا . وكان المسلمون يحسنون معاملة عبيدهم وإمائهم فى معظم الأحيان وذلك عملا بتعاليم الإسلام .وكان من البر والعادات المحمودة أن يعتق السيد كثيرا من العبيد الذين يملكهم . وكان كثير من العبيد المعتقين يحملون السلاح وينخرطون فى سلك الجيش ، وكان بعضهم يصل إلى مكانة عالية فيه ، وقد يعده ذلك لتقلد بعض الوظائف الرئيسية فى الإدارة .

أنىّ لرجل بالحجاز أن يكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين. فجعلت سوقا، وكان يباع فيها الرقيق .

٢ ـ دار أحمد بن المدبر عامل خراج مصر للخليفة المتوكل ، وكان موضع سوق الرقيق رحبة أمامها ، فلما نكب أحمد بن طولون أحمد بن المدبر عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، هدم داره ، وجعل رحبتها سوقا للرقيق ، وذلك فى عام ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ م .

٣ ـ دار الأنماطى . وكان سوقا للرقيق أيضا .

وعن الأسواق التى كانت بمدينة القطائع ، يذكر البلوى أنه كان فيها : (سوق العيارين) [1] يجمع فيه البزازون والعطارون . و (سوق الفاميين)[2] ويجمع فيه الجزارون والبقالون والشواؤن . وكان فى دكاكين الفاميين ، جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن . و (سوق الطباخين) ويجمع فيه الصيارفة والخبازون وأصحاب الحلواء ، ثم لكل صنف من جميع الصنائع ، أفرد له سوق حسن عامر .

أما عن أسواق الاسكندرية ، فقد ذكرت المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما فتحها ٢٠ هـ/ ٦٤١م كتب إلى عمر بن الخطاب : إنى فتحت مدينة فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر .

أما تنيس فقد كان بها ألفان وخمسمائة حانوت للبضائع ، وعندما دخلها أحمد بن طولون فى عام ٢٦٩ هـ/ ٨٨٢م بنى بها حوانيت كثيرة فى السوق .

ويبدو من المصادر العربية أن هذه الأسواق كان بها مساطب تجارية للتأجير بعض الوقت ، فيقال إنه كان خلف جامع أحمد بن طولون مسطبة ذراع فى ذراع ، وكانت أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهما ، فكان يؤجرها شخص يبيع الغزل من الصباح الباكر إلى الظهر ويدفع أربعة دراهم ، ومن

---

(١) العيار : الكثير المجيء والذهاب ولعله يقصد المكثرين فى المساومة فى الشراء والبيع .

(٢) الفامى : بائع الفوم اى الثوم والحنطة والحمص والخبز وسائر الحبوب التى تخبز .

الظهر إلى العصر يؤجرها خباز بأربعة دراهم ، ومن العصر إلى المغرب لشخص يبيع فيها الحمص والفول بأربعة دراهم .

وفى زمن خمارويه كان الخدم المشتغلون فى دار الحرم (وهى الدار التى بناها خمارويه لحريمه) يبيعون الأطعمة المستبقية للعامة ، فكان الناس يأتونهم ويشترون منهم . ويذكر المقريزى أن عملية البيع هذه كانت تتم فى كل وقت « بحيث أن الرجل اذا طرقه ضيف ، خرج من فوره إلى باب الحرم فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله . وهذا يدل على ضخامة كمية الأطعمة التى كانت تتبقى من دار الحرم .

وكانت التجارة الداخلية فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون منتعشة، فيقول المقريزى: إنه عندما طلب لقطر الندى ألف تكة [1] بعشرة الاف دينار من أثمان كل تكة عشرة دنانير «فوجدت فى السوق فى أيسر وقت وبأهون سعى».

وتذكر المصادر العربية أن الأسعار فى مدينة الفسطاط كانت أرخص من القاهرة لقرب النيل منها، ووصول المراكب اليها بالخيرات.

وكان سعر كل خمسة أرادب قمح دينارا واحدا زمن خمارويه بن أحمد ابن طولون، وقد بيعت عشرة أرادب قمح بدينار زمن أحمد بن طولون.

وكانت التجارة فى الأسواق تجرى وفق معاملات مالية معينة، منها :

١ ـ نظام عقود الشراء. وكانت هذه العقود تتضمن شروطا معينة كتحديد السعر، وتحديد موعد الدفع اذا كان البيع نقدا، أو موعد الأقساط اذا كان الدفع مؤجلا، كذلك تحديد نوع البضاعة وصفتها، وتحديد الكمية المتعاقد عليها. ويقول الدكتور حسن محمود: إنه اذا تمت شروط الصفقة كان لا يجوز أن تلغى، اللهم الا اذا تبين للمشترى وجود عطب فى السلعة، أو أنها غير مطابقة للمواصفات التى تضمنها العقد .

---

(١) التكة جمع تكك أى رباط السراويل.

٢ ـ النظام المصرفي . وكانت المصارف يديرها رجال ذوو خبرة ودراية يسمون الجهابذة ، وكانوا إما من كبار التجار أو من الصيارفة . وقد نشأ هذا النظام بسبب النشاط التجارى الكبير الذى أسفر عن ظهور طبقة من التجار الأثرياء الذين امتد نشاطهم إلى جميع الأمصار الإسلامية مما أوجب الحاجة لانشاء مصارف لحفظ أموال التجار وتيسير معاملاتهم التجارية . وكان هؤلاء الصرافون ، أو الوكلاء ، يقومون مقام البنوك ، ولكن لا يتصور ـ بطبيعة الحال ـ القيام بالوظيفة الحالية للبنوك فى مجال الاستثمار .

٣ ـ السفاتج[1] . (وتقوم مقام الحوالة المالية فى وقتنا الحاضر)

والسفتجة خطاب تذكر فيه قيمة معينة من المال قابل لأن يصرف فى أى مكان ، من عملاء وجهابذة الشخص الذى حرر السفتجة . وكانت النقود المذكورة فى السفتجة تدفع فى أى بلد ، وكان من السهل أن يحملها التاجر عبر الطرق الطويلة وهو آمن مطمئن . بل كانت أموال الجباية من الولايات ترسل إلى العراق بهذه الوسيلة . ومما يدل على توطد العلاقات التجارية بين العالم الإسلامى وبين أوربا أن سفاتج التجار المسلمين ، كانت تصرف فى البلاد غير الإسلامية . ولهذا صارت للسفاتج قيمة المال، واستخدمها الأفراد فى مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة . ومن أمثلة استخدام السفاتج فى فترة بحثنا أن الأخشيد أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة [2] .

---

(١) السفتجة جمع سفاتج كلمة فارسية بمعنى أن تعطى مالا لرجل فيعطيك خطا يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له فى مكان آخر .

(٢) هو محمد بن على بن الحسين بن مقلة ، ابو على الكاتب المشهور . كان فى أول أمره يتولى بعض أعمال فارس ويجبى خراجها . وفى عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨م أصبح وزيرا المقتدر بالله ، ثم قبض عليه عام ٣١٨هـ / ٩٣٠م ونفى إلى بلاد فارس بعد مصادرة أملاكه . وفى عام ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م استوزره الامام القاهر بالله ، كما استوزره الراضى بالله عام ٣٢٢هـ / ٩٣٣م ، ثم قبض عليه للمرة الثانية عام ٣٢٤ هـ / ٩٣٥م وقطعت يده اليمنى عام ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م، وقطع لسانه بعد ذلك . وكان ينوح على يده ويبكى ويقول : « خدمت بها الخلفاء ، وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص » . وقد اقام فى الحبس مدة طويلة ، ولم يكن له من يخدمه ، ولم يزل على هذه الحال الى أن توفى عام ٣٢٨هـ / ٩٣٩م .

٤ ـ الصك . (يعنى الكمبيالة فى وقتنا الحاضر)

وكان من وسائل المعاملات المالية الصك ، وهو فى الأصل سند الدين ، وهو عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين . وقد استخدمت الصكوك فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، وكان الجهابذة يصرفون قيمة الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها عندهم لقاء رسم معلوم .

٥ ـ نظام السمسرة أو الدلالة . ومن أهم الأنظمة التى استخدمت فى ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة ، وكانوا يحصلون من عملهم هذا على أجور محترمة .

٦ ـ نظام الربا . وقد حرمت الشريعة الاسلامية التعامل بالربا أشد تحريم ، وكان اليهود والنصارى يتعاملون بهذا النظام ، حتى انه فى حوالى عام ٨٠٠م الف كتاب تشريع للنصارى ، أجبر فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين فى المائة .

وقد منع ابن قيم الجوزية مشاركة المسلم للذمى فى التجارة ، لاستخدامهم نظام الربا ، واشترط فى مشاركة المسلم للذمى أن يكون المسلم هو الذى يتولى عملية البيع والشراء . مع ذلك يبدو لنا أن نظام الربا كان موجودا تحت مسمى آخر ، ويظهر ذلك من الحكاية التى ذكرها ابن الداية فى كتابه ، فهو يقول : « طالبنى بعض عمال الخراج بمصر بمال زاد على مافى حاصلى ، فاحتجت الى معاملة بعض التجار عليه ، فدللت على رجل من أهل الشام يعامل برهون ، فصار إلى ـ وأنا فى بيت المال ـ منه شيخ حسن الصورة جميل اللقاء، فقال : إلى كم تحتاج ؟ قلت : إلى مائتى دينار . فاخرج من كمه مالا ، فوزنه واستزاد من غلام كان معه دنانير حتى أكمل المائتين ، ثم سلمها اليّ واقتضانى خطا بها ، وقال : قد كفيت مؤونة الرهن . فقلت : فكيف أكتب الخط ؟ قال : بمائتى دينار كما أعطيتك ، فقلت له : سبيل المعاملة غير هذا . فقال : والله لاقبلت منك فيها ربحا» . ويظهر لنا من هذه القصة أن نظام التسليف كان بربح ، لذلك فانه عندما طلب منه أن يكتب المبلغ المحدد فقط . أخبره بأن سبيل المعاملة غير هذا .

وقد تعرضت مصر لكثير من الأزمات الاقتصادية فى الفترة الخاضعة لبحثنا (من الفتح العربى حتى بداية الدولة الفاطمية) كان يترتب عليها قيام الأهالى بالثورات ، وكانت هذه الأزمات تحدث فى الغالب بسبب تأخر جرى النيل ، أو بسبب الفيضانات .

فيقول المسعودى : « اذا بلغ النيل ثمانية عشر ذراعا وانهبط ، كانت العاقبة لأهل مصر فى انصرافه حدوث وباء بالديار المصرية » .

ومن الأشعار التى قيلت بسبب نقص ماء النيل ، ماذكره ابن اياس فى كتابه فهو يقول : وقد قال القائل :

تقاصر النيل عنا تقاصر متتابع
حتى قنعنا اضطرارا منه بمص الأصابع

وقال آخر :

رب وف النيل إنا منه فى شر وبلوه
مابقى للناس صبر يحملون اليوم غلوه

وأول غلاء وقع بمصر كان فى عام ٨٧ هـ / ٧٠٥ م فى ولاية عبد الله ابن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٠ هـ / ٧٠٥ ـ ٧٠٨ م) ، وكان بسبب تعرض مصر للشراقى [١] ، حتى قيل إن أهل مصر لم يروا فى عمرهم مثل تلك الأيام .

ثم تعرضت مصر للغلاء فى السنة الثانية من ولاية خمارويه على مصر (٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ / ٨٨٣ ـ ٨٩٥ م) فيقول ابن كثير : إنه فى عام ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م غار ماء النيل ، وهذا شىء لم يعهد بمثله ، ولا بلغنا من الأخبار السالفة ، فغلت الأسعار بسبب ذلك جدا .

أما فى الدولةالاخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) فنلاحظ تعرض مصر لكثير من الأزمات الاقتصادية . ففى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م بلغت الزيادة أربعة عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فوقع الغلاء بمصر واستمر فى كل سنة يزيد زيادة طفيفة ، ولم يبلغ ستة عشر ذراعا ، وأقام على ذلك نحو تسع سنين ، والغلاء مستمر بمصر .

---

(١) الأرض الشراقى : وهى كل أرض لم يصل إليها الماء ، إما لقصور ماء النيل ، أو علو الارض ، أو سد طريق الماء عنها

ويقـول المقـريزى إنه فى عـام ٣٣٨ هـ /٩٤٩ م فى زمن أبو القـاسم أونوجور بن الاخشيد (٣٣٥ ـ ٣٤٩ هـ / ٩٤٦ ـ ٩٦٠م) ، وقع غلاء أدى إلى ثورة الرعيـة ، حتى إنهم منعوا أونوجـور بن الاخشـيد من صـلاة العتمـة (العشاء) فى الجامع العتيق .

ثم وقع غـلاء فى عـام ٣٤١ هـ/ ٩٥٢ م بسـبب قـصـر مـاء النيل ، إلى جانب كثرة الفئران التى أتلفت الغلات والكروم وغيرها ، مما أدى إلى زيادة الأسعار .

وفى عـام ٣٤٣ هـ / ٩٥٤م عظم الغـلاء ، حتى بيع القمح ـ كمـا يقول المقـريزى ـ كل ويبتين ونصف بدينار ، ثم طلب فلم يوجـد ، وثارت الرعـية وكسروا منبر الجامع بمصر .

ثم كان الغلاء الأكبر فى الدولة الاخشيدية الذى استمر لمدة تسع سنين متعاقبة ، وابتدأ فى عام ٣٥٢ هـ / ٦٩٣ م والأمير فى ذلك الوقت هو على بن الاخشيد.(٣٤٩ ـ ٣٥٥هـ/ ٩٦٠ ـ ٩٦٥م)، وتدبير أمور المملكة كانت لكافور وكان سبب الغلاء أن مـاء النيل انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعا وأربعة أصـابع فـارتفـعت الأسـعـار ، ومـا كـان بدينار واحـد صـار بثـلاثة دنانير ، واختفى الخبـز ، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح كل ويبتين بدينار . ثم انخفض مـاء النيل إلى ثلاثة عشر ذراعا ، فقامت الثورات ونهبت الضيـاع والغلات . واستمر الغلاء مع تفاوت مبلغ الزيادة لماء النيل ، حتى مات كافور عام ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م، فكثر الاضطراب بين الأهالى وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بسبب الجند والأمـراء ، فانتهبت أسـواق البلد ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات ، حتى بيع القمح ـ كما يقول المقريزى ـ كل ويبة بدينار ورطل الخبز بدرهمين ، والحنطة كل ويبة بدينار وسدس ، والبيضـة بدرهم وثلث . وكان ذلك فى عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م .

حفر خليج أمير المؤمنين

بعد الفتح العربى لمصر ، بدأ العرب يخططون لاستغلال خيرات مصر ، ونقلـها إلى مقـر الخـلافـة بطريقة أسـرع . وكـانت بداية ادراك العـرب عظم

خيرات مصر ، عندما أرسل عمر بن الخطاب فى عام الرمادة ١٨ هـ/ ٦٣٩م[١] إلى عمرو بن العاص يشكو له قحط الحجاز ، والشدة التى يعانى منها المسلمون ، فأرسل إليه عمرو عيرا عليها طعام يذكر المؤرخون العرب أن أولها كان بالمدينة وآخرها كان بمصر ، حتى إن عمر بن الخطاب أعطى كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام .

وقد كان على أثر ذلك أن أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، يطلب منه المجىء إليه مع بعض من أهل مصر . وعندما قدموا عليه قال : «ياعمرو ، إن الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهى كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى فى روعى ـ لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين ، والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ـ أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسير فى البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فان حمله على الظهر يبعد ، ولا نبلغ معه ما نريد » .

ويذكر المقريزى أن سبب حفر خليج أمير المؤمنين كان لتقريب معونة الحجاز من ديار مصر. وهكذا فان الغرض الأساسى من حفر هذا الخليج كان حمل الطعام والقمح إلى الحجاز كما تقول الدكتورة سيدة كاشف .

وتذكر المصادر العربية أن أحد الأقباط هو الذى اقترح على عمرو بن العاص اعادة حفر هذا الخليج ، على شرط أن يضع عنه وعن أهل بيته الجزية ، وأن عمرو بن العاص قد قام بدوره بطرح هذا الاقتراح على عمر بن الخطاب على اعتبار أنه كان موجودا قبل الفتح العربى ، وكانت سفن التجار تبحر فيه ، ثم سد بعد الفتح وتركه التجار ، فوافق عمر بن الخطاب على هذا الاقتراح .

وسواء كان عمر بن الخطاب هو الذى اقترح اعادة حفر القناة ، أو أن عمرو بن العاص صاحب الاقتراح ، فلم يلبث عمرو بن العاص بعد موافقة

---

(١) عام الرمادة وهو عام ١٨ هـ / ٦٣٩ م وفيه اصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط . وقد سمى بعام الرمادة لان الرياح كان تسفى أو تحمل ترابا كالرماد . وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، وكان من بين الذين استغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر.

عمر بن الخطاب ، أن تخوف من فكرة حفر هذا الخليج وقال فى نفسه : « إن أمكنت عمر من هذا خرب مصر ونقلها إلى المدينة » ، خاصة بعد أن حذره روساء أهل مصر ـ بعد عرضه للأمر عليهم ـ من خطورة حفر هذا الخليج بقولهم : «أتريد أن تخرج طعام أرضك وخصبها إلى الحجاز وتخرب هذه؟».

لذلك كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبين له صعوبة حفر هذا الخليج، فكتب الخليفة إليه يهدده بالعزل ، فقام بحفره . ويذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب بعث إليه «أن لاتدع شيئا من طعامها ، وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها ، إلا بعثت إلينا منه » .

ويقال إن أول أسطول سار فى الخليج كان يتكون من عشرين سفينة تحمل الحبوب إلى المدينة، وكانت حمولة المركب الواحدة ثلاثة آلاف أردب . لذلك فقد اعتبر المؤرخون العرب أن من فضائل مصر أنها توسع على أهل الحرمين ، بما يجلب منها إليهم من الغلال التى يحمل السفن منها فى الدفعة الواحدة مالا يحمله خمسمائة بعير .

ويقول المقدسى عن مصر : «مصر قبة الاسلام ، ونهره أجل الأنهار، وبخيراته تعمر الحجاز» . ويقول المقريزى إن من فضائل مصر «انها تمير أهل الحرمين ، وتوسع عليهم» . وهكذا أصبحت بلاد العرب بعد فتح مصر تعتمد اعتمادا رئيسيا عليها لاطعام أهل الحجاز .

على كل حال ، فقد تم حفر هذا الخليج الذى يصل النيل بالبحر الأحمر فى أقل من عام ، كما تذكر المصادر العربية ، فقد ذكر ابن دقماق والمقريزى أن حفر هذا الخليج قد استغرق ستة أشهر ، وأن السفن وصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع . فى حين ذكرت مصادر أخرى أن حفره قد تم خلال ثمانية أشهر . وقد أطلق عليه : خليج أمير المؤمنين .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن اعادة حفر الخليج فى هذا الوقت القصير ، يدل على استعمال العرب للسخرة فى حفره ، واستخدام عدد عظيم من أهل البلاد .

ولما كان هذا الخليج من قبل يستخدم للتجارة ، فقد كان من الطبيعى أن يستخدم بعد اعادة حفره بواسطة العرب ـ للتجارة أيضا ، فكانت

المراكب النيلية تفرغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم ، ثم تحمل ما فى القلزم مما وصل من الحجاز وغيره إلى مصر .

ويذكر السيوطى أن «حجاج البحر كانوا يركبون فيه من ساحل تنيس يسيرون فيه ، ثم ينتقلون بالقلزم إلى المراكب الكبار وكانت السفن أيضا تسير فى خليج أمير المؤمنين إلى البحر الأحمر ، وتمر فى البحر إلى الحجاز واليمن والهند .

ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب (محمد النفس الزكية ـ قتل عام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م) ثائرا فى الحجاز ، والخليفة يومئذ بالعراق أبو جعفر المنصور . فكتب المنصور الى عامله على مصر يأمره بطم خليج القلزم ، حتى لا تحمل الميرة من مصر الى المدينة ، فطمه ، وانقطع من ذلك الوقت ، اتصاله ببحر القلزم .

ويذكر ابن عبد الحكم انه بعد خلافة عمر بن عبد العزيز لم يهتم الولاة بأمر هذا الخليج ، وتركوه ، فغلب عليه الرمل ، وانقطع ، وصار منتهاه إلى ذنب التمساح [١] من ناحية الطور [٢] والقلزم .

النشاط التجارى الخارجى

بالنسبة لتجارة مصر الخارجية ، فقد كانت لمصر تجارة مع المشرق قبل الفتح العربى لها ، فتذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص كان تاجرا فى الجاهلية ، وكان يأتى بتجارته إلى مصر ، وهى الأدم والعطر .

---

(١) وعن موقع ذنب التمساح يقول القلقشندى : وهو بآخر بحر القلزم من الذراع الاخذ إلى جهة السويس على ميل من مدينة القلزم .

(٢) الطور : بالضم ثم السكون وآخره راء ، جبل بعينه مطل على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ ، على رأسه بيعة واسعة محكمة البناء ، موثقة الأرجاء ، يجتمع فى كل عام بحضرتها سوق . والطور أيضا جبل عند كورة تشتمل على عدة قرى تعرف بهذا الاسم بأرض مصر القبلية وبالقرب منها جبل فاران .

كما يذكر الواقدى قصة تاجر عربى أسر فى الاسكندرية ، وخلصته قوات الفتح العربية حين قامت بفتح هذه المدينة ، وكان هذا التاجر قد جاء مع غيره بتجارة من اليمن فى أيام المقوقس ، فباع تجارته ثم اشترى غيرها ، وخرج مع قافلة كبيرة إلى أرض برقة للاتجار فيها ولكنه أسر فى الطريق .

لذلك كان من الطبيعى أن تستمر هذه التجارة بين مصر والمشرق بعد الفتح العربى . غير أن تجارة مصر مع المشرق كانت مرتبطة بالسلام فى المنطقة ، لذلك يذكر ساويرس أنه بسبب الخلاف الذى جرى بين المعتز والمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م) توقفت التعاملات التجارية بين مصر والمشرق، كما توقفت فريضة مصر للخلافة حتى يستقر الوضع على خليفة بعينه .

وبالنسبة للعلاقة التجارية بين مصر والنوبة ، فقد كانت تتم من خلال طرف واحد ، هو الطرف النوبى، وبمعنى آخر أن التجار المصريين لم يكونوا يحملون تجارة الى بلاد النوبة ، اذ لم يكن الاتجار فى الخارج من صفات المصريين إلا فى الندرة ، وانماكان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى الجنادل [١]. وعندما تقف مراكبهم ومراكب السودان ، يتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال حتى يصلوا إلى أسوان .

وكان عمرو بن العاص بعد فتح مصر قد بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى النوبة لفتحها عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م وقيل عام ٢١هـ/ ٦٤١م، فمكث بها زمانا ، ثم أعاده عمرو بعد عقد صلح بين الطرفين ، وقد دفعت النوبة إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط [٢] قبل نكثهم ،

---

(١) الجنادل : جمع جندل وهى الحجارة . موضوع فوق اسوان بثلاثة اميال فى اقصى صعيد مصر قرب بلاد النوبة .

(٢) يقول المقريزى : «البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، فان كانت هذه الكلمة عربية فهى : إما من قولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب اى نبذ من مرعى ، فيكون معناه على هذا نبذه من المال ، أو يكون من قولهم إن فى بنى تميم بقطا من ربيعة اى فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ، ومنه بقط الأرض فرقة منها . وبقط الشيء فرقة. والبقط أن تعطى الحبة على الثالث أو الربع ، والبقط أيضا ماسقط من التمر اذا قطع فاخطأ المخرف ، فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة » . ولكن الأرجح ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ أن كلمة بقط من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عبد .

وأهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق ، وفى المقابل بعث عبد الله بن سعد ماوعدهم به من الحبوب قمحا وشعيرا وعدساوثيابا وخيلا .

وفى عام ٣١هـ/ ٦٥١م نقضت النوبة الصلح الذى جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد ، والى عثمان بن عفان ، فحاربهم ، فطلبت النوبة الصلح ، وكتب لهم كتاب أمان قرر فيه عليهم فى كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا ، وفى المقابل يهدى إليهم عبد الله بن سعد حبوبا ، خاصة بعدما شكى ملكهم قلة الطعام فى بلده .

ومعنى ذلك أن العلاقة بين مصر وبلاد النوبة لم تكن علاقة تجارية بالمعنى المعروف ، وإنما كانت علاقة محددة بشروط هدنة ، يلتزم فيها النوبيون بتقديم السبى ، فى مقابل الحبوب .

ولا تتعرض المصادر العربية كثيرا لصادرات مصر للبلاد المختلفة فى ذلك العهد .وترجع الدكتورة سيدة كاشف أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، فقد كانت تصدر جانبا من القمح والكتان لوفرة زراعته بها، ويذكر ابن اياس انها كانت تصدر إلى البلاد الشامية : الحناء ، والسمك القديد ، والجبن ، والنيدة ، والكتان ، والزيت الحار ، والعصفر ، والبسلة ، والعدس ، وخيار الشنبر ، وغير ذلك من الأنواع التى لا توجد الا بمصر .

وفى مقابل ذلك كانت تستورد من برقة [١] الصوف والعسل كما كانت تستورد الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن ، والرقيق .

وكانت تستورد من السودان العاج والأبنوس وريش النعام وسن الفيل الذى كان يباع خاصة فى أسواق الفسطاط .

---

(١) برقة : بفتح اوله والقاف. اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية ، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن . وهى مما افتتح صلحا ، صالحهم عليها عمرو بن العاص ، والزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر الف دينار ، وأن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم واسلم اكثر من بها فصولحوا على العشر ونصف العشر فى سنة (٢١ هـ / ٦٤١ م) وكان فى شرطهم أن لا يدخلها صاحب خراج ، بل يبعثوا بالجزية اذا جاء وقتها .

ومن الشام كانت تستورد الفواكه الشامية مثل : الكمثرى ، والتفاح والسفرجل وغير ذلك من الأنواع .

وكان يرد إليها من الهند التوابل وخاصة الفلفل والعطور والبخور . ومن هذه الحاصلات كان يستهلك جزء في مصر محليا ، والباقى يباع للتجار الأجانب الذين كانوا يتسابقون على شراء هذه الحاصلات من أسواق مصر . كذلك كانت الهند تصدر إلى مصر الياقوت والصندل والعود وخشب الأبنوس وجوز الهند ، فضلا عن الكافور والزعفران والقرنفل والقرفة (الدارصينى) والعاج وأنواع العقاقير وبعض الأحجار الكريمة من جزيرة سرنديب [1] .

وكان العنبر من أهم السلع التى تستوردها مصر من الهند ، وكانت سوقها رائجة فى مصر فى عهد الاخشيد خاصة ، فقد اشتهر الاخشيد بحبه للعنبر ، وكان أكثر ما يهدى إليه فى الأعياد ، وكان اذا ما جاءت هذه الأوقات التى يهدى إليه فيها ، أخرج من خزائنه العنبر إلى التجار ، فيشتريه الذين يهدونه إليه ، فيحصل له الثمن الوافر ، ثم يعود العنبر إليه ! وأقام الاخشيد سنين كثيرة يعمل هذا ، وقيل إنه اجتمع عنده من العنبر قناطير ، وقد احترق فى عام ٣٤٣ هـ/ ٩٥٤م فى دار أبى الفضل ، بعقبة ابن فليح[2] . لجا ريته أم أولاده ، عنبر كثير كان يشم على بعد . كما ورد أن الأخشيد لما مات خلف وراءه من العنبر ٨٠٠ رطل .

---

(١) سرنديب : بفتح أوله وثانيه وسكون النون ودال مهملة مكسورة ، وياه مثناه من تحت ، وباء موحدة. ديب بلغة الهنود . هو الجزيرة هى جزيرة عظيمة فى بحر هركند باقصى بلاد الهند ، طولها ثمانون فرسخا فى مثلها . ويقول الحميري : وليس يملك أحد من ملوك الهند مايملكه صاحب سرنديب من الدر النفيس والياقوت الجليل وأنواع الأحجار ، لان أكثر ذلك فى جبال جزيرته وفى أوديتها وبحورها واليها تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له . وملك سرنديب تحمل اليه الخمر من العراق وفارس فيشتريها بماله وتباع له فى بلاده. ويجلب من سرنديب الحرير والياقوت بجميع الوانه كلها والبلور والماس وأنواع من العطور كثيرة

(٢) (عقبة بنى فليح) هى العقبة التى يطلع منها الى رحبة بنى تميم - وبنى تميم نسبة الى ابراهيم بن تميم، وقد ذكر الكندى أن ابراهيم بن تميم كان كاتبا فى الخراج بمصر فى ولاية الليث بن الفضل من قبل الرشيد (١٨٢ - ١٨٧هـ / ٧٩٨ - ٨٠٢م) وأن الليث أول من استكتبه فى كتاب الخراج - وبنى فليح نسبة إلى فليح ابن سليمان .

ومن الصين كانت مصر تستورد البهار والراوند (١) والحرير الخام والمنسوجات الحريرية الغالية الثمن ، وهذا بالاضافة إلى الخزف الصينى ، والصندل (٢) والورق (الكاغد) ، والحبر (المداد) والسروج والقرفة ، والزنجبيل ، والذهب والفضة ، والسجاد ، والطرز (الوشى والحرير المشجر) ، والحلى والمقابض العاجية . كذلك كانت الصين تصدر إلى أسواق مصر العقاقير والديباج والجوارى والخصيان .

ومن التبت (٣) كان يرد المسك إلى أسواق مصر ، ويقول اليعقوبى : إن مسك التبت هو أحسن وأغلى أنواع المسك فى العالم .

ومن الجزيرة العربية كان يرد إليها : الخيول العربية ، والجمال ، وخشب القسى (٤) والجلود المدبوغة .

ومن اليمن : البز ، والجلد المدبوغ ، والدروع ، والعقاقير ، والكركم ، وكذلك اللبان والسيوف .

ومن شحر عمان (٥) كانت أسواق مصر تستقبل أجود أنواع العنبر ، كذلك أجود أنواع اللبان والبخور والمصطكى (المستكة) .

وفى ذلك يذكر المؤرخون العرب أن مصر كانت قبلة تتجه إليها الأنظار ، فقد كانت «فرضة مكة والمدينة وساحلها ، وفرضة صنعاء ، وعدن ، وعمان ، والشحر والسند (٦) والهند والصين وجزائر الصين وسرنديب وغيرها ،

---

(١) الراوند : ويستخدم لعلاج أمراض كثيرة منها : وجع المعدة ، وقرحة الأمعاء ، والاسهال المزمن ، ووجع الكبد ، والكلى ، وأوجاع الرحم وعرق النسا ، والربو وغير ذلك .

(٢) الصندل . وهو خشب يوتى به من الصين ، وهو على ثلاثة أصناف أبيض وأصفر وأحمر وكلها تستعمل ويستخدم لعلاج ضعف المعدة ، والصداع ، وغير ذلك .

(٣) تبت : بالضم ، وكان الزمخشرى يقوله بكسر ثانيه ، وبعض يقوله بفتح ثانيه . وهو بلد بأرض الترك وهى متاخمة للصين ، ومتاخمة من احدى جهاتها لأرض الهند .

(٤) يتخذ من القانة وجمعها القان وهو شجر جبلى ينبت بجزيرة العرب ويتخذ منه القسى .

(٥) الشحر : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، هو شحر عمان ، وهو ساحل اليمن ، وهو ممتد بينها وبين عمان وإليه ينسب العنبر الشحرى لأنه يوجد فى سواحله .

(٦) السند : بكسر أوله ، وسكون ثانية ، وأخره دال مهملة بلاد كبيرة فيما بين ديار فارس وديار الهند .

يُجلب العطر والجواهر والطرائف والآلات فى البحر حتى توافى المراكب بالقلزم .

وهى فرضة بحر الروم من الشام كلها ، وبلد الروم من أنطاكية إلى ماوراءها من قسطنطينية ورمية وبلد الأفرنجية وأنطابلس ، وطرابلس والقيروان وتاهرت ، وسجلماسة والسوس وطنجة والأندلس وجزائر البحر صقلية وأقريطش (١) وقبرص ورودس (٢) يُحمل إليها رقيق هذه البلدان كلها من الجوارى والغلمان والديباج والحرير والمصطكى ... والمرجان والعنبر والزعفران وسائر أصناف التجارات ، ويحمل من مصر إليهامثل ذلك ، ولا يقصدون بلدا سواها» .

ويقول المقريزى إن «مصر فرضة الدنيا ، يُحمل خيرها إلى ما سواها . فساحلها بمدينة القلزم يُحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر . وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فُرضة بلاد الروم والافرنج وسواحل الشام إلى حدود العراق . وثغر اسكندرية فُرضة أقريطش وصقلية وبلاد المغرب . ومن جهة الصعيد يُحمل إلى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن» .

وقد لعب اليهود دورا هاما فى التجارة الخارجية ، فيذكر ابن خرداذبة فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى أن التجار اليهود الراذانية (٣) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية ، كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا ، ويجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور (٤) والسيوف ويركبون من

---

(١) أقريطش - بفتح الهمزة وتكسر ، القاف ساكنة ، والراء مكسورة ، وياء ساكنة ، وطاء مكسورة ، وشين معجمة . اسم جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى .

(٢) رودس : جزيرة فى البحر من الثغور الشامية مقابل الاسكندرية ، افتتحها جنادة بن أبى أمية عنوة فى خلافة معاوية . ورودس بلغة الاغريقيين بمعنى الورد .

(٣) نسبة إلى نهر الرون .

(٤) السمور جمع سمامير . حيوان برى من فصيلة السموريات ورتبة اللواحم ، يشبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر مائل إلى السواد . تتخذ من جلده فراء ثمينة

فرنجة(١) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا (٢) ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار (٣) وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاءوا حملوا تجاراتهم من فرنجة فى البحر الغربى ، فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية (٤) ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة ، ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض .

طرق التجارة :

لذلك ـ وكما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ اهتم حكام مصر من قبل الفتح العربى ، بالسيطرة على الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة. كذلك اهتموا باصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ، وباقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبانشاء الموانىء على الشاطئ الغربى لذلك البحر ، فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر ، الى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

---

(١) يقصد بفرنجة فرنسا .

(٢) الفرسخ ثلاثة أميال .

(٣) الجار : مدينة على ساحل بحر القلزم ، بينها وبين المدينة يوم وليلة . وهى فرضة ترفأ إليها السفن من ارض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند .

(٤) الجابية : بكسر الباء ، وياء مخففة ، وهى قرية من أعمال دمشق .

وهذا ما فعله العرب بعد الفتح العربى ، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمرو ابن العاص كان يخصم من جملة المبالغ المتحصلة من الضرائب قبل ارسالها الى الخليفة القدر اللازم لادارة شئون البلاد وحاجة الجند ، وأن اعتمادا خاصا كان يرصد لتطهير الترع وصيانة الطرق وبناء القناطر وترميمها ، وتهديم الجزر الصغيرة التى تتكون وسط مجرى النيل ، وكانت الحكومة تستخدم فى هذا السبيل مائة وعشرين ألف رجل مجهزين بالآلات اللازمة طوال العام صيفا وشتاء بلا إنقطاع .

وقد كان لمصر ثلاث طرق رئيسية للتجارة :

أولا ـ الطريق البحرى .

ثانيا ـ الطريق النهرى .

ثالثا ـ الطريق الصحراوى .

أولا ـ بالنسبة للطريق البحرى ، كان لمصر طريقان بحريان الأول : طريق البحر الأحمر ، والثانى : طريق البحر المتوسط .

١ ـ طريق البحر الأحمر :

وهو أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب فى ذلك العصر ، فقد كان يقلل ـ الى أدنى حد ممكن ـ المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فاذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائما طريق البحر ، وتتبع الطريق المباشر أى أقصر الطرق ، للوصول الى موانى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهى أحيانا الى ميناء Leuce Come (الحورة الحالية) على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر ، ومنها تتخذ طريق القوافل الى سوريا ، وكانت أحيانا تصل الى أيلة عند العقبة الحالية ، ومنها أيضا تخرج التجارة الى فلسطين وسوريا . وكثيرا ماكانت تنتهى التجارة الشرقية عند ميناء Berenice (رأس بناس الحالية) أو Leucos Limen (القصير الحالية) أو Myoshormos (أبو شعر الحالية) ، ومن هذه الموانىء تتجه التجارة

عن طريق الصحراء الشرقية الى قفط على النيل ، وتتخذ طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحيانا فى البحر الأحمر الى القلزم ، وهى السويس الحالية ، ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات (١) وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، وكانت تسهل كثيرا على التجار ويستخدمونها للوصول الى الاسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم وهى التى عرفت بخليج أمير المؤمنين ـ كما ذكرنا .

وكانت الملاحة فى البحر الأحمر صعبة لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة ، ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط ، فاذا جن الليل أرست المراكب فى مواضع معروفة . وكان نظام هبوب الرياح يجعل الملاحة من الشمال الى الجنوب فقط فى فصل الصيف ، ومن الجنوب الى الشمال فى فصل الشتاء ، فالرياح التى تهب عليه هى رياح موسمية دائمة تكون شمالية شرقية فى فصل الصيف وتتجه الى الجنوب الغربى ، وفى فصل الشتاء تهب من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وقد علّمت هذه الأحوال البحارة والتجار ، والمسافرين من البحر المتوسط الى الشرق عبر البحر الأحمر ـ أن أحسن شهور السنة للابحار فيه هما شهرا أبريل ويونيو ، وأحسن وقت للعودة منه هو شهر يناير وفبراير . ويقول الحميرى عن الملاحة فى البحر الأحمر : إن طرق السفن فيه معلومة ، لا يدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر، العالمون بطرقاته .

٢ ـ طريق البحر الأبيض المتوسط :

وقد نتج عن سيطرة العرب على البحر المتوسط . وبخاصة على طريق التجارة الدائرة فى الشمال ، الواصلة بين سوريا ومصر عن طريق صقلية

---

(١) كان يسمى قديما وادى السدير من أعمال الشرقية ، وفى سنة ٩٢٣هـ ورد هذا الوادى باسم وادى العباسة لتاخمته لأراضى ناحية العباسة ، ويقال له اليوم وادى الطميلات نسبة الى جماعة من العرب نزلوا به يقال لهم الطميلات .

وكريت وقبرص ، زيادة أهمية الدور الذى قام به سكان شمال افريقيا كوسطاء فى تجارة هذا البحر ، وهكذا تحكم الأفريقيون فى نقل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت سفنهم دائبة الحركة إلى سوريا لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرق الأدنى والأقصى الى شمال أفريقيا وسائر بلاد العرب والاسلام فى الغرب .

وكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض الى الهند أو شرق أسيا مضطرا إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ، ثم يسير فى الصحراء سبع مراحل حتى يصل الى القلزم ، وهناك يستطيع حملها فى المراكب مرة أخرى ، فهذا الطريق هو أقرب طريق للوصول الى المحيط الهندى .

ثانيا : وبالنسبة للطريق النهرى ، فقد كان نهر النيل والترع أداة طيبة للملاحة النهرية ، تنقل بواسطتها البضائع بين بلدان مصر ، كما تنقل إلى دمياط والاسكندرية حيث يحصل التجار الغربيون على ما يحتاجون إليه.

لقد احتفظ نهر النيل بأهميته الكبيرة بوصفه طريقا من طرق الملاحة النهرية وكانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جدا فى القرن الرابع الهجرى، حتى تعجب المقدسى وهو بمصر من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك .

وبالنسبة للملاحة فى خليج أمير المؤمنين فقد سبق الحديث عنه .

أما بالنسبة لبحيرة تنيس ، فقد أعجب ابن حوقل – مع كثرة ما شاهده فى أسفاره الطويلة – بمهارة الملاحين الذين رآهم فى تنيس ، فكتب : إن هذه البحيرة «قليلة العمق ، يسار فى أكثرها المرادى (١) وتلتقى السفينتان تحك إحداهما الأخرى : هذه صاعدة ، وهذه نازلة بريح واحدة مملأة شرعهما بالريح ، متساوية فى سرعة السير» .

ثالثا - الطريق الصحراوى :

تقول د. سيدة كاشف فى كتابها « مصر فى فجر الإسلام» : إن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضا مسلكا للتجارة فى تلك العصر ، لأن

---

(١) المردى جمع مرادى : خشبة يدفع بها الملاح السفينة

الخلافة كانت تهتم بعمارة هذه الطرق وبالعناية بها وبتوفير الراحة فيها . فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحة السفن ، كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضا للحج ، ويذكر السيوطى أن حجاج البحر كانوا يسيرون فيه إلى القلزم ، ومن القلزم ينتقلون إلى المراكب الكبار ، ورأينا كذلك أن الطريق الصحراوى بين البحر الأحمر والنيل كان مسلكا للتجار والحجاج .

على أن هناك طريقا بريا كان يرتاده الحجاج بكثرة ، وهو طريق أيلة التى كانت عند موضع العقبة الحالية، فيسير الحجاج من مصر عن طريق البر إلى القلزم ، فإما أن يركبوا البحر إلى «الجار» ، ميناء المدينة ، وإما أن يسيروا إلى أيلة وبعدها إلى بلاد الحجاز . وكان هناك ست مراحل (١) بين القلزم وأيلة ... أما طرق البريد فأولها الطريق المعروف الذى أتت منه الجيوش المغيرة على مصر فى العصور المختلفة ، مثل جيوش قمبيز والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص ، وهو يمر بالرملة بفلسطين وبمدينة غزة ورفح والعريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط ». وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط إلى برقة وافريقية وبلاد المغرب ، وآخر يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون أن يمر بالاسكندرية ولكنه يلتقى بالطريق الذى يخرج من الاسكندرية فى ذات الحمام (٢) .

وقد كان السفر عن طريق الطريق الصحراوى يستلزم استخدام الابل لحمل البضائع ، حتى اذا ماوصلوا إلى الطريق البحرى أو النهرى ينقلون أحمالهم على ظهر السفن . وفى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩م) كتب إلى حيان بن سريج عامل خراج مصر يأمره بأن لايحمل البعير أكثر من ستمائة رطل ، وذلك بعد ماوصل اليه الخبر بأن الابل فى مصر يحمل عليها الف رطل . وهذا نص الكتاب :«إنه بلغنى أن بمصر إبل نقالات يحمل على البعير منها الف رطل ، فاذا أتاك كتابى هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل ».

---

(١) المرحلة جمع مراحل : المسافة التى يقطعها المسافر فى يومه .

(٢) ذات الحمام : بلد بين الاسكندرية وافريقية . ويقول محمد رمزى فى قاموسه :وهى واقعة على السكة الحديدية ، الموصلة بين الإسكندرية ومرسى مطروح ، وبها محطة تقع على بعد ٧٤ كيلو مترا من مدينة الإسكندرية .

أهم موانيء مصر :

تنقسم الموانيء المصرية إلى موانيء بحرية وموانيء نهرية . وبالنسبة للموانيء البحرية فقد كان على رأسها:

١ ـ الإسكندرية :

كانت الاسكندرية منذ انشائها على يد البطالمة من أهم محطات تجارة العالم ، واستمرت كذلك بعد الفتح العربى ،فقد كانت الاسكندرية أكبر أسواق العالم ، وأكثر ثغوره ازدحاما وحركة فى تجارة القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من موارد البلاد الزراعية والصناعية ، كما كانت تحمل اليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة واثيوبيا، كذلك كانت ترد إليها التوابل والبهار والحرير والفضة والجواهر من بحار الصين والهند عبر البحر الأحمر حتى مدينة القلزم (السويس) ، ومنها تحمل إلى ترعة تراجان إلى مدينة منف على نهر النيل ، ومن منف تنحدر بها السفن فى النيل إلى ميناء الاسكندرية حيث كانت تصدر إلى جميع موانيء البحر الأبيض المتوسط . وقد اشتهر ميناء الاسكندرية بمنارته العظيمة التى كانت تفيد منها كل السفن تجارية كانت أم حربية

ويذكر آدم متز أنه حينما أخذت التجارة الاسلامية المكان الأول فى التجارة العالمية فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، كانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى البضائع الكمالية على الأقل .

٢ ـ الفرما :

كانت الفرما محطة لتجار أوربا وسوريا ، ومنها كانوا يتجهون إلى القلزم لركوب البحر ، وقد ذكر عنها المقدسى أنها كانت على ساحل بحر الروم ، وأنها كانت عامرة آهلة عليها حصن ولها أسواق حسنة ، وأنها كانت مجمع الطرق .

٣ ـ القلزم :

ميناء قديم هام يقع على الطرف الشمالى للبحر الأحمر ، وقد أصبح القلزم فى صدر الاسلام ميناء مصر الرئيسى فى البحر الأحمر ، وأدت

إعادة حفر خليج أمير المؤمنين الواصل بين الفسطاط والقلزم إلى زيادة أهميته ، نظرا لما يقوم به من الوصل بين مصر والحجاز ، ولكونه ميناء عاصمة مصر . وكان تجار الغرب يفدون اليه من الفرما ، ومنه يركبون البحر إلى «الجار» (ميناء المدينة وقتئذ)، ثم إلى جدة ، ومنها إلى عدن فى طريقهم إلى سواحل الهند . ويذكر اليعقوبى أن القلزم كان ميناء مصر إلى الحجاز واليمن ، وأن به سفنا كبارا تعبر البحار العالية ، وأن جل سكانه من التجار الأغنياء . وذكر المقدسى أنه كان يرسل منه مالا يقل عن ثلاثة آلاف جمل محملة بالبضائع كل أسبوع عابرة خليج أمير المؤمنين ، وذكر أيضا أن القلزم خزانة مصر وفرضة الحجاز ، ومعونة الحاج . وقد كان يوجد بالقزم دار للصناعة ، ولهذا كانت القلزم قاعدة للأسطول المصرى فى البحر الأحمر فى صدر الاسلام .

٤ ـ عيذاب :

ويقول الحميرى : ومن أسوان الطريق الى عيذاب ، وعيذاب مدينة على ضفة البحر المغربي المعروف ببحر القلزم ، ومن عيذاب يعبر إلى ساحل الحجاز إلى جدة ، ومن عيذاب يسلك إلى اليمن والهند وغير ذلك .

ويقول أبو الفدا : «وهى فرضة لتجار اليمن والحجاز الذين يتوجهون من مصر فى البحر ، فيركبون من عيذاب إلى جدة » . ويقول ياقوت: وهى مرسى المراكب التى تقدم من عدن إلى الصعيد .

وكانت عيذاب نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر ، وكان ميناؤها غزير الماء ، مأمونا من الشعاب النابتة ، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة وزنجبار بطريق البحر ، ثم تحمل على الابل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل .

أما الموانىء النهرية فكان على رأسها :

١ ـ الفسطاط :

وتقع الفسطاط على حافة النيل ، ويقول عنها أبو الفدا إنها «محط وإقلاع المراكب ، وبسبب ذلك صار الفسطاط أكثر رزقا وأرخص أسعارا من القاهرة » .

وتعتبر الفسطاط أهم مراكز مصر التجارية منذ انشائها ، فموقعها المتوسط بين الوجهين القبلي والبحري أدى الى اتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل ، وفضلا عن ذلك فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب .

٢ ـ أسوان :

وكانت أسوان مجمعا لتجارة السودان ، وكان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ، ويتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال ، حتى يصلوا إلى أسوان ، بعد اثنى عشرة مرحلة إلى جانب النيل . وعن أسوان يقول الحميرى : إنها فى الصعيد آخر بلاد مصر ، وإنها من ثغور النوبة ، وإن مراكب مصر لا تصعد فى النيل إلا إلى مدينة أسوان فقط ، وهى فى آخر الصعيد الأعلى ، والى أسوان تصعد المراكب من فسطاط مصر . وأن بها تجارات تحمل منها إلى بلاد النوبة .

٣ ـ قوص :

وتقع فى الجهة الشرقية من النيل ، وهى فرضة التجار من عدن .

وقد وصفها الحميرى بقوله : «وهى كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات ودخل وخرج ، والمسافر إليها كثير ، والبضاعات نافعة ، والمكاسب رائجة ، والبركات ظاهرة» . لذلك وصف ياقوت أهلها بأنهم «أرباب ثروة واسعة» .

الضرائب على التجارة :

فرض العرب ضرائب أو رسوما على التجارة الخارجية تعرف بالمكوس أو العشور ، ولم يفرضوا أية رسوم على التجارة الداخلية. لذلك يقول مالك ابن أنس : «واذا أتجر الذمى فى بلاده من أعلاها إلى أسفلها ، ولم يخرج منها إلى غيرها ، فليس عليه شىء ، مثل أن يتجر الذمى الشامى فى جميع الشام ، أو الذمى المصرى فى جميع مصر ، أوالذمى العراقى فى جميع العراق» .

وهذا يدل على أن مصر كانت تتمتع بوحدة اقتصادية ، لم يتمتع بها أى بلد فى أوربا الاقطاعية ، من ناحية النقود والأوزان والمقاييس والضرائب بين الاقطاعيات المختلفة.

وأول من فرضها فى الاسلام هو عمر بن الخطاب ، وذلك بعد رسالة أرسلها اليه أبو موسى الأشعرى يقول له فيها : «إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحجاز فيأخذون منهم العشر ». فكتب اليه عمربن الخطاب : « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، وليس فيما دون المائتين شيء ، فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، وما زاد فبحسابه» .

وتذكر المصادر العربية أن زياد بن جرير هو أول من جعله عمربن الخطاب على عشور العراق والشام . وقد طلب منه أن لايفتش أحدا ، وأن يأخذ من حساب المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، ومن حساب أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما ،وممن لاذمة له العشر .

وهكذا أخذ عمر بن الخطاب من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر .

وكان أول من عشّره المسلمون من أهل الحرب هم أهل مَنْبِج (١) وكانوا قد كتبوا الى عمر بن الخطاب : «دعنا ندخل أرضك تجاراوتعشرنا » .

وقد جعل عمر بن الخطاب العشور تؤخذ مرة واحدة فى السنة ، وذلك بعد شكوى أحد نصارى العرب من بنى تغلب له . وكان هذا النصرانى قد مر على زيادبن جرير فأخذ منه العشر ، وعند عودته طلب أن يأخذ منه أيضا، فقال له النصرانى : كلما مررت بك تأخذ منى ؟ قال : نعم . فرجع النصرانى الى عمربن الخطاب وقص عليه قصته ، فأرسل عمربن الخطاب الى زياد بن جرير كتاب يقول فيه : « من مر عليك فأخذت منه صدقه ، فلا تأخذ منه شيئا الى مثل تلك اليوم من قابل » ، وفى رواية أخرى أنه كتب اليه يقول : « ليس له عليك فى مالك فى السنة الامرة واحدة».

---

(١) مَنْبِج بالفتح ثم السكون ، وباموحده مكسورة وجيم . وهى من بلاد الروم ، وهى مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ومنها البحترى .

وعندما تولى عمرين عبد العزيز الخلافة كتب الى زريق بن حيان وكان على مكس مصر : انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم ، ومما ظهر من التجارت من كل أربعين دينارا دينارا ، وماتقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا ، فان نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا ، واذا مر عليك أهل الذمة ، فخذ مما يدبرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا ، واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول. وقد ذكر المقريزى فى موضع آخر من كتابه أن عمر بن عبد العزيز قد نهى عن أخذ المكوس ، وكتب ضعوا عن الناس هذه المكوس ، «فليس بالمكس ولكنه البخس» .

وقد اعتبر العرب أن هذه العشور التى يدفعها أهل الذمة وأهل الحرب إنما هى مثل الخراج الذى يفرض عليهم ، أما اذا أخذت من المسلمين فهى صدقة منهم .

ويذكر يحيى بن آدم أن هذه العشور تفرض على أهل الذمة اذا تاجروا فقط .

وبالنسبة لتجارة الخمر والخنازير ، فقد كان يؤخذ عشورها من قيمتها ، ويقول أبو يوسف: إنه لا يقبل قول الذمى فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه ، ثم يؤخذ نصف العشر من الثمن ، ورأى يحيى بن آدم أن يؤخذ عن الخمر العشر .

وقد كانت وظيفة صاحب المكس مكروهة ، لما نسب إلى الرسول (ص) من أحاديث تحذر الناس من الاشتغال بها ، ومن هذه الأحاديث : «لايدخل صاحب مكس الجنة» ، ومنها « اذا لقيت عشارا فاقتلوه ».

لذاك ذكرت المصادر العربية الكثير من الأمثلة الى رفض فيها العرب تولى هذه الوظيفة ، فعندما دعا عمرو بن العاص خالد بن ثابت الفهمى ليجعله على المكس رفض ، فقال له عمرو : ما تكره منه ؟ فقال : إن كعبا قال: لا تقرب المكس فإن صاحبه فى النار .

وهكذا انتشر كره العرب لاشتغال هذه الوظيفة، وكما يقول المقريزى : «إن أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل» .

وقد أشار أبو يوسف فى كتابه إلى شروط يجب توافرها فى من يشغل هذه الوظيفة ، ففى كلامه إلى الخليفة الرشيد قال :

«أما العشور فرأيت أن توليها قوما من أهل الصلاح والدين ، وتأمرهم بأن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم ، وأن يمتثلوا مارسمناه لهم ، ثم نتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر بهم ، وهل تجاوزوا ماقد أمروا به» .

وقد أنشأ العرب فى المدن التجارية والطرق والموانى جمارك لتحصيل المكوس من التجار المارين ، سواء عن طريق النقل البرى أو عن طريق النقل البحرى . ومن هذه الجمارك فى مصر : جمرك «أم دنين» ، وقد عرفت «بالمقس» وذلك لأن صاحب المكس كان يجلس فيها فقيل المكس ، و قلب فقيل المقس . ومنها جمرك مدينة القلزم ، ومنها جمرك تنيس والفرما والصعيد والاسكندرية وعيذاب .

ولم تقتصر مهمة صاحب المكس ، الذى كان يعرف أيضا باسم «القباض» على تحصيل الجمارك، وانما كان من وظيفته تفتيش التجار ، فمن كان معه سلاح أخذ منه ، ومن كانت معه كتب ، قرئت كتبه وهكذا .

ويجدر علينا أن نشير هنا إلى أن نظام الجوازات الحالى كان يتبع فى مصر فى هذا العصر الخاضع للدراسة . فيقول آدم متز : إنه لم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التى يقيم فيها الى ناحية أخرى بدون إذن ولى الأمر . ويقال : إن عامل مصر أصدر أمره عام ١٠٠هـ /٢٧٠م بأن يقبض على كل من وجد مسافرا أو متنقلا من مكان إلى مكان من غير سجل ، واذا وجد صاعدا أو نازلا من مركب ، أوقعت الحوطة على المركب ، وحرق بما فيه.ويوءخذ من رواية لابن سعيد أنه كان لابد من جواز للخروج من مصر ، ولابد أن يدرج فى هذا الجواز كل من يرافقون المسافر ولو كانوا عبيده . وهذا النظام لم يكن معروفا فى المشرق ، وأنما كان معمولا به فى مصر فقط.

مقاييس التجارة (الأوزان) :

وكانت مقاييس التجارة فى مصر هى الويبة والأردب . وفى ولاية الوليد ابن رفاعة سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م على مصر ، بعث اليه الخليفة هشام بن عبد الملك بمقياس جديد للاستعمال فى مصر ، بدلا من المقاييس القديمة ، وهو المدى ، وكان ذلك فى عام ١١٧هـ/ ٧٣٥م ، وأمرهم أن يتعاملوا به . فأمر ابن رفاعة أن يطاف به على القبائل ، وأخبرهم أن أميرالمؤمنين قد أمر به . حتى أتى إلى عبد الرحمن بن حيويل بن ناشرة المعافرى ، فأخذه وكسره وقال : «إن لنا ويبة وإردبا قد عرفناهما ولسنا نحتاج الى هذا» . فقيل له : كاسر المدى ، وصار هذا نسبا لبنيه إلى اليوم ، فقال بنى كاسر المدى من قبيلة المعافر . ويذكر الكندى أن شاعرا من قبيلة المعافر علق على هذه الواقعة بقوله :

قومى الذين تبادروا — مدى الخليفة بالحجر

وتخربوا وتعصبوا — وجثوا عليه فأنكسر

من بعد ماذلت له — أعناق يعرب بل مضر

كما كان يستخدم أيضا فى الموازين والمكاييل : الكيلة ، والقدح ، والقفة.

الباب الثانى

المجتمع المصرى ونظام الحكم

الفصل الأول :

- المجتمع المصرى والإدارة

- طبيعة النظام الإدارى الذى وضعه العرب للمجتمع المصرى.

- المناصب الرئيسية التى تولاها العرب :
  - الوالى
  - متولى الخراج أو صاحب الخراج
  - صاحب البريد
  - صاحب الشرطة
  - المحتسب

الفصل الأول

المجتمع المصرى والإدارة

أوضحنا فيما سبق أن النظام الإدارى يقوم عادة لخدمة النظام الاقتصادى ، بمعنى أن النظام الإدارى لاينشأ من فراغ وإنما ينشأ لخدمة هدف ، وهذا الهدف هو النظام الاقتصادى ، ويظهرذلك بوضوح من الرسالة التى أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عندما تولى مصر عام ٢٠هـ/٦٤١م ، فهو يقول فيها :

«ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك . فاذا أتاك كتابى هذا ، فاحمل الخراج فانما هو فىء للمسلمين» .

وهكذا يظهر من هذه الرسالة أن مهمة الوالى الأساسية هى توفير الخراج ، وأن اختيار الوالى كان يتم بناء على قدرته على توفير الخراج .

وفيما يبدو أنه لم يكن ثمة فرق بين هذه المهمة ومهمة الوالى فى العصر البيزنطى ، وهذا هو السبب فى أن العرب أبقوا على النظام الادارى الذى وجدوه فى مصر ، ليخدم مصالحهم كما كان يخدم مصالح البيزنطيين من قبل . على أنه كانت إلى جانب ذلك عوامل أخرى ، أولها : أن هذا النظام

الادارى كان على درجة كبيرة من الإحكام ، فالأمة البيزنطية التى بنى العرب حضارتهم على أنقاضها كانت ذات تاريخ مجيد من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية .

ثانيا : أن العرب لم يكن لديهم نظام أفضل يطبقونه فى مصر ـ كما يقول بتلر ـ فالعرب كانوا رجال حرب وسيف .

لذلك أبقى العرب على الموظفين فى وظائفهم ، واحتفظوا هم لأنفسهم بالمناصب الرئيسية ، فبقى بعض أكابر الروم فى أعمالهم ، أما من رحل منهم فحل مكانه عمال من القبط .

على أن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فلم يلبث أن تغير تحت عاملين أساسيين :

العامل الأول : هو تعريب الدواوين .

العامل الثانى : هو تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة .

وبالنسبة للعامل الأول وهو تعريب الدواوين :

ففى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر عام (٨٦ ـ ٩٠هـ/ ٧٠٥ـ ٧٠٨م) نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية ، وكان ذلك عام (٨٧هـ /٧٠٥م) .

ويبدو ـ فى رأينا ـ أن الدافع وراء هذا التعريب هو توافر طبقة من العرب الذين يستطيعون أن يتولوا الوظائف بدلا من أهل الذمة ، وأراد الخليفة عبد الملك بن مروان ارضاء هذه الطبقة عن طريق اتخاذ هذا القرار ، وهو مايؤكده ابن خلدون فى مقدمته فهو يقول : «ولما جاء عبد الملك بن مروان، واستحال الأمر ملكا ، وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر فى العرب ومواليهم

مهرة فى الكتاب والحسبان ، أمر عبد الملك سليمان بن سعيد والى الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية» (١) .

وعلى كل حال ، فقد كان من الطبيعى أن يشكل هذا القرار خطرا على اللغة القبطية ، وعلى مناصب القبط فى الدولة فيذكر الكندى : أنه بعد تحول ديوان مصر إلى العربية صرف عبد الله بن عبد الملك أشناس (٢) عن الديوان، وجعل عليه أبو يربوع الفزارى من أهل حمص .

ويعتبر قرار تعريب الدواوين – فى رأينا – الخطوة الأولى لتعريب مصر، وانتشار اللغة العربية بها . إذ أقبل الأقباط على تعلم اللغة العربية حتى يتسنى لهم الاحتفاظ بوظائفهم، أو تولى الوظائف. وهذا ما حدث للأقباط أثناء الحكم البيزنطى – كما ذكرت فى فصل سابق – فاللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للدولة ، وكان على الأقباط الذين يريدون تولى الأعمال الإدارية فى الحكومة البيزنطية أن يتعلموها ويتقنوها .

هذا فيما يتعلق بالعامل الأول وهو تعريب الدواوين . أما فيما يتصل بالعامل الثانى ، وهو تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة :

فيبدو – فى رأينا – أن الدافع وراءه هو محاولة الخلفاء دفع أهل الذمة إلى اعتناق الدين الإسلامى اذا أرادوا الاحتفاظ بوظائفهم . ونلاحظ من دراسة المصادر العربية أن ذلك التحريم بدأ من وقت مبكر جدا ، أى منذ عهد عمر بن الخطاب (٣) ، ولكنه لقى صعوبات كثيرة تتصل بعدم توافر

---

(١) يقول الجهشيارى أن السبب الذى دفع عبد الملك بن مروان لتعريب الدواوين : إنه «كان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبد الملك ولمن تقدمه سرجون بن منصور النصرانى ، فأمره عبد الملك يوما بشىء فتثاقل عنه ، وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحثه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان بن سعد الخشنى – وكان يتقلد له ديوان الرسائل – : أما ترى إدلال سرجون علينا ؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا اليه والى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال لو شئت لحولت الحساب الى العربية ، قال : فافعل . فحوله . فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام» .

(٢) يسميه المقريزى (أنتناش) واسمه الحقيقى أثناسيوس الرهاوى وسنتناوله فى الصفحات القادمة .

(٣) ترى الدكتورة سيدة كاشف أن عمر بن الخطاب برىء من هذه الشروط والأحكام التى أصبحت تعرف بالشروط العمرية أو عهد عمر ، خاصة وأن هذه الشروط والأحكام قد أصابها الزيادات الكثيرة والتأويلات وسوء التفسير والتحريف منذ القرن ٥ هـ / ١١ م

العمالة الإسلامية التى تستطيع أن تسد فى جميع الأعمال . وهذا هو السبب فى رأينا ـ فيما نقلته المصادر العربية من رسائل الخلفاء المتكررة لتحريم استخدام أهل الذمة فى أزمنة مختلفة ، مما يدل على استمرار بعضهم فى العمل .

فقد كتب عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٣ م) إلى عماله يقول : «أما بعد ، فانه من كان من قبله كاتب من المشركين ، فلا يعاشره ولا يوادده ، ولا يجالسه ، ولا يعتضد برأيه ، فانّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستعمالهم ، ولا خليفته من بعده » .

وكتب عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ / ٧١٧ ـ ٧١٩ م) إلى جميع عماله رسالة يطلب فيها عزل أهل الذمة عن الوظائف ، ويهددهم اذا أحد منهم استخدمهم ، فيقول فيها : «إن المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك ، يستعينون بهم ، لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير ، فكانت لهم فى ذلك مدة ، فقد قضاها الله بأمير المؤمنين . فلا أعلم كاتبا ولا عاملا فى شيء من عملك على غير دين الإسلام ، إلا عزلته ، واستبدلت مكانه رجلا مسلما» [1] .

ويقول ابن الأثير : إن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله رسالة يقول فيها «أما بعد ، فان الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله ، وشرفهم وأعزهم ، وضرب الذلّة والصغار على من خالفهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل ذمتهم وخراجهم فتتبسط عليهم أيديهم وألسنتهم ، فتذلهم بعد أن أعزهم الله ، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى ، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم ، ومع هذا فلا يؤمن غشهم اياهم ، فان الله عز وجل يقول : (لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم[2]) .

---

(١) وفى كتاب ابن النقاش يقول : فلا أعلم أن أحد من العمال أبقى فى عمله رجلا متصرفا على غير دين الإسلام إلا نكلت به ...وليكتب كل منهم بما فعله فى عمله.

(٢) سورة آل عمران آية رقم (١١٨) .

و (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) (١)، والسلام ».

وفى عهد المهدى (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ / ٧٧٤ ـ ٧٨٥ م) حين تبين أن بعض أهل الذمة مايزالون يتولون المناصب ، أرسل إلى عماله يطلب منهم عدم استخدام كتاب من أهل الذمة ، ويقول : «وإن علم أن أحدا من المسلمين استكتب أحدا من النصارى قطعت يده» .

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٨ م) صرف أيضا أهل الذمة عن أعمالهم ، واستعمل عوضا عنهم مسلمين .

وفى زمن المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ / ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) وأثناء وجوده فى مصر عام (٢١٧ هـ /٨٣٢م) تظلم المسلمون إليه من وجود أهل الذمة فى الوظائف ، فأرسل إلى عمرو بن عبد الله الشيبانى ، وطلب منه أن يخبره عن أصل القبط ، فأخبره بأنهم بقية الفراعنة الذين كانوا بمصر ، كما أخبره أن عمر بن الخطاب نهى عن استخدامهم . فأمر بعدم استخدامهم .

كما صرف المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ ـ ٨٦١ م) أيضا أهل الذمة عن الأعمال ، وذلك ـ كما يقول ابن النقاش ـ لأن المباشرين منهم للأعمال كثروا فى زمانه وزادوا على الحد ، فكانت الأعمال كلها أو عامتها إليهم فى جميع النواحى ، وذلك فى عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م . فخرج الكتاب النصارى من الديوان وجعل عوضا عنهم مسلمين .

أما المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ ـ ٩٣٢ م) فانه فى عام ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م عزل كتّاب النصارى وعمالهم ، وأمر ألاّ يستعان بأحد من أهل الذمة ، وقد أرسل رسالة إلى عماله كان من ضمنها : « وقد أمر أمير المؤمنين بترك الاستعانة بأحد من أهل الذمة ، فليحذر العمال تجاوز أمر أمير المؤمنين ونواهيه » .

---

(١) سورة المائدة اية رقم (٥١) .

على أن الحاجة إلى استخدام الأقباط فى الوظائف الحكومية ظلت قائمة طوال عصر الولاة وعصر الطولونيين وعصر الاخشيديين .

ففى عصر الولاة :

يذكر ساويرس أنه فى ولاية عبد الواحد بن يحيى الوزير على مصر عام (٢٣٦ ـ ٢٣٨ هـ / ٨٥٠ ـ ٨٥٢ م) ، كان هناك أرخانان [١] بمصر أحدهما : مقارة بن يوسف ، كاتب صاحب ديوان ، وله موضع عند جميع من يتولى فسطاط مصر ، والآخر : ابراهيم بن ساويرس ، متولى بيت المال ، وعليه استخراج الأموال ليحملها إلى خزائن الملك . ويبدو أنهما لم يكونا فقط المشتغلين من الأقباط ، فيشير ساويرس إلى وجود آخرين فى الديوان ويقول: «وكان من نعمة الله أن جماعة من المؤمنين متولين ديوان السلطان». ويشير المقدسى ـ وهو من أهل القرن الرابع الهجرى ـ إلى أن الكتاب فى بلاد الشام ومصر كانوا من المسيحيين .

كما يذكر الكندى أنه فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى عام (٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) ، ورد كتاب المتوكل بابتناء المقياس الهاشمى للنيل ، وبعزل النصارى عن قياسه ـ مما يدل على أن النصارى كانوا متولين قراءة مقياس النيل حتى ذلك الوقت .

ويقول ترتون Tritton– فى كتابه : إن المسيحيين كانوا يُستخدمون فى بعض الأحيان كسفراء لا سيما إلى الدول النصرانية . فقد ذهب البطرك «ديونيسيوس» Dionysius بطرك أنطاكية إلى مصر عام ٢١٦ هـ / ٨٣١ م ، وعند بلوغه إياها أرسله المأمون لبعض الثوار لردهم إلى الطاعة .

ومن الواضح أن صلات النصارى بأصحاب السلطة الرئيسية كانت صلات طيبة ـ كما يذكر ترتون Tritton– فقد جاء إلى المأمون رجل من أثرياء «بورة » من أعمال مصر ،واسمه « بكام » ، سائلا إياه أن يوليه الأمر فى بلدته ويسوق اليه رياستها ، فقال له الخليفة: « أسلم ، فتكون مولاى».

---

(١) الأرخون Archon بمعنى الرئيس .

فأجابه بكام :«لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم ، أفلا يكون له مولى واحد من النصارى ؟ » فضحك المأمون منه ، وجعله كبير بلدة « بورة» واقليمها .

ويذكر ساويرس إن كاتب ابن مدبر كان اسمه « ابن أندونه المصرى »، وأنه كان يضطهد المسيحيين ويفرض على الرهبان الجزية ،فطلب منه الأب أن يقصر عن ذكر الرهبان أمام ابن مدبر على اعتبار أنه كاتبه ، إلا أنه رفض . ويرى ساويرس : أن الله قد عاقبه ، فقد أصيب فى كفه الأيمن الذى يكتب به، حتى صارت خُراجا ، فقطعها الأطباء .

أما فى عصر الدولة الطولونية :

فيذكر ساويرس : أنه كان لأحمد بن طولون كاتبان من النصارى ، أحدهما يدعى يوحنا والآخر إبراهيم، كما كان لوزيره أحمد بن المادرائى (١) كاتب قبطى يدعى يونس .

أيضا سميت قرية «أندونه» باسم مولى نصرانى من موالى أحمد بن طولون ، وكان ابن طولون قد فصله من عمله وغرمه خمسين ألف دينار وقد سبق ذكر ابن أندونه المصرى فيما سبق ، ولعله هو أو اسم اسرته .

كما يذكر البلوى أن الذى بنى جامع ابن طولون نصرانى «حاذق بالهندسة». وفى تاريخ الأمة القبطية أن اسم هذا المهندس سعيد بن كاتب الفرغانى .

---

(١) وهو احمد بن إبراهيم أو محمد بن احمد بن إبراهيم المادرائى الاطروش الذى ولى خراج مصر سنة ٢٦٣ هـ شركة مع على بن الحسين (أو الحسن أو أبو الحسن) بن شعيب المداينى . وقد ذكر المقريزى أن الذى ولاه هو الخليفة المعتمد . وذكر البلوى وابن سعيد (عن ابن الداية) أن الذى ولاه هو احمد بن طولون نفسه والراجح عندنا ماذكره البلوى وابن سعيد لأن ابن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلصه من ابن المدبر ، وأصبح منذ سنة ٢٦٤ هـ فى عداء ظاهر مع الحكومة المركزية فى بغداد واستقل عنها بادارة مصر . ومهما يكن من الأمر فان شركة المادرائى مع على بن الحسين فى خراج مصر لم تدم طويلا لأن ابن طولون أمر بسجن على بن الحسين حتى مات ، وذلك بسبب كتاب وجهه إلى ابن المدبر ـ عدو ابن طولون ـ يشكو فيه من أعمال وظيفته . وهكذا أصبح المادرائى وحده عاملا على خراج مصر .

اما فى عصر الدولة الاخشيدية :

يذكر ساويرس : أن كافور الاخشيدى كان له وزير قبطى اسمه «أبو اليمن قزمان بن مينا» ، وأنه ظل ناظرا فى كورة مصر بعد دخول جوهر الصقلى أرض مصر «لما هو مشهور به من الثقة والأمانة التى عرفت منه ، وشهد له بها ثقات مصر » .

وترى الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أنه لم يكن وزيرا ، وإنما كان من كبار الموظفين فى الشئون المالية بحضرة مصر .

وتذكر الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أن أهل الذمة كانوا لا يزالون يعملون فى جباية الخراج فى البلاد بوصفها من الأعمال التى لم يكن ميسورا أن يستغنى عنهم فى أدائها ، فيقول : إنه فى الأوراق البردية المحفوظة بمجموعة الأرشيدوق «رينر» فى فينا ، وثيقة من البردى تتضمن إيصالا مؤرخا من عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م ، يثبت أن «بكام بن دينال» دفع الجزية المقررة عليه وهى ثلث دينار وثلثا قيراط فى حضور أبى الحسن بن عيسى لعامل الجباية تيودور بن خاييل .

وممن أشرفوا أيضا على الشئون المالية فى العصر الاخشيدى ، الكاتب القبطى ابن عيسى بقطر بن شفا المعروف بيولس ، متولى خراج مصر للدولة الاخشيدية . وبالنسبة لإبراهيم بن مروان ـ وهو موظف نصرانى من عمال الدولة الاخشيدية فى عهد أونوجور ـ ترى الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : أن عمله كان من الراجح متصلا بالشئون المالية فى البلاد.

ومن القبط أيضا الذين أشرفوا على إدارة الشئون المالية على عهد الاخشيديين «جرير بن الحصان» .

على أن الأقباط لم يكونوا وحدهم من تولى الوظائف الإدارية فى الدولة، فقد تولاها أيضا البيزنطيون ، ويورد لنا ترتون Tritton أسماء بعضهم ، ومنهم : «ميناس» وهو عامل كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من

البلاد ، ويقول ترتون Tritton: إنه كان يجمع بين الفظاظة وشدة البغض للمصريين ، ومع ذلك استبقاه المسلمون فى عمله بعد فتحهم الديار ، فظل يباشر عمله كما كان يباشره من قبل .

ومنهم أيضا آخر اسمه «شنوده» وقد وكلت إليه حكومة الريف. وثالث اسمه Philoxenus وقد استعملوه واليا على أركاديا أو الفيوم.ويقول ترتون T_ritton: إن هؤلاء الأشخاص كانوا يؤثرون الوثنيين (أى المسلمين) بعطفهم ويمقتون العيسويين ، ويرغمونهم على أن يجلبوا للمسلمين الكلأ واللبن والعسل والفواكه والزبيب وغير ذلك مما قد لا يكون فى طاقتهم . وقد أثقل ميناس على الاسكندرية فبلغت جزيتها أيامه ٣٢٫٠٥٦ قطعة من الذهب . ثم حل مكانه آخر يدعى «جون» فدفع ٢٢٫٠٠٠ دينار ، وهو القدر الحقيقى الذى نصت عليه المعاهدة .

ومن الأشخاص المعروفين ـ كما يقول ترتون Tritton ـ «أثناسيوس الرهاوى» (يسميه المقريزى أنتناش) الذى شغل بعض مناصب الحكومة فى مصر ، وكان ينعت فى المكاتبات الرسمية « بالكاتب الفخم» ، وكان بديوانه عشرون كاتبا ، ثم زادوا إلى أربعة وأربعين . وكان «أثناسيوس» هذا هو متولى ديوان الخراج لعبد العزيز بن مروان ، ثم انتهى الأمر أخيرا بصرفه عما بيده ليخلفه أبو يربوع الفزارى من أهل حمص . وفى أثناء عودة «أثناسيوس» إلى بلاد الشام صودرت كل أملاكه بمصر ، وتختلف الروايات فى شأنه ، فيزعم بعضها أنه كان يتناول ستين ألف دينار سنويا إلى جانب دينار واحد يأخذه من كل جندى ، وكان لديه أربعة آلاف عبد ، وكثير من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة . واستطاع أن يشيد كنيسة «أم الاله» فى الرها [1] من إيجار أربعمائة حانوت يملكها ، فحسده سرجون ـ وكان ملكانى المذهب ـ ووشى به عند الخليفة زاعما أنه مد يده بالسرقة إلى بيت مال مصر ، وظل دائبا على الوشاية ، ومن ثم تنازل أثناسيوس عن مبلغ كبير من المال أرضى به الخليفة ، ومع ذلك فقد تبقى لديه قدر ضخم ! وعلى

---

(١) الرُها : بضم أوله . مدينة من أرض الجزيرة ، بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ .

الرغم من المبالغات الظاهرة ، فمن الجلى أنه كان واسع السلطان عظيم النفوذ ، وأنه استعمله فى صالح رفاقه المسيحيين .

كما يذكر ترتون Tritton أيضا : أن «تيودوسيوس» ، وهو من الملكانيين البارزين ، قد شغل منصبا رفيعا فى الاسكندرية . والمأثور عنه أنه رحل إلى دمشق حيث دفع إلى يزيد مبلغا من المال وعاد حاملا مرسوم توليته حاكما على الاسكندرية ومريوط [1] وما يلحق بهما ، دون أن يكون لوالى مصر سلطان عليه . وكان «تيودوسيوس» هذا من أشد الناقمين على البطريرك القبطى « أنبا أغاثوا» ، ومن ثم استغل مكانته للكيد له ، فأخذ منه كرها ستة وثلاثين دينارا كل سنة عن تلاميذه ، كما فرض عليه أن يدفع له كل ما ينفقه على رجال الأسطول - إلى غير ذلك من الأموال . ويرى ترتون Tritton أن هذا القول فيه شىء من المبالغة .

وفى خلال بطريركية اسكندروس (٨١ - ١٠٦ هـ / ٧٠٠ - ٧٢٤م) كان تيودور واليا على الاسكندرية ، ويقول ترتون Tritton إنه كان يلقب فى الكتب الرسمية بأجستاليوس Augustalis ، ذلك اللقب الذى جرت العادة زمن الحكم البيزنطى على إطلاقه على حاكم الاسكندرية . ويرى أنه - من الأرجح - كان تحت إمرة عربى .

وسنعرض فى الصفحات القادمة أهم المناصب الإدارية الرئيسية التى تولاها العرب فى مصر للاشراف على الإدارة بوجه عام ، ولتنفيذ ما يتطلبه الاحتلال العربى الجديد .

أولا - (الوالى)

أصبحت مصر بعد الفتح العربى فى يدوال خاضع مباشرة للخليفة ، على نحو ما كان الأمر فى العصر البيزنطى ، الذى كان حاكم مصر فيه خاضعا مباشرة للامبراطور البيزنطى ، مع فارق هام يتعلق بمركزية الحكم .

---

(١) مريوط : قرية من قرى مصر قرب الاسكندرية .

فعلى الرغم من أن مصر البيزنطية كانت تحت سيطرة حاكم عام الشرق ، الخاضع للامبراطور البيزنطى مباشرة ، الا أنها كانت مقسمة إلى دوقيات ، ذات سلطات مدنية وعسكرية ، الأمر الذى كان من شأنه إضعاف الحكم المركزى . أما فى مصر الإسلامية ، فإن الولاة كانوا حريصين على عدم إعطاء الفرصة لعمال أقاليمهم للاستقلال محليا ، فكان الحكم فى مصر مركزيا إلى أقصى حد ، وكانت كل كبيرة وصغيرة ترجع إلى والى مصر .

كان الوالى أعظم موظفى الدولة فى الحكومات الإسلامية ، يعين من قبل الخليفة ، وينوب عنه فى حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى للقضاء ، والصلاة، والخراج ، والجند ، والشرطة وغير ذلك من الأعمال .

وقد تولى إمارة مصر ، منذ الفتح العربى حتى قدوم القائد جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م ، مائة واثنا عشر أميرا ، حكموا مدة ثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وسبعة أشهر وستة عشر يوما. أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، وآخرها يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وكان يطلق عليهم اسم أ مراء مصر . ويقال للدار التى يقيمون فيها «دار الإمارة» .وكان عنبسة بن اسحاق آخر من وليها من العرب من عام (٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م إلى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) .

وقد كان الأصل فى الإمارة هو إمامة الصلاة ، وقيادة الجيوش ، وقد أضيف الخراج لبعض الولاة . وهذا ما اتفقت عليه المصادر العربية ، التى ذكرت أن الوالى كان أحيانا يجمع فى يده الخراج إلى جانب الصلاة وقيادة الجيوش أثناء الحرب ، وأحيانا أخرى يكون له الصلاة وقيادة الجيوش فقط أما الخراج فيكون لشخص آخر .

ويلحظ من الجدول الذى أعدته الدكتورة سيدة كاشف لأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب الشرطة والقضاة والبطاركة فى عهد الولاة ، فى كتابها «مصر فى فجر الإسلام» ـ أن الفترة الأولى التى تولى فيها الولاة مصر ، والتى بدأت بولاية عمرو بن العاص ٢٠ هـ / ٦٤١ م حتى ولاية عبد

الملك بن رفاعة عام ٩٦ هـ / ٧١٥ م ، كان الوالى فيها يجمع بين الخراج وإمامة الصلاة وقيادة الجيوش ، اللهم فيما عدا عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م أثناء ولاية عتبة بن أبى سفيان ، فقد ولى الخراج فى هذا العام «وردان» . وفى عام ٩٦هـ / ٧١٤ ـ ٧١٥ م انتزعت وظيفة تولى الخراج من الوالى عندما عين لهذه الوظيفة «أسامة بن زيد» . ومنذ ذلك الحين أصبح الوالى ومتولى الخراج شخصين مختلفين ، الأمر الذى اعتبره الدكتور محمد ضياء الدين الريس دليلا على تزايد اهتمام الدولة الإسلامية بأمر الخراج .

وهناك من الأمراء من اجتمعت لهم سلطة إمامة الصلاة وجمع الخراج معا ، ثم عزلوا فيما بعد عن الخراج . ومن هؤلاء :

حفص بن الوليد الذى تولى مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، فقداجتمع له الصلاة والخراج ، ثم عزل عن الخراج عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م من قبل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وانفرد بالصلاة .

أيضا الوالى خوط عبد الواحد بن يحيى الذى تولى مصر عام ٢٣٦هـ/ ٨٥٠ م من قبل المنتصر ، ثم عزله عن الخراج بعد سنة من توليه ، وذلك عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١م ، وبقيت له الصلاة فقط .

وهناك من الأمراء من تولوا الخراج ، ثم تولوا الإمارة من قبل الخليفة ، فجمعوا بين الصلاة والخراج ، ومن هؤلاء :

عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير الذى تولى مصر عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩ م من قبل الخليفة مروان بن محمد . وكان عبد الملك بن مروان متوليا أصلا لخراج مصر ، فجمع له مروان الخراج والصلاة .

وقد لاحظنا أن بعض الأمراء جمعوا بين الخراج والصلاة بعض الوقت وليس طول الوقت ، ومنهم ـ كما يذكر أبو المحاسن ـ :

موسى بن أبى العباس الذى تولى مصر عام ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م نيابة عن أشناس على الصلاة ، وقد جمع له الخراج فى بعض الاحيان .

كما كان هناك أيضا بعض الأمراء الذين شاركوا متولى الخراج ، ومنهم : عنبسة بن اسحاق الذى تولى مصر عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م من قبل المنتصر على الصلاة فقط ، وشريكا لأحمد بن خالد صاحب خراج مصر .

ومنذ إنتهاء عصر عنبسة بن اسحاق ، آخر من ولى مصر من العرب (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ / ٨٥٢ ـ ٨٥٦م) ، لم يعد الوالى يتولى الصلاة بالناس فى الجامع ، وانما صار يصلى بالناس رجل يرزق من بيت المال ، وكذلك المؤذنون ونحوهم .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن بعض الولاة جمعوا الى ادارة مصر إدارة بلاد برقة وما يليها من شمال افريقية ومن هؤلاء الولاة :

مسلمة بن مخلد الذى تولى مصر عام ٤٧هـ / ٦٦٧م من قبل معاوية، فقد جمع له معاوية صلاة مصر وخراجها وبلاد المغرب ، وهو أول من جمعت له مصر والمغرب .

ايضا يزيد بن حاتم الذى تولى مصر ١٤٤هـ / ٧٦١م من قبل الخليفة ابى جعفر المنصور، فقد كان أول وال تضم له برقة مع مصر ، وذلك فى عام ١٤٨هـ / ٧٦٥م .

وأصبحت افريقية لا تتبع مصر منذ عام ٨٦هـ / ٧٠٥م ، وذلك بعد عزل حسان بن النعمان وتولية موسى بن نصير (١) لولاية افريقية يحكمها من القيروان، ويتبع الخليفة مباشرة. فمنذ ذلك الحين أصبحت افريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر ، بعد أن كانت تتبعها فى الادارة ، وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

---

(١) هو : ابو عبد الرحمن موسى بن نصير ، اللخمى بالولاء صاحب فتح الاندلس . كان من التابعين رضى الله عنهم ، وروى عن تميم الدارى رضى الله عنه . وكان عاقلا كريما شجاعا ورعا تقيا لله تعالى ، لم يهزم له جيش قط . توفى عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م .

وتشير المصادر العربية الى أن البعض من الولاة كانوا يستغلون مناصبهم فى جمع المال ، ومن هنا عمد عمر بن الخطاب الى مقاسمة بيت المال لأموال هؤلاء العمال ، فيذكر البلاذرى أن عمر بن الخطاب كان اذا ولى عاملا له ، يسجل أمواله قبل الولاية ، ثم يقاسمه مازاد على ذلك .

ويذكر ابن عبد الحكم أن موقف عمر بن الخطاب هذا كان نتيجة لأبيات شعر أرسلها له مجهول ، تشير بأصابع الاتهام الى مصادرأموال العمال ، وتتساءل عن وفرة هذه الأموال فى أيديهم ، وتطلب منه مقاسمته لأموالهم . وكان من هؤلاء العمال :

عمرو بن العاص ، الذى كتب اليه عمر بن الخطاب يقول : « أما بعد ، فانكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال ، فجبيتم الحرام ، وأكلتم الحرام ، وأورثتم الحرام. وقد بعثت اليك محمد بن مسلمة الأنصارى [١] ليقاسمك مالك ، فأحضره مالك والسلام ». وكان عمر بن الخطاب قد لاحظ زيادة ممتلكات عمرو بن العاص بعدما ولى مصر . ومن هنا ، وكما يقول البلاذرى ، كتب اليه يقول :

« لقد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم يكن حين وليت مصر» .

ومن هؤلاء العمال أيضا ـ وكما تذكر المصادر العربية ـ أبو هريرة الذى قال له عمر بن الخطاب عندما قدم من البحرين : « ياعدو الله ، وعدو الاسلام ، خنت مال الله » ! وقد كرر هذه العبارة ثلاث مرات ، وأبو هريرة ينكر فى كل مرة ، وأخيرا أخذ عمر بن الخطاب منه اثنى عشر ألفا ، أو كما قال أبو هريرة : « فغرمنى اثنى عشر ألفا » .

---

(١) وهو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدى الانصارى ، أبو عبد الرحمن وقيل أبو عبد الله . شهد بدرا والمشاهد كلها ، وكان من فضلاء الصحابة واستخلفه النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته مات بالمدينة عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م .

ويبدو أن الخلفاء لم يقاسموا أموال عمالهم فقط ، بل قاسموا أيضا أموال كتاب هؤلاء العمال، فتشير المصادر الى أنه بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والى مصر عام (٨٦هـ / ٧٠٥م) أرسل عبد الملك بن مروان الضحاك ابن عبد الرحمن الى مصر لمقاسمة أموال يناس بن خمايا ، كاتب عبد العزيز ابن مروان، وكان هذا الكتاب قد بنى له عبد العزيز بن مروان قصرا على باب الجامع بالفسطاط .

وقد كان يصاحب عزل الوالى فى أحيان كثيرة مصادرة أمواله ـ كما تذكر المصادرالعربية ـ ولسنا ندرى هل كانت هذه المصادرة بسبب عدم شرعية هذه الأموال ، أو أنها كانت عقابا على ذنب اقترفه الوالى ، أو لأنها بلغت من التضخم حدا يجعل من صاحبها خطرا على الخلافة ؟ على كل حال ، فان المصادر العربية التى تشير الى هذه المصادرات لا تشير غالبا الى الأسباب التى أدت اليها . ومن الأمثلة على ذلك ماذكره أبو المحاسن عن عزل عبد الله بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٠ هـ / ٧٠٥ ـ ٧٠٨م) عن ولاية مصر ، فقد أورد أنه بعد خروجه بجميع أمواله ، أرسل اليه أخوه الخليفة الوليد بن عبد الملك من أحاط به فى الأردن عندما وصل اليها ، وأخذ جميع ماكان معه، ثم حمل اليه ـ هكذا بدون ذكر سبب المصادرة. وقد يكون السبب ما ذكره الدكتور محمد ضياء الدين الريس من أن عبد الله بن عبد الملك كان سيىء السيرة فى ولايته ، وكان يرتشى . وقد يكون السبب رغبة الخليفة فى تجريده من المال حتى لا يكون قوة مضادة له فى الحكم .

ومن الحالات التى ذكرت أسباب المصادرة ، حالة ابراهيم بن صالح الذى كان متوليا لمصر من قبل المهدى (١٦٥ ـ ١٦٧ هـ / ٧٨١ ـ ٧٨٣ م) ، فقد عزله المهدى ، وصادر أمواله واستولى على أموال من عماله قدرت بثلثمائة وخمسين ألف دينار . ويقول أبو المحاسن فى سبب ذلك : إنه لم يحفل بأمر دحيه بن المصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى خرج بالصعيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، حتى استفحل أمره ، وملك معظم بلاد الصعيد ، وكاد أن يسيطر على مصر كلها .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن الخلفاء الأمويين قد أعطوا لعمالهم على الولايات قسطا من الحرية ، لذلك ظهرت مصر فى أحيان كثيرة كدولة شبه مستقلة عن الخلافة ، وظهر الولاة فيها كملوك شبه مستقلين .

وفى رأينا ـ وكما تشير المصادر العربية ـ أن هذه الحرية فى كثير من الأحيان كانت لمصالح مشتركة بين الخليفة والوالى ، كما هو الحال بالنسبة لعمرو بن العاص ، الذى ولاه معاوية بن أبى سفيان على الصلاة والخراج فى مصر فى ولايته عام ٣٨ هـ / ٦٥٨ م ، وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة فى مصلحتها . فنلاحظ أن معاوية لم يجعل مصر طعمة لعمرو بن العاص إلا مكافأة له لوقوفه إلى جانبه ضد على بن أبى طالب فى موقعة صفين [١] وخدعة التحكيم [٢] فيقول أبو المحاسن :

---

(١) صِفِّين : بكسرتين وتشديد الفاء ، وهى موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربى بين الرقة وبالس .

(٢) موقعة صفين نشبت بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى عام ٣٧ هـ / ٦٥٧م ، وقد نشأ الخلاف بينهما بعد مقتل عثمان بن عفان ومبايعة على بن أبى طالب من بعده بالخلافة فى عام ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، فقد رأى على ـ كما يقول ابن خلدون ـ ومن تبعه أن بيعته قد إنعقدت ، ولزمت من تأخر عنها ، باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى (ص) وموطن الصحابة وارجاء المطالبة بدم عثمان إلى إجتماع الناس واتفاق الكلمة ، فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ، ولم يحضر إلا قليل ، ولا تكون البيعة إلا باتفاق اهل الحل والعقد ، ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم ، وأن المسلمين حينئذ فوضى ، فيطالبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام ، وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص وأم المؤمنين عائشة والزبير وغيرهم .

وقد بادر علىّ بعد توليه الخلافة بعزل ولاة عثمان وإرسال عماله إلى الولايات ، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار . والظاهر ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ أن البيعة جاءته من كل مكان إلا بلاد الشام التى كان يليها معاوية من قبل عثمان بن عفان ، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين ، وبينما هما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسى حادث جديد هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج الرسول (ص) على خلافة على واشتباكهم معه فى موقعة الجمل التى انتهت بانتصار على وقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة فى سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م . وفى عام ٣٦ هـ / ٦٥٦ م سار على بن أبى طالب من الكوفة مقر خلافته بعد موقعة الجمل ـ نحو الشام لمحاربة معاوية ، وتقابل الفريقان فى سهل صفين ، حيث نشب القتال بين الفريقين ، وانتهت تلك الموقعة فى صفر عام ٣٧ هـ / ٦٥٧ م بحيلة لعمرو بن العاص ، اذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف ، فكان ذلك سببا فى فتور أكثر جند على بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار .=

إن عليا كان قد كتب الى عمرو بن العاص يتألفه، فلما أتاه الكتاب، أقراه معاوية، وقال : قد ترى فإما أن ترضيني، وإما أن ألحق به ! قال : فما تريد ؟ قال : مصر ! فجعلها له .

ثم يقول أيضا : « وظن (أى عمرو بن العاص) أن معاوية سيزيده الشام مع مصر، فلم يفعل معاوية فتنكر له عمرو، فاختلفا وتغالظا، فدخل بينهما معاوية بن حديج[1] فأصلح بينهما، وكتب بينهما كتابا : إن لعمرو ولاية مصر سبع سنين، وأشهد عليهما شهودا» .

كذلك من الولاة الذين تولوا مصر فترة طويلة لوجود مصالح مشتركة بينه وبين الخليفة، عبد العزيز بن مروان (من عام ٦٥هـ /٦٨٤م الى عام ٨٦هـ /٧٠٥م) . فقد تولى إمراة مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم فى عام ٦٥هـ / ٦٨٤م على الصلاة والخراج، بعد ماعهد اليه بالخلافة بعد أخيه عبد الملك، وعندما مات أبوه أقره أخوه عبد الملك بن مروان على ولاية مصر، لإبعاده ـ على الأرجح ـ عن مقر الخلافة حتى لا يكون منافسا له . ومما يؤكد ذلك أنه عندما طال بعبد العزيز بن مروان العمر، خشى عبد الملك أن تضيع فرصة الخلافة من عقبه، فطلب الى عبد العزيز أن يتنازل عن حقه فى الخلافة من بعده لولده الوليد، فسليمان، ولكنه رفض، فأراد عبد الملك عزله بالقوة، ولكن الموت فاجأ عبد العزيز عام ٨٦هـ / ٧٠٥م فانفتح طريق الخلافة أمام الوليد ثم سليمان .

ويذكر ابن كثير أن عبد العزيز بن مروان طوال مدة توليه مصر لم يكن يرسل الخراج الى الخلافة ، لأن مصر وبلاد المغرب كانت كلها له : مغانمها

= وقد اختير عمرو بن العاص حكما من قبل معاوية . كما اختير أبو موسى الاشعرى من قبل على، وقيل إن هذا التحكيم قد انتهى باتفاق الحكمين على خلع على ومعاوية ، فاعلن أبو موسى الاشعرى خلعهما ثم قام عمرو فاعلن خلع على وتثبيت معاوية لأنه ولى عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بأن يخلفه .

(١) هو معاوية بن حديج بن جفنة بن قتيرة الكندى الخولانى المصرى ، صحابى على قول الأكثرين ، وذكره ابن حبان فى التابعين من الثقاة . شهد فتح مصر . وتوفى عام ٥٢هـ/ ٦٧٢م بمصر .

وخراجها ، ولكن عندما أرسل اليه الخليفة عبد الملك ليعزل نفسه ورفض هذا الطلب ، أرسل اليه يطلب منه حمل خراج مصر الى الخلافة .

أما فى العصر العباسى ، فقد اختلف وضع الولاة فى مصر باختلاف سياسة الدولة العباسية ، التى اعتمدت فى البداية على الفرس فى قيام دولتها ، ثم على الاتراك زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤١م) . فكما تلاحظ الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، فقد تميزت هذه الفترة بظاهرتين :

الظاهرة الأولى : كثرة تغيير الولاة ، بسبب بعد مقر الخلافة العباسية (فى بغداد وسامرا) عن مصر أولا ، وبسبب ضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم ثانيا . فقد خشى الخلفاء العباسيون أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا حتى لا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد .

ومن الولاة الذين حاولوا الاستقلال بالبلاد ، على بن سليمان الذى تولى مصر عام ١٦٩هـ/٧٨٥م ولم يحاول الاستقلال بالبلاد عن الخلافة فقط، بل إنه طمع أيضا فى الخلافة ورأى أنه يصلح لها ، مما دفع بعض أهل مصر الى الكتابة الى هارون الرشيد الذى أسرع بعزله فى عام ١٧١هـ / ٧٨٧م .

كذلك من الولاة الذين حاولوا الاستقلال بالبلاد ، وكان له نصيب كبير مما أراد ، عبيد الله بن السرى الذى تولى مصر عام ٢٠٦هـ/٨٢١ بمبايعة الجند له . فقد خرج عن طاعة المأمون ، مما دفع المأمون الى ارسال عبد الله ابن طاهر لقتاله حتى استسلم عام ٢١١هـ/٨٢٦م . وقد كان انتصار عبد الله ابن طاهر على عبيد الله بن السرى ، هوالسبب ـ فى رأينا ـ الذى جعل المأمون يوليه مصر عام ٢١١هـ/٨٢٦م، ويهب له خراجها الذى قدر بثلاثة ملايين دينار .

ومن الولاة الذين أرادوا الاستقلال بمصر أيضا ،موسى بن عيسى الذى تولى مصر مرة ثانية عام ١٧٥ ـ ١٧٦هـ/ ٧٩١ ـ ٧٩٢ م . فقد عزم

على الاستقلال ، وعندما بلغ الرشيد موقفه هذا ، قال : « والله لا أعزله الا بأخس من على بابى» . فذكروا له عمر بن مهران ، وكان هذا ـ كما يذكر الطبرى ـ رجلا أحول ، مشوه الوجه ، وكان لباسه لباسا خسيسا ، أرفع ثيابه طيلسانه الذى كانت قيمته ثلاثين درهما ، وكان يشمر ثيابه ، ويقصر أكمامه ويركب بغلا وعليه رسن [1] ولجام حديد ، ويردف غلامه خلفه [2] . فولاه مصر على شرط أن يكون له الحرية فى الانصراف اذا أصلح حالها . ويذكر الطبرى أن موسى بن عيسى عندما علم أن عمر بن مهران هو الذى تولى بعده قال :«لعن الله فرعون حين يقول أليس لى ملك مصر » [3]

هذا فيما يتعلق بالظاهرة الأولى فى العصر العباسى وهى كثرة تغيير الولاة .

أما الظاهرة الثانية ، فهى ظاهرة الاقطاع ، وهى إقطاع الخلفاء العباسيين منذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ـ ٨٠٨م) بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات فى مقابل مال يوعدونه للخلافة ، ولهم أن يعينوا من قبلهم ولاة فيما يتبعونهم مباشرة ولا يتبعون الخلافة ، كما فعل هارون الرشيد بعبد الملك بن صالح (١٧٨هـ/ ٧٩٤م) ، والمأمون بطاهر بن الحسين (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) والمعتصم بأشناس (٢١٩هـ / ٨٣٤م) ، والواثق بايتاخ (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م).

فتشير المصادر العربية الى أن المعتصم (٢١٨ـ٢٢٧هـ/٨٣٣ـ٨٤١م) أقطع أشناس التركى ولاية مصر عام (٢١٩هـ/ ٨٣٤م) وأذن له بأن يولى حكامها بنفسه . وكان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة ، وكما يقول الكندى : «فدعى له بها». وضربت السكة باسمه الذى نقش أيضا على الموازيين والمكاييل ، وقد ظل أشناس صاحب اقطاع مصر ويعين ولاتها من قبله الى أن توفى عام (٢٣٠هـ/٨٤٤م). وبعد وفاة أشناس أقطع الواثق (٢٢٧ـ ٢٣٢هـ/٨٤١ـ ٨٤٦م) مصر لايتاخ التركى ، وقد دعى له على المنابر أيضا .

---

(١) رسن جمع ارسان وارسن وهو الحبل المعروف للدابة .

(٢) يردف غلامه خلفه : اى كان يركب غلامه خلفه على الدابة .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥١ .

ويشير ابن اياس فى كتابه الى أن الخلفاء كانوا يشترطون عليهم ، فى كتب تقاليدهم ، المال الذى يلتزمون به ، الى جانب الهدايا المكونة من الخيول العربية ، والبغال الخيسية (١) ، والجمال البجاوية (٢) والثياب الدبيقية، ومقاطع الشرب (٣) الاسكندرانية ، والطرز البهنساوية ، وأجلال الخيل (٤)، والستور الفيومية ، والعسل النحل المصرى من بنها ، وغير ذلك من الاصناف التى لا توجد إلا فى مصر .

وفى رأينا أن هذا الاقطاع لم يكن اقطاع تمليك ، وانما اقطاع إجارة (أنظر فى ذلك : الموضوع الخاص بالاقطاع) والدليل على ذلك ، أن المقطع كان يرسل للخليفة مالا يحدده الخليفة له ، كما كان فى إمكان الخليفة أن يعزل المقطع عن اقطاعه ليعطيه لآخر . فتشير المصادر العربية الى أنه بعدما أقطع الواثق مصر لايتاخ ، أمر بالقبض عليه عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر . ولذلك يقول الكندى : «ثم صرف ايتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥، واستصفيت أمواله بمصر ، وترك الدعاء له ، ودعى للمنتصر مكانه» .

على أن سياسة اقطاع الأتراك ولاية مصر ، والسماح لهم بتولية عمال من قبلهم ، أدت الى استقلال هؤلاء العمال بها ، ويرجع ذلك الى اهتمام الخلفاء بمراقبة من أعطيت لهم ولاية مصر ، وهم الذين آثروا البقاء فى عاصمة البلاد ، دون مراقبة عمالهم ، وبالتالى فلم يكن من العسير على عامل له شخصية بارزة وآمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد ، خاصة بعدما

---

(١) خيس · بفتح أوله ويكسر ، وسكون ثانية وسين مهملة . وهى من كور الحوف الغربى بمصر . ومكانها اليوم القرية التى تسمى أم حكيم ، احدى قرى مركز شبرا خيت بمديرية البحيرة . وهذه القرية تقع فى منطقة ناحية الشراك التى كانت مشتركة مع الخيس فى كورة واحدة ، ثم حرف اسمها الى الاشراك ، ولا تزال موجودة ضمن قرى مركز شبرا خيت المذكورة .

(٢) بجاوة · بفتح الواو . وهى أرض بالنوبة وتنسب الجمال الى البجاء وهى أمم عظيمة بين العرب والحبش والنوبة .

(٣) الشروب · جمع شرب ، وهو نوع عظيم الرقة والنفاسة من النسيج

(٤) الجل جمع جلال وأجلال للدابة كالثوب للانسان تصان به .

تطرق الضعف الى مركز الخلافة نفسها ، وهذا ماحدث فى عهد أحمد بن طولون الذى ولى مصر من قبل الخليفة المعتز ، فقد استقل بمصر عن الخلافة ، وأسس بها أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهى الدولة الطولونية (٢٥٤ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) . ثم حدث ذلك أيضا فى عهد محمد بن طغج الذى ولى مصر من قبل الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر ، واستقل بمصر عن الخلافة ، وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الاخشيدية ، استمرت أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما (٣٢٣ـ ٣٥٨هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩م).

ثانيا: متولى الخراج أو صاحب الخراج :

ويعتبر الرجل الثانى فى الدولة بعد الوالى من حيث المكانة والأهمية . فيرى المقريزى أن سلطة الوالى كانت أعلى فى المكانة من سلطة متولى الخراج . وقد حرص الخلفاء على جعل عمال الخراج مستقلين عن الولاة، وذلك لإضعاف نفوذهم . ومن هنا حرص كثير من الولاة على ضم الخراج اليهم لدعم قوتهم ، ومن هؤلاء عمرو بن العاص (٢٠هـ/ ٦٤١م). وعندما أراد عثمان بن عفان (٢٤ـ٣٥هـ/٦٤٤ـ ٦٥٥م) أن يكون عمرو على الحرب ، وعبد الله بن سعد على الخراج ، رفض عمرو ، وقال عبارته المشهورة : «أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها» !

ومنهم أيضا عتبة بن أبى سفيان ، الذى تولى مصر من قبل معاوية عام (٤٣ـ٤٤هـ/ ٦٦٣ـ ٦٦٤م) على الحرب ، وكان وردان على الخراج . وعندما وفد عتبة على معاوية ومعه نفر من أهل مصر ، سأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال عبادة بن صمل المعافرى :«حوت بحر ياأمير المؤمنين ، ووعل بر» !

فقال معاوية لعتبة : «اسمع ماتقول فيك رعيتك » ! فقال : «صدقوا ياأمير المؤمنين ، حجبتنى عن الخراج ، ولهم علىّ حقوق ، وأكره أن أجلس فأسال فلا أفعل فأبخل » . فضم اليه معاوية الخراج .

ويتضح من هذين المثلين أهمية وقوة منصب متولى الخراج ، الذى كان فى أحيان كثيرة يتدخل فى عزل وتولية الوالى بنفسه ، وسنعرض هنا أهم الشخصيات التى تولت الخراج فى الفترة التى يتناولها بحثنا .

وأول هؤلاء : أسامة بن زيد التنوخى (٩٦ ـ ٩٩هـ / ٧١٤ـ ٧١٧م) (١٠١ـ ١٠٥ هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢٣م)

وقد تولى خراج مصر فى ولاية عبد الملك بن رفاعة عام (٩٦هـ/ ٧١٤م). وبعد وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية سليمان بن عبد الملك الخلافة (٩٦ـ ٩٩هـ/ ٧١٤ـ ٧١٧م) كتب اليه سليمان : «احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم »(١) ، وكان ذلك ـ كما يقول أبو المحاسن ـ « أول شدة دخلت على أهل مصر» .

وقد وصف سليمان بن عبد الملك أسامة يوما فقال : «هذا أسامة لايرتشى دينارا ولا درهما . فقال له ابن عمه عمر بن العزيز بن مروان : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ، ولا يرتشى دينارا ولا درهما قال سليمان : ومن هو ؟ قال عمر : عدو الله ابليس . فغضب سليمان وقام من مجلسه . ومعنى هذا أن قسوة صاحب الخراج وبطشه أحياناكانت ترجع الى طلب الخليفة منه ذلك .

ويروى لنا الجهشيارى أن أسامة بن زيد كان قد بلغه أن عمر بن عبد العزيز ـ ولم يكن بعد خليفة ـ يذم فيه . فعندما قدم بالمال على الخليفة سليمان بن عبد الملك ، حرص على الدخول عليه فى وقت يكون عنده عمر بن عبد العزيز ، ودار الحوار الآتى الذى لايحتاج الى تعليق ، قال أسامة : «ياأمير المؤمنين ، إنى ماجئتك حتى نهكت الرعية وجهدت ، فان رأيت أن ترفق بها ، وترفه عنها، وتخفف من خراجها ماتقوى به على عمارة بلادها ، وصلاح معاشها ، فافعل ، فانه يستدرك ذلك فى العام المقبل » !

فقال له سليمان : « هبلتك أمك ! احلب الدم ، فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا» (٢) . فخرج أسامة بن زيد ، فوقف لعمر بن عبد العزيز حتى خرج ،

---

(١) ينصرم . ينقطع .

(٢) النجا . الجلد .

فركب ثم سار معه ، وقال له : «إنه بلغنى يا أبا حفص ، أنك تلومنى وتذمنى، وقد سمعت اليوم ما كان من مقالتى لابن عمك ، ومارَدّ علَىّ، وعرفت عذرى» فقال عمر : «سمعت والله كلام رجل لا يغنى عنك شيئا ! ».

وعندما توفى سليمان بن عبد الملك وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ ١٠١ هـ / ٧١٧ ـ ٧١٩م) ، كتب بعزل أسامة بن زيد ، وأمر به أن يحبس ويقيد ، ويحل عن القيد عند كل صلاة ، ثم يرد فى القيد ، فحبس بمصر سنة ، ثم نقل الى أرض فلسطين ، فحبس بها حتى مات عمر بن عبد العزيز، وتولى بعده يزيد بن عبد الملك (١٠١ـ ١٠٥هـ/ ٧١٩ـ ٧٢٣م) فأعاد أسامة بن زيد على خراج مصر للمرة الثانية !

وأثناء خلافة يزيد بن عبد الملك اشتد أسامة بن زيد متولى خراج مصر على النصارى ، فأخذ ـ كما يقول المقريزى ـ أموالهم ، ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب ، واسم ديره وتاريخه ، فكل من وجد بغير وسم قطع يده ، وكتب إلى الأعمال بأنه من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات ، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب أعناق بعضهم ، وضرب بقيتهم حتى ماتوا من الضرب !

ثانيا : عبيد الله بن الحبحاب (١٠٥ ـ ١١٦ هـ / ٧٢٣ ـ ٧٣٥م)

وقد نجح فى عزل الوالى الحر بن يوسف ، الذى تولى مصر عام (١٠٥ هـ / ٧٢٣ م) من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ـ عن مصر ، لمغاضبة بينهما كما يقول المقريزى .

وعندما ولّى هشام بن عبد الملك بدلا منه حفصا بن الوليد عام ١٠٨ هـ/ ٧٢٦م ، كتب إليه عبيد الله بن الحبحاب يقول : «إنك لم تعزل الحُر إذ وليت حفصاً ! فترك له الخليفة اختيار من يشاء ، فاختار عبد الملك بن رفاعة .

ويتميز عهد عبيد الله بن الحبحاب بقيام أول ثورة للأقباط فى مصر ، وذلك بسبب رفعه قيمة الخراج عليهم ، فيذكر الكندى : أنه فى إمرة الحر بن يوسف كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل قيراط دينار . وقد أدت هذه الزيادة إلى قيام ثورات فى كل من كورة تتو وتُمَىّ (١) وقُرْبَيْط (٢) وطَرابية (٣) . وعامة الحَوْف الشرقى (٤) وكانت هذه الثورات هى الأولى التى يقوم بها القبط ، وكان ذلك فى عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م . وقد نجح عبيد الله بن الحبحاب فى قمع هذه الثورات بعدما أرسل أهل الديوان (العرب) لمحاربتهم .

- أما الشخصية الهامة الثالثة التى تولت الخراج فى مصر فهو **أحمد بن المدبر**(٢٤٧ - ٢٥٥ هـ / ٨٦١ - ٨٦٨ م) :

وكان على خراج مصر فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ هـ / ٨٥٦م) . وقد تولى خراج مصر بعد سليمان بن وهب عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م بمرتب شهرى يقدر بستة آلاف دينار ويقول البلوى : إنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب ، وقد أحدث فى أيامه أنواعا من وجوه الظلم لم تكن بمصر، منها : أنه حجر على النطرون بعدما كان مباحا لجميع الناس بمصر ، فصار

---

(١) تُمَىّ : بالضم ثم الفتح ، وياء مشددة . كورة بحوف مصر يقال لها كورة تتا وتمى ، وهما كورة واحدة . وهى كورة يقال لها تمى وتتا والصواب نتا ، وتسمى نتو . وقد زالت هذه القرية ، ومحلها اليوم تل المقدام الواقع فى زمام كفر المقدام بمركز ميت غمر .

(٢) قُرْبَيْط بضم القاف ، وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وياء ساكنة وطاء مهملة من كور أسفل الأرض بمصر وهى هُرْبيط التى بمركز كفر صقر بمديرية الشرقية .

(٣) طَرابية : بالفتح وبعد الألف باء موحدة وياء مثناة من تحتها خفيفة . من نواحى حوف مصر . وردت فى مصادر أخرى باسم طرافية أو أرابيا ومعناها أرض العرب ، لأنها تجاور الصحراء العربية ، وكانت فاقوس قاعدة هذه الكورة ، وكانت صفط الحنة من قراها ولذلك يقال لها سفط طرابيا .

(٤) الحَوْف : بالفتح ، وسكون الواو ، والفاء . والحوف بمصر حوفان : الشرقى والغربى ، وهما متصلان . أول الشرقى من جهة الشام وآخر الغربى قرب دمياط ، ويشتملان على بلدان وقرى كثيرة . والحوف الشرقى كان يشمل جميع النواحى والبلاد التابعة الآن لمديريتى القليوبية والشرقية ، ثم البلاد الواقعة فى الجانب الشرقى من مركز السنبلاوين ، وأجا ، وبلاد مركز ميت غمر بمديرية الدقهلية بالوجه البحرى .

له ديوان خاص ، وعامل جلد يحظر على الناس أن يبيعوا أو يشتروا إلا من جهته. كما حجر على الملح . أيضا قرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا وسماه المراعى ! كما قرر على مصايد الأسماك مالا ، وسماه المصايد ! فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلالى [1] ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون. ويذكر ابن اياس أن خراج مصر قد انحط فى أيامه حتى بقى ثمانمائة ألف دينار فقط .

ويقول ساويرس عن أحمد بن المدبر : أنه عندما وصل إلى مصر وضع يده على كل المسلمين والنصارى واليهود ، وضاعف عليهم الخراج ، فقوم لكل دينار دينار ، وقوم للدينار ثلثه ، وأرسل إلى الديارات فى كل موضع وأحصى الرهبان التى فيها ، وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى فى البهلس ، وعن النخل والشجر المثمرة المغروسة فى بيوتهم !

وكانت جزية النصارى التى بأرض مصر ألفى دينار ، زاد عليها أربعة ألف دينار ، حتى صارت ستة آلاف دينار ، وكان «الإنسان الفقير الذى يعجز قوته يأخذ منه فى كل سنة خمسين درهما» .

ويقول ساويرس : إنه فى أثناء ولاية مزاحم بن خاقان ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م كتب أحمد بن المدبر إلى جميع أرض مصر بأن يوخذ من كل واحد خراجين فى تلك السنة ، وكل نصرانى جزيتين ، «فزاد الناس الذين بأرض مصر فقرا بهذا السبب بأمر هذا الإنسان ، حتى إن الأغنياء لم يجدوا الخبز ولم يقدروا عليه » .

وإستمر أحمد بن مدبر يتولى خراج مصر حتى قدم أحمد بن طولون واليا عليها عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م . ويقول البلوى : إنه عندما دخل أحمد بن

(١) والخراجي مايجبى مسانهة ، أما الهلالى فهو مايجبى مشاهرة. ويقول المقريزى عن المال الخراجي والهلالى : «فالمال الخراجي ما يؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا ، ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف . والمال الهلالى عدة ابواب كلها احدثوها ولاة السوء شيئا بعد شىء » .

طولون مصر ، استقبله أحمد بن مدبر ومعه شقير الخادم صاحب البريد ، وكان يرافق أحمد بن مدبر حاشيته المكونة من مائة غلام من مولدى الغور[1] قد انتخبهم ، وكانوا يقفون فى حافتى مجلس ابن المدبر اذا جلس ، واذا ركب كانوا بين يديه ، فكانت له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس إذا رأوهم. وقد أهدى أحمد بن مدبر احمد بن طولون هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار ، إلا أن ابن طولون ردها اليه ، وطلب منه عوضا عنها غلمانه ، وقال له : «أحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا إليهم أحوج منك» . ويذكر البلوى أن أحمد بن مدبر لم ير بُدا من أن يبعثهم إليه . ويشير البلوى كذلك إلى إمتلاك أحمد بن مدبر الكثير من الضياع ، حتى إنه وهب لأحمد بن طولون ضياعا كان يملكها بمصر «جليلة المقدار» . وقد ألغى أحمد بن طولون جزية الرهبان التى كان أحمد بن مدبر قد فرضها عليهم ، وذلك بعد شكوى رهبان دير القصير [2] له . والغريب أن أحمد بن طولون بعدما وقَّع لهم بخطه قال لهم : «إحذروا أن تجعلوا توقيعى هذا كالسيف الذى يصول به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند ايصالكم إياه إليه... وحسن التلطف » . وكأنه كان يتوقع أن يرفض ابن مدبر تنفيذ هذا الأمر ، فطلب منهم الاستكانة وحس التلطف .

ولم يلبث ابن طولون أن عزل ابن مدبر عن خراج مصر ، وولى بدلا منه محمد بن هلال بعدما حاول ابن مدبر الوقعية بينه وبين الخليفة ، فقد أرسل إلى الخليفة يقول عن أحمد بن طولون : إنه عزم على أن يقيم بمصر خليفة ! وأخذ يصف غدره ، ويذكره بكل قبيح ، ويشير بعزله ، ويخوف السلطان منه ، ويذكر ماقد اختزله من الأموال ـ الأمر الذى دفع أحمد بن طولون الى حبسه .

---

(١) غُور: بضم أوله ، وسكون ثانيه ، وآخره راء . جبال وولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسعة موحشة . والغالب أن هؤلاء الغلمان من تلك البلاد .

(٢) دير القصير . فى ديار مصر فى طريق الصعيد بقرب موضع هناك يقال له حلوان . وهذا الدير فى أعلى جبل المقطم وفى هيكله صورة مريم فى حجرها صورة المسيح عليه السلام ، وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكان كثير الغشيان لهذا الدير ، معجبا بالصورة التى فيه .

ويقول البلوى : إن أحمد بن طولون حبس ابن مدبر فى حجرة مفروشة، ومعه خادمان يخدمانه ، وكان أحمد بن طولون فى كل يوم يوجه اليه مائدة حسنة عليها من كل شىء .

وهذا على عكس ما يقوله ساويرس ، فهو يقول : « إنه لما عزل عن الخراج ، أمر الوالى أن يعرى من الثياب التى كانت عليه ، وأن يلبس ثياب صوف خشن لايلبسه عبد ، ففعل به ذلك ، وحبس فى موضع ضيق لا يقدر أن يلتفت فيه يمنة ولا يسرة، وجعلت مؤونته لاتكفيه ، وهو مغلغل بالحديد ، فاذا كان فى أيام الصيف أخرج منه ، وجعل فى حرارة الشمس ، ويديرون وجهه اليها حيثما دارت من الغداة فى كل نهار الى الساعة التاسعة منه ، فدفعات كثيرة يغشى عليه حتى يسقط الى الأرض ، ويصير كالميت فيضربونه فى أوداجه [1] ، ويقيموه ويجلسوه فى الشمس قهرا . وأقام فى هذا العذاب عدة شهور ، وكل من يذكر شره وسوء فعله وما ناله الآن يتعجبوا ويمجدوا الله» . وقد ظل أحمد بن مدبر فى الحبس حتى عمى ومات.

ثالثا : صاحب البريد

وصاحب البريد [2] يعتبر من المناصب الرئيسية الهامة فى الدولة ، فهو الرابع فى الترتيب بعد الوالى وصاحب الخراج والقاضى (الذى سوف نتناوله فى النظام القضائى) ولم تكن هذه الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وإنما بدأتها الدولة الأموية ، ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية ، وكان معاوية بن أبى سفيان (٤٠ـ ٦٠هـ / ٦٦٠ـ ٦٧٩م) هو أول من وضع البريد فى الاسلام .

---

(١) الودج جمع أوداج . عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب .

(٢) معنى البريد اللغوى هو اثنا عشر ميلا . ويرى ابن طباطبا أن هذه المسافة هى التى قدرت بين كل بريد وبريد .

ويعزو الدكتور محمد ضياء الدين الريس نشأة نظام البريد الى الحاجة اليه لانتظام الأمور وضبط الادارة. وفى رأينا أن الحاجة الى انشاء نظام للبريد نشأت مع اتساع رقعة الدولة وزيادة مهامها ، وضرورة قيام نظام للاتصال السريع بين أجزائها.

ولم يكن البريد يستعمله الشعب ، وانما كان نظاما رسميا حكوميا .

وقد كان الغرض الأساسى من نشأة نظام البريد فى البداية هو سرعة وصول الأخبار ، وحاجة الخلفاء الى نظام لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم الى الولايات المختلفة ، وأيضا لتلقى الأخبار. ثم مالبث أن تطور هذا النظام فاستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الاقاليم وعمالها.

ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة أو الوالى واسطة ، فاذا جاء صاحب البريد، لايطلع أحدا عليه قبل الخليفة ، ليكون هو الذى يشيعه أو يكتمه على مايراه .

ويفهم مما كتبه ابن طباطبا أن صاحب البريد كان يضع نظاما يكفل وصول البريد الى غايته بالسرعة المطلوبة . وكان هذا النظام يقوم على اقامة محطات فى الطريق تزود بخيول مسرجة ، فاذا وصل حامل البريد متعبا فرسه ، ركب غيره على الفور ليواصل مسيرته ، وكذلك يفعل فى المحطة التالية حتى يصل بسرعة .

وتشير الدكتورة سيدة كاشف الى وجود نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥ـ ٨٦هـ/٦٨٤ـ ٧٠٥م) كشفت بالقرب من بيت المقدس ، تشير الى أوامره بصنعة الأميال (أى مسح الأراضى لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل) ، وبعمارة أربعة طرق تخرج من إيليا ء[١] ومن دمشق. وقد اهتم العباسيون اهتماما كبيرا بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزا تتشعب منه الطرق الى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدى الى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدى الى روما .

---

(١) إيلياء بكسر اوله واللام ، وياه والف ممدودة . اسم مدينة بيت المقدس .

ويتبين من ذلك أن وظيفة صاحب البريد كانت تتكون من مهمتين : الأولى، تزويد الخلفاء بالأخبار الهامة ، أو تلقى الاخبار الهامة من الولاة ، وارسال الأوامر الى الولاة . والمهمة الثانية ، وضع النظام الذى يكفل سرعة وصول البريد الذى حمل هذه الاخبار . ومن هنا كانت عملية اختيار صاحب البريد فى غاية الأهمية لأنه ـ كما يذكر أبويوسف ـ ربما مال مع العمال على الرعية ، وستر أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتب فى الولاة والعمال بما لم يفعلوا اذا لم يرضوه !

وهكذا فان صاحب البريد لابد أن يكون اختياره من الثقات العدول من أهل البلد ، بل يرى أبويوسف أنه اذا استتر صاحب البريد خبرا عن الخليفة من رعيته ، أو خبرا من ولاته ، أو يزيد فيما يكتب خبرا ، يجب أن ينكل به . وفى الوقت نفسه يجب أن يحصل صاحب البريد على رزق أكبر من بيت المال ، لضمان عدم خيانته وعدم ارتشائه ، وبالتالى يضمن صحة الأخبار .

دور صاحب البريد فى مصر :

ومن الملاحظ أن المصادر القديمة لاتشير الى أصحاب البريد الموفدين من الخلفاء الى مصر الا فى موضع أو موضعين ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ـ التى ترى أن اغفال ذكر أصحاب البريد فى المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وعمال الخلافة أكثر مما تعنى مصر نفسها . ففى السنوات الأولى من فتح مصر لا تذكر المصادر العربية سوى وصول كتب من الخلفاء إلى الولاة ، وبالطبع هذه الكتب لا تصل إلا عن طريق رسل مختارين ، ثم بعد اتساع الدولة وظهور وظيفة صاحب البريد فى عهد معاوية بن أبى سفيان كانت تصل عن طريق صاحب البريد ، وهذه الكتب كانت إما بعزل وال وتولية آخر مثل :

كتاب أبى جعفر المنصور بعزل يزيد بن حاتم والى مصر عام ١٤٤هـ/٧٦١ م ، وكان ذلك عام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م .

أو كتاب يطلب فيه من الأمير ترك البلد وتأميره على بلد آخر مثل :

كتاب يزيد بن عبد الملك إلى بشر بن صفوان والى مصر من قبله عام (١٠١ هـ / ٧١٩ م) ، بتأميره على افريقية ، فخرج إليها فى شوال عام ١٠٢هـ / ٧٢٠م .

كما ورد كتاب أبى العباس (السفاح) إلى صالح بن على ، والى مصر من قبله ، عام (١٣٣ هـ/ ٧٥٠م) ، بإمارته على فلسطين ، ويأمره بالاستخلاف على مصر . فاستخلف عليها أبا عون عبد الملك بن يزيد عام (١٣٣ هـ / ٧٥٠م) .

أو كتاب من الخليفة يأمر باتباع سياسة داخلية معينة ، سواء كانت مالية أو دينية أو غيرها ، مثل : كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل والى مصر من قبله عام (٩٩هـ / ٧١٧م) . فقد كتب إليه بفرض فريضة للجند .

وكتاب يزيد بن عبد الملك الى بشر بن صفوان والى مصر من قبله ، عام (١٠١هـ/ ٧١٩م)، بمنع الزيادة التى كان عمر بن عبد العزيز قد أمر بها لأهل الديوان .

وكتب أبى جعفر المنصور الى يزيد بن حاتم والى مصر من قبله ، عام (١٤٤هـ/٧٦١م) ، يأمره بالتحول من العسكر الى الفسطاط .

وكتاب الوليد بن عبد الملك الى قرة بن شريك والى مصر من قبله ، عام (٩٠هـ/٧٠٨م)، يأمره بالزيادة فى الجامع (جامع عمرو بن العاص).

وفى المقابل تشير المصادر العربية الى ورود كتب من الولاة الى الخلفاء لطلب رأى الخليفة فى السياسة الداخلية مثل :

كتاب بشر بن صفوان (١٠١ـ١٠٢هـ/٧١٩ ـ٧٢٠م)الى يزيد بن عبد الملك ، يسأله الإذن فى جمع قبيلة قضاعة فى الديوان ، بعدما لاحظ أنها متفرقة وسط القبائل .

كذلك كتاب حفص بن الوليد والى مصر (١٠٥هـ/٧٢٣م) الى هشام بن عبد الملك ، يطلب فيه الإذن بالبناء فى أرض انكشف عنها النيل ، وهى ليست لمسلم أو لمعاهد ، فأذن له فى بنائها .

وتبدأ المصادر العربية منذ خلافة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) فى ذكر أخبار متفرقة عن صاحب البريد ودوره فى مصر ، نعرضها فيما يلى :يذكر الطبرى أنه فى أيام المتوكل ولى بريد مصر رجلا يقال له يعقوب ابن ابراهيم الباذغيسى مولى الهادى ، وهو المعروف بقوصرة ، وقد جعل اليه بريد مصر والاسكندرية وبرقة ونواحى المغرب . وقد كتب يعقوب الى المتوكل بنقض البجة [1] للعهد الذى كان بينها وبين المسلمين. وقد توفى يعقوب بن ابراهيم صاحب بريد مصر فى جمادى الاخرة عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م.

---

(١) البجة : وبلاد البجة – كما يذكر المقريزى – تمتد من صحراء قوص الى أول بلاد الحبشة ، ولم يهتم العرب عندما فتحوا مصر باخضاعها . ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد عندما قفل من غزو النوبة عام ٣١هـ/٦٥١م تجمع له البجة على شاطىء النيل ، فسأل عنهم ، وهان عليه أمرهم ، فتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب ، ولكنهم كثيرا ما كانوا يغيرون على مصر فحاربهم الخليفة المأمون ، وأصبحت بلاد البجة تابعة للخلافة بمقتضى عهد عقد بين الخليفة وبين رئيسهم فى عام ٢١٦هـ/٨٣١م ولكنهم مالبثوا أن عادوا الى الاغارة على صعيد مصر . فحاربهم الخليفة المتوكل العباسى ، وسار رئيسهم الى الخليفة المتوكل بسر من رأى فى عام ٢٤١هـ/٨٥٥م ليقدم اليه فروض الولاء والطاعة . ولما تسامع الناس بوجود معدن التبر فى أرض البجة وفدوا الى أرضهم ، فقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى بعد محاربته النوبة فى عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م ومعه بطون من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب..

ويقول الطبرى عن البجة : وفى بلاد البجة معادن ذهب ، فهم يقاسمون من يعمل فيها، ويؤدون الى عمال السلطان فى مصر فى كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى .

ويقول المنجد عن قبائل البجة : هى قبائل تعيش بين النيل والبحر الأحمر ، وبين القاهرة وحدود السودان ، يعيش قسم منها داخل الأراضى المصرية، ويعيش الباقون فى السودان ومعظمهم لا يتكلمون العربية .

وفى ولاية يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر على مصر عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م، يذكر الكندى أن يزيدا أمر بضرب رجل من الجند فى شيء وجب عليه ، فضربه عشرة ، فاستحلف يزيدا بحق الحسن والحسين إلا عفا عنه، فزاده ثلاثين درة (١) ، فأرسل صاحب البريد هذا الخبر الى المتوكل ، الذى أرسل كتابا الى يزيد يطلب فيه ضرب ذلك الجندى مائة سوط ، فضربه.

وتظهر خطورة دور صاحب البريد فى ولاية أحمد بن طولون على مصر من قبل المعتز عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م، فعندما دخل أحمد بن طولون مصر كان صاحب البريد هو شقير الخادم، الذى اتفق مع صاحب الخراج ابن المدبر فى ذلك الوقت على الكتابة فيه الى الخليفة حتى يعزله. وبالفعل كتب الى الخليفة يقول : إن أحمد بن طولون على وشك التغلب على مصر والعصيان بها. مما دفع الخليفة الى الكتابة الى أحمد بن طولون يستدعيه بقوله :

«أما بعد ، فانا رأينا أن نرد اليك أمر دارنا بالحضرة ، وتدبير مملكتنا، فاذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف على قصرك من أحببت ، والبلد لك وباسمك واشخص الينا لما ندبناك اليه ، ورأيناك أهلا له والسلام».

فلما قرأ أحمد بن طولون الكتاب علم أنها حيلة ، فأرسل كاتبه أحمد بن محمد الواسطى الى الخليفة بالمال والهدايا ، فرضى عنه الخليفة وأرسل بتثبيت يده فى عمله . ثم أرسل أحمد بن طولون الى الخلافة يطلب الرسائل التى كتبها ضده العمال بمصر وأهل البلد ، فأرسل اليه كتاب شقير الخادم صاحب البريد ، فأحضره ابن طولون ، وأمر بأن تحضر السياط ، فضرب بها حتى سقط ، فأمر برده الى داره راكبا ، فلما وصل اليها مات فى نفس اليوم آخر النهار . وقد أرسل أحمد بن طولون اليه «العدول» (الشهود) ليشهدوا بأنه مات من غير ضرب ولا سبب ، غير فناء أجله !

ويذكر البلوى أن الحسن بن مهاجر هو الذى تولى البريد فى مصر فى أثناء الدولة الطولونية .

---

(١) الدرة جمع درر أى السوط الذى يضرب به .

وعن الحسن بن مهاجر تقول الدكتورة سيدة كاشف : إنه كان له عماله وأعوانه فى سائر المدن والكورات، على أن طبيعة عملهم جعلتهم غير محبوبين عند الشعب . ويظهر ذلك من قصة ذكرها البلوى عن امرأة بدوية كانت لها حظوة عند أحمد بن طولون ، فطلبت منه أن يشمل برعايته أحد أبنائها ، فأمر أحمد بن طولون الحسن بن مهاجر بأن يجد لهذا الابن عملا ، فعينه ابن مهاجر عاملا على البريد فى قريته ، ورتب له عشرة دنانير فى الشهر ، غيرأن أمه رجعت الى ابن طولون شاكية وقالت : إن الأمير أمر بأن يوجد لابنها عملا مثمرا ، ولكن ابن المهاجر لم يجد له الا هذا العمل الذى يجلب العار ، والذى تفضل عليه الجوع الشريف . وأضافت : إنه اذا لم يكن الا هذا العمل فخير لابنها أن يتركه كى لايتعرض لغضب الله وسباب المؤمنين . فضحك أحمد بن طولون وأمر ابن مهاجر بأن يستمر فى اعطاء الابن عشرة دنانير كل شهر مع اعفائه من عمله فى البريد .

رابعا ـ صاحب الشرطة :

كان صاحب الشرطة فى مصر بعد فتح العرب لها بمثابة نائب للوالى ، يؤم الناس فى الصلاة اذا مرض الوالى ، ويحكم الولاية اذا خرج الوالى من مقر ولايته ، ولذا نجد أنه كثيرا ماكان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على مصر اذا ماعزل الوالى أومات ، أو تنحى عن أمور الولاية .

وكان تعيين صاحب الشرطة أو عزله يرجع الى الوالى ، ولكن فى بعض الأحيان ـ وإن كان نادرا ـ كان يرجع تعيينه الى الخليفة نفسه ، كما حدث عام ٢١٧هـ/٨٣٢م عندما جاء الخليفة المأمون الى مصر ، لقمع ثورة بها ، فعين صاحب الشرطة فى ذلك الوقت .

وعن وظيفة صاحب الشرطة فى مصر ، تقول الدكتورة سيدة كاشف إن الوالى يعهد الى صاحب الشرطة بتطبيق القوانين ، وبتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها ، وبنشر الأمن فى البلاد ومنع الجرائم . كذلك كان واجب صاحب الشرطة نشر الفضيلة ، والمحافظة على الاخلاق الفاضلة ،

وقمع أهل الفساد . كذلك كانت وظيفة صاحب الشرطة المحافظة على حياة الوالى ومرافقته والحفاظ على الأمن فى مكان تواجده ، ويتضح ذلك من رواية ابن عبد الحكم ، نقلا عن بحير بن ذاخر المعافرى، قال : «رحت أنا ووالدى الى صلاة الجمعة ... فأطلنا الركوع ، إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت ، فقلت ياأبت : من هؤلاء ؟ قال : يابنى هؤلاء الشرط. فأقام المؤذن الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ....»

وقد كانت وظيفة صاحب الشرطة يتولاها بأنفسهم ، ومن هؤلاء الولاة : عيسى النوشرى الذى تولى مصر عام ٢٩٢هـ، فقد تسلم الشرطة وسائر الأعمال عندما تولى مصر .

كذلك كان يتولى وظيفة صاحب الشرطة القضاة ، ومن الذين جمعوا بين وظيفتى القضاء والشرطة : عابس بن سعيد ، وقد تولى القضاء من قبل مسلمة بن مخلد (٦٠ـ٦٨هـ/٦٧٩ـ٦٨٧م)، وقد جمع له القضاء والشرط . وهو أول من جمعا له كما يقول الكندى ، ومنهم يونس بن عطية الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٤ـ٨٦هـ/٧٠٣ـ٧٠٥م)، ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٦هـ/٧٠٥م)، ومنهم عمران بن عبد الرحمن الذى تولى القضاء من قبل عبد الله بن عبد الملك (٨٦ـ٨٩هـ/٧٠٥ـ٧٠٧م).

ومن المحتمل أن صاحب الشرطة فى الحاضرة كان له أعوان فى سائر أنحاء البلاد ، ولكن الراجح ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ أن ولاة المدن والأقاليم فى ريف مصر ، كان لكل منهم شرطة يتخذها لاقرار الأمن والمحافظة على النظام فى منطقة حكمه .

وكان رجال الشرطة يحملون فى أيديهم السياط ، وهى سلاح الهدف منه الزجر ، ومنع الهرج فى التجمعات ، ونحن لا نشك ـ كما يقول الدكتور عبد المنعم سلطان ـ بأن هناك أسلحة أخرى كان يتسلح بها الشرطيون مثل السيف والحربة وغيرها .

وكان مقر صاحب الشرطة فى الفسطاط ولما أنشئت «العسكر» على يد صالح بن على أول الولاة العباسيين فى مصر ، أنشئت فى حاضرة مصر الاسلامية شرطة جديدة سميت الشرطة العليا ، وكان مقرها دارا جنوبى المكان الذى شيد فيه ابن طولون المسجد الجامع . ولا يرجع تسميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط ، ولكن هذه التسمية ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ مشتقة من الموقع ، وحدود الاختصاص ، فإن تقسيم الفسطاط الى «عمل فوق» و «عمل أسفل» يرجع الى عهد إنشاء العسكر سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م.وقد ذكر هذا التقسيم المقريزى فى كتابه الخطط، بل إننا نرى المقدسى يكتب فى كتابه «أحسن التقاسيم» أن جامع عمرو كان يسمى الجامع السفلانى ، وجامع ابن طولون الجامع الفوقانى . وكان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله ، بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة .

ويذكر البلوى عن نسيم الخادم نصيحة أحمد بن طولون لمن يتولى الشرطة العليا ، أو من يتولى الشرطة السفلى فيقول : «قال : قلد مولاى الشرطة السفلانية قائدا من قواده ، وقال له : أرفق بالرعية ، وانشر العدل عليهم ، واقض حوائجهم ، وأظهر اكرامهم وصيانتهم ، وتفقد مصالحهم ، فانى أسير بالليل فى محالهم ، فكل موضع أمر به ، لا يخلو من قارىء أو متهجد [1] أو داع أو ذاكر الله عز وجل فوفر علينا دعاءهم لنا ، واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا . ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية تشدد عليهم، وأرهبهم منك ، ولا تلن لهم ، واغلظ عليهم ، فانى أسير فى محالهم . فما أمر بموضع فاسمع فيه إلا غناء أو سكران أو معربدا قد أخرجته عربدته الى الوثوب والكفر ».

---

(١)المتهجد: القائم من النوم الى الصلاة.

خامسا : المحتسب :

وهى من الوظائف الدينية ، والحسبة هى أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهْى عن المنكر اذا أظهر فعله ، وهو فرض على القائم بأمور المسلمين . قال الله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرِ) [١] .

ويُقصد بالحسبة فى مصطلح التاريخ الوظيفة التى تراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلا فى المجتمع الاسلامى على اختلاف طبقاته ، من حيث المعاملات الجارية بين أفراده ، وواجباتهم نحو الدولة ، وأحوالهم الشخصية ، وما قد يترتب على مخالفتهم من إلحاق الضرر بالمصلحة العامة. فكان المحتسب يشرف على نظام الأسواق والطرقات وعلى الباعة والعمال ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع . وكان يُشترط فيمن يتولاها أن يكون مسلما ، حرا ، بالغا ، عاقلا ، عالما بالأحكام الشرعية، فقيها ، عادلا ، عفيفا عن أموال الناس ، متورعا عن قبول الهدية من أرباب الحرف والصنائع ، متصفا بالرفق ولين القول وطلاقة الوجه والصبر ، فطنا لايرتشى فتسقط هيبته ويستخف به .

كما كان على المحتسب أن يكون مواظبا على سنن رسول الله (ص) من قص الشارب ، ونتف الابط ، وحلق العانة وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب والتعطر بالمسك وغير ذلك .

كما كان للمحتسب الحق فى أن يتخذ مساعدين له ، وذلك نظرا لتضخم واجبات المحتسب الدينية والاقتصادية والاجتماعية والصحية . وكان يَشترط فيهم العفة والشهامة ، وكان يؤدبهم ويهذبهم ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه ، وكيف يخرجون فى طلب الغرماء .

وقد خوّل للمحتسب حق توقيع العقوبة وتنفيذها فى الدعاوى التى تتعلق بالمنكرات الظاهرة ،اذا أقر المخالف بارتكابها ، أو ضُبط متلبسا بفعل

---

(١) سورة ال عمران اية رقم ١٠٤.

هذا المنكر . ويطلق على العقوبة التى يفرضها المحتسب «التعزير» وهو يختلف بحسب كبر الذنوب وصغرها ، وحال المذنب ، ومقدار الذنب . ويشمل «التعزير» التوبيخ ، والزجر بالكلام ، والحبس ، والضرب ، والنفى عن الوطن، وليس للمحتسب الحق فى تنفيذ الحدود الشرعية إلا فى الأحوال المأذون بها من الامام ، كذلك لايجوز له أن يسمع بيّنه على اثبات الحق ، ولا أن يحلف يمينا على نفى الحق كالقاضى ، وليس له أن يحبس المماطلين فى دفع الديون ، لأن الحبس حكم . فكان عمل المحتسب يتطلب السرعة عند الفصل فيما يعرض عليه ، بخلاف عمل القاضى الذى يتطلب الأناة والانتظار حتى تكوين الرأى النهائى الناضج .

وظيفة الحسبة فى مصر :

ولم تكن وظيفة الحسبة فى مصر منذ الفتح وحتى العصر الطولونى وظيفة مستقلة ، وانما كان يقوم بها الولاة أو أصحاب الشرطة أو عمال الخراج والقضاة .

فيذكر الكندى أن القاضى محمد بن عبدة الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧ ـ٢٨٣هـ /٨٩٠ ـ ٨٩٦ م) قد جمع مع القضاء النظر فى المظالم والمواريث والأحباس والحسبة .

ولاندرى متى أصبحت وظيفة المحتسب وظيفة مستقلة بذاتها ، فيفاجئنا ملحق الكندى بتعيين أبى مقاتل صالح بن محمد فى وظيفة محتسب ، ويبدو أن هذا التعيين كان صادرا من قبل الخليفة المقتدر (٢٩٥ـ٣٢٠هـ/٩٠٧ـ٩٣٢م) الذى أرسل كتابه الى تكين والى مصر (٢٩٧ـ٣٠٢هـ/٩٠٩ـ٩١٤م) بشأن بعض التعيينات .

كذلك يشير ابن سعيد الى أن محمد بن جعفر القرطى قد عينه مؤنس الخادم فى منصب المحتسب .

ومن المحتسبين فى العصر الاخشيدى محمد بن جعفر بن سلام ، وقد روى ابن زولاق أن بعض جيران سيبويه المصرى ساءه ولاية ابن سلام على

الحسبة ، فشكاه الى سيبويه ، فركب معه الى أبى الفضل جعفر بن الفضل فقال له :

« أبا الفضل ، حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك ، وليت علينا محتسبا قليل الوفا ، كثير الجفا ، طويل القفا ، فإما أن كفيناه ، أو أبدلته لنا بسواه..» ويبدو من هذا النص ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ أن الوزير كان صاحب الرأى الأعلى فى اختيار المحتسب وفى عزله .

والظاهر أن بعض الذين تقلدوا الحسبة فى العصر الاخشيدى ، لم يختاروا بالشروط التى ذكرتها آنفا ، فكانوا بعيدين عن الفضائل. وحسبنا مارواه ابن زولاق فى هذا الشأن وأوردته الدكتورة سيدة كاشف ، قال : إن سيبويه المصرى لقى المحتسب والحراس بين يديه فقال : « ماهذه الأحراس يا أنجاس ؟ والله ماثم حق أقمتوه ، ولا سعر أصلحتموه ، ولا جان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أحراس تسمع لباطل يوضع ، وأقفاء تصفع ، وبراطيل تقطع ! لا حفظ الله من جعلك محتسبا ، ولا رحم لك ولا له أما ولا أبا ! »

ومن المحتسبين فى العصر الاخشيدى كذلك ـ على ما يبدو ـ صدقة بن الحسن الصدفى ، وكان محتسب الفسطاط ، وقد توفى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م ويذكر ابن دقماق أن « زقاق مليح» عرف به فقيل: «زقاق صدقة» . وربما ذلك لأنه كان يجلس فيه ، أو لوقوع منزله فيه .

الفصل الثانى :

المجتمع المصرى والنظام الحربى

• الجيش :

- قوة الجيش ـ عدده ـ حامية الاسكندرية.
- الجيش فى الدولتين الطولونية والاخشيدية .
- ديوان الجند .
- نظام التجنيد .

• الأسطول :

- إنشاء العرب للأسطول .
- تصنيع العرب للسفن الحربية واعتمادهم على الاقباط .
- نظام تشغيل الاقباط على السفن .
- الأسطول فى الدولتين الطولونية والاخشيدية .

الفصل الثانى

المجتمع المصرى والنظام الحربى

حرص العرب بعد دخولهم مصر على وضع نظام حربى يضمن لهم استمرار حكمهم فيها ، فيحميهم ويحمى سياستهم من أى خطر داخلى أو خارجى . وقد اهتم العرب بالنظام الحربى فى مصر اهتماما كبيراً أكثر من أى ولاية أخرى ، نظرا لأهمية موقعها كقاعدة للفتوحات والتوسع ، ولأنها فى الوقت نفسه مهددة من جميع الجهات ، لذلك نسب إلى الرسول (ص) أحاديث بضرورة وجود جيش قوى فى مصر ، فقد روى عن عمر بن الخطاب عن النبى (ص) أنه قال : « اذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله » ؟ قال : « لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة » .

وقال أحمد بن صالح : « قال لى سفيان بن عيينة [1] : يا مصرى ، أين تسكن ؟ قلت : أسكن الفسطاط . قال : أتأتى الاسكندرية ؟ قلت : نعم ، قال

---

(١) وهو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ، أبو محمد . عده ابن سعد فى الطبقة الخامسة من أهل مكة . كان إماما عالما ثبتا حجة زاهدا ورعا . روى عنه الإمام الشافعى وغيره . ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م . وتوفى عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م .

لى : تلك كنانة الله يَحمل فيها خير سهامه . وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى : لما نعى إلى ابن عمى خالد بن يزيد ، وكان توفى بالاسكندرية ، لقينى موسى بن على بن رباح ، وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد ، متفرقين ، كلهم يقولون : أليس مات بالاسكندرية ؟ فأقول : بلى . فيقولون : هو حىّ عند الله يرزق ، ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك » .

وقد انقسم النظام الحربى فى مصر إلى قسمين

القسم الأول : الجيش   القسم الثانى : البحرية (الأسطول)

وبالنسبة للقسم الأول وهو الجيش ، فيجدر بنا أن نشير فى البداية إلى قوة الجيش العربى الذى صاحب عمرو بن العاص فى فتح مصر ، ورغبتهم فى الموت ، وعدم اكتراثهم بالحياة على اعتبار أن هذا الجهاد هو جهاد فى سبيل الله ، ويظهر ذلك بوضوح من الحوار الذى دار بين المقوقس وعبادة بن الصامت [1] المتحدث باسم العرب ، فقد قال عبادة للمقوقس :

« إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوّنا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من ذهب ، أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله، واقتصر على هذا الذى بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه، وجهاد عدوه. »

ثم يقول له : « وإنا منكم حينئذ لعلى احدى الحُسْنَيَيْن، إما أن تعظم

---

(١) وهو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد . كان من سادات الصحابة ، شهد بدرا وسائر المشاهد ، وشهد فتح مصر ، ولأهلها عنه عشرة أحاديث . مات بالرملة عام ٣٤ هـ/ ٦٥٤م .

لنابذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه (كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (١) وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وألاّ يرده إلى بلده ، ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه ، أهله ، وولده ، وإنما همنا ما أمامنا» .

وقد علم المقوقس من هذا الحوار خطورة الجيش العربى الذى يعتبر هذه الحرب حربا دينية ، ويظهر ذلك بوضوح من رد فعله عندما أتاه كتاب ملك الروم يطلب منه القتال ، فقد قال : « إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا ، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا ، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ، يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولاولده ، ويرون أن لهم أجرا عظيما فيمن قتلوه منا ، ويقولون إنهم إن قتلوا دخلوا الجنة ، وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء » .

وكان هذا الجيش العربى هو النواة التى تكون منها الجيش فى مصر تحت الحكم العربى .

وقد اختلفت الآراء فى عدد هذا الجيش ، فقدر بعضهم عدده بحوالى خمسة عشر ألفا وخمسمائة ، وقدر البعض الآخر هذا العدد بحوالى اثنى عشر ألفا وثلاثمائة ، وقدر البعض الثالث عدده بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثم مد بالزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفا .

ويقال أيضا إن عمرا عندما قدم من الشام كان فى عدة قليلة ، فكان يفرق أصحابه ، ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، وإن عمرا كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ، فأمده بأربعة آلاف رجل عليهم الزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود (٢) ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وقيل إن الرابع

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٤٩)

(٢) المقداد بن الأسود ، أبو معبد وكان قد تبناه الأسود بن عبد يغوث وهو صغير ، فعرف به ، واسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندى . شهد احدا وبدرا والمشاهد كلها ، وشهد فتح مصر ، ولهم عنه حديثان . مات بالمدينة عام ٣٣ هـ/ ٦٥٣م .

خارجة بن حُذافة دون مسلمة ، وقد قال عمر بن الخطاب إلى عمرو : اعلم أن معك اثنى عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة .

ويتضح من المصادر أن كل وال جديد تولى مصر كان يصاحبه عدد من الجنود ، فيذكر أبو المحاسن أن حميد بن قحطبة عندما تولى مصر من قبل أبى جعفر المنصور عام ١٤٣هـ/ ٧٦٠م دخلها ومعه عشرون ألفا من الجند . ويذكر أيضا أن موسى بن يحيى عندما تولى مصر من قبل هارون الرشيد عام ١٧٢هـ/٧٨٨م قدم إليها ومعه عشرة آلاف من الجند .

ويشير الماوردى فى كتابه (الأحكام السلطانية) إلى وجود قسمين من القوات العسكرية :

القسم الأول ويتمثل فى المسترزقة .

القسم الثانى ويتمثل فى المتطوعة .

وبالنسبة للقسم الأول وهم المسترزقة ، فهم الجنود النظاميون أصحاب الديوان من أهل الفىء والجهاد الذين يفرض لهم العطاء من بيت المال من الفىء بحسب الغنى والحاجة . وقد كانوا موقوفين للجهاد لا يشتغلون بغيره من تجارة أو زراعة أو غيرها ، وإن فعلوا تعرضوا للعقاب ، ويظهر ذلك بوضوح من نهى عمر بن الخطاب الجند عن الزرع ، فيقول ابن عبد الحكم : إن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد لابلاغ الرعية «أن عطاءهم قائم ، وأن رزق عيالهم سائل ، فلا يزرعون ولا يزارعون » .

ويشير ابن عبد الحكم إلى موقف عمر بن الخطاب عندما علم أن أحد جنود مصر قد قام بالزراعة ، فيقول : « إن شريك بن سمى الغطيفى (الغطفانى) أتى إلى عمرو بن العاص ، فقال : إنكم لا تعطونا ما يحسبنا(١)، أفتأذن لى بالزرع ؟ فقال له عمرو : ما أقدر على ذلك، فزرع شريك من غير إذن عمرو ، فلما بلغ ذلك عمْرا كتب الى عمر بن الخطاب يُخْبره أن شريك ابن سُمّى الغطيفى (الغطفانى) حرث بأرض مصر فكتب اليه عمر أن ابعث

---

(١) أى ما يكفينا .

إليّ به ، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكا ، فقال شريك لعمرو : قتلتني يا عمرو . فقال عمرو : ما أنا قتلتك ، أنت صنعت هذا بنفسك . قال له : إذا كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج إليه من غير كتاب ، ولك على عهد الله أن أجعل يدي في يده . فأذن له بالخروج ، فلما وقف على عمر قال: تؤمنني يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن أي الاجناد أنت ؟ قال : من جند مصر . قال : فلعلك شريك بن سمى الغطيفي (الغطفاني) . قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : لأجعلنك نكالا لمن خلفك . قال : أو تقبل مني ما قبل الله تعالى من العباد . قال : وتفعل ؟ قال : نعم . فكتب إلى عمرو بن العاص أن شريك بن سمى جاء ني تائبا ، فقبلت منه » .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن السبب الذي دفع عمر بن الخطاب إلى نهى الجند عن الاشتغال بالزراعة ، وعدم تقسيم الأراضي بينهم ، هو خوفه من أن يركنوا إلى الكسل ويسيطر عليهم حب المال ، خاصة وأن العرب قد بهرتهم ثروة البلاد التي فتحوها ، بل إن رغبتهم في الانتفاع بخيراتها العظيمة كانت من الأسباب التي شجعتهم على فتحها ، فطبيعة بلاد العرب الصحراوية لا تجعل العيش فيها سهلا ميسورا . ويذكر جرجي زيدان أنه ربما أراد بذلك أن لا يتوطنوا في بلد بعينها ، ثم تستدعي الحاجة تجنيدهم لنجدة بلاد أخرى . وبالطبع كان العرب - خاصة في بداية فتوحاتهم - في أمس الحاجة إلى حماية البلاد التي فتحوها ، حتى يحافظوا على سيطرتهم عليها ، ولم يكن ذلك ليتأتى إلا عن طريق جيش قوى محترف على أتم الاستعداد في أي لحظة للقيام بالدفاع عنها .

على أننا نلاحظ أن تركيب الجيش الاجتماعي كان يتغير وفقا للتطورات التي حدثت في الخلافة نفسها ، من حيث سيطرة العرب أو الفرس أو الترك، فعندما كانت هذه السيطرة في يد العرب ، كان الجنس العربي هو المكون للجيش ، وقد استمر ذلك حتى نهاية الدولة الأموية ، فلما سقطت هذه السيطرة في يد الفرس مع قيام الدولة العباسية ، لم يعد الجنس العربي وحده هو المكون للجيش . حتى اذا ما وصلنا إلى زمن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤١م) الذي استكثر من الترك ، وانتقلت السيطرة اليهم ، وجدنا المعتصم يأمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله (٢١٧ -

٢١٩هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٣٤م) ، باسقاط العرب من الديوان ، وقطع أعطياتهم ، وكان ذلك في عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م .

وهكذا ـ كما يقول المقريزى ـ انقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم .

وكان من نتيجة ذلك ، تحول العرب من طبقة عسكرية إلى طبقة مدنية ، تسعى وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التى كانت ـ حتى ذلك الوقت ـ وقفا على أهالى البلاد .

هذا بالنسبة للقسم النظامى من القوات العسكرية .

أما بالنسبة للقسم الثانى وهم المتطوعة ، فيذكر الماوردى أنهم الخارجون عن الديوان من البوادى والأعراب وسكان القرى والأمصار . ويظهر لنا من اسم «المتطوعة» ؛ أنهم كانوا يتطوعون للالتحاق بالجيش من تلقاء أنفسهم ، مدفوعين فى ذلك بعوامل دينية أو مادية، وكانوا أحراراً فى العودة الى ديارهم بعد إنتهاء أية حملة ، كما كانوا احراراً أيضاً فى العمل بزراعة الأرض أو الاشتغال بأية حرفة أخرى .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن هؤلاء المتطوعة ربما كانوا من أهل البلاد المصريين ، إلا أنهم لم يدخلوا فى صلب الجيش ، ولم يشتركوا اشتراكا فعليا فيه . ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش ، وفى أوقات الضرورة القصوى ، كما كان عملهم مقصورا على مصر وحدها . ولم يكن لهؤلاء المتطوعة عطاء ، ولم يثبتوا فى الديوان ، وانما كان عطاؤهم من الصدقات . فيذكر الكندى أن مواحيز [١] مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل [٢] التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة ، فاذا جاء شهر أبيب [٣] فرق القاضى أموال

---

(١) الماحوز : المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم ، وهو من استعمال أهل الشام ، والماحوز فى سوريا معناه الحدود .

(٢) أحباس السبيل : الأوقاف التى توقف فى سبيل الله

(٣) شهر أبيب وهو من الشهور القبطية يوازى ٨ يولية من الشهور الميلادية .

السبيل التى جمعت من الأحباس على المطوعة ، وعلى من كان فقيرا من أهل الديوان الذين يشغلون مواحيز مصر من العريش إلى لوبية (١) ومراقية (٢) .

وقد ذكرت فى فصل سابق أن المصريين فى العصر البيزنطى كانوا يجندون فى الجيش الإقليمى أى الجيش الخاص بكل إقليم ، ولم يكن هذا الجيش خاضعا لقيادة موحدة ، وإنما كان كل دوق يتولى قيادة الجند المرابطين بدوقيته . وذكرت أن هذا الجيش قد وصل إلى حد من الضعف لم يكن فى وسعه أن ينهض بأعباء الدفاع عن البلاد ، فقد أغفل التدريب والنظام العسكرى ، واشتغل كثير منهم بالأعمال المدنية إلى جانب مهنة الحرب . هذا عن وضع المصريين فى الجيش البيزنطى ، فماذا كان وضعهم فى الجيش العربى ؟ الواقع أن العرب لم يشركوا المصريين فى الجيش ، فلم يرد فى صلح بابليون أية اشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجندية ، ويرجع ذلك لسببين :

السبب الأول ، هو خوف العرب من أن يحيى المصريون روح القومية المصرية على حسابهم ، وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فرأوا من الحكمة أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية ، وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية .

والسبب الثانى ، أن العرب ربما كانوا يشكون فى كفاءة المصريين الحربية ، إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام، بينما كان العرب حينذاك شعبا يتقد حماسة وشجاعة .

حامية الاسكندرية :

اهتم الخلفاء العرب بعد فتح مصر بحماية الاسكندرية على اعتبار أن سقوطها يعنى سقوط مصر ، وبالتالى خروجهم منها . فيذكر ابن عبد الحكم

(١) لوبية : بالضم ثم السكون ، وباء موحدة ، وياء مثناة . مدينة بين الاسكندرية وبرقة .

(٢) مراقية . بالفتح ، والقاف المكسورة ، والياء مخففة . اذا قصد القاصد من الاسكندرية إلى افريقية ، فأول بلد يلقاه مراقية ثم لوبية . وهى اسم لحد مصر العربى بينها وبين برقة .

أن عمر بن الخطاب كان يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية ، وكان يكتب للولاة يحثهم على الاهتمام بحمايتها فيقول لهم : « لا تغفلها ، وتكشف رابطتها ، ولا تأمن الروم عليها » .

وكان عمرو بن العاص يضع بها ربع الجند ، يتغيرون كل ستة أشهر ، صائفة يقيمون ستة أشهر ، ويعقبهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضا . كما اهتم أيضا عثمان بن عفان بحماية الاسكندرية خاصة بعد استيلاء الروم عليها للمرة الثانية (٣٤هـ/ ٦٥٤م) [١] ، فأرسل إلى عبد الله بن سعد يقول له : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين فألزم الاسكندرية رابطتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب منهم فى كل ستة أشهر » .

ويذكر ابن عبد الحكم أن حامية الاسكندرية فى ولاية عتبة بن أبى سفيان (٤٣ ـ ٤٤هـ / ٦٦٣ـ ٦٦٤م) كانت اثنى عشر ألفا ، فكتب علقمة بن زيد [٢] إلى معاوية يشكو من قلة مامعه من الجند ، وقال له : « إنك خلفتنى بالاسكندرية ، وليس معى إلا اثنا عشر ألفا ، ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة» . فأمده معاوية بأربعة آلاف من أهل المدينة بقيادة عبد الله بن مطيع ، كما وضع بالرملة أربعة آلاف آخرين بقيادة معن بن يزيد السلمى ، يكونون تحت يده فى حالة وجود أى خطر .

ويذكر السيوطى أن معاوية قد أمده بعشرة آلاف من أهل الشام ، وبخمسة آلاف من أهل المدينة ، فكان فيها سبعة وعشرون ألفا .

ويبدو لنا من هذا العدد الضخم بالاسكندرية وحدها أن نسبة الربع التى وضعها عمرو بن العاص فى الاسكندرية قد زادت ، ويحتمل أن تكون

---

(١) المرة الأولى كانت فى عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وقد تم طرد الروم على يد عمرو بن العاص . أما المرة الثانية فكانت فى عام ٣٤هـ أو ٣٥هـ/ ٦٥٤م أو ٦٥٥م فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وقد عرفت بغزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها ، وقد تم هزيمة الروم فيها أيضا على يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٢) وهو علقمة بن يزيد المرادى ثم القطيفى ، شهد فتح مصر ، وولى الاسكندرية زمن معاوية .

هذه الزيادة قد طرأت بعد غزو الروم للاسكندرية فى المرة الثانية عام ٣٤هـ/ ٦٥٤م .

ويظهر لنا اهتمام العرب بجند الاسكندرية من اعتبار موت أحدهم أنه حى يرزق عند الله ، ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد. وغير ذلك من الأقوال .

وبعد هذا العرض الموجز للجيش العربى فى مصر ، نلاحظ أن هذا الجيش لم يلتزم بمهمته العسكرية الدفاعية ، وإنما كان يتدخل فى السياسة.

فتشير المصادر العربية إلى أن الجند كثيرا ما تدخلوا فى تولية وال وعزل آخر . ومن ذلك ما تذكره المصادر من أن السرى بن الحكم قد ولى مصر ولايته الأولى عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م بإجماع الجند وأهل مصر ، وأنه عندما استعفى قبض الجند عليه ، وإن كان ذلك بأمر الخليفة .

وعندما عزل السرى بن الحكم تولى بدلا منه سليمان بن غالب من قبل الخليفة المأمون عام ٢٠١هـ/ ٨١٦م، الا أن المصادر العربية تشير أيضا إلى الحروب التى وقعت بينه وبين الجند ، والتى أدت إلى عزله ، فيقول أبو المحاسن : « ثم وقع بين سليمان هذا وبين الجند أيضا وحشة ، فوثبوا عليه وقاتلوه ، ووقع له معهم وقائع وحروب كثيرة آلت إلى عزله عن إمرة مصر ، فصرفه المأمون عنها » .

ثم يذكر القلقشندى أن عبيد الله بن السرى قد تولى مصر عام ٢٠٦هـ/ ٨٢١م بمبايعة الجندله .

الجيش زمن الدولة الطولونية :

وقد كان جيش مصر زمن الدولة الطولونية يتكون من أجناس مختلفة من المماليك المعتقين ، والجنود المرتزقة ، ومن السودانيين ، وبعضهم من أصل رومى أو تركى .

وقد خدمت الظروف أحمد بن طولون فى تكوين هذا الجيش عندما طلب منه الخليفة التصدى لثورة ابن الشيخ والى الشام ، ثم أعفى من هذه المهمة وتولتها جيوش عراقية أرسلها الخليفة ، فكان هذا الجيش مكسبا كبيرا لمصر .

وفى عهد أحمد بن طولون وخمارويه كان هذا الجيش يسوده النظام والانضباط ، ولكن عندما ترك خمارويه الخزانة خالية بعد زواج ابنته ، لم يستطع ابنه « جيش بن خمارويه » أن يشترى طاعة الجند بالمال ، فانقلبوا عليه ، وأصبح هذا الجيش من أكبر أسباب الفوضى فى الدولة ، ولم يبق على الاخلاص التام لبنى طولون إلا الجند السودانيون الذين ذبحوا عن آخرهم بيد الجيوش العراقية لأنهم لم ينضموا إلى الجيش العباسى .

الجيش زمن الدولة الاخشيدية :

وقد تكون الجيش فى زمن الدولة الاخشيدية من ترك ، وسوادنيين ، ومغاربة ، ومماليك من أجناس مختلفة .

وكان هذا الجيش عدة الاخشيد فى دخول مصر والتمكين لنفسه فيها بالقضاء على المعارضين لامارته .

وكان هذا الجيش أعظم جيوش عصره ، ولكن عندما مات محمد بن طغج الأخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ، انقسم الجند إلى فريقين : فريق يؤيد كافورا ، وفريق يؤيد أبناء الاخشيد . وقد عمل كافور على الاعتماد على المال والعطايا فى السيطرة على الجيش . وعندما مات كافور (٣٥٧هـ/ ٩٦٧م) ، بدأ الجند فى الثورة ، وطلبوا من الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات من الأموال مالم يستطع دفعه ، فلما تبين لهم عجزه، نهبوا داره ، ودور نفر من أتباعه ، وكتب فريق منهم إلى الخليفة الفاطمى يزينون له فتح مصر . وكان ذلك من أسباب سقوط الدولة الاخشيدية .

ديوان الجند :

أول من دون الدواوين من العرب فى الاسلام هو عمر بن الخطاب ، فلم يفرض النبى (ص) ولا أبو بكر للجنود عطاء مقرراً، ولكنهم كانوا اذا غزوا، وغنموا، أخذوا نصيبًا من الغنائم قررته الشريعة لهم . واذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد، أحضر إلى مسجد الرسول (ص) وفرق عليهم على حسب ما يراه النبى (ص). وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر . فلما كانت سنة خمس عشرة للهجرة، وهى خلافة عمر بن الخطاب ، قدم عليه أبو هريرة من البحرين ومعه مال كثير قدر بخمسمائة ألف درهم، فصعد عمر المنبر وقال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه كيلاً، وإن شئتم أن نعد عداً .

فقام اليه رجل من الفرس فقال يا أمير المؤمنين، إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً ،جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه،ولايشذ منه شىء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق اليها خلل. فتنبه عمر وقال: صفه لى، فوصفه له. لذلك دون الدواوين.

وقد رأى عمر أن يجعل العطاء على حسب السبق الى الإسلام ، والى نصرة الرسول (ص) فى حروبه، ثم إستخدم الكتاب فى الدواوين ، وأمرهم بترتيب الطبقات وضبط العطاء. فقالوا : بمن نبدأ ياأمير المؤمنين ؟ فأشار ناس من الصحابة عليه بأن يبدأبنفسه، فكره عمر ذلك وقال: ابدأوا بالعباس عم الرسول (ص)، وببنى هاشم، ثم بمن بعدهم طبقة طبقة، وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله عز وجل .

وهكذا كان عمر بن الخطاب هو أول من جعل الجند فئة مخصوصة. ولم يكن هذا الديوان يومئذ يعرف بديوان الجند ، لكنه كان يسمى «الديوان » فقط، فكأنه ديوان المسلمين، على إعتبار أن المسلمين كانوا كلهم جنداً فى ذلك الحين .

وعلى كل حال ، فقد كان ديوان الجند الذى إستحدثه عمر بن الخطاب أكبر ساعد على تحسين نظام الجند وضبطه فى الإسلام.

وكان أول من دون ديوانا للجند فى مصر هو عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان (٦٥ـ ٨٦هـ/ ٦٨٤ ـ ٧٠٥م) تدوينا ثانيا ، ودون قرة بن شريك (٩٠ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٨ ـ ٧١٤م) التدوين الثالث عام ٩٥هـ/ ٧١٣م ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ ـ ١٠٢ هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢٠م) تدوينا رابعا ، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شىء يذكر ، إلا ما كان من إلحاق قبيلة قيس بالديوان فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٣ ـ ٧٤٢م) . وكان الجند يثبتون فى الديوان على حسب قبائلهم التى ينتمون إليها ، لذلك فإن الذى حمل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان للمرة الرابعة ما رآه من تفرق قبيلة قضاعة فى القبائل الأخرى ، فكتب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢٣م) يستأذنه فى استخراج من كان من القبائل منهم ، ويجعلهم فى قبيلة واحدة ، فأذن له بذلك .

وقد اهتم الخلفاء باحصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبى (ص) ، فقد جعل معاوية (٤٠ ـ ٦٠هـ/ ٦٦٠ـ ٦٧٩م) على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم ، فيدور على المجالس ويقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ؟ وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال : ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية ، فيكتب أسماء هم . ويقال : نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله ، فيسميه وعياله ، فإذا فرغ من القبائل كلها ، أتى الديوان حتى يثبت ذلك .

أما بالنسبة لترتيب الجند فى الديوان فيذكر الماوردى : أنه اذا أثبت الجند فى الديوان ، يكون ترتيبهم من وجهين :

الأول : ترتيب عام ، وهو ترتيب القبائل والأجناس حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها ، وكل جنس عمن خالفه . وإذا كانوا عربيا يكون ترتيب قبائلهم بالقرب من رسول الله (ص) ، كما فعل عمر بن الخطاب حين دونهم .

والثانى : ترتيب خاص ، وهو ترتيب الأشخاص، ويكون هذا الترتيب بالسابقة فى الإسلام فإن تكافئوا فى السابقة ترتبوا بالدين ، فإن تقاربوا ترتبوا بالسن ، فإن تقاربوا ترتبوا بالشجاعة ، فإن تقاربوا فيها فولى الأمر بالخيار بين أن يرتبهم بالقرعة أو يرتبهم عن رأيه وإجتهاده.

أما بالنسبة لتقدير قيمة العطاء، فيذكر الماوردى أن قيمة العطاء كان ينظر اليها من ثلاثة وجوه :

الأول : عدد من يعوله ،سواءكان من الذرارى [1] والمماليك.

الثانى : عدد ما عنده من الخيل و الظهر [2] .

الثالث . ظروف المكان من حيث الغلاء والرخص

فيقدر قيمة العطاء على هذا الأساس ، وتكون قيمة العطاء قابلة للزيادة أو النقص عند عرض حالته كل عام .

وقد إختلف الفقهاء فى قيمة العطاء للرجل إذا تقدر رزقه بالكفاية، هل يجوز أن يزادعليها ؟ فمنع الشافعى من زيادته على كفايته وإن إتسع المال . وجوز أبو حنيفة زيادته على الكفاية إذا اتسع المال لها .

كما يذكر الماوردى أنه إذا مات أحدهم أو قتل كان ما يستحق من عطائه موروثاً عنه على فرائض الله تعالى ، وهو دين لورثته في بيت المال . وقد إختلف الفقهاء فى توريث عطاء الجند ، فظهر رأيان : رأى يرى أنه قد سقطت نفقتهم من ديوان الجيش لذهاب مستحقه ، ويحالون على مال العشر والصدقة. ورأى ثان يرى أنه يستبقى من عطائه نفقات ورثته ترغيبا له فى المقام ، وبعثا له فى الاقدام . وترى الدكتورة سيدة كاشف أن توريث عطاء الجند كان لتشجيع العرب على الالتحاق بالجندية .

---

(١) ذرية الرجل جمع الذرارى والذريات . أى ولده ونسله

(٢) الظهر . أى الركاب التى تحمل الأثقال .

وعن قيمة العطاء فى مصر فى ولاية عمرو بن العاص ، يذكر أبو عبيد : أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص أن يفرض لمن بايع تحت الشجرة [1] فى مائتين فى العطاء (يعنى مائتى دينار فى السنة) . وأبلغ ذلك لنفسك بامارتك ، وافرض لخارجة بن حذافة فى الشرف لشجاعته ، ولعثمان ابن قيس السهمى لضيافته .

إلا أن المصادر العربية تشير إلى أن مقدار العطاء لم يكن ثابتا . فعندما سافر عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٤ ـ ٧٠٥م) إلى أخيه عبد الملك بن مروان فى عام ٦٧هـ/ ٦٨٦م، زاد عابس بن سعيد (صاحب الشرطة) فى أعطيات الناس من الجند ، وعندما عاد عبد العزيز بن مروان قال له : ما حملك على ذلك ؟ قال عابس : أردت أن أثبت وطأتك ووطأة أخيك ، فإن أردت أن تنقضه فانقضه . فقال عبد العزيز بن مروان : ماكنا لنرد عليك شيئا فعلته .

وفى ولاية أيوب بن شرحبيل (٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩م) ورد إليه كتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز بالزيادة فى أعطيات الناس عامة .

وعندما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة (١٠١ ـ ١٠٥ هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢٣م) أرسل إلى بشر بن صفوان والى مصر (١٠١ ـ ١٠٢هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢٠م) بمنع هذه الزيادة .

ويتضح من المصادر أن أرزاق المسلمين لم تكن نقدا فقط ، وإنما عينا أيضا . فيذكر الكندى أن أرزاق المسلمين كانت اثنى عشر اردبا فى كل سنة، فنقص اردبين ، فصار كل رجل إلى عشرة ، فلما ولى حفص بن الوليد ولايته الثانية (١٢٤ ـ ١٢٧ هـ/ ٧٤١ ـ ٧٤٤م) ، صيرهم إلى اثنى عشر .

---

(١) كان ذلك عام الحديبية ٦ هـ / ٦٢٧م وذلك ان النبى (ص) بعث عثمان إلى أبى سفيان واشراف قريش يخبرهم انه لم يات لحرب ، وانما جاء زائرا لهذا البيت ، معظما لحرمته . فحبسته قريش عندها، وبلغ رسول الله (ص) والمسلمون أن عثمان قد قتل . فقال رسول الله (ص) . لانبرح حتى نناجز القوم (نبارز ونقاتل) ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وقد بايعوه على ألا يفروا ، وقيل على الموت . وقد نزل فيهم قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) سورة الفتح / ١٨ .

على كل حال ، يجدر بنا الإشارة إلى رأى « حسينى» عن أسباب ارتفاع أو انخفاض المرتبات طوال العهود الإسلامية (الخلفاء الراشدون - الأمويون - العباسيون) ، فهو يرى أن الجيش الإسلامى طوال الفترة التى كان يتألف فيها من العرب فقط ، كان من الصعب على الخليفة خفض الرواتب خشية قيام عصيان من السهل حدوثه فى جيش موحد . فقد كان العرب إلى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ينظرون إلى عطاءاتهم على أنها نفقات للمعيشة أكثر منها رواتب تلزم صاحبها بأداء الخدمة ، وبالاضافة إلى ذلك فإن عدد الجند العربى الصالح للخدمة فى الميدان صار محدودا ، لأن كثيراً منهم صار أقدر على أن يكسب عيشه عن طريق غير احتراف الجندية ، لذلك اضطرت الدولة فى عهد الأمويين إلى دفع رواتب باهظة لهم .

أما فى العصر العباسى فقد فَقَدَ العرب سيادتهم الحربية ، كما فقدوا نفوذهم على الخليفة ، فصار العرب والفرس والأتراك والبربر والزنج يجندون فى الجيش دون فارق فى الجنس أو اللون. وهكذا كان أمام العباسيين ميدان أوسع للتجنيد ، واستطاعوا الحصول على الجند فى أعداد كبيرة جدا ، لأنهم لم يهتموا بالجنسية عند الاختيار . ومن قوانين الاقتصاد الطبيعية أن زيادة العرض عن الطلب يؤدى إلى انخفاض قِيمة السلع، وقد حدث مثل هذا فى الدولة فإن وجود عدد كثير جدا من الجنود جعل الدولة تنقص الرواتب ، وكلما اتسع مجال التجنيد كلما انخفضت رواتب الجند .

وفضلا عن ذلك ، فان الجندية فى العهد العباسى لم تعد تشتمل على كثير من المخاطرة بالحياة ، كما كان الحال فى العهود الأولى ، ذلك أن الاسلام قد استقر فى مساحات شاسعة جدا ، ولم تعد الفتوحات والتوسعات متلاحقة ، وإنما حدثت على فترات متقطعة ، ولذا فإن الدولة لم تدفع رواتب عالية إلا للجند فى الأقاليم التى تتعرض فيها حياتهم للخطر بسبب الحرب أو الثورة .

كما كان هناك سبب آخر لإنخفاض رواتب الجند، وهو الإزدياد الهائل في عدد الجيش ، فكانت الجيوش تقدر بمئات الألوف فى العهد العباسى الأول ، الأمر الذى دفع العباسيين الى خفض عطاء الجند. هذا فيما يتعلق بأسباب إنخفاض أو إرتفاع مراتب الجند طوال العهود الإسلامية كما ذكرها حسينى.

أما بالنسبة لوقت صرف الرواتب (العطاء) للجند، فيذكر الماوردى : أن وقت العطاء كان معلوماً يتوقعه الجيش عند الاستحقاق ، وهو معتبر بالوقت الذى تستوفى فيه حقوق بيت المال، فإن كانت تستوفى فى وقت واحد من السنة جُعل العطاء فى رأس كل سنة، وإن كانت تستوفى فى وقتين جُعل العطاء فى كل سنة مرتين ، وإن كانت تستوفى فى كل شهر جُعل العطاء فى رأس كل شهر ليكون المال مصروفاً اليهم عند حصوله ، فلا يحبس عنهم اذا إجتمع ولا يطالبون به إذا تأخر . واذا تأخر عنهم العطاء عند إستحقاقه ، وكان حاصلاً فى بيت المال ، كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة، وإن أعوز بيت المال لعوارض أبطلت حقوقه أو أخرتها ، كانت أرزاقهم ديناً على بيت المال .

ويذكر الكندى أنه فى خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ/٧٤٤ـ٧٤٩م) آخر خلفاء بنى أمية ، قطع العطاء عن أهل مصر سنة ، ثم كتب إليهم كتابا يعتذر إليهم فيه ويقول : « إنى إنما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى ، فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة ، فكلوا هنيئا مرئيا ، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه » .

ويظهر من المصادر العربية أن قطع فروض الجند كانت تؤدى إلى قيام الثورات ، خصوصا ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ـ فى أواخر الدولة الأموية وفى خلال الدولة العباسية ، عندما أصبح العرب يملكون أراض زراعية ، اذ أصبحوا يؤدون خراجا ، وفى الوقت نفسه يأخذون عطاء . وانقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء المالية على العرب.

ففى ولاية حسان بن عتاهية (١٢٧ هـ / ٧٤٤م) من قبل مروان بن محمد ، أسقط الفروض التى كان حفص بن الوليد قد قررها فى ولايته ، كما قطع فروض الجند كلها ، فثاروا عليه وقاتلوه ، وحاصروا داره ، وطلبوا منه الخروج من مصر . ومن الواضح أن الجند كانوا قوة لا يستهان بها حتى إنهم دعوا إلى خلع مروان بن محمد من الخلافة أيضا ، وأخرجوا حفصا من سجنه وولّوه عليهم .

وفى ولاية محمد بن زهير الأزدى عام (١٧٣هـ / ٧٨٩م) من قبل الرشيد ، ثار الجند الذين يقال لهم « القديدية» [١] بصاحب الخراج عمر بن غيلان ، بسبب أعطياتهم ، ويذكر الكندى : « أنهم صلبوه ، ودخنوا عليه حتى دفع إليهم أعطياتهم » .

ويبدو أن « القديدية» كانوا يشكلون خطورة كبيرة مما دفع داود بن يزيد المهلبى عندما تولى مصر عام (١٧٤ هـ/ ٧٩٠م) إلى إخراجهم من الفسطاط إلى بلاد المغرب وبلاد المشرق .

وفى ولاية الحسن بن تختاخ عام (١٩٣ ـ ١٩٤ هـ/ ٨٠٨ ـ ٨٠٩م) من قبل الرشيد ، ثار الجند عليه عندما أعطاهم العطاء ثلثا عينا [٢] ، وثلثا بزا[٣]، وثلثا قمحا ، ووقع فتنة عظيمة حتى قتل ناس من الجند وناس من اهل مصر فى المسجد الجامع .

وفى ولاية كيدر نصر بن عبد الله من قبل المعتصم عام (٢١٧ ـ ٢١٩ هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٣٤م) ، وبعدما ورد كتاب المعتصم إليه باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم ، خرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وعندما مات كيدر ٢١٩هـ/ ٨٣٤م وولى ابنه المظفر مصر من بعده ، سار إلى يحيى وقاتله وأخذه أسيرا .

وفى ولاية أحمد كيغلغ الثانية (٣٢١ ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٣٣م) من قبل القاهر بالله ، استخلف على مصر أبا الفتح محمد بن عيسى النوشرى . وقد

---

(١) القديدية: تباع العساكر من الصناع كالحداد والبيطار والحلاق وأمثالهم .

(٢) العين جمع أعين وعيون وعيون وأعيان   الذهب المضروب والدينار خلاف الفضة المضروبة .

(٣) البز : جمع بزوز   السلاح ـ أو الثياب من الكتان أو القطن .

ثار الجند عليه فى طلب أرزاقهم ، وطلبوا من محمد بن على الماذرائى صاحب خراج مصر أرزاقهم ، فاستتر الماذرائى منهم ، فأحرقوا داره ودور أهله ، ووقعت فتنة عظيمة وحروب تتل فيها جماعة كثيرة من المصريين .

وفى ولاية محمد بن تكين عـ م (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) ثار الجند على أبى بكر محمد بن على الماذرائى فى طلب أرزاقهم ، وأحرقوا داره ودار أهله .

نظام التجنيد

بالنسبة لنظام التجنيد فى الإسلام ، ترى الدكتورة سيدة الكاشف أن حالة التجنيد ، من تطوع أو إلزام ، كانت تتغير من حين وآخر بتغير الأمراء ، واختلاف ظروف القتال ، وقوة الخلافة نفسها ، ونوع العناصر التى تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الإسلامية .

أما جرجى زيدان فيرى أن التجنيد الإلزامى بدأ فى أواسط العصر الأموى ، أما قبل ذلك فقد كان الناس يذهبون إلى الحرب جهادا فى سبيل الله ، فيصيبون الغنائم والفىء . فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان عام ٣٥هـ/ ٦٥٥ م اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة ، وانقسم المسلمون إلى طوائف متصارعة ، وكل طائفة تحارب معتقدة أنها التى تدافع عن الحق ، فلما أفضى الأمر إلى بنى أمية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضعفت قوة الأحزاب بتغلب العنصر الأموى ، لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعا ، فجعلوا يتقاعدون ، فاضطر الخلفاء إلى التجنيد بالإلزام .

ويرى جرجى زيدان أن أول من أدخل التجنيد الاجبارى هو الحجاج بن يوسف ، على عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ ٧٠٥م) . وسبب ذلك أن الدولة الأموية كانت قد بلغت ذروة مجدها وكثر المسلمون ، ومالوا إلى العمل فى الأرض ، وأطلق لهم السراح ، وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب فى أيام معاوية (٤٠ ـ ٦٠ هـ/ ٦٦٠ ـ ٦٧٩م) ، فغلبهم بدهائه

وعطائه ، فلما تولى ابنه يزيد (٦٠ ـ ٦٤ هـ/ ٦٧٩ ـ ٦٨٣م) ، ثم معاوية الثانى (٦٤ هـ/ ٦٨٣م) ، ثم مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥ هـ/ ٦٨٣ ـ ٦٨٤م) ـ ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الأعناق ـ تجرأ الجند على التقاعد، فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ما تقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين عسكره لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله . يقال له الحجاج بن يوسف » . فأطاعه عبد الملك بن مروان وقلد الحجاج أمر العسكر ، فكان هذا بداية التجنيد الاجبارى ، ثم أصبح نظاما ثابتا .

الا أن الدكتورة سعاد ماهر تختلف مع رأى جرجى زيدان هذا، فهى ترى أن التجنيد الالزامى بدأ بتأسيس عمر للديوان، فقد أفرد للجند دفاتر خاصة تسمى ديوان الجند، يدون فيها اسم الجند مع نسبه وقبيلته وبيان قده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره لئلا تتفق الأسماء وليسهل استدعاؤه، وتقول: إنه مما يؤيد أن التجنيد كان إلزاميا فى عهد عمر ما رواه ابن الأثير عن الشعبى قوله: «كان الرجل اذا أخل بواجبه الذى يكتب له زمن عمر وعثمان وعلى، نزعت عمامته، ويقام فى الناس، ويشهر أمره » .

(الأسطول)

هذا فيما يتعلق بالقسم الأول من النظام الحربى وهو الجيش، أما فيما يتعلق بالقسم الثانى وهو الأسطول.

فنلاحظ أن فتوحات العرب للبلاد التى تقع على البحر (أى الساحلية)، قد ألزمتهم بانشاء أسطول عربى، لأن الجيش وحده لا يستطيع أن يدافع عن دولة معرضة للغزو البحرى، لذلك أنشأ العرب الأسطول لحمايتهم من غزو بحرى، كما أنشأوا الجيش من قبل لحمايتهم من غزو برى.

ولكن كيف بدأ العرب فى انشاء الأسطول؟

فى البداية يجب أن نشير الى أن العرب لم يكونوا شعبا بحريا، ونقصد بالعرب هنا عرب الجزيرة العربية من البدو الذين جعلوا الرعى حرفتهم الأولى، وذلك لأن عرب اليمن كانوا يعملون بالتجارة البحرية، ويمتلكون الأساطيل الضخمة خاصة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى.

وفى ذلك يقول ابن خلدون: إن العرب، لبداوتهم، لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافة البحر وركوبه. والروم والافرنجة، لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده، مرنوا عليه، وأحكموا الدراية بثقافته.

ويلاحظ أنه لم تقدم طوال حياة الرسول (ص) أو فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب أية معارك بحرية. وكان ابن الخطاب يكره ركوب البحر. ولذلك عندما غزا العلاء بن الحضرمى [1] أمير البحرين - فارس [2] عن طريق البحر بغير إذن الخليفة، غضب عمر على العلاء، وعزله وجعل مكانه سعد بن أبى وقاص [3] ، فقد فقَد المسلمون سفنهم فى غزوهم لفارس، وإن عادوا الى البصرة محملين بالغنائم .

ولما فتح العرب بلاد الشام ، وشاهدوا سفن الروم ، ألح معاوية بن أبى سفيان على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر ، معللا ذلك بقرب الروم من حمص ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص والى مصر يطلب إليه وصف

---

(١) كان امير البحرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقره عليها ابو بكر ثم عمر توفى عام ١٤هـ/ ٦٣٥ م وقيل عام ٢١ هـ/ ٦٤١م . عزله عمر عن البحرين وولى مكانه ابو هريرة ، وأمره عمر على الكوفة فمات قبل أن يصل إليها .

(٢) فارس : ولاية واسعة ، واقليم فسيح ، اول حدودها من جهة العراق ارجان ، ومن جهة كرمان السيرجان ، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ، ومن جهة السند مكران . وفارس خمس كور: اصطخر ، وسابور ، وارد شير خرة ، ودار ابجرد ، وارجان

(٣) سعد بن أبى وقاص واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشى ، ابو اسحاق . أحد العشرة المبشرين بالجنة . شهد بدرا ، وهو الذي افتتح القادسية ، ونزل الكوفة وخطها خططا لقبائل العرب ، وابتنى بها دارا ، ووليها لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ثم عزل عنها . توفى عام ٥٥هـ/ ٦٧٤م ودفن بالبقيع

البحر ، فكتب عمرو إليه : « إن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، دود على عود » . فمنع عمر بن الخطاب المسلمين من ركوب البحر .

ويقال أيضا إن عمرو بن العاص كتب إليه يقول :

« يا أمير المؤمنين ! إنى رأيت البحر خلقا كبيرا ، يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . لذلك منع عمر بن الخطاب المسلمين من ركوب البحر ، وكتب إلى معاوية يقول :

« لا ، والذى بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا » .

غير أن العرب مالبثوا أن غيروا سياستهم هذه ، فيقول ابن خلدون : «فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا [١] لهم تحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية [٢] فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا [٣] إلى الجهاد فيه ، وأنشئوا السفن فيه والشوانى [٤] ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها[٥] العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم[٦] ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل : الشام، وأفريقية ، والمغرب ، والأندلس » .

وهكذا رأى العرب ضرورة انشاء أسطول بحرى يستطيع أن يحميهم من أى غزو بحرى ، خاصة وأن أعداء العرب (مثل الروم) كانوا دولا بحرية،

(١) الخول جمع خولى . العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، وهو يستعمل بلفظ واحد للجميع ، وربما قيل للواحد خائل . وهذا مأخوذ من التخويل أى التمليك ، وقيل من الرعاية .

(٢) نوتى جمع نواتى . الملاح فى البحر خاصة . وقيل معرب من اليونانية .

(٣) شره . اشتد ميله إليه .

(٤) الشونة جمع شوان . المركب المعد للجهاد فى البحر .

(٥) أمطوها من أمطى . اركبوهم اياها

(٦) الثغر جمع ثغور . المكان الذى يخاف منه هجوم العدو .

لذلك وافق عثمان بن عفان على القتال فى البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعا لا يحمل عليه أحد .

وقد اعتمد العرب فى البداية اعتمادا كليا على شعوب البلاد التى فتحوها ، والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم ، وبالطبع كانت مصر من ضمن هذه البلاد ، ومعنى ذلك استخدام الأقباط فى الأسطول . على أنه من الواضح أن العرب استخدموا الأقباط كملاحين وعمال وليسوا كمقاتلين ، فلا يعقل أن يكون العرب قد كونوا جيشهم البحرى من الأقباط ، وتركوا لهم مهمة الدفاع عنهم ، وهذا ما يقوله الدكتور على حسنى الخربوطلى الذى يذكر أن العرب استخدموا الأقباط كملاحين ، أما المحاربون الذين حملتهم السفن فكان معظمهم من العرب المسلمين .

على أن استخدام الأقباط لم يقتصر على العمل كملاحين فقط ، لأن الدولة العربية لم تلبث ان اكتشفت ضرورة صنع السفن العربية. وكان عليها الاستعانة بخبرة الأقباط فى هذا المجال ، فقد كانت مصر مشهورة بمهرة صناع السفن وكثرة دور الصناعة التى صنعت الأعداد الوفيرة من سفن الروم وأساطيلهم ، ومعنى ذلك استمرار العرب على سياسة الدولة البيزنطية فى بناء السفن على أيدى نفس العمال الأقباط المتخصصين فى بناء السفن .

وقد سمى العرب مجموع السفن أسطولا ، وهو تعريب لفظ يونانى الأصل (Stolos) .

وقد كانت صناعة السفن فى مصر من أهم الصناعات فى فجر الإسلام، كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - حيث كانت الخلافة تعتمد عليهم فى انشاء أسطولها الحربى ، وقد تركزت صناعة السفن فى البداية فى مصر فقط حتى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ/ ٦٦٠ - ٦٧٩ م) .

وكان يطلق على مكان صناعة السفن اسم « الصناعة » ، فقط دون أن تقترن باسم السفن ، وفي ذلك تقول الدكتورة سعاد ماهر : إن اطلاق لفظ «الصناعة » دون تخصيص على صناعة السفن يدل على مبلغ اهتمام الدولة الإسلامية بالقوى البحرية ، ولذا فقد أصبحت الصناعة لديها تعنى فى المقام الأول صناعة السفن والأساطيل .

ويذكر المقريزى أن « الصناعة» كانت بجزيرة الروضة ، وأنها أسست فى عام ٥٤ هـ/ ٦٧٣م ، غير أن الدكتورة سيدة كاشف ترى أن الصناعة أنشئت فى مصر قبل هذا التاريخ، فالمسلمون بدأوا يُعْنَون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ /٦٤٣ ـ ٦٥٥م)، فقد كانت غزوة عبد الله بن سعد البحرية التي عرفت باسم «ذات الصوارى» فى عام ٣٤هـ / ٦٥٤م. وسرعان ما انتقلت صناعة السفن من مصر الي جهات مختلفة من أنحاء الدولة العربية مع تطور الصراع ضد الدول البيزنطية، وفى ذلك يقول البلاذري : إنه فى عام ٤٩هـ / ٦٦٩م هاجم الروم السواحل الاسلامية، وكانت «الصناعة» بمصر فقط، فأمر معاوية بن أبي سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا.

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ ـ ٨٦هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٥م) بعث إلى حسان بن نعمان عاملة علي افريقية يأمره باتخاذ «صناعة» بتونس لانشاء الآلات البحرية ، وقد كتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لانشاء دار صناعة فيها، أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا الى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب.

وكان الأسطول المصرى أكثر أهمية وأضخم عدداً من أسطول الشام، وأسطول افريقية، كما كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع، وغالبا ما اشترك الأسطولان المصرى والسورى فى عمليات واحدة، على حين استقل اسطول شمال افريقية بعملياته عنهما.

وقد كان في مصر ثلاث وحدات للأسطول : أسطول بالاسكندرية، وأسطول النيل مقره بابليون، وأسطول خاص لحراسة مداخل النيل من نزول الرومان على السواحل. وكانت دور صناعة السفن الرئيسية فى مصر توجد في بابليون والقلزم.

ولما كانت مصر تطل على البحرين الأبيض والأحمر، وكانت طبيعة البحر الأحمر تختلف عن طبيعة البحر الأبيض المتوسط، بما يحتويه من صخور وما به من تيارات بحرية، وما يهب عليه من رياح وأعاصير، فقد تطلب هذا الإختلاف، تغيرا فى بناء السفن التى تسير فيه ، والتى تبحر في المحيط الهندى، الذى يشبه فى طبيعته وخواصه البحر الأحمر الى حد كبير.

ولأهمية توفير الخشب لصنع السفن، فقد جعلت الدولة غابات الأشجار التى تصنع منها الأخشاب الخاصة بالأسطول ملكا لها، ويقول المقريزى: «إنه كان في البهنساوية وسفط ريشين [1] والأشمونيين [2] والأسيوطية والاخميمية والقوصية أشجار لا تحصى من سفط، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول، فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه. وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار». ويقول أيضا : «وكانت العادة أنه لايباع مما فى البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية.»

وتقول الدكتورة سيدة كاشف عن نظام استيلاء الدولة على هذه الأشجار : «لانعرف متى نشأ هذا النظام، ومتى ألغى، فان من المحتمل أن هذا الاهتمام بالاخشاب يرجع الى عهد الولاة ولاسيما فى نهايته.»

ومن أغلى أنواع الخشب الذى كانت تصنع منه السفن المصرية شجر اللبخ الذى لا ينبت الا بأنصنا، وهى مدينة من نواحي الصعيد على شرقي

---

(١) ذكرها محمد رمزى فى قاموسه باسم صفط راشين، وهى من القرى القديمة، اسمها الأصلى سفط رشين، وهى بمركز ببا - مديرية بني سويف.

(٢) اشمون بضم أوله، وأهل مصر يقولون الأشمونيين، وهي مدينة قديمة أزلية، غربى النيل بصعيد مصر، وهى قصبة كورة الاشمونيين وقد دثرت مدينة الأشمونين القديمة، ومكانها لا يزال ظاهرا فى التل الواقع بجوار سكن بلدة الاشمونيين الحالية. وفى عام ١٨٢٦م صدر أمر من الوالى بتسمية ولاية الأشمونيين باسم مأمورية اسيوط، وجعلت مدينة اسيوط قاعدة لهذه المأمورية، وبذلك حذف اسم الاشمونيين، من الأقسام الادارية بمصر، وأصبحت الاشمونيين، قرية من قرى مركز ملوى، مديرية اسيوط.

النيل، وقد أورد ياقوت أن شجر اللبخ لا ينبت الا بأنصنا، وهو عود تنشر منه الألواح للسفن، وربما أرعف ناشرها، ويباع اللوح منها بخمسين دينارا ونحوها. ثم يقول : وقد رأيت أنا اللبخ بمصر، وهو شجر له ثمر يشبه البلح فى لونه وشكله، ويقرب طعمه من طعمه، وهو كثير ينبت فى جميع نواحى مصر.

ولم يقتصر الخشب الذى تصنع منه السفن والأساطيل المصرية على ما تنتجه البلاد فحسب - كما تقول الدكتورة سعاد ماهر - بل كان يستورد من بلاد الشام خشب الأرز، كما كان يستورد من بلاد الأناضول كذلك. فقد ذكر ابن بطوطة عند كلامه على مدينة (العلايا) الواقعة على ساحل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) فى الأناضول، أنها كثيرة الخشب، ومنها يحمل الى الاسكندرية ودمياط، ويحمل منها الى سائر بلاد مصر.

وفضلا عن ذلك فان مصر كانت تنبت نوعا من الكتان تصلح أليافه لعمل الحبال وأدوات السفن، فقد ذكر ابن الفقيه أن «من عجائب مصر حشيشة يقال لها الدقس، يتخذ منها حبال للسفن تسمى تلك الحبال القرقس. يؤخذ من القرقس قطعة فيشعل بين أيديهم كالشمع، ثم يطفى، فيمكث سائر الليل، فاذا احتاجوا اليه أخذوا طرفه فأداروه كالمخراق فيشتعل.»

وتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو، والتى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك - أظهرت أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة وفى القلزم وفى الاسكندرية. أما عن نظام تجنيد الأقباط فى الأسطول، فقد أشارت بعض الأوراق البردية إلى أن الوالى قرة بن شريك كان يطلب من صاحب كورة أشقوة إرسال عمال وصناع وملاحين للعمل فى دور الصناعة وإعداد الأسطول الحربى ، وكان الوالى يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال .

ويذكر ساويرس أن عمل الأقباط فى البحرية كان يتم عن طريق التجنيد الإجبارى . ففى ولاية عنبسة بن اسحق (٢٣٨ - ٢٤٢هـ/ ٨٥٢ - ٨٥٦ م) كان يحصى الرجال الأقباط فى كل ضيعة ، ويختار منهم من يسافر بالأسطول . وكانت عملية التجنيد - فيما يبدو - تتم فى كل عام . ويشير ساويرس إلى سوء حالة هؤلاء الأقباط المختارين ، وأنهم لم يكن لديهم أدنى

خبرة فى القتال البحرى ، لذلك كانوا يفضلون أن يدفعوا لمن يرضى أن يسافر بدلا منهم . كما أشار أيضا إلى أن راتبهم قدر بدينارين فى الوقت الذى كان يدفع فيه للمسلم خمسة عشر دينارا ، فيقول فى كتابه :

« وينفق فى الأسطول فى كل سنة مال كثير ، فأما النصارى فانهم يسيروهم فى المراكب ، ولا يدفعوا لهم ما ينفقوه فى طريقهم ولا درهم واحد ، ولا زاد الطريق ، بل كانوا يجروا عليه جراية من الطعام فقط ، وكانوا يلزموهم بالمسير بهذا ، وكان المتولى ، من كثرة بغضه للنصارى ، يفعل هذا ، ويحصى البلاد كلها ، ويجعل على كل ضيعة عدة من الرجال يسافروا فى الأسطول ، وكان أيضا لا يدفع لهم سلاح ، ويتفقد أحوالهم فمن وجده بغير سلاح أو فى سلاحه نقص يسىء إليه ، ويغرمه خسارة ، ويأخذه بابتياع عدة يقاتل بها . حتى إنهم كانوا يأخذوا أقوام ضعفاء لا قدرة لهم على المسير ، وليس يعرفون صنعة البحر ولا القتال ، فيدفعوا ما يملكوه لمن يسافر عنهم ، ولما شكوا ما ينالهم من الكلف ، وانهم متى وجدوا سبيلا إلى المضى من هذه الأعمال إلى غيرها مضوا إليها ، فأمر أن يطلق لكل واحد من النصارى ديناران ، ويزيد عليها ما يقيم به بديلا عن نفسه من المسلمين بخمسة عشر دينار » .

غير أن هذا الوضع - كما يبدو لنا - مالبث أن تغير عندما هاجم الروم دمياط سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م فى خلافة المتوكل ، وكان والى مصر فى ذلك الوقت عنبسة بن اسحاق ، فيقول المقريزى :

« عندما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق ، فملكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال ، ومضوا إلى تنيس فأقاموا بأشتومها(١) ، فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهم ما يعمل

---

(١) اشتام فى الشىء أو الأمر . دخل فيه

بمصر، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، هذا والناس اذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه . لاجرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانه ، ولكل أحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول ما قد شحنت به كتب التواريخ، فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا، ينال المسلمون من العدو،وينال العدو منهم، وياسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو، فإنها كانت تسير من مصر و من الشام ومن افريقية.»

ويظهر من هذا النص الحقائق الآتية :

أولا : أن المسلمين لم يهتموا فقط بصناعة السفن، وانما أدركوا أهمية خلق كوادر بحرية مدربة تدريبا جيدا. لذلك انكب الناس على تعليم أولادهم جميع أنواع فنون القتال البحرى، بعدما كان الاختيار- على ما يبدو - يتم بطريقة عشوائية، لذلك يقول المقريزى : « و كان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم و لا جاهل بأمور الحرب ».

كما بدأوا فى اختيار القواد المؤهلين لهذا النوع من القتال عن طريق الانتخاب، وبالتالى اختيار الأفضل.

ثانيا : يظهر أيضا من عبارة المقريزى التى أوردها من أنه « قد حصلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر » ، أنه أصبح لمصر فى العصر العباسى فى القرن الثالث الهجرى جيش بحرى ثابت، له رواتب مثل الجيش البرى.

ثالثا : يظهر أيضا من النص تغير نظرة المجتمع العربى لوظيفة البحارة،

فأصبح لهذه الوظيفة مكانة كبيرة، أو كما يقول المقريزى «حرمة» ، وبدأ الناس يتمنون ويسعون للاشتغال بها، فقد أصبحت الخدمة فى الاسطول شرفا عظيما يتمناه كل امرىء فى مصر.

رابعا : وأخيرا يظهر من النص تغير سياسة العرب البحرية من سياسة دفاعية تستهدف تأمين الفتوحات العربية الى سياسة هجومية ساعدهم عليها وجود أسطول ضخم فى كل من مصر والشام وافريقية.

الأسطول فى الدولتين الطولونية والاخشيدية :

ذكرت سابقا أن قوة الجيش و الأسطول فى مصر ظهرت مع وجود دولتين تريدان الاستقلال عن الخلافة، وهما الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية، وقد تناولت بالدراسة الجيش فى كل منهما، ورأينا كيف أن قوة الجيش كان عاملا هاما فى المحافظة على استقلالهما عن الخلافة، وأن حدوث اضطرابات فى جيش كل منهما كان عاملا هاما أيضا فى سقوطهما بعد ذلك .

وسنتناول فى الصفحات القادمة اهتمام كل من الدولتين بالأسطول أيضا، باعتباره مكملا للجيش، وهاما وجوده فى دولة كمصر تقع مباشرة على البحر، وبالتالى معرضة للغزو البحرى .

الأسطول فى الدولة الطولونية :

اهتم أحمد بن طولون بالأسطول اهتماما كبيرا، وزاد اهتمامه به بعد توسعه فى بلاد الشام واضطراره إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى، ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين سواحل مصر والشام.

وترى الدكتورة سيدة كاشف « أن المحافظة على البحرية المصرية، أو انشاء أسطول مصرى فى زمن أحمد بن طولون، كان استمرارا لتاريخ مصر الحربى المجيد، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم فى مصر حينذاك.»

وقد بنى أحمد بن طولون أسطولا ضخما يتكون ـ كما يقول البلوى ـ من «مائة مركب عربية كبارا، ومائة مركب حربية، سوى ما يضاف اليها من العلابيات [١] ، والحمائم [٢] ، والعشاريات [٣] والسناديل [٤] وقوارب الخدمة» [٥] .

وقد اهتم أحمد بن طولون بصناعة الأسطول فى مصر اهتماما كبيرا، فنجده يطلب من عامله الاهتمام بجودة صناعة السفن والانفاق عليها ، فيقول أبو كامل شجاع بن أسلم الحاجب [٦] : «لما أطلقنى أحمد بن طولون، ألزمنى دار «الصناعة »، فدعانى يوما فقال لى: كل ما تعمل لى من العدة يكتفى فيه بالقليل مع تقدم هيبتى فى صدور الناس، إلا المراكب فان البحر لا يهابنى، ولايخاف سورتى، وليس يعمل فى البحر إلا الوثاقة ، والجودة فى الصناعة، وتقديم الاحسان . فقدم الحزم فى الاحتياط والاستزادة فى الانفاق على المراكب ، لَتسلْمَ بعون الله عز وجل وتوفيقه من معرة البحر » .

---

(١) العلابيات : نوع من السفن كانت تصنع خصيصا للحرب، فهى من سفن الأسطول ومفردها العلابى.

(٢) الحمائم: نوع من السفن الشراعية ذات مجاديف متعددة .

(٣) العشاريات : نوع من السفن ، يستعمل فى البحر الأبيض المتوسط وفى البحر الأحمر ، ويجر بعشرين مجدافا ، وكان بعضها يستخدم فى وقت السلم لنقل البضائع والرجال . وكان النوع الذى يستخدم فى الحرب ، يعتبر من أهم قطع الأسطول الحربى .

(٤) السنابيل أو الصنادل جمع صندل ، وهى القوارب المستخدمة للشحن ، وكانت من القطع الحربية الصغيرة الملحقة بالأسطول .

(٥) قوارب الخدمة : هى تلك السفن الصغيرة التى تعتبر توابع للاسطول ، وقد استخدمت منذ أقدم العصور ، وجاء ذكرها فى كتاب عمرو بن العاص الذى وصف فيه مصر للخليفة عمر بن الخطاب ، كما جاء ذكرها فى قوانين الدواوين ، حيث كان عمال الديوان يتنقلون بها بين اقاليم مصر لجمع الخراج.

(٦) عينه ابن طولون رئيسا لدار الصناعة التى كانت تصنع السفن ، ويبدو أنه كان قد سجنه قبل ذلك .

ولقد كان إنشاء المراكب الحربية فى زمن الدولة الطولونية فى « صناعة الجزيرة » .

الأسطول فى الدولة الاخشيدية :

واستمر أيضا اهتمام محمد بن طغج بالأسطول ، خاصة وأن الجيش والأسطول كان عدة الاخشيد فى دخول مصر ، والاستقلال بها عن الخلافة أو عن المعارضين لامارته .

وقد عمل بن طغج على نقل دار صناعة السفن، وذلك منذ عام ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م ، من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون بساحل الفسطاط ، وأصبح يطلق على دار خديجة اسم «الصناعة الكبرى» ، إلا أن نقل دار الصناعة من جزيرة الروضة لم يقض على الصناعة بها ، فاستمرت بها حتى عهد الحاكم بالله فيقول المقريزى : « وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى صناعتها إلى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ». ويذكر المقريزى أن السبب الذى دفع الاخشيد إلى نقل دار الصناعة هو أنه بعد دخوله مصر ثار عليه. بعض الثوار ، واشتبكوا مع جيوشه وأسطوله ، واستطاع هؤلاء قتل « صاعد» قائد أسطول الاخشيد ، كما أنهم أحرقوا كل مافى جزيرة الروضة من السفن ، ووقف ابن طغج تجاههم بجيشه ، إلا أنه لم يستطع القيام بأى عمل حاسم ، فالنيل بينهم وبينه ، فكره ذلك وقال : « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشىء » .

الفصل الثالث :

المجتمع المصرى والنظام القضائى

. أنواع المحاكم :

- . المحاكم العادية .
- . محاكم النظر فى المظالم .
- . محاكم أهل الذمة .
- . قضاء الجند .

. الشهود

- . أماكن إنعقاد المحاكم .
- . إنشاء سجل للقضايا .
- . رواتب القضاة .

نظام السجون .

- . نشأة نظام السجون فى الدولة الإسلامية وتطوره .
- . السجون فى الدولة الطولونية واشهر مسجون بها .
- . السجون فى الدولة الاخشيدية واشهر مسجون بها .

الفصل الثالث

المجتمع المصرى والنظام القضائى

كان من الطبيعى أن يتغير النظام القضائى فى مصر بعد الفتح العربى، وفقا لعقيدة الفاتحين الجدد ، وهى العقيدة الإسلامية ، فالعقيدة الإسلامية ليست عقيدة للعبادة فقط ، بل كانت عقيدة للحكم أيضا . ومن هنا كان من الطبيعى أن يحل نظام قضائى إسلامى جديد محل النظام القضائى البيزنطى الذى بنى على اصلاحات جستنيان .

وقد رأينا فيما سبق (الفصل التمهيدى) كيف كان النظام القضائى البيزنطى يقوم على أربعة أنواع من المحاكم :

النوع الأول : وهو المحاكم العادية .

النوع الثانى : وهو محكمة الامبراطور .

النوع الثالث : وهو القضاء الكنسى أو المحاكم الكنسية .

النوع الرابع : وهو المحاكم العسكرية .

وعندما فتح العرب مصر أبقوا على هذه الأنواع الأربعة مع تغيير فى السميات من جانب ، وتغيير فى الوظيفة من جانب آخر . فكانت هناك أربعة أنواع من المحاكم هى :

النوع الأول : المحاكم العادية .

النوع الثانى : محكمة الخليفة أو كما تسميه المصادر العربية النظر فى المظالم (وتقابل محكمة الامبراطور) .

النوع الثالث : محاكم أهل الذمة (ويقابل القضاء الكنسى أو المحاكم الكنسية) .

النوع الرابع : قضاء الجند (ويقابل المحاكم العسكرية) .

أولا : المحاكم العادية :

وكان يقضى بها قضاة يحكمون وفقا للشريعة الإسلامية ، وهذه المحاكم كانت تخص الفاتحين من العرب ، أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، وأحيانا لأهل الذمة كما سنرى فيما بعد .

فكيف كان يتم اختيار القاضى ؟ وما هى الشروط التى يجب توافرها فيه ؟ ومن الذى تقع عليه سلطة اختيار القاضى ؟ وأخيرا ما هى سلطة هذا القاضى المكفولة إليه ؟ .

فى البداية تقول إن أول قاض فى الإسلام هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن للمسلمين فى عهده قاض سواه ، وكان الفصل فى الخصومات بين الناس يقوم على أساس أحكام القرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من القرآن ، وبما يراه مما لا يتعرض مع القرآن الكريم ، وكان المتخاصمون يحضرون إليه ، فيسمع كلام كل فريق .

أما طرق الاثبات عندهم ـ كما يقول الدكتور عطية مصطفى مشرفة ـ فأهمها : علم القيافة بنوعية (معرفة الشبيه وتمييز الأثر) ، ويسمى صاحب تلك المعرفة قائفا والجمع القافة . والفراسة ، اذ كان العرب فى جاهليتهم يتفرسون فى كلام المتكلم ، لمعرفة مبلغه من الصحة أو الكذب ، وذلك

بملاحظة نبرات صوته وملامحه وحركاته عند التكلم . والقسامة ، فاذا وجد قتيل فى مكان ، ولم يعرف قاتله ، حلف خمسون رجلا من أهل هذا المكان - يختارهم ولى الدم - بالله أنهم ماقتلوه ولا علموا له من قاتل ، ثم يغرمون الدية . والقرعة ، فقد كان العرب فى جاهليتهم يحكمون بها ، كما كانوا يعتمدون فى اثبات الواقعة على شهادة الشهود ، وإلى غير ذلك من طرق الاثبات .

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية ، أذن الرسول لبعض الصحابة بفض الخصومات بين الناس ، كما سمح للولاة الذين أرسلهم إلى الأمصار بالقضاء أيضا طبقا للكتاب والسنة والقياس والاجتهاد .

وقد ظل القضاء جزءا من الولاية حتى زمن عمر بن الخطاب . ومع اتساع الدولة أصبح من العسير على الخليفة أن يجمع بين النظر فى الأمور العامة والفصل فى الخصومات ، ففصل عمر القضاء عن الولاية ، وعهد به إلى أشخاص يتفرغون لها ، سموا « قضاة». وبذلك كان عمر أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية ، فولى أبا الدرداء [1] معه بالمدينة ، وولى شريحا بالبصرة [2] ، وولى أبا موسى الأشعرى بالكوفة .

وقد سن عمر بن الخطاب لهؤلاء القضاة دستورا يسيرون على هدية فى الأحكام ، يعتبر أساسا للقضاء فى الإسلام ، باعتباره قاعدة الفقه الإسلامى ، وعليه تدور أكثر أحكام القضاة إلى اليوم . وقد بعث عمر بهذا الدستور إلى أبى موسى الاشعرى ، وغيره من القضاة ، وهذا نصه :

« أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فإفهم اذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس فى الناس بين وجهك وعدلك

(١) وهو عويمر بن عامر - ويقال : ابن مالك - الانصارى الخزرجى . أسلم يوم بدر ، وشهد أحدا ، وألحقه عمر بن الخطاب بالبدريين فى العطاء . وشهد فتح مصر ولهم عنه خمسة أحاديث . مات سنة ٣٢هـ/٦٥٢م .

(٢) وهو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم ، كان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا ٧٥ سنة لم يتعطل فيها الا ثلاث سنين ، امتنع فيها عن القضاء فى فتنة ابن الزبير، توفى عام ٨٧ هـ/ ٧٠٥ م وقيل ٨٢ هـ/ ٧٠١م ، وقيل ٨٠هـ/ ٦٩٩م وقيل ٧٩ هـ/ ٦٩٨م ، وقيل ٧٦هـ/ ٦٩٥ م .

ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه اليوم عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك و اعمد الى أقربها الى الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه، فان أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فانه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول لبعضهم على بعض، الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو نسب، فان الله تولى منكم السرائر، ودرأ (عنكم) بالبينات والايمان، وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم، والتنكر عند الخصومات، فان الحق فى مواطن الحق، يعظم الله به الأجر (الآخر) ويحسن به الذخر (الذكر)، فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق (تزين) للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه، شانه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته. والسلام».

شروط اختيار القضاة:

وقبل الحديث عن تعيين القضاة، يجب الاشارة الى الشروط التى يجب توافرها فى الشخص لاختياره قاضيا، فيقول الماوردى: لا يجوز أن يقلد القضاء إلا من تكاملت فيه شروطه التى يصح معها تقليده، وينفذ بها حكمه، وهى سبعة:

الشرط الأول : أن يكون رجلا، وهذا الشرط يجمع صفتين: البلوغ والذكورية.

الشرط الثانى : أن يكون صحيح التمييز، جيد الفطنة، بعيدا عن السهو والغفلة، يتوصل بذكائه الى ايضاح ما أشكل وفصل ما أعضل.

الشرط الثالث : أن يكون حرا، فلا يكون عبدا.

الشرط الرابع : أن يكون مسلما.

الشرط الخامس : العدالة بمعنى أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم، متوقيا المآثم، بعيدا عن الريب، مأمونا فى الرضا والغضب، مستعملا لمروءة مثله فى دينه ودنياه.

الشرط السادس : السلامة فى السمع والبصر ليصح بهما اثبات الحقوق، ويفرق بين الطالب والمطلوب.

الشرط السابع : أن يكون عالما بالأحكام الشرعية، وعلمه بها يشتمل على علم أصولها، ومعرفة فروعها.

كما قال عمر بن عبد العزيز عن اختيار القاضى: «لا ينبغى للرجل أن يكون قاضيا حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالما قبل أن يستعمل، مستشيرا لأهل العلم، ملقيا للرثع [1]، منصفا لخصم محتملا للأئمة» .

وكان القضاة ينتخبون ـ عادة ـ من بين أعلام الفقهاء، وأتقيائهم، وذوى النزاهة منهم. وكان عمر بن الخطاب يختبر المرشحين للقضاء فى فطنتهم، وحذقهم فى تفهم الأقضية، ومقدرتهم على الفصل فيها، وذلك قبل تعيينهم. وإن يذكر ابن عبد الحكم أن مروان بن الحكم أقر القاضى عابس بن سعيد ـ الذى تولى قضاء مصر من قبل مسلمة بن مخلد (٦٠ ـ ٦٨هـ/٦٧٩ ـ ٦٨٧م) ـ بعد ما عمل له ما يشبه الاختبار ليتيقن صلاحيته لمنصبه. فعندما دخل الخليفة مروان بن الحكم مصر عام (٦٥هـ/٦٨٤م) قال : أين قاضيكم؟ فدعى له عابس بن سعيد، وكان أميا لا يكتب . فقال له مروان بن الحكم: أجمعت كتاب الله؟ قال : لا . قال : أفأحكمت الفرائض؟[2] قال : لا ! قال :فتكتب بيدك؟ قال: لا . قال : فبم تقضى؟ قال: أقضى بما علمت، وأسأل عما جهلت. فقال :أ نت القاضى !

---

(١) الرثع: الحرص والطمع، جمع رثعون.

(٢) علم الفرائض: علم تعرف به كيفية قسمة التركة على مستحقيها. وأصحاب الفرائض هم الورثة الذين لهم سهام مقدرة.

طريقة تعيين القضاة:

أما تعيين القضاة، فقد ذكرت سابقا أن القضاء كان من الأمور الخاصة بالخلافة، لذلك كان الخليفة هو الذى يعين القضاة.

وعندما فتح العرب مصر، كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بتولية قيس بن أبى العاص القضاء، فولى القضاء عام ٢٣هـ/٦٤٣م ثم مات بعد ثلاثة شهور من توليته، وبعد موته كتب اليه أن يستقضى كعبا بن يسار، وكان ممن قضى فى الجاهلية. فأبى، وقال :«قضيت فى الجاهلية ولا أعود اليه فى الاسلام»، فولى عمرو بن العاص عثمان بن قيس بن أبى العاص على القضاء باذن عمر بن الخطاب.

ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة، فنرى والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ/٦٨٤ ـ ٧٠٥م) يولى القضاء عبدالرحمن بن حجيرة (٦٩ ـ ٨٣هـ/٦٨٨ ـ ٧٠٢م)، كما ولى ايضا يونس بن عطية (٨٤ ـ ٨٦هـ/٧٠٣ ـ ٧٠٥م)، كما ولى عبد الرحمن بن معاوية بن حديج (٨٦هـ/٧٠٥م).

كما كتب هشام بن عبد الملك الى الوليد بن رفاعة بصرف القاضى يحيى بن ميمون (١٠٥ ـ ١١٤هـ/٧٢٣ ـ ٧٣٢م)، وأن يعين من قبله من يصلح لهذه الوظيفة، وقال له: «اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموما مدحورا[1]، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب، لا تأخذه فى الله لومة لائم.

وأحيانا كان الوالى يولى القاضى ويقره الخليفة على ذلك، فنرى والى مصر داود بن يزيد بن حاتم المهلبى (١٧٤ ـ ١٧٥هـ/٧٩٠ ـ ٧٩١م) يولى المفضل بن فضالة عام ١٧٤هـ/٧٩٠م، ثم يرد كتاب الخليفة باقراره فى السنة نفسها.

وهكذا كان الخليفة هو الذى يقوم بتعيين القضاة فى الأمصار ، أو يُقِّر هذا التعيين.

---

(١) مدحورا: مطرودا.

على أنه ظهر منذ عهد هارون الرشيد ما يعرف بنظام «قاضى القضاة»، وهو بمثابة وزير العدل اليوم، وكان يقيم فى حاضرة الدولة، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار. وأول من لقب بهذا اللقب القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج، وكان يطوف على القضاة ويتفقد أحوالهم وسيرهم.

ويعتبر أبو يوسف من أشهر تلامذة الامام أبو حنيفة، وقد ظل قاضيا للقضاة فى عهد المهدى وابنيه وتوفى ٧٩٨م. وهكذا صار قاضى القضاة منذ ذلك الوقت هو الذى يعين نوابه فى الولايات.

وقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء، خوفا من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضى، فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسئول عنه.

ويذكر آدم متز أن امتناع الناس عن تولى القضاء استمر حتى القرن الرابع الهجرى. فيقول السمرقندى المتوفى عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م: اختلف الناس فى قبول القضاء، قال بعضهم: لا ينبغى أن يقبل القضاء، وقال بعضهم: اذا ولى رجل بغير طلب منه، فلا بأس بأن يقبل اذا كان يصلح لذلك الأمر. وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبى (ص) من شأنها أن تُرْهِب القضاة حتى العادل منهم، ومن هذه الأحاديث: عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يجاء بالقاضى العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب مايود أن لم يكن قضى بين اثنين ». وعن أبى هريرة «من جعل قاضيا فكأنما ذبح بغير سكين».

وكان أول من رفض تولى القضاء فى مصر كعب بن يسار بن ضنة - كما ذكرت سابقا - وقال :« والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية، وما كان فيها من الهلكة، ثم يعود فيها أبدا إذ أنجاه الله منها »!

ويقول الكندى فى كتابه: إنه لما ولى عبد العزيز بن مروان عبد الرحمن ابن حجيرة القصص، خبر أبوه بذلك، وكان بالشام، فقال: «الحمد لله ذكر ابنى وذكر»[1] ، فلما ولاه القضاء (٦٩ ـ ٨٣هـ/٦٨٨ ـ ٧٠٢م) أخبر أبوه بذلك فقال : «هلك ابنى وأهلك»!

ومن الذين رفضوا تولى القضاء أيضا حيوة بن شريح، وكان من ضمن الذين رشحوا لتولى القضاء فى ولاية يزيد بن حاتم(١٤٤ ـ ١٥٢هـ/٧٦١ ـ ٧٦٩م) . ويقول ابن عبد الحكم إنه عندما رفض «دعى له بالسيف والنطع [2]، فلما رأى ذلك حيوة أخرج مفتاحا كان معه فقال : هذا مفتاح بيتى، ولقد اشتقت الى لقاء ربى! فلما رأوا عزمه تركوه».

فعرض على أبى خزيمة ابراهيم بن يزيد الحميرى القضاء ، فامتنع، فدعى له بالسيف والنطع ، « فضعف قلب الشيخ ولم يحتمل ذلك » وقبل تولى القضاء (١٤٤ـ١٥٤هـ/ ٧٦١ـ٧٧٠م) .

ويبدو لنا من ذلك أن رفض تولى القضاء كان يعد خطرا على صاحبه ، باعتباره رفض أمر !

ومنهم أيضا لهيعة بن عيسى الذى تولى القضاء من قبل عباد بن محمد عام (١٩٦ـ ١٩٨هـ/ ٨١١ ـ ٨١٣م) . يقول الكندى . إنه عندما طلب لهيعة بن عيسى للقضاء تغيب ، فسمع وهو يقول : « يا رب يقدم عليك أخوانى غدا علماء حلماء فقهاء ، وأقدم عليك قاضيا ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض»[3].

ومنهم أيضا على بن معبد بن شداد العبدى الذى طلب منه الخليفة المأمون ، عندما قدم مصر فى عام ٢١٧هـ/ ٨٣٢م ـ تولى القضاء ، غير أنه رفض . وذكر الكندى على لسان على بن معبد بن شداد أنه قال : « انصرفت من عند المأمون ، وقد أبيت عليه الدخول فيما عرضه علىّ من تولية القضاء

---

(١) ذكر: سبح الله ومجده. ذكر الشيء بالشيء. جعله يذكره

(٢) النطع والنطع جمع أنطاع ونطوع . وهو بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

(٣) المقراض جمع مقاريض . وهو ما يقرض به الثوب أى يقطع ويقصد به المقص .

بمصر ، وفرشت حصيرا وقعدت على بابى ، وقلت : أقرب ممن عسى أن يأتينى يعزينى على ما نالنى » .

ومنهم أيضا الحارث بن مسكين الذى تولى القضاء من قبل الخليفة المتوكل عام (٢٣٧ ـ ٢٤٥هـ/٨٥١ ـ ٨٥٩م). يقول الكندى عن رد فعل الحارث عندما علم بتوليه القضاء: «أتاه كتاب القضاء وهو بالاسكندرية، ففض الكتاب، فلما قرأه امتنع من الولاية، فجبره على قبولها اخوانه، وقالوا: نحن نقوم بين يديك. فقدم الفسطاط وجلس للحكم».

أما عن استقلال السلطة القضائية عن السلطة ا لتنفيذية، فتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن القضاة فى مصر كانوا أكثر استقلالا فى مناصبهم من الولاة، وهو أمر كان يستدعيه حسن سير العدالة. ففى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين، وكثيرا مامات القضاة فى مصر وهم في مناصبهم. فنجد القاضى سليم بن عتر التجيبى يتولى القضاء عشرين سنة (٤٠ ـ ٦٠هـ/٦٦٠ ـ ٦٧٩م)، بينما يتعاقب فى مصر فى عهده أربعة ولاة هم : عمرو بن العاص، وعتبة بن أبى سفيان، وعقبة بن عامر الجهنى، ومسلمة بن مخلد. ونرى عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر يلى القضاء أربعة عشر عاما، ويظل يشغل هذا المنصب حتى موته (٦٩ ـ ٨٣هـ/٦٨٨ ـ ٧٠٢م) فى ولاية عبد العزيز بن مروان. ونجد القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى يلى القضاء فى مصر نيابة عن خليفتين متواليين هما سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/٧١٤ ـ ٧١٧م)، وعمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/٧١٧ ـ ٧١٩م). ويلى عبد الله بن لهيعة الحضرمى القضاء مدة تسع سنين (١٥٥ ـ ١٦٤هـ/٧٧١ ـ ٧٨٠م) نيابة عن الخليفة أبى جعفر المنصور، ثم المهدى، بينما يلى مصر فى هذه المدة سبعة ولاة.

وكان تعيين القضاة يتم بمراسيم معينة، فتذكر المصادر العربية أن القاضى اذا ولى ، كان لابد له أن يبدأ بالمرور بدار أمير مصر، ويذهب الجميع الى الجامع، وكان فى ذهابه الى الجامع يركب وهو يلبس السواد، وهو اللباس الرسمى للوظيفة، وأحيانا يكون بين يديه أصحاب الشرطة.

ويقال إنه كان يركب الى الجامع بالسواد ومعه القضاة والشهود والأمناء والأشراف ووجوه البلد، كما فى حالة القاضى عمر بن الحسن الذى تولى القضاء عام (٣٣٦ ـ ٣٩٩هـ/٩٤٧ ـ ٩٥٠م).

وفى الجامع يحتفلون بقراءة الأمر الصادر له بذلك.

وكان القاضى الجديد يتسلم أوراق القضايا من القاضى السابق، ويختم عليها بختمه ويكسر ختم من سبقه، ولكنه كان يعهد أحيانا الى أحد الثقاة ليتسلم له من القاضى السابق.

كما تذكر المصادر العربية أن القاضى كان عندما يتسلم منصبه، لا يمشى إلا وبين يديه الرجالة والحجاب وسلة القضاء.

سلطات القاضي :

كان عمل القاضي في صدر الاسلام محصورا في الفصل بين الخصوم، ثم أضيفت اليه ـ كما يقول ابن خلدون ـ سلطات أخرى، مثل: استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، بالنظر فى أمر المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأى من رآه، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية» .

وكثيرا ما أسند الى القاضى قيادة الجهاد فى عساكر الصوائف. ومن القضاة الذين كانوا يخرجون مع الصائفة، القاضى غوث بن سليمان الحضرمى، الذى تولى قضاء مصر من قبل أبى عون عبد الملك بن يزيد (١٣٥ ـ ١٤٠هـ/٧٥٢ ـ ٧٥٧م).

بل كثيرا ما أضيفت الى القضاة ولاية الشرطة والمظالم. ومن القضاة الذين تولوا الشرطة مع وظيفتهم: عابس بن سعيد، الذى تولى القضاء من قبل مسلمة بن مخلد (٦٠ ـ ٦٨هـ/٦٧٩ ـ ٦٨٧م)، وأقره مروان بن الحكم عندما جاء الى مصر، وقد جمع له القضاء والشرط، وهو أول من جمعا له ـ كما يقول الكندى. ومنهم أيضا يونس بن عطية الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٤ ـ ٨٦هـ/٧٠٣ ـ ٧٠٥م). ومنهم عبد الرحمن بن

معاوية بن حديج الذى تولى القضاء من قبل عمر بن عبد العزيز بن مروان (٨٦هـ/٧٠٥م). ومنهم عمران بن عبد الرحمن الذى تولى القضاء من قبل عبدالله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ ـ ٨٩هـ/٧٠٥ ـ ٧٠٧م).

كذلك شملت سلطة القاضى ولاية القصص، أى الاشراف على الوعظ والارشاد الدينى وتوجيه الناس وجهة صحيحة.

وكان أول من قص بمصر سليم بن عتر التجيبى عام (٣٩هـ/٦٥٩م)، وقد ولاه معاوية القضاء عام (٤٠هـ/٦٦٠م) فجمع بين القضاء والقص. ومن القضاة الذين جمعوا مع وظيفتهم ولاية القصص عبد الرحمن بن حجيرة(٦٩ ٨٣ هـ/٦٨٨ ـ ٧٠٢م). وقد تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان، وكان على القضاء والقصص وبيت المال. ومنهم أيضا ابراهيم بن اسحاق الذى تولى القضاء من قبل السرى بن الحكم (٢٠٤ ـ ٢٠٥هـ/٨١٩ ـ ٨٢٠م)، فجمع له القضاء والقصص.

كذلك وجد قضاة تولوا إلى جانب وظيفتهم بيت المال والأحباس . ومن هؤلاء القضاة : القاضى عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الذى تولى القضاء فى ولايته الثانية من قبل عبد الملك بن رفاعة (٩٧ ـ ٩٨ هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٦ م) ، فقد جمع له القضاء وبيت المال . ومنهم محمد بن عبدة الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧ ـ ٢٨٣هـ/ ٨٩٠ ـ ٨٩٦م) ، فقد جمع مع القضاء النظر فى المظالم والمواريث والأحباس والحسبة . وعندما تولى القضاء أيضا من قبل محمد بن سليمان (٢٩٢هـ/ ٩٠٤م) ، ولاه مع القضاء المظالم .

وكان أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر (١١٥ـ١٢٠هـ/ ٧٣٣ـ٧٣٧م) فى زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٣ ـ ٧٤٢م) ، فيقول الكندى : « وإنما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدى عليها حفظا من التواء [1] والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما » .

(١) هكذا فى الأصل ، وصحتها التوى أو الإتواء بمعنى الضياع أو الهلاك .

ومن السلطات التى أضيفت إلى القاضى خروجه لرؤية هلال شهر رمضان مع الشهود ، وقد أضيفت هذه السلطة إلى سلطة القاضى فى ولاية عبد الله بن لهيعة على القضاء (١٥٥ ـ ١٦٤ هـ/ ٧٧١ ـ ٧٨٠م) من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور . وكان سبب ذلك كما يقول الكندى : إن الناس طلبوا هلال شهر رمضان ، وابن لهيعة على القضاء . فلم ير، وأتى رجلان فزعما أنهما قد رأياه ، فبعث بهما الأمير موسى بن على بن رباح (١٥٦ ـ ١٦١ هـ/ ٧٧٢ ـ ٧٧٧م) إلى ابن لهيعة يسأله عن عدالتهما ، فلم يعرفا . واختلف الناس وشكوا . فلما كان فى العام التالى ، خرج عبد الله بن لهيعة فى نفر من أهل المسجد عرفوا بالصلاح ، فطلبوا الهلال ، فكانوا يطلبونه بالجيزة ، فهو أول القضاة حضر فى طلب الهلال . وفى ولاية هاشم بن أبى بكر البكرى على القضاء (١٩٤ ـ ١٩٦هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١١م) من قبل محمد الأمين ـ تعدوا الجسر ، وطلب الهلال فى جنان ابن أبى حبشى . وظل القضاء على ذلك حتى كان ابن أبى الليث على القضاء (٢٢٦ ـ ٢٣٠ هـ/ ٨٤٠ ـ ٨٤٤م) من قبل المعتصم ، فطلبه فى أصل المقطم .

وهناك من القضاة من تعدت سلطته مصر إلى بلاد أخرى ، ومن هؤلاء: أبو زرعة محمد بن عثمان الذى تولى القضاء من قبل هارون بن خمارويه ، فقد جمع له قضاء مصر وفلسطين والأردن ودمشق . وفى ملحق القضاة للكندى أنه ضم إليه أيضا حمص [١] وقنسرين [٢] ، والعواصم [٣] . ومنهم الحسين بن أبى زرعة الذى تولى القضاء عام (٣٢٤ ـ ٣٢٧هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٣٨م) ، فقد جمع له قضاء مصر والاسكندرية والشام وحمص وفلسطين

---

(١) حمص : بالكسر ثم السكون ، والصاد المهملة . وهى مدينة بالشام بين دمشق وحلب، وقد افتتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحا عام ١٤ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) قنسرين : بكسر أوله ، وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قومه ثم سين مهملة . وهى بالشام . وقد فتحت عام ١٧ هـ على يد أبى عبيدة بن الجراح

(٣) العواصم . جمع عاصم ، وهو المانع كورة من كور الشام والعواصم - حصون موانع ، وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء ، وأكثرها فى الجبال فسميت بذلك

والرملة [1] ، وطبرية [2] وأعمال ذلك ، كما أنه نظر فى المواريث والأحباس ودار الضرب .

ومنهم عمر بن الحسن الهاشمى (٣٣٦ ـ ٣٣٩هـ / ٩٤٧ ـ ٩٥٠م) ، فقد ولى قضاء مصر وأضيف إليه قضاء الاسكندرية والرملة وطبرية وأعمالها . ويفهم من ذلك أن قضاء الاسكندرية كان مستقلا عن قضاء مصر. ومنهم عبد الله بن محمد بن الخصيب (٣٣٩ ـ ٣٤٨ هـ/ ٩٥٠ ـ ٩٥٩م) ، فقد أضيف إليه قضاء دمشق والرملة وطبرية .

ويجدر الاشارة الى أن كثيرا من القضاة جمعوا بين وظيفتهم والعمل بالتجارة، اذا كانت التجارة مهنتهم الأولى، فكانوا يتجرون فيها بعد توليتهم للقضاء، ومن هؤلاء :

خير بن نعيم الذى تولى قضاء مصر من قبل حنظلة بن صفوان (١٢٠ ـ ١٢٧هـ / ٧٣٧ ـ ٧٤٤م) فقد كان تاجرا للزيت

ومنهم أيضا القاضى أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى من قبل يزيد ابن حاتم (١٤٤ ـ ١٥٤هـ / ٧٦١ ـ ٧٧٠م)، فقد جمع بين القضاء وعمل الأرسان[3] على اعتبار أنها كانت وظيفته الأولى قبل تولى القضاء. وفى ذلك يقول الكندى: «إن أبا خزيمة كان يعمل الأرسان، وكان يعمل كل يوم رسنين، واحد ينفقه على نفسه وأهله، وآخر يبعث به إلى اخوان له من أهل الاسكندرية، لكل واحد منهم رسن لنفسه. فلما ولى القضاء كتب اليه أهل الاسكندرية : انا لله وأن اليه راجعون، وإن كانت الدنيا يا أبا خزيمة مالت بك أن تقطع ما كان الله يجريه على يديك فى سبيل الله. فقال: معاذ الله، فكان يعملها ، ويبعث بها اليهم».

---

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين ، سميت بالرملة لغلبة الرمل عليها .

(٢) طبريه: اسم أعجمى، وطبر فى العربية بمعنى قفز واختبأ. وهى بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهى فى طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها، وهى من أعمال الأردن. وفتحت عام ١٣هـ صلحا على يد شرحبيل بن حسنة

(٣) الرسن: جمع أرسان وأرسن . هو الحبل المعروف للدابة

ويقول ابن عبد الحكم: «مر به رجل من أهل الاسكندرية وهو فى مجلس الحكم، فقال: لأختبرن أبا خزيمة! فوقف عليه فقال له: يا أبا خزيمة احتجت الى رسن لفرس، فقام أبو خزيمة الى منزله فأخرج رسنا فباعه له، ثم جلس».

ومن القضاة أيضا الذين جمعوا بين وظيفتهم والعمل بالتجارة القاضى عبد الرحمن بن اسحاق الجوهرى (٣١٣ ـ ٣١٤ هـ/ ٩٢٥ ـ ٩٢٦م) . فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أنه كان تاجرا للصوف ، وكانت بضاعته تصدر إلى مكة فى كل سنة .

وقد كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والاجلال ، كما كان لصاحبها نفوذ كبير يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه ، الا أن ذلك لم يمنع من أن يتقلص سلطان القاضى ونفوذه أمام أمير قوى .

ونلاحظ أن المصادر العربية لا تتعرض كثيرا لحوادث التصادم بين الولاة والقضاة ـ أو بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية ـ ومن حوادث التصادم هذه ما حدث فى ولايةعمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل على القضاء من قبل عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ ـ ٨٩ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧٠٧م) ، وأدى إلى عزله . فيذكر الكندى فى سبب ذلك ، أن أهل مصر تشاءموا بعبد الله بن عبد الملك فى ولايته عليهم بسبب غلو الطعام ، فقد كانت أول شدة رآها أهل مصر ، فهجاه ابن أبى زمزمة [١]، فطلب عبد الله ابن عبد الملك فهرب منه ، ثم بلغ عبد الله أن القاضى عمران آواه عنده ، وأنه أيضا قد هجاه ، فعزله لذلك .

ومنها أيضا ما حدث فى ولاية خير بن نعيم على القضاء فى ولايته الثانية من قبل الأمير أبى عون عبد الله بن يزيد (١٣٣ ـ ١٣٥ هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥٢م) وأدى إلى صرفه عن القضاء . وكان السبب فى ذلك ـ كما يحدثنا ابن عبد الحكم والكندى عن يحيى بن بكير ـ : « أن رجلا من الجند قذف [٢]

---

(١) وهو زرعة بن سعد الله بن أبى زمزمة ، من شعراء مصر فى عصر الولاة ، وقد ذكرته فى الفصل الخاص بالحركة العلمية فى مصر

(٢) قذف الرجل رماه وأتهمه بريبة .

رجلا ، فخاصمه إليه وثبت عليه شاهدا واحدا ، فأمر بحبس الجندى إلى أن يثبت الرجل شاهدا آخر . فأرسل أبو عون عبد الملك بن يزيد فأخرج الجندى من الحبس ، فاعتزل خير وجلس فى بيته وترك الحكم ، فأرسل إليه أبو عون، فقال : لا ، حتى يرد الجندى إلى مكانه ، فلم يرد وتم على عزمه » .

ومنها أيضا ما حدث فى ولاية أبى خزيمة ابراهيم بن يزيد على القضاء من قبل يزيد بن حاتم (١٤٤ ـ ١٥٤ هـ/ ٧٦١ ـ ٧٧٠م) . وكان سبب ذلك ـ كما يذكر الكندى ـ « أن عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى تزوج بامرأة من بنى عبد كلال ،[1] فقام بعض أوليائها فى ذلك وأنكروه ، وترافعوا إلى أبى خزيمة فقال : ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله اذا زوجها ولى ، فالنكاح ماض . فارتفعوا إلى يزيد بن حاتم ، وهو الأمير يومئذ ، فقال يزيد : ليس عبد الأعلى من أكفائها ، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها ، فامتنع أبو خزيمة من ذلك ، وفرق بينهما يزيد بن حاتم » .

ومنها ما حدث فى ولاية ابراهيم بن اسحاق على القضاء من قبل السرى بن الحكم (٢٠٤ ـ ٢٠٥هـ/ ٨١٩ ـ ٨٢٠م) وكانت ولايته لمدة ستة أشهر ، وكان سبب ذلك ـ كما يذكر الكندى ـ أنه عندما ولى القضاء «اختصم إليه رجلان فى شىء ، فأمر بالكتاب على أحد الرجلين ، ونفاذ الحكم ، فشفع الرجل بابن أبى عون إلى السرى ، فأمره السرى أن يتوقف ، فإن اصطلحا ، وإلا حكم بينهما . فجلس ابراهيم فى منزله ، فركب إليه السرى وسأله الرجوع فقال : لا أعود إلى ذلك المجلس أبدا ليس فى الحكم شفاعة » فاستعفى .

وتذكر المصادر العربية حدوث صدام وحيد فى الدولة الطولونية كان بين الوالى والقاضى ، وكان هذا الخلاف بين أحمد بن طولون والقاضى بكار

---

(١) قبيلة بنو عبد كلال ذكرها الدكتور خورشيد من ضمن القبائل المجهولة ، وقال عنها ظهر منهم بمصر يعفور بن عريب زعموا أنه شهد فتح مصر ، ومعاوية بن الزبير من أشراف مصر (١٣٢هـ) وأم شرحبيل بنت عبد الرحمن التى تزوجها عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى (١٤٤ ـ ١٥٤هـ) . ولم نعثر على بطن بهذا الاسم ، ولكن السمعانى ينسب يعفور بن عريب إلى رعين ، فلعل بنى عبد كلال بطن منهم

ابن قتيبة (تولى قضاء مصر من قبل المتوكل ٢٤٦ / ٢٧٠هـ/ ٨٦٠ ـ ٨٨٣م) وأدى إلى سجنه ، وكان الصدام بسبب طلب أحمد بن طولون لعن الموفق [١]، فامتنع بكار ، مما أدى إلى غضب أحمد بن طولون عليه ، فسجنه عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م ، وقد أقام فى السجن إلى أن مرض ابن طولون مرضه الذى توفى فيه عام ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣م. وتظهر لنا هذه الحادثة أن الدولة الطولونية على الرغم من استقلالها إلا أنها لم تكن مستقلة استقلالا تاما بالمعنى المعروف ، فقد امتنع أحمد بن طولون عن اطلاق سراح بكار بن قتيبة حتى يرد عليه كتاب المعتمد باطلاقه . وترى الدكتورة سيدة كاشف أنه على الرغم من استقلال مصر الذاتى فى عهد الطولونيين ، فإن أمر القضاء كان لا يزال مرجعه إلى الخلافة !

على كل حال ، فقد عظم شأن القضاة وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس . فقد كانت العادة أن الولاة يحضرون القضاة إلى مجالسهم ، فلما قدم محمد بن مسروق الكندى قاضيا على مصر من قبل الرشيد (١٧٧ ـ ١٨٤ هـ/ ٧٩٣ ـ ٨٠٠ م) ، أرسل إليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه ، فقال : لو كنت تقدمت إليك فى هذا لفعلت

---

(١) وهو أبو أحمد الموفق ، ويقال له طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد . وهو أخو الخليفة المعتمد . وكان الخليفة المعتمد وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه الموفق طلحة الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وقد اعترف الخليفة المعتمد بأخيه الموفق وليا للعهد بعد ولى العهد الشرعى جعفر المفوض ابنه ، وقسم الدولة بينهما ، فكان للموفق الجزء الشرقى ، ولجعفر المفوض الجزء الغربى وفيه مصر ، إلا أنه ولما كان صغيرا فقد اختير موسى بن بغا أحد الجنود الاتراك لادارة هذا القسم . وكان سبب لعن أحمد بن طولون للموفق هو قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر بدلا منه ، وأسره للخليفة المعتمد الذى كان متجها إلى أحمد بن طولون بمصر ، فعاد إلى سامرا شبه سجين سنة ٢٦٩ هـ/ ٨٨٢م . لذلك فقد عقد أحمد بن طولون مؤتمرا فى دمشق سنة ٢٦٩ هـ/ ٨٨٢م دعى إليه القضاء والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء الامبراطورية لأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره وأمر ابن طولون بكتاب خلع فيه الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأسره له ، وكتب فى هذا الكتاب أن « أبا أحمد خلع الطاعة ، وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة » وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة ، ومحمد بن ابراهيم الاسكندرانى ، وفهد ابن موسى

بك وفعلت ، يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ . ومن أشهر القضاة الموسومين بالعدالة والنزاهة وأعمال بعضهم :

١ ـ سليم بن عتر التجيبى : وقد تولى القضاء من قبل معاوية (٤٠ ـ ٦٠هـ/ ٦٦٠ ـ ٦٧٩م) .ومن أهم أعماله أنه أول قاض نظر فى الجراح وحكم فيها بأمر من معاوية بن أبى سفيان ، فيقول الكندى : « فكان الرجل اذا أصيب فجرح أتى إلى القاضى ، وأحضر بينته على الذى جرحه ، فيكتب القاضى بذلك الجرح قصته على عاقلة الجارح (١) ، ويرفعها إلى صاحب الديوان . فاذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ماوجب للمجروح ، وينجم (٢) ذلك فى ثلاث سنين ، فكان الأمر على ذلك».

٢ ـ عبد الرحمن بن حجيرة : وقد تولى القضاء فى مصر من قبل عبد العزيز ابن مروان (٦٩ـ٨٣ هـ/٦٨٨ـ٧٠٢م) ، وظل قاضيا بها حتى مات . ويقول عن شهرته الكندى : «إن رجلا من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة . فقال : من أى الأجناد أنت ؟ قال : من أهل مصر . قال : تسألنى وفيكم ابن حجيرة؟ » .

٣ ـ توبة بن نمر الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل الوليد بن رفاعة (١١٥ ـ١٢٠هـ/٧٣٣ـ٧٣٧م)، وظل قاضيا بها حتى مات . يقول عنه الكندى: إنه عندما تولى القضاء دعا امرأته عفيرة وقال لها :« يأم محمد، أى صاحب كنت لك ؟ قالت : خير صاحب وأكرمه . قال : فاسمعى ، لا تعرضن لى فى شىء من القضاء، ولا تذكرنى بخصم، ولا تسألنى عن حكومة، فان فعلت شيئا من هذا، فأنت طالق. فإما أن تقيمى مكرمة، وإما أن تذهبى ذميمة،فانتقلت عنه، فلم تكن تأتيه إلا فى الشهر والشهرين »

٤ ـ خير بن نعيم الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل حنظلة بن صفوان (١٢٠ـ ١٢٧هـ/٧٣٧ـ٧٤٤م)، وقد ذكر الكندى عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال : ماأدركت من قضاة مصر أحدا أفقه من خير بن نعيم .

---

(١) عاقلة الرجل أى عصبته أو قرابته من قبل الأب .

(٢) نجم فلان الدين : اداه نجوما أى فى أوقات معينة .

ومن أهم الأعمال التى قام بها فى ولايته الثانية من قبل أبى عون عبدالملك بن يزيد (١٣٣-١٣٥هـ/٧٥٠-٧٥٢م)أنه أدخل أموال اليتامى بيت المال، وذهب بأمر من الخليفة أبى جعفر، فقد أرسل اليه كتابا يأمره بذلك، فأوردها بيت المال، وسجل فى كل مال منها سجل بما يدخل منها وما يخرج.

٥ - أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى : وقد تولى قضاء مصر من قبل يزيد بن حاتم (١٤٤-١٥٤هـ/٧٦١-٧٧٠م) . وقد ذكر عنه الكندى أنه كان اذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل، لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل . وكان يقول :«إنما أنا عامل للمسلمين فاذا اشتغلت بشىء غير عملهم، فلا يحل لى أخذ مالهم»

٦ - اسماعيل بن اليسع الكندى : وقد تولى قضاء مصر من قبل الخليفة المهدى (١٦٤-١٦٧هـ/٧٨٠-٧٨٣م). ومن أهم أعماله - كما يذكر الكندى - أنه أبطل الأحباس. ويبدو أن ابطاله للأحباس كانت من أهم أسباب عزله عن القضاة.كما « أنه كان يذهب الى قول أبى حنيفة، ولم يكن أهل البلد يومئذ يعرفونه» ، لذلك كتب الليث بن سعد الى المهدى يقول :« إنا لم ننكر عليه شيئا غير أنه أحدث أحكاما لا نعرفها » فعزله . ويبدو لنا من أسباب عزله أيضا وعدم تقبل المصريين له أنه كان كوفيا ، ولم يكن مصريا . فقد ذكر الكندى عند تولى القاضى عبد الله بن لهيعة القضاء فى مصر (١٥٥-١٦٤هـ/٧٧١-٧٨٠م) أن وفدا من أهل مصر كان بالعراق ودخلوا على أبى جعفر المنصور يوما ، فقال لهم : انتخبنا لأهل مصر قاضيا ، فقال له عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج (وكان من ضمن الوفد المصرى) : «ماذا أردت بنا ياأمير المؤمنين ، أردت أن تُشهّرنا فى الأمصار ، بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتى تولى علينا من غيرها »؟

٧ - غوث بن سليمان : وقد تولى قضاء مصر ثلاث مرات ، الأولى من (١٣٥-١٤٠هـ/٧٥٢-٧٥٧م) وكانت من قبل أبى عون عبد الملك بن يزيد ، والثانيه من (١٤٠-١٤٤هـ/ ٧٥٧-٧٦١م) بعد موت القاضى ابن بلال ،

والثالثة من (١٦٧ـ ١٦٨هـ/٧٨٣ ـ ٧٨٤م) من قبل المهدى ، وقد ظل قاضيا فى هذه المرة حتى توفى .

ويقول ابن عبد الحكم عنه : « قدمت امرأة من الريف ، وغوث ماض(١) فى محفة، فوافت غوثاعند السراجين رائحا إلى المسجد ، فشكت إليه أمرها، وأخبرته بحاجتها ، فنزل عن دابته فى حوانيت السراجين ، ولم يبلغ المسجد، وكتب لها حاجتها ، وركب إلى المسجد ، فانصرفت المرأة وهى تقول : أصابت والله أمك حين سمتك غوثا » .

ويقول الكندى عنه أيضا : إن أم موسى بنت يزيد بن منصور بن عبدالله الحميرية وقع بينها وبين أبى جعفر خصومه ، فقالت : لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان ، فحمل إلى العراق حتى حكم بينه وبينها ، ورجع إلى مصر » .

ويقول أيضا : إن أبا جعفر المنصور أمره ليحكم بين أهل الكوفة ، فقال له غوث : « يا أمير المؤمنين ليس البلد بلدى ولا معرفة لى بأهلها ، فاذا أنا ناديت من له حاجة بخصومة فلم يأت أحد ، ائذن لى يا أمير المؤمنين فى الرجوع إلى بلدى . قال : نعم . فجلس غوث يحكم ثم نادى بعد ذلك فانقطعت عنه الخصوم ، وسار إلى مصر » .

وهذا يبرهن لنا ماذكرناه سابقا من أن كل بلد كانت تفضل أن يكون قاضيها منها .

٨ ـ المفضل بن فضالة : وقد تولى قضاء مصر من قبل المهدى (١٦٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٨٤ ـ ٧٨٥م) ، وهو أول قاض يطول السجلات ، فقد نسخ فيها كتب الوصايا والديون ، « ولم يكن ذلك قبله » .

٩ ـ أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى : وقد تولى القضاء من قبل الهادى (١٧٠ ـ ١٧٤ هـ/ ٧٨٦ ـ ٧٩٠م) . ومن أهم أعماله أنه كان يتفقد الأحباس بنفسه ثلاثة أيام فى كل شهر ، يأمر بمرمتها (٢) ،

---

(١) فى الأصل : قاضى، وصحتها « ماض » .

(٢) مرمة البناء أو الأمر : أصلحه .

واصلاحها وكنس ترابها ، ومعه طائفة من عماله عليها ، فإن رأى خللا في شيء منها ضرب المتولى لها عشر جلدات .

١٠ ـ لهيعة بن عيسى الحضرمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل عباد بن محمد (١٩٦ ـ ١٩٨ هـ / ٨١١ ـ ٨١٣ م) . ومن أهم أعماله فرضه للفروض التى عرفت باسمه ، فيقول الكندى :

« كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاء تجمع فى كل سنة ، فاذا كان شهر أبيب من شهور القبط بعث القاضى لما اجتمع من اموال السبيل ، ففرقت فى مواحيز مصر من العريش الى لوبية ومراقية فتفرق على المطوعة، و من كان فقيرا من أهل الديوان . فلما هاجت الفتنة أيام خلع محمد بن هارون ، تشاغل السلطان عن عطاء أهل الديوان ، وتعطلت المواحيز ، وانقطع عنها المطوعة لما كان فى الناس من الفتنة. ثم ولى لهيعة بن عيسى، فجمع أموال السبيل التى من الأحباس ، ففرض فيها فروضا من أهل مصر ، وجعل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواحيز ، وأجرى عليهم العطاء من الأحباس ، فكان ذلك أول ما فرضت فروض القضاة، فصارت سنة بعد لهيعة، ولم يكن الناس يسمونها إلا فروض لهيعة، حتى كان ابن أبى الليث فسماها فروض القاضى » .

ومع ذلك فلم يكن كل قضاة ذلك العصر موسومين بالعدالة والنزاهة ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ، بل وجد أحيانا القاضى المرتشى والقاضى غير النزيه . و من هؤلاء القضاة :

١ ـ يحيى بن ميمون الحضرمى : و قد تولى قضاء مصر من قبل هشام بن عبد الملك (١٠٥ـ١١٤هـ/٧٢٣ـ٧٣٢م). فقد كان يوصف بأنه «بئس القاضى »! و يقول الكندى عن كتّابه : «كان كتّاب يحيى بن ميمون لا يكتبون قضية إلا برشوة، فكلم يحيى فى ذلك ، فلم ينكره ، ثم كلم مرة بعد مرة فلم يعزل منهم أحدا عن كتابته » !

ويقول الكندى : إن الخليفة هشام بن عبد الملك عزله عن ولاية القضاء عندما بلغه أنه لم ينصف يتيما احتكم اليه بعد بلوغه.

٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الله العمرى : وقد تولى قضاء مصر من قبل هارون الرشيد (١٨٥ـ١٩٤هـ/٨٠١ـ٨٠٩م) . ويقال إن نفرا من أهل مصر خرجوا الى هارون الرشيد ، وشكو اليه ما يفعله العمرى فيهم .فقال لهم هارون : «أنظروا فى الديوان كم لى من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؟ فكشف الديوان ، فلم يوجد غيره . فقال : «انصرفوا فوالله لاعزلته أبدا» !ومن الغريب أن الخليفة كان يعلم بسوء هذا القاضى إلا أنه لم يعزله بحجة أنه الباقى من نسل عمر بن الخطاب !

وكان من أهم أعماله ـ كما يذكر الكندى ـ أنه عمل تابوت القضاة الذى كان فى بيت المال، فهو أول من عمله ، وقد أنفق عليه أربعة دنانير، وكان هذا التابوت يجمع فيه أموال اليتامى ، وأموال من لا وارث له .

على أيه حال، فعندما تولى هاشم بن أبى بكر البكرى القضاء من بعده، من قبل محمد الأمين (١٩٤ـ١٩٦هـ/٨٠٩ـ٨١١م) ـ تتبع أصحاب العُمرى كلهم وسجنهم ، وسجن العمرى وقيده، وطالبه بما صار اليه من الأموال والأوقاف . وزعم أهل مصر أن العمرى اكتسب مائة ألف فطالبه البكرى بها . كماسافر وفد من أهل مصر الى الأمين ، وذكروا ما فعله العمرى من إلحاق أهل الحرس بالعرب ، فكتب محمد الأمين الى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب ، ويأمره أن يردهم الى ماكانوا عليه من أنسابهم . فدعا البكرى أهل الحرس ، وأمر باقامة البينة عنده ، فحضر أهل مصر ، منهم عبد الله بن وهب وسعيد بن ابى مريم وسعيد بن عفير، وناس كثير من أهل القناعة والعدالة ، فشهدوا أن أهل الحرس من القبط ، فنقض البكرى قضية العمرى، وأمر بردهم الى أصلهم من القبط .

٣ ـ محمد بن الليث الخوارزمى : وقد تولى قضاء مصر من قبل المعتصم (٢٢٦ـ٢٣٥هـ/٨٤٠ـ٨٤٩م) ، وكانت له تجاوزات كثيرة، مما دفع قوصرة

(يعقوب بن ابراهيم) صاحب بريد مصر فى ذلك الوقت الى ارسال كشف بتجاوزات ابن أبى الليث الى المتوكل بطلب منه . فأتى كتاب المتوكل بحبسه واستقصاء امواله، فأمرقوصرة بحبس ابن أبى الليث وولده وأصحابه وأعوانه، فاستقصيت أموالهم كلهم،ووثب أهل مصر على مجلس ابن أبى الليث ، فرموا بحصره ، وغسلوا موضعه بالماء ، وذلك فى عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م، وعزل يومئذ.

ثم ورد كتاب المتوكل يأمر بلعن ابن أبى الليث على المنبر فلعنه مكرم ابن حاجب الإمام على المنبر ، ولعنته العامة. وأقام فى السجن حتى عام٢٣٧هـ/٨٥١م . وعندما قدم يزيد التركى إلى مصر فى عام٢٣٧هـ/٨٥١م أخلى سبيل ابن أبى الليث وأصحابه ، فورد كتاب المتوكل برد ابن أبى الليث وأصحابه الى السجون ، ثم أمر خوط عبد الواحد (أميرمصر) بحلق رأس إبن أبى الليث ولحيته وضربه بالسوط، وحمله على حمار باكاف يطوف الفسطاط، ففعل ذلك به «خوط» يوم الإثنين٢٣٧هـ/٨٥١م،وظل محبوساً هو وأصحابه الى عام ٢٤١هـ/٨٥٥م، وأخرج الى العراق . ويقال إن الحارث ابن مسكين الذى تولى القضاء من بعده من قبل المتوكل عام (٢٣٧-٢٤٥هـ/٨٥١-٨٥٩م)، كان يوقفه ويضربه كل يوم عشرين سوطاً لكى يؤدى ماوجب عليه من الأموال ، وقد «أقام على ذلك أياماً» .

كان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامى وهى : القرآن والسنة والإجماع والإجتهاد أو القياس .

فيرى للماوردى أن أصول الأحكام فى الشرع أربعة :

الأول : علمه بكتاب الله عز وجل على الوجه الذى تصح به معرفة ماتضمنه من الأحكام .

الثانى : علمه بسنة رسول الله (ص) الثابتة من أقواله وأفعاله.

الثالث : علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا عليه ليتبع الإجماع ويجتهد برأيه فى الاختلاف .

الرابع :علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها ، والمُجْمِعِ عليها حتى يجد طريقاً الى العلم باحكام النوازل، وتمييز الحق من الباطل .

ويرى الماوردى أنه إذا أحاط علمه بهذه الأصول الأربعة فى أحكام الشريعة ، صار بها من أهل الإجتهاد فى الدين ، وجاز له أن يُفتى ويِقضى ، وإن أخل بها أو بشيء منها خرج من أن يكون من أهل الإجتهاد فلم يجز أن يُفتى ولا أن يقضى .

وكان القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين يحكمون في بعض الأحيان بما يوحى اليهم اجتهادهم ، بمعنى أنه إذا سئل أحدهم فى حادثة وقعت ، أخذ من ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة الحكم المراد تطبيقه. ثم أُوقف الإجتهاد بعد ظهور المذاهب الأربعة، فى العصر العباسي ، فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق هذه المذاهب ، فكان القاضى في العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، وفى الشام والمغرب وفق مذهب مالك، وفى مصر وفق المذهب الشافعى ، واذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد، أناب القاضى عنه قاضيا يدين بعقائد مذهب المتخاصمين . وقد أطلق على العصر العباسى «عصر أئمة المذاهب » ، وضعت فيه أصول الفقه .

وفى مصر لم يكن القضاة ملزمين باتباع مذهب معين يصدرون أحكامهم وفقا له كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ـ فيروى الكندى عن القاضى أبى الطاهر عبدالملك بن محمد الحزمى الذى تولى القضاء من قبل الهادى (١٧٠ـ١٧٤هـ/٧٨٦ـ٧٩٠م) أن أحكامه كانت على مذاهب ابن القاسم و سالم وابن شهاب وربيعة، وكان مستضلعا بمذاهب أهل المدينة حافظا لها. اى أن القاضى كان يحكم وفق عقائد المذهب الذى ينتمى اليه.

وكان أول قاض ولى مصر وينتمى الى مذهب أبى حنيفة هو اسماعيل ابن اليسع الكندى ، فقد تولى قضاء مصر من قبل المهدى (١٦٤ـ١٦٧هـ/ ٧٨٠ـ٧٨٣م) ، كما أنه أول عراقى يتولى قضاء مصر ،وكان من الكوفة.

ومن القضاة الذين حكموا بمذهب أبى حنيفة أيضا القاضى هاشم بن أبى بكر البكرى من قبل محمد الأمين (١٩٤-١٩٦هـ/٨٠٩-٨١١م)، وكان من أهل الكوفة أيضا. ومنهم أيضا ابراهيم بن الجراح، من قبل السرى بن الحكم (٢٠٥-٢١١هـ/٨٢٠-٨٢٦م). ومنهم أيضا بكار بن قتيبة الذى تولى القضاء من قبل المتوكل (٢٤٦-٢٧٠هـ/٨٦٠-٨٨٣م). ومنهم القاضى محمد بن عبدة الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧-٢٨٣هـ/٨٩٠- ٨٩٦م). ومنهم القاضى احمد بن عبد الله الكِشّى ، وقد تولى القضاء ثلاثة أشهر فقط من عام (٣٣١هـ/٩٤٢م) .

وأول من ولى قضاء مصر ممن ينتمى لمذهب الامام مالك ، القاضى اسحاق بن الفرات (١٨٤ - ١٨٥ هـ/ ٨٠٠ - ٨٠١م) . ومن هؤلاء القضاة أيضا القاضى أبو الذكر محمد بن يحيى الأسوانى (٣١١ - ٣١٢ هـ/ ٩٢٣ - ٩٢٤م) ، وقد تولى قضاء مصر لمدة ثلاثة أشهر وأيام ، وفى ملحق أخبار القضاة للكندى أنه كان المشار إليه فى مذهب مالك بمصر . ومنهم القاضى الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى الذى تولى القضاء من قبل الاخشيد محمد بن طغج عام (٣٣٣ هـ / ٩٤٤م) . ومنهم أبو الطاهر الذهلى الذى تولى القضاء من قبل كافور (٣٤٨ - ٣٦٦ هـ/ ٩٥٩ - ٩٧٦م) .

وكان أول من ولى قضاء مصر على مذهب الإمام الشافعى هو القاضى أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى (٢٨٤-٢٩٢هـ/٨٩٧-٩٠٤م) من قبل هارون بن خمارويه. ومن القضاة الذين كانوا على مذهب الإمام الشافعى أيضا القاضى على بن الحسين بن حرب (ويقال له حَربَويه بن عيسى البغدادى) وقد ولى قضاء مصر من عام (٢٩٣-٣١١هـ/٩٠٥م)، ومنهم أيضاً القاضى عبد الله بن احمد بن زَبر الذى تولى قضاء مصر من قبل المقتدر عام(٣١٧هـ/٩٢٩م). ومنهم كذلك القاضى اسماعيل بن عبدالواحد المقدسى (٣٢١هـ/٩٣٣م) وقد تولى القضاء لمدة شهرين . ثم القاضى محمد بن الحداد،وقد تولى القضاء بأمر الاخشيد محمد بن طغج (٣٢٤ -٣٢٥هـ/٩٣٥-٩٣٦م). والقاضى عمر بن الحسن الهاشمى (٣٣٦ -

٣٣٩هـ/٩٤٧_٩٥٠م) . ومنهم أيضا القاضى عبد الله بن محمد بن الخصيب (٣٣٩ _ ٣٤٨هـ/٩٥٠_٩٥٩م).

وتذكر الدكتورة سيدة كاشف أن بعض القضاة كان يرجع أحيانا إلى الخليفة فى المسائل الدقيقة، وربما كان ذلك خوفاً من الإنفراد بالرأى فى مسألة ربما يخطىء فيها بإجتهاده وحده. ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه في حلها ، استئناساً برأيه، وضماناً للعدالة. ومن أمثلة ذلك أن القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى فى ولايته الثانية (٩٨ _ ١٠٠هـ/٧١٦ _ ٧١٨م) ، استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسألة، فأفتاه فيها . وأحياناً كان الخليفة لايبدى رأياً، بل يفوض الأمر الى القاضى، فقد استفتى القاضى عياض الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسألةآخرى فكتب اليه:"إنه لم يبلغنى فى هذا شىء، وقد جعلته لك فامض فيه برأيك» . وكذلك نسمع ان القاضي عبد الله بن يزيد بن خذامراستشار الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسائل فأفتاه فيها . على أننا لانعثر فى مصادر هذا العصر على قضاة يستشيرون خلفاء آخرين غير عمر بن عبد العزيز فى المسائل الفقهية ، ولعل هذه حالة فردية يمكن تفسيرها بمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه فى الدين.

ثانيا _ محاكم النظر فى المظالم أو محاكم الخليفة :

تشبه هذه المحاكم _ فى رأيى _ محكمة الامبراطور فى العصر البيزنطى إلى حد كبير. لقد سبق أن ذكرت أنه كان من حق سكان مصر أن يرفعوا قضاياهم وشكاويهم مباشرة إلى محكمة الامبراطور بالقسطنطينية فى صورة ملتمس ، وكان الحكم يصدر فى هذه الحالة فى صورة أمر ، وذكرت أن جستنيان استغل هذه المحاكم حتى تكون سلطته عند سكان مصر فى مظهر أعلى من سلطة كبار الملاك ، غير أننا لاحظنا أن اللجوء إلى محكمة الامبراطور كان يتطلب نفقات باهظة فى السفر والإقامة ، فضلا عما اشتهر به هذا القضاء من بطء .

وعندما فتح العرب مصر . نقلوا هذا النظام فى شكل يتلاءم مع النظام الإسلامى . على أن الدكتور عبد المنعم ماجد يرى أن هذا النوع من القضاء يرجع فى أصله إلى ملوك الفرس الساسانيين الذين كانوا أول من مارسوه ، وأن فكرته قد ترجع أيضا إلى أصل عربى قديم ، عندما تعاون القرشيون على رد حقوق المظلومين وعقدوا حلفا سموه «حلف الفضول» .

على أنه من الواضح أن « حلف الفضول » كان شيئا مختلفا عن محاكم النظر فى المظالم ، فلقد أنشىء « حلف الفضول » كقضاء عادى يقضى بين عامة الناس ، أما محاكم النظر فى المظالم فقد أنشئت لتنصف الطبقة الشعبية من الطبقة العليا (من الأعيان والأشراف) وهم الحكام أو الولاة ، ولم يكن هذا ليتم إلا عن طريق سلطة عليا تعلو سلطة الولاة والطبقة العليا ، وهى سلطة الخليفة . وكما يقول ابن خلدون : « تحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة » .لذلك فلن أستطيع أن أقول إن هذا النظام كان موجودا أيام الرسول (ص) فقد ذكرت سابقا أنه كان القاضى الوحيد فى الإسلام ، كما أن هذا النظام لم يكن موجودا أيام أبى بكر الصديق (١١ ـ ١٣ هـ / ٦٣٢ ـ ٦٣٤م). إلا أننا نستطيع القول بأن هذا النظام نشأ فى خلافة عمر بن الخطاب ، أو بمعنى آخر ، أن هذا النظام قد أوجد نفسه فى خلافة عمر بن الخطاب ، خاصة بعد فتح مصر التى كانت تحت الاحتلال البيزنطى ، وكان أهلها يعرفون نظام محكمة الإمبراطور . والدّليل على ذلك تلك الحادثة التى ترويها المصادر العربية ، وقد وقعت زمن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٣م) وفى ولاية عمرو بن العاص على مصر . يقول ابن عبد الحكم فى كتابه :

« أتى رجل من أهل مصر ... إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، عائذ بك من الظلم . قال : عذت معاذا . قال : سابقت ابن عمرو بن العاص ، فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ، ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه ، فقدم . فقال عمر: أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب . فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر :

اضرب ابن الأليمين (١) . قال أنس : فضرب ، فوالله لقد ضربه ، ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه . ثم قال عمر للمصرى : ضع على ضلعة عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ابنه الذى ضربنى ، وقد اشتفيت منه . فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لم أعلم ، ولم يأتنى » .

اذا كانت هذه الحادثة تشير إلى عدل عمر وكراهته للظلم وإيمانه بالمساواة ، إلا أننا إذا نظرنا إليها من وجهة أخرى ، وهى جرأة المصرى على الذهاب إلى الخليفة مباشرة ليشكوا ابن الوالى لأنه ضربه ، لعرفنا أن معرفة المصريين بنظام محكمة الامبراطور عندما كانوا تحت الحكم البيزنطى، هى التى جعلت هذا المصرى يقدم على هذه الخطوة ، رغم اختلاف السلطة الحاكمة ووقوع مصر تحت حكم العرب ، لذلك ذهب إلى محكمة الخليفة مباشرة .

وهكذا فان فكرة محكمة الخليفة تكون ظهرت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولكنها لم تتخذ شكل نظام رسمى إلا فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. وربما يرجع ذلك الى كثرة المظالم التى ظهرت فى ذلك العصر ووقعت من الحكام على المحكومين.

وعلى أية حال، فسنتعرف فى الصفحات القادمة على وظيفة محاكم النظر فى المظالم التى أنشأها العرب، والغرض من انشاء هذا النوع من المحاكم.

تقول الدكتورة سيدة كاشف إن الغرض الأساسى من إنشاء محاكم النظر فى المظالم هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب. ومعنى ذلك أن اختصاص هذه الهيئة هو أن تنظر فى ظلامات الشعب. ويفصل الدكتور حسن ابراهيم حسن هذه الظلامات فيقول إنها قد تكون من قضاة لم ينصفوا المتقاضين، أو من ولاة استبدوا بالأمر وظلموا رعاياهم، أو من جباة أموال حادوا عن الطريق المستقيم، أو من أبناء الخلفاء أو أهل الجاه

---

(١) الأليم : الموجع كالسميع بمعنى المسمع .

وأصحاب النفوذ ممن اغتالوا أموال الناس وأمتعتهم ظلما وعدوانا، أو ماشبه ذلك من الشكاوى التى ربما لايستطيع القضاة تنفيذ أحكامهم فيها.

أما المتظلمون الذين كانت تختص بهم هذه المحاكم، فقد كان أغلبهم من بسطاء الناس، ومن النساء المستضعفات، ومن أهل الذمة الذين يأتون من نواحى بعيدة خارج العاصمة.

وقد كان الخلفاء الأولون هم الذين يباشرون نظر هذه المظالم بأنفسهم، وكان أول من أفرد للظلمات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين ، عبد الملك بن مروان . وكان عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم . ثم جلس لها من خلفاء بنى العباس المهدى ، ثم الهادى ، ثم الرشيد ، ثم المأمون، وآخر من جلس لها المهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٨ ـ ٨٦٩ م) .

وقد جعلها بعض الخلفاء لقضاتهم . كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى ادريس الخولانى [١] وكما فعل المأمون ليحيى بن أكثم ، والمعتصم لأحمد بن أبى دؤاد .

وعندما استقلت الدولة الطولونية بمصر كان أول من جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم أحمد بن طولون . ويذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن جلوس أحمد بن طولون للنظر فى المظالم جعل الناس تستغنى عن القاضى ، « حتى كان بكار ربما نعس فى محلة واتكأ ، ثم انصرف إلى منزله ، ولم يتقدم إليه اثنان» ! وعندما تولى خمارويه بن أحمد بن طولون مصر من بعده ، جعل على المظالم بمصر محمد بن عبده بن حرب وذلك فى عام ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م . وكان محمد بن عبده ينظر فى المظالم من بعد موت القاضى بكار بن قتيبة عام ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣م ، حتى تولى القضاء عام ٢٧٧هـ/ ٨٩٠ م ، وكانت مصر فى تلك الفترة بلا قاض .

---

(١) اسمه عائذ الله بن عبد الله كان ثقة ، وقد روى عنه الزهرى . تولى القضاء بدمشق وتوفى عام ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م .

وعندما استقلت الدولة الاخشيدية بمصر كان الاخشيد يجلس بنفسه للنظر فى المظالم . وعندما تولى كافور مصر كان يجلس أيضا للمظالم ، وكان أول جلوسه فى عام ٣٤٠ هـ/ ٩٥١م . وقد قيل عن القاضى أبو الطاهر الذهلى الذى تولى القضاء من قبل كافور (٣٤٨ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٥٩ ـ ٩٧٦م) : إنه « كان فى أحكامه كالمحجور عليه ، لكثرة جلوس كافور للمظالم فى كل سبت » . وكان المتظلمون يقدمون مظالمهم مكتوبة .

أما عن مواعيد النظر فى المظالم، فكانت تتراوح بين يوم واحد فى الأسبوع، وجميع أيام الاسبوع. يقول الماوردى: إنه اذا نظر فى المظالم من انتدب لها، جعل لنظره يوما معروفا يقصده فيه المتظلمون، ويراجعه فيه المتنازعون، ليكون ماسواه من الأيام لما هو موكول اليه من السياسة والتدبير. أما اذا كان من عمال المظالم المنفردين لها، فيكون مندوبا للنظر فى جميع الأيام.

ويذكر جرجى زيدان أنه فى البداية لم يكن يخصص لسماع الظلامات يوم معين أو ساعة معينة وانما كان اذا جاء متظلم أنصف. ثم أفرد يوم خاص للنظر فى أقوال المتظلمين وتصفح قصصهم.

ويرى آدم متز أن تخصيص يوم للنظر فى المظالم كان موجودا فى العصر البيزنطى. ففى عام ٤٩٦م كان حاكم الرها يجلس كل يوم جمعة فى الكنيسة للقضاء.

وفى عصر الخليفة المأمون خصص يوم الأحد للنظر فى المظالم. وكان أحمد بن طولون يجلس للنظر فى المظالم يومين فى الأسبوع، إلا أن المصادر لم تحددهما. وعندما كان يعقد مجلس مظالمه، كان يحضر بكار بن قتيبة من السجن، ثم يعاد اليه اذا انقضى المجلس.

أما الاخشيد فكان يجلس للنظر فى المظالم كل أربعاء.

وكان كافور يعقد مجلس المظالم كل سبت ابتداء من عام ٣٤٠هـ/٩٥١م، وكان يحضر مجلسه القضاة والوزراء والشهود ووجوه البلد.

وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد كغيرها من المحاكم التى يعقدها القضاة. وكان مجلس النظر فى المظالم لا يستكمل إلا بحضور خمسة أعوان ـ كما يقول الماوردى ـ لايستغنى عنهم الناظر فى المظالم وهم:ـ

١ ـ الحماة والأعوان (الشرطة) : «لجذب القوى وتقويم الجرىء». وقد كانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ الى العنف، أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

٢ ـ القضاة والحكام : «لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق، ومعرفة مايجرى فى مجالسهم بين الخصوم». فكانت مهمتهم الاحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق الى أصحابها، والعلم بما يجرى بين الخصوم، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين.

٣ ـ الفقهاء : «ليرجع اليهم فيما أشكل، ويسألهم عما اشتبه وأعضل».

٤ ـ الكتّاب : «ليثبتوا ماجرى بين الخصوم، وما توجب لهم أو عليهم من الحقوق».

٥ ـ الشهود : «ليشهدهم على ماأوجبه من حق وأمضاه من حكم».

وقد فرق الماوردى فى كتابه بين اختصاص كل من القاضى وناظر المظالم، ولكن الدكتورة سيدة كاشف ترى أن هذه الاختصاصات كانت نظرية الى حد كبير، وأن سلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا إلا حين يكون هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما، أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة. وفضلا عن ذلك فان اختصاص النظر فى المظالم واختصاص القاضى كانا يلتقيان فى كثير من الأحيان، وكان يصعب أحيانا أن نتبين أيهما أوسع سلطانا.

ثالثا ـ محاكم أهل الذمة :

هذه المحاكم تشبه المحاكم الكنسية فى العصر البيزنطى، يتولى القضاء فيها رجال الدين منهم، وكانت خاصة بأهل الذمة. وقد ذكرت سابقا أن هذه

المحاكم ظهرت بانتشار المسيحية زمن الامبراطور قسطنطين، وأنها لم تكن مقتصرة على رجال الدين، وانما جاز للمتخاصمين فى الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم الى تحكيم الأسقف، فقد كانت أحكامه معترفا بها قانونا. وفى عصر هرقل زادت سلطات رجال الدين القضائية، فصار للأسقف الحق فى تنفيذ الأحكام، هذا الى جانب أنه لا يجوز للمتهم اللجوء الى القضاء المدنى بعد أن اعتبرته الكنيسة مذنبا.

ويبدو لنا أنه بعد الفتح العربى لمصر، ترك العرب للذميين قضاءهم، واستمرت محكمة الكنيسة فى عملها تحت الحكم العربى.

والسؤال الآن هل ظلت سلطة المحاكم الكنسية تحت الحكم العربى، كما كانت سلطتها تحت الحكم البيزنطى؟

يقول آدم متز : « إن بعض فقهاء الاسلام أجازوا تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه. وهذا، وان كان العرف به جاريا، فهو تقليد زعامة ورياسة وليس بتقليد حكم وقضاء، وانما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، واذا امتنعوا من التحاكم اليه لم يجبروا على ذلك، فاذا رجعوا الى قاضى الاسلام فانه يقضى بينهم بحكم الاسلام، لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم أسلم».

وهكذا نرى أنه واذا كان القضاة المسلمون لم يتدخلوا فى أحكام قضاة أهل الذمة، إلا أن سلطة هؤلاء القضاة الذميين تقلصت، لأن العقوبات التى كانوا يحكمون بها كانت عقوبات دينية فقط، وأصبح من مصلحة الذمى اللجوء الى القضاء الاسلامى الذى يكون أنفذ وألزم. وفى ذلك يقول الكندى إن القاضى خير بن نعيم الحضرمى الذى تولى قضاء مصر من قبل حنظلة ابن صفوان (١٢٠ ـ ١٢٧هـ/٧٣٧ ـ ٧٤٤م) كان يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم.

ولكن اذا حدث نزاع بين عربى وقبطى، تقدم المتقاضون الى مجلس مؤلف من قضاة يمثلون الفريقين المتنازعين.

أما أماكن انعقاد العرب لجلسات المحاكم لأهل الذمة، فيقول الكندى: إن خير بن نعيم كان يقضى فى المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج [1] فيقضى بين النصارى.

كما يقول الكندى فى موضع آخر : إن القضاة كانوا يجعلون للقضاء بين النصارى يوما فى منازلهم، الى أن جاء القاضى محمد بن مسروق، الذى تولى القضاء من قبل هارون الرشيد (١٧٧ ـ ١٨٤هـ/٧٩٣ ـ ٨٠٠م)، فأذن لهم بالدخول فى المسجد.

ويقول آدم متز عن لجوء الذمى للمحاكم الاسلامية إن الكنائس لم تكن تنظر الى ذلك بعين الرضا، «لذلك ألف الجاثليق [2] تيموتيوس (timotheus) حوالى عام ٢٠٠هـ/٨٠٠م كتابا فى الأحكام القضائية المسيحية، لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون الى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية. وفى الفصلين الثانى عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموتيوس على من يذهب طائعا الى المحاكم الاسلامية أن يتوب ويتصدق ويقوم على المسح والرماد [3]، ثم جاء خليفته فقرر أن النصارى اذا خرجوا الى الأحكام البرّانية، فانهم يوعدبون على قدر جرمهم، ويمنعون من البيعة الى حين».

ويذكر آدم متز عن العقوبات الدينية التى كانت تحكم بها المحاكم الكنسية أنها كانت تشمل «التوبيخ أمام الناس، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة، ودفع كفارة مالية للبيعة، والمنع من حضورها ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت، ومن الدفن على الطريقة النصرانية. ومن أمثلة

---

(١) المعراج جمع معارج ومعاريج: السلم والمصعد.

(٢) الجاثليق لفظ يونانى (catholicos) معناه العمومى، والمراد به : الرئيس الدينى الأعلى عند الكلدان النساطره فى أيام الملوك الساسانيين والخلفاء العباسيين. جمع الجثالقة ويقابله فى وقتنا هذا «البطرك» (patriarch) .

(٣) المسح . بكسر الميم، جمع أمساح ومسوح. ثوب من الشعر غليظ، يلبسه الرهبان على البدن تقشفا وقهرا للجسد. والمسح والرماد تعبير مجازى عن التوبة بلبس نوع معين من الملابس، والجلوس على الأرض .(بالرجوع الى الدكتور وليم سليمان).

العقوبة أن النصرانى الذى يضرب آخر يمنع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيس شهرين، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد، وعليه أن يتصدق على الفقراء بحسب قدرته » .

أما بالنسبة لشهادة الذمى ، فيذكر آدم متز أن أهل الذمة لم يكن يسمح لهم بالتقدم للشهادة أمام القضاء الإسلامى « كأنهم عبيد » ، وإن كان المعقول أن يقصد بذلك شهادة الذمى على المسلم ، أما شهادتهم على أهل دينهم ، فقد اختلف الرأى ، فذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا تقبل شهادتهم على أهل دينهم ،وذهب البعض مذهبا آخر .

أما المحاكم النصرانية فانها كانت تقبل شهادة المسلم على النصرانى «على كره منها لذلك بالطبع» ، وكل ما كانت تطلبه هو أن يكون الشاهد تقيا يخاف الله غير مطعون فى ذمته .

ومن قضايا النصارى التى ذكرتها المصادر العربية أنه فى ولاية المفضل بن فضالة الأولى على القضاء من قبل موسى بن مصعب ، والتى أقره عليها الخليفة المهدى عام (١٦٨ ـ ١٦٩ هـ / ٧٨٤ ـ ٧٨٥م) ـ كان بمصر نصرانى سب النبى (ص) فكتب فيه المفضل بن فضالة إلى مالك بن أنس يسأله عن قتله ، فكتب مالك يأمره بقتله ، فقتل النصرانى . وكان والى مصر فى ذلك الوقت على بن سليمان الهاشمى .

وفى ولاية الحارث بن مسكين على القضاء من قبل المتوكل (٢٣٧ ـ ٢٤٥ هـ/ ٨٥١ ـ ٨٥٩ م) حكم بقتل نصرانى سب النبى (ص) أيضا ، بعد أن جلده الحد ، كما أمر بضرب عنق نصرانيين شهد عنده أنهما ساحران .

ومن أهم هذه القضايا ، قضية هدم كنيسة أبى شنودة ، وكانت فى ولاية محمد بن أحمد بن الحداد على القضاء من قبل الاخشيد (٣٢٤ ـ ٣٤٤هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٥٥م) . فيقول الكندى عن ابن زولاق : « إنه اتفق فى ذلك الحين أن كنيسة أبى شنودة انهدم جانبها ، وبذل النصارى مالا كثيرا ليطلق لهم عمارتها ، فاستفتوا الفقهاء ، فأفتى ابن الحداد بهدم عمارتها ، ووافقه أصحاب مالك . ولكن محمد بن على العسكرى أفتى بأن لهم أن يرموها

ويعمروها ، فثارت العامة به ، وهموا باحراق داره ، فاستتر ، وأحاطوا بالكنيسة . فبلغ ذلك الأمير فاغتاظ ، فأرسل وجوه غلمانه فى جمع كثير ، فاجتمع عليهم العوام ورموهم بالحجارة ، فراسلوه، فأرسل إلى ابن الحداد فقال : اركب إلى الكنيسة ، فان كانت قائمة فاتركها على حالها ، وان كانت دائرة فاهدمها . فتوجه ابن الحداد وصحبته على بن عبد الله بن النواس المهندس ، وكثر الزحام ، فلم يزل يرفق بهم باللفظ ويلين لهم القول ، ويعلمهم أنه معهم ، حتى فتحوا الدروب ، ودخل الكنيسة ، فأخرج جميع من فيها من النصارى ، وأغلق الباب ، ودفع للمهندس شمعة ، ودخل المذبح وكشفه وقال: يبقى خمسة عشر سنة ثم يسقط منها موضع ، ثم يبقى إلى تمام أربعين سنة ويسقط جميعها ، فأعاد الجواب ، فتركها ولم يعمرها ، فلما كان عام ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م (زمن الخليفة الفاطمى العزيز (نزار أبو منصور) ٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ ـ٩٩٦م) عمرت كلها ، ولو تركت لسقطت » .

ونلاحظ أن هناك من الحدود التى كانت على المسلم من طبقت على الذمى . فيقول أبو يوسف فى كتابه عن حد المسلم الذى يسرق من الذمى : إنه يلزمه مايلزم السارق المسلم ، وكذلك لو كان السارق ذميا يلزمه ما يلزم السارق المسلم .

كما يقول : « إن الذمى اذا استكره المرأة المسلمة على نفسها فعليه من الحد ماعلى المسلم فى قول فقهائنا » .

وعندما تولى حفص بن الوليد مصر فى ولايته الثانية عام ١٢٤ هـ / ٧٤١م بعدما أقره هشام بن عبد الملك عليها « أمر بقسم مواريث أهل الذمة على قسم مواريث المسلمين ، وكانوا قبل حفص يقسمون مواريثهم بقسم أهل دينهم » .

رابعا : قضاء الجند :

يقول جرجى زيدان عن قاضى الجند : « كان منصب قضاء الجند تارة يضاف إلى القاضى الحنفى ، وتارة يضاف إلى القاضى الشافعى ، وتارة

ينفـرد به قـاض حنفى ، ومـا زال إلا لأن قـاضـى العـسكر إنمـا ينتـفـع به فى الجـهاد ، ووقت خروج العـسكر » .

ومـعـنى ذلك أن قـضـاء الجند فى الدولة الإسـلامـيـة كـان يخـتلف عن المحاكم العـسكرية فى الدولة البيزنطية ، التى نشـأت للطبقة العسكرية . فقد اقـتصـر قـضـاء الجند فى الدولة الإسـلامـيـة على وقت الحـرب فقط ، فكان القاضى يخرج معهم .

ويقول الكندى عن ولاية غوث بن سليمان الحضرمى للقضاء فى مصر، من قبل أبى عون عبد الملك بن يزيد (١٣٥ ـ ١٤٠ هـ/ ٧٥٢ ـ ٧٥٧م) : « إن صـالح بن علـى لما نزل دابقـا [١] وحشد النـاس للصـائفة جعل على كل جند قـاضيا ، فشكوا تطويل القضـاء ، فذكر ذلك للمصـريين ، فقال له عمرو بن الحـارث : اجمعهم على غوث بن سليمان فانه يستضلع بهم » .

وقد أوردت الدكتـورة سيدة كاشف قولا للـخليفة هشـام بن عـبد الملك لواليه على مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩ ـ ١١٧هـ/ ٧٢٧ ـ ٧٣٥م) يقول فيه : « اصـرف يحـيى (وهـو القـاضى يحـيى بن مـيـمـون) عمـا يتـولاه مذمـومـا مدحورا، وتـخير لقضـاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب ، لا تأخـذه فـى الله لومـة لائم ». وعلقت على ذلك قـائلة إنه يستنبط من ذلك ـ أى من عبـارة (قضـاء الجند) ـ أن العرب فى مـصر حتى أيام الخليفة هشام بن عبد الملك لم يكونوا إلا جنودا ، أو أن الذين أسلموا من المصريين لم يكونوا سوى أقلية ، بدليل أنه لم يهـتم بالتـعمـيم فى خطابه بل خص القضـاء على الجند . ولكن قد يكون المقصود بكلمة جند هنا المنطقة الحربية .

وعلى العـموم فان المصـادر العربية لا توضـح لنا بصـورة مـفصلة قضـاء الجند فى الدولة الإسلامية .

الشهود :

يقـول آدم مـتـز : إن أهم مـا يسـتلفت النظر فى النظام القـضـائى الإسلامى ، هو إيجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضى . فقد كان

(١) دابق : بكسر الباء وقد روى بفتحها . وآخره قاف . قرية قرب حلب ، بينها وبين حلب اربع فراسخ .

يعاون القضاة طائفة من الشهود كانوا بمثابة موظفين دائمين ـ كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف ـ وكان الشاهد المعترف به يسمى الشاهد العدل ، ويعرف الشهود أيضا باسم العدول . وترى الدكتورة سيدة كاشف أن الشهود كانوا يشبهون من بعض الوجوه مشايخ البلاد أو مشايخ الحارات فى عصرنا الحالى ، فكان على كل شاهد أن يعرف أحوال أهل الحى الذى يسكنه ومنازعاتهم وخصوماتهم ، ومن أجل ذلك كان لشهادة هؤلاء الشهود قيمتها الخاصة فى القضاء . ولذلك عنى قضاة هذا العهد عناية كبيرة بأحوال الشهود الذين يتقدمون للشهادة فى المحاكم .

وكان اختيار الشهود من ضمن عمل القاضى فيقول ابن خلدون : إن من ضمن سلطة القاضى « تصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ، ليحصل له الوثوق بهم » . وعندما يترك القاضى منصبه يبطل عمل العدول الذين عينهم للشهادة ، ويجىء القاضى الجديد ليعين من يثق به ، وربما يوافق على بعض شهود القاضى السابق .

وعن نشأة الشهود يقول الكندى : وكان القضاة اذا شهد عندهم أحد ، وكان معروفا بالسلامة ، قبله القاضى ، وإن كان غير معروف بها أوقف ، وإن كان الشاهد مجهولا لا يعرف سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به . وقد استمر هذا الوضع حتى تولى القضاة فى مصر للمرة الثانية غوث بن سليمان (١٤٠ ـ ١٤٤ هـ / ٧٥٧ ـ ٧٦١ م) فى خلافة المنصور، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر، وكان سبب ذلك كما يقول الكندى « تفشى ظاهرة شهادة الزور فى زمانه».

وعن الاهتمام بأمانة الشهود يذكر الكندى عن توبة بن نمر، الذى تولى القضاء من قبل الوليد بن رفاعة (١١٥ ـ ١٢٠هـ/ ٧٣٣ ـ ٧٣٧)، «أن رجلا وامرأة اختصما عنده فطلقها . فقال توبة : متعها . فقال : لا أفعل. قال : فسكت عنه، لأنه لم يره لازما له. فأتاه الرجل الذى طلق امرأته فى شهادة، فقال له توبة: لست قابلا شهادتك. قال: ولم ؟ قال: إنك أبيت أن تكون من المحسنين، وأبيت أن تكون من المتقين. ولم يقبل له شهادة» .

وعندما تولى المفضل بن فضالة ولايته الثانية على القضاء(١٧٤ ـ ١٧٧هـ/٧٩٠ ـ ٧٩٣م) اتخذ «صاحب مسائل» يسأل عن الشهود، وكان أول من اتخذه. وعين فى هذه الوظيفة كاتبه فليج بن القمرى، فتحدث الناس أنه كان يرتشى من أقوام ليذكرهم بالعدالة.

كما اتخذ أقواما للشهادة، فيقول الكندى: «لم يكن يتبع القاضى فيما مضى غير كاتبه، ومن يقوم بين يديه فى مجلس الحكم، حتى كان المفضل فى ولايته الثانية، فانه رسم أقواما للشهادة، فكانوا عشرة رجال» .

ويذكر الكندى أن اتخاذه للشهود قد أثار العديدين ضده، فقال اسحاق ابن معاذ:

سأدعو إلهى حتى الصباح	لكيما يعيدك كلبا هزيلا
سننت لنا الجور فى حكمنا	وصيرت قوما لصوصا عدولا
ولم يسمع الناس فيما مضى	بأن العدول عديدا قليلا

وعندما تولى بعده القاضى محمد بن مسروق من قبل هارون الرشيد (١٧٧ ـ ١٨٤هـ/٧٩٣ ـ ٨٠٠م) اتخذ أيضا قوما للشهادة رسمهم بها.

وعندما تولى بعده القاضى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى القضاء من قبل هارون الرشيد (١٨٥ ـ ١٩٤هـ/٨٠١ ـ ٨٠٩م) أمر باتخاذ الشهود أيضا، غير أنه «جعل أسماءهم فى كتاب وهو أول من فعل ذلك، ودونهم، وأسقط سائر الناس. ثم فعلت ذلك القضاة من بعده».وجعل أشهب بن عبدالعزيز على مسائله، وضم اليه يحيى بن عبد الله بن حرملة، ويحيى بن عبد الله بن بكير.

ويقول عنه الكندى: إنه كان أكثر القضاة شهودا، فقد اتخذ مائة شاهد من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار، إلا أنه فيما بعد أسقط جمعا من هؤلاء الشهود، وأضاف عليهم حوالى ثلاثين رجلا من الفرس.

وعندما تولى لهيعة بن عيسى القضاء بمصر للمرة الثانية من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٩ ـ ٢٠٤هـ/٨١٤ ـ ٨١٩)، جعل على

مسائله سعيدا بن تليد، وأمره أن يجدد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة فى كل ستة أشهر، فمن حدثت له جرحه (١) أوقفه. ويذكر الكندى أنه جعل من الشهود بطانته، وكان عددهم ثلاثون رجلاً.

وقد بلغ من اهتمام القضاة بالسؤال عن الشهود أن القاضى عيسى بن المنكدر، الذى تولى القضاء من قبل عبد الله بن طاهر (٢١٢ ـ ٢١٤هـ/٨٢٧ ـ ٨٢٩م)، كان يتنكر بالليل، يغطى رأسه، ويمشى فى السكك يسأل عن الشهود.

ويبدو لنا أن اختيار الشهود كان يتم فى الطبقة العليا من المجتمع، أى من الأسرات الكبيرة فى البلاد، أو من وجوه القوم. لذلك عندما عين عيسى بن المنكدر عبد الله بن عبد الحكم على مسائله، كان أول من بدأ فى اختيار الشهود من كافة الطبقات، فيقول الكندى: «إن عيسى بن المنكدر جعل عبد الله بن عبد الحكم على مسائله، فأدخل فى العدالة من لاقدر له، ولا بيت: فلان الحائك، وفلان البياع .... قال ابن عفير: فأخبرت أن أبا خليفة حميد ابن هاشم الرعينى لقيه، فقال له: ياابن عبد الحكم قد كان هذا الأمر مستورا فهتكته، وأدخلت فى الشهادة من ليس لها أهلا. فقال له ابن عبد الحكم: إن هذا الأمر دين، وإنما فعلت ما يجب علىّ».

وعندما ظهرت محنة خلق القرآن فى زمن المأمون (٢١٨/٨٣٣م) تأثر اختيار الشهود تبعا لامتحانهم، فيقول الكندى: «كان هارون بن عبد الله اذا شهد عنده شاهدان سألهما عن القرآن فان أقرا بأنه مخلوق قبلهما، وإلا أوقف شهادتهما. فكانت هذه المحنة من سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م الى أن قام المتوكل سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م».

وعندما تولى القضاء محمد بن موسى السرخسى (٣٢٢هـ/٩٣٣م) أكثر الشهود التردد عليه، فقال لهم: مالكم معاش عندنا، فلا يجيىء أحد منكم إلا لحاجة أو لشهادة. ويعلق آدم متز على هذه الواقعة بأن الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين.

---

(١) الجرحة ماتجرى به شهادة الخصم او حجته اى تسقط

وحوالى هذا الوقت أى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كان الرسم أن يجلس مع القاضى عند نظره فى القضايا أربعة شهود، اثنان يجلسان عن يمينه، واثنان عن يساره. ويتضح من ذلك أن هذا النظام كان يشبه نظام المحلفين فى الغرب.

أماكن انعقاد المحاكم:

لم يكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا، إنما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وأحيانا كان القاضى يجلس للحكم فى منزله أو فى منزل غيره. ويرى آدم متز أن القاضى كان يجلس للحكم فى الجامع، لأن جلسات القضاء كانت علنية، فيجلس فى الجامع حيث لايمنع أحد من المسلمين من الدخول اليه.

ويقول الكندى عن القاضى خير بن نعيم (١٢٠ ـ ١٢٧هـ/٧٣٧ ـ ٧٤٤م) إنه كان يقضى فى المسجد بين المسلمين، كما كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره، فكان يجلس فيه فيسمع مايجرى بين الخصوم من كلام.

وعندما تولى القضاء ابراهيم بن الجراح من قبل السرى بن الحكم (٢٠٥ ـ ٢١١هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٢٦م) جلس للحكم فى منزله، ويرجع السبب فى ذلك الى طرده من الجامع، فيقول الكندى: «ولى السرى ابراهيم بن الجراح فأمر بمصلاه، فوضع فى المسجد الجامع، واجتمع المصريون فألقوه فى الطريق، فما تكلم فيه السرى بشىء»، وجلس ابراهيم بن الجراح للحكم فى منزله، فلم يعد الى المسجد الجامع حتى صرف» . وهنا نرى وحدة المصريين لطرد قاضى ظالم من المسجد، وعجز الوالى عن طرده رغم معرفته بظلمه.

أما القاضى هارون بن عبد الله، فعندما تولى القضاء من قبل المأمون (٢١٧ ـ ٢٢٦هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٤٠م) جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد، واستدبر القبلة، وأسند ظهره بجدار المسجد، ومنع المصلين أن يقربوا منه، وباعد كتابه عنه، وباعد الخصوم، وكان أول من فعل ذلك. ثم اتخذ مجلسا للصيف فى صحن المسجد، وأسند ظهره للحائط الغربى.

وعندما تولى القاضى عبد الله بن أحمد بن زبر القضاء من قبل المقتدر عام ٣١٧هـ/٩٢٩م ـ وذلك فى أثناء ولاية تكين على مصر للمرة الثالثة من قبل الخليفة المقتدر عام ٣١١ ـ ٣٢١هـ/٩٢٣ ـ ٩٣٣م ـ كان يجلس للقضاء يومين فقط فى الأسبوع، وهما يوما الاثنين والخميس، ويظهر لنا ذلك من النص الذى ذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى فهو يقول: كان «يجلس فى كل اثنين وخميس لابسا للسواد وفى سائر الأيام بالبياض». وكان القاضى لبسه الرسمى هو السواد، وكان ملزما بلبسه، لذلك فهو يلبس السواد فى الأيام التى يقضى بها، ولكنه غير ملزم به فى باقى الأيام.

وكان القاضى محمد بن أحمد بن الحداد الذى تولى قضاء مصر (٣٢٤ـ ٣٢٥هـ/٩٣٥ ـ ٩٣٦م) من قبل الاخشيد محمد بن طغج ـ يجلس فى الجامع، وفى داره، وفى دار ابن أبى زرعة. حتى تولى عمر بن الحسن قضاء مصر (٣٣٦ ـ ٣٣٩هـ/٩٤٧ ـ ٩٥٠م) فاستخلفه (أى محمد بن أحمد بن الحداد) فى الأحكام، فكان يجلس فى دار العباس يومى الخميس والسبت، وفى داره يوم الاثنين.

على أن جلوس القاضى فى المسجد لم يلبث أن أبطل حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى، عندما رأى أهل السنة أن جلوس القاضى فى المسجد يتافى مايجب لبيوت الله من الحرمة، فأمر المعتضد عام ٢٧٩هـ/٨٩٢م ـ وكان ذلك فى ولاية خماوريه بن أحمد بن طولون على مصر عام ٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ/ ٨٨٣ ـ ٨٩٥م ـ ألا يقعد القضاة فى المسجد.

وقد كانت العادة أن يبسط المتحاكمون الى القاضى فى العصر الأول قضيتهم وهم وقوف بين يديه، ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدى القاضى صفا متساويين .

إنشاء سجل للقضاة تدون فيه القضايا :

لم يكن للقضاة فى البداية سجل تدون فيه الأحكام، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها، ويقوم القاضى بتنفيذها بنفسه. وظل الأمر كذلك حتى

نهاية عهد الخلفاء الراشدين. على أن الأمر اختلف بمجيء العصر الأموى، فقد أدى تناكر الخصوم الى انشاء هذه السجلات.

وكان أول القضاة الذى سجل سجلا بقضائه هو قاضى مصر سليم ابن عتر (٤٠ ـ ٦٠هـ/٦٦٠ ـ ٦٨٩م)، وكان السبب فى ذلك كما يذكر الكندى أنه فى أثناء ولايته للقضاء اختصم اليه فى ميراث، فقضى بين الورثة، ثم تناكروا، فعادوا اليه، فقضى بينهم، وكتب كتابا بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند .

كذلك لم يكن للقاضى أرشيف خاص تصان فيه كتبه وأوراقه، بل كان كاتب القاضى يحضر، ومعه الكتب فى منديل، فاتخذ القاضى محمد بن المسروق الكندى (١٧٧ ـ ١٨٤هـ/٧٩٣ ـ ٨٠٠م) لنفسه قمطرا [١] يحفظ فيه أوراقه، وكان يختمها قبل أن يودعها القمطر، واذا جلس للقضاء أحضرت وظلت هذه العادة متبعة من بعده.

وعندما تولى عيسى بن المنكدر القضاء من قبل عبد الله بن طاهر (٢١٢ـ ٢١٤هـ/٨٢٧ ـ ٨٢٩م) كان القمطر فى ولايته للقضاء يرفع فى حانوت فى دار عمرو بن خالد، فعندما فسدت قضية منها أبى عمرو بن خالد أن يدخلها داره، فاكترى لها منزلا فى دار عمرو بن العاص، اذا انصرف عيسى جعلت فيه، وختم الباب .

وفى العصر الاخشيدى كانت أوراق القضايا تحفظ فى سلال وتختم.

وكان للقضاة كتاب يساعدونهم فى كتابة الأحكام، ومن المفترض أن يكونوا من أهل الفقه والعلم، كما كان لهم حجاب يستأذنون للناس وللشهود للدخول الى القاضى .

وينبغى للقاضى أيضا أن يتخذ ترجمانا اذا اختصم اليه من لا يعرف لغته، ويشترط فى الترجمان أن يكون ثقة مسلما مأمونا. ويكفى واحد، والاثنان أحوط .

---

(١) القمطر والقمطر جمع قماطر: ماتصان فيه الكتب .

وكانت عادة المتحاكمين ـ كما يذكر آدم متز ـ أن يتقدموا للقاضى برقاع ، يذكر فى الرقعة منها اسم المدعى واسم خصمه وأبيه . وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل مجىء القاضى ، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضى . وإذا كانت الرقاع كثيرة ولا يقدر القاضى أن يدعو بها كلها فى يوم ، فرقها فى كل يوم خمسين رقعة ، أو أكثر من ذلك على قدر طاقته فى الجلوس والصبر .

رواتب القاضى :

كان القضاة يأخذون مرتباتهم من بيت مال المسلمين ، فيقول أبو يوسف موجها كلامه للخليفة الرشيد : « ما يجرى على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين ، من جباية الأرض أو من خراج الأرض والجزية لأنهم فى عمل المسلمين ، فيجرى عليهم من بيت مالهم ... وأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك ، من رأيت أن تزيده فى رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت » . وهكذا أصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩م) لم يتناول معظم القضاة راتبا ، لأنه كان يرى أن القاضى لا يجوز له أن يتناول راتبا لقاء قيامه بهذه الخدمة الدينية . وهذا يفسر أنهم كانوا يحتفظون بمهنتهم .

ويرى الدكتور على حسنى الخربوطلى أن القضاة كانوا يمنحون مرتبات سخية ، حتى لا تدفعهم الحاجة إلى أخذ الرشا .

غير أنه يبدو لنا أن كثيرا من القضاة كانوا فى ترف من العيش ، سواء من المرتبات الكبيرة التى يتقاضونها ، أو من الإرتشاء ، لذلك نجد الكندى يشير إلى رأى أحد الاشخاص فى القاضى هارون بن عبد الله ، الذى تولى القضاء من قبل المأمون (٢١٧ ـ ٢٢٦هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٤٠م) ، فهو يقول : « ما رأيت قاضيا مثل هارون بن عبد الله ، ما استفاد عندنا إلا دارا ، فلما

انصرف باعها ، وتحمل بثمنها » . وهكذا نرى كيف أنه يتعجب من هذا القاضى الذى لم يستفد من وظيفته ، ولم يكسب منها إلا دارا ، وأنه حتى عندما عزل من وظيفته اضطر أن يبيعها ليسافر بثمنها .

ومما يدل على ذلك ما يذكره أبو المحاسن من أن المأمون أرسل رسالة إلى اسحاق بن ابراهيم (١) يقول له فيها : « وأما الفضل بن غانم (تولى القضاء من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ ـ ١٩٩هـ/ ٨١٣ ـ ٨١٤م)، فأعلمه ، أنه لم يخف على أمير المؤمنين ماكان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ـ يعنى فى ولايته القضاء» ! وهكذا كان الخلفاء على علم بتجاوزات القضاة .

وتقول الدكتورة سيدة كاشف إن رزق القاضى فى أول عصر الولاة كان بسيطا ، ثم أخذ يرتفع تدريجيا . لقد كان رزق القاضى حتى قرب نهاية القرن الأول الهجرى حوالى مائتى دينار فى السنة ، فأصبح فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى عشرين دينارا فى الشهر ، ثم صار فى بداية النصف الثانى من هذا القرن حوالى ثلاثين دينارا فى الشهر ، وفى نهاية القرن الثانى الهجرى وصل رزق القاضى إلى مائة وثمانية وستين دينارا فى كل شهر .

وقد ذكرت المصادر العربية نماذج من أرزاق بعض القضاة تتفاوت تفاوتا كبيرا . فقد كان رزق القاضى عبد الرحمن بن حجيرة الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٦٩ ـ ٨٣ هـ/ ٦٨٨ ـ ٧٠٢م) من القضاء مائتى دينار ، وفى القصص مائتى دينار ، ورزقه فى بيت المال مائتى دينار ، وكان عطاؤه مائتى دينار ، وكانت جائزته مائتى دينار ـ أى ألف دينار فى السنة .

---

(١) هو أبو محمد اسحاق بن ابراهيم بن ماهان المعروف بابن النديم الموصلى . كان من ندماء الخلفاء وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما ، وكان من العلماء باللغة والأشعار وأخبار الشعراء وأيام الناس . روى عنه مصعب بن عبد الله الزبيرى ، والزبير بن بكار وغيرهما .
وكان المأمون يقول : لولا ما سبق لاسحاق على السنة الناس ، واشتهر بالغناء لوليته القضاء ، فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة . ولد عام ١٥٠ هـ وتوفى عام ٢٣٥ هـ أو ٢٣٦هـ .

وكان مالك بن شراحبيل الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٣ ـ ٨٤ هـ/ ٧٠٢ ـ ٧٠٣م) يتقاضى من الحجاج فى كل سنة حلة (ثوب) وثلاثة آلاف درهم . ولا ندرى هل كان ذلك زيادة فوق المرتب ، أو هو قيمة المرتب نفسه .

وكان رزق عبد الرحمن بن سالم الذى تولى القضاء من قبل حوثرة بن سهيل (١٢٨ ـ ١٣٣هـ / ٧٤٥ ـ ٧٥٠م) ـ عشرة دنانير فى الشهر. فيقول الكندى : إنه قد وجدت فى ديوان بنى أمية براءة زمن مروان بن محمد، فيها: « بسم الله الرحمن الرحيم، من عيسى بن أبى عطاء إلى خزان بيت المال، فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقة لشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً ، واكتبوا بذلك البراءة، وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١هـ» .

وكان رزق أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى ـ الذى تولى القضاء من قبل يزيد بن حاتم (١٤٤ ـ ١٤٥ هـ/ ٧٦١ ـ ٧٦٢م) ـ عشرة دنانير فى الشهر ، وكان لا يأخذ ليوم الجمعة رزقا ويقول : « إنما أنا أجير المسلمين ، فاذا لم أعمل لهم ، لم آخذ متاعهم » .

وكان رزق عبد الله بن لهيعة الحضرمى الذى تولى القضاء من قبل الخليفة المنصور (١٥٥ ـ ١٦٤ هـ/ ٧٧١ ـ ٧٨٠م) ثلاثين دينارا فى الشهر .

وكان رزق المفضل بن فضالة الذى تولى القضاء من قبل الخليفة المهدى (١٦٨ ـ ١٦٩هـ/٧٨٤ ـ ٧٨٥م) ـ ثلاثين دينارا فى الشهر. ويقال إنه «كان يجعل منها عشرا فى عسل». ويفهم من ذلك ـ أغلب الظن ـ أنه كان يأخذ مرتبه نقدا وعينا (عسلا). ويقول آدم متز: فكان يأخذ عسلا بدل عشرة منها.

وكان رزق الفضل بن غانم الخزاعى ـ الذى تولى القضاء من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ ـ ١٩٩هـ/٨١٣ ـ ٨١٤م) ـ مائة وثمانية وستين دينارا فى كل شهر، ويقول الكندى : إنه «أول قاض أجرى عليه هذا».

وكان رزق عيسى بن المنكدر الذى تولى القضاء من قبل عبد الله بن طاهر (٢١٢ ـ ٢١٤هـ/٨٢٧ ـ ٨٢٩م) ـ مائة وثلاثة وستين دينارا فى كل شهر، وفى رواية أخرى أنه أجرى عليه أربعة آلاف درهم فى الشهر، «وهو أول قاض أجرى عليه ذلك» وأجازه بألف دينار.

أما رزق بكار بن قتيبة الذى تولى القضاء من قبل المتوكل (٢٤٦ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٠ ـ ٨٨٣م) ـ فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن المتوكل أجرى عليه فى الشهر مائة وثمانية وستين دينارا، فلم يزل يجرى عليه طول حياته، وأن أحمد بن طولون كان يجيزه فى كل سنة ألف دينار، وأنه عندما غضب منه بسبب رفضه لعن الموفق، أرسل اليه يسترد جوائزه. ويقال إنها كانت على حالها، فأحضرت من منزله بخواتيمها ستة عشر كيسا (وفى رواية أخرى ثمانية عشر كيسا) فقبضها أحمد بن طولون.

أما رزق محمد بن عبدة ـ الذى تولى القضاء من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٧ ـ ٢٨٣هـ/ ٨٩٠ ـ ٨٩٦م) ـ فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن خمارويه كان يجرى عليه فى كل شهر ثلاثة آلاف دينار، ولعل المقصود ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ هنا كل سنة وليس كل شهر، أو لعلها ثلاثة آلاف درهم.

أما رزق أبو عبيدة على بن الحسين بن حرب (٢٩٣ ـ ٣١١هـ/ ٩٠٥ ـ ٩٢٣م) ـ وكان ذلك فى أثناء ولاية عيسى النوشرى على مصر من قبـ المكتفى عام (٢٩٢ ـ ٢٩٧هـ/ ٩٠٤ ـ ٩٠٩م) ـ فيذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن رزقه فى الشهر كان مائة وعشرين دينارا.

نظام السجون :

لم يكن السجن، بمعناه المعروف الآن، موجودا زمن الرسول (ص) ولا فى عهد أبى بكر وانما استحدث فى عهد عمر بن الخطاب عندما اشترى بيت صفوان بن أمية فى مكة وحوله الى سجن. فكان عمر أول مؤسس للسجون فى الاسلام، وقد تلى ذلك تأسيس سجون أخرى مماثلة لهذا فى المراكز الهامة للولاية.

على أنه اذا كانت السجون قد ظهرت فى عهد عمر بن الخطاب إلا أنها نظمت فى عهد الأمويين على يد عمر بن عبد العزيز، فقد أوجد لها ديوانا يشرف عليها، وكان ينظر بنفسه فى أمرها. وكان المسجونون يتمتعون بالرعاية، اكتفاء بحرمانهم من حرياتهم، فكان يكتب للمسجونين برزق الصيف والشتاء، وتكون لهم كسوة الصيف والشتاء، ومن يمرض يعتنى به، كما أمر ألا يقيد أحد فى المحابس بقيد يمنعه من اتمام الصلاة. كذلك أمر عمر بن عبد العزيز بالفصل بين فئات المسجونين - أى بين من يسجن فى دين، ومن يسجن فى جريمة. وقد جعل للنساء حبسا على حده . على أنه بعد العصر الأموى ساءت حالة المسجونين، ولم يعد السجن مكان اصلاح وتهذيب، ولكن مكان انتقام وتعذيب.

وتذكر المصادر العربية أن عدد المسجونين فى عصر الدولة الطولونية بلغ ثمانية عشر ألفا. ويرى الدكتور على ابراهيم حسن أن هذا الرقم ليس عجيبا فى وقت كان الوالى يعتمد فيه على عيون ترصد له حركات منافسيه، بل تأتيه بمخاطبات أعدائه.

على أن المسجونين لم يكونوا جميعا يسجنون لاسباب سياسية، وانما اختلفت أسباب حبسهم كما اختلفت طريقة سجنهم، فهناك نوع من الحبس يؤمر فيه المسجون بأن يلزم داره، فلا يخرج منها ولا يتصل بالخارج، وهناك نوع آخر من السجن ينقل المسجون اليه عقب الحكم عليه. على أن المسجونين لم يكلفوا بأعمال شاقة لحساب الدولة، بل كانوا يقومون بصنع بعض الأشياء لحسابهم الخاص، وبذا عاشوا فى السجن عيشة تقرب من الحياة العادية دون ارهاق أو تعذيب.

ويقول البلوى: إن السجون عرفت فى الدولة الطولونية باسم «المطبق»، وهى سجون تحت الأرض. وقد يكون هذا نوع ثالث من أنواع السجون.

وقد ذكر موسى بن مصلح، أحد العاملين على سجون أحمد بن طولون، أن أحمد بن طولون «كان يراعى أمر المحبوس حتى يمضى له حول،

فاذا جازه لم يذكره»، وكان يقول لى سرا «اذا تبينت من رجل براءة ساحته، فسهل عليه واستأمرنى [1] فانى أستعمل التشدد للضرورة اليه».

أما أشهر مسجون فى الدولة الطولونية فهو القاضى بكار بن قتيبة ـ كما ذكرت سابقا ـ وقد سجن عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م حتى مرض أحمد بن طولون مرضه الذى توفى فيه، وكان سجنه بسبب رفضه لعن الموفق. ولم يسجن فى سجن الدولة، وانما اكتريت له دار، كان فيها طاق (نافذة) يجلس يتحدث فيها، ويكتب عنه وهو فى السجن. وقد ذكرت سابقا أن أحمد بن طولون كان عندما يعقد مجلس النظر فى المظالم كان يستدعيه، وعندما ينتهى المجلس يعود الى سجنه مرة أخرى.

ويقول الكندى: إنه «اذا كان يوم الجمعة اغتسل غسل الجمعة، ولبس ثيابه، ثم خرج الى السجان، فيقول له السجان: الى أين تريد؟ فيقول له بكار: أريد صلاة الجمعة. فيقول له السجان: لا سبيل الى ذلك. فيقول بكار: الله المستعان».

وعندما توفى أحمد بن طولون أطلق سراحه، إلا أنه رفض الخروج، وطلب تأجير الدار التى سجن بها لأنه كما يقول: « قد أنست بها » ! وقد أقام بكار بن قتيبة فى الدار بعد موت أحمد بن طولون أربعين يوما، ثم مات وكان ذلك فى عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م.

ومن الذين سجنهم أحمد بن طولون أيضا أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وكان أحد عمال الخراج فى زمنه. ويقول عنه ابن دقماق إنه «مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه واصطفى أمواله، وذلك فى عام ٢٦٦هـ/٨٧٩م. ومن المسجونين أيضا أحمد بن مدبر.

وكان أشهر مسجون فى الدولة الاخشيدية هو محمد بن على الماذرائى، فقد قبض عليه الاخشيد فى عام ٣٣١هـ/٩٤٢م وكان سجنه عبارة عن «دار أعد له فيها من الفرش والآلات والأوانى والملابس والطيب والطرائف وأنواع

(١) استأمر: شاور.

المأكل والمشارب مابلغ فيه الغاية، وتفقدها بنفسه وطافها كلها، فقيل له: عملت هذا كله لمحمد بن على الماذرائى؟ فقال : نعم، هذا ملك، وأردت أن لا يحتقر بشىء لنا، ولا يحتاج أن يطلب حاجة الا وجدها، فانه إن فقد عندنا شيئا مايريده، استدعى به من ·اره، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك». وقد ظل معتقلا حتى أخرج فى زمن ٓ افور، وردت اليه ضياعه وضياع ابنه.

الفهرس

طبقة التجار :

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٢٢٤٣

I.S.B.N 977-01-3683-2



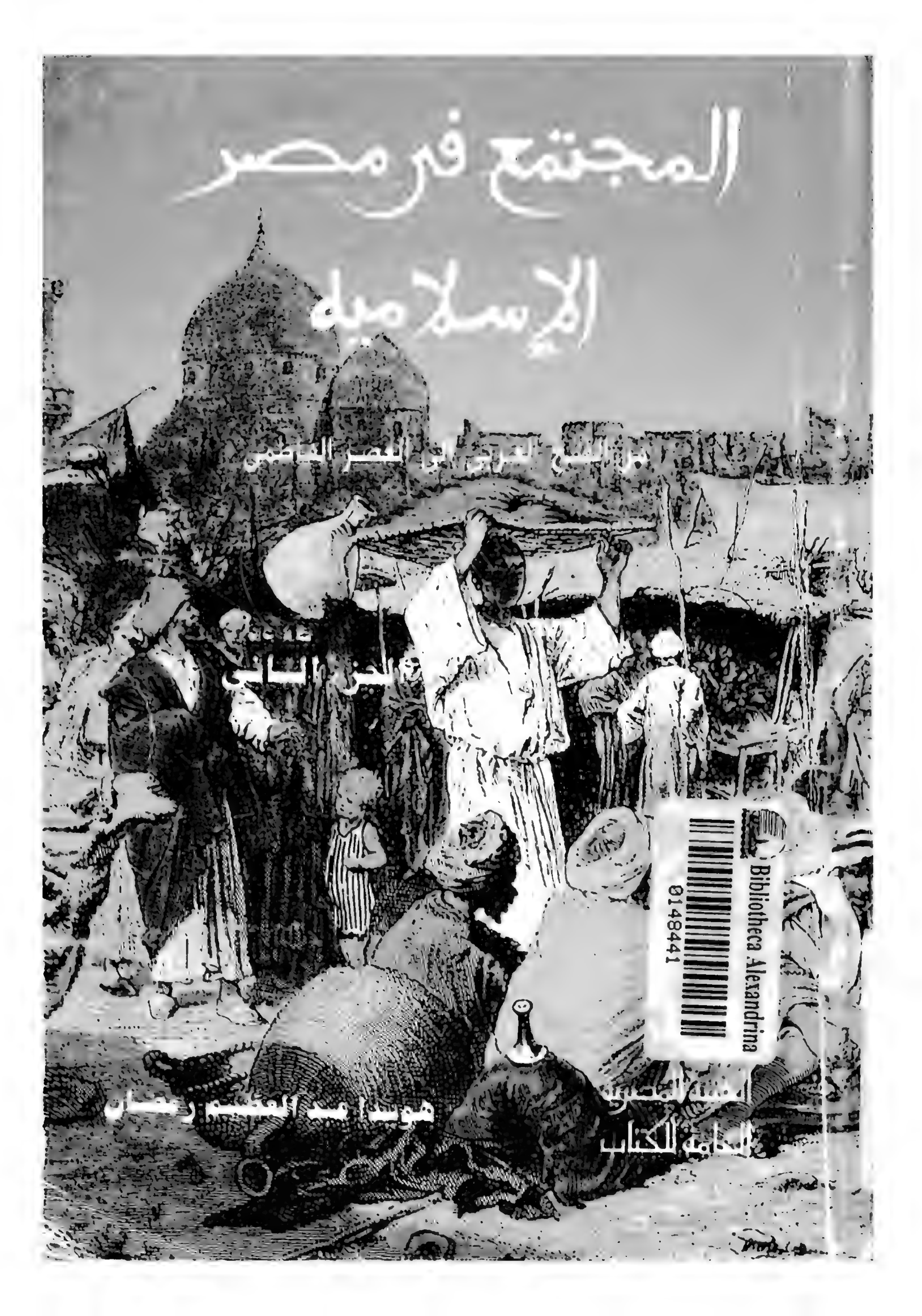
هذا الكتاب

فى الأصل رسالة علمية تعالج مرحلة ربما كانت أهم مراحل التحول فى تاريخ مصر الطويل ، وهى مرحلة التحول من الحكم البيزنطى إلى الحكم العربى ، ومن الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى ، ومن اللغة القبطية ـ اليونانية إلى اللغة العربية ، ومن الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، ومن الشريعة والقوانين المسيحية إلى الشرائع والقوانين الإسلامية ، ومن العادات والتقاليد القبطية إلى العادات والتقاليد العربية ـ الإسلامية ، ومن الفنون القبطية إلى الفنون الإسلامية . وفى عبارة وجيزة من الحضارة القبطية ـ الاغريقية إلى الحضارة الإسلامية العربية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١٧٥ قرشا

تصميم الغلاف احمد عبد الغفار


المجتمع في مصر
الإسلامية
الجزء الثاني
الهيئة المصرية
العامة للكتاب
Bibliotheca Alexandrina
0148441

المجتمع فى مصر الإسلامية

من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى

المجتمع فى مصر الإسلامية

من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى

الجزء الثانى

بقلم

هويدا عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الباب الثالث

التكوين الاجتماعى للمجتمع المصرى

الفصل الأول : تعريب المجتمع المصرى

الفصل الثانى : المرأة فى المجتمع المصرى

الفصل الثالث : العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى

الفصل الأول

تعريب المجتمع المصرى

- هجرة القبائل العربية

- الفتح العربى وبداية نزوح القبائل العربية إلى مصر.

- مناطق سكنى القبائل العربية بعد الفتح العربى :

- الفسطاط

- الجيزة

- الاسكندرية

- العوامل التى أدت إلى هجرة القبائل العربية.

- أسباب اختلاط القبائل العربية بالمصريين:

- حركة الارتباع

- رابطة الاسكندرية

- الضيافة

- مطالب الحياة اليومية

- **الأعمال التى اشتغل بها العرب فى مصر**

- **ثورات العرب.**

- **أسماء القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر حسب مناطق سكناها**

- انتشار اللغة العربية:

.أسباب انتشار اللغة العربية:

- هجرة القبائل العربية.

- حركة التعريب.

انتشار الاسلام :

عوامل انتشار الاسلام:

- هجرة القبائل العربية.

- الرغبة فى التخلص من دفع الجزية.

- تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى الوظائف.

الفصل الأول

تعريب المجتمع المصرى

اصطبغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية بثلاث طرق رئيسية:

الأولى : هجرة القبائل العربية.

الثانية : انتشار اللغة العربية.

الثالثة : انتشار الإسلام.

اولا: هجرة القبائل العربية:

كان من الطبيعى أن يشجع الفتح العربى لمصر، وتملك العرب زمام السلطة فيها - الكثير من القبائل العربية على الهجرة الى مصر. وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة هجرات عربية الى مصر قبل حملة عمرو بن العاص، وانما يذكر المؤرخون أخباراًعن هجرة بعض بطون خزاعة فى الجاهلية الى مصر والشام لأن بلادهم أجدبت كما كان يعيش فى الأسكندرية فى عام ٦١٠م كثير منْ العرب الى جانب غيرهم من الاغريق والقبط واليهود والسوريين.

ويرى «بندلى جوزى» أن الدافع لهجرة العرب الى مصر قبل الفتح العربى هو جفاف أرضهم المستمر وما يتبع ذلك من الضيق والفقر.

وقد كان غنى مصر معروفا للعرب قبل الاسلام عن طريق العلاقات التجارية بينهما، وقد ذكرت فى فصل سابق أن عمرو بن العاص - وهو الذى قاد الحملة لفتح مصر - كان تاجرا فى الجاهلية، وكان يأتى بتجارته الى مصر وهى الأدم والعطر، وهكذا كان التجار العرب على معرفة تامة بأحوال

مصر الاقتصادية المزدهرة، لذلك يقول ابن عبد الحكم عن عمرو بن العاص:«كان عمرو قد دخل مصرفى الجاهلية، وعرف طرقها، ورأى كثرة ما فيها».

وقد بدأ أول نزوح للقبائل العربية الى مصر مع حملة عمرو بن العاص. فتذكر المصادر العربية أن عمرو عندما فتح مصر كان معه أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل «كلهم من عك» وفى رواية أخرى أن ثلثهم من غافق، وأنه فى أثناء توجهه إلى مصر، وبالتحديد عندما وصل إلى جبل الحلال [1]، انضمت اليه قبيلة راشدة وقبائل من لخم.

كما تشير المصادر أيضا الى أسماء لقبائل أخرى اشتركت مع عمرو بن العاص فى الفتح، وخاصة فى فتح قصر بابليون وهم: بنو هَمْدان، وبنو الصدف، وبنو بَلَىّ، فقد قال عمرو بن العاص عنهم أثناء فتح قصر بابليون:

يوم لِهَمْدان ويوم للصَّدِف والمَنْجَنيق فى بَلَىّ تختلف.

أما عن أماكن سكنى هذه القبائل، فتذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما تم له فتح الاسكندرية نزل موضعَ فسطاطه، واتخذها عاصمة لمصر، وهنا انضمت القبائل العربية بعضها الى بعض، وتنافسوا فى المواضع، فولَّى عمرو بن العاص على الخطط معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سُمىّ الغطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى، وحَيْويل بن ناشرة المعافرى، فقاموا بالفصل بين القبائل، وأنزلوهم فى الخطط، وكان ذلك فى عام ٢١هـ / ٦٤١م.

كما اختط العرب مدينة الجيزة على غرار خطط الفسطاط، وقد ذكرت المصادر العربية فى سبب بناء الجيزة أن عمرا بن العاص عندما رجع مَن الأسكندرية، ونزل الفسطاط، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية. ولما استقر فى الفسطاط أمر الذين خلفهم بالجيزة

---

(١) جبل الحلال: بالفتح، وهو جبل فى طريق مصر من الشام، وكان من منازل بنى راشدة.

أن ينضموا إليه، فرفضوا أن يتركوا أماكنهم، فكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب اليه عمر: « كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك؟ لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينهم وبينك بحر، لاتدرى مايفجؤهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ماتكره فاجمعهم اليك، فإن أبوا عليك، وأعجبهم موضعهم، فابن عليهم من فئ المسلمين حصنا». فجمعهم عمرو، وأخبرهم بكتاب عمرين الخطاب، فامتنعوا من الخروج من الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن، فبنى فى عام ٢١هـ/ ٦٤١م، وفرغ من بنائه عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م، وأمرهم عمرو بالخطط بها.

أما الأسكندرية، فيذكر ابن عبد الحكم انه لم يكن بها خطط، وانما كانت أخائذ، من أخذ منزلا، نزل فيه هو وبنو أبيه.

وكانت سكنى القبائل فى الأسكندرية فى هذه الفترة المبكرة للفتح - مرتبطة برباطهم. وقدذكرت فى فصل سابق أن عمرا بن العاص أقطع من أصحابه لربط الأسكندرية ربع الناس، وربعا فى السواحل، والنصف كانوا مقيمين معه، وكان مدة رباطهم[٢] بالاسكندرية ستة أشهر فى الصيف، يعقبهم شاتية ستة أشهر وهكذا.

وعن طريق سكنى الأسكندرية يقول ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب : «إن المسلمين لما سكنوها فى رباطهم، ثم قفلوا [٣] ثم غزوا، إبتدروا[٤] فكان الرجل يأتى المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدر، فيسكنه. فلما غزوا، قال عمرو: إنى أخاف أن تخربوا المنازل اذا كنتم تتعاورونها[٥] فلما كان عند الكريون [٦] قال لهم: سيروا على بركة الله، فمن ركز منكم رمحه فى

(٢) الرباط: المكان الذى يرابط فيه الجيش. والجمع ربط.

(٣) قفل : رجع.

(٤) إبتدر القوم أمرا: بادر بعضهم بعضا اليه، أيهم يسبق اليه .

(٥) تعاور واعتور القوم الشئ : تعاطوه وتداولوه.

(٦) الكريون: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحتها، وواو ساكنة، ثم نون.اسم لموضع قرب الأسكندرية والكريون بمركز كفر الدوار - مديرية البحيرة.

دارفهى له، ولبنى أبيه، فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل منها، ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار، فكانت الدار تكون لقبيلتين، ثلاث، وكانوا يسكنونها. حتى اذا قفلوا سكنها الروم، وعليهم مَرَمَّتها (٧). فكان يزيد بن أبى حَبيب يقول: لا يحل من كرائها شئ ولا بيعها، ولايورث، ولا يورث منها شئ، إنما كانت لهم يسكنونها فى رباطهم» .

وكان هذا هو أول استيطان للقبائل العربية فى مصر بعد الفتح العربى، ومنذ ذلك التاريخ بدأت القبائل العربية فى الوفود إلى مصر بشكل متزايد وثابت، بعد أن ظهرت إلى جانب العامل الاقتصادى عوامل أخرى سياسية واقتصادية منها:

أولا : تشجيع الخلفاء للقبائل العربية على الوفود إلى مصر لتعزيز الجند واستيطان البلاد.

ثانيا : أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الاسلام كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الأموى. وقد سبق لنا ذكر أعداد الجيوش التى جاءت إلى مصر فى الفصل الخاص بالنظام الحربى .

ثالثا: النفى السياسى. فقد نفى معاوية بن أبى سفيان جماعة من الأزد إلى مصر. كانوا قد خرجوا على زياد بن أمية بالبصرة، فعاقبهم معاوية بتغريبهم عن أوطانهم، وكان ذلك فى عام ٥٣هـ/ ٦٧٢م وأمير مصر فى ذلك الوقت مسلمة بن مخلد (٤٧- ٦٢هـ /٦٦٧- ٦٨١م) وكان عددهم حوالى ٢٣٠، فأنزلوا بالظاهر وهو أحد خطط مصر بالفسطاط.

---

(٧) مرمة البناء او الأمر : أصلحه.

رابعا: تحقيق توازن قَبَلى. فقد كانت هجرة قيس إلى مصر لتحقيق توازن قبلى بين عنصرى سبأ وقيس أو قحطان وعدنان، فيرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن تشجيع القيسية لا ستيطان مصر كان للحد من سيطرة العنصر السبئى الذى كان مايزال يمثل الغالبية من عرب مصر، فقد كان إحداث التكافؤ بين العنصرين فى الحوف الشرقى يخفف من الأخطار التى قد تنجم من تفرد أعقاب سبأ واستئثارهم بالنفوذ.

خامسا: نقل قبائل بَلِىّ التى تؤلف ثلث قضاعة فى بلاد الشام إلى مصر، وكان ذلك بأمر الخليفة عمر بن الخطاب. ولست أدرى سببا لهذا النقل، هل هو سبب سياسى للتخلص منهم لأنهم يكونون قوة فى بلاد الشام، أو سبب اجتماعى لتحقيق توازن قبلى فى مصر . ويرى محمد عزة دروزة أن ارسال هذه القبيلة إلى مصر كان بقصد الاستيطان.

سادسا: الهجرات الجماعية للقبائل العربية من أجل الانضمام لذويهم فى مصر، فيقول ابن عبد الحكم : « وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما مُدّت الأمْداد فى زمن عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكثر الناس، وَسَّع كل قوم لبنى أبيهم، حتىٰ كثر البنيان والتأم».

سابعا : ومن الأسباب أيضا رغبة الوالى فى تواجد عصبة له فى مصر. فتذكر المصادر العربية أن عبد العزيز بن مروان عندما ولى مصر من قبل أبيه الخليفة مروان بن الحكم (٦٥هـ/ ٦٨٤م) قال لأبيه: «ياأمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى»؟

وقد كان المرافقون للوالى ينضمون إلى قبائلهم فى مصر، ويستمرون مقيمين بها، بعد انتهاء ولاية الوالى، وانصرافه عن مصر.

اختلاط القبائل العربية بالمصريين:

نلاحظ أن العرب الأوائل الذين استقروا فى مصر كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الأسكندرية، فيقول المقريزى:« فانظر- أعزك الله - كيف كانت اقامة الصحابة؟ إنما هى بالفسطاط والأسكندرية، وإنه لم يكن لهم كثير اقامة بالقرى، وإن النصارى كانوا متمكنين من القرى، والمسلمون بها قليل، وإنهم لم ينتشروا بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين» .

لذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية، ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين الاسلامي أم اللغة العربية، كما أن اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق التزاوج أو الولاء كان نادرا فى أول الأمر.

على أنه لم يلبث أن جدت الأسباب التى دفعت إلى الاختلاط بالمصريين، وتتمثل فى الآتى :

الارتباع - رابطة الاسكندرية - الضيافة - مطالب الحياة اليومية.

أولا - الارتباع:

ويقصد بالارتباع نزول القبائل العربية فى الريف فى شهور الربيع بقصد المرعى. وكان الارتباع يتم وفقا لمخطط مرسوم وضع له منذ اللحظة الأولى للفتح. وفى ذلك نشير إلى الخطبة التى ألقاها عمرو بن العاصْ على جنوده، بمناسبة بدء موسم الارتباع، وفيها يقول : « يامعشر الناس، إنه قد تدلت الجوزاء، وذَكَت الشِعْرَىَ، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقل الندى، وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودَرَجَت السخائل. وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر، فحَيّ لكم، على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه

وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم(٨) من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم. واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا .... حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فان لكم منهم صهرا وذمة. فعفوا أيديكم وفروجكم، وغضوا أبصاركم، ولا أعلمن ماأتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك. واعلموا انكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم اليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة. فاحمدوا الله معشر الناس على ماأولاكم، فتمتعوا فى ريفكم ماطاب لكم، فاذا يبس العود، وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن، وصوح البقل(٩)، وانقطع الورد من الشجر، فحى على فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله، إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته. أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم» .

ويظهر من هذه الخطبة النقاط الآتية:

أولا : ان موسم الارتباع كان يبدأ فى أخريات الشتاء وقد «تدلت الجوزاء، وذكت الشعرى»، ويستمر حوالى ثلاثة أشهر، ثم ينتهى فى أوائل الصيف.

---

(٨) الجُنة: جمع جُنَن. بمعنى السترة.

(٩) صَوّحَ البقل : جففته.

ثانيا: أن من أهداف الارتباع الهامة كان إطعام الخيل وتقويتها، على اعتبار أنها تشكل جانبا أساسيا من قوة العرب العسكرية فى ذلك الوقت.

ثالثا: وفيها يوصى عمرو جنده بأن يحسنوا معاملة القبط، سكان البلاد الأصليين، عندما يتصلون بهم فى خلال الارتباع، ويؤكد وصيته هذه بأحاديث منسوبة إلى النبى،ص، تحض على معاملة المصريين بالحسنى. ولما كان عمرو على علم بالوسائل التى يلجأ اليها الغزاة عادة فى الاعتداء على أهالى البلادالمفتوحة، فانه يأمر جنده هنا أمرا صريحا بأن يكفوا أيديهم عن أموال المصريين وأبدانهم. وأن يعفوا فروجهم عن أعراضهم، وأن يغضوا أبصارهم عن نسائهم.

رابعا: وفيها ينبه جنده إلى دقة موقفهم فى مصر نتيجة لموقع مصر الحساس من جهة، وثروتها الواسعة من جهة أخرى، وما يتطلبه ذلك من يقظة دائمة واستعداد كبير.

خامسا: كان الارتباع نوعا من العطلة والاستجمام والراحة من مشاق القتال، فينالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، مع تجنب الترف فى المأكل والملبس، فانه يفسد الدين ويقصر الهمم.

سادسا: ولما كان الجنود لا يصحبون نساءهم معهم فى هذه الرحلة، فقد حرص عمرو على أن يذكرهم بأن يأخذوا بعض الهدايا معهم إلى أسرهم عند عودتهم.

وعن مناطق الارتباع يقول عبد الله خورشيد:

«وبالرغم من أنه كان يترك للقبيلة اختيار الجهة التى تفضل الارتباع بها فى الدلتا أو الصعيد، فان الوالى كان يصدر أمرا كتابيا يحدد فيه القرية التى تذهب اليها (القبيلة)، وكميات اللبن التى يسمح لها بالحصول عليها من المصريين.

وبالنظر فى الجهات التى كانت القبائل تختارها للارتباع نستطيع أن نلحظ فى وضوح كاف أن هذه الحركة كانت تتركز فى كور أو مناطق بعينها هى:

منف(١٠)، ووسيم (١١) لخصبهما، إلى جانب قربهما من الفسطاط، ومنوف(١٢) لخصبها كذلك.كما كانت تتركز في الشمال الشرقى أى فى تلك الكور التى أصبحت فيما بعد تؤلف مايعرف باسم (الحوف الشرقى) وهى: عين شمس (١٣)، أتْريب (١٤)، بَنا (١٥)، بَسْطَه (١٦) فربيط، طرابية، صان (١٧)،إبْلِيل (١٨)، نتو، تمى.

---

(١٠) منف: بالفتح ثم السكون وفاء. اسم مدينة فرعون، وهى من المدن القديمة فى أول الصعيد على غربى النيل، وبينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ. واسمها القديم مافه اى مدينة الثلاثين، وبالرومية منفيس.

(١١) وسيم : بالفتح ثم الكسر وميم. كورة فى جنوبى مصر. قال البكرى: تخرج من الفسطاط وتصير إلى الجيزة، وهى فى الضفة الغربية من النيل، وبقرب الفسطاط على راس ميل منها قرية يقال لها وسيم.
ذكرها محمد رمزى فى قاموسه باسم أوْسِيم، وقال إن اسمها العربى القديم كان وسيم . وكانت اوسيم قاعدة قسم اول جيزة، ويعرف بقسم اوسيم لوجود مقره بها، ثم نقل منها ديوان المركز والمصالح الاخرى إلى امبابة لوقوعها على السكة الحديدية فى سنة ١٨٨٤، على ان يبقى باسم مركز اوسيم، وفى سنة ١٨٩٦صدر قرار بتسميته مركز امبابة لوجوده بها.

(١٢) منوف : من قرى مصر القديمة . بأسفل الأرض (الوجه البحرى) من بطن الريف، ويقال لكورتها المنوفية . ومنوف الآن قاعدة مركز منوف ـ مديرية المنوفية.

(١٣) عين شمس : كانت من أشهر المدن المصرية القديمة، موقعها فى الشمال الشرقى للقاهرة، باراضى ناحية المطرية، من ضواحى القاهرة، وعلى بعد عشرة كيلومترات منها. واسمها المصرى القديم « اتوم » أو« رع » ومعناها الشمس . والعبرى « اون »، والرومى « هليوبوليس » أى مدينة الشمس . وقد اندثرت هذه المدينة، ومحلها اليوم يعرف بتل الحصن، وماجاوره بارض المطرية حيث توجد إحدى المسلتين اللتين اقامهما الملك سنوسريت الأول المعروف بسيزو ستريس الأول على باب معبد المدينة.

(١٤) اتريب: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وباء. وهى مدينة مصرية قديمة. وقد بدأ الخراب فى مساكن هذه المدينة من القرن السابع الهجرى، ثم اندثرت بعد ذلك. ويعرف محلها اليوم باسم تل اتريب بمركز بنها ـ مديرية القليوبية.

(١٥) بنا : هى من المدن المصرية القديمة ذكرها محمد رمزى فى قاموسه باسم بنا أبوصير بمركز سمنود ـ مديرية الغربية وتنسب إلى بوصير لانها تجاورها.

(١٦) بسطة : بالفتح ويقال بسطة بالضم. كورة بأسفل الأرض بمصر .
وقد اندثرت هذه المدينة وتعرف اطلالها الان باسم تل بسطة، وكانت مبانيها تشغل ارض حوض التل رقم ١٢ باراضى ناحية شوبك بسطة بمركز الزقازيق بمديرية الشرقية. وهذا الحوض يقع فى الجنوب الشرقى لمدينة الزقازيق وعلى بعد كيلو متر واحد منها.

(١٧) صان: من كور اسفل الأرض.وفى العهد العثمانى عرفت باسم صان الحجر بسبب مايوجد فى اطلالها القديمة من الأحجار الباقية من معبدها المصرى القديم . وفى سنة ١٩٣٢ قسمت أراضى صان الحجر هذه إلى ناحيتين تميزت هذه وهى الأصلية منهما بالقبلية بسبب موقعها بالنسبة للأخرى البحرية المستجدة. وصان الحجر بمركز فاقوس ـ مديرية الشرقية.

(١٨) إبليل: بالكسر ثم السكون ولام مكسورة وياء ساكنة ولام أخرى. قرية من قرى مصر بأسفل الأرض . وقد اندثرت هذه المدينة، ومكانها يعرف اليوم بتل بليم المحرفة عن ابليل، ويقال له أيضا تل البطيخ بجزيرة فى بحيرة المنزلة شرقى صان الحجر، على بعد ٣١ كيلو مترا، وغربى محطة الكاب الواقعة على السكة الحديدية الموصلة بين الاسماعيلية وبورسعيد بمسافة ١٤ كيلو مترا .

ويلحظ أن هذه الكور تتمتع بالخصب، إلى جانب متاخمتها من الشرق للصحراء، حيث كان يتهيأ للعرب الصيد، وتأديب خيولهم، وتدريبها، مع الاقامة فى جو قريب إلى جو البادية التى مايزال الحنين الشديد يجذب قلوبهم اليها. أما الاتجاه إلى الشمال فكان محدودا ولا يتجاوز بَنا، وبوصير والبَدقُون [١٩] وخِرْبِتَا [٢٠] وسَخا [٢١] . والقبائل التى كانت تذهب هناك قليلة.

وكذلك كان الاتجاه إلى الجنوب محدودا، ففى الفيوم كان يرتبع بعض القبائل، وأقصى ماوصلوا اليه هو أهْناس [٢٢] والبهنسا والقيس حيث كانت ترتبع قبيلة واحدة.

وهكذا كانت القبائل تقل كلما زاد الاتجاه نحو الشمال أوالجنوب، فى حين تتركز حول الفسطاط شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، بحيث يمكن القول بأن الارتباع كان يتم فيما يشبه دائرة مركزها الفسطاط . ولا بد أن القبائل كانت تختار أماكن ارتباعها وفقا لا عتبارات معينة، اذ نلحظ مثلا أن فى منف ووسيم القريبتين من العاصمة كانت ترتبع القبائل ذات النفوذ مثل: بلى وتجيب. ومثل ـ بالذات ـ آل عمرو بن العاص، وآل عبد الله بن سعد بن أبى سرح ـ أول أميرين لمصر .

---

(١٩) البدقون: وردت فى معجم البلدان باسم البذقون كورة بمصر وهى من كور الحوف الغربى. .

(٢٠) خربتا: هى من المدن القديمة. وردت فى معجم البلدان خربتا قرية وكورة من كور مصر بالقرب من الأسكندرية. خربتا بمركزكوم حمادة ـ مديرية البحيرة.

(٢١) سخا: كورة بمصر، وقصبتها سخا باسفل مصر وسخا بمركز كفر الشيخ ـ مديرية الغربية.

٢٢) اهناس: بالفتح . إسم لموضعين بمصر احدهما اسم كورة فى الصعيد الأدنى يقال لقصبتها: اهناس المدينة، واضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا، واهناس هذه قديمة ازلية وقد خرب اكثرها وهى على غربى النيل، ليست ببعيدة عن الفسطاط .وقد ذكر محمد رمزى فى قاموسه ان اطلال هذه المدينة لا تزال ظاهرة بالقرب من مساكن القرية الحالية.

والموضع الثانى: اهناس الصغرى و هى قرية كبيرة فى كورة البهنسا أيضا. ويقول محمد رمزى : ولما كانت كلمة الصغرى تحط من شان هذه القرية غيرت بالخضرا تفاؤلا بلون زرعها.

وكانت العصبية القبلية موضع اعتبار بوجه عام، بحيث كانت القبائل المتقارية تشترك فى مرتبعات واحدة مثل : بَلىّ ولَخْم، وجُذام، وغِفار، وأسْلَم، وآل عمرو،وآل عبد الله بن سعد. وقد يكون للقبيلة أكثر من مرتبع مثل : بلى، وتُجِيب، ولخم، والمَعَافر. ويبدو أن ذلك يرجع إلى كبر حجم هذه القبائل وأمثالها.

وقد كان لحركة الارتباع هذه تأثير كبير فى اختلاط القبائل العربية بالمصريين، اذ هيأت للعرب فرصة التعرف على البيئة الجديدة وسكانها، فى نفس الوقت الذى هيأت فيه للمصريين أن يتعرفوا إلى هؤلاء الوافدين الجدد.

ومن هنا يمكن اعتبار الارتباع الخطوة الأولى، أو حجر الاساس فى عملية تعريب مصر. ولا أدل على ذلك من أن قبائل بعينها انتهى بها الأمر إلى اتخاذ مرتبعاتها منازل، والاقامة فيها بصفة دائمة بعد أن تركت الفسطاط نهائيا، مثل: مدلج ومن حالفهم من حِمْير وذُبْحان الذين استقروا فى خِرْبِتا. ومثل : خُشَيْن وطائفة من لخم وجذام نزلوا أكناف صان، وإبليل، وطرابية من الحوف الشرقى، حيث انتهى بهم الأمر إلى الذوبان التام فى سكان تلك المناطق الأصليين.

ولما كانت حركة الارتباع قد تركزت حول الفسطاط فى الجيزة ووسط الدلتا وشرقها، فكان من الطبيعى أن تكون هذه المناطق أسرع تعربا من مناطق أخرى مثل: شمال الدلتا وغربها والصعيد.

وقد كان يسود القرية المصرية طوال فترة الارتباع، التى تمتد بامتداد وجود البرسيم فى الحقول . وقد تأخذ جزءا غير قصير من الصيف ـ جو غير عادى من النشاط والجلبة والبهجة، تتخلله المبادلات الاقتصادية الساذجة بين البدو وأهل القرى، وتمارس فيه العلاقات الاجتماعية الانسانية المألوفة من تزاور، وتهاد، ومجاملة. وقد يحدث أن يتزوج أحد العرب من

مـصـرية، فى حين لايحـدث العكس، « لأن العـربى يفـضـل أن يأكل ابنتـه التمساح، ولا يأخذها الفلاح!».

ثانيا: رابطة الاسكندرية:

يقصد برابطة الاسكندرية القوات العربية المرابطة فى الأسكندرية. وتعتبر عاملا آخر من عوامل اختلاط العرب بالمصريين، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن هذه القوات لم تكن تتخذ معسكرا خاصا لها كالفسطاط، وانما كانت تقيم طوال فترة الرباط فى مساكن الأهلين العادية، وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه.

وهكذا، اذا كانت حركة الارتباع لم تبلغ الأسكندرية، لبعدها من جهة، ولعدم صلاحيتها للمراعى من جهة أخرى - فلا شك فى أن مرابطة هذه الأعداد الهائلة من الجند العرب فيها منذ اللحظات الأولى، واقامتهم بين الأهالى كان له أثر هام فى تعريب تلك المدينة وغيرها من الثغور مثل: رشيد، واخناء والبرلس،والأشْتُوم (٢٣)، ودمياط.

ثالثا: الضيافة:

أما العامل الثالث الذى أدى إلى اختلاط العرب بالمصريين، فهو الشرط الذى ورد فى نص الصلح الذى تم بين العرب والمصريين بعد الفتح من أن «للمسلمين عليهم النُّزْل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين، أو أكثر من ذلك، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم».(٢٤)

---

(٢٣) الاشتوم : بالضم ثم السكون، وتاء مثناه مضمومة، والواو ساكنة، وميم موضع قرب تنيس .

(٢٤) وترى الدكتورة فاطمة مصطفى عامر ان شرط الضيافة كان فى الغالب على أهل القرى دون المدن . ويرجع ذلك - كما تقول - إلى ان الخليفة عمر رضى الله عنه، قد حرم على الجند المسلمين سكنى القرى حتى لا ينشغلوا بالزراعة، وامتلاك الأراضى وأمرهم بسكنى المدن حتى يكونوا دائما على أهبة الاستعداد للجهاد والفتح.

وهكذا كان للعرب أفرادا و جماعات الحق فى أن ينزلوا ضيوفا على المصريين لمدة أقصاها - نظريا - ثلاثة أيام، يتمتعون فى أثنائها بكل مايجب للضيف من حقوق الضيافة . ويقول عبد الله خورشيد: إن هذه المسألة يبدو أنها نظمت بحيث كانت القرية كلها تتحمل نفقات من ينزل عليها من الضيوف العرب . فعند تقدير الخراج المستحق على القرية كان يجتمع عرفاؤها ومازوتها ورؤساء أهلها ويتناظرون، فيخرجون من زمام القرية، الذى سيقدر الخراج على أساسه، عددا من الفدادين، يخصص ريعها للانفاق على المرافق العامة مثل : الكنائس والحمامات والمعديات و - وهو مايهمنا هنا - الضيافة للمسلمين ونزول السلطان .

ويرى عبد الله خورشيد أنه سواء كان العربى ينزل ضيفا على المصرى فى بيته الخاص أو فى المضيفة العامة، فلابد أن هذا الشكل من أشكال الاتصال - وهو الضيافة - كان له أثره فى تقارب العرب والمصريين.

رابعا: مطالب الحياة اليومية:

على هذا النحو، كان العرب يتحركون فى مصر، ويختلطون بالمصريين عند الارتباع، وفى الرباط، وعند الضيافة، ولا شك فى أن ذلك كان يتيح للجانبين فرصا هامة للاحتكاك والاختلاط. وكانت هناك فرص أخرى كثيرة تتعدد وتتجدد بتعدد وتجدد مطالب الحياة اليومية نفسها، فقد اعتمد العرب اعتمادا يكاد يكون كاملا على المصريين فى أمور بعينها، كأعمال الديوان، والطب، ومسح الأراضى، وأعمال الزراعة، وبناء البيوت، وبناء السفن، وصناعة الأقمشة وغيرها.

والسؤال الآن : ما هى الأعمال التى كان يقوم بها العرب فى مصر؟

للاجابة على هذا السؤال نلاحظ وجود فترتين متميزتين فى تاريخ مصر: الأولى، من الفتح حتى سقوط العرب من الديوان فى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م . والفترة الثانية، ماتلى ذلك .

وفى الفترة الأولى نلاحظ أن عمر بن الخطاب قد حرم على العرب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأراضى (وقد ذكرنا ذلك فى فصل سابق)، وبالتالى فلم يكن العرب يشتغلون فى مصر بغير السياسة والحكم والحرب .

على أن هناك حالة استثنائية لذلك هى قبيلة قيس، التى جاءت إلى مصر عام ١٠٩هـ /٧٢٧م بشرط ممارستها لمهنة الزراعة.

وعن سبب مجىء هذه القبيلة إلى مصر يقول الكندى : إنه فى ولاية الوليد بن رفاعة على مصر عام ١٠٩هـ/ ٧٢٧م نقلت قيس إلى مصر، وذلك عندما تولى عبيد الله بن الحبحاب الخراج فى مصر من قبل هشام بن عبد الملك، فقد قال : « ما أرى لقيس فيها حظا إلا لناس من جَديلة وهم فهم وَعدْوان[٢٥] فكتب إلى هشام: إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحى من قيس، ونعشهم ورفع من ذكرهم، وإنى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم، وفيها كور وليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معها، ولا يكسر ذلك خراجها، وهى بلبيس، فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل.

فكتب اليه هشام: أنت وذلك. فبعث إلى البادية، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر، ومائة أهل بيت من بنى عامر، ومائة أهل بيت من أبناء هوازن، ومائة اهل بيت من بنى سليم . فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها اليهم، فاشتروا إبلا، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشترى المهر، فلا يمكث إلا شهرا حتى يركب، وليس عليهم مؤونة فى اعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم.

---

(٢٥) وقد سمى عدوان لانه قتل اخيه فهم. واسمه الحقيقى الحارث.

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمَّل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك . فأقاموا سنة، فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت. فمات هشام (١٢٥هـ/ ٧٤٢م) وبلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس . حتى اذا كان فى زمن مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤- ٧٤٩م) وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر (١٢٨ - ١٣١هـ/ ٧٤٥ - ٧٤٨م)، مالت إليه قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا، وقدم عليهم من البادية من قدم» .

وهكذا فان العرب فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ / ٧٢٣- ٧٤٢م)- كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح، وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى، وعن الاشتغال بالزراعة. وترى أيضا أنه ربما أراد الخليفة من نقل هذه البطون إلى مصر، والسماح لها بالاشتغال بالزراعة، أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط فى هذه الثورات، أو من يهجر أرضه، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر.

على كل حال، فلم يلبث أن جاء سقوط العرب من الديوان عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣ م، وقطع أعطياتهم زمن المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤١م)، فى ولاية كيدر بن نصر بن عبد الله على مصر (٢١٦-٢١٩هـ/ ٨٣١- ٨٣٤م). فلقد كان من نتيجة ذلك أن وجد العرب أنفسهم أمام ضرورة احتراف الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن التى كانت حتى ذلك الوقت وقفا على أهالى البلاد .

وبذلك فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية، واضطروا إلى الانتشار فى الريف، والاختلاط بالمصريين والتزاوج من بناتهم، والاشتغال بهذه الأعمال التى ترفعوا من قبل عن الاشتغال بها. فيقول المقريزى :« وكان

من خير أراضى مصر، بعد نزول العرب بأريافها، واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الاسلام، واختلاط انسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ......».

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن العرب منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أصبحوا لايتميزون عن أهل البلاد، ودليلها على ذلك شواهد القبور. فقد احتفظ العرب بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، ففى معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط، كان اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى ...الخ.

ثورات العرب:

كان من أثر اشتغال العرب بالزراعة وامتلاك الأراضى، أن أخذوا يدفعون الخراج، وبالتالى أخذوا يتعرضون لنفس المظالم التى كان يتعرض لها الأقباط والمسالمة الذين يدفعون الخراج، من زيادة الخراج عليهم بدون وجه حق. لذلك فقد أخذوا يشاركونهم ثوراتهم .

ففى السنوات الأولى نلاحظ قيام الاقباط وحدهم بهذه الثورات، ثم بعد مرور فترة تبدأ المصادر العربية فى ذكر ثورات العرب مع الاقباط، مما يدل على نوع من الاندماج بين العرب والمصريين، وبالتالى تضامنهم ضد أى اعتداء يقع عليهم.

فتذكر المصادر العربية أن أول انتفاض للقبط فى مصر كان عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م فى ولاية الحر بن يوسف على مصر (١٠٥ـ١٠٨هـ / ٧٢٣ـ٧٢٦م). وكان ذلك لأن عبد الله بن الحبحاب صاحب الخراج أرسل إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل قيراط دينارا.

ثم تبدأ المصادر العربية فى ذكر انتفاضات القبط المختلفة على طول السنين، ومنها : انتفاضة القبط عام ١٢١هـ / ٧٣٨م فى ولاية حنظلة بن صفوان الثانية (١١٩ـ١٢٤هـ/ ٧٣٧ـ ٧٤١م). ثم فى عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م فى سمنود. وفى عام ١٣٥هـ/ ٧٥٢م بسمنود أيضا فى ولاية أبى عون عبد الملك بن يزيد (١٣٣ ـ ١٣٦هـ / ٧٥٠ـ٧٥٣م). وفى عام ١٥٠هـ / ٧٦٧م أيضا خرج القبط بناحية سخا أثناء ولاية يزيد بن حاتم على مصر من قبل المنصور (١٤٤ـ١٥٢هـ/ ٧٦١ـ٧٦٩م). وفى عام ١٥٦هـ/٧٧٢م وفى أثناء ولاية موسى بن على بن رباح على مصر (١٥٥ـ ١٦١هـ / ٧٧١ـ ٧٧٧م) خرج القبط ببلهيب.

ثم تبدأ المصادر فى ذكر انتفاضات العرب الذين كانوا يشتغلون بالزراعة من القيسية واليمانية، بسبب زيادة الخراج، وفى أحيان كثيرة تشير إلى ثورات قام بها العرب والأقباط معا.

وأول انتفاضات العرب كانت فى عام ١٦٧هـ/ ٧٨٣م فى ولاية موسى بن مصعب على مصر من قبل المهدى (١٦٧ـ١٦٨هـ / ٧٨٣ـ ٧٨٤م)، وكان ذلك بسبب تشدده فى استخراج الخراج، كما أنه زاد على كل فدان ضعف مايقبل به، فثارت قيس واليمانية وهم أهل الحوف.

وفى ولاية اسحاق بن سليمان من قبل الرشيد (١٧٧ ـ ١٧٨ هـ/ ٧٩٣ ـ ٧٩٤م) خرج عليه أهل الحوف، بسبب زيادة الخراج على المزارعين «زيادة أجحفت بهم» ـ على حد تعبير الكندى.

وفى ولاية الليث بن الفضل على مصر من قبل الرشيد (١٨٢ ـ ١٨٧ هـ/ ٧٩٨ ـ ٨٠٢م)، ثار أهل الحوف عام ١٨٦ هـ/ ٨٠٢م، وكان السبب فى ذلك أنه «بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فانتقصوا من القصبة أصابع، فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم. فعسكروا، وساروا إلى الفسطاط».

والغريب أن الليث بن الفضل سافر إلى هارون الرشيد فى عام ١٨٧ هـ/ ٨٠٢م، وطلب منه أن يبعث معه بالجيوش« لأنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث به معه»!

وفى ولاية الحسين بن جميل من قبل الرشيد على مصر (١٩٠ ـ ١٩٢هـ/ ٨٠٥ ـ ٨٠٧م)، امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فارسل إليهم الرشيد جيشاً لمحاربتهم بقيادة يحيى بن معاذ. ويذكر الكندى أنه فى ولاية مالك بن دلهم من قبل الرشيد (١٩٢ ـ ١٩٣هـ/ ٨٠٧ ـ ٨٠٨م) ورد كتاب الرشيد على يحيى بن معاذ، يأمره بالخروج إليه، فكتب إلى أهل الأحواف أن «أقدموا حتى أوصيكم مالك بن دلهم، وأدخل فيما بينكم وبينه فى أمر خراجكم». فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية، وقد أعد لهم القيود، فأمر بالأبواب، فأخذت، ثم دعا بالحديد فقيدهم، وتوجه بهم إلى مقر الخلافة وذلك عام ١٩٢هـ/ ٨٠٧م.

كما قامت ثورات العرب من أهل الأحواف، خاصة أهل تنو وتنمى، فى ولاية حاتم بن هرثمة (١٩٤ ـ ١٩٥ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٠م).

كذلك قامت ثورة فى ولاية العباس بن موسى عام (١٩٨ هـ/ ٨١٣م) على مصر من قبل المأمون. فقد أرسل ابنه عبد الله إلى مصر كخليفه له، وقد «تشدد على أهل مصر»، فثاروا عليه. وقد وقف العرب بجوارهم فيقول أبو المحاسن «ووافقهم جند مصر». فمنع عنهم أعطياتهم، واجتمع الجميع ـ كما يذكر أبو المحاسن ـ وثاروا، ووقفوا جملة واحدة، حتى أخرجوه من البلاد.

وفى ولاية عيسى بن يزيد الجلودى على مصر عام (٢١٢ ـ ٢١٤هـ/ ٨٢٧ ـ ٨٢٩م)، ثار أهل الحوف أيضاً، وذلك بسبب تعسف صالح بن شيرازاد، صاحب الخراج فى ذلك الوقت، الذى «ظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم»، مما أدى إلى إندلاع الثورة.

وفى ولاية عيسى بن يزيد الثانية عام (٢١٤ ـ ٢١٥هـ/ ٨٢٩ ـ ٨٣٠م)، قام أهل الحوف بالثورة، مما دفع المأمون إلى إرسال أخيه المعتصم (أبو اسحاق بن هارون) إلى مصر، وبالفعل خرج المعتصم من بغداد فى أربعة آلاف من الجنود الترك، فقاتل أهل الحوف من القيسية واليمانية وقتلهم ومهد البلاد.

وفى ولاية عيسى بن منصور عام (٢١٦هـ/ ٨٣١م) ثارت أسفل الأرض ـ كما تقول المصادر العربية ـ «عربها وقبطها»، وكان ذلك بسبب سوء سيرة العمال فيهم، وقد امتدت الحروب بينهم وبين عساكر الفسطاط، إلى أن قدم الخليفة عبد الله المأمون إلى مصر عام ٢١٧هـ/ ٨٣٢م لاخمادها، فقاتلهم وهزمهم، ثم رحل بعد تسعة وأربعين يوما.

ويذكر المقريزى أنه إذا كانت الثورات التى كان القبط يقومون بها قبل دخول المأمون مصر دليلاً على «ما هم عليه من القوة والكثرة». إلا أنه بعد مجىء المأمون مصر لم تقم لهم قائمة ـ كما يفهم من النص. وفيما يبدو أن ذلك صحيح، لأن المصادر العربية ـ فى حدود علمى ـ لم تعد تذكر شيئاً بعد ذلك عن ثورات القبط، وانما اقتصر كلامها على ذكر ثورات العرب وخلافات القبائل العربية مع بعضها مثل:

ثورة أهل الحوف فى ولاية موسى بن أبى العباس عام ٢١٩هـ/ ٨٣٤م، وثورة أهل الحوف أيضاً، وأهل الجيزة فى ولاية مزاحم بن خاقان فى عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م.

توزيعات القبائل العربية فى مصر

بعد أن أصبحت القبائل العربية جزءاً من نسيج مصر الإجتماعى، فقد يبدو من الضرورى هنا أن نقدم دراسة لهذه القبائل وتوزيعاتها فى مصر حسب المناطق التى نزلت فيها.

أولاً ـ القبائل التى سكنت الفسطاط:

وتنقسم إلى قحطانية وعدنانية، ثم تجمعات قبلية منهما.

أما القحطانية فقد توزعت على الخطط على النحو الآتى:ـ

(أ) خططُ القبائل القحطانية من الهميسع بن حمير:

١ ـ خطط حَضْرَمَوت: وهم بنو حَضْرَمَوت بن عمرو بن قيس بن معاوية ابن حمير.

٢ ـ خطط الصَّدِف: وهم بنو مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير من قبائل اليمن. وهم من أولاد حضرموت. وقد سمى الصدِف لأنه صدف بوجهه عن قومه حين أتاهم سيل العرم.

٣ ـ خطة رُعَيْن: وهم بنو رعين بْن زيد بن سهل بن يَعْفُر بن مُرَّة بن أَدَد.

٤ ـ خطة بنى الكُلاع: وهو الكلاع بن شَرَحْبيل بن سعد بن حِمْيَر.

٥ ـ خطة يَحْصُب: وهم بنو يحصب بن مالك بن أسلم بن زيد بن غوث بن حمير.

٦ ـ خطة سيبان: قبيلة من الهميسع، اختطوا بمصر، وكان لهم مسجد بإسمهم فى الفسطاط.

٧ ـ خطة بنو الرجبة: وهم بنو الرجبة بن زرعة بن كعب. قبيلة من الهميسع، اختطوا بالفسطاط.

٨ ـ خطة القبض: وهم بنو القبض بن مَرْثد. ويرى عبد الله خورشيد أن بنى القبض ربما كانوا بَطْنا من الرعين من الهميسع بن حمير.

(ب) خطط القبائل القحطانية من قضاعة بن مالك بن حمير:

× بنو مَهْرَة: وهم بنو مهرة بن حَيْدان بن عمرو بن إلْحَاف بن قُضاعة بن مالك بن حمير، من قبائل اليمن.

(جـ) خطط القبائل القحطانية من عريب من كهلان:

١ ـ بنو كِنْدة: قبيلة من عدى من مرة من عريب من كهلان. وكِنْدة: بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر. وسمى كِنْدة لأنه كند أباه أى كفر نعمته. وقد شهدت فتح مصر.

٢ ـ بنو تجيب: وهم بنو عَدِىّ وسعد ابنى الأشرَس بن شبيب بن السَّكَن بن الأشرس بن كنده. وتجيب اسم أمهما، وقد عرفت القبيلة بها.

٣ ـ خطط خَوْلاَن: بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ولام ألف ثم النون. وهم: بنو خَوْلاَن بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب.

٤ ـ خطط مَذْحج: بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة ثم جيم. وهم بنو مالك بن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن كهلان بن عبد الله.

٥ ـ بنو الأشْعريين: بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة. وهم فرع من عريب من القحطانية. وهم بنو الأشعر بن أد بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان. وقيل سمى الأشعر لأن أمه ولدته وهو أشعر. وقد شهدوا مصر، وكانت خطتهم مع المعافر.

٦ ـ بنو سعد: وهم بطن من جذام من عدى من مرة من عريب، وقد شهدت فتح مصر، واختطت بها.

٧ ـ خطة بنى وائل: وهم بطْنٌ من جذام من عدى من مرة من عريب. وهو وائل بن زيد مناة بن أَفْصى بن إياس بن حَرَام بن جذام بن عدى.

٨ ـ خطة المعافر: وهم من قبائل مالك بن مرة من عريب. وهم بنو المعافر ابن يَعْفُر بن مُرَّة بن أدد.

٩ ـ بنو لَخْم: بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر. وهى ثلاث:

الأولى: بنو لخم بن عَدىّ بن مُرَّة بن أدَدَ ومن خالطهم من جذام.

الثانية: بنو عبد ربه بن عمرو بن الحارث بن وائل بن راشدة بن لخم.

الثالثة: بنو راشدة بن أذبّ بن جَزيلة بن لخم.

وقد ذكرت سابقاً أن بنى راشدة من القبائل التى انضمت إلى عمرو بن العاص عندما مر بجبل الحلال.

(د) خطط القبائل القحطانية من الأزْد من مالك من كهلان:

١ ـ خطط غافق: من قبائل الأزْد. وهم بنو غافق بن الحارث بن عَكّ بن عُدْثان بن عبد الله بن الأزْد.

٢ ـ بنو غنث: من قبائل الأزد.

٣ ـ بنو شبابة: من قبائل الأزد.

٤ ـ بنو خثيم: من قبائل الأزد.

٥ ـ بنو مازن: من قبائل الأزد.

× خطة سبأ: وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سبأ.

هذا بالنسبة للقبائل القحطانية، أما بالنسبة للقبائل العدنانية فقد توزعت على الخطط على النحو التالى:

(أ) خطط القبائل العدنانية من خندف من مضر:

١ ـ بنو فهر: بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف، وهو فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة. وقد اختطوا بالفسطاط منذ الفتح العربى.

٢ ـ بنو جُمَح: من قريش بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف، وهم بنو جمح بن عمرو بن هصيص من قريش. وهم أبناء عم بنى سهم، وقد أمر عمرو بن العاص أن تكون خطتهم بالفسطاط بجوار داره.

٣ ـ بنو سهم: من قريش بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف، وهم ولد عمرو بن العاص بن وائل. وكانوا بفسطاط مصر، وفِرَق منهم بالصعيد. وكانت دور بنى سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط.

(ب) خطط القبائل العدنانية من ربيعة:

× عنزة: بطن من ربيعة، وهم بنو عنزة بن أسد ربيعة. ويقول عنها عبد الله خورشيد: إن عنزه يبدو أنها جاءت مع جيش الفتح، فابن عبد الحكم يذكر أن لها بمصر دورا مجتمعة نحواً من عشر، وفى هذا ما يدل على كثرتها.

وبالنسبة للتجمعات القبلية من القبائل العدنانية والقحطانية، فقد توزعت على النحو الآتى:

١ ـ أهل الراية: وهم جماعة من قريش (٢٦)، والأنصار (٢٧)، وخُزَاعة (٢٨) وأسلَم(٢٩)، وغفار(٣٠)، ومُزَيْنَة (٣١)وأشْجَع (٣٢). وجُهَيْنَة (٣٣)،

---

(٢٦) قريش: من القبائل العدنانية، وهم ولد مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن اياس بن مضر

(٢٧) الانصار: من القبائل القحطانية، وهم من قبائل الأوس والخزرج من قبائل الأزد من مالك من كهلان.

(٢٨) خُزَاعة: بضم الخاء وفتح الزاء المعجمتين والف ثم عين مهملة وهاء فى الآخر. من القبائل القحطانية، وهم قبيلة من الأزد من مالك من كهلان.

(٢٩) أسلَم: ولم تذكر المصادر العربية هل هم من بنى أسلم: بطن من خزاعة من القحطانية، وهم بنو أسلم ابن قصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء. أم هو بنو أسلم: بطن من بنى قمعة من العدنانية، وهم بنو أسلم بن عامر بن قمعة. أم هو بنو أسلُم بضم اللام: بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو أسلم بن الحارث بن قضاعة.

ويرجح عبد الله خورشيد أن بنى أسلم المذكورة هنه هى أسلم خزاعة القحطانية وهم من الأزد من مالك من كهلان.

(٣٠) غفار: من القبائل العدنانية، وهم بطن من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر. بطن من جاسم من العماليق. وهم: بنو غفار بن جاسم بن عمليق وكانت منازلهم بنجد.

(٣١) مُزَيْنَة. من القبائل العدنانية، وهم بطن من طابخة من خندف من مضر. وهم بنو عثمان وأوس ابنى عمرو بن أد بن طابخة. ومزينة أمهما عُرفوا بها.

(٣٢) أشْجَع: من القبائل العدنانية، وهم من بنو سعد فرع من قبيلة قيس من مضر، وهم: حيٌ من غطفان، غلب عليهم إسم أبيهم فقيل لهم أشجع. وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان. وكانوا عرب المدينة النبوية.

(٣٣) جُهَيْنَة. بضم الجيم وفتح الهاء وسكون الياء المثناة التحتية وفتح النون وهاء فى الآخر. من القبائل القحطانية، وهم قبيلة من أسلم من قضاعة من مالك من حمير. وهم بنو جهينة بن يزيد بن ليث بن سود بن سلم بن الحاقى من قضاعة.

وثَقِيف (٣٤)، ودَوْس (٣٥)، وعَبْس بن بغيض (٣٦)، وجُرَش بن بنى كنانة (٣٧)، وليث بن بكر (٣٨).

لم يكن لكل منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان، فجعل لهم عمرو بن العاص راية لم ينسبها إلى أحد، وقال: يكون وقوفكم تحتها. فكانت لهم كالنسب الجامع، وكان ديوانهم عليها، فعُرفوا بأهل الراية، وانفردوا بخطة وحدهم، وخطتهم من أعظم الخطط وأوسعها.

٢ ـ **بنو اللفيف:** وهم جماعة من القبائل تسارعوا إلى مراكب الروم حين بلغ عمرا قدومهم الأسكندرية عند فتحها، فقال لهم عمرو، وقد استكثرهم: إنكم لكما قال الله (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) فسموا اللفيف من يومئذ. وقد كانوا مجتمعين فى المنزل، متفرقين فى الديوان، اذا دُعى كل بطن منهم انضم إلى بنى أبيه. وكان عامتهم من الأزْد (٣٩)، ومن الحجر (٤٠)،ومن

---

(٣٤) ثَقِيف: من القبائل العدنانية، بطن من هوازن من بنى خصفة من قيس من مضر، وقد اشتهروا باسم ابيهم فيقال لهم: ثقيف. واسمه قسى بن منبه بن بكر بن هوازن .

(٣٥) دَوْس: لم تذكر المصادر العربية هل هم من بنى دَوْس: بطن من شنوءة، من الأزد من القحطانية وهم: بنو دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن خالد بن نصر وهو شنوءة. أم هم بنو دوس: بطن من بنى مهدى من جذام من القحطانية. وقد صنفهم عبد الله خورشيد من ضمن قبيلة الأزد من مالك القحطانية.

(٣٦) عَبْس بن بغيض: من القبائل العدنانية، من بنى سعد من قيس من مضر، وهم بطن من غطفان. وهم بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان.

(٣٧) جُرَش: يقول عبد الله خورشيد: لا نعرف عن هذا البطن سوى ما ذكره ابن دقماق من أنه من كنانة من أهل الراية (وهم من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر العدنانية).

(٣٨) ليث بن بكر: من القبائل العدنانية، وهم بطن من بكر من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر.

(٣٩) الأزْد: بفتح الهمزة وسكون الزاى ودال مهملة فى الآخر. من القبائل القحطانية، وهم حى من كهلان من القحطانية وهم بنو الأزد بن الغوث بن بنت بن مالك زيد بن كهلان.

(٤٠) الحجر: من القبائل القحطانية (من الأزد من مالك من كهلان). بطن من لخم من القحطانية وهم بنو حجر بن جزيلة بن لخم.

غسان [٤١]، ومن شجاعة [٤٢]. والتف بهم نفر جذام [٤٣]، ولخم [٤٤]، والوحاف[٤٥]، وتنوخ [٤٦] من قضاعة.

٣ ـ خطط الحمروات: وهى ثلاث، سميت بذلك لنزول الروم بها وهى:

الأولى: الحمراء الدنيا: وبها خطة بَلِىٍّ، وهم: بنو بلى بن عمرو بن إلحاف ابن قضاعة (من القبائل القحطانية) إلا ما كان منهم فى أهل الراية. وخطة ثراد من الأزد [٤٧]. وخطة فهم. وهم: بنو فهم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان[٤٨]. وخطة بنى بحر بن سَوَادة من الأَزْد [٤٩].

الثانية: الحمراء الوسطى، وبها خطة بنى نبيه، وهم قوم من الروم حضروا الفتح. وخطة هذيل: وهم بنو هذيل بن مُدْرِكَة بن إلْيَاس بن مضر (من القبائل العدنانية). وخطة بنى سَلاَمَان من الأَزْد [٥٠].

---

(٤١) غسان: من القبائل القحطانية، وهم حى من الأزد (من مالك من كهلان).

(٤٢) شجاعة. من القبائل القحطانية. ويقول عبد الله خورشيد. وقد يفهم من سياق كلام ابن دقماق انها من الأزد.

(٤٣) جذام: من القبائل القحطانية. من عدى من مرة من عريب من كهلان. وهم: بنو جذام بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. ويقول الحمدانى: إن جذام أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا فى الفتح مع عمرو بن العاص. وهم بنو زيد بن حرام بن جذام.

(٤٤) لَخْم: بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر. من القبائل القحطانية. من عدى من مرة من عريب من كهلان. وهم بنو لخم بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدَد بن زيد.

(٤٥) الوحاف: من القبائل القحطانية، من قبائل الهميسع بن حمير.

(٤٦) تنوخ: يقول القلقشندى: وهم من قضاعة، وقال آخر: وهم حىٌّ من اليمن، يعنى من القحطانية. ويقول عبد الله خورشيد: وهم من القبائل القحطانية، من قبائل عمران من قضاعة من مالك من حمير.

(٤٧) ثراد: من القبائل القحطانية. بطن من الأزد من مالك من كهلان.

(٤٨) فهم: من القبائل العدنانية. من بنى جديلة من قيس من مضر.

(٤٩) بنو بحر: من القبائل القحطانية. بطن من الأزد من مالك من كهلان .

(٥٠) سلامان: من القبائل القحطانية بطن من الأزد من مالك من كهلان.

الثالثة: الحمراء القصوى: وهى خطة بنى الأزرق من الروم، وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل. وخطة بنى يَشْكُر بن جَزَيلة من لَخْم (٥١). وإليهم ينسب جبل يشكر الذى بنى عليه جامع أحمد بن طولون.

٤ ـ **خطة أهل الظاهر:** وهم جماعة من القبائل قفلوا من الأسكندرية بعد قفول عمرو بن العاص، فوجدوا الناس قد أخذوا منازلهم، فتحاكموا إلى معاوية بن حديج الذى جعله عمرو على الخطط، فقال لهم: إنى أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل. فسميت منازلهم الظاهر.

٥ ـ **خطة الفارسيين:** وهم بقايا جند بَاذان، عامل كسرى ملك الفرس على اليمن قبل الإسلام، أسلموا بالشام، ورغبوا فى الجهاد، وقد حضروا مع عمرو بن العاص إلى مصر واختطوا بها.

ثانياً ـ القبائل التى سكنت الجيزة:

١ ـ خطط أصبح: من القبائل القحطانية، من الهميسع بن حمير، وهى من القبائل الذين كرهوا أن يبنى الحصن فيهم.

٢ ـ خطط يافع بن الحارث: من القبائل القحطانية، بطن من رعين من الهميسع بن حمير. ويرى عبد الله خورشيد أن الاسم الصحيح لهذه القبيلة هو يافع، وليس نافع كما يقول ابن دقماق. على أية حال فإن هذه القبيلة كانت خططهم فى وسط الجيزة، وقد بنى الحصن فى خططهم. ويقال إن طائفة منهم قد خرجت عن القبيلة بسبب عدم رضاها على الحصن.

٣ ـ خطط هَمْدان: بفتح الهاء وسكون الميم وألف ثم نون. من القبائل القحطانية، من مالك من كهلان. ومن بطونها التى اختطت فى الجيزة:حاشد

---

(٥١) يشكر: من القبائل القحطانية، بطن من لخم من عدى من مرة من عريب من كهلان.

وبكيل ابنا جشم بن نوفل بن همدان.وقد اختطت بكيل فى جنوبها الشرقى، واختطت حاشدفى شمالها الغربي. ومن بطون بكيل التي اختطت في الجيزة: الحياوية بن بني عامر بن بكيل. وبنو عوف بن أرحب بن بكيل. وقد اختطت كلاهما في قبلي الجيزة.

٤ ـ خطط بني حجر: من القبائل القحطانية، من الأزد من مالك من كهلان. ويقول عبد الله خورشيد: إن بطنا منهم فقط هم: بنو كعب بن مالك بن الحجر هو الذي اختط في الجيزة. وكانت خطتهم فيما بين بكيل ويافع.

ثالثاً ـ القبائل التى سكنت الحوف الشرقى (بلبيس):

وقد سكن الحوف الشرقى قبائل من القبائل العدنانية وهم من قيس من مضر، ومن هؤلاء القبائل:

١ ـ بنو عبس: وهم من قبائل بنى سعد من قيس. وقد سكنوا الحوف الشرقى منذ أواخر القرن الثاني الهجري، وقد اشتهروا باقامتهم فى بلبيس بالذات. ويرى عبد الله خورشيد أن انتقالهم إلى الحوف ربما كانوا ليعيشوا مع قبائل قيس الأخرى التي هاجرت إلي تلك المنطقة.

٢ ـ بنو سليم: وهم من قبائل بنى خصفة من قيس. وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس. وقد قدمت مائة أسرة منهم إلى مصر ونزلت بلبيس في هجرة قيس الكبرى إلى مصر عام ١٠٩هـ/ ٧٢٧م فى ولاية الوليد بن رفاعة.

٣ ـ قبيلة هَوَازن: وهم من قبائل بني خصفة من قيس. وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس. قدم منها مائة أسرة إلى مصر عام ١٠٩هـ/ ٧٢٧م ونزلوا بلبيس.

٤ ـ بنو نصر: بطن من هوازن من بنى خصفة من قيس. وهم بنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن. قدم منها مائة أسرة إلى مصر عام ١٠٩هـ/٧٢٧م ونزلوا بلبيس.

٥ ـ بنو عامر: بطن من عامر بن صعصعة من هوازن من بنى خصفة من قريش. وهم: بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. قدم منها مائة أسرة إلى مصر عام ١٠٩هـ/ ٧٢٧م فى هجرة قيس إلى مصر.

رابعاً: القبائل التى سكنت الصعيد:

١ ـ بنو هلال: من القبائل العدنانية، وهم من بنى عامر بن صعصعة من مجموعة هوازن الكبرى من بنى خصفة من قيس من مضر.

وقد كان أول قدومهم إلى مصر عام ١٠٩هـ/ ٧٢٧م فى هجرة قيس الكبرى، وقد انتشر بنو هلال فى وقت متأخر فى الصعيد فى بلاد أسوان وما تحتها.

٢ ـ قبائل ربيعة: من القبائل العدنانية، ويقول المقريزى إنهم قدموا إلى مصر فى خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٦١م) أعوام بضع وأربعين ومائتين. وعن سبب سكناهم فى الصعيد يقول عبد الله خورشيد: إنه لما كانت القبائل العربية القديمة قد اتخذ كل منها لنفسه موطناً، فإن ربيعة لم تجد بداً من الذهاب إلى أعالى الصعيد، حيث سكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها، وخلعوا اسمهم على القرية الكبيرة الجامعة ـ قرية بنى ربيعة ـ الواقعة فى أقصى الصعيد بين أسوان وبِلاق (٥٢). على أية حال فإن قبائل ربيعة هى التى أوقفت غارات البجة، التى كانت تشنها على القرى الشرقية، بل إنهم تزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بالعلاقى، فكثرت أموالهم، وبالتالى اتسعت أحوالهم.

٣ ـ بنو حجر: من القبائل القحطانية، من الأزد من مالك من كهلان. وهم: بنو كعب بن مالك بن حجر، وقد انتقلت هذه القبيلة أو بعضها إلى المنطقة

---

(٥٢) بلاق: بالكسر وآخره قاف. وهى مدينة واقعة فى أول بلاد النوبة على الشاطىء الشرقى للنيل جنوبى أسوان ومتصلة بها بطريق البر. وإليها تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين، وبينها وبين أسوان أربعة أميال .

الواقعة فى محافظة المنيا الحالية، وذلك منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى).

٤ ـ بنو راشد: من القبائل القحطانية، بطن من لخم من عدى من مرة من عريب من كهلان. ويقول عنها عبد الله خورشيد: «يبدو أنها كانت كثيرة العدد، إذ كان منها فى مصر عدد كبير من البطون، وكانت تمثل جانبا كبيراً من القسم الذى عاش من لخم بالصعيد، فقد أقامت بطونُها بالبر الشرقى من صعيد مصر، فيما بين مسجد موسى وأسكر من عمل أطفيح».

٥ ـ بنو المغيرة: من القبائل القحطانية، أسرة من العتيك من الأزد من مالك من كهلان. يقول عنها عبد الله خورشيد: «يبدو أنها كانت تقيم فى القرن الثانى بصعيد مصر فى كورة البهنسا (مركز بنى مزار محافظة المنيا)».

خامساً: القبائل التى سكنت الأشمونين:

١ ـ بنو كنانة طلحة: من القبائل العدنانية، بطن من كنانة من بنى مُدْرِكَة من خندف من مضر. وهم من كنانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مضر. وقد ذكرهم القضاعى فى خطط مصر وقال: إن منهم أخلاطاً فى بلاد قريش، أى بلاد الأشمونين وما حولها من البهنسا.

٢ ـ بنو زُهْرة: بضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر. من القبائل العدنانية، بطن من قريش من كنانة من بنى مُدْرِكَة من خندف من مضر وهم: بنو زُهْرَة بن كلاب بن مرة. وزُهْرَة اسم إمرأة كلاب، نُسب ولده إليها. ويقول عنهم عبد الله خورشيد: إنهم «أقاموا بمصر إقامة فعلية منذ القرن الثانى فى الأقل. والمقريزى يحسبهم ممن كان بالصعيد من قريش، فى حين يحدد الحمدانى مكانهم ببلاد الأشمونين وما حولها من صعيد مصر. ويُفهم من هذا أنهم ذهبوا للإقامة فى بلاد قريش منذ هجرة الأشمونين».

٣ ـ بنو سهم: من القبائل العدنانية، بطن من قريش من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر. وقد ذكرت سابقاً أنهم ولد عمرو بن العاص، ويرى عبد الله خورشيد أنهم أقاموا فى منطقة الأشمونين منذ هجرة قريش، رغم أن المقريزى قد ذكرهم ممن كانوا بالصعيد من قريش.

٤ ـ بنو جعفر الطيار بن أبى طالب (٥٣): من القبائل العدنانية، من بنى هاشم بطن من قريش من كنانة من بنى مدركة من خندف من مضر. ويقول عنهم عبد الله خورشيد: إن المقريزى لا يعطينا فكرة واضحة عن أول اقامتهم بمصر، ولكنه فى موضع آخر يذكر أن عدة بطون منهم كانت تنزل بأرض الأشمونين. ويرى عبد الله خورشيد أن الجعافرة عاشوا فى مصر منذ القرن الثالث فى الأقل، وأنهم هاجروا إلى الأشمونين فى هجرة قريش الكبرى (٥٤) إلى تلك المنطقة.

٥ ـ جهينة: من القبائل القحطانية، وقد تم التعريف بها مع أهل الراية. لكن يبدو ـ من كلام المقريزى ـ أنهم انتقلوا بعد ذلك وسكنوا بلاد الأشمونين، وظلوا بها حتى مجيء الفاطميين الذين نقلوهم من بلاد الأشمونين إلى بلاد أخميم.

٦ ـ بنو أمية: من القبائل العدنانية، وهم بطن من قريش من كنانة من بنى مُدْرِكَة من خندف من مضر. ويقول عنهم الحمدانى: وبالصعيد جماعة من بنى أمية بناحية تَنْدَة (٥٥) وما حولها من الأشمونين ـ من بنى أبان بن عثمان، وبنى خالد بن يزيد بن معاوية، وبنى مسلمة بن عبد الملك، وبنى حبيب بن الوليد بن عبد الملك، ومن بنى مروان بن الحكم، وهو المروانية.

---

(٥٣) ويقول القلقشندى: وقد عرف بجعفر الطيار لأنه عندما قطعت يداه يوم موته سنة ثمان من الهجرة، فأخبر النبى (ص) أن الله جعل له منهما جناحين يطير بهما فى الجنة، ولذلك قيل له :الطيار.

(٥٤) ويرجح عبد الله خورشيد أن تكون هجرة قريش الكبرى إلى بلاد الأشمونين قد تمت فيما بين أواسط القرن الرابع وقت دخول الفاطميين مصر، وأواسط الخامس.

(٥٥) تَنْدَة: الدال مهملة مفتوحة. وهى قرية كبيرة فى غربى النيل من الصعيد الأدنى، وتَنْدَة بمركز ملوى ـ مديرية أسيوط.

(ثانيا) انتشار اللغة العربية:

رأينا كيف كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للبلاد قبل الفتح العربى لمصر طوال مدة الحكم البيزنطى، وكيف كانت اللغة القبطية هى لغة المصريين. ولم تكن ثمة حاجة بالمصريين لتعلم اللغة اليونانية إلا لمن يريدون تولي الأعمال الإدارية فى الحكومة.

وعندما فتح العرب مصر تغير الأمر، ولكن تدريجياً، ففى خلال ثلاثة قرون كانت اللغة القبطية للمصريين قد افسحت مكانها للغة العربية. فكيف تغير اللسان المصرى، الذى لم يتغير طوال العهود السابقة، من القبطية إلى العربية؟ وبمعنى آخر ما هى العوامل التى أدت إلى إنتشار اللغة العربية فى مصر، ومن ثم إلى تعريب مصر؟

تُعتبر هجرة القبائل العربية ـ التى مرت بنا فى الصفحات السابقة ـ من أهم عوامل انتشار اللغة العربية، ذلك أن أحد الفروق الهامة بين هذه القبائل واليونانيين الذين عاشوا فى مصر، هو أن هذه القبائل أتت للإستيطان والمعيشة فى مصر، فكان عليها أن تنتشر فى الريف المصرى. أما اليونانيون فقد عاشوا فى مصر كطبقة حاكمة، فاقتصر نزولهم على المدن وصبغوها بحضارتهم، ولم يمتد نفوذهم الثقافى فى الريف كثيراً، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة، وعاش اليونانيون فى مصر، كأنهم جزر يونانية فى المحيط المصرى الواسع. أما العرب فقد عاشوا وسط المصريين، واختلطوا بهم اختلاطاً كاملاً، وتزوجوا منهم، الأمر الذى أدى ـ بالضرورة ـ إلى إنتقال اللغة العربية إليهم. وبدون هذا التفاعل والإختلاط لا يمكننا أن نفسر ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه.

هذا على كل حال، هو العامل الأول فى إنتشار اللغة العربية فى مصر، أما العامل الثانى، فهو حركة التعريب التى قامت بها الدولة العربية، سواء لتعريب الدواوين أو لتعريب النقود.

وبالنسبة لتعريب الدواوين فى مصر، فقد حدث ذلك فى عام ٨٧هـ/٧٠٥م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر (٨٦ ـ ٩٠ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧٠٨م)، الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية. وبغض النظر عن الدافع وراء هذا التعريب ـ وهو ما تناولناه فى كلامنا عن النظام الإدارى، فإن تعريب الدواوين شكل خطراً كبيراً على مناصب الأقباط فى الدولة، دفعهم دفعاً إلى تعلم اللغة العربية، حتى يتسنى لهم الإحتفاظ بوظائفهم، أو تولى الوظائف كما ذكرت سابقاً.

وهكذا أصبحت اللغة العربية، هى اللغة الرسمية للبلاد، بدلاً من اللغة اليونانية التى كانت حتى ذلك الحين هى لغة الدواوين.

ولم تقتصر حركة التعريب على تعريب النظام الإدارى فى الدولة الإسلامية، وإنما تعددت إلى تعريب النظام الإقتصادى المتمثل فى عملة البلاد، ومن المعروف أن العرب ظلوا يتعاملون بنقود كسرى وقيصر، أى الدراهم والدنانير، حتى تولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٤ ـ ٧٠٥م)، فكان أول من ضرب النقود الرسمية عربية مستقلة فى الإسلام، وأوجب التعامل بها، وأبطل إستعمال النقود الرومية والفارسية عام ٧٦ هـ/ ٦٨٦م.[٥٦]

على كل حال، فقد كان بسبب حركة التعريب أن انتقلت ثقافة مصر من الثقافة القبطية واليونانية إلى الثقافة العربية، بكل ما ترتب على ذلك من تغير العقل المصرى بصفاته القديمة القبطية واليونانية، إلى عقل عربى، حتى إذا ما وصلنا إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) رأينا البطرك الملكانى فى مصر سعيد بن بطريق (ت عام ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م) يكتب كتابه فى التاريخ

---

(٥٦) وقد اختلف المؤرخون فى السنة التى ضرب فيها عبد الملك النقود ونقشها، فقيل عام ٧٦هـ/ ٦٩٥م وقيل عام ٧٥ هـ/ ٦٩٤م وقيل عام ٧٤ هـ/ ٦٩٣م وقيل عام ٧٧هـ/٦٩٦م.

باللغة العربية، ويعنونه باسم «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق». كذلك نرى ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ـ فى صعيد مصر ـ يؤرخ لبطاركة الكنيسة المصرية باللغة العربية فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى. ويتضح لنا ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ مما كتبه ساويرس أن اللغة العربية كانت قد أصبحت هى اللغة السائدة فى ديار مصر فى عصره على المستوى الشعبى والرسمى، حتى إن اللغة القبطية ـ باعترافه هو نفسه ـ أصبحت مجهولة من غالبية المصريين، وكذلك الحال بالنسبة للغة اليونانية التى كانت هى اللغة الرسمية منذ عهد البطالمة. لذلك يذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة فى ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربية، وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كانوا لهم دراية باللسان القبطى أو اليونانى!

ثالثاً: انتشار الإسلام:

أما بالنسبة لإنتشار الإسلام، وهو العامل الثالث فى صبغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية ـ فمن المحقق أن هجرة القبائل العربية إلى مصر، ونزولها خاصة فى الريف المصرى، كانت من أهم عوامل انتشار الإسلام فى مصر. ومما يؤكد أهمية هذا العامل قول المقريزى:

«ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب، مولى سلول، قيسا بالحوف الشرقى. فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجرة، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها.»

على أنه كان ثمة عوامل أخرى ـ ذكرتها المصادر العربية ـ أسهمت فى انتشار الإسلام فى مصر، خاصة فى فترات معينة، تبعاً لسياسة الخلفاء وولاتهم.

ومن هذه العوامل: الرغبة فى التخلص من دفع الجزية.

فيذكر ساويرس أنه فى خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٤٩م) أعلن والى مصر حفص بن الوليد (١٢٧ ـ ١٢٨هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٤٥م) إعفاء كل من يسلم من الجزية، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفا من الأقباط الدين الإسلامى!

كذلك يذكر ساويرس أنه عندما قرر الخليفة العباسى الأول أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢ ـ ١٣٦هـ/ ٧٤٩ ـ ٧٥٣م) أن يُعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره، تخلى كثير من المسيحيين ـ أغنياء كانوا أو فقراء ـ عن دينهم، واعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم.

ومن الأمثلة التى يبين فيها ساويرس أيضاً إسلام الكثيرين من الأقباط بسبب الفقر وقلة ما معهم من المال، ما حدث فى خلافة المنتصر العباسى (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢م) حينما ولى خراج مصر أحمد بن محمد بن المدبر، إذ فرض هذا الوالى ضرائب باهظة على الكنيسة وعلى الأقباط عامة، مما دفع الكثيرين إلى التحول إلى الإسلام.

وهذه الأمثلة التى أوردها ساويرس لا يجب التشكيك فيها، لأن ساويرس كان قبطيا، كما أنه لم يكن ليغفل الكلام على أى اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم إلى الدين الإسلامى بقوة.

وقد كانت ثورات القبط ـ التى سبق أن تعرضنا لها ـ بسبب زيادة الخراج، يتبع اخمادها فى العادة تحول عددكبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. وكان آخر تلك الثورات، تلك التى انتهت عام ٢١٧ هـ / ٨٣٢م بمجىء الخليفة المأمون إلى مصر، واخضاعه للثائرين، وكان من نتائجها أن أصبح المسلمون أغلبية فى القطر المصرى.

كذلك من العوامل التى أدت إلى دخول القبط إلى الإسلام، تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة. وقد بدأ به الخليفة عمر بن عبد

العـزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩م)، وتلاه الخليـفـه المهـدى (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٤ ـ ٧٨٥م)، ثم هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٨م)، والمامون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م)، والمتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٦١م)، والمقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/ ٩٠٧ـ ٩٣٢م).

الفصل الثانى

المرأة فى المجتمع المصرى

وضع المرأة فى المجتمع المصرى

المعلمات، والأميرات، وزوجات الأمراء، والفقيهات

الوظائف التى شغلتها المرأة

الفصل الثانى
المرأة فى المجتمع المصرى

بداية نقول إنه على الرغم من كثرة المؤلفات العربية فى مجالات الحياة المختلفة، إلا إننا لا نجد مصدراً يلقى أضواء كافية عن المرأة ووضعها فى المجتمع المصرى على وجه الخصوص.

وعند محاولتنا دراسة وضع المرأة فى المجتمع المصرى خاصة فى الفترة الخاضعة للبحث (من الفتح العربى إلى بداية الدولة الفاطمية) نلاحظ أن المصادر العربية تكاد تكون نادرة، أما فيما يختص بالمراجع الحديثة، فنلاحظ أنها قد أغفلت فترة بحثنا، كما نلاحظ أنها تتناول المرأة من حيث تكريم الإسلام لها ورفع مكانتها، وغير ذلك من الأمور النظرية التى لا تعبر عن واقع المرأة فى تلك الفترة، فهناك فرق بين النظرية والتطبيق أو الواقع.

وعلى أية حال، فمن خلال ما جمعناه من معلومات، وجدنا أن المرأة فى المجتمع المصرى ـ فى فترة بحثنا ـ لم يكن لها دور يذكر فى شئون الحكم، كما حدث فيما بعد، ولم نسمع عن دور سياسى قامت به زوجات الأمراء أو بناتهم أو أية امرأة أخرى.

على أن المصادر تتحدث عن حرص الأمراء والخلفاء على تعليم بناتهم وزوجاتهم، وتأديبهن على يد معلمات ومربيات عُرفن بالفضل والعلم.

فتتحدث المصادر عن عَزة بنت حُمِيل بن حفص بن اياس الحاجبية الغفارية الضمرية [1] التى أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بادخالها على حرمه ليتعلمن من أدبها. وكانت من أجمل النساء وجها وأفصحن لسانا، وأحفظن لكلام العرب. وقد سكنت مصر، وكان كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الشاعر المشهور يهيم بها، لذلك كان ينسب بها.

---

(١) فى ابن إياس (عزة بنت جميل بن عمرو الضمرى)

وقد توفيت عام ٨٥ هـ/ ٧٠٤م وقيل عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م بمصر، فى أيام عبد العزيز بن مروان. وقد زار «كثير» قبرها، ورثاها، وتغير شعرُه بعدها، فقال له قائل: ما بال شعرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا اعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب.

وقد تحدثت المصادر عن بعض الأميرات اللاتى عُرفن بالعلم والأدب مثل:

قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون:

وكان اسمها: أسماء. وكانت من أعقل النساء، وتذكر المصادر العربية أنه كان لها من الحكايات مع الخليفة المعتضد ما يجب أن تؤرخ! فمنها:

أن المعتضد قال لها يوما: «بم تشكرين الله اذ جعل أمير المؤمنين زوجك؟»

قالت: «بما يشكر به أميرُ المؤمنين اذ جعل أحمد بن طولون من رعيته»!

ومما أورده ابن سعيد أن المعتضد «وضع رأسه يوما فى حجرها، فنام حتى غط فى نومه، فتلطفت فى ميل رأسه من حجرها، ووضعته على مخدة، وقامت، إلى أن انتبه المعتضد من نومه، فوجد رأسه على مخده، ونظر إلى قطر الندى، فلم يجدها معه فى البيت، فاشتد غيظه، واستدعاها، فقال لها ـ بكلام منزعج ـ: ما هذا الذى صنعت ؟ أضع راسى فى حجرك، وأستأمنك على روحى، فتتركينى وتمرين عنى؟ فقالت: إن فيما اوصانى به ابى، الأ أجلس بين النيام والا انام بين الجلوس! فاعجب ذلك المعتضد وقال: نِعم ما اوصاك به أبوك».

ثم يقول ابن سعيد إن المعتضد «ناولها يوما قدح خمر لتشربه، فقالت: يا أمير المؤمنين: ما شربتُه قط، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول عن النساء: ناقصات عقل ودين، والرجال إن شربوا الخمر، ففى عقولهم واديانهم ما يحتمل حَيفها، والنساء بضد ذلك، فاشتد ولعه بما سمع منها وأعفاها».

«وقال لها يوماً: ما أحسن ما أدبك أبوك؟ فقالت: إنى لم أكن أبصر أبى، ولكنى تأدبت بأدب جواريه، فقال: ذلك أحسن وأشرف». وعن أدب قطر الندى يقول ابن سعيد:«وصارت الأمثال فى قصر الخليفة تُضرب بأدب قطر الندى».

ومن الأميرات اللاتى عرفن بالعلم والأدب:

أم مروان:

وهى الإبنة الكبرى لآخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، وكانت قد جاءت ضمن بناته وزوجاته عندما هرب إلى مصر. ويقال إنه عندما قتل مروان بن محمد على يد عامر بن اسماعيل، أرسل حريمه وبناته إلى صالح بن على، فتكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت:

«يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما يحب لك حفظه، وأسعدك فى الأمور كلها بخواص نعمه، وعمك بالعافية فى الدنيا والآخرة. نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جَورنا! قال: اذن لا نستبقى منكم أحدا رجلاً ولا إمرأة... قالت: يا عم أمير المؤمنين فليسعنا عفوكم اذا. قال: أما العفو فنعم قد وسعكم، فان أحببتِ زوّجتك من الفضل بن صالح بن على، وزوجتُ أختك من أخيه عبد الله بن صالح. فقالت: يا عم أمير المؤمنين، وأى أوان عرس هذا؟ بل تلحقنا بحرّان. قال: فاذاً أفعل ذلك بكن إن شاء الله، فألحقهن بحران».

ويذكر الحميرى أنه عندما قَتل عامر بن اسماعيل مروان بن محمد، قعد على فرشه، وأكل من طعامه، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى، وتعرف بأم مروان، فقالت: «يا عامر، إن دهراً أنزل أمير المؤمنين عن فرشه حتى أقعدك عليه، فأكلت من طعامه، واحتويت على أمره، وحكمت فى مملكته ـ لقادر أن يغير مآربك! فاغتاظ السفاح من ذلك وكتب إليه: ويلك، أما كان لك فى أدب

الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان، وتقعد على مهاده وتتمكن من وساده؟! أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك، لمسَّك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجرا ولغيرك واعظا، فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب إلى الله عز وجل بصدقة تطفىء بها غضبه، وصلاة تُطَهريها الاستكانة، وصم ثلاثة أيام، ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك».

ومن الأميرات اللاتى ذكرت المصادرُ العربية أسماءهن:

ارمانوسة ابنة المقوقس:

وكان عمرو بن العاص عندما نزل بلبيس قد أسرها وأخذ جميع مالها، ثم أحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسيرها اليه مكرمة فى جميع مالها مع قيس بن ابى العاص السهمى.

ام كلثوم:

وكانت ابنه الوالى عقبة بن عامر.

ام سهل:

وكانت ابنة الوالى مسلمة بن مخلد. واليها تنسب منية ام سهل، وقد تزوجت من أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان.

أسماء ابنة أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان:

وهى التى يُعرف باسمها (مصحف أسماء). فقد ذكرتُ فى موضع سابق أن عبد العزيز بن مروان عندما كان واليا على مصر، امر ان يُكتب له مصحف، فلما فرغ من كتابته قال: مَن وجد فيه حرفا خطأ فله رأس أحمر وثلاثون دينارًا، فتداوله القراء، فأتى رجل من قراء الكوفة (من أهل الحمراء

كما في رواية ابن عبد الحكم) ذكر ابن يونس أن اسمه زرعة بن سهيل الثقفي، فقرأه بهجاء، ثم جاء إلى عبد العزيز بن مروان فقال له: قد وجدت في المصحف حرفاً خطأ، قال مصحفي؟ قال: نعم. قال: فنظروا، فاذا فيه: «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة»،فإذا هي مكتوبة «نجعة»قدمت الجيم قبل العين، فأمر بالمصحف، فأصلح وأبدلت الورقة، ثم أمر له بثلاثين ديناراً وبرأس أحمر. وعندما توفي عبد العزيز بن مروان في سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م بيع هذا المصحف في ميراثه، فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفي أبو بكر، فاشترته أسماء ابنة أبي بكر بن عبد العزيز بسبعمائة دينار، فأمكنت منه الناس، وشَهرتْه، فنُسب اليها، وعرف بمصحف أسماء.

عباسة بنت أحمد بن طولون:

وهي من فواضل نساء عصرها، وقد سميت بها قرية العباسة ـ الواقعة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام ـ عندما نزلت بها في أثناء توديعها لقطر الندى.

وقد ابرزت المصادر أيضاً أسماء بعض زوجات الأمراء في مصر، دون ذكر أدوار لعبنها وهن:

أم عبد الله ابنة عبد الله بن عمرو بن العاص:

وقد تزوجها عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه سهلا وسهيلا.

مارية:

وكانت جنسيتها رومية. وقد تزوجها عبد العزيز بن مروان. وأنجب منها ولدا وهو محمد بن عبد العزيز، وقد بنى عبد العزيز بن مروان قصرا لها عرف بقصر مارية.

أسماء:

وكانت زوجة أحمد بن طولون. يقول عنها ابن سعيد، نقلا عن نعْت جارية احمد بن طولون: كان لأحمد بن طولون زوجة من بنات الموالى تزوجها بمصر، وكانت حسنة الموقع منه، جميلة الصورة، يقال لها أسماء، فقلت: «يا مولاى ليس خلوتك منها على حسب محلها منك!!» قال لى: «هى صغيرة الكف، قصدة الخلقة، فأخاف أن يكون هذا فى ولدى منها».

خديجة بنت مزاحم بن خاقان:

وكانت زوجة ايضاً لأحمد بن طولون. وكانت دار صناعة السفن قد نقلت إلى دارها بساحل الفسطاط من جزيرة الروضة عام ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦ م، وذلك فى الدولة الإخشيدية.

وقد أوردت المصادر بعض أسماء الجاريات اللاتى كانت لهن حظوة لدى الامراء أو الوزراء، ومنهن:

نعت:

وكانتْ جارية احمد بن طولون. وتقول عنها الدكتورة سيدة كاشف:

«ولم تشتهر فى بلاط أحمد بن طولون نساء اللهم إلا جاريته نعت. والظاهر أنها كانت تنعم بقسط وافر من الحرية، فإن ابن الداية قد نقل عنها معظم البيانات التى تركها لنا عن حياة أحمد بن طولون الخاصة. والمعروف أنها كانت أماً لثلاث من بناته. والظاهر أنها كانت تدير (حريم) أحمد بن طولون، ومن المحتمل انها كانت غير صغيرة فى السن، فإننا نراها تعنى بالترويح عن الأمير، وتعنى ببيته وسائر حريمه وجواريه، ولكنا لا نظن أنها كانت ذات شأن يذكر فى الأمور العامة».

بوران:

وكانت محظية خمارويه. ويقال إن من أجلها بنى خمارويه بيت الذهب، وصور فيه صورتها وصورته، وكان يرى أن الدنيا لا تطيب له إلا بسلامتها وبنظره إليها، وتمتعه بها، فكدر موتها عيشه، وانكسر انكساراً بان عليه.

وقد كان لأبى بكر محمد بن على الماذرائى جارية ـ لم يذكر المقريزى اسمها ـ كانت تخرج معه للحج.

كما ذكرت المصادر اسما لسيدة كانت أما لأحد أولاد أحمد بن طولون وهو أبو العشائر. وإن كانت المصادر لم توضح لنا هل كانت زوجته أو جاريته، وقد عرفت باسم «مائة ألف».

وقد برزت فى فترة البحث، بعض الفقيهات من النساء اللاتى حظين بقدر من الشهرة، وكانت أشهرهن:

السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب:

وقد دخلت مصر مع زوجها اسحاق بن جعفر الصادق. وكانت من ربات الصلاح والزهد، ويقال إنها حجت ثلاثين حجة، وكانت كثيرة البكاء، تقوم الليل وتصوم بالنهار، فقيل لها: ألا ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسي، وأمامى عقبة لا يقطعها إلا الفائزون. وكانت تحفظ القرآن وتفسيره. وكان الإمام الشافعى يزورها وهى من وراء الحجاب، وقال لها: ادعى لى! وكان معه عبد الله بن عبد الحكم. وقيل: لما مات الإمام الشافعى أوصى أن السيدة نفيسة تصلى عليه، فلما مات أُدخل نعشه فى دارها، وصلّت عليه، ثم حُمل من عندها ودفن. وقد توفيت السيدة نفيسة سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣ ودفنت فى منزلها، وهو الموضع الذى به قبرها الآن. وقد أراد زوجها اسحاق بن الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يتركها ويدفنها عندهم لأجل البركة. وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر.

وقد أشار الأبشيهى والقرمانى فى كتابهما إلى واقعة مقابلة أحمد بن طولون والسيدة نفيسة، ومن الواضح جليا أن هذه الواقعة مختلقة، خاصة وأن الدولة الطولونية قامت فى مصر عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، والسيدة نفيسة ـ كما ذكرت آنفا ـ قد توفيت عام ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م، فكيف تسنى لهما هذا اللقاء؟ وعلى أية حال، فسأورد نص هذه المقابلة كما ذكرها الأبشيهى، فهو يقول: «وقيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل، استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها، فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: فى غد. فكتبت رقعة ووقفت فى طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون! فلما رآها عرفها، فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة، وقرأها، فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، وردت اليكم الارزاق فقطعتم هذا، وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فانا صابرون، وجوروا فانا بالله مستجيرون، واظلموا فانا إلى الله متظلمون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. قال: فعدل لوقته».

ومن الفقيهات اللاتى ذكرتهن المصادر العربية كذلك:

كلثوم بنت أبى القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب:

وقد كانت من الزاهدات العابدات، وكان لها مشهد يزار فى مصر ـ كما ذكرت فى موضع سابق.

عائشة بنت جعفر الصادق:

من ربات العبادة والصلاح، كانت تقول: «وعزتك وجلالك لئن أدخلتنى النار، لآخذنُ توحيدى وأدور به على أهل النار، وأقول لهم: وحدتُه فعذبنى»! وقد توفيت عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م ودفنت بقرافة مصر.

رابعة بنت اسماعيل:

عابدة من عابدات مكة، ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م وأقامت بمصر سبع سنين، ولما دخل الإمام الشافعي مصر كان يتردد عليها، وكان يصلى التراويح فى رمضان بمسجدها.

آسية بنت مزاحم بن خاقان:

وهى من ربات العبادة والزهد والتقى والصلاح، عكف عليها الخاص والعام، ويُنسب اليها تربة السيدة آسية بنت مزاحم بمصر. وتوفيت عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م. ويبدو من اسمها أنها كانت أختا لخديجة ابنة مزاحم بن خاقان، زوجة أحمد بن طولون التى ذكرتها سابقاً.

فاطمة بنت عبد الرحمن الحرانية:

كانت من الزاهدات العابدات، ولدت ببغداد، وقدم بها أبوها إلى مصر، وسمعت منه، وطال عمرها حتى جاوزت الثمانين، وكانت تعرف بالصوفية لأنها كانت تلبس الصوف، ولا تنام إلا فى مصلاها بلا وطاء أكثر من ستين سنة. وقد سمع منها أخيها عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الرحمن بن أبى صالح. وقد توفيت عام٣١٢هـ/ ٩٢٤م.

وبعد فقد حاولنا معرفة شيء عن الوظائف التى شغلتها المرأة فى فترة بحثنا، فلم نجد إلى جانب وظيفة المؤدبة والمربية التى تحدثنا عنها، سوى وظيفة الحاضنة. ومن الحاضنات اللاتى ذكرتهن المصادر العربية: بُنانة وكانت حاضنة لبعض بنى مروان أو ظِئْرا لهم [(٢)] كما يقول ابن عبد الحكم.

---

(٢) الظئر جمع اظؤُر واظْآر وظُؤُور وظُؤُورة وظُؤار. اى المرضعة لولد غيرها.

الفصل الثالث

العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى

. الأعياد والمواسم

.أعياد المسلمين ـ أعياد الأقباط ـ أعياد اليهود.

. الأعياد القومية.

. احتفالات الزواج.

. الطعام والشراب.

. الملابس والزينة.

. الألعاب ووسائل التسلية..

. الشطرنج
. الصيد
. لعب القمار
. لعبة الصوالجة
. الحواة
. الكُرَّج
. سباق الخيل

. المقابر والجنازات .

الفصل الثالث

- العادات والتقاليد فى المجتمع المصرى

الأعياد والمواسم

بعد سيطرة العرب على مصر، ودخول الدين الإسلامى إليها، أصبح فى مصر ثلاثة أنواع من الأعياد تتبع ثلاث ديانات أساسية فى مصر، وهذه الأعياد هى:

أعياد المسلمين - أعياد الأقباط - أعياد اليهود.

هذا إلى جانب أعياد يمكن أن نطلق عليها أعيادا قومية، وذلك لأنها لا تقام وفقا لدين معين، وانما كان الشعب كله يحتفل بها، وشاركهم العرب فى هذا الاحتفال.

وقبل تناول الأعياد فى مصر يجب أن نشير إلى ظاهرة هامة، وهى أن المصريين، مسلمين ومسيحيين، كانوا يحتفلون بالأعياد الإسلامية والمسيحية على السواء، ولعل ذلك - كما ترى الدكتورة سيدة كاشف - يرجع إلى أن الكثير من المصريين المسلمين كان من أصل قبطى.

وسنحاول فى الصفحات القادمة أن نتتبع الأعياد فى مصر بشىء من التفصيل، رغم فقر المصادر العربية التى تعرضت للفترة التى يتناولها بحثنا فى هذا الموضوع.

اولا: اعياد المسلمين:

نلاحظ أن المصادر العربية لا تشير إلى احتفالات بأعياد المسلمين أقيمت فى هذه الفترة، اللهم إلا ما ذكر عن إحتفالين فى الدولة الإخشيدية، كان الاول عن الإحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر - ويظهر من النص أن هذا ما كان يحدث فى الدولة الطولونية - والثانى عن الإحتفال بعيد الأضحى.

وبالنسبة للإحتفال الأول، وهو الإحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر، يقول ابن سعيد: «ولما دخل شهر رمضان، أطلق النفقات للمسجد الجامع، وأمر بعمارة المساجد بالجص، والبياض، والخلوق، والمصابيح، والأئمة. ثم أمر بالتأهب للعرض ليلة الفطر على رسم أحمد بن طولون وما كان يفعله تكين، فتأهب الناس واشتروا وأكثروا، وكان القواد التكينية على غاية الرفعة. ولما كان آخر شهر رمضان ركب الإخشيد بعد عشية، فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر، وهو فى وجوه عبيده فى دراعه [1] بياض، وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس [2] والمستوفيات [3]، وبين يديه الشمع والمشاعل، وقيل كان بين يديه مائة فراش بمائة شمعة. ثم أصبح الناس للعرض، وجلس فى المنظرة التى على باب دار الإمارة، ومرت العساكر. فلما انفض العسكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتجافيف [4]، والجواش [5] والدروع، فلم يفرغوا إلى العشاء. ثم أصبح، فركب لصلاة العيد، فصلى به عمر بن الحسن العباسى وخطب به وانصرف، ونصب السماط فأكل الناس وحملوا».

أما بالنسبة للإحتفال الثانى وهو الإحتفال بعيد الأضحى، فيقول ابن خلكان: كان كافور فى عيد الأضحى يسلم أحد رجاله ويدعى أبو بكر المحلى ـ وكان يتولى أمر نفقاته ـ بغلا محملا ذهبا وورقا وجريدة تتضمن أسماء بعض الأشخاص، لتوزع عليهم هذه الأموال. ويصف أبو بكر مهمته فى العيد فى تلك العبارة: كان يمشى معى صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من

---

(١) الدراعة: جبة مشقوقة المقدم.

(٢) الدبوس: عصا من خشب أو حديد فى رأسها كالكرة. والدبوس يسمى أيضاً العامود وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة (توضع على الرأس) ومن فى معناه.

(٣) الراجح أنها ضرب من العصى الخشبية السميكة.

(٤) جمع تجفاف، وهى آلة للحرب يلبسها الفارس ويتقى بها وكأنها درع.

(٥) الجواش: الدروع.

تضمنت اسمه الجريدة، فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وإمرأة وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدى يهنئك بعيدك، ويقول لك: اصرف هذا فى منفعتك. فأدفع إليه ما جعل له.

كما كان الشيعة فى مصر ـ خاصة فى الدولة الإخشيدية ـ يحتفلون بيوم عاشوراء بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام.

ويروى المقريزى عن يوم عاشوراء فى الدولة الإخشيدية فيقول:

«وانما قَويتْ انفس الشيعة بكون المعز بمصر، وقد كانت مصر لا تخلو منهم فى أيام الإخشيدية والكافورية فى يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة. وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة، وتتعلق السودان فى الطرقات بالناس، ويقولون للرجل: من خالك؟ فان قال معاوية، أكرموه، وان سكت، لقى المكروه، وأخذت ثيابه وما معه، حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ومنع الناس من الخروج ».

ثانيا: أعياد الأقباط:

ذكر المقريزى أن أعياد الأقباط المشهورة والشرعية بمصر، عددها أربعة عشر عيداً، فى كل سنة من سنواتهم القبطية، منها سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا، وسبعة يسمونها أعيادا صغارا.

أما الأعياد الكبار فهى:

١ ـ عيد البشارة:

ويَحتفل به الأقباط فى اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات (مارس). وهو اليوم الذى بشر فيه جبريل مريم بميلاد المسيح عليه السلام.

٢ ـ عيد الزيتونة:

ويعرف بعيد الشعانين ومعناه التسبيح، ويحتفل به الأقباط فى الأحد السابع من صومهم الذى يوافق اليوم الثانى والأربعين من بداية الصوم. وهو يُحيى ذكرى ركوب السيد المسيح لحماره، ودخوله إلى بيت المقدس ومَنْ حوله النصارى يسبحون، وهو يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى فى مصر. فتتزين كنائسهم، ويخرجون فى جماعات من الكنائس حاملين سعف النخل.

ويذكر المقريزى أن من عادة الإحتفال به فى مدينة أخميم، أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشعلة، ويقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعيان من المسلمين، فيبخروا، ويقرؤوا فصلا من الانجيل، ويمدحونه.

٣ ـ عيد الفصح:

وهو العيد الكبير عندهم، يحتفلون به يوم الفطر من صومهم الأكبر، ويأتى هذا العيد بعد «عيد الصلبوت» بثلاثة أيام كما يقول المقريزى. وهو إحياء لذكرى خروج المسيح عليه السلام من قبره بعدما دفن. وكان ذلك فى ليلة الأحد، عشرين من برمهات (مارس). فيقال إن المسيح عليه السلام خرج من قبره فى هذا اليوم ودخل على تلاميذه وسلم عليهم وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم بأمور تضمنها انجيلهم.

٤ ـ عيد خميس الأربعين:

ويُعرف أيضاً بعيد الصعود، ويحتفل به الأقباط فى اليوم الثانى والأربعين من الفطر. ويعتقدون أن المسيح عليه السلام بعد أربعين يوماً من قيامته، خرج والتلاميذ معه، فرفع يديه وبارك عليهم، وصعد إلى السماء، وذلك عند إكماله ثلاثة وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

٥ ـ عيد الخميس:

ويحتفل به الأقباط بعد خمسين يوما من يوم القيام، وهو فى اليوم السادس والعشرين من بشنس (مايو). وقد اعتقدوا أنه بعد عشرة أيام من الصعود، وبعد خمسين يوما من قيامة المسيح، اجتمع التلاميذ فى بيت المقدس، فتجلى لهم روح القدس فى شبه السنة من نار، فامتلئوا من هذه الروح، وتكلموا بجميع الألسن، وظهرت على أيديهم آيات كثيرة ومعجزات، فعاداهم اليهود وحبسوهم، إلا أن الله سبحانه وتعالى نجّاهم، فخرجوا من السجن وساروا فى الأرض متفرقين يدعون الناس إلى دين المسيح.

٦ ـ عيد الميلاد:

يحتفل أقباط مصر بهذا العيد فى التاسع والعشرين من شهر كيهك (ديسمبر)، وهو ذكرى ميلاد المسيح، ودائما يوافق يوم الاثنين (فهم يقولون إنه ولد يوم الاثنين)، فتبدأ الاحتفالات مساء الأحد. ومن عاداتهم فى هذا العيد تزيين الكنائس بالمصابيح، واضاءة دورهم بالفوانيس الملونة، بداخلها الشموع المصبوغة، وكانوا يقبلون على أنواع الملاهى واللعب بالنار، وكانت الأسواق تزدان بالفوانيس والشموع والمشاعل فى هذه الليلة.

٧ ـ عيد الغطاس:

يحتفل الأقباط بهذا العيد فى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة (يناير). وأصله عند النصارى ـ كما يقول المقريزى ـ أن يحْيى بن زكريا عليهما السلام المعروف عندهم بيوحنا المعمدانى، عمّد المسيح أى غسله فى بحيرة الأردن، وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس، فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم، وينزلون فيه بأجمعهم، ولا يكون ذلك إلا فى شدة البرد، ويسمونه «يوم الغطاس». ويصف المسعودى ليلة الغطاس فى مصر عندما شاهدها بنفسه، وكان ذلك فى عام

٣٣٠هـ/ ٩٤١م زمن الدولة الإخشيدية فيقول: ولقد حضرت سنة ٣٣٠هـ ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة، والنيل يطوف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، فيحرق فى تلك الليلة بمصر من الشمع ما لا يحصى عدده. وقد حضر النيل فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم فى الزوارق، ومنهم فى الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط، ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف. وهى أحسن ليلة تكون بمصر، لا تُغلق فيها الدروب، ويَغطس أكثرهم فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء.

أما الأعياد الصغار فهى:

١ ـ عيد الختان:

يحتفل به الأقباط فى اليوم السادس من شهر بؤونة (يونيه)، ويعتقدون أن المسيح ختن فى هذا اليوم، وهو يوافق اليوم الثامن من يوم الميلاد.

٢ ـ عيد الأربعين:

يحتفل به الأقباط فى اليوم الثامن من شهر أمشير (فبراير)، وفى هذا اليوم ـ كما يقول الأقباط ـ دخل المسيح الهيكل، ويعتقدون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح مع أمه وبارك عليه بعد أربعين يوما من ولادته.

٣ ـ خميس العهد:

ويأتى هذا العيد قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، وكان من عاداتهم فيه أن يُملأ إناء من ماء ويزمزمون عليه، ثم يُغسل للتبرك به أرجل سائر النصارى. ويعتقدون أن المسيح فعل هذا بتلامذته فى مثل هذا اليوم كى يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض.

والعامة يطلقون عليه خميس العدس، من أجل أن النصارى تطبخ فيه العدس بأصناف كثيرة، ويقول أهل الشام: خميس الأرز وخميس البيض. ويبدو ـ كما يقول الدكتور عبد المنعم سلطان ـ أن هذه التسميات راجعة إلى نوع الطعام الذى اشتهر كل اقليم بتناوله فى هذه المناسبة.

وكان من عادة أهل مصر من المسلمين والنصارى تبادل الهدايا من الأطعمة فى هذا العيد، فيهادى النصارى بعضهم بعضا، ويهدون إلى المسلمين أنواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض.

وكان يقام فى الأسكندرية عيد يسمى بخميس العدس، وهو أول خميس من شهر نيسان، وهو خاص بمنارة الأسكندرية، لا يتخلف فى الأسكندرية عن الخروج إلى المنار ذلك اليوم أحد ـ كما يقول الحميرى ـ وقد أعدوا لذلك الأطعمة والأشربة، ولابد فى ذلك الطعام من العدس، فيفتح باب المنارة للناس ويدخلون فيها، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون.

٤ ـ سبت النور:

يأتى هذا العيد قبل «عيد الفصح» بيوم، ويكون ثالثَ يوم من «خميس العدس». وفى هذا اليوم يعتقد المسيحيون أن النور يظهر على قبر المسيح بكنيسة القيامة فى القدس، فتشتعل مصابيح الكنيسة كلها.

٥ ـ عيد حد الحدود:

يأتى هذا العيد بعد «عيد الفصح» بثمانية أيام، ويحتفلوا به أول أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله تكون مشغولة بالصوم. ومن عاداتهم فيه ـ كما يذكر المقريزى ـ أنهم يجددون ملابسهم والأثاث وغير ذلك.

٦ ـ عيد التجلى:

يحتفل به الأقباط فى اليوم الثالث عشر من شهر مسرى (أغسطس)، لأن فى هذا اليوم ـ كما يعتقد المسيحيون ـ تجلى المسيح عليه السلام لتلاميذه

بعدما رُفع. وقد تمنوا عليه أن يحضر لهم ايلياء وموسى عليهما السلام، فأحضرهما اليهم بمصلى بيت المقدس، ثم صعد إلى السماء وتركهم.

٧ ـ عيد الصليب:

ويُحتفل به فى اليوم السابع عشر من شهر توت (سبتمبر)، وكان سبب الإحتفال به هو ظهور الصليب على يد هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. فيذكر المقريزى انها سافرت إلى بيت المقدس فى طلب آثار المسيح عليه السلام، وبناء الكنائس، وإقامة شعائر النصرانية. ويقال إن الأسقف مقاريوس دلها على الخشبة التى زعموا أن المسيح صلب عليها، وقد قَص عليها ما عمل به اليهود، فحفرت فوجدت قبرا وثلاث خشبات على شكل الصليب، فاتخذوا ذلك اليوم عيدا، وسموه عيد الصليب، وهو اليوم الذى وجدت فيه الثلاث خشبات، وبنيت فى نفس المكان كنيسة القيامة.

وقد كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم ـ كما يقول المقريزى ـ يخرج الناس فيه إلى بنى وائل بظاهر فسطاط مصر، ويتظاهرون فى ذلك اليوم بالمنكرات من أنواع المحرمات، ويمر لهم فيه ما يتجاوز الحد.

ومن اعياد القبط أيضاً:

عيد الشهيد:

ويحتفل به اقباط مصر فى اليوم الثامن من شهر بشنس (مايو)، ويعتقد النصارى أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يُلقوا فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى. ويكون ذلك اليوم عيدا تَرحل اليه النصارى من جميع القرى على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شطوط النيل، ويركبون فيه الخيل، ويباع فى هذا اليوم أعداد كبيرة من الخمر. وكان يخرج إلى هذا العيد أيضا المغنون والمغنيات وأصحاب الفسق

وغيرهم، وكان يُتجاهر هناك بما لا يحتمل ـ كما يقول المقريزى ـ من المعاصى والفسوق.

عيد النيروز:

وهو الاحتفال برأس السنة القبطية، ويحتفل به الأقباط فى أول يوم من شهر توت (سبتمبر) والنيروز كلمة فارسية معربة. وهو من الأعياد القديمة التى احتفلت بها كثير من الشعوب على اختلاف جنسياتها وعقائدها، وهذا العيد ليس له تاريخ ثابت، بل يحتفل به كل شعب حسب تاريخ بداية السنة عنده.

وكان من عادتهم فى هذا اليوم اشعال النيران والتراش بالماء، فهو من مواسم لهو المصريين.

ثالثا: أعياد اليهود:

يذكر القلقشندى فى كتابه أن لليهود خمسة أعياد مذكورة فى التوراة، وعيدين أحدثوهم ولم يذكرا بالتوراة.

وبالنسبة للأعياد الخمسة المذكورة فى التوراة، فهى:

١ـ عيد رأس السنة:

ويحتفل به اليهود فى أول يوم من تشرى من شهورهم، ويسمونه «عيد رأس هيشا» أى عيد رأس الشهر. وهو عندهم بمنزلة عيد الأضحى عند المسلمين، فيقولون: إن الله تعالى أمر ابراهيم بذبح اسماعيل ابنه فيه، وفداه بذبح عظيم. وهو عيد البشارة كما يقول المقريزى .

٢ـ عيد صوماريا:

ويسمونه الكبور، وهو عندهم الصوم العظيم، ويقولون: إن الله فرض عليهم صومه، ومن لم يصم فيه قتل عندهم . ومدة هذا الصوم خمس

وعشرون ساعة، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى، وتختم بمضى ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر، وربما سموه العاشور.ويشترط فيه لجواز الافطار عندهم روءية ثلاثة كواكب عند الافطار . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الأحد، ولا فى يوم الثلاثاء، ولا فى يوم الجمعة. ويعتقدون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة، وظلم الرجل أخاه، وجحده ربوبية الله تعالى .

٣- عيد المَظِلَّة:

ويكون لمدة سبعة أيام، أولها الخامس عشر من تشرى، وهو أيضا حج لهم، يجلسون فى هذه الايام تحت ظلال من جريد النخل، وأغصان الزيتون وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض. ويعتقدون أن ذلك تذكار منهم لا ظلال الله اياهم فى التيه بالغمام.

٤- عيد الفطير:

ويسمونه الفصح، ويحتفل به اليهود لمدة سبعة أيام أيضا، ويكون بدايته اليوم الخامس عشر من نيسان. وفى هذا العيد يأكلون الفطير، وهو ذكرى لاحياء الأيام التى خلص الله فيها بنى اسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير.

عيد الأسابيع:

ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويحتفل به اليهود فى اليوم السادس من شهر سيوان.

ويأتى هذا العيد بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. ويقولون إن فى هذا اليوم خاطب الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل من طور سيناء. وهو أيضا حج لهم، فحجوجهم، ثلاثة: الأسابيع والفطير والمظلة. ومن عاداتهم فى هذا العيد أكل القطائف، ويتفننون فى عملها، ويجعلونها بدلا من المن الذى أنزله الله عليهم فى هذا اليوم.

أما العيدان اللذان أحدثهما اليهود فهما كما يقول القلقشندى:

١ـ عيد الفوز:

واليهود يصومون قبلة بثلاثة أيام، وهو فى شهر آذار الثانى، وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة، يهدى فيه بعضهم إلى بعض.

عيد الحنكة:

وهو ثمانية أيام فى شهر كسيلو، ومن عاداتهم فيه أنهم يوقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفى الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون فى الليلة الثامنة ثمانية سروج.

الأعياد القومية:

كان على رأس هذه الأعياد عيد وفاء النيل :

عندما فتح عمروبن العاص مصر أتى أهلها اليه حين دخل شهر بؤونه (يونيه) (٦)، وقالوا له كما يقول ابن عبد الحكم :«أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم : وما ذاك؟ قالوا: إنه اذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فارضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فى الاسلام، وإن الاسلام يهدم ماقبله. فأقاموا بؤ ونه وأبيب، ومسرى، لا يجرى قليلا ولا كثيرا، حتى هموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب اليه عمر: قد أصبت إن الاسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى. فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤ منين إلى نيل أهل مصر: أما

---

(٦) كانت الزيادة فى النيل ـ كما تذكر المصادر العربية ـ تبدأ فى الخامس من شهر بؤونة. وفى اليوم السابع والعشرين من نفس الشهر، ينادى عليه بالزيادة، وكانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا. وأنظر فى ذلك، الموضوع الخاص بطبقة الزراع.

بعد، فان كنت تجرى من قبلك (قتلاك) فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك، فنسال الله الواحد القهار أن يجريك .

فالقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل، فأصبحوا يوم الصليب، وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة، وقطع تلك السُنة السوء عن أهل مصر».

وكان المتولى قياس المقياس اذا وجد أن العلامة وصلت إلى الستة عشر ذرعا، يسبل ستارا أسود على شباك المقياس، فاذا شاهد الناس هذا الستار قد أسبل، تباشروا بالوفاء، واجتمعوا كعادتهم للفرجة من كل صوب .

كما تذكر المصادر العربية أن متولى القياس كانوا ينادون على النيل بقولهم: « نعم لا تحصى، من خزائن لا تفنى، زاد الله فى النيل المبارك كذا وكذا،و كانت زيادته فى العام الماضى فى هذا اليوم كذا وكذا، وعلى الله التمام» . وكان المنادى يجعل فى أيديهم عودا وهو مخلق بالزعفران ، ومعهم الرياحين، وكانوا يتجهون إلى الجامع، وهناك يقفون حلقة، ويرمون بما معهم من الرياحين إليهم، وينادون أن الله عز وجل زاد فى النيل كذا وكذا، فيستبشر الناس، ويكثرون حمد الله والشكرله.

وقد جرت العادة فى كل سنة أنه اذا وفى النيل، يرسل الحاكم بشيرا إلى كل البلاد لتطمئن القلوب. وهى عادة قديمة.

وتذكر المصادر أن هذا اليوم، كان يوما مشهودا، وموسما معدودا، ليس له نظير فى الدنيا، وكانت فرحة أهل مصر به لا تعادلها فرحة، وقد خصوا بذلك دون غيرهم من البلاد الشامية وغيرها.

وقد قال القائل فى المعنى :

نادى منادى الوفا بمصر ... اذا علقوا ستره علامة

من الغلا قد سلمت حقا ... وبت فى الستر السلامة

احتفالات الزواج

نظرا لارتباط الزواج بالدين، كان من الطبيعى أن تختلف مراسيم الزواج بانتقال مصر من يد البيزنطيين إلى يد العرب، ومن الديانة المسيحية إلى الاسلامية. وتقدم لنا أوراق البردى الكثير من عقود الزواج التى توضح لنا عادات وتقاليد الزواج فى فترة دراستنا.

وقد كانت عقود الزواج فى هذا العصر تختلف عن عقود الزواج فى عصرنا، فقد كانت غنية بالبيانات المتصلة بالزواج من خطوبة، وشهود، ومهر معجل، ومؤخر، ووصايا بحسن الصحبة والمعاشرة، والأمر بالامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان، وفى بعضها شروط تشترطها الزوجة على الزوج.

ويتضح من هذه العقود أن قيمة المهر فى ذلك الوقت، كانت تتراوح ما بين ٤ دنانير و٢٠ دينارا ذهبا، حسب الحالة الاجتماعية لكل زوجة أو زوج.

أما المؤخر فلم يكن يدفع عند الطلاق كما يحدث حاليا، وانما كان يدفع على أقساط فى مواعيد محددة من تاريخ عقد الزواج.

ونلاحظ أن الزوجة عندما تستلم صداقها تكتب براءة أو اقرار الشهود بأنها استلمت قيمة الصداق. أما بالنسبة للشهود، فنلاحظ من عقود الزواج أنهم كانوا أكثر من شاهدين، وليس كما يحدث فى وقتنا الحاضر. وتقول الدكتورة سيدة كاشف: إنهم كانوا أكثر من عشرة فى الغالب! وكان من الشروط التى تضمنتها عقود الزواج ما يتعلق بحسن الصحبة والمعاشرة، أو يتعلق بزيارة الأهل، أو يتعلق بوضع الزوجة اذا تزوج الزوج عليها أو اتخذ جارية له.

وتتضمن ملاحق الرسالة بعضا من عقود الزواج لنرى فيها بوضوح البيانات المتعلقة بالزواج.

وكان أشهر زواج قد تم فى فترة بحثنا هو زواج قطر الندى إبنة خمارويه. ففى عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م توفى الخليفة المعتمد، وبويع بالخلافة من بعده المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة، فبعث اليه خمارويه بهدايا وتحف، وسأله أن يزوج ابنته قطر الندى لولده المكتفى بالله فقال المعتضد: بل أنا اتزوجها ! وتزوجها فى عام ٢٨١هـ/ ٨٩٤م.

ويذكر ابن اياس أن مهرها الذى دفعه الخليفة المعتضد كان مائة ألف دينار، ومائة ألف شِقة حرير ملون، وان كان ابن خلكان يقول فى كتابه: إن مهرها قدر ألف ألف درهم.

وقد جهزها خمارويه بجهاز لم ير مثله، لذلك سنعرض وصفا لهذا الجهاز مع ما فيه من مبالغة، من كل مصدر على حده، خاصة أن بعض المصادر العربية تشير إلى أن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها خمارويه!

يقول ابن كثير:« فجهزها أبوها بجهاز لم يسمع بمثله، حتى قيل إنه كان فى جهازها مائة هاون من ذهب. فحمل ذلك كله من الديار المصرية إلى دار الخلافة ببغداد ».

ويقول فى موضع آخر: وهذا « غير الفضة وما يتبع ذلك من القماش وغير ذلك مما لا يحصى. ثم بعد كل حساب أرسل معها أبوها ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار، لتشترى بها من العراق ما قد تحتاج اليه مما ليس بمصر مثله»!

ويقول ابن دقماق :« وحمل معها مالم ير مثله، ولاسمع به، دكة [(٧)] أربع قطع ذهب، عليها قبة ذهب مشبكة، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة»، وفيه أيضا« ألف تكة، الثمن عنها عشرة آلاف دينار».

---

(٧) الدكة جمع دكاك: بناء يسطح اعلاه للجلوس أو لجعل كرسى عليه.

ويقول القلقشندى :«وجهز اليه مهرها ألف ألف درهم، وهدايا كثيرة ووشاح وبدلة جوهر، فأجابة خمارويه إلى ذلك، وهادى بالهدايا الجمة، وجهزها بجهاز لم يسمع بمثله، يقال إنه كان فيه ألف هاون من ذهب» .

ويقول السيوطى :« وكان جهازها أربعة آلاف تكة مجوهرة، وعشر صناديق جوهر».

ويقول ابن اياس :« كان معها من القماش والأوانى مالا يحصر، حتى قيل نقل جهازها من مصر إلى بغداد فى ستة أشهر! فكان من جملة ما ذكر من جهازها مائة هاون ذهب، وألف سروال حرير، وفى تكة كل سروال جوهرة قدر بيضة الحمامة»!

ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته قطر الندى، أمر فبنى لها على رأس كل مَنْزِله تنزل فيها قصرا فيما بين مصر وبغداد. وأخرج معها خمارويه أخاه خزرج بن أحمد بن طولون (وفى رواية المقريزى شيبان بن أحمد بن طولون) فى جماعة مع ابن الجصاص، الحسن بن عبد الله، فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد، فكانت اذا وافت المنزلة وجدت قصرا قد فرش فيه جميع مايحتاج اليه، وقد علقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها. وكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد- على بعد الشقة - كأنها فى قصر أبيها، حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م.وكانت عمتها العباسة بنت أحمد بن طولون قد خرجت لتوديعها، فنزلت مكان القرية المعروفة بالعباسية من بلاد الشرقية من الديار المصرية، فعرفت بها كما ذكرت فى موضع سابق.

وعندما وصلت قطر الندى بغداد، نزلت فى دار صاعد بن مخلد، لأن المعتضد كان بالموصل . وزفت قطر الندى إلى المعتضد فى ربيع الآخر من نفس العالم، وعند ذهابها اليه من دار صاعد، منع الناس من المرور فى الطرقات، ويصف الطبرى زفافها اليه بقوله:

«ونودى فى جانبى بغداد الا يعبر أحد فى دجلة يوم الأحد، وغلقت أبواب الدروب التى تلى الشط، ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع، ووكل بحافتى دجلة من يمنع أن يظهروا فى دورهم على الشط. فلما صليت العتمة، وافت الشذا[8] من دار المعتضد، وفيها خدم معهم الشمع، فوقفوا بإزاء دار صاعد. وكانت اعدت أربع حراقات [9]، شُدَّت مع دار صاعد، فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات، وصارت الشذا بين أيديهم، وأقامت الحرة يوم الاثنين فى دار المعتضد، وجليت عليه يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول ».

وقد توفيت قطر الندى زوجة المعتضد فى رجب سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد.

أما الزواج الثانى الذى تم فى فترة بحثنا، فهو زواج الحسين بن القاضى أبو زرعة ببنت ابى على الحسين بن أحمد الماذرائى المعروف بأبى زنبور.

يقول الكندى :

«فكتب أبو زنبور أسامى مائة نفس فى درج، ووعدهم أن يكونوا عنده قبل صلاة الصبح، فحضروا، فاخرج اليهم مائة غلام بمائة قدح غالية، ومائة قمقم ماء ورد، ومائة مشط، ومائة مراة، ومائة مبخرة. ثم عقد النكاح، فخرج مائة غلام، بمائة طست، ومائة إبريق وعشرة موائد، فعقدوا على كل مائدة عشرة انفس، فاكلوا ثم غسلوا أيديهم، فالقيت على أيديهم مائة منديل، وأعيد عليهم الطيب والبخور، وأخرجت مائة صينية فيها الدنانير وتماثيل النَّد[10] والعنبر، فالقيت فى أكمام الناس، وكان املاكا ماسمع بمثله، وكان العرس بعد ذلك أعظم من الأملاك».

---

(٨) الشذا جمع شذوات: ضرب من السفن. هى سفن صغيرة .

(٩) الحراقة : جمع حراقات. السفينة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو.

(١٠) الند بالفتح عود يتبخر به. وهى كلمة فارسية.

وكان الزواج يشترط فيه التكافوء الاجتماعى، فتتزوج الأميرة من أمير مثلها أو حتى خليفة أو ابن قاضى أو ابن وزير، وهكذا. ويظهر ذلك بوضوح فى حكاية ذكرها الكندى فهو يقول:

« إن عبد الأعلى بن سعيد الجَيْشَانى تزوج بامرأة من بنى كُلال، فقام بعض أوليائها فى ذلك وأنكروه، وترافعوا إلى أبى خزيمة (ابراهيم بن يزيد قاضى مصر) فقال: ما أُحِل ماحرم الله، ولا أحرم ما أحل الله، اذا زوجها ولى فالنكاح ماض. فارتفعوا إلى يزيد بن حاتم، وهو الأمير يومئذ، فقال يزيد: ليس عبد الأعلى من أكفائها، وأمر أبا خزيمة بفسخ نكاحها، فامتنع أبو خزيمة من ذلك، وفرق بينها يزيد بن حاتم.»

وهكذا نرى كيف أن عدم التكافوء بينهما أباح للوالى أن يفرق بينهما .

ولا تورد المصادر العربية معلومات كافية عن مظاهر الاحتفالات بالأفراح، ولكن نجد فى ابن عبد الحكم أن يزيد بن أبى حبيب كتب إلى عمر بن عبد العزيز عن اللعب بالدفاف والبرابط (١١) فى العرس. فكتب اليه عمر بن عبد العزيز: إمنع الذين يضربون البرابط، ودع الذين يضربون بالدفاف.

وقد كانت مراسيم الزواج عند اليهود مختلفة، فيقول المقريزى :« ولا يصح النكاح عندهم إلا بولى، وخطبة، وثلاثة شهود، ومهر مائتى درهم للبكر، ومائة للثيب لا اقل من ذلك. ويحضر عند عقد النكاح كأس خمر وباقة مرسين، فيأخذ الامام الكأس ويبارك عليه، ويخطب خطبة النكاح، ثم يدفعه

---

(١١) البربط: من ملاهى العجم، ولهذا قيل معرب. و العرب تسمية المزهر والعود. والبربط من جنس الطنبور الفارسى القديم، ذو الوجه من الجلد، ويعرف الآن باسم: الطنبور العجمى، وصندوقه صغير، بعضه مغطى بالجلد وبعضه بالخشب، وجميعه قطعة واحدة محفورة، والأصل فى تسميته أنه محرف عن (بارباتره)، بمعنى الطنبور ذى الدف، أى المعلق به صندوق مستدير كالطبلة، فكان العرب يسمونه البربط، وهو أيضا بهذه التسمية بالفارسية. والبربط أو الطنبور بوجه عام، أقدم عهدا من العود، ويتميز بطول الساعد حتى يكاد يبلغ أربعة أمثال ساعد العود.

إلى الخَتَن [١٢] ويقول : قد تزوجت فلانة بهذه الفضة، او بهذا الذهب، وهو خاتم فى يده، وبهذا الكاس من الخمر، وبمهر كذا، ويشرب جرعة من الخمر، ثم ينهضون إلى المرأة، ويامرونها ان تاخذ الخاتم والمرسين والكاس من يد الختن، فاذا أخذت وشربت جرعة وجب عقد النكاح، ويضمن أولياء المرأة البكارة....... ولا يجوز عندهم نكاح الاماء حتى يعتقن ثم ينكحن».

أما الطلاق عند اليهود، فيقول عنه المقريزى : إنه لم يكن يجوز « إلا بفاحشة أو سحر او رجوع عن الدين. وعلى من طلق خمسة وعشرون درهما للبكر، ونصف ذلك للثيب، وينزل فى كتابها طلاقها بعد أن يقول الزوج: أنت طالق منى، ومختلعة منى، وفى سعة أن تتزوجى من شئت. ولايقع طلاق الحامل أبدا ... ويراجع الرجل امراته مالم تتزوج، فان تزوجت حرمت عليه إلى الأبد ».

(١٢) الختن جمع أختان: كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والاخ.

الطعام والشراب

ربما كان موضوع الطعام والشراب خير مايعطينا من مثل على ثراء الحكام والأمراء والكبراء واسرافهم فى هذا العصر، بقدر ما كان عليه العامة من فقر، ومن الولاة الذين تحدثت المصادر العربية عن موائدهم واسرافهم:

عبد العزيز بن مروان - أحمد بن طولون - خمارويه بن أحمد بن طولون - كافور.

وبالنسبة لعبد العزيز بن مروان فيذكر الكندى أنه كان له ألف جَفْنَة كل يوم تنصب حول داره، كما كانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل وهى مملوءة بالطعام، تفرق على الفقراء والمساكين ومعها الخبز، وقد وصف أحد الشعراء مائدة عبد العزيز بن مروان هذه بقوله :

كلُّ يَوم كأنه يومُ أضحى عند عبد العزيز أو يومُ فطْر
ولَه ألفُ جَفْنَةٍ مُتْرعَاتٍ كل يومٍ يُمُدها ألفُ قِدْرِ

أما أحمد بن طولون فتذكر المصادر العربية أنه كان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار . وكان يعمل سماط عظيم فى داره كل يوم يحضره الخاص والعام ، فينادى فى مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر . وكان أحمد بن طولون يجلس بأعلى القصر ينظر ذلك ، ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ، فيراهم وهم يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . وقد كانت مطابخ الفقراء والمساكين هذه يذبح فيها البقر والغنم ، ويفرق للناس فى القدور الفخار والقصع، ولكل قصعة أو قِدر أربعة أرغفة، فى اثنين منها فالوذج، والاثنان الآخران على القدر أو القصعة.

وبالنسبة لخمارويه بن أحمد بن طولون فيذكر المقريزى أنه كان يُنفق على مطبخه المعروف بمطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار فى كل شهر، بدون أرزاق الطباخين ومن يخدمهم.

كـمـا يصف لنا المقـريزى مطبخ دار الحـرم التى بناها لزوجـات أبيـه وزوجاته، كما ذكرت فى موضع سابق، فيقول: «فكان الخدم الموكلون بالحرم من الطبـاخين وغـيرهـم، يفضل لكل منهم مع كثرة عـددهم بعد التوسع فى قوته، الزلة الكبيرة، والتى فيها العدة من الدجـاج، فمنها ما قُلع فـخذها، ومنها مـا قد تشـعب صـدرها، ومن الفـراخ مثل ذلك، مع القطع الكبـار من الجـدى، ولحـوم الضـأن، والعـدة من ألوان عـديدة والقطع الصـالحـة من الفالوذج، والكثير من اللوزينج، والقطائف والهرائس من العصيدة التى تعرف اليوم فى وقتنا هذا بالمأمونية، وأشباه ذلك مع الأرغفة الكبار. واشتهر بمصر بيـعـهم لذلك وعُرفـوا به، فكان الناس يتناوبونهم لذلك، وأكـثر مـا تبـاع الزلة الكبـيرقمنها بدرهمين ومنهـا مـا يبـاع بدرهم، فكان كثير من الناس يتفكهون من هذه الزلات ... موجودا فى كل وقت لكثرته واتساعه، بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله، ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج مثل ذلك».

أما كافور فقد بالغت المصادر العربية فى ذكر مطبخه:

فيقول ابن اياس: «كان راتب كافور فى مطبخه فى كل يوم الفى رطل من اللحم البقرى، وسبعمائة رطل من اللحم الضـأن، ومائة طير أوز، وثلاثمائة طير دجاج، وثلاثمائة فرخ حمام، وعشرين فرخ سمك كبار، وعشرين رميا رضعا، وثلاثمائة صحن حلوى، وسبعة أفراد فاكهة، وألف كوز فقاع، ومائة قرابة سكر، وعشرة قناطير سكر، وألف كُمَاجة [١٣] من الخبز، وخمسة أفراد بقولات، وكان يحضر على سماطه الخاص والعام».

---

(١٣) الكماج الواحدة كماجة: وهى كلمة فارسية بمعنى خبز مستدير اسمك من الخبز العادى.

ويقول أبو المحاسن عن سماط كافور فى اليوم إنه: «مائتا خروف كبار، ومائة خروف رميس [١٤]، ومائة وخمسون إوزة، وخمسمائة دجاجة، وألف طير من الحمام، ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال، ومائتان وخمسون قرابة أقسما».

ولم يكن الولاةُ هم وحدهم الذين ظهروا بمظهر الإسراف على موائدهم، وانما أشارت المصادر العربية كذلك إلى بعض أغنياء الدولة، سواء كانوا من العرب أو من الأقباط.

ومن العرب المسلمين الذين ذكرتهم المصادر:

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن على بن الحسن بن ابراهيم بن طباطبا (تسنة ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩م) وكان من سادة مصر وكبرائها، يقول عن مطبخه ابن كثير: «لا تزال الحلوى تعقد بداره، ولا يزال رجل يكسر اللوز بسببها. وللناس عليه رواتب من الحلوى، فمنهم من يُهدى اليه كل يوم، ومنهم فى الجمعة، ومنهم فى الشهر. وكان لكافور الإخشيد عليه فى كل يوم جامان[١٥] ورغيف من الحلوى».

ومن الأقباط :

مارية القبطية صاحبة قرية طاء النمل . وقد ذكر المقريزى أنها عندما دعت المأمون إلى قريتها « جاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله: كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته؟ فأحضر جميع ذلك اليه بزيادة، وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق

---

(١٤) الرميس : هو ولد الضأن الصغير

(١٥) الجام جمع جامات وأجوام: وهى كلمة فارسية بمعنى الكأس.

والمتوكل ويحيى بن أكثم والقاضى أحمد بن أبى دواد، فاحضرت لكل منهم ما يخصه على انفراده، ولم تكل أحد منهم ولا من القواد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا، حتى إنه استعظم ذلك».

وقبل الخوض فى أنواع الطعام والشراب فى هذا العصر، يجب أن نوضح أن معظم ماورد ذكره كان قاصرا على موائد الأغنياء، أما الفقراء وعامة الشعب، فقلما عرفوا ذلك. فيقول عبد اللطيف البغدادى:

« وأما عوامهم، فقلما يعرفون شيئا من ذلك، وأكثر اغذيتهم الصِّير والصحناه [١٦]، والدُّلينس، [١٧]، والجبن والنيدة ونحو ذلك، وشرابهم المزد وهو نبيذ يتخذ من القمح».

وقد رأينا عند تناولنا لمطبخ دار الحرم فى زمن كافور، أن هذه الأطعمة التى كانت تباع، كان لا يستطيع الرجل العادى أن يصنعها فى بيته، فيقول المقريزى :« فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله، ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك».

ويبدو أن هذه الأطعمة كانت تكلفتها عالية، فيذكر ابن سعيد أن طبق «الحماضية» الذى صنع للاخشيد بلغ ثمنه مائة دينار.

كان الخبز يعد من أهم عناصر الطعام على المائدة المصرية، سواء فى ذلك طعام العامة او الخاصة. وقد روى الكندى عن حيوة بن شريح، عن عقبة بن مسلم، حديثا يرفعه إلى الله عز وجل، يقول يوم القيامة لساكنى مصر، فيما يعدد عليهم من نعمته:

---

(١٦) الصحناة كلمة فارسية وهى ما يطلق عليها العرب الصير. والصير هو السمك الصغير الذى يصاد من النيل عند الفيضان وانصراف الماء، ولايزيد عن الأصبع فى حجمه، ويسمى أيضا الملوحة، اذا كبس بالملح، ويسمى اذا كان طازجا البسارية، وتؤكل مشوية ومقلية.

(١٧) ويعبر المقدسى عن هذه الأكلة بانها اقذر شئ «حيوان بين زلفتين صغيرتين، يفلقان ويحسى مثل المخاط». ويبدو لنا انه يقصد بهذه الأكلة أم الخلول».

« ألم أسكنكم مصر، فكنتم تشبعون من خبزها وتروون من مائها »؟
وعندما تولى موسى بن كعب من قبل المنصور عام ١٤١هـ/ ٧٥٨م كان يقول:« كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز، فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان »!

وقد كانت كل مدينة تبنى، يبنى فيها عدة أفران، بل إن دار عبد العزيز بن مروان كان بها عدة أفران كما ذكرت فى موضع سابق.

ومن أنواع الخبز التى عرفت بمصر: الخبز الحوارى، وكان من أجود أنواع الخبز فى عهد الطولونيين والاخشيديين، وكان يصنع من الدقيق الأبيض المنخول.

ومن انواع الخبز أيضا نوع يسمى كعكا، وكان - كما يقول المقريزى - يعمل من جريش الحنطة ويجفف. ويكثر هذا النوع عند فلاحيهم، وهو أكثر أكلهم السنة كلها، ويعرف أيضا بكعك مصر الخشن.

ويذكر ابن سعيد أن أبا بكر محمد بن على المادرائى كان قد عمل كعكا لحاشيته، وعزم على الخروج إلى مكة، فتوفى وكان ذلك عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، فباعوا الكعك للناس ولم يتصدقوا به بعد موته.

ويذكر البلوى أن رغيف الخبز فى الدولة الطولونية كان به رطلان زائدان.

ومن الأطعمة أيضا:

الترمس، وكان من الحبوب التى يقبل الناس على أكلها، فكان يسلق وينقع فى الماء عدة أيام لتذهب مرارته، كما كان يخلى أو يملح.

كما كان العدس من الأطعمة التى يقبل عليها الناس، وخاصة الأقباط. وقد ذكرت فى موضع سابق أنه كان للأقباط عيد يعرف بخميس العهد، فكانت العامة تطلق عليه خميس العدس، لأن الأقباط كانوا يطبخون فيه

العدس بأصناف عدة. ويذكر آدم متز أن العدس كان يعتبر طعام حداد، وأن نصارى مصر يأكلونه فى كل يوم جمعة.

وكان الحمص المسلوق من الأطعمة التى ينتشر بيعها فى الأسواق، فقد ذكر المقريزى أنه كان خارج مدينة الفسطاط سوق عظيم يباع فيه حمص مسلوق، فكان به عدد ٣٩٠ قدر حمص مسلوق.

ومن الأطعمة أيضا السويق. وطريقة صنعه أن تحمص الحبوب جيدا، ثم تطحن ويصنع من دقيق الحنطة أو الشعير أو الفول، وأحيانا يطحن مع الحبوب البلح والسكر وهو طعام سهل التجهيز، وتصنع منه غالبا العصيدة أو الثريد باضافة الماء أو الزبد .

كما كان أهل مصر يأكلون الجلبان، وخاصة الرهبان منهم.

ومن أشهر أكلات العرب التى عرفت فى مصر الثريد، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق، ويوضع فوقه اللحم.

ومن الأكلات التى ذكرت فى الدولة الطولونية:

فراريج كردباج حارة: والصحيح فراريج كردناج، وهومعرب كردناك، وهو شواء فى سَفُّود يقلب على النار لينضج ويوء كل.

بزمْاوِرْد، أو الزماورد: طعام قيل هو الرقاق الملفوف باللحم ويسمى لقمة القاضى. وقيل هو طعام من البيض واللحم، وهو لفظ فارسى. وصنعته ان يومخذ الشواء الحار الذى فتر وهجه، ويقطع ويجعل عليه ورق النعنع، ويسير من خل خمر وليمون مملوح ولب جوز، ويرش عليه يسير ماء ورد، ويدق بالساطور دقا ناعما، ولايزال يسقى خلا إلى أن يشربه جيدا، ويومخذ الخبز السميذ الملبب، فيخرج لبابة، ثم يُحشى من ذلك الشواء حشوا جيدا، ويقطع ويبل بالماء وينشف ويرش فيه ماء ورد، ثم يفرش فيه نعنع طرى، ويعبى فيه بعضه فوق بعض، ويغطى أيضا بشىء من النعنع، ويترك ساعة ثم يوء كل.

ومن الأكلات التى ذكرت فى الدولة الاخشيدية:

الهريسة، وهى مصنوعة من لحوم الضأن والبقر والدجاج، ودقيق بعض الحبوب مثل القمح بالاضافة إلى البصل والتوابل بنسب محددة.

البقرية، وكان الاخشيد يحبها.

وقد كثر فى الأسواق المصرية فى ذلك الوقت الأماكن الخاصة ببيع الشواء، وهو المعروف اليوم باسم «الكباب» حتى إن الاخشيد حذر الشاعر أبو القاسم سعيد المعروف بقاضى البقر من شراء شواء من محل «دار فرح» لأنه يباع نيا ويخلط بلحم الماعز .

ومن الحلوى:

النيدة: وهى تعمل من بقول القمح، وقد روى عن مريم عليها السلام أنها عندما دخلت إلى مصر ومعها ابنها عيسى عليه السلام وهو رضيع، شكت إلى الله تعالى قلة اللبن بها، فألهمها الله تعالى أن غلت النيدة، وأطعمت منها عيسى عليه السلام.

عسل النحل: وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أهدى اليه من المقوقس هدية، من ضمنها عسل نحل من بنها، فلما أكل منه أعجبه، فقال: من أين هذا العسل؟ فقيل له: من قرية من قرى مصر، يقال لها بنها، فقال: اللهم بارك فى بنها وفى عسلها.

القُنُود[18]: وهى الحلاوة المصنوعة من قصب السكر، فكان أهل الصعيد يكسرون قصب السكر فى شهر كيهك (ديسمبر)، ويعتصر، ويعمل منه الطباخون القنود، ثم يحملونها إلى الفسطاط وغيرها من المدن، فتباع هناك .

---

(١٨) القَنْد جمع قنود: عسل قصب السكر اذا جمد. وهى كلمة فارسية معربة.

الكنافة: يذكر القرمانى أنها صنعت فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/ ٧١٤ - ٧١٧م)، فكان يتسحر فى ليالى رمضان كل ليلة بثمانين رطل كنافة. وهى مبالغة كما هو واضح.

ومن الحلويات التى ورد ذكرها فى الدولة الطولونية:

الفالوذج أو البالوظة، واللُّوْزينج وهى تشبه القطائف وتعمل بدهن اللون، والقطائف،والعصيدة التى تعرف بالمأمونية.

هذا إلى جانب صنف ذكره ابن سعيد يعرف باسم : سمانى زيرباجا.

ومن الحلويات التى ورد ذكرها فى الدولة الاخشيدية:

الحماضية: وكان الاخشيد يحبها، وهى تعمل من الأترج، ويوضع فيها ماء الورد والمسك، والأفاويه، والجوازيه.

الكعك المحشو بالسكر: ويذكر المقريزى أنه عمل فى أيام أبى بكر محمد ابن على الماذرائى .

أفطن له!: وقد عمل فى أيام أبو بكر محمد بن على الماذرائى، ويقول المقريزى عن سبب تسميته بذلك:« كان قد سمع فى سيرة الماذرائيين انه عمل له هذا ال «أفطن له»، وفى كل واحدة خمسة دنانير، ووقف استاذ على السماط، فقال لأحد الجلساء: أفطن له! وكان عمل على السماط عدة صحون من ذلك الجنس، لكن ما فيه الدنانير صحنا واحدا، فلما رمز الاستاذ لذلك الرجل بقوله: أفطن له، وأشار إلى الصحن، تناول ذلك الرجل منه فأصاب الذهب واعتمد عليه، فحصل له جملة، وراه الناس وهو اذا أكل يخرج من فمه ويجمع بيده ويحط فى حجره، فتنبهوا له، وتزاحموا عليه، فقيل لذلك من يومئذ «أفطن له ».

ويذكر البغدادى فى كتابه أنهم كانوا يطبخون الدجاج كصنف حلو، وذلك بأن يسلق الدجاج، ثم يوضع فى الجُلاَّب [١٩]، ويلقى عليه بندق أو فستق أو خشخاش أو بذر رجلة أو ورد، ويطبخ حتى ينعقد، ثم يتبل ويرفع، وتسمى هذه الأصناف باسم حشوها، فتعرف بالبندقية، والفستقية، والخشخاشية، وست النوبة لبذر الرجلة لسوادها، والوردية.

ثانيا : الشراب.

اذا كان الخبز هو الطعام الذى لا تخلو منه المائدة المصرية على مر العصور، فان الماء يعتبر الشراب الرئيسى على تلك المائدة.

وقد أورد المقريزى العديد من الطرق التى كانت تتبع لتنقية ماء النيل، ليكون صالحا للشرب، وذلك بترسيب المواد الغريبة العالقة بالماء باستخدام الطباشير وأنواع من الطين وقلوب نوى المشمش، أو بتقطيره فى أوان من الخزف والفخار أو الجلود، وذلك بعد غليه وتركه يبرد .

وكان عامة المصريين يهتمون بتبريد الماء فى الصيف باستخدام آنية من الخزف والفخار لهذا الغرض، وفى الشتاء يوضع الماء فى آنية من الزجاج المدهون، وغالبا ماكان يضاف إلى ماء الشرب القليل من ماء الورد، وأحيانا يبخر الاناء بأنواع الأبخرة الطيبة لتجويد مذاق الماء .

ويذكر ياقوت أن أهالى تنيس عندما تتكامل زيادة النيل تغلب حلاوته على ماء البحر، فتصبح بحيرة تنيس حلوة، فحينئذ يدخر أهالى تنيس المياه فى صهاريجهم ومصانعهم لمدة عام.

كما يذكر ياقوت عن نَسْتَرو، وهى جزيرة بين دمياط والاسكندرية ـ بأنه ليس عند أهلها ماء، وانما يأتيهم الماء فى المراكب، فاذا لاحت لهم مراكب الماء، ضربوا بوق البشارة سرورا، ثم يأتى كل رجل بجرته يأخذ فيها الماء .

---

(١٩) الجلاب أو الجلأب : العسل أو السكر عقد بماء الورد.

وعرف الأغنياء فى مصر، ولاسيما فى العصر الاخشيدى، الماء المثلج، وكان الثلج بمصر يستعمل فى تبريد الماء والمشروبات. ولكن الظاهر أنه لم يكن يصل إلى مصر كل يوم بانتظام.

ومن الأشربة التى وجدت فى تلك الفترة:

الشمسى: وهو من أجود الأشربة كما يقول المقريزى، ويدخل فى صناعته الزبيب والعسل، ويصنع فى الوقت الشديد الحرارة.

المزر: وهو شراب يعمل من الشعير، ويستعمل عند بعض الناس بدل الخمر، واذاأكثر من شربه ـ كما يقول ابن البيطار ـ فإنه يؤدى إلى الغثيان والقىء. وقد ذكره البغدادى باسم المزد، وقال عنه: إنه نبيذ يتخذ من القمح، وهو شراب العامة.

شراب العسل أو نبيذ العسل: ويصنع من ماء النيل وقت الفيضان مضافا اليه العسل .وكان هذا الشراب ينقل من مصر إلى سائر الأقطار.

الشوبية: يذكر الكندى أن عبد الرحمن بن حجيرة كان يشربها.

المثلث: وهو شراب يطبخ حتى يذهب ثلثاه.

شراب الأقسما: وكان يصنع من السكر الأبيض النقى المضاف إلى الماء، وماء الورد ويطيب بالمسك ويبرد بالثلج.

شراب الفقاع: وهو شراب يتخذ من الشعير، وقد سمى بذلك لما يرتفع فى رأسه ويعلوه من الزبد.

صناعة الخمور: وكان يختص بصناعتها الأقباط، فكانت تعتصر من كرومهم خاصة فى شهر مسرى (أغسطس)، ويضاف اليها العسل.

ويبدو أن شرب الخمر كان منتشرا فى مصر فى تلك الفترة! لذلك نجد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ١٠١هـ/٧١٧ ـ ٧١٩م) يرسل رسالة إلى

أيوب بن شرحبيل ـ والى مصر ـ وأهل مصر، ينهى فيها عن شرب الخمر. لذلك فـفى ولاية أيوب بن شـرحـبـيل عـام ٩٩هـ/ ٧١٧م حـرمت الخـمـر، وكسرت، وعطلت حاناتها كما تذكر المصادر العربية.

الملابس والزينة

كان من اثر انتقال مصر من يد البيزنطيين الى يد العرب ، ومن الديانة المسيحية الى الديانة الإسلامية ، أن طرأ تغيير على ملابس الناس يواكب التغيير الجديد . فبانقسام المصريين إلى مسلمين وأهل ذمة ، أصبح للمسلمين ملابسهم ولأهل الذمة ملابسهم ، وهو لم يكن موجودا قبل الفتح .

وسنتناول في الصفحات القادمة التطور الذى طرأ على الملابس . وفقا للتركيب الاجتماعى للسكان ووظائفهم ودينهم .

كان لبس البدو ـ كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ـ يتكون من قَبَاء[20] طويل مشقوق من الوسط ، ومتدل الى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، ولايزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا اللباس إلى اليوم . وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل ، وكانوا يرتدون في الحرب أو في ركوب الخيل أردية خاصة ، فيلبسون السروال عادة ، ورداء قصير بدلا من الثياب الفضفاضة.

وتذكر المصادر العربية أن الملابس التى أعطاها عمرو بن العاص لجنوده في مصر كانت تتكون من جُبَّة[21] وبُرنُسا[22] أو عمامة وخفين .

وبمرور الوقت حدث تطور فى ملابس العرب، وكان ذلك يرجع فى الغالب لرغبة الخلفاء. ففى عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٧م) شاع الوشى[23] الذى كان يجلب من اليمن والكوفة والاسكندرية،

---

(٢٠) القباء جمع اقبية : وهو ثوب يلبس فوق الثياب.

(٢١) الجبة جمع جبب وجباب : وهو ثوب واسع يلبس فوق الثياب.

(٢٢) البُرْنُس: قلنسوة طويلة كانت تلبس فى صدر الاسلام. والبرنس كذلك بمعنى كل ثوب يكون غطاء الراس جزءا منه، متصلا به.

(٢٣) الوشى جمع وشاء: نقش الثوب.

واتخذ الناس منه جلبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس .وقد بلغ من ولوعه بالوشى أنه كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه ورجال بلاطه إلا فى الوشى، وكان رداوءه اذا جلس أو ركب أو ارتقى المنبر من الوشى .

وفى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢م) أدخل زى الخَزّ أو القُطُف أى القماش الناعم. فسلك الناس جميعا فى أيامه مذهبه .

وفى سنة ١٥٣ هـ/ ٧٧٠م أمر أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/ ٧٥٣- ٧٧٤م) بلبس القلانس الطوال، وهى القبعات السود الطويلة المخروطة الشكل - بصفة رسمية، والدراريع مكتوب عليها بين كتفى الرجل (فسيكفيكهم الله). كما أمرهم بتعليق السيوف فى أوساطهم، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة.

وينسب إلى الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ -٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤١م) أنه أول من اتخذ الزى الفارسى زيا رسميا.

وفى خلافة المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦ - ٨٦١ م) أوجد زيا عرف بالمتوكلية، وهو نوع من ثياب الملحم أى المبطن، وقد فضله على سائر الثياب، واتبعه مَن فى داره على لبس ذلك، كما لبسه الناس وبالغوا فى ثمنه وهو غاية فى الحسن والصبغ وجودة الصنع.

وفى خلافة المستعين بالله (٢٤٨- ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م) صغّر القلانس، وأحدث لبس الأكمام الواسعة التى لم تكن تعهد من قبل، فجعل عرضها ثلاثة أشبار ونحو ذلك. وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب، يحفظ فيها الانسان كل ما يحتاج إلى حفظه من أقلام وكراريس وأموال ودواة وغيرها.

ولم يقتصر تطور ملابس العرب على الخلفاء، بل كان لبعض الولاة دور فى هذا التطور، ففى عام ٨٧هـ/ ٧٠٥م منع عبد الله بن عبد الملك والى مصر

(٨٦ ـ ٩٠هـ/٧٠٥ ـ ٧٠٨م) من لبس البرانس. وتذكر المصادر العربية أنه هو أول من نهى الناس عن لبس البرانس السود.

وفى أثناء ولاية يحيى بن داود على مصر من قبل المهدى (١٦٢ـ ١٦٤هـ/٧٧٨ـ٧٨٠م) أمر الفقهاء والأشراف والأعيان بلبس القلانس الطوال عند الدخول عليه لمقابلته، وذلك فى يومى الاثنين والخمسين ـ بلا أرْدِيَة (٢٤).

وقد اختلفت ملابس عمال الدولة، تبعا لوظائفهم، فكان الكُتّاب يلبسون الدراعات، وهى ثياب مشقوقة من الصدر.

أما القضاة فكان لهم زى خاص، ويذكر أن أول من ميزهم بلباس مخصوص بهم هو القاضى أبو يوسف فى عهد هارون الرشيد. فكان القاضى يلبس السواد كهيئة عمال بنى العباس، وكانت ملابسه تتكون من طيلسان أسود وعمامة سوداء.

ويذكر الكندى أن القاضى المفضل بن فضالة الذى تولى القضاء من قبل المهدى (١٦٨ـ ١٦٩هـ / ٧٨٤ـ ٧٨٥م) كان «يعتم بعمامة سوداء على قَلْنسّية طويلة».

أما القاضى اسماعيل بن اليسع الذى تولى القضاء من قبل المهدى (١٦٤ـ ١٦٧هـ/ ٧٨٠ـ ٧٨٣م) فيذكر الكندى أنه كان يصلى الجمع وعليه كساء مربع من صوف وقطن وقلنسية حِبْر.

وعندما تولى محمد بن أبى الليث الخُوَارزمى القضاء من قبل المعتصم (٢٢٦ـ ٢٣٥هـ/ ٨٤٠ ـ ٨٤٩م) أمر الشيوخ بعدم لبس القلانس، فيقول الكندى : «كان زى أهل مصر وجمال شيوخهم وأهل الفقة والعدالة منهم لباس القلانس الطوال، وكانوا يبالغون فيها، فأمرهم ابن أبى الليث بتركها،

---

(٢٤) الرداء جمع أردية : ما يلبس فوق الثياب كالعباءة والجُبّة.

ومنعهم لباسها وأن يشبهوا بلباس القاضى وزيه، فلم ينتهوا. قال ابن عثمان: فجلس ابن أبى الليث فى مجلس حكمه فى المسجد، واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانس، فأقبل عبد الغنى ومَطَر، فضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم».

ويبدو أن القضاة كانوا ملزمين بالزى المخصوص بهم. فمثلا عندما ولى الحارث بن مسكين القضاء من قبل المتوكل (٢٣٧- ٢٤٥هـ/ ٨٥١- ٨٥٩م) طُلب منه أن يلبس السواد، فامتنع، فخوفه أصحابه سطوة السلطان به، وقالوا: سوف يقال إنك من موالى بنى أمية! فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف.

كما يحكى أيضا أن القاضى أبا زُرْعة محمد بن عثمان الذى تولى القضاء من قبل هارون بن خمارويه (٢٨٤- ٢٩٢هـ/ ٨٩٧- ٩٠٤م) قدم دمشق على الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب فقال له:«يا أبا زرعة، بلغنى أن القضاة والشهود يركبون بغير سراويل - واتفق أنى كنت بغير سراويل - فعاهدت الله إن سلمت من التفتيش أن لا أعود، فسهَّل الله أن نهضت قبل أن يمتحننى بالتفتيش».

وقد اختلفت ملابس الطبقة الراقية الغنية عن ملابس العامة، لذلك كان من السهولة التفريق بين طبقات المجتمع فى ذلك الوقت.

وكان اللباس العادى للطبقة الراقية يشتمل على سراويل فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة.

ولم يكن الأغنياء يتأنقون فى ملابسهم فحسب بل كانوا يتسابقون كذلك إلى الحصول على النادر والثمين منها. وكانت الفراء الغالية معروفة بين الأغنياء، ولم يكن لبسها وقفا على النساء بل كان الرجال يلبسون المعاطف المصنوعة من الفرو.

يقول ابن سعيد:« وحدثنى مزاحم بن رائق قال : استعمل لى فرو قام علىّ بستمائة درهم، فمن حسنه وفرحى به لبسته بدمشق، وركبت إلى الاخشيد، فلما رآه قلّبه واستحسنه و قال : مارأيت مثله قطا فلم تسمح نفسى بأن أنزعه للوقت، فلما انصرف اعترضنى جانك (وهوالمعروف بفاتك) وقال لى : اجلس فان الاخشيد يريد أن يخلع عليك ! وجاء وا برزمة وقالوا اخلع الفرو، وطووه ومضوا به. وبقيت جالسا ثم قالوا : قد نام، تعود اليه العشية! فانصرفت إلى دارى، وقلت: هاتوا الفرو! فقالوا: ايما فرو!! ماجاء نا شىء! فلما كان عشية دخلت على الاخشيد فاذا الفرو عليه، فلما رآنى ضحك وقال: كيف رأيت؟ ما أصفق وجهك! ولكنك ابن أبيك، وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة».

وكان الأغنياء من الرجال والنساء، يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها (موزاج).

أما عامة الناس فكان لباسهم يشتمل على إزار [٢٥] وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

وكان لباس الرأس هو العمامة وهى عادة من عادات العرب، وكان حجمها يختلف تبعا للسن والمركز العلمى وغيرهما. وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة، وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس .

هذا فيما يتصل بملابس الرجال، أما مايتصل بملابس المرأة فكانت تتكون من سروال فضفاض، وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد، واذا خرجت المرأة من بيتها ترتدى الحِبَرة وهى ضرب من برود اليمن، وهى ملاءة طويلة سوداء تغطى جسمها، وتقى ملابسها من التراب والطين، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

---

(٢٥) الإزار او المئزر كما يسمى احيانا عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلف على الجسم، تعقد على وسطه من تحت السرة، وربما فيها أزرار.

وقد تطورت ملابس النساء فى العصر العباسى تطورا ظاهرا عما كانت عليه فى العصر الأموى، اذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعا بالجواهر، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة. ويرجع ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدى وأخت الرشيد. وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحُجُب بزنار [٣٦] البرنس للزينة.

أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين روءسهن بحلية مسطحة من الذهب، ويلففن حولها عصابة مرصعة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن، ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذنه عن الفارسيات، وكان «طابع الحسن» الصناعى مما يتحلى به الاعرابيات.

ولم تكن الملابس تختلف فقط بين طبقات المجتمع وانما كانت تختلف أيضا بين الحضر والريف، وبين كل مدينة وأخرى فيذكر الوطواط أن أهل مدينة بلبيس كانوا يأخذون بزى أهل مصر.

ملابس أهل الذمة:

عندما فتح العرب مصر، لم تكن ثمة حاجة لالزام المصريين بلبس معين يميزهم عن العربى، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو الزام، على أن الحاجة استلزمت هذا الالزام فيما بعد، حين أخذ العرب بحظ من التمدن، إذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم فى ملبسهم، والتشبه بهم فى ثيابهم.

ومن هنا، ولتمييز أهل الذمة عن المسلمين، أخذ الخلفاء يصدرون المراسيم بخصوص الملابس.

وقد كان أول هؤلاء الخلفاء هو عمر بن عبد العزيز، فيذكر ابن عبد الحكم أنه كتب إلى عماله يقول:« لا يمشى نصرانى إلا مفروق الناصية، ولا

---

(٣٦) الزُنّار جمع زنانير: ما يشد على الوسط . وهى كلمة يونانية.

يلبس قباء، ولا يمشي إلا بزنار من جلود، ولايلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خَـدَمـة (٢٧)، ولا نعلا لها عَذَبة».(٢٨)

وفى خلافة هارون الرشيد(١٧٠ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ـ ٨٠٨م) طلب منه أبو يوسف تمييز أهل الذمة، بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات (مثل الخيط الغليظ يعقد فى وسط كل واحد منهم)، وبأن تكون قلانسهم طوالا. فيقول له:«مرعمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى، هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال:حتى يعرف زيهم من زى المسلمين» (٢٩). وإن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله أن « لايلبس نصرانى قباء، ولا ثوب خز ولا عصب. وقد ذكر لى أن كثيرا من قبلك من النصارى راجعوا لبس العمائم، وتركوا المناطق على أوساطهم».

وفى عام ١٩١هـ / ٨٠٦م أمر هارون الرشيد أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم فى بغداد (مدينة السلام) وغيرها من البلاد .

وفى عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م ألزم المتوكل أهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير، وبتصيير زِرّين على قَلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون، وبتصيير رقعتين على ماظهر من لباس مماليكهم (رجالهم) مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذى عليه، وأن تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرقعتين قَدْر أربعة أصابع، ولونهما عسليا. ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلى، ومن خرج من نسائهم فبرزت، فلا تبرز إلا فى إزار عسلى. وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزّنانير ويمنعهم لبس المناطق.

---

(٢٧) خَدَمة: الخلخال. المُخَدَّم والمُخَدمة: رباط السراويل عند أسفل الرجل

(٢٨) العَذَب: الاطراف من كل شئ.

(٢٩) ترى الدكتورة سيدة كاشف أن ماورد فى كتب الفقهاء عن أمور اشترطها عمر بن الخطاب على أهل الذمة بخصوص ملابسهم والدواب التى يركبونها، مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والادبية ـ قد أصابها الزيادات الكثيرة، والتأويلات وسوء التفسير والتحريف خاصة منذ القرن ٥ هـ / ١١م. فليس من المعقول أن يتدخل عمر بن الخطاب فى ملابس أهل الذمة حتى ولو تشبهوا بالعرب القادمين، والمعقول أن العرب الذين كانوا فى دور البساطة زمن الفتح هم الذين أخذوا يتشبهون بأهل البلاد المفتوحة فى ملابسهم، حين بداوا يتخلون عن عهد البساطة الأول، ويسيرون فى ركب التطور والمدنية.

وفى عـام ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م زاد المتـوكل فى التـغليظ على أهل الذمـة فى التمييز فى اللباس.وفى عام ٢٣٩هـ/٨٥٣م أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس دُرّاعتين عسليتين على الأقبية والدراريع.

ويذكر ابن الراهب أن المتوكل أمر أن لا يلبس أحد من النصارى واليهود أبيض بل مصبوغا.

وفى سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م أمـر المقـتـدر بالله أهل الذمـة بلبس العـسلى، وتعليق الّرقاع المصبوغة بين أظهرهم .

ويورد الأبشيهى قائمة بما تراه جماعة الشافعية من القيود على الملابس، فيقول :

«قال أصحاب الشافعى : ويلزمـهم أن يتـميزوا فى اللباس عن المسلمين، وأن يلبسـوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة، ويشدوا الزنانير على أوسـاطهم، ويكون فى رقـابهم خـاتم من نحـاس أو رصـاص أو جـرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسـانات. وأما المرأة فانها تشد الُزنار تحت الإزار، وقيل فوق الإزار وهو الأولى، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض.

ويقول القلقشندى فى كتابه تحت عنوان (فى ذكر مايحتـاج الكاتب الى معرفته فى عقد الذمة):

«التـمييز عن المسلمين فى اللُباس: بأن يخيطوا فى ثيابهم الظاهرة ما يخـالف لونهـا، سـواء فى ذلك الرجـال والنسـاء. والأولى باليـهـود الأصـفـر، وبالنصـارى الأزرق والأكْهَب (وهو المعبر عنه بالرمادى)، وبالمجوس الأسود والأحمر، ويُشدُّ الرجال منهم الزُنَّار من غير الحرير فى وَسَطه، وتشدُّه المرأة تحت إزارها، وقيل فوقه. ويميـزون مـلابسـهم عن مـلابس المسلمين، وتغاير المرأة لون خُـفَّيْـهـا بأن يكون أحـدهمـا أبيض والآخر أسـود، و نحـو ذلك. ويُجعل فى عنقه فى الحمام ُجْلجُلا أو خاتما من حديد. وان كان على رأس أحدهم شـعـر أُمر بَجّز ناصـيـتـه. ويمنعـون من ارسال الضـفـائر كما تفعل

الاشراف. ولهم لبس الحرير والعمامة والطيلسان. والذى عليه عرف زماننا فى التمييز أن اليهود مطلقا تلبس العمائم الصفر، والنصارى العمائم الزرق».

وبالنسبة للزينة :

فقد كان أهل اليسار يقبلون على التطيب بالروائح العطرية إقبالا عظيما - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف. وقد روى ابن زولاق أن الحسين بن أبى زرعة - أحد قضاة مصر زمن الاخشيد - كان يبالغ فى التطيب. وكان الاخشيد يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة. فيقول ابن سعيد: «وكان قد اشتهر عنه محبة العنبر، وكان أكثر ما يهدى اليه، فكان اذا جاءت هذه الأوقات التى يهدى اليه فيها، أخرج من خزانته العنبر الى التجار فيشتريه الذين يهدونه اليه، فيحصل له الثمن الوافر ثم يعود العنبر. أقام سنين كثيرة يعمل هذا، وقيل إنه اجتمع عنده قناطير. واحترق فى سنة ثلاث واربعين (وثلاثمائة) فى دار أبى الفضل بعقبة ابن فليح لجاريته أم أولاده، عنبر كثير، كان يُشم على بعد، وكنت أسمع الناس يقولون: احترق لهم فى دار أبى الفضل عنبر، وأسفاط، وأعدال، وصينى، مامبلغه مائة ألف دينار».

ويقول ابن سعيد فى موضع آخر: «كانت خزانة طغج للطيب تحمل فى سفره على نيف وخمسين جملا».

الألعاب ووسائل التسلية

مع اصطباغ المجتمع المصرى بالصبغة العربية، كان من الطبيعى أن تصطبغ عاداته وتقاليده بالصبغة العربية أيضا، ومن هذه العادات مايتصل بالألعاب ووسائل التسلية التى عرفتها مصر بعد الفتح العربى.

ومن وسائل التسلية والألعاب التى كانت منتشرة فى مصر، وذكرتها المصادر العربية خاصة فى الفترة التى يتناولها بحثنا:

١- الشِّطْرَنْج(٣٠):

وهى لعبة ذات أصل هندى، ويذكر ابن اياس أن عمرا بن العاص هو أول من أدخل علم الشطرنج إلى مصر.

٢- الحواة:

ومن الألعاب التى كانت منتشرة فى مصر خاصة فى العصر الاخشيدى الحواة الذين يلعبون بالثعابين وغيرها من الزواحف، وكان الحواة فى مصر يصيدون الحيات الضخمة، ويتباهون فيما بينهم بأحجامها وبالنادر من أجناسها، ويعرضون ألعابهم فى المجالس الخاصة. وكان بعض الشخصيات لهم هواية جمع الأفاعى والحيات، فقد ذكرت فى موضع سابق أن الوزير جعفربن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة كان يربى الحشرات والأفاعى لدراسة خواصها وطبائعها. ويذكر المقريزى أنه كان فى داره قاعة مصنوعة بالرخام يوجد بها سلات الحيات ولها حاو من الحواة ومعه مستخدمون لهم رواتب ثابتة، وأنه كان له وقت معين يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحواة، فيخرجون ما فى السلات ويعرضون ألعابهم، وكان ابن حنزابة « يتعجب من ذلك ويستحسنه».

ويذكر المقريزى أن كل حاو فى مصر كان يصيد مايقدر عليه من الحيات، ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها، وفى الكبار منها، وفى الغريبة المنظر. وأن الوزير ابن حنزابة كان يثيبهم على ذلك ويبذل لهم الأموال حتى يجتهدوا فى تحصيلها.

---

(٣٠) يذكر الأبشيهى انه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر، القطعة منه قدرت بثلاثة الاف دينار.

٣- الصيد :

وقد كانت هواية الصيد منتشرة فى مصر، خاصة بين الأمراء . ومن أشهر الولاة الذين كانوا مغرمين بهواية الصيد خمارويه بن أحمد بن طولون.

فيذكر المقريزى أنه كان يخرج للصيد فى منطقة الأهرام ومدينة العقاب. ثم يصف لنا عملية الصيد فى زمن خمارويه فيقول:« لا يكاد يَسمع بسبع إلا قصده، ومعه رجال عليهم لُبُود[٣١] فيدخلون إلى الأسد، ويتناولونه بأيديهم من غابة عَنْوة وهو سليم، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة، يسع الواحد منها السبع وهو قائم، فاذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص وفيه السبع بين يديه».

وكان خمارويه قد بنى لكل نوع من الحيوانات دارا له، فكان له دار للسباع، عمل فيها بيوتا بآزاج كل بيت يسع سبعا ولبوته، وعلى تلك البيوت أبوابا تفتح من أعلاها بحركات، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت، يفرشه بالزبل، وفى جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء، وبين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها، وفى جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير، فاذا أراد سائس سبع من هذه السباع تنظيف بيته، أو وضع وظيفة اللحم التى لغذائه، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت، وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة المذكورة، ويرد الباب، ثم ينزل إلى البيت من الطاق فيكنس الزبل، ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف، ويضع الوظيفة من اللحم فى مكان معد لذلك بعد ما يخلص مافيه من الغدد، ويقطعه لهما، ويغسل الحوض ويملأه ماء، ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه، وقد عرف السبع ذاك، فحال ما يرفع السائس باب البيت دخل اليه الأسد فأكل ما هيىء له من اللحم حتى يستوفيه، ويشرب من الماء كفايته، فكانت هذه مملوءة من السباع، ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج إلى القاعة وتتمشى فيها وتمرح

---

(٣١) اللِبْد جمع لُبُود وألْباد: كل شعر أو صوف متلبد. واللُبادَة: ما يلبس منه للمطر.

وتلعب، فتقيم يوما كاملا إلى العشى، فيصيح بها السواس، فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتخطاه إلى غيره. ويذكر المقريزى أن من ضمن هذه السباع كان هناك سبع أزرق العينين يقال له« زريق»، قد أنس بخمارويه وصار مطلقا فى الدار لا يؤذى أحدا، وكان خمارويه يطعمه، وكان يحرس خمارويه اذا نام فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه، وكان فى عنقه طوق من ذهب .

كما كان للنمور دار خاصة بها، وللفهود دار، وللفيلة دار، وللزرافات دار، وكان لهذه الدور وكلاء لهم الرزق السنى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة.

٤- الكُرَّج :

ومن تماثيل اللهو واللعب الكُرَّج بضم الكاف وفتح الراء المشددة، معرب كرة بالفارسية، وهو تمثال مُهْر من خشب يلعب به.

وهى لعبة أحدثت فى الدولة العباسية، وعنها يقول ابن خلدون:

«واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيل، فيكرون ويفرون ويثاقفون (٣٢) وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو. وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق، وانتشر منها إلى غيرها ».

ويبدو أن هذه اللعبة قد انتقلت إلى مصر من ضمن البلاد التى انتقلت اليها، وخاصة أن ابن سعيد يذكر أن الفضل بن جعفر بن الفرات وزير الراضى بالله العباسى، عندما وصل إلى مصر بعد أن ملكها محمد بن طغج الاخشيد، كان مما عملوه فى الاحتفال بمقدمه تمثال فرس من خشب ينحدر ويصعد، ولعله ــ كما يقول أحمد تيمور باشا ــ من هذا النوع المسمى بالكرج أو شبيها به. فيقول ابن سعيد:

(٣٢) أى حاول كل منهما أن يدرك الآخر ويظفر به.

« ثم دخل الوزير الفضل بن جعفر إلى مصر، وقد ملكها الاخشيد، فتلقاه الاخشيد، وخلع عليه عند باب المدينة خلعا سلطانية، وزينت لهما المدينة، ونصب لهما على جوسق ابن الخلا طى فرس من خشب ينحدر ويصعد و ابن الخلاطى راكب عليه، وأكثر الناس ينظر اليه».

٥- لعب القمار:

على الرغم من تحريم الدين الإسلامى للقمار إلا أنه استمر اللعب به، بل كان للقمار دور خاصة يلعب المقامرون فيها، ويظهر ذلك بوضوح فى الدولة الاخشيدية ومما ذكره ابن سعيد يظهر نظام اللعب فى دور القمار، فيقول:

«وأمر الاخشيد فى وقت من الأوقات بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم. وأدخل عليه جماعة من المقامرين وعرضوا عليه، وفيهم شيخ له هيئة، فقال: هذا الشيخ مقامر؟ فقالوا: هذا يقال له المطمِّع. فقال الاخشيد: وايش المطمع؟ فقالوا: هو سبب عمارة دار القمار، وذلك أن الواحد اذا قمر ما معه، قال له: فالعب على ردائك فلعلك تغلب، فاذا ذهب رداوه قال له: إلعب على قميصك حتى تغلب به، كل شىء حتى يبلغ نعليه، وربما اقترض له.

ولهذا الشيخ جراية يأخذها على هذا كل يوم من متقبل دار القمار. فضحك الاخشيد وقال: ياشيخ تب إلى الله وحده من هذا! فتاب، وأمر له الاخشيد بثوب ورداء وألف درهم وقال: يجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير. فانصرف الشيخ شاكرا داعيا. فقال: ردوه، وقال: خذوا ما أعطيناه وابطحوه، فضربه ستمائة عصا، ثم قال: خلوه، أين هذا من تطميعك!!».

٦- سباق الخيل :

كان سباق الخيل من الألعاب المعروفة عند العرب فى الجاهلية، وكان العرب تراهن على سباق خيلها، وكانوا يعدون ذلك فخرا يتفاخرون به ويتمادحون بسببه. وكان من عاداتهم أنهم كانوا اذا سبق الفرس الحَلْبَةَ وبرز، قلدوه شيئا ليعرف أنه سبق وسموه المُقلَّد. وكان من عاداتهم أيضا

أن يمسحوا وجه الفرس اذا جاء سابقا. كما كان من عاداتهم أن يجعلوا للفرس الذى يجئ فى آخر الحلبة حبلا، ويحملوا عليه قردا، ويعطوا للقرد سوطا فيركضه القرد، ويُعير بذلك صاحب الفرس.

وكان بعضهم اذا تخلف فرسه عن الحلبة، يرميه بالنبل حتى يسقط بالأرض، كما كانوا يستعملون فى سباقهم ورهانهم طريقة القمار.

وتشير المصادر العربية إلى أول سباق تم فى مصر، هو الذى كان فى زمن عمرو بن العاص، فيذكر ابن الجوزى أن عمرو بن العاص أجرى بمصر الخيل. وقد كان لهذا السباق حادثة مشهورة ذكرتها فى موضع آخر، وهى باختصار عندما سابق فرس أحد أهل مصر فرس محمد بن عمرو بن العاص، فأشار محمد بن عمرو بن العاص إلى الفرس السابقة بقوله: فرسى ورب الكعبة! مما جعل صاحب الفرس يقول نفس العبارة: فرسى ورب الكعبة، فضربه محمد بن عمرو بن العاص وهو يقول: خذها وأنا ابن الأكرمين. فسافر صاحب الفرس إلى عمر بن الخطاب وحكى له ظلامته، وما تبع ذلك من ارسال عمر بن الخطاب رسالة إلى عمرو بن العاص يستدعيه هو وابنه، ثم عندما امتثلا بين يديه طلب من المصرى أن يضرب ابن عمرو ثم عمرو نفسه.

وقد عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه« المنظر». وقد كانت حلبة السباق فى أيام الدولة الطولونية، خاصة فى زمن خمارويه - كما يقول المقريزى - تقوم مقام الاعياد، لكثرة الزينة، وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك، كما يجلسون فى الأعياد، وتطلق الخيل من غايتها، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق .

وقد اعتبر عرض الخيل فى الدولة الطولونية من عجائب الاسلام الأربعة - كما يقول القضاعى - وهى عرض الخيل هذا، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد.

أما حلبة السباق فى الدولة الاخشيدية، فيبدو أنها حاكت حلبة السباق التى كانت فى الدولة الطولونية، فيذكر ابن سعيد أنه فى عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م شرع الاخشيد فى إجراء الحلبة على رسم أحمد بن طولون.

وقد كانت تقام سباقات دولية للخيول ـ فى فترة بحثنا ـ كما يظهر ذلك من المصادر العربية. فيذكر الكندى أنه فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٤م) عزم على أن يجرى الخيل، ويمتحن خيل البلدان، فكتب إلى سائر الأمصار أن يتخير له خيل كل بلد، ويتوجه به اليه، فلما اجتمعت، عرضت عليه، فمرت به المصرية، فلما رآها دقيقة العصب، لينه المفاصل والأعطاف، قال: هذه خيل ما عندها طائل! (أى ليس لها قدرة) . فقال له عمر ابن عبد العزيز وهو جالس معه : وأين الخير كله إلا لهذه وعندها؟ فقال له: ما تترك تعصبك يا أبا حفص لمصر! على كل حال، فلما أجريت الخيل جاءت المصرية كلها سابقة، ما خالطها غيرها».

ويبدو أن الرهان فى سباق الخيل كان موجودا فى مصر رغم تحريم الاسلام للرهان،فيذكر الكندى أنه فى ولاية يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر عام (٢٤٢ ـ ٢٥٣هـ/ ٨٥٦ ـ ٨٦٧م) باع الخيل التى كانت تتخذ للسباق بمصر، وعطل الرهان الذى كان لسباق الخيل بمصر، فلم تجر إلى عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م.

ويظهر اهتمام الدولة بسباق الخيل فى الدولة الطولونية ما ذكره المقريزى من وجود اصطبلات خاصة تنتج فيها الخيل لحلبة السباق، وكان لهذه الاصطبلات وكلاء، لهم الرزق السنى والوظائف الكثيرة والأموال المتسعة.

ويذكر ابن اياس أن خمارويه كان يحب الجياد من الخيل، فكان لها أنساب مثبتة فى الدواوين كأنساب الناس .

ومن الخيول التى اشتهرت فى مصر، وكانت ملكا للقبائل أو الاشخاص:

١ـ فرس ذو الريش وكان ملكا للعوام بن حبيب اليَحْصبى .

٢ـ فرس الخَطّار، وكان ملكا للبيد بن عُقْبة السَّومى.

٣ـ فرس الذُعْلُوق، وكان ملكا لِحِمْيَر بن وائل السومى

٤ ,ـ فرس عَجْلَى، وكانت ملكا لقبيلة عَكّ. ولها يقول الشاعر:

سَـــبقَ الاقـــوام عَـــجْلىَ

سـبـقـتـهم وهى حُـبْلىَ

٥ـ فرس أبْلقَ لخم، وكانت ملكا لقبيلة لخم.

٦ـ فرس الجَوْن، وكانت ملكا لعُقْبة بن كُليب الحضرمى .

٧ـ لعبة الصوالجة:

وهى عبارة عن كرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين ونحوه، وتلقى فى أرض الميدان، فيتسابق الفرسان إلى التقاطها بالصولجان، حيث يرسلون الكرة فى الهواء وهم على ظهور الخيل. ويرجح أنها ظهرت للمرة الأولى فى بلاط الفرس حوالى القرن الرابع قبل الميلاد، وهى اللعبة المعروفة اليوم عند الانجليز باسم البولو POLO.

وقد اهتم أحمد بن طولون بهذه اللعبة، حتى إنه عندما بنى قصره، بنى فيه ميدانا كبيرا لتُلعب فيه بالصوالجة.

المقابر والجنازات

اتخذ عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر ـ سفح جبل المقطم، ليدفن فيه المسلمون، وقد حدث ذلك ـ كما يقول ابن عبد الحكم ـ عندما «سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، وقال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب اليه عمر: سَلْه لم أعطاك به ما أعطاك، وهى لا تُزْدَرع، ولا يستُنْبط بها ماء، ولا ينتفع بها؟ فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب، إن فيها غراس الجنة. فكتب بذلك إلى عمر، فكتب اليه عمر: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين، ولا تبعه شيئا».

وهناك رواية أخرى يذكرها الكندى عن اتخاذ عمرو بن العاص سفح المقطم مقبرة للمسلمين فيقول: « سأل عمرو بن العاص عن سفح المقطم ومعه المقوقس، فقال: ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات كجبال الشام، فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا؟ فقال المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان من أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة، وكان ينزله المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، فلما كانت الليلة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام، أوحى إلى الجبال، انى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم، فسمعت الجبال كلها وتشامخت، إلا جبل بيت المقدس، فانه هبط وتصاغر، فأوحى الله تعالى اليه: لم فعلت ذلك؟ وهو به أخبر، فقال: إعظاما واجلالا لك يارب. قال: فأمر الله الجبال أن يحيوه، كل جبل مما عليه من النبت، وجاء له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى، فأوحى الله تعالى انى معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غرسها. فكتب بذلك عمرو ابن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، فكتب اليه: إنى لا أعلم شجرة الجنة لغير المسلمين، فاجعله لهم مقبرة. ففعل. فغضب المقوقس من ذلك، وقال لعمرو: ما على هذا صالحتنى! فقطع له عمرو قطيعا نحو بركة الحبش يدفن فيه النصارى».

وفى وصف هذه المقبرة يقول الكندى: « والاجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى، ولاأعظم، ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها، ولا أعجب تربة منها، كأنها الكافور والزعفران، مقدسة فى جميع الكتب، وحين تشرف عليها تراها كأنها مدينة بيضاء، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها».

وقد أجمعت المصادر العربية على أن أول من دفن فى هذه المقبرة رجل من قبيلة المعافر يقال له «عامر»، فقيل: عمرت. وقبره الآن - كما يقول المقريزى - تحت حائط مسجد الفتح الشرقى .

وقد دفن فيها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أشخاص هم: عمروبن العاص، عبد الله بن حذافة السهمى، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى، وأبو بصرة الغفارى، وعقبة بن عامر الجهنى . ويقال : ومسلمة بن مخلد الأنصارى .

أما بالنسبة لمقابر النصارى، فلا نعرف من المصادر العربية - خاصة فى فترة بحثنا - إلا ما ذكرته سابقا من أن عمرو بن العاص فى مقابل أخذه لسفح المقطم منهم ليكون مقبرة للمسلمين، أقطعهم أرضا بجوار بركة الحبش. أما عن مقابر اليهود فلا تذكر المصادر شيئا عن مكانها خاصة فى ذلك الوقت المبكر، وإن كان الكندى قد ذكر فى كتابه أن أحمد بن طولون عندما ابتدأ فى بنيان الميدان سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م« أمر بحرث قبور اليهود والنصارى، وبنى موضعهما ». فهل معنى ذلك أن النصارى واليهود كانوا يقبرون موتاهم فى مكان واحد؟ كما تذكر المصادر أنه فى سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل أهل الذمة بتسوية قبورهم بالأرض. هذا ما تذكره المصادر العربية بالنسبة لقبور النصارى واليهود فى فترة بحثنا .

وبالنسبة لبناء القبور فلا توضح لنا المصادر أشكالها إلا فى وقت متأخر، وإن كان يبدو لنا أنها كانت فى ذلك العصر بسيطة جدا، وأن التغيرات التى طرأت على بعض قبور المزارات كانت فى فترة متأخرة تلى فترة البحث - كما فى ضريح السيدة نفيسة.

ويذكر ابن دقماق أن قبر ابراهيم بن صالح بن على والى مصر (١٦٥-١٦٧ هـ/ ٧٨١ -٧٨٣م) كان أول قبر بيض بمصر.

أما عن صناعة شواهد القبور، فتقول الدكتورة سيدة كاشف: إن صناعة شواهد القبور كانت من الصناعات الشعبية التى ازدهرت فى مصر منذ فجر الاسلام، وكانت هذه الشواهد فى البداية بسيطة من الحجر والرخام، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجيا، حين دخلت الزخرفة على الخط الكوفى الذى ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمى .

وكان وجوه القوم وعلماؤهم فى مصر يدفنون عند وفاتهم فى دورهم، ثم ينقلون بعد فترة من الزمن إلى المقبرة. ومن هؤلاء محمد بن على الماذرائى حين توفى عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م.

ويبدو لنا أنه كان من عادة الناس فى هذه الفترة زيارة الأموات من الأقارب، كما فى العصر الحالى. فيذكر المقريزى أن محمداً بن على الماذرائى، أبا بكر كان « يركب كل يوم إلى المقابر، بكرة وعشية، فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده وأهله فيقرأ عندهم، ويدعو لهم».

كما كان من عادة الناس أيضا زيادة الأضرحة وأصحاب الكرامات كما فى العصر الحالى.

وكان من أهم المزارات التى ذكرتها المصادر:

١- قبر الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى. ويقول المقريزى : إنه عندما توفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م بفسطاط مصر، حمل على الأعناق حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، وعرفت أيضا بتربة أولاد ابن عبدالحكم .

قال القضاعى: وقد جرب الناس خير هذه التربة المباركة والقبر المبارك.

٢- قبر السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن على بن أبى طالب. يقول المقريزى: إنها توفيت فى سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م، ودفنت فى

منزلها وهو الموضع الذى به قبرها الآن، ويعرف بخط درب السباع ودرب بزرب. وقد أراد زوجها اسحاق بن الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يتركها ويدفنها عندهم لأجل البركة. وقبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة باجابة الدعاء بمصر.

٣- **قبر السيدة كلثوم**. وهى كلثوم بنت القاسم بن محمدبن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، موضعه بمقابر قريش بمصر. وكانت من الزاهدات العابدات.

ومن أهم المزارات التى كانت للأقباط مشهد فى البهنسا فى صعيد مصر، يعتقد النصارى - كما يقول ياقوت - أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين.

وقد أورد المقريزى أن زيارة المقابر كانت لها أيام محددة تتم فيها، ولم تكن مطلقة، فيقول: « إعلم أن زيارة القرافة كانت أولا يوم الأربعاء، ثم صارت ليلة الجمعة، أما زيارة يوم السبت فقيل إنها قديمة، وقيل متأخرة».

ولا نعلم اذا كان ماذكره عن عصره ينسحب على العصر الذى يخضع لبحثنا أم لا؟

ولم تمدنا المصادر العربية بمعلومات - فى فترة بحثنا - عما اذا كانت هناك مراسيم تتم للجنازات أم لا؟ غير أن المقريزى أشار فى كتابه إلى جنازتين: إحداهما كانت لعبد العزيز بن مروان عندما كان واليا لمصر، والثانية لخمارويه بن أحمد بن طولون .كما أشار البلوى فى كتابه إلى جنازة أحمد بن طولون. ويظهر فيها بعض من مراسيم الجنازات فى تلك الفترة.

فيقول المقريزى عن جنازة عبد العزيز بن مروان:« ومات هناك (أى فى حلوان)، فحُمل فى البحر يراد به الفسطاط حتى تغيّر، فأُنْزِل فى بعض خصوص ساحل مريس، فغُسِّل فيه، وأخرجت من هناك جنازته، وخرج معه بالمجامر فيها العود، لِما كان قد تغير من ريحه، وأوصى عبد العزيز أن يمر بجنازته اذا مات على منزل جناب بن مرثد بن زيد بن هانىء صاحب حرسه،

وكان صديقا له، وقد توفى قبل عبد العزيز. فمر بجنازته على باب جناب، وقد خرج عيال جناب، ولبسن السواد، ووقفن على الباب صائحات، ثم اتبعنه إلى المقبرة.

ويقول البلوى عن جنازة أحمد بن طولون نقلا عن شيخ من صالحى أهل المعافر:« ومضيت فرأيت جمعا عظيما هائلا، وحالا كبيرة تعجز الصفة عن ذكرها، حتى ظننت أنه مابقى فى البلد أحد من رجل ولا امرأة، وكُل فِرق شتى، كل فرقة على حدتها رجالا ونساء، فتأملت فاذا كل صنف من غلمانه أيضا فرقا، وقواده فرقا، وكتابه فرقا، وسائر أصحابه ومن يلوذ به فرقا فرقا، ومن كان فضله عليه وجراياته وصدقاته فرقا فرقا. وقد تميز أيضا النساء من حاشيته وهن أيضا فرق فرق: حرمه منفرد فى خلق عظيم، لا يخالطهن أحد من حشمهن، وحشمهن ناحية لا يخالطهن غيرهن، ونساء قواده، ونساء غلمانه، ونساء كتابه، ونساء أصحابه، كل صنف منهن على حدة لايخالطهن غيرهن، ونساء القطائع فرق فرق، وكل الجماعة عليهم من الكآبة أمر عظيم، وكل منهم مسلم لأمر الله عز وجل.

ثم أقبل من النساء السودانيات اللائى كان فضله عليهن، وجراياته القمح والدراهم فى كل شهر، خلق عظيم لا يحصيه ولا يقوم بمعرفة مبلغه إلا الله جل اسمه، صائحات صارخات، فارتجت الأرض لهن، وعظمت الحال فى قلوب من شاهدهن. ثم أقبل بعدهن من صالحى مَن يسكن المعافر ممن فيه الدين والورع والخير نساء ورجال، قد كان له على جماعتهم المعروف الواسع، ولو لم يكن إلا العين الماء التى صارت حياة لهم، وصيانة ومرفقا إلى اليوم وإلى القيامة، وان اراد الله جل اسمه ذلك ووقاها من الغير، فأقبلوا مبتهلين إلى الله جل اسمه يسألونه الرحمة له والمغفرة والتجاوز عنه، بخشوع وتضرع واستكانة وبكاء.

فشاهدت من ذلك ماهالنى، وذكر جميع من حضر أنه مارأى مثله لموت خليفة من الخلفاء ولا غيره ممن عظم قدره. ثم أقبلوا به مفردا على سرير،

مدْرَجا فى ثوب وشى سعيدى كافورى، وأبو الجيش خلفه وحده راكب، لموضع خلافته والامارة، والعالم من صغير و كبير، وشريف وقاض وعدل، وكل من فى البلد يمشون، وبين يديه من غلمانه، وخلفه من كل صنف، ومن قواده وسائر من بقى من أصحابه ما لا يحصيه إلا الله جل وعز، فأتوا به إلى المصلى الذى كان بناه، فتقدم ابنه أبو الجيش فصلى عليه، وصلى الناس بأجمعهم، وعدلوا به إلى قبره وواروه فى لحده، وَخلُّوه وحيدا فريدا، أقرب الناس منه وأحبهم اليه من حثا عليه التراب. وانصرف عنه كل ذلك الجمع العظيم، وذهبوا حتى كأنه لم يكن منهم أحد. فتبارك الله أحسن الخالقين، ومالك يوم الدين، سبحانه لا يموت ولا يزول وكل نفس ذائقة الموت».

ويقول المقريزى عن جنازة خمارويه بن أحمد بن طولون: « وحمل فى صندوق إلى مصر، وكان لدخول تابوته يوم عظيم، واستقبله جواريه وجوارى غلمانه، ونساء قواده، ونساء القطائع بالصياح وما يصنع فى المآتم، وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيتهم، وفيهم من سوَّد ثيابه وشققها. وكانت فى البلد ضجة عظيمة، وصرخة تُتعتع القلوب، حتى دُفن».

ويظهر من هذه الجنازات :

١- أن المتوفى أحيانا كان يوصى قبل موته بمسار معين لجنازته، كما حدث مع عبد العزيز بن مروان .

٢- أن ملابس الحداد فى مصر كان هى لبس السواد.

٣- الصياح على الميت وشق الأثواب. وواضح أنها عادة عرفها الشعب المصرى منذ العصور القديمة، كما تقول الدكتورة سيدة كاشف، رغم مخالفتها لتعاليم الدين الاسلامى .وهذا ما دعا بعض الخلفاء والأمراء إلى اصدار الأوامر بمنع النواح، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله يقول:

«أما بعد، فانه ذكر لى أن نساء من أهل السفه .... يخرجن إلى الأسواق عند موت الميت ناشرات روء وسهن، ينحن نياحة أهل الجاهلية،

ولعمرى ما رُخص للنساء فى وضع خمرهن مذ أمرن أن يضربن بهن على جيوبهن. فانْهِ عن هذه الناحية نهيا شديدا، وتقدم إلى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحا فى دار ولا طريق، فان الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين فى الدنيا والاخرة فقال: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.».(٣٣)

وعندما تولى يزيد بن عبد الله ولاية مصر من قبل المنتصر عام ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م امر بمنع النداء على الجنائز، وضرب جماعة بسبب ذلك.

وفى سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، عندما تولى مزاحم بن خاقان ولاية مصر من قبل المعتز، أمر أن لا يشق ثوب ميت، ولا سود وجه، ولا يحلق شعر، ومنع من الخَلُوق (٣٤) الذى يجعل على الثياب مع السوار (٣٥)،وكان قد أحدث فى ولاية يزيد بن عبد الله .ومنع النساء من الصياح، وعاقب فيه وتشدد. كما منع النساء من الخروج من بيوتهن، والتوجه إلى المقابر، وسجن النوائح.

كما منع عيسى النوشرى فى ولايته على مصر من قبل المكتفى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م النواح والنداء على الجائز.

٤ ـ ومن مراسيم الجنائز أيضا كانت الصلاة على الميت فى المساجد. وتذكر المصادر العربية أن أول من صلى عليه داخل مسجد عمرو بن العاص هو سعيد بن عثمان أبو الحسن صاحب الشرط (٣٦)، وقد « صلى عليه خلف المقصورة وكبر عليه خمسا».

ويذكر المقريزى عن اليهود انهم يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم، وأن من غسل ميتا اعتبر أنه نجس، فلا يصلى لمدة سبعة أيام.

---

(٣٣) سورة البقرة رقم ١٥٦ و ١٥٧ .
(٤٣) الخلوق: ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.
(٣٥) السوار والأسوار جمع سُور وأسورة واساور: حلية كالطوق تلبسه المراة فى زندها أو معصمها.
(٣٦) سعيد بن عثمان، تولى الشرطة فى ولاية احمد بن كَيْغَلَغ عام ٣٢٣هـ / ٩٣٤م ثم تولاها فى ولاية محمد بن طغج الثانية من قبل الراضى فى رمضان عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، وتوفى وهو على الشرط عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٤م.

الباب الرابع
الحياة العقلية فى المجتمع المصرى

الفصل الأول : الحركة الفكرية فى مصر.
الفصل الثانى : الفنون.

الفصل الأول

الحركة الفكرية فى مصر

. مدى تاثر مركز الاسكندرية الثقافى بالفتح العربى

. مراكز الحركة الثقافية فى الفسطاط بعد الفتح العربى :

. الجوامع والمساجد والزوايا.

. دور ومجالس الأمراء والوزراء والعلماء.

. أماكن عامة.

. مراحل الحركة العلمية فى مصر بعد الفتح العربى :

. المرحلة الاولى من بداية الفتح العربى حتى بداية حركة الترجمة.

. المرحلة الثانية مابعد حركة الترجمة.

. تشجيع الخلفاء والولاة للعلماء .

. نظام التعليم فى مصر فى العصر الاسلامى.

. الكتاب.

. الجوامع.

.التعليم الخاص.

. انواع الدراسات والقوى الاجتماعية التى أسهمت فيها :

. دراسات المرحلة الأولى :

. الدراسات الدينية

. علوم القرآن.

.علوم الحديث.

. علوم الفقه وفقهاء المذاهب الأربعة ـ التصوف والمتصوفون.

. الدراسات اللغوية والنحوية.

. التاريخ وفن السير والقصص.

. الدراسات الأدبية :

. الشعر.

. النثر.

دراسات المرحلة الثانية :

. حركة الترجمة.

.الطب.

. علم النجوم ـ علم تعبير الرؤيا ـ علوم السحر.

. علم الصنعة (الكيمياء).

. علم الهندسة.

. الرحلات العلمية والتبادل الثقافى.

الفصل الأول
الحركة الفكرية فى مصر

رأينا فى الفصل التمهيدى أنه كان لمصر حركة فكرية ضخمة مركزها الاسكندرية بوصفها عاصمة مصر قبل الفتح العربى، وعندما فتح العرب مصر انتقلت هذه الحركة من الاسكندرية إلى الفسطاط التى اتخذها العرب ـ الحكام الجدد ـ عاصمة لهم .

ويهمنا فى هذا الفصل أن نتناول تأثير الفتح العربى على الحركة الفكرية فى مصر، والقوى الاجتماعية التى أسهمت فى الحركة العلمية واشتركت فيها، ومدى تأثر المركز الفكرى للاسكندرية بالفتح العربى، وهل فقدت مركزها كلية أم تدهور هذا المركز وانتهى؟

وفيما يتصل بمدينة الاسكندرية، فان الفتح العربى لم يقض على الحياة العلمية بها، ولا سيما ما يتعلق بالعلوم العقلية، وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح .

وهكذا ظلت مدرسة الاسكندرية تؤدى رسالتها العلمية، على الرغم مما أصابها من ضعف لاهتمام الناس بالعلوم الدينية الاسلامية، ونظرة المسلمين فى أول الأمر إلى ماكان يدرس فى مدرسة الاسكندرية فى القرنين الأول والثانى من قرون الهجرة عن هذه العلوم، وظل أهل الذمة من النصارى واليهود أو من اليونانيين الذين بقوا بالاسكندرية، ينهلون وحدهم من هذه الدراسات.

ومع تراجع مركز الاسكندرية الثقافى إلى المقام الثانى، وبروز مركز الفسطاط إلى المقام الأول، باعتبارها العاصمة الجديدة لمصر، أخذت تظهر فيها تدريجيا مراكز للحركة الثقافية والعلمية أشعلت مصباح الحضارة الاسلامية، التى حلت محل الحضارة اليونانية المسيحية التى كانت سائدة فى مصر قبل الفتح العربى .

وقد تمثلت هذه المراكز فى ثلاثة مراكز:

المركز الأول : الجوامع والمساجد والزوايا.

المركز الثانى : دور ومجالس الأمراء والوزراء والعلماء.

المركز الثالث : أماكن عامة.

وبالنسبة للمركز الأول المتمثل فى الجوامع والمساجد والزوايا، فقد كان يقوم مقام المدرسة، وذلك لأن المدارس لم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين - كما يقول المقريزى - وانما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة، أى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. لذلك فان الفترة التى يتناولها بحثنا لا يوجد فيها اسم لمدرسة، وانما كان مركز الحركة العلمية فى مصر فى بداية الفتح العربى جامع عمرو بن العاص، باعتباره أول جامع بنى فى مصر بعد الفتح العربى.

فقد كان المسجد - كما يقول الدكتور سعيد عاشور - هو المدرسة الوحيدة التى عرفها المسلمون، واستوعبت نشاطهم المتعدد الأوجه، فهو بيت الله الذى تقام فيه الصلاة ويتلى القرآن الكريم، وهو دار القضاء الذى يجلس فيه القضاة ليحكموا بين الناس بما أنزل الله، وهو مقر الحكومة الذى يخرج منه المبعوثون ويستقبل فيه السفراء، وتعقد فيه الألوية وتنطلق منه الجيوش للغزو، وهو دار العلم الذى يلتقى بين جوانبه المعلمون والمتعلمون ليتدارسوا أصول دينهم وأركانه، ويتدبروا القرآن وأحكامه، ويحيطوا بسنة نبيهم وأحاديثه. كما كان يوجد فى المسجد مختلف الكتب الدينية والعلمية والأدبية فهو مدرسة ومكتبة معا.

أما الزوايا فقد ظهرت فى بادىء الأمر - خاصة فى فترة دراستنا (من الفتح العربى حتى قبيل العصر الفاطمى) - فى المساجد، ثم زاد استخدام الزوايا كنوع من المنشآت الدينية المستقلة فى العمارة الاسلامية، سواء كانت زوايا فردية لأصحابها من العلماء، أو من المنقطعين للعبادة، أو زوايا جماعية لتدريس فروع العلوم الدينية المختلفة، أو زوايا خاصة لدراسة القرآن الكريم.

والزاوية فى اللغة هى موضع للانزواء، وقد وجدت الزوايا وفق هذا المعنى فى المساجد التى انزوى فى بعضها الناس لتعلم العلوم الدينية المختلفة، وهم يحيطون بشيخهم يستمعون له فى حلقات الدرس والوعظ.

ومن أشهر الزوايا فى جامع عمرو بن العاص زاوية الامام الشافعى، ويذكر ابن دقماق أن مجلس الشافعى كان فى الجهة الشرقية من الجامع، وكان فى محرابه عمودان.

وقد كان الشافعى يجلس فى زاويته بعد صلاة الفجر، فيقول ياقوت نقلا عن الربيع بن سليمان: « كان الشافعى رحمه الله يجلس فى حلقته اذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه تفسيره ومعانيه، فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعَروُض[1] والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف رضى الله عنه».

ومعنى هذا أن الشافعى يظل قرابة ست ساعات يوميا يلقى دروسا متصلة، ينتقل فيها من علم إلى علم ومن مادة إلى مادة، ويظل ملازما مكانه وجموع التلاميذ تتوالى عليه، يذهب عنه جمع ليقبل عليه آخر، ويظل هكذا من بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر.

المركز الثانى : دور ومجالس الأمراء والوزراء والعلماء.

وكانت تتخذ للتدريس أو لقيام الندوات العلمية فيها، ومن هذه الدور والمجالس:

دار عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادِىّ . شهد فتح مصر، واختط بها مع الاشراف، وكان ممن قرأ القرآن والفقه، وقيل إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص أن يقرب دار عبد الرحمن بن ملجم من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقه، فوسع له مكان داره.

---

(١) العَروُض جمع أعَارِيض. ميزان الشعر لانه به يظهر المتزن من المختل.

دار محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن ابى زرعة البرقى، مولى بنى زهرة (ت سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م) يقول عنه ابن فرحون: إن بيته كان بيت علم، وانه كان من أصحاب الحديث والفهم، والرواية أغلب عليه. وله تأليف فى مختصر ابن عبد الحكم الصغير، زاد فيه اختلاف فقهاء الأمصار، وكتاب فى التاريخ، وفى الطبقات، وفى رجال الموطأ.

دار مانك الصغرى: وهى خطة عبد الرحمن بن ملجم بقرب المسجد ليعلم الناس القرآن .

مجلس القاضى بكار بن قتيبة: كان للقاضى بكار بن قتيبة مجلس يملى فيه الحديث، وكان احمد بن طولون ـ كما تذكر المصادر العربية ـ شغوفا بمجالسة الفقهاء وأهل العلم، وبلغ ولعله بالحديث وسماعه وروايته أنه كان ينتقل إلى مجلس القاضى بكار بن قتيبة طلبا للمزيد. فيقول أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى الفقيه: ما أحُصى كم كان أحمد ابن طولون يجيء إلى بكار بن قتيبة وهو يملى الحديث، ومجلسه مملوء بالناس وأنا حاضر، فيقول الحاجب للمستملى قبل أن يدخل : يقول لك الأمير لا تقطع ما أنت فيه. ثم يدخل أحمد بن طولون فما يشعر به بكار إلا وهو جالس على جانبه. وكان بكار على مذهب الامام أبى حنيفة، وله كتاب يرد فيه على الشافعى.

مجلس النسائى ابو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت سنة ٣٠٣ هـ /٩١٥م). ويبدو لنا أن النسائى كان له مجلس، فيقول الذهبى: «وكان النسائى يكون بزقاق القناديل بمصر».

مجلس احمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (ت سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م كان مجلسه ـ كما يقول ابن فرحون ـ محشو ا بعيون الناس، وهو مالكى المذهب، من اهل العلم والحفظ لكتب أبيه وعددها ٢١ كتابا، وقد سمع منه خلق عظيم.

مجلس الاخشيد: وقد حدث يوما أن تنازع القاضى الشافعى أبوبكر ابن الحداد والقاضى المالكى أبو الذكر محمد والقاضى عبد الله بن الوليد فى مجلس الاخشيد، وحدث بينهم لغط كثير، فلما إنصرفوا قال الاخشيد: يجرى هذا فى مجلسى! كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم.

مجلس كافور : كان يعقد الندوات فى مجلسه كل ليلة، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية.

مجلس أحد الوعاظ[٢] فى زمن كافور: وعنه يقول ابن اياس : « كان بمصر واعظ يعظ الناس، فقال يوما فى مجلس وعظه، وكافور حاضر ذلك المجلس : أيها الناس أنظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى، فانه أعطاها لمقصومَيْن ضعيفين وهما: الحسن بن بويه، استولى على بغداد وهو أشل بيده، وأعطى كافورا ملك مصر وهو خصى . فرفع كافور طرفه اليه فظن الناس أنه يوقع به فعلا، فلما فرغ من وعظه، دفع اليه مائة دينار، وأخلع عليه خلعه سنية. فلما كان المجلس الثانى، حضر كافور على عادته، فقال الواعظ: ومن العجائب أن ما أنجب من بنى حام غير ثلاثة: لقمان الحكيم، وبلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وكافور الخصى».

مجلس الوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة. وكان يملى الحديث بمصر، ويقصد اليه المحدثون يسمعون روايته، ومنهم المحدث أبو الحسن الدار قطنى الذى كتب عنه مجالسه.

مجلس حمزة بن محمد الحافظ فى المسجد الجامع.

مجلس على بن محمد بن أحمد بن الحسن (ت٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، وقد أقام بمصر فعرف بالمصرى. يقول عنه ابن كثير: إنه كان له مجلس وعظ يحضر فيه الرجال والنساء، وكان يتكلم وهو مبرقع لئلا يرى النساء حسن وجهه! وقد حضر مجلسه أبو بكر النقاش متخفيا، فلما سمع كلامه، قام قائما وشهر نفسه، وقال له: القصص بعدك حرام.

مجلس أبى جعفر بن النحاس (ت سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م).

---

(٢) لم يذكر ابن اياس اسمه .

مجلس أبى بكر، محمد بن أحمد بن الحداد (ت عام ٣٤٥هـ /٩٥٦م وقيل عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) يقول عنه ابن زولاق: إنه تولى القضاء بمصر والتدريس، وكانت الملوك والرعايا تكرمه وتعظمه وتقصده فى الفتاوى و الحوادث، وكان يعد الرد على ابن الحداد من ضمن عجائب الدنيا، حدّث عن أبى عبد الرحمن النسائى وغيره، وكان متصرفا فى علوم كثيرة من علوم القرآن الكريم والفقه والحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة، ولم يكن فى زمانه مثله. وهو صاحب كتاب الفروع فى المذهب الشافعى، كما صنف كتاب القضاء فى أربعين جزءا، وكتاب الفرائض فى نحو مائة جزء. ولد عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م وعندما توفى حضر جنازته الأمير أونوجور بن الأخشيد وكافور.

وكان مجلس ابن الحداد ـ كما يقول الزبيدى ـ يتم ليلة فى كل جمعة، يتكلم فيها عنده فى مسائل الفقه على طرائق النحو، وكان أبو جعفر النحاس يحضر مجلسه.

المركز الثالث: أماكن عامة.

مثل: سوق الوراقين بالفسطاط.

فقد كان النشاط العلمى والأدبى فى العصر الاخشيدى يظهر بصورة واضحة فى هذا السوق الذى كان يسعى اليه أهل العلم والأدب، فلم يكن مجرد سوق تنسخ فيه الكتب وتباع، وانما كانت تدور فيه احيانا المناظرات.

وقد لاحظنا من خلال دراستنا للحركة العلمية فى مصر بعد الفتح العربى أنها مرت بمرحلتين: المرحلة الأولى، وتمتد من بداية الفتح حتى بداية حركة الترجمة.

المرحلة الثانية، وهى ما بعد حركة الترجمة.

وبالنسبة للمرحلة الأولى فقد تركزت الحركة العلمية، ليس فقط فى مصر بل فى كافة الأمصار الاسلامية، فى الدراسات الدينية. أما العلوم الدنيوية

والفلسفية فقد كان الاهتمام بها ضعيفا فى صدر الاسلام، وما نما منها كان يعتمد على الدين، ويصطبغ به.

أما بالنسبة للمرحلة الثانية فقد كان لحركة الترجمة الفضل فى إضافة نوع جديد من الدراسات الى الدراسات الدينية، وهى العلوم الفلسفية. والمقصود من العلوم الفلسفية - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - هى جميع العلوم التى كانت تشتمل عليها الفلسفة فى العصور الوسطى، والتى تضمها الموسوعة الفلسفية المعروفة برسائل «إخوان الصفا» من رياضيات وطب وفلك وكيمياء ومنطق.. إلى غير ذلك من العلوم التى كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والتى لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا اذا ألم بها جميعها.(٣)

ويرجع الفضل فى ازدهار الحركة العلمية فى مصر بمرحلتيها الى تشجيع الخلفاء والولاة للعلماء. فالأمويون حكام الدولة الأموية فتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء، وبذلوا لهم الأموال. وطبقا لما قاله المسعودى: كان عبد الملك بن مروان «يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح ... وكان عماله على مثل مذهبه». وقد كان شأن أكثر بنى أمية شأن عبد الملك، نستثنى منهم خالد ابن يزيد بن معاوية، الذى كانت له نزعة فلسفية الى جانب نزعته الأدبية. كما نستثنى عمر بن عبد العزيز الذى كانت نزعته دينية، فلم يهتم بالدراسات الأدبية مثل الشعر، فقد شقى به الشعراء، إلا أنه اهتم بالدراسات الدينية، ويذكر ابن عبد الحكم عن سيرته أنه قال: «إن استطعت فكن عالما، فان لم تستطع فكن متعلما، فان لم تستطع فأحبهم، فان لم تستطع فلا تبغضهم».

إما بالنسبة للعلوم الفلسفية فقد جرى الاهتمام بها فى عهد الدولة العباسية، بسبب تشجيع خلفائها - منذ خلافة المنصور الذى كان شغوفا بالعلوم الفلسفية - لحركة الترجمة.

---

(٣) وسنتناول دراسات كل من المرحلتين مع حركة الترجمة بشئ من التفصيل فى الصفحات القادمة

ولم يكن الخلفاء وحدهم من قاموا بتشجيع العلماء خاصة فى مصر، وانما هناك الولاة ورجال الدولة. فمثلا أحمد بن طولون، عندما استقل بدولته أراد أن تكون إمارته منافسة للخلافة العباسية فى العلوم والفنون وغير ذلك، فشجع الحركة العلمية. ويقول عنه ابن زولاق: إنه كان «يحب أهل العلم».

وقد بلغ من إهتمامه بأهل العلم استضافته لشيخ قبطى من أرض الصعيد بمصر، ذكر له أنه له نحو مائة وثلاثين سنة، وهو ممن عنى، من لدن حداثته، بالعلم والاشراف على الملل والآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرها، وأنه علامة بالممالك والملوك، وأنه ممن سافر فى الأرض وشاهد الأمم، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم، وكان نصرانيا على مذهب اليعقوبية. فبعث أحمد بن طولون اليه قائدا من قواده فحمله فى النيل اليه مكرما، وأسكنه وحمل اليه لذيذ المآكل والمشارب، فأبى أن يأكل إلا بغذاء كان قد حمله معه من كعك وغيره. وتذكر المصادر العربية أن أحمد بن طولون أخلى نفسه له فى ليال وأيام كثيرة، يسمع كلامه وايراداته وجواباته فيما يسأل عنه. كما كان لهذا القبطى مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والصائبة والمجوس وجماعة من المسلمين. وقد أقام هذا الشيخ عند أحمد بن طولون حوالى سنة، فأجازه، وأعطاه، فأبى قبول شئ من ذلك، فرده إلى بلده مكرما، وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ثم هلك.

كما أورد لنا البلوى عطف أحمد بن طولون على إمام فى أحد المساجد عندما شعر بضيق ذات يده، فأثبت اسمه فى الدفتر الذى فيه أسماء المستورين و المستورات الذين يجرى عليهم فى كل شهر خمسة دنانير على كل رجل وامرأة.

هذا فى الوقت الذى غضب فيه على خطيب أحد المساجد، ويدعى أبا يعقوب البلخى، عندما دعا للمعتمد ولولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون، فأشار ابن طولون الى نسيم الخادم ليضربه خمسمائة سوطا، إلا أن

الخطيب تذكر سهوه فعاد ودعا له، وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة، ثم نزل، فنظر أحمد بن طولون الى نسيم الخادم أن اجعلها دنانير!

وكان أحمد بن طولون يميل الى المذهب الشافعى ويكرم أصحابه.

ويذكر ابن سعيد أن العباس بن أحمد بن طولون كانت له بطانة مقدمة فى علم العرب من النحو والشعر وما جرى مجراه، وهم: جعفر بن جدار، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبى معشر، ومحمد بن سهل المنتوف.

أما خمارويه فيذكر ابن سعيد أنه كان محسنا للأجناد والشعراء وسائر من يرد عليه.

كما استمر أمراء الدولة الاخشيدية أيضا فى تشجيع الحركة العلمية والعلماء، ليس فقط عن طريق المنح المالية وإنما أيضا عن طريق تقريب العلماء والأدباء ومجالستهم لهم، خاصة وأن أبا بكر محمد بن طغج الاخشيد كان أديبا وشاعرا.

وكان ابن الاخشيد ، وهو أبو بكر أحمد بن على (ت٣٢٦هـ /٩٣٧م)، يصرف أكثر ما يُحمل اليه من ضيعته على العلم وأهله. وكانت له معرفة بالعربية والفقه، وله فى الفقه عدة كتب، ومن كتبه: كتاب المعونه فى الأصول، لكنه لم يتمه، وكتاب نقل القرآن ، وكتاب الاجماع، وكتاب النقض على الخالدى فى الأرجاء، وكتاب اختصار كتاب التفسير للطبرى.

كما أن أونوجور بن الاخشيد كان يجالس سيبويه المصرى وينادمه. وقيل إن الأمراء الاخشيديين على اختلافهم جالسوا الفقيه أبا بكر بن الحداد، ولم تغضبهم صراحته وثقته بنفسه، مع أنه كان طويل اللسان!

وتذكر المصادر العربية أن كافورا أمر بعشرين الف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية، عندما علم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأندلسى (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) أرسل عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية.

ومن الوزراء الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات المعروف بابن حِنْزَابَة (٣٠٨ ـ ٣٩١هـ /٩٢٠ ـ ١٠٠٠م). الذى كان وزيرا للدولة الاخشيدية بمصر مدة إمارة كافور، ولما استقل كافور استمر على وزارته، وبعد وفاة كافور استقل بالوزارة ، وتدبيرالملكة لأحمد بن على بن الاخشيد. وقد كان ابن حنزابة عالما، محبا للعلماء، شاعرا، وكان يملى الحديث بمصر وهو وزير، وقد قصده الأفاضل والعلماء من الأقطار الأخرى، ومنهم أبو الحسن على المعروف بالدارقطنى الذى حضر إليه من العراق ليصنف مُسْنَدا، فلم يزل الدارقطنى عنده حتى فرغ من تأليفه، وحصل له من جهته مال كثير.(٤)

نظام التعليم فى مصر فى العصر الاسلامى:

وسنتناول فى الصفحات القادمة نظام التعليم فى مصر فى العصر الاسلامى سواء كان فى الكُتَّاب أو فى الجامع أو فى المنازل لأولاد الأمراء والملوك والوزراء.

وبالنسبة للكتّاب الذى يعتبر مرحلة التعليم الأولى فقد وُجد الكتاب لتعليم القرآن أول ما وجد فى المسجد، يدلنا على ذلك ماذكره ابن جبير فى رحلته، وكذلك ابن بطوطة، من وجود حلقات كان الأطفال يلتفون فيها حول معلم القرآن، واذا كانت الفترة التى قيل فيها هذا متأخرة فانما كان ذلك استمراراً لأمر كان سائدا فى البداية.

وبعد ذلك ظهرت كتاتيب ملحقة بالمسجد، وأخرى مستقلة عنه تماما، فالامام الشافعى يروى لنا أنه كان يتيما فى حجر أمه فدفعته الى الكتاب، فلما ختم القرآن، دخل المسجد مما يوحى باستقلال هذا عن ذاك.

كما يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان كان وهو صغير فى الكتاب. ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن المساجد التى كانت فى الخطط تقوم مقام الكتاتيب أو المدارس الأولية الآن فى التدريس للغلمان. حتى اذا

---

(٤) حنْزَابة ـ بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاى وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء ـ وهى أم أبيه الفضل بن جعفر.

تهيأت لهم ثقافتهم الى الاستماع الى فحول العلماء انتقلوا اليهم فى جامع الفسطاط، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء.

ويذكر ابن عبد الحكم فى كتابه إسما لكتّاب يعرف «بكتاب اسماعيل». كما يذكر ابن زولاق فى كتابه أنه كان بمصر رجل يعرف «بالغزيل الحى»، كان يعلم الصبيان عند الصفا.

وقد بُدئ فى تنظيم تعليم الصبيان فى الكتّاب فى عهد عمر بن الخطاب، ثم توسع تعليم الصبيان فيما بعد، فظهرت كلمات عديدة تدل عليه ولا سيما فى عهد العباسيين، فنسمع عن المكاتب - مفردها مكتب - أو مكاتب الصبيان، ومن يقوم به اسمه معلم أو مؤدب.

وفى زمن أحمد بن طولون ألزم أولاد الصناع كلهم صلاة الجمعة فى فوارة الجامع، ثم يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم ورّاق (٥) وعِدة غلمان.

ويذكر الأبشيهى: أن الجاحظ قد ألف كتابا فى نوادر المعلمين. وقد ذكرفى كتابه بعضا من النوادر التى كانت تدور بين المعلمين وتلاميذهم.

أما عن نظام الدراسة فى هذه المرحلة فلا شك أن أساسها كان التعليم الدينى، ولا سيما تحفيظ القرآن والحديث. فيقول ابن خلدون: إن التربية الدينية يجب أن تبدأ من سن مبكرة، ذلك لأنه فى هذه السن يكون الصبى مستعدا لقبول العقائد بمجرد الايمان بها، كذلك الخط والحساب، وربما بعض الشعر والسباحة هى جزء من المقررات.

وكان نظام الدراسة بالكتّاب الاسلامى شبيه بنظام الدراسة بالكتّاب القبطى فى مواده الدراسية وهى: الدين - اللغة - الحساب.

وبالنسبة لنظام الدراسة فى الجامع، فقد كان الجامع يمثل مرحلة متقدمة من التعليم يحصل فيها الطلبة على قسط أوفر من العلوم.

---

(٥) الورّاق: الكاتب.

وقد عُرف أن الدراسة بالمساجد تقسم الى مراحل: مرحلة (ابتدائية) لحفظ القرآن الكريم، ودراسة فوق ما درس فى الكتاتيب، ثم مرحلة (ثانوية) تكون على أيدى مدرسين أكثر علما، ثم مرحلة (عالية) أو (نهائية) تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة.

ويذكر الحسينى فى كتابه أن المرحلة الأولية كان يد رس فيها القراءة والكتابة والنحو وسيرة النبى (ص) وأحاديثه و القواعد الأولية فى الحساب وبعض القصائد الدينية، أما الطلبة الكبار (الثانوية) فدرسوا تفسير القرآن والقراءات وعلم الحديث والفقه والكلام والنحو واللغة والأدب. أما الطلبة المتقدمون (النهائية ـ العالية) فاشتغلوا بدراسة الفلك والجغرافيا والفلسفة والهندسة والموسيقى والطب.

وقد كان الصحابة و التابعون من العلماء يجلسون فى جامع عمرو بن العاص، وفى جامع أحمد بن طولون، يتصدرون الحلقات العلمية ومجالس العلم.

وكان الأستاذ يجلس فى المسجد وحوله الآخذون عنه على شكل حلقة، وتكبر الحلقة وتصغر تبعا لقدر الأستاذ، وقد يكون فى المسجد جملة حلقات تجتمع كل حلقة على شيخ.

وفى عام ٣٢٦هـ /٩٣٧م كان للشافعيين فى جامع عمرو بن العاص خمسُ عشرة حلقة، وللمالكين مثلها، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط.

وفى الغالب أن الدراسة فى الجامع كانت مرتبطة بموعد محدد، فيقول المقدسى: «وبين العشاءين، جامعهم مغتص[٦] بحلق الفقهاء، وأئمة القراء، وأهل الأدب والحكمة. ودخلتها مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث، فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم الى المجلس، فإذا نحن بين مجلسين، على هذا جميع المساجد. وعددت فيه مائة وعشرة مجالس».

---

(٦) اغتص المكان بهم ضاق.

والى جانب التعليم فى المساجد الذى أوردناه آنفا، كان الأمراء والوزراء ورجال الدولة يعلمون أولادهم فى المنازل على يد أساتذة متخصصين. وفيما يبدو أن هؤلاء الأولاد كانوا يتلقون تعليمهم فى المنازل وفق برنامج خاص يلتقى فى أسسه العامة بمنهاج التعليم الذى وضع لجميع الصبيان، مع بعض الحذف أو الاضافة استجابة لتوجيه الوالد، وتمشيا مع الرغبة فى إعداد هذا الصبى اعدادا خاصا يناسب الأهداف والمسئوليات التى ستواجهه فى المستقبل.

ولدينا صورة عن هذا البرنامج التعليمى فيما وضعه الخليفة الرشيد لمعلم ابنه محمد الأمين، فقد قال له: «إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه عن الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا و أنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة».

وكان الطالب فى هذا التعليم يظل يتلقى العلم حتى يجاوز عهد الصبا، فينتقل به من مستوى تلميذ الكتاب الى مستوى الطالب فى حلقات المساجد أو المدارس.

والمعلم هنا لا يسمى معلم الصبيان أو معلم كتّاب، وانما يطلق عليه لفظ «مؤدِّب» وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك، اذ كانوا يتولون الناحيتين معا، وكان المؤدب كثيرا ما يخصص له جناح فى القصر يعيش فيه، ليكون إشرافه على الأمير أحكم وأشمل.

ولدينا أسماءً لبعض المعلمين الخصوصين، فيذكر لنا التنوخى أن ابراهيم ابن المدبر قد أرسل الى أبى العباس المُبَرِّد ليرسل له جليسا يجمع مع

مجالسته تعليم ولده، فأرسل اليه على بن سليمان بن الفضل الأخفش الصغير (ت٣١٥هـ / ٩٢٧م). فكان قدومه الى مصر فى عام ٢٨٧هـ / ٩٠٠م، وخرج منها عام ٣٠٠هـ/٩١٢م.

ويذكر الذهبى أن أمير مصر صالح بن على قد جعل عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصارى، الامام أبا أمية المصرى الفقيه (ت١٤٨هـ /٧٦٥م) - مؤدبا لولده الفضل.

ويذكر السيوطى أن محمد أبن عبد الله بن محمد بن سلم، أبا بكر المعروف بالملطى (ت٣٠٢هـ /٩١٥م) كان نحويا يعلم أولاد الملوك النحو.

أنواع الدراسات:

ذكرت سابقا أن الحركة العلمية فى مصر مرت بمرحلتين بعد الفتح العربى، المرحلة الأولى: وتمتد من بداية الفتح حتى بداية حركة الترجمة، وقد عُنيت بالعلوم الاسلامية. والمرحلة الثانية: وهى ما بعد حركة الترجمة، وقد عنيت بالعلوم الفلسفية.

وسنتناول فى الصفحات القادمة أنواع الدراسات فى كل من المرحلتين، والقوى الاجتماعية التى أسهمت واشتركت فيها، أو بمعنى آخر مَن كان لهم الفضل فى الاسهام فيها.

وبالنسبة للمرحلة الأولى، والتى عنيت بالدراسات الدينية، فقد قام بهذه الدراسات الدينية فى مصر فى بادئ الأمر الصحابة الذين اشتركوا فى فتح مصر أو الذين وفدوا اليها بعد الفتح، فكان العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الاسلامى، وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية. وكان ممن حضر فتح مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير عمرو بن العاص قائد جيش الفتح: عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، و عبد

الله بن عمر بن الخطاب، وخارجة بن حذافة العدوى، ومسلمة بن مخلد، وأبو رافع مولى رسول الله، وشريك بن سمى الغطيفى المرادى، وعبد الله بن الحارث بن حزم بن عبد الله بن معدى كرب الزبيدى المذحجى وكان آخر صحابى فقد توفى بمصر سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين من الهجرة، وغيرهم كثير.

وقد كان أكثر حملة العلم فى عصر الصحابة من العرب، لأن أكثر الصحابة عرب. فلما قام علماء الصحابة بالتعليم فى الأمصار المفتوحة، اشترك العرب وغيرهم فى تلقى العلم عنهم، حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالى وأبنائهم، ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال: رجلان من الموالى ورجل من العرب، فأما العربى فجعفر بن ربيعة، وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر، مما دفع العرب إلى إظهار استنكارهم من هذا الوضع، فقال عمر بن عبد العزيز: ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا، وأنتم لا تَسمون!

وهكذا كان علماء الدين فى مصر - كما يقول أحمد أمين - إما من أصل عربى يرجع نسبه الى القبائل العربية الفاتحة أو الوافدة، أو من أصل مصرى أصله قبطى وأسلم هو أو أسلم أجداده.

ولم يكن علماء الدين متخصصين فى علم بذاته، فقل أن نجد فى هذا العصر من نسميه الآن تخصصا، فليس هناك عالم بالتفسير فقط، أو بالحديث فقط، لأن هذا الدور إنما يكون بعد تنظيم البحث، وهو دور لم يصلوا اليه فى هذا العصر. كذلك كانت الدروس فيها تفسير، وفيها حديث، وفيها فقه، وفيها لغة، وفيها جدال دينى.

وقد اهتم الخلفاء اهتماما خاصا بالدراسات الدينية، لذلك فقد حرصوا على ارسال علماء الدين الى الأمصار المختلفة ليفقهوا أهلها، وليكونوا

مرجعا لهم فى أحكامه وكافة أموره. وبالنسبة لمصر، فنرى عمر بن الخطاب يبعث الى أهل مصر حِبّان بن أبى جَبَلَه ليفقههم. ويبعث الخليفة عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر، فقيه أهل المدينة، إلى مصر ليعلمهم السنن. وبالعكس فقد أمر عمر بن عبد العزيز جُعْثُل بن هاعان بن سعيد الرُعينى القِتْبانى المصرى، أحد القراء والفقهاء، بالخروج من مصر الى المغرب ليقرئهم القرآن، وقد ذهب الى هناك وولى القضاء فى عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى، وتوفى حوالى ١١٥هـ / ٧٣٣م.

الدراسات الدينية:

قامت هذه الدراسات - كما يقول أحمد أمين - على تفهم معانى القرآن ورواية الحديث، وأقوال الأئمة، واستنباط الأحكام، كل على أصول مذهبه، وكانت على نمط الدراسة فى العراق موضوعا ومنهجا. وقد انقسمت الى : علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم الفقه، والدراسات اللغوية والنحوية، والتاريخ.

أولا: علوم القرآن وتشتمل على علم القراءات، وعلم تفسير القرآن.

وبالنسبة لعلم القراءات فقد كان يدور حول كيفية قراءة ألفاظ القرآن. وقد نشأ بسبب خاصية الخط العربى، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يُقرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحتها. كما أن تباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة أوجد اختلافا فى النطق بحروف القرآن، ثم إن القرآن يشتمل أصلا على ألفاظ القبائل العربية المختلفة بما فيها من عدنانية وقحطانية، وان كانت ألفاظ قريش هى الغالبة، تليها هذيل وكنانة وحمير وغيرهم من قبائل الجزيرة. ولذلك اتفق، بعد البحث والاستقصاء، على قراءات معينة، أو ما سمى أيضا بالتجويد، أيدت بأحاديث نبوية، وروايات الصحابة والتابعين، وقصد من تنوعها التسهيل. وقد يكون أساس التنوع أيضا، بسبب اختلاف القراء فى قراءة القرآن من مصاحف الصحابة قبل أن يصلهم مصحف عثمان، الذى كان خاليا من النقط

والشكل، حتى إن عثمان أطلق للناس القراءات على أى حرف وأية لهجة. وقد أصبحت هذه القرءات علما مدونا توضع فيه المصنفات، التى ربما صحبها الرسم لأوضاع الحروف، واعتبرت المعرفة بها فرضا.كذلك تناول علماء كثيرون فى جميع أرجاء البلاد الإسلامية هذه القراءات بالشرح، وإبراز قواعدها وأحكامها، اذ كانت كل بلد تأخذ من القراءات ما يلائم طبع أهلها، مثل المذاهب تماما وقد اختلف فى عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبع قراءات، وبعضهم جعلها خمسا وعشرين قراءة، وإن رجحت سبع قراءات، وأصبح يعرف أصحابها بأصحاب القراءات، وهى: قراءة نافع من المدينة، وابن كثير من مكة، وابن عامر من الشام، وأبى عمر من البصرة، وعاصم وحمزة و الكسائى من الكوفة.

وقد كانت أول شخصية علمت القرآن بمصر هو عبيد بن محمد، أبو أمية المعافرى، وهو أحد الصحابة الذين شاهدوا فتح مصر.

وقد أخذ أهل مصر قراءة القرآن الكريم عن قراءة نافع. (٧)

ومن قراء مصر:

سَقْلاب بن شُنَيْنَة، أبو سعيد المصرى (ت عام ١٩١هـ /٨٠٦م) قرأ القرآن على نافع. وقرأ عليه يونس بن عبد الأعلى، وأبو يعقوب الأزرق وغيرهما، وكان يقرئ فى أيام ورش.

عثمان بن سعيد، أبو سعيد المصرى الملقب بَوْرش (ت عام١٩٧هـ/٨١٢م) وهو أحد القراء المشهورين، أصله قبطى. وقد انتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية فى زمانه، قرأ القرآن وجوده على نافع، ونافع

(٧) نافع: هو أبو عبد الله المدنى حدّث عن مولاه ابن عمر وعن عائشة وأبى هريرة وطائفة، وعنه الأوزاعى ومالك وعقيل بن خالد والليث وخلق. وقال البخارى وغيره: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. قال عبيد الله بنعمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعا الى أهل مصر يعلمهم السنن. توفى عام ١١٧هـ/ ٧٣٥م.

هو الذى لقبه بورش لشدة بياضه. والورش يصنع من اللبن. وكان ثقة، حجة فى القراءة.

مُعَلّى بن دحية المصرى، أبو دحية المقرئ. قرأ القرآن وجوّدة على نافع.

داود بن أبى طَيْبة المصرى، أبو سليمان بن هارون بن يزيد، مولى آل عمر بن الخطاب (ت سنة ٢٢٣هـ /٨٣٧م) قرأ على ورش وذكره ابن يونس فى تاريخه.

عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العتقى، أبو الأزهر المصرى (ت سنة ٢٣١هـ /٨٤٥م) قرأ القرآن وجوّده على ورش. وهو أخو الفقيه موسى بن عبد الرحمن.

يحيى بن سليمان الجُعْفِىّ الكوفى، أبو سعيد المقرئ الحافظ نزيل مصر (ت ٢٣٨هـ /٨٥٢م).

أبو يعقوب الأزرق، يوسف بن عمرو بن يسار المدنى ثم المصرى (ت سنة ٢٤٠هـ /٨٥٤م). كان مقرئ ديار مصر فى زمانه، لزم وَرْشا مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء، وجلس للاقراء وانفرد عن ورش بتغليظ اللامات، وترقيق الراءات.

محمد بن سعيد، أبو عبد الله الأنماطى المصرى المقرئ. قرأ على أبى يعقوب الأزرق وغيره، وهو من جلّة المصريين.

احمد بن صالح، أبو جعفر المصرى الحافظ المقرئ (١٧٠ ـ ٢٤٨هـ /٧٨٦ ـ ٨٦٢م) أخذ القراءة عرضا وسماعا عن ورش. وقال صالح بن محمد الحافظ عنه: لم يكن أحد يحسن القراءة غير أحمد بن صالح، كان رجلا جامعا يعرف الفقه والحديث والنحو.

سليمان بن داود بن حماد بن سعد، أبو الربيع المصرى المقرئ (١٧٨ ـ ٢٥٣هـ /٧٩٤ ـ ٨٦٧م) كان من جلّة القراء. قرأ على ورش، وروى عن ابن

وهب، وأشهب، وجماعة، قال ابن يونس: كان فقيها على مذهب مالك، وكان رجلا زاهدا.

اسماعيل بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن عبد الله،أبو الحسن النحاس مقرئ الديار المصرية. جود القرآن على أبى يعقوب الأزرق صاحب ورش، وتصدر للاقراء مدة، وكان يقرأ بجامع عمرو بن العاص توفى سنة بضع وثمانين ومائتين.

أبو بكر بن عبد الله بن مالك بن عبد الله بن سيف التجيبى المقرئ المصرى شيخ الاقليم فى القراءات فى زمانه (ت سنة ٣٠٧هـ /٩١٩م) قرأ القرآن على أبى يعقوب الأزرق، وعَمَّر دهرا طويلا، وحدّث عن محمد بن رُمح صاحب الليث بن سعد وغيره. ذكره ابن يونس فى تاريخه.

أحمد بن عبد الله بن محمد بن هلال، أبو جعفر الأزدى المصرى (ت سنة ٣١٠هـ /٩٢٢م) أحد أئمة القراء بمصر.

أحمد بن محمد بن عثمان، أبو بكر الرازى نزيل مصر. شيخ القراء، توفى بمصر (سنة ٣١٢هـ /٩٢٤م).

محمد بن محمد بن عبد الله بن النَّفَّاح بن بدر الباهلى البغدادى المقرئ نزيل مصر (ت سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م) كان ثقة ثبتا، صاحب حديث.

ابراهيم بن حمدان بن عبد الله.أندلسى سكن مصر (ت عام ٣١٨ هـ /٩٣٠م) روى القراءة عرضا وسماعا عن اسماعيل بن عبد الله النحاس.وذكره ابن يونس.

مظفر بن احمد بن أحمد بن أبى غانم المصرى النحوى المقرئ (ت سنة ٣٣٣هـ /٩٤٤م) وكان من جلّة المقرئين بمصر. وله مصنف فى اختلاف السبعة.

عبد المنعم بن عبد الله بن عليون (ت سنة ٣٣٩هـ /٩٥٠م) وهو مؤلف كتاب «الإرشاد فى القراءات».

محمد بن احمد بن عبد العزيز بن منير، أبو بكر الامام، ويعرف بابن أبى الأصبغ الحَرّانى (ت سنة ٣٣٩هـ /٩٥٠م)،وهو نزيل مصر، وكان بصيرا بمذهب مالك.

حَمْدان بن عَوْن، أبو جعفر الخولانى المصرى المقرئ (ت سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م)، قرأعلى أحمد بن هلال و على اسماعيل بن عبد الله النحاس.

أحمد بن اسامة، أبو جعفر بن الشيخ أبى سلمة التجيبى مولاهم المصرى المقرئ توفى عام ٣٤٢هـ /٩٥٣م وقيل عام ٣٥٦هـ /٩٦٦م.ألف كتاب «اختلاف القراءات السبعة».

محمد بن عبد الله المعافرى، أبو بكر المصرى المقرئ. توفى بمصر عام ٣٥٧هـ /٩٦٧ م.

محمد بن عبد الله بن محمد بن أَشتَه اللّوذرىّ، أبو بكر. توفى بمصر عام ٣٦٠هـ /٩٧٠م. وهو أصبهانى سكن مصر، أخذ القراءة عن ابن مجاهد والنقاش وجماعة، له كتاب المصاحف.

عبد العزيز بن على بن محمد بن اسحاق بن الفرج، أبو عدى المصرى الفقيهويعرف بابن الامام (ت عام ٣٨١هـ /٩٩١م) عاش تسعين سنة، وكان مسند القراء فى زمانه بمصر.

علم تفسير القرآن الكريم:

لم يكن العرب فى أول الأمر بحاجة الى تفسير القرآن، ذلك لأنه نزل بلغتهم وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه، وكانوا على علم بمناسبات نزول آياته ومقاصدها. ثم إنهم فى أول الأمر لم يكونوا يسمحون بتفسير القرآن، اعتمادا على قول النبى عليه الصلاة والسلام: «من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». غير أن العلماء المسلمين تخلصوا من هذا الحرج فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، خاصة أنهم بعدوا عن وقت ظهور القرآن مما

جعل مقاصد ألفاظ القرآن مبهمة وغير مفهومة، وخصوصا على الذين أسلموا من الشعوب غير العربية، بحيث كانوا فى حاجة ملحة الى تفسير نص القرآن.

وقد اتجه المفسرون فى تفسير القرآن الكريم الى اتجاهين:

الاتجاه الأول، ويعرف باسم التفسير بالمأثور، أو التفسير النقلى، ويُعتمد فيه على النقل عن النبى عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعين وتابعى التابعين.

والاتجاه الثانى ويعرف باسم التفسير بالرأى، ويعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. وهذه الطريقة للتفسير تعتمد على اللغة ومعانى الألفاظ، فكان يُبحث عن أحوال الألفاظ ومفردات الآيات وما ورد فيها من معان، وشرح غوامض الاعراب، والتعرض للآية وسبب نزولها وغير ذلك. وكان للمصريين نصيب فى تفسير القرآن الكريم، وقد نقل البخارى[8] والطبرى [9] فى تفسيرهما كثيرا من الصحيفة المصرية فى التفسير. والصحيفة المصرية تعتبر من أقدم الروايات التى رويت عن ابن عباس [10]، ومن أصح الطرق عنه، فهى رواية على بن أبى طلحة عن مجاهد[11] أحيانا وعن عِكْرِمة [12] أحيانا أخرى عن ابن عباس.

---

(٨) وهو ابو عبد الله محمد بن أبى الحسن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخارى الحافظ الامام فى علم الحديث، صاحب الجامع الصحيح والتاريخ، رحل فى طلب الحديث الى أكثر محدثى الامصار ولد عام ١٩٤هـ/ ٨٠٩م وتوفى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م

(٩) وهو أبو جعفر بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إماما فى فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. وكان من الأئمة المجتهدين ولد عام ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م وتفى ببغداد عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

(١٠)وهو أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم كان الرسول قد دعا له فقال: اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . وقد أخذ الفقة عن ابن عباس جماعة منهم: عطاء بن رباح ومجاهد وعكرمة وغيرهم. توفى بالطائف عام ٧٨هـ/ ٦٩٧م.

(١١) مجاهد ويكنى أبا الحجاج مولى قيس بن السائب المخزومى وقد قيل عنه إنه كان فقيها عالما ثقة كثير الحديث. توفى عام ١٠٣هـ/ ٧٢١م وقيل عام ١٠٢هـ-٧٢٠/م وقيل عام ١٠٤هـ/ ٧٢٢م

(١٢) وهو أبو عبد الله عِكْرِمة بن عبد الله مولى ابن عباس. وقيل عنه: كان عكرمة أعلم الناس بالتفسير. وكان قول كان ابنَ عباس يضع فى رجلى الكِبْل ويعلمنى القرآن والسنن. توفى عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م وقيل عام ١٠٦هـ/ ٧٢٤م وقيل عام ١٠٤هـ/ ٧٢٢م وقيل عام ١٠٥هـ/ ٧٢٣م وقيل عام ١١٥هـ/ ٧٢٣م.

ولهذا عُرفت هذه الصحيفة بصحيفة على بن أبى طلحة، ونقلها عنه معاوية بن صالح قاضى قرطبة. وفى سنة ١٥٤ هـ /٧٧٠ م مر معاوية بمصر فى طريقه الى الحج، فروى بمصر هذا التفسير، فنقله عنه عبد الله بن صالح المعروف بكاتب الليث بن سعد واحتفظ بها. وقد عرفت الصحيفة المصرية فى سائر الأقطار الاسلامية.

وكان من العلماء المفسرين فى مصر:

عبيد بن سَوِيّة الأنصارى مولاهم المصرى (ت سنة ١٣٥ هـ /٧٥٢ م) وهو رجل صالح مفسر قلما روى. أخذ عنه حيوة بن شريح وابن لهيعة وعمرو بن الحارث وغيرهم.

محمد بن موسى الواسطى، أبو على (ت سنة ٣٢٠ هـ /٩٣٢م وقد قدم الى مصر، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن. وقد مات بمصر.

ابو جعفر النحاس، أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادى المصرى (ت ٣٣٨ هـ / ٩٤٩م) وله كتب كثيرة فى التفسير منها: كتاب «تفسير القرآن الكريم»، وكتاب «اعراب القرآن»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ».

ثانيا : علوم الحديث:

كانت دراسة الحديث فى العالم الاسلامى كله تقوم فى البداية على روايته عن الصحابة والتابعين، ثم لما كثر الوضع فى الحديث بدأ العلماء يُعنون بنقد الرجال، فوضعت أصول نقد السند، كما وضعت أصول نقد المتن واستخلاص السنن من الأحاديث التى صحت.

وقد كان من المحدثين المصريين:

عبد الله بن عمرو بن العاص وكان أكثر الصحابة فى مصر رواية للحديث النبوى الشريف، فلأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث، وكان يعترف له أبو هريرة بالاكثار من العلم، وقد قال عنه: فانه كان يكتب عن

النبى صلى الله عليه وسلم وكنت لا أكتب. وقد كتب الأحاديث التى أخذها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صحيفته الصادقة. حمل عنه المصريون علما عظيما وتوفى بمصر عام ٦٥هـ /٦٨٤م.

الأعرج عبد الرحمن بن داود المدنى صاحب أبى هريرة. توفى بالأسكندرية عام ١١٧هـ/٧٣٥م، وقد أث عليه البخارى، فقال أصح أسانيد أبى هريرة ما كان عن طريق أبى عن الأعرج عن أبى هريرة. وقال عنه الذهبى: كان الأعرج أول من برز فى القرآن والسنن.

أبو عُشَّانَة المَعَافِرى (ت عام ١١٨هـ / ٧٣٦ م) روى عن عقبة بن عامر وجماعة.

القاسم بن عبد الله المعافرى المصرى. عن سعيد بن المسيب وعنه يحيى بن أيوب وابن لهيعة، توفى فى حدود العشرين ومائة.

شراحيل بن يزيد المعافرى المصرى. توفى بعد العشرين ومائة من الهجرة، وقد روى عنه عبد الرحمن بن شريح وابن لهيعة وجماعة.

سُلَيم بن جبير أبو يونس مولى أبى هريرة (ت سنة ١٢٣ هـ /٧٤٠ م) سكن مصر وروى عن ابن هريرة وعنه حيوة بن شريح والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم. وثقه النسائى.

سليمان بن حميد المزنى (ت سنة ١٢٥ هـ /٧٤٢ م) روى عن أبيه عن أبى هريرة وعنه الليث بن سعد وضمام بن اسماعيل وجماعة.

عطاء بن دينار الهُذلى مولاهم المصرى، يكنى أبا طلحة (ت سنة ١٢٦ هـ /٧٤٣ م) روى عنه حيوة بن شريح، ويحيى بن أيوب، وابن لهيعة وآخرون.

عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى (ت سنة ١٢٧ هـ/٧٤٤ م)، أمير الديار المصرية لهشام بن عبد الملك. له نسخة عن الزهرى نحو مائتى حديث، وعن يحيى بن أيوب، والليث بن سعد والليث فمولاه، وبسببه نال الليث دنيا عريضة. قال ابن يونس: كان ثبتا فى الحديث.

حفص بن الوليد بن سيف، أبو بكر الحضرمى (ت سنة ١٢٨ هـ/٧٤٥ م) أمير الديار المصرية من جهة هشام بن عبد الملك. روى عن الزهرى. وعنه الليث وابن لهيعة.

أبو قبيل المعافرى المصرى، حيىّ بن هانئ بن ناصر (ت سنة ١٢٨ هـ/٧٤٥ م) قدم من اليمن فسكن مصر، وروى عن عقبة بن عامر وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعنه يحيى بن أيوب والليث وآخرون، وثّقه أحمد بن حنبل.

قيس بن الحجاج بن خلىّ الكَلاعى ثم السلَفى المصرى وقيل دمشقى (ت سنة ١٢٩هـ /٧٤٦ م) روى عنه الليث وابن لهيعة وغيرهما. وكان رجلا صالحا صدوقا ما جرّحه أحد.

الحسين بن شُفَى بن ماتع الأصبحى المصرى (ت سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦ م) عنه نافع بن يزيد وحيوة بن شريح وآخرون.

كعب بن عَلْقَمه التَّنُوخى المصرى (ت سنة ١٣٠ هـ /٧٤٧ م) روى عن أبى تميم الجيشانى وطائفة، وعنه حيوة بن شريح والليث وابن لهيعة وغيرهم. وكان أحد الثقات العلماء.

الحارث بن يعقوب الأنصارى المصرى مولى قيس بن عبادة (ت سنة ١٣٠ هـ /٧٤٧ م) روى عنه يزيد بن أبى حبيب و الليث بن سعد وآخرون.

عبيد الله بن المغيرة المصرى (ت سنة ١٣١ هـ /٧٤٨ م) روى عن عبد الله بن الحارث بن جزء، وعبيد الله بن عدى وغيرهم، وعنه عمرو بن الحارث وابن اسحاق وابن لهيعة. قال ابن حاتم: صدوق.

سعيد بن أبى هلال الليثى مولاهم المصرى أبو العلاء (ت عام ٣٣١ هـ / ٧٥٠م أو عام ١٣٥ هـ /٧٥٢م أو عام ١٤٩ هـ /٧٦٦ م)، روى عن زيد بن أسلم ونافع والزهرى وغيرهم. وعنه الليث بن سعد وآخرون.

جعفر بن ربيعة بن شُرَحْبيل بن حَسَنة الكندى، أبو شرحبيل المصرى (ت عام ١٣٣ هـ /٧٥٠ م أو عام ١٣٤ هـ /٧٥١ م أو عام ١٣٦ هـ /٧٥٣ م) عنه الليث وابن لهيعة وآخرون. وثقه النسائى وغيره.

زُهرة بن معبد بن عبد الله، أبو عقيل المدنى نزيل الأسكندرية (ت عام ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م أوقيل عام ١٣٧ هـ /٧٥٤ م). روى عنه الليث وابن لهيعة وغيرهما. ووثقه النسائى.

حُميد بن هانئ، أبو هانئ الخولانى (ت سنة ١٤٢ هـ /٧٥٩ م) مصرى صدوق. روى عن على بن رباح وعنه حيوة بن شريح والليث وابن لهيعة وابن وهب. قال أبو حاتم: صالح الحديث.

السكن بن أبى كريمة بن زيد أبو عثمان التجيبى المصرى (ت سنة ١٤٢ هـ /٧٥٩ م) روى عنه حيوة بن شريح وابن لهيعة وغيرهم.

حُيى بن عبد الله المعافرى، أبو عبد الله المصرى صالح الحديث (ت ١٤٣ هـ /٧٦٠ م) عنه الليث وابن لهيعة وابن وهب. قال النسائى: ليس بقوى.

قُرَّة بن عبد الرحمن بن حَيْوئيِل بن ناشرة المعافرى المصرى (ت سنة ١٤٧ هـ /٧٦٤ م) عن يزيد بن أبى حبيب وعنه الأوزاعى والليث بن سعد وابن وهب وآخرون. ضعفه ابن معين. قال أبو حاتم: ليس بالقوى.

عمار بن سعد المرادى وقيل التُجَيْبى المصرى (ت سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥ م) عن أبى صالح الغفارى عن على وعنه حيوة بن شريح ويحيى بن أيوب وابن لهيعة. وكان من العلماء بمصر فى زمانه.

عبد الجليل بن حُميد أبو مالك اليحصبى المصرى (ت سنة ١٤٨ هـ /٧٦٥ م) عن الزُهرى وآخرين، وعنه نافع بن يزيد وابن وهب.قال النسائى: ليس به بأس.

عبد الواحد بن أبى موسى، أبو معن الاسكندرانى (ت سنة ١٥٠هـ/٧٦٧ م) عن زهرة بن معبد، وعنه ضمام بن اسماعيل وابن المبارك وجماعة.

سالم بن غيلان التُّجَيْبى المصرى (ت سنة ١٥١ هـ /٧٦٨ م) عن يزيد ابن أبى حبيب وغيره، وعنه حيوة بن شريح وابن لهيعة وابن وهب وغيرهم. قال النسائى: ليس به بأس.

محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج (ت سنة ١٥٥ هـ/٧٧١م) ولى الديار المصرية لأبى جعفر المنصور، وحدَّث عن أبيه.

قُبَاث بن رُزَيْن بن حميد، أبوهشام المصرى (ت سنة ١٥٦ هـ /٧٧٢ م) عن عكرمة وعلى بن رباح، وعنه ابن المبارك وابن وهب وعبد الله بن صالح. قال أبو حاتم: لا بأس به. وكان إمام جامع مصر.

عياش بن عقبة بن كُلَيب الحضرمى، أبو عقبة المصرى (ت سنة ١٦٠ هـ /٧٧٦م). قراية ابن لهيعة. روى عن جبر بن نعيم، ويحيى بن ميمون وغيرهما، وروى عنه بكر بن مضر، و ابن وهب وغيرهما. وقد ولى إمرة الاسكندرية. قال النسائى: ليس به بأس. وقال المقرى: كان شيخ صدْق.

سعيد بن أبى أيوب المصرى (ت سنة ١٦١ هـ /٧٧٧ م) روى عن أبى زهرة بن معبد وجماعه.

موسى بن على بن رَبَاح اللخمى المصرى (ت سنة ١٦٣ هـ /٧٧٩ م) روى عن أبيه وطائفة. ولى مصر للمنصور ستة أعوام.

نافع بن يزيد المصرى (ت سنة ١٦٨ هـ /٧٨٤ م) عن جعفر بن ربيعة وطبقته، وكان أحد الثقات.

بكر بن مُضر بن محمد بن سَلْمان، أبو محمد المصرى (ت عام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م) حدث عن أبى قبيل المعافرى وجعفر بن ربيعة وآخرون، وعنه ابنه اسحاق وابن وهب وآخرون. وكان ثقة حجة.

عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى، أبو عبد الرحمن المصرى (ولد عام ٩٧ هـ /٧١٥ م وقيل عام ٩٦ هـ /٧١٤ م وتوفى عام ١٧٤هـ/٧٩٠م وقيل عام ١٧٠ هـ /٧٨٦م وقيل عام ١٦٤ هـ /٧٨٠ م). كان من الكتّابين للحديث والجّماعين للعلم والرحالين فيه. قيل إنه كان يكنى أبو خريطة، وذلك لأنه كانت له خريطة معلقة فى عنقه، فكان يدور بمصر، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم، فاذا رأى شيخا سأله: من لقيت وعمن كتبت؟

وتعتبر صحيفة ابن لهيعة فى الحديث من أقدم الصحائف، وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج. وقد تولى قضاء مصر (وأنظر فى ذلك الموضوع الخاص بالقضاة). وقد دفن بالقرافة وقبره معروف فى مصر يقصد للزيارة.

وقال عنه أحمد بن حنبل: لم يكن بمصر مثل ابن لهيعة فى كثرة حديثه وضبطه واتقانه.

المفضل بن فضالة، أبو معاوية القتبانى المصرى الامام الحجة قاضى مصر (ت سنة ١٨١ هـ /٧٩٧ م) حدث عن يزيد بن أبى حبيب وغيره وعنه أبو صالح كاتب الليث وآخرون. قال عنه يحيى بن معين. ثقة.

ضمام بن اسماعيل المصرى (٩٧ ـ ١٨٥هـ / ٧١٥ ـ ٨٠١ م) توفى بالأسكندرية وقد روى عن أبى قبيل المعافرى وطبقته. وهو من مشاهير المحدِّثين.

عبد الله بن وهب (ت عام ١٩٧ هـ /٨١٢ م) وهو من أوائل مدونى الحديث فى العالم الاسلامى، وكتابه «الجامع فى الحديث» هو أقدم كتاب مصرى وصلنا فى الحديث، وقد عثر على جزء مخطوط من هذا الكتاب فى مدينة ادفو، ويعد هذا المخطوط من أقدم المخطوطات العربية فى جميع

مكتبات ومتاحف العالم، اذ يرجع تاريخ كتابته الى القرن الثالث للهجرة، رواه عن الليث، وابن لهيعة، وعن مالك بن أنس وغيرهم. وعبد الله بن وهب صاحب هذا الكتاب مصرى قرشى بالولاء، ولد بمصر سنة ١٢٥ هـ/٧٤٢ م وفيها تلقى علومه الدينية ثم رحل الى الحجاز فى طلب العلم سنة ١٤٨ هـ /٧٦٥ م، وفى المدينة المنورة اتصل بالامام مالك بن أنس، وأخذ عنه العلم وروى الحديث، وكان الامام مالك يعترف بفضل ابن وهب ويقدره حق التقدير، فكان اذا غاب عنه ابن وهب يكتب اليه إلى«عبد الله بن وهب المفتى» ولم يكن يفعل هذا مع أحد غير ابن وهب، بل كثيرا ما كان مالك يفتى بآراء سمعها من ابن وهب، فاذا رأينا قول مالك «حدثنى من أرضى» فهو يقصد ابن وهب. ويقال إن ابن وهب أخذ عن أربعمائة شيخ، وأكثر من رواية الحديث، ولم يجد العلماء فى الأحاديث التى رواها حديثا منكرا. وقد طلب منه الخليفة العباسى أن يكون قاضى مصر فاعتذر واختبأ فى منزله، ورفض أن يقابل أحدا إلاخاصة تلاميذه، وظل ملازما داره خوفا من أن يحُمل للقضاء، الى أن توفى سنة ١٩٧ هـ /٨١٢ م. وترجع شهرة عبد الله بن وهب من ناحية أخرى الى أنه أحد رواة «الموطأ» وقد صنف «الموطأ الكبير» «والموطأ الصغير».

أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى نزيل مصر (١٣٢ ـ ٢١٢ هـ /٧٤٩ ـ ٨٢٧ م)، ويقال له «أسد السنة» صنف التصانيف، ورحل فى طلب الحديث. وثقه ابن يونس، وقال البخارى: هو مشهور الحديث.

بلال بن يحيى بن هارون الأسوانى(ت سنة ٢١٧ هـ /٨٣٢ م) حدث عن مالك بن انس، والليث بن سعد، وابن لهيعة، وحدث عنه يحيى بن بكير، وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر.

معاوية بن هبة الله الأسوانى، ابن أبى يحيى، مولى بنى أمية، يكنى بأبى سفيان (ت سنة ٢١٨ هـ /٨٣٣ م)، روى عن مالك بن أنس ، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة. ذكره ابن يونس فى تاريخه.

عبد الله بن صالح بن محمد بن مُسلم الامام المحدث أبو صالح الجهنى مولاهم المصرى، كاتب الليث بن سعد. ولد عام ١٣٧ هـ /٧٥٤ م وسمع من موسى بن على، ومعاوية بن صالح، وعبد العزيز بن الماجشون وسعيد بن عبد العزيز الدمشقى، والليث بن سعد، ونافع بن يزيد وطبقتهم. حدث عنه البخارى وأبو حاتم وابن معين وسمويه ومحمد بن اسماعيل الترمذى وغيرهم. مات يوم عاشوراء سنة ٢٢٣ هـ /٨٣٧ م. قال عنه النسائى:ليس بثقه. وقال ابن عدى: هو عندى مستقيم الحديث لا يتعمد الكذب.

سعيد بن الحكم بن أبى مريم، أبو عبد الله مولاهم المصرى (ت عام ٢٢٤ هـ /٨٣٨ م) وهو أحد أركان الحديث، وقد ذكره ابن النديم فى كتابه وله من الكتب: «كتاب النسب»، وكتاب «المآثر»، وكتاب «نوافل العرب».

نعيم بن حماد، أبو عبد الله الخزاعى المروزى نزيل مصر (ت سنة ٢٢٨هـ /٨٤٢ م وقيل سنة ٢٢٩ هـ /٨٤٣ م). قال عنه أحمد بن حنبل: ثقه. وقال النسائى: ضعيف. وقد حمل من مصر مع الفقيه أبى يعقوب البويطى الى بغداد فى محنة القرآن مقيدين، فحبسا بسامراء.

محمد بن رُمْح التُّجيبى أبو عبد الله المصرى (ت سنة ٢٤٢ هـ/٨٥٦م) سمع الليث وابن لهيعة. قال النسائى: ما أخطأ فى حديث واحد. وقال ابن يونس: ثقه ثَبْتٌ.

وليد بن بلال بن يحيى الأسوانى، يكنى أبا الحسن (ت سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧ م) سمع الحديث، ذكره ابن يونس. وكان أبوه بلال يحدّث عن مالك بن أنس، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة.

أبو بكر، محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقى (ت سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣ م) أخذ الحديث عن أسد السنة، ثم أخذ عنه أبو داود والنسائى، وله تصانيف فى الحديث.

ومن المحدثين الذين توفوا فى عصر الولاة ولم تذكر تاريخ وفاتهم بالتحديد:

محمد بن عبد الرحمن أبو عيسى المؤذن. وهو شيخ مصرى روى عن أبى مرزوق التجيبى والضحاك بن شرحبيل رعنه سعيد بن أبى أيوب والليث بن سعد وابن لهيعة.

شرحبيل بن عمرو بن شريك المعافرى المصرى. روى عن على بن رياح وغيره وعنه حيوة بن شريح، والليث بن سعد وابن لهيعة وجماعة. وثقه ابن حبان.

عيسى بن موسى بن حميد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى المصرى. عن صفوان بن سليم ومالك بن أنس. وعنه يحيى بن أيوب وابن لهيعة.

سنان بن سعد الكندى المصرى. ويقال سعد بن سنان ويرى الذهبى أن الأول أصح. وقد روى عن أبيه وأنس بن مالك، وعنه يزيد بن أبى حبيب وحيوة بن شريح والليث وآخرون. وثقه ابن معين وغيره.

يزيد بن عمرو المعافرى المصرى، روى عنه عمرو بن الحارث والليث ابن سعد وابن لهيعة، وهو ثقة مقل.

معاوية بن سعيد التجيبى مولاهم المصرى عن أبى قبيل المعافرى ويزيد بن أبى حبيب وعنه يحيى بن أيوب وآخرون.

النعمان بن عمرو اللخمى المصرى. عن على بن رياح وحسين بن شفى، وعنه سعيد بن أبى أيوب وابن لهيعة.

حنين بن أبى حكيم المصرى مولى سهل بن عبد العزيز بن مروان، عن على بن رباح وعطاء، وعنه ابن لهيعة والليث. له حديث واحد فى السنن.

سَيّار بن عبد الرحمن الصدفى المصرى. روى عنه نافع بن يزيد، وسعيد بن أبى أيوب والليث، وابن لهيعة وجماعة.

عمرو بن جابر، أبو زرعة الحضرمى المصرى. عن جابر بن عبد الله وسهل بن سعد وغيرهم، وعنه ابن لهيعة وضمام بن اسماعيل وبكر بن مضر. قال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال ابن لهيعة: كان شيخا أحمق، كان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول: هذا علىّ.

مالك بن الخير الزبادى المصرى، روى عن مالك بن سعد والحارث بن يزيد، وعنه ابن وهب وآخرون.

معروف بن سويد، أبو سلَمة الجُذامى المصرى. عن على بن رباح وأبى قبيل المعافرى، وعنه ابن لهيعة وابن وهب وآخرون، وثقه ابن حبان.

المفضل بن لاحق أبو بشر المصرى. وثقه ابن معين.

ومن المحدثين الذين توفوا فى الدولة الطولونية:

قبيطة الحافظ أبو على الحسن بن سليمان البصرى نزيل مصر. (ت عام ٢٦١ هـ /٨٧٤ م) بمصر. حدث عنه أبو بكر بن خزيمة وجماعة. وصفه ابن يونس بالحفظ.

محمد بن على البغدادى، أبو بكر الامام الحافظ نزيل مصر (ت عام ٢٦٤ هـ /٨٧٧م) بمصر. حدث عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وآخرين، وعنه أبو جعفر الطحاوى وطائفة. قال عنه أبو سعيد بن يونس: كان يحفظ الحديث ويفهم.

ومن المحدثين الذين توفوا بعد الدولة الطولونية:

محمد بن عبد الوارث بن حريز بن عيسى الأسوانى، يكنى أبا عبد الله (ت عام ٢٩٧ هـ /٩٠٩ م) سمع منه ابن يونس وذكره فى تاريخه.

علي بن سعيد بن بشير بن مهران، أبو الحسن الرازي. نزيل مصر ومحدثها. توفي عام ٢٩٧ هـ /٩٠٩ م.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني (٢٢٥ هـ - ٣٠٣ هـ /٨٣٩ - ٩١٥ م) استوطن مصر فأقام بزقاق القناديل. كان إمام أهل عصره في الحديث. وله كتاب «السنن» وكان يسميه الصحيح، وكتاب «الخصائص» في فضل علي بن أبي طالب وأهل البيت، وعن سبب تأليفه هذا الكتاب قال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي رضي الله عنه كثير، فأردت أن يهديهم الله تعالى بهذا الكتاب (١٣) .

قاسم بن عبد الله بن مهدي بن يونس البُلْبِيثائي (ت سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦م) ذكره ابن يونس وقال : يروي عن أبي مُصْعَب أحمد بن أبي بكر ، قال : وقدم علينا الفسطاط فسمعت منه ، ولم يحصل لي عنه غير حديث واحد. ذكره ابن عدي قال : وكان بعض شيوخ أهل مصر يضعفه . قال : وهو عندي لا بأس به.

محمدبن إبراهيم بن خالد الأسواني ، أبو بكر (ت عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧م) ، حدث عن يونس بن عبد الأعلى وغيره .

الأرغياني ، أبو عبد الله محمد بن المسيب بن اسحاق (ت سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م) وله ٩٢ سنة. كان يقول : كنت أمشي في مصر وفي كمي مائة جزء في كل جزء ألف حديث .

الحسن بن يوسف بن يعقوب ، أبو علي الفحام الأسواني (ت سنة ٣١٨ هـ/ ٩٣٠ م) ذكره ابن يونس في تاريخ مصر وقال : سمع من يونس بن عبد الأعلى وغيره ، وكان ثقة .

أحمد بن عبد الوارث الأسواني، أبو بكر (ت سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠م) . ذكره ابن يونس وقال : كان ثقة . حدث عن عيسى بن حماد زغبة وغيره .

---

(١٣) ونسبته إلى نَسَا - بفتح النون وفتح السين المهملة وبعدها همزة - وهي مدينة بخرسان.

فقير بن موسى بن نقير بن عيسى بن عبد الله ، أبو الحسن الأسوانى (ت سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م) ذكره ابن يونس وقال : رأيته وقد قدم علينا الفسطاط، وقد حدث بمصر عن محمد بن سليمان بن أبى فاطمة وآخرون .

محمد بن جميع الأسوانى ، حدث بأسوان عن أبى عمران محمد بن موسى ، وروى عنه العقيلى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣م.

ومن المحدثين الذين توفوا فى الدولة الأخشيدية :

عياش بن عباس ، أبوعبد الرحيم القتبانى الحميرى المصرى (ت ٣٣٠ هـ/ ٩٤١م) روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، والهيثم بن شفى وغيرهما . وعنه حيوة بن شريح ، والليث، وابن لهيعة، والمفضل بن فضالة . وثقه ابن معين وغيره .

هارون بن يوسف بن هارون بن ناصح الأسوانى (ت سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢م) وقد ذكره ابن يونس فى تاريخ مصر .

أبو بكر، أحمد بن عمر الطحان (ت سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م) .

على بن محمد بن أحمد بن الحسن أقام بمصر فعرف بالمصرى (ت سنة ٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م) جمع حديث الليث وابن لهيعة ، وله كتب كثيرة فى الزهد. قال عنه الخطيب : كان ثقة أمينا عارفا .

ابن أبى الأصبغ ، محمد بن أحمد بن أبى الأصبغ عبد العزيز بن منير، يكنى أبا بكر (ت عام ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠م) سكن مصر ، وأم بالجامع . وكان فقيها ، مشهورا ، ثقة، راوية للحديث ، وحدث بمصر وأملى .

سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن ، أبو على البغدادى نزيل مصر (٢٩٤ ـ ٣٥٣ هـ/ ٩٠٦ ـ ٩٦٤م) ، وله كتاب الصحيح المنتقى .

حمزة بن محمد بن على بن العباس، أبو القاسم الكنانى المصرى (٢٧٥ ـ ٣٥٧ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩٦٧م) ، وهو من حفاظ الحديث . سمع النسائى وغيره . وكان من الزهاد .

محمد بن أحمد بن عبد الله ، أبو طاهر الذهلى البغدادى المالكى (ت سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م) تولى قضاء مصر . وقال عنه ابن زولاق : كان أبو الطاهر كثير الحديث والأخبار ، وقد نزل مصر فحدث بها ، وأكثر وكتب عنه عامة أهلها ، وكان يذهب إلى قول مالك بن أنس . وله كتاب فى الفقه أجاب فيه عن مسائل مختصر المزنى على قول مالك بن أنس واختصر تفسير البلخى . ومما استحسن من كلامه أنه تلقى الخليفة المعز لدين الله بالاسكندرية ، فلما جلس أبو طاهر عنده سأله الخليفة عن أشياء منها : أنه قال له : كم رأيت من خليفة ؟ فقال : واحدا . فقال : ومن هو ؟ فقال : أنت ، والباقى ملوك. ثم قال له : حججت ؟ قال : نعم . قال : وزرت؟ قال : نعم. قال : سلمت على الشيخين؟ قال : شغلنى عنهما النبى صلى الله عليه وسلم كما شغلنى أمير المؤمنين عن ولى عهده . فأرضى الخليفة ، وتخلص من ولى عهده وكان لم يسلم عليه بحضرة الخليفة، فإزداد الخليفة به عجبا وخلع عليه ، وأبقاه على ولايته وأجازه بعشرة آلاف درهم . ومولده سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م.

النقاش، أبو بكر محمد بن على بن حسن المصرى نزيل تنيس (٢٨٢ - ٣٦٩ هـ /٨٩٥ ـ ٩٧٩ م) كان من علماء الحديث، وقد ارتحل اليه الدارقطنى الى تنيس وكان منزويا بها، فلهذا لم ينتشر حديثه.

الحسن بن رشيق (٢٨٣ ـ ٣٧٠ هـ /٨٩٦ ـ ٩٨٠ م) حدث عن أبى عبد الرحمن النسائى وآخرون، روى عنه الدارقطنى وأبو محمد بن النحاس وآخرون، قال أبو القاسم بن الطحان فى تاريخه: روى عن خلق لا أستطيع ذكرهم، فما رأيت عالما أكثر حديثا منه.

أبو العباس، أحمد بن عيسى بن الجراح بن النحاس المصرى (ت سنة ٣٧٦هـ /٩٨٦ م) عن ٨٥ سنة وكانت كتبه ذهبت فحدّث من حفظه وأملى سنين طويلة.

ابن مسرور الحافظ أبو الفتح عبد الواحد بن محمد بن أحمد مسرور البلخى (ت سنة ٣٧٨ هـ /٩٨٨ م) استوطن مصر.

أحمد بن أبى الليث نصر بن محمد الحافظ أبو العباس النّصيبى المصرى (ت سنة ٣٨٦ هـ /٩٩٦ م).

أبو الفضل، جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات المعروف بابن حِنْزَابة (٣٠٨ - ٣٩١هـ /٩٢٠ - ١٠٠٠ م). وكان محدثا يَملى الحديث بمصر، وقد سبق ذكره.

عبد الغنى بن سعيد بن على بن سعيد بن بشر بن مروان بن عبد العزيز، أبو محمد الأزدى الحافظ المصرى (٣٣٢ - ٤٠٩ هـ /٩٤٣ - ١٠١٨ م). كان حافظ مصر فى عصره. ومن كتبه: كتاب «مشتبه النسبة»، وكتاب « المؤتلف والمختلف» وهو أول كتاب ألفه وقد قرأه على الدارقطنى. ويقال إنه بدأ السمع من العلماء وعنده عشر سنوات. وقيل إنه لما خرج الدارقطنى من مصر جاءه المودعون وتحزنوا على مفارقته وبكوا، فقال: لقد تركت عندكم خلفا - يعنى عبد الغنى.

ثالثا: علوم الفقه وفقهاء المذاهب الأربعة:

الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى، وهى متلقاه من الكتاب والسنة، فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة الشرعية قيل لها فقه.

وقد جد الفقه فى مصر منذ دخلها المسلمون، وعرف بين العرب فى مصر عدد من المجتهدين الذين أفتوا الناس بما فى القرآن والحديث الشريف أو بما رأوه.

وقد كان من الفقهاء فى مصر:

عقبة بن عامر الجهنى (ت عام ٥٨ هـ / ٦٧٧ م). كان فقيها علامة من فقهاء الصحابة، قارئا لكتاب الله، بصيرا بالفرائض. ولى إمرة مصر لمعاوية.

عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى (ت عام ٨٣ هـ /٧٠٢ م). الذى عرف فى العالم الاسلامى بزهده وعلمه حتى قيل إن رجلا من أهل مصر قابل ابن عباس وسأله عن مسألة فقال له ابن عباس: تسألنى وفيكم ابن حجيرة؟ وقد تولى قضاء مصر (٦٩ ـ ٨٣ هـ / ٦٨٨ ـ ٧٠٢ م).

أبو الخير، مَرْثَد بن عبد الله اليزنى الحميرى المصرى (ت عام ٩٠ هـ /٧٠٨ م).كان مفتى أهل مصر فى زمانه، وكان والى مصر فى ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان يحضره فيجلسه للفتيا.

عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ وقيل ٦٣ ـ ١٠١ هـ /٦٨٠ أو ٦٨٢ ـ ٧١٩ م) نشأ بمصر فى ولاية أبيه عليها. حدث عن عبد الله بن جعفر، وأنس بن مالك، وأبى بكر بن عبد الرحمن وغيرهم، وحدث عنه ابناه عبد الله وعبد العزيز والزهرى وغيرهم. كان إماما، فقيها، مجتهدا، عارفا بالسنن ثبتا حجة حافظا.

يزيد بن أبى حبيب، أبو رجاء الأزدى مولاهم المصرى (٥٣ ـ ١٢٨هـ/ ٦٧٢ ـ ٧٤٥ م). كان مفتى أهل مصر، وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحلال والحرام. كان حجة، حافظا للحديث، وقيل إنه أحد ثلاثة جعل لهم الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الفتيا فى مصر. وكان الليث بن سعد يقول عنه «هو عالمنا وسيدنا».

بكر بن سَوادة الجُذامى المصرى (ت سنة ١٢٨ هـ /٧٤٥ م) مفتى مصر، وقد روى عن عبد الله بن عمرو، وسهل بن سعد ، وعنه الليث بن سعد و عبد الله بن لهيعة. وثقه النسائى.

حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن بن حسان التجيبى (ت سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م) كان فقيها، وهو أمير مصر لهشام بن عبد الملك ثم لمروان ابن محمد.

عمر بن السائب، أبو عمر المصرى الفقيه (ت سنة ١٣٤هـ /٧٥١ م)روى عن القاسم بن القزمان وغيره وهو مقل. روى عنه الليث وابن لهيعة، وبكر بن مضر.

خَيْر بن نُعَيْم الحضرمى قاضى مصر (ت سنة ١٣٧ هـ /٧٥٤ م) عنه عمرو بن الحارث والليث وضمام بن اسماعيل وابن لهيعة. قال يزيد بن أبى حبيب: ما أدركت فى قضاة مصر أفقه منه.

خالد بن يزيد، ابو عبد الرحيم الاسكندرانى المصرى الفقيه (ت سنة ١٣٩ هـ /٧٥٦ م). عنه الليث والمفضل بن فضاله وآخرون. وثقه النسائى. وقال يحيى بن أيوب: كان أفقه جندنا.

عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصارى، أبو أمية المصرى (ت سنة ١٤٨ هـ /٧٦٥ م) الفقيه المقرئ أحد الأئمة، مولى قيس بن سعد بن عبادة. حدث عن ابن يونس مولى أبى هريرة، ويزيد بن أبى حبيب وغيرهم. وعنه مالك والليث وبكر بن مضر وابن وهب وآخرون.روى سعيد بن أبى مريم عن خاله قال: كان عمرو بن الحارث المصرى يخرج فيجد الناس صفوفا يسألونه عن القرآن والحديث والفقه والشعر والعربية والحساب. قال أبو حاتم: كان عمرو بن الحارث أحفظ الناس فى زمانه، لم يكن له نظير فى الحفظ. قال ابن وهب: اقتدينا بمصر به وبالليث. قال أحمد بن صالح: لم يكن بعد عمرو بن الحارث مثل الليث بمصر. ومولده فى سنة ٩٢ هـ /٧١٠ م، وقيل ٩٤ هـ / ٧١٢ م.

موسى بن ايوب بن عامر الغافقى المصرى الفقيه (ت سنة١٥٣هـ/٧٧٠ م). روى عنه الليث وابن المبارك وابن وهب وآخرون. وثقه ابن معين. وهو مقل.

حَيَوة بن شُرَيح بن صفوان التجيبي، أبو زرعة المصرى الفقيه (ت سنة ١٥٨ هـ /٧٧٤ م وقيل عام ١٥٩ هـ /٧٧٥ م) روى عن عقبة بن مسلم ويزيد بن أبى حبيب، وحدث عنه الليث وابن المبارك وابن وهب وآخرون. وثقه أحمد بن حنبل وغيره. قال ابن وهب: كان حيوة يأخذ عطاء فى السنة ستين دينارا، فلا يطلع الى منزله حتى يتصدق بها، ثم يجئ الى منزله فيجدها تحت فراشه، وبلغ ذلك ابن عم له فأخذ عطاءه فتصدق به كله وجاء الى تحت فراشه فلم يجد شيئا، فشكا الى حيوة فقال:أنا أعطيت ربى بيقين وأنت أعطيته تجربة.

يحيى بن أيوب، أبو العباس الغافقى المصرى (ت عام ١٦٨ هـ /٧٨٤ م وقيل عام ١٦٣ هـ /٧٧٩ م) فقيه أهل مصر ومفتيهم، حدث عن يزيد بن أبى حبيب وعنه ابن وهب وآخرون.

الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث الفهمى المصرى. ولد بقرية قلقشندة عام ٩٤ هـ /٧١٢م وتوفى عام ١٧٥هـ /٧٩١م. كان أكبر عالم فقيه شاهدته مصر فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر. أخذ العلم عن فقهاء مصر ومحدثيها أمثال: يزيد ابن أبى حبيب، وجعفر بن ربيعة، وخير بن نعيم وغيرهم. ورحل الى الحجاز والمقدس وبغداد فى طلب العلم ورواية الحديث. وقد نبغ الليث فى الناحية الفقهية، وعُرف بها حتى إن الامام الشافعى كان يقول: «الليث بن سعد أفقه من مالك بن أنس، إلا أن أصحابه لم يقوموا به.» وقال عنه يحيى بن بكير: ما رأيت أفقه من الليث بن سعد، كان ثقة فى الحديث، نحوى اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الأحاديث الكثيرة، إلا أن أصحابه ضيعوه، لم يكتبوا عنه شيئا.

قال الذهبى فى كتابه «العبر»: كان أمراء مصر لا يقضوا أمرا دونه، واذا خالفه أحد فى شئ، كاتب فيه الخليفة، فيعزله. وقد أراد الخليفة المنصور أن يوليه مصر إلا انه رفض.

وتُعد آراء الليث بن سعد فى الفقه مذهبا من المذاهب الفقهية عند أهل السنة، ولكن المصريين لم يحافظوا على مذهبه وآرائه، واهتموا بمذهب مالك، فانتشر بينهم فقه مالك، وفقد فقه الليث.

ومن كتبه كتاب التاريخ، وكتاب مسائل الفقه. (١٤)

الهذيل بن مسلم التميمى (ت عام ١٨٩هـ / ٨٠٤م)كان فقيها سكن مصر.

شعيب بن الليث بن سعد المصرى الفقيه (ت سنة ١٩٩ هـ /٨١٤م). قال ابن يونس عنه: كان فقيها مفتيا.

يحيى بن حسان التنيسى، أبو زكريا (ت سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣ م) كان اماما حجة من جلة المصريين.

اسحاق بن بكر بن مضر الفقيه (ت سنة ٢١٨ هـ /٨٣٣ م) وهو من طلبة الليث بن سعد، وكان يجلس فى حلقة الليث فيفتى ويحدث.

عيسى بن حماد زُغْبَة التجيبى مولاهم المصرى راوى الليث بن سعد (ت سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م).

عبد الملك بن شُعَيبْ بن الليث بن سعد المصرى (ت سنة ٢٤٨ هـ /٨٦٢ م). سمع أباه، وابن وهب. وكان أحد الفقهاء.

أحمد بن موسى بن عيسى بن صدقه الصدفى مولاهم (ت عام ٣٠٦هـ /٩١٨م) من أهل مصر، وهو فقيه مشهور بها.

على بن عبد الله بن أبى مطر المعافرى الاسكندرى، الفقيه، العالم قاضى الاسكندرية (ت سنة ٣٣٠ هـ /٩٤١ م) روى عن محمد بن عبد الله بن ميمون صاحب الوليد بن مسلم.

---

(١٤) قلقشندة ـ وهى بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة ـ وهى قرية من الوجه البحرى من القاهرة.

مؤمل بن يحيى بن مهدى بن أبى الحسن الأسوانى الفقيه (٢٧٠ - ٣٥٩ هـ /٨٨٣ - ٩٦٩ م).

المذاهب الفقهية فى مصر:

لم يظهر الفقه كعلم فى أول الأمر، لوجود الصحابة والتابعين، ولكن لما تعددت مشاكل الاسلام، تطلب الأمر ضبط الشرع، فظهرت عدة طرق فقهية، وهى ليست فرقا، وانما دراسات دينية، لذلك أطلق عليها مذاهب، وهى تسير فى دائرة الاسلام، بحيث يمكن لأتباع إحداها أن ينتقلوا إلى أخرى.

وسنتناول فى الصفحات القادمة المذاهب الفقهية فى مصر مرتبة تبعا لانتشارها فى مصر، مع ذكر أصحاب كل مذهب.

١- مذهب مالك:

وهو نسبة إلى مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث ، أبو عبد الله المدنى الفقيه . ولد عام ٩٥ هـ/ ٧١٣م وقيل عام ٩٦هـ/ ٧١٤ م وقيل عام ٩٢هـ/ ٧١٠م وقيل عام ٩٣هـ/ ٧١١م، وتوفى عام ١٧٩هـ/ ٧٩٥م.

حدث عن نافع والزهرى وآخرون ، وحدث عنه أمم لا يكادون يحصون منهم: ابن المبارك، وابن وهب، وابن القاسم. قال الشافعى : اذا ذكر العلماء فمالك النجم. وقال أيضا : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز. كما قال : ما فى الأرض كتاب فى العلم أكثر صوابا من موطأ مالك. وقال آخر : إمام أهل الحديث مالك. وكان له من الكتب : كتاب الموطأ، وكتاب رسالته إلى الرشيد رواها أبو بكر بن عبد العزيز من ولد عمر بن الخطاب.

وقد كان المذهب المالكى أكثر مذاهب أهل السنة والجماعة انتشارا فى مصر ، وكان أكثر علماء مصر من فقهاء المالكية .

ويرجع السبب فى انتشار مذهب مالك فى مصر - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - إلى أن مالكا كان فقيه المدينة المنورة، والمصريون كانوا

يفضلون علماء أهل المدينة أكثر من تفضيلهم علماء الأمصار الاسلامية الأخرى .

وقد كان أساس دراسة فقه مالك بن أنس هو رواية «الموطأ» وشرحه، واستخراج آراء مالك منه. وقد كان للموطأ أربع عشرة رواية، منها خمس روايات للمصريين ، والسادسة وهى الرواية المنتشرة الآن هى رواية يحيى بن يحيى الأندلسى (١٥) أخذ الشطر الأكبر منها عن مالك نفسه ، ولكن الرواية كلها تكاد تكون عن رواية عبد الله بن وهب المصرى ، وهذا يدل على شدة إقبال علماء مصر على فقه مالك الذى حواه الموطأ.

وأول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى، وكان فقيها، روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد ، وتوفى بالإسكندرية عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م. وفى رواية أخرى أن عثمان بن الحكم الجذامى هو أول من أدخل علم مالك بمصر، وتوفى عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م.

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن كلا القولين صحيح، وذلك لأنه فى ترجمة عثمان الجذامى من «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلانى ما نصه : «وقال ابن وهب : أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد» . فيظهر أنهما بعد أن تفقها عن الامام مالك عادا معا إلى مصر ونشرا مذهبه .

ومن أصحاب مالك فى مصر :

هارون بن عبدالله بن الزهرى المالكى (ت عام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩م) تولى قضاء مصر. وقيل: إنه أعلم من صنّف الكتب فى مختلف قول مالك. وقال الخطيب: إنه سمع من مالك.

---

(١٥) وهو يحى بن كثير الليثى، أبو محمد. رحل إلى المشرق وسمع من مالك بن أنس المؤطا كما رحل إلى مصر وسمع من أكابر أصحاب مالك فيها، وعندما عاد إلى الأندلس انتهت إليه الرياسة بها، وبه انتشر مذهب مالك فى تلك البلاد، وتفقه به جماعة لا يحصون عددا، وروى عنه خلق كثير. وأشهر روايات المؤطا وأحسنها روايته. توفى عام ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م وقيل ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م.

طليب بن كامل اللخمى . وكان من كبار أصحاب مالك، وأصله أندلسى سكن الإسكندرية ، وروى عنه ابن القاسم وابن وهب، وبه تفقه ابن القاسم قبل رحلته الى مالك. وقد مات طليب فى حياة مالك بالاسكندرية سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م .

عبد الرحمن بن القاسم ، أبو عبد الله العتقى مولاهم المصرى (ت عام ١٩١هـ/ ٨٠٦م) فقيه الديار المصرية، سمع مالك بن أنس وتفقه به وصحبه عشرين سنة. وهو صاحب «المدوّنة» فى مذهبهم وهى من أجل كتبهم، وعنه أخذها سَحْنُون. ويذكر أنه أنفق أموالا عظيمة فى طلب العلم (١٦) .

عبدالله بن وهب بن مسلم ، أبو محمد (١٩٧هـ/٨١٢م) . كان أحد أئمة عصره وصحب الامام مالك عشرين سنة . (أنظر عن ترجمته فى الطبقات الخاصة بالمحدثين) .

أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسى (١٤٠ ـ ٢٠٤ هـ/ ٧٥٧ ـ ٨١٩م) وقد تولى رياسة المالكية فى مصر بعد ابن القاسم ، وكان من أكثر الناس علما. تلقى عن مالك. والليث بن سعد، والفضيل بن عياض وغيرهم. ويقول ابن وهب عنه : «كان أشهب فقيها فى علوم شتى، ما سئل عن شىء إلا أجاب» ، ووصفه الامام الشافعى بقوله :«ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه» .

اسحق بن الفرات (ت عام ٢٠٤هـ/٨١٩م) صاحب مالك، روى عن الليث بن سعد وغيره، وقال عنه الشافعى : ما رأيت بمصر أعلم باختلاف الناس من اسحق بن الفرات.

---

(١٦) العتقى:بضم العين وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها قاف، هذه النسبة إلى العتقاء ـ كما يقول ابن خلكان ـ وهم ليسوا من قبيلة واحدة بل هم من قبائلشتى، وسموا بذلك لأنهم كانوا يقطعون على من أراد النبى صلى الله عليه وسلم، فبعث إليهم، فأتى بهم أسرى فاعتقهم، وقيل لهم: العتقاء. كما عرفوا بأهل الظاهر فى مصر وذلك لأنهم عندما تم فتح الإسكندرية ورجعوا إلى الفسطاط لم يجدوا موضعا يختطون فيه عند أهل الراية، فشكوا ذلك إلى عمرو، فقال لهم معاوية بن حديج وكان يتولى أمر الخطط: ارى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذونه متنزلا وتسمونه الظاهر، ففعلوا ذلك، فقيل لهم أهل الظاهر. وعن خطتهم أنظر، الموضوع الخاص بالقبائل العربية.

عبد الله بن عبد الحكم (ت عام ٢١٤هـ/٨٢٩م) . كان من جلة أصحاب مالك، وقد أفضت إليه رئاسة المالكية بعد أشهب، وله مصنفات فى الفقه وغيره.

أَصْبَغ بن الفرج ، أبو عبد الله المصرى (ت سنة ٢٢٥هـ/ ٨٣٩م) مفتى أهل مصر . قال ابن معين: كان من أعلم خلق الله كلهم برأى مالك، يعرفها مسألة مسألة، متى قالها مالك ومن خالفه فيها، وله تصانيف، وعندما كتب المعتصم ليحمل إليه أصبغ فى المحنة هرب واختفى بحلوان .

عبد الرحمن بن أبى جعفر الدمياطى (ت عام ٢٢٦هـ / ٨٤٠م) روى عن مالك. وسمع من كبار أصحابه كابن وهب، وابن القاسم وأشهب .

يحيى بن عبد الله بن بكير، أبو زكريا المصرى (ت سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥م) صاحب مالك والليث. وروى أنه سمع الموطأ من مالك سبعة عشر مرة، روى عنه البخارى وأبو زرعة وخلق كثير.

يوسف بن عدى الكوفى نزيل مصر (ت سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦م) حدث عن مالك ، وكان محدثا تاجرا.

عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم (ت سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١م) . وهو أكبر بنى عبد الله بن عبد الحكم وهم : عبد الحكم هذا ، وعبد الرحمن ، وسعد، ومحمد، ولم يكن فيهم أفقه من عبد الحكم كما يقول ابن فرحون . وله سماع كثير من أبيه وابن وهب وغيرهما من رواة مالك ، وكان من أكابر أصحاب ابن وهب . وقيل إن موته إنما كان بسبب المحنة فى القرآن ، وإنه دخن عليه بالكبريت ولم يرجع، فضرب نحو ثلاثين سوطا فى غلالة.

الحارث بن مسكين ، أبو عمرو المصرى مولى محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان (١٥٤ ـ ٢٥٠ هـ/ ٧٧٠ ـ ٨٦٤م) . كان فقيها على مذهب الامام مالك، وكان ثقة فى الحديث، وله تصانيف، حمله المأمون إلى بغداد فى أيام المحنة وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلق القرآن، وظل محبوسا

ببغداد إلى أن ولى المتوكل فأطلقه. وقد تولى القضاء بمصر (أنظر فى ذلك الموضوع الخاص بالقضاة) .

أبو طاهر ، أحمد بن عمرو بن عبد الله بن السرح الأموى مولاهم المصرى (ت سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤م) مصنف شرح الموطأ . وكان من كبار العلماء .

ومن فقهاء المالكية الذين توفوا فى العصر الطولونى :

عبد الغنى أبو محمد بن عبد العزيز بن سلام المعروف بالعسال (ت سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م) . كان حافظا ، فقيها، مفتيا من فقهاء المالكية . روى عن ابن وهب وابن عيينة .

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو عبد الله المصرى (١٨٢ ـ ٢٦٨هـ/ ٧٩٨ ـ ٨٨١م). أحد فقهاء مصر من أصحاب مالك، أخذ مذهب مالك من ابن وهب وأشهب ، وتفقه بأبيه وبالشافعى، وانتهت إليه الرياسة بمصر . قال عنه ابن يونس: كان المفتى بمصر فى أيامه . وقال عنه النسائى: ثقة. وله كتب كثيرة منها : الرد على الشافعى، وكتاب أحكام القرآن ، وكتاب الرد على فقهاء العراق.

ابن الموّاز ، أبو عبد الله ، محمد بن ابراهيم الإسكندرانى (ت عام ٢٨١هـ/ ٨٩٤م) . انتهت إليه الرياسة فى مذهب مالك. أخذ عن أصبغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم.

محمد بن أصبغ بن الفرج (ت ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨م) كان فقيها مفتيا بمصر.

ومن فقهاء المالكية الذين توفوا قبل العصر الاخشيدى:

محمد بن أحمد بن أبى يوسف، أبو بكر بن الخلال (ت سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وهو من فقهاء مصر، درس بجامعها وأخذ عنه الناس ،

وألف أربعين جزءا من منتقى قول مالك، وروى عن محمد بن أصبغ، عن أبيه عن ابن القاسم : كتاب السر لمالك .

ومن فقهاء المالكية فى العصر الاخشيدى :

هارون بن محمد بن هارون الأسوانى (ت سنة ٣٢٧ هـ/ ٩٣٨م) . ذكره ابن يونس وقال : كان أحد أصحابنا الذين كتبوا معنا الحديث، وكان فقيها على مذهب مالك.

أحمد بن محمد بن هارون الأسوانى ، أبو جعفر الفقيه المالكى (ت عام ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤م وقيل عام ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م) .

محمد بن القاسم بن شعبان بن محمد ، أبو اسحق ويعرف بالقرطبى (ت عام ٣٥٥هـ/٩٦٥م) من أعيان العلماءالمالكية. وقد انتهت إليه رياسة المالكية بمصر . ومن كتبه : كتاب الزاهى الشعبانى المشهور فى الفقه، وكتاب فى أحكام القرآن ، وكتاب فى مناقب مالك ، وكتاب الرواة عن مالك ، وكتاب مواعظ ذو النون الاخميمى .

عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الغافقى الجوهرى ، أبو القاسم (ت عام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) من شيوخ الفسطاط ، وكبار فقهاء المالكية ، كثير الحديث. ألف كتاب « مسند الموطأ» ، وكتاب « مسند ما ليس فى الموطأ».

---

(١٧) وهو مسلم بن خالد بن سعد المعروف بالزنجى. كان فقيها عابدا يصوم الدهر. توفى بمكة عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م فى خلافة هارون.

٢ ـ المذهب الشافعى :

والمذهب الشافعى نسبة إلى محمد بن إدريس الشافعى ، أبو عبد الله ـ ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م وتوفى سنة ٢٠٤ هـ/ ٨١٩م بمصر ـ وحفظ الموطأ وعرضه على مالك ، وأذن له مسلم بن خالد (١٧) بالفتوى وهو ابن عشرين سنة أو دونها ـ

جاء محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م ونزل ضيفا على عبد الله بن عبد الحكم رئيس المالكية الذى أكرم الشافعى، ووهبه أموالا من عنده ، كما جمع له بعض المال من وجوه المصريين ليستعين به فى حياته. وبدأ الشافعى يلقى بتعاليمه وفقهه فى المسجد الجامع بالفسطاط. وأقبل عليه بعض علماء المصريين يأخذون عنه، وكان أكثرهم اقبالا عليه وأخذا منه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى كان أبوه رئيسا للمذهب المالكى فى مصر، وكان أبوه يشجعه على الأخذ عن الشافعى، وكان علماء المالكية يلومونه على ذلك، فكان يجيبهم: اننا يجب أن نعرف مختلف الآراء! فكان هذا القول حافزا على الاستماع لفقه الشافعى، حتى كثر تلاميذ الشافعى ـ

ويقال إن الشافعى عندما دخل مصر صنف بها نحو مائتى جزء فى العلم ـ ولما أشرف على الموت، أوصى أن لا يغسله إلا أمير البلد، فلما مات ، احضر الأمير إبراهيم بن محمد السرى فقيل له: « إن الامام أوصى أن لا يغسله إلا أنت ». قال : «هل توفى الامام وعليه دين» ؟ قالوا : «نعم » ـ قال : «احسبوا ما عليه من الدين». فحسبوا، فاذا هو سبعون ألف درهم. فقضاها عنه الأمير إبراهيم، وقال : «هذا غسلى اياه، وانما عنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه».

وله من الكتب : كتاب المبسوط فى الفقه، رواه عنه الربيع بن سليمان، ويحتوى هذا الكتاب على كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الحج، كتاب الاعتكاف.

ومن كتبه التى صنفها فى مصر: كتاب الأم، وكتاب الأمالى الكبرى، وكتاب الاملاء الصغير ، ومختصر البويطى، ومختصر المزنى والرسالة والسنن .

ومن فقهاء الشافعية فى مصر :

يوسف بن يحيى البُوَيْطى، أبو يعقوب (ت عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م) كان خليفة الشافعى فى حلقته بعده. وقال عنه الشافعى: «ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابى أعلم منه » . وقد ألف البويطى كتبا كثيرة فى فقه الشافعى منها: المختصر الكبير ، والمختصر الصغير ، وكتاب الفرائض . وقد توفى البويطى معذبا فى سجن بغداد بسبب محنة خلق القرآن ، فانه لم يُقر بخلقه (١٨) .

عبد العزيز بن عمران بن أيوب الخزاعى المصرى ، أبو على (ت عام ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨م) كان من أكابر العلماء المالكية. فلما قدم الشافعى مصر ، لزمه ، وتفقه على مذهبه.

حرملة بن يحيى التُّجيبى ، أبو حفص المصرى الحافظ (١٦٦ ـ ٢٤٣هـ/ ٧٨٢ ـ ٨٥٧م) صاحب الامام الشافعى ، تفقه به . روى عن ابن وهب مائة ألف حديث . وصنف «المختصر»، و «المبسوط» .

محمد بن عبد الله بن محمد بن العباس (ت عام ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢م) . وهو من فقهاء الشافعية، وله مناظرات مع المُزنى . وهو ابن عم الشافعى وقد تزوج بزينب إبنة الشافعى .

أحمد بن يحيى الوزير بن سليمان أبو عبد الله المصرى الحافظ النحوى (ت عام ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤م) أحد الائمة وقد صحب الشافعى وتفقه به.

---

(١٨) البويطى نسبة إلى بُويَط، وهى قرية من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر.

فقهاء الشافعية الذين توفوا فى العصر الطولونى :

الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج ، أبو محمد ، الأزدى بالولاء، المصرى الجيزى ، توفى عام (٢٥٦ هـ/ ٨٦٩م) بالجيزة. وهو صاحب الشافعى، ولكنه كان قليل الرواية عنه ، وإنما روى عن عبد الله بن الحكم كثيرا . وكان ثقة ، روى عنه النسائى .

إسماعيل بن يحيى المُزَنى ، أبو إبراهيم المصرى (١٧٥ ـ ٢٦٤هـ/٧٩١ـ ٨٧٧م) وهو إمام الشافعيين، وأعرفهم بطرق الشافعى وفتاويه، صنف كتبا كثيرة فى مذهب الامام الشافعى منها : «الجامع الكبير» ، «والجامع الصغير» ،و «مختصر المختصر» وغير ذلك . قال فيه الشافعى : لو ناظر الشيطان لغلبه[١٩].

يونس بن عبد الأعلى ، أبو موسى الصدفى المصرى، المقرىء ، الفقيه (ت سنة ٢٦٤ هـ/ ٨٧٧م) ولد سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م. قرأ القرآن على ورش. وحدث عن ابن وهب والشافعى وتفقه عليه وانتهت إليه رياسة العلم وعلو الاسناد فى الكتاب والسنة - وكان أحد الشهود بمصر - أقام شاهدا ستين عاما- وقال النسائى : ثقة - وكان يروى للشافعى قوله :

ماحك جلدك مثل ظفرك	فتول انت جميع أمرك
وإذا قصدت لحاجة	فاقصد لمعترف بقدرك

الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل ، المرادى بالولاء ، أبو محمدالمصرى (ت سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣م) صاحب الامام الشافعى ، وراوى أكثر كتبه - وكان مؤذنا بجامع الفسطاط - وكان يدرس فيه، ثم استدعاه أحمدبن طولون إلى التدريس فى مسجده لما بناه ، وكان أول من أملى الحديث بجامع ابن طولون -

---

(١٩) والمزنى ـ بضم الميم وفتح الزاى وبعدها نون ـ هذه النسبة إلى مزينة بنت كلب، وهى قبيلة كبيرة مشهورة.

قَحْزَم بن عبد الله ، أبو حنيفة الأسوانى (ت عام ٢٧١ هـ/ ٨٨٤م) وهو من أصل قبطى . وكان من جلة أصحاب الشافعى، وكان مقيما بأسوان، يفتى بها ويدرس.

ومن الفقهاء الشافعية الذين توفوا قبل العصر الاخشيدى :

محمد بن عثمان بن إبراهيم الدمشقى .أبو زرعة (ت عام ٣٠٢ هـ/ ٩١٤م) . ولى قضاء مصر عن أحمد بن طولون عام ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م وكان أول قاض يتولى القضاء فى مصر على مذهب الامام الشافعى .

عبد الله بن محمد بن جعفر القزوينى ، أبو القاسم (ت عام ٣١٥ هـ/ ٩٢٧م) . سكن مصر ، وأخذ عن يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان المرادى ، وكانت له حلقة للفتوى بمصر .

محمد بن على المصرى . أبو بكر المعروف بالعسكرى (ت عام ٣١٧ هـ/ ٩٢٩م) . والعسكرى نسبة إلى العسكر . فكان مفتى أهل العسكر . روى عن يونس بن عبد الأعلى والربيع بن سليمان .

ومن فقهاء الشافعية الذين توفوا فى العصر الاخشيدى :

الحسين بن أبى زرعة الدمشقى ، أبو عبد الله (ت عام ٣٢٧ هـ/ ٩٣٨م) وهو ابن القاضى الشافعى محمد بن عثمان ، أبو زرعة . وقد تولى قضاء مصر والشام .

محمد بن بشر بن عبدالله الزبيرى ، أبو بكر (ت عام ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣م) .

محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى ، أبو رجاء (ت عام ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦م).

عبد الرحمن بن سلمويه الرازى (ت عام ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) . وكان قد قدم إلى مصر وتفقه بها وأفتى ودرس فى جامعها العتيق .

إبراهيم بن احمد بن اسحاق المروزى . أبو اسحاق الفقيه الشافعى (ت عام ٣٤٠ هـ/ ٩٥١م) بمصر . وكان إمام عصره فى الفتوى والتدريس وانتهت إليه الرياسة بالعراق ، وقد انتقل إلى مصر فى أواخر عمره ، وكان يجلس فى مجلس الشافعى .

محمد بن إبراهيم بن الحسين، أبو الفرج البغدادى المعروف بابن سكره (ت عام ٣٤٢ هـ/ ٩٥٣م) سكن مصر ، وحدث بها .

محمد بن احمد بن محمد ، أبو بكر بن الحداد (٢٦٤ ـ ٣٤٤ أو ٣٤٥ هـ/ ٨٧٧ ـ ٩٥٥ أو ٩٥٦ م) أحد ائمة الشافعية ، تولى القضاء والتدريس بمصر ، ومن كتبه : كتاب « الفروع» فى المذهب، وكتاب الباهر فى الفقه، فى مائه جزء، وكتاب جامع الفقه، وكتاب أدب القضاء فى أربعين جزءا (٢٠).

عبد الله بن محمد بن الحسين، أبو بكر الخصيبى الأصبهانى(ت عام ٣٤٨هـ/٩٥٩م). له كتاب فى الفقه يسمى «المجالسة». وكان قد تولى قضاء مصر عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م.

٣ـ مذهب أبى حنيفة :

نسبة الى أبى حنيفة، النعمان بن ثابت(٨٠ـ١٥٠هـ/٦٩٩ ـ٧٦٧م)، وكانت له مؤلفات كثيرة منها :كتاب الفقه الأكبر ـ كتاب الردعلى القدرية ـ كتاب العالم والمتعلم.

ولم ينتشر مذهب أبى حنيفة فى مصر كما انتشر مذهب مالك، فتقول الدكتورة سيدة كاشف: أما المذهب الحنفى فيظهر أن احدا من أهل مصر لم يذهب اليه اذ ذاك إلا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة، وخاصة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذى ولى قضاء بغداد بعد (سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة، ولم يقلد

---

(٢٠) والحداد نسبة الى احد اجداده الذى كان يعمل الحديد ويبيعه. ،انظر عنه فى الموضوع الخاص بالقضاة.

الخليفة القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من اشار به القاضى أبو يوسف، وطبيعى ألا يولى أبو يوسف أحدا إلا من كان من أصحابه أى ممن يذهب مذهب أبى حنيفة.

وتقول الدكتورة سيدة كاشف أيضا : إنه اذاكان ولى القضاء بمصر فى العصر العباسى قضاة على مذهب أبى حنيفة، إلا أن عامة أهلها لم يتبعوا ذلك المذهب، وانما كان مذهب مالك هو المنتشر بها.

فقهاء الحنفية:

اسماعيل بن اليسع الكندى، الذى ولى القضاء عام (١٦٤هـ/٧٨٠م) من قبل المهدى وكان مكروها من المصريين بسبب مذهبه، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب، حتى إن فقيه مصر الليث بن سعد اضطر إلى أن يكتب إلى الخليفة العباسى، يطلب عزل هذا القاضى فاضطر الخليفة إلى عزل هذا القاضى الحنفى المذهب.

بكار بن قتيبة(١٨٢ ـ ٢٧٠هـ / ٧٩٨ ـ ٨٨٣م)، تولى القضاء بمصر عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م من قبل المتوكل، كان يحدث فى المسجد الجامع بالفسطاط فى فقه أبى حنيفة.

احمد بن ابى عمران، أبو جعفر الفقيه قاضى الديار المصرية (ت عام ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) من اكابر الحنفية، وهو شيخ الطحاوى.

أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى (ت عام ٣٢١هـ /٩٣٣م) وهو ابن أخت المزنى، وكان شافعى المذهب، وذكر ابن خلكان أن سبب انتقاله الى مذهب أبى حنيفة ورجوعه عن المذهب الشافعى، أن خاله المزنى قال له يوما : « والله لا جاء منك شىء». فغضب وتركه، وتحول الى المذهب الحنفى حتى برع فيه، وانتهت اليه رياسة اصحاب أبى حنيفة بمصر. صنف كتبا كثيرة منها :«أحكام القرآن» ، و«اختلاف العلماء» ، و « معانى الآثار» و« الشروط الكبير» و« كتاب الفرائض» وغير ذلك.

وهكذا أصبح بمصر فى تلك العهد مذهبان يتعادلان هما : المالكى والشافعى، ومذهب أقل شأنا تؤيده الخلافة وهو المذهب الحنفى، أما المذهب الحنبلى[٢١] أو المذاهب الأخرى السنية، فلم يكن لها ذكر بمصر اذ ذاك. وكذلك المذاهب التى لا تعد من مذهب أهل السنة مثل : الشيعة والخوارج، فلم يكن لها أثر إلا فى ظروف سياسية معينة، ولكنها لم تعمر طويلا اذ لم يقبل المصريون على مثل تلك المذاهب .

وانقسم المصريون بين فقه الشافعى وفقه مالك انقساما أدى الى أن قاضى مصر عيسى بن المنكدر الذى تولى القضاء (٢١٢ ـ٢١٤ هـ / ٨٢٧ ـ ٨٢٩م) كان يصيح بالشافعى ويقول له :«ياكذا، دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد، ورأيناواحد، ففرقت بيننا، وألقيت الشر، فرّق الله بين روحك وجسدك». وقد قال القاضى هذا للشافعى للخلاف الشديد الذى كان بين آراء الشافعى وآراء مالك، وتعصب المالكية لآرائهم، وتعصب الشافعية لتعاليمهم، فقد كثرت المناظرات بين علماء المذهبين، وكثيرا ما كادت تؤدى هذه المناظرات الى فتن بين المسلمين والى قتال أحيانا ! فقد حدث فى عام ٣٢٦هـ /٩٣٧م أن عاد أصحاب مالك والشافعى الى القتال فى المسجد الجامع العتيق، فلما زاد قتالهم أرسل الاخشيد، ونزع حصرهم ومساندهم، وأغلق الجامع، وكان يفتح فى أوقات الصلوات، ثم سئل الاخشيدفيهم فردهم . ويبدو ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ أن الأمراء الاخشيدين وأتباعهم كانوا يكرهون الشافعية.

---

(٢١) المذهب الحنبلى نسبة الى أحمد بن حنبل، ابو عبد الله (١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م). كان إمام المحدثين، قال عنه الشافعى: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا افضل ولا أعلم ولا افقه من احمد بن حنبل. روى عنه البخارى ومسلم وأبو داود وأبو زرعة وخلق عظيم. وله من الكتب : كتاب المسند ويحتوى على نيف وأربعين الف حديث، وكتاب العلل، وكتاب التفسير، وكتاب وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب الفرائض، وكتاب طاعة الرسول وغير ذلك.

التصوف والمتصوفون : (٢٢)

ظهر التصوف فى مصر منذ القرن الأول للهجرة. والتصوف ـ كما يقول ابن خلدون ـ هو «العكوف على العبادة، والانقطاع الى الله تعالى، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة».

وترجع نشأة التصوف فى الاسلام إلى حركة الزهد العظيمة التى ظهرت تحت تأثير المسيحية فى القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى ـ كما هو واضح من كتب تراجم الصوفية التى تفيض بأخبارهم وأقوالهم .والزهد كما قيل أول مراحل التصوف.

على أننا يجب أن نفرق بين الزهاد الذين ظهروا فى القرنين الأول والثانى للهجرة، وبين المتصوفين الذين ظهروا بعد ذى النون المصرى (ت عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) رائد الصوفية فى مصر، فقد كان له فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية التى نعرفها الآن، والتى تختلف عن صوفية مصر من قبل.

---

(٢٢) وعن معنى كلمة المتصوفون يقول المقريزى:
«واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة قال: وهذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفى وللجماعة الصوفية، ومن يتوصل الى ذلك يقال له متصوفا وللجماعة المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من العربية قياس ولا اشتقاق والاظهر فيه، انه كاللقب. فأما قول من قال إنه من الصوف، وتصوف اذا لبس الصوف، كما يقال تقمص اذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. ومن قال إنهم ينسبون الى صفة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فالنسبة الى الصفة لاتجئ على نحو الصوفى، ومن قال إنه من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة. وقول من قال إنه مشتق من الصف، فكأنهم فى الصف الأول من حيث المحاضرة مع الله تعالى، فالمعنى صحيح لكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة من الصف، ثم ان هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق والله أعلم».
ويقول ابن خلدون: «والأظهر إن قيل بالاشتقاق انه من الصوف، وهم فى الغلب مختصوب بلبسه، لما عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف».

ومن الزهاد والمتصوفين فى مصر :

سليمان بن ابى زينب، أبو الربيع السبأى مولاهم المصرى الزاهد(ت عام ١٣٤هـ /٧٥١م).

المحب بن حذلم، أبو خيرة الرعينى مولاهم المصرى (ت عام ١٣٥ هـ/ ٧٥٢م) قال عنه ابن لهيعة : كان أبو خيرة يقرأ القرآن فى كل يوم وليلة مرتين.

عبد الكريم بن الحارث بن يزيد الحضرمى المصرى، ابو الحارث الزاهد، أحد الأولياء، كان ثقة، وتوفى ببرقة عام ١٣٦هـ / ٧٥٣م.

عبد الرحمن بن ميمون الزاهد، من موالى أهل المدينة وسكن مصر (ت عام ١٤٣هـ / ٧٦٠م).

العلاء بن كثير القرشى، مولاهم الاسكندرانى المصرى الزاهد (ت عام ١٤٤هـ/٧٦١م).

سهيل بن حسان، أبو السمحاء الكلابى المصرى الزاهد (ت عام ١٤٧هـ/٧٦٤م).

عميرة بن ابى ناجية، أبو يحيى الرعينى مولاهم المصرى الزاهد (ت عام ١٥٣هـ /٧٧٠م) .

النضر بن عبد الجبار، أبو الأسود المرادى المصرى الزاهد (ت عام ٢١٩هـ /٨٣٤م).

ذو النون المصرى، ابو الفيض، ثَوْبَان بن إبراهيم الاخميمى (ت عام٢٤٥هـ/٨٥٩م).

بُنان بن محمد بن حمدان الحمال، أبو الحسن الزاهد (ت عام ٣١٦هـ/٩٢٨م).

محمد بن أحمد بن القاسم، أبو على الروذبارى البغدادى الزاهد. توفى بمصر عام ٣٢٢هـ/٩٣٣م.

على بن محمد بن سهل ، أبو الحسن الدينورى الزاهد (ت عام ٣٣١هـ/٩٤٢م).

أبو الخير الأقطع (ت عام٣٤٣هـ/ ٩٥٤م).

الحسن بن أحمد، أبو على الكاتب المصرى (ت عام٣٤٣هـ/٩٥٤م).

على بن جعفر البغدادى المتصوف.

محمد بن أحمد بن سهل، أبو بكر الرملى النابلسى وكان يكره الفاطميين حتى يروى أنه قال :لو كان معى عشرة أسهم، رميت الروم بسهم، ورميت بنى عبيد بتسعة! فلما سمع بذلك المعز صاحب مصر فى ذلك الوقت قتله، وكان ذلك فى عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م.

رابعا : الدراسات اللغوية والنحوية :

وقد ازدهرت الدراسات النحوية واللغوية والعربية لما لها من صلة وثيقة بعلوم القرآن والحديث، فهى مفتاح لفهم القرآن والسنة، وأداة لفهم الاحكام.

ومن نحاة مصر:

عبد الرحيم بن على – وقيل ابن فخر – بن هبة الله النحوى الأديب (ت عام٧٩هـ/٦٩٨م) بإسنا . كان نحويا شاعرا، نظم كتابافى النحو سماه «المفيد».

عبد الرحمن بن داود المدنى الملقب بالأعرج صاحب أبى هريرة، قيل إنه أول من وضع العربية بالمدينة. وقد جاء الى مصر، وتوفى بالاسكندرية عام ١١٧هـ/٧٣٥م.

سرج الغول. وهو رجل من أهل مصر، عالم باللغة، يعرف بلقبه، قال عنه الربيع بن سليمان :كان لا يقول أحد شيئا من الشعر إلا عرضه عليه. وكان الشافعى يقول : ياربيع ادع لى سرجا ، فيأتى به، فيذكره ويناظره. وعندما يقوم سرج الغول يقول الشافعى : ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم.

عبد الملك بن هشام، أبو محمد المعافرى(ت عام ٢١٨هـ/٨٣٣م) كان إماما فى اللغة والنحومتقدما فى علم النسب، وهو صاحب السيرة النبوية.

ابو الحسن الأعز عدّه الزبيدى من الطبقة الأولى من النحويين واللغويين المصريين، أخذ عن على بن حمزة الكسائى(٢٣)، ولقيه قوم من أهل الاندلس وحملوا عنه وذلك فى عام ٢٢٧هـ/٨٤١ م.

---

(٢٣) وهو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان، احد الائمة فى القراءة والنحوواللغة، وهو من أهل الكوفة، واستوطن بغداد، وروى الحديث وصنف الكتب. وتوفى عام ١٨٢هـ/ ٧٩٨م وقيل عام ١٨٣هـ/ ٧٩٩م وقيل عام ١٨٩هـ/ ٨٠٤م وقيل عام ١٩٢هـ/ ٨٠٧م.

الوليد بن محمد التميمى الشهير بولاد . توفى بمصر عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م، أصله من البصرة ونشأ بمصر، ثم رحل الى العراق فى طلب العلم وعاد الى مصر، ومعه كتب أهل العراق فى النحو واللغة، ويقال إنه هوالذى أدخل اليها كتب النحو واللغة، وكان تلميذا للخليل بن أحمد (٢٤)

القاسم بن عيسى، أبو الفضل النحوى (ت عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣ م) قال عنه ابن يونس : إنه كان عالما بالنحو واللغة.

محمود بن حسان، أبو عبد الله النحوى (ت عام ٢٧٢هـ/٨٨٥م) قال عنه ابن يونس فى تاريخ مصر : كان نحويا مجوِّدا، روى عن أبى زرعة المؤذن وعبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحاق.

عبد الله بن فزارة، النحوى، أبو زهرة(ت عام ٢٨٢هـ /٨٩٥م).

داودبن محمد بن صالح النحوى المروزى، أبو الفوارس (ت عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م)، ذكره ابن يونس فى تاريخ مصر وقال :قدم مصر ومات بها. وذكره الزبيدى فى الطبقة الرابعة من النحويين الكوفيين .

احمد بن جعفر الدِّيْنورى، أبو على (ت عام ٢٨٩هـ/ ٩٠١م) وهو أحد النحاة المبرزين والمصنفين فى نحاة مصر، وقد ألف بمصر كتابا فى النحو سماه «المهذب»، وله كتاب« اصلاح المنطق»، وكتاب«مختصر فى ضمائر القرآن» وغير ذلك.

عبد الله بن عبد العزيز، أبو موسى الضرير النحوى البغدادى. كان يؤدب ولد المهتدى، وسكن مصر، وحدّث بها عن أحمد بن جعفر الدينورى، وله كتاب فى الفرق، وآخر فى الكتابة والكتاب.

---

(٢٤) وهو ابو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد يقول عنه ابن النديم: «وكان غاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس». وكان من الزهاد فى الدنيا، المقطعين الى العلم، ومن كتبه: كتاب «العين» توفى بالبصرة عام ١٧٠هـ/ ٧٨٦م.

محمد بن الوليد بن محمد بن ولاد التميمي (ت عام٢٩٨هـ/ ٩١٠م)وكان قد رحل الى العراق وأقام بها ثمانية اعوام، وأخذ عن المُبَرِّد[٢٥] وثعلب[٢٦] وعاد الى مصر يعلم الناس علوم العربية، ووضع كتابا فى النحو سماه«المنمق».

محمد بن زيد بن يضختويه بن الهيثم البردعى من أذربيجان، نزل مصر واستوطنها، كان كثير العلم، متفننا فى الأدب واللغة والشعر، سمع منه ابو القاسم الطَّبَرَاني[٢٧] بمصر وذلك فى شهر رمضان عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م.

احمد بن اسحاق، أبو طاهر (ت عام ٣٠١ هـ /٩١٣م).

يموت بن المُزَرَّع، أبو بكر (ت عام ٣٠٣ هـ /٩١٥م وقيل عام ٣٠٤هـ/٩١٦ م) عدَّة الزبيدى من الطبقة الثانية من النحويين واللغويين المصريين، وكان قد قدم الى مصر مرارا وآخر قدومه اليها فى عام ٣٠٣ هـ وخرج منها فى عام ٣٠٤هـ .

على بن الحسن الهُنائى الدَّوْسى، أبو الحسن المعروف بِكُرَاع النمل، لقب بذلك لقصره، وكان أحد الأئمة فى اللغة والنحو، وكان معدودا فى أهل

---

(٢٥) وهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير.كان إمام العربية ببغداد. ومن كتبه: كتاب «الروضة» وكتاب «المقصور والممدود»، وكتاب«المذكر والمؤنث» وغيرذلك.
والمبرد لقبه به المازنى ومعناه المُثبِّتُ للحق. ولد عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥م وتوفى عام ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م.

(٢٦) وهو احمد بن يحيى، أبو العباس ثعلب. إمام الكوفيين فى النحو واللغة والفقه والديانة. ومن كتبه: كتاب «اختلاف النحويين» وكتاب «معانى القرآن» وكتاب «المَصُون» فى النحو وغير ذلك. ولد عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م وتوفى عام ٢٩١هـ/ ٩٠٣م.

(٢٧) وهو سليمان بن احمد بن ايوب، ابو القاسم الطَّبَرَانى، كان حافظ عصره، رحل فى طلب الحديث من الشام الى العراق والحجاز واليمن ومصر، وأقام فى الرحلة ثلاثا وثلاثين سنة. ومن أشهر كتبه المعاجم الثلاثة «الكبير» و «الاوسط» و «الصغير».
والطبرانى - بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء وبعد الألف نون - نسبة الى طبرية. ولد عام ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م وتوفى ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

مصر لاقامته بها، أخذ عن البصريين والكوفيين معا، وصنف مصنفات على وزن واحد فى التسمية منها: المُجَرد، المنظم، المُنَجِّد، المُتَنضّد وكان حيا فى عام ٣٠٩ هـ /٩٢١ م فى خلافة المقتدر

محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم، أبو بكر النحوى المعروف بالملطى (ت عام ٣٣٠هـ /٩٤١ م) كان نحويا يعلم أولاد الملوك النحو، كما أنه أم بالجامع العتيق بمصر

احمد بن محمد بن الوليد بن محمد بن ولاّد التميمى، ابو العباس (ت عام ٣٣٢هـ /٩٤٣م) كان بصيرا بالنحو، أستاذا فيه، رحل الى العراق كما رحل إليها والده وجده، وأخذ عن الزجّاج (٢٨) الذى كان يثنى عليه عند كل من قدم اليه من مصر، ويقول لهم: «لى عندكم تلميذ من حاله وشأنه فيقال له: أبو جعفر بن النحاس فيقول: لا، هو أبو العباس بن ولاد» ومِنْ كتبه التى ألفها فى مصر كتاب «المقصور والممدود»

عبد الله بن محمد بن الوليد، أبو القاسم بن ولاّد وهو أخ لأبى العباس أحمد بن ولاد»، الا أنه كان دون أخيه فى العلم

على بن الحسن بن محمد بن يحيى يعرف بعَلاّن المصرى (ت عام ٣٣٧هـ /٩٤٨م)

أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس، يعرف بابن النّحاس، أبو جعفر النحوى المصرى (ت عام ٣٣٨هـ /٩٤٩م) رحل إلى بغداد وأخذ عن الأخفش الأصغر (٢٩)، والمبرد والزجاج، وعاد الى مصر وسمع بها من

---

(٢٨) وهو أبو اسحاق، ابراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج النحوى. ومن كتبه: كتاب الاشتقاق. وكتاب «القوافى» وكتاب «مختصر فى النحو»، وكتاب «شرح أبيات سيبويه» وغير ذلك. توفى ببغداد عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م وقيل عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م وقيل عام٣١٦هـ/ ٩٢٨م.

(٢٩) وهو أبو الحسن، على بن سليمان بن الفضل المعروف بالأخفش الأصغر النحوى. ومن كتبه: كتاب «الأنوار» وكتاب «التثنيه والجمع». وكان قد دخل مصر عام ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م وخرج منها عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م. وتوفى عام ٣١٥هـ/ ٩٢٧م وقيل عام٣١٦هـ/ ٩٢٨م. والأخْفَش ـ بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح الفاء و بعدها شين معجمة ـ وهو الصغير العين مع سوء بصرها.

النسائى والف كتبا كثيرة منها: «إعراب القرآن»و«معانى القرآن»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ»، وكتاب «شرح ابيات سيبويه»، وكتاب فى اختلاف البصريين والكوفيين فى النحو سماه «المقنع»، وكتاب لقبه «بالكافى» فى علم العربية

محمد بن احمد بن على بن ابراهيم بن يزيد بن حاتم (ت عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م)، كان عالما لغويا نحويا ثقة

محمد بن موسى بن ابى محمد بن مؤمن الكندى النحوى، ابو بكر (ت عام ٣٥١هـ/٩٦٢م) كتب الحديث والنحو، وكان رجلا فاضلا صالحا

العباس بن احمد بن مطروح بن سراح بن محمد بن عبد الله الأزدى النحوى، ابو عيسى (ت عام٣٥٣هـ/٩٦٤م) وهو من أهل مصر

ابراهيم بن عبد الله بن محمد النُّجَيْرمىُّ، أبو اسحاق النحوى اللغوى، وكان شاعرا أيضا وذلك فى زمن كافور الاخشيدى(٣٥٥ ـ٣٥٧هـ/٩٦٥ ـ٩٦٧م).

محمد بن اسحاق بن اسباط الكندى، أبو النَّضْر المصرى النحوى، أخذ عن الزجاج، وله كتاب فى النحو سماه «العيون والنُّكت» وكان شيخ أهل الأدب، ومن كتبه أيضا :كتاب «المغنى فى النحو»وكتاب «الموقظ»، وكتاب «التلقين»

محمد بن على بن محمد، ابو بكر الادفوى المقرىء النحوى المفسر ،(توفى عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م) أخذ النحو عن أبى جعفر النحاس، انفرد بالامامة فى قراءة نافع ورواية ورش، وكان يبيع الخشب بمصر، وصنف كتبا كثيرة منها : كتاب فى التفسير يدعى «الاستغناء فى علوم القرآن»

خامسا : التاريخ .

وكان بجانب الحركة الدينية حركة تعنى بتدوين لأحداث التاريخ، وتسلك فى منهجها مسلك المحدثين، فقد كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية الى دراسة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأعمال الصحابة والجماعة الاسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد. وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولا عن طبيعة علم الحديث، اللهم إلا فى هدف كل منهما، ونوع الروايات التى يعنى بها، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تقرر مبادىء فقهية أو خلقية، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه الى سرد الحوادث.وحسبنا دليلا على اشتراك العلمين فى المصادر والمنهج أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذى سبقه، وأن المتن فى كل رواية كان مسبوقا بالسند أو الاسناد، ولذلك نرى من تخصص فى التاريخ أيضا ممن كانت دراستهم أساسها الحديث والفقه.

ونلاحظ أن رواة التاريخ ـ كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ـ كانوا على مر الزمن أقل تشددا من رواة الحديث فى نقد أسانيدهم وأخبارهم، فتقبلوا أخبارا لا تخلو من خيال وأساطير فى وصف عجائب مصر وأخبار أهلها فى عصور ما قبل الفتح، ولذلك يجد الناظر فى المصادر العربية لتاريخ مصر، والتى تناولت ما قبل الفتح وما بعده، صنفين من الأخبار قد يمتزجان، ولكن يختلف أحدهما عن الآخر فى الطبيعة والمنهج، الأول : يدخل فى باب العجائب والاساطير، ومعظمه حكايات عن أحوال مصر وأخبار ملوكها وأهلها فى أزمنة ما قبل الفتح.

والثانى : أحداث ووقائع ومشاهدات، وأكثرها يتناول تاريخ مصر منذ دخول العرب الفاتحين.

وبالمقارنة يتبين أن الصنف الأخير الذى يمثل جانبا واقعيا تجريبيا فى الفكر العربى الاسلامى، إنما يعبر فى الحقيقة عن مقدرة أصيلة مبتكرة لهذا

الفكر، ومقدرة على الملاحظة والوصف والجمع والافادة مما تعلمه العلماء من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، ويفضل هذه المقدرة تبوأ التاريخ وسائر العلوم التى تعتمد عليه مكانا مرموقا فى مؤلفاتهم، وأظهروا فى ميادينها تفوقا ظاهرا وأعمالا رائعة

ومن مؤرخى مصر :

يحيى النقيوسى، أو يوحنا النقيوسى الذى كان أسقفا مصريا لابرشية نقيوس(٣٠) فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى، ومن أهم مآثره : المؤلف الذى وضعه فى تاريخ مصر باللغة القبطية، ويعد من أفضل كتب التواريخ، نظرا لاحتوائه آلاف الحوادث التى جرت أيام الفتح العربى، ومنها ما وقع فى أيامه وشاهده بعينه، وقد ترجم هذا الكتاب من القبطية الى اليونانية فالحبشية، ولكن لم تبق من تراجمه سوى النسخة الحبشية التى نقلها الى العربية الشماس غبريال المصرى الراهب.

هانىء بن المنذر الكلاعى المصرى (ت عام ١٤٧هـ/٧٦٤م). يقول عنه الذهبى : إنه كان إخباريا، علامة بالأنساب وأيام العرب.

سعيد بن عفير، ابو عثمان المصرى المؤرخ (ت عام ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م). كان فقيها، نسابة، إخباريا، شاعرا، صحيح النقل. قال عنه ابن يونس :كان من أعلم الناس بالأنساب، والأخبار الماضية، وأيام العرب والتواريخ.

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصرى، ولد بفسطاط مصر حوالى عام ١٨٧هـ/٨٠٢م وتوفى عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م. وضع

---

(٣٠) ذكر محمد رمزى فى قاموسه أن الافرنج قالوا: إن نقيوس هى البلدة التى تعرف اليوم باسم ابشادى إحدى قرى مركز تلا بمدينة المنوفية اعتمادا على أن اسمها ورد فى كشف الاسقفيات هكذا بشاتى = نقيوس وأن الاسمين لمدينة واحدة كانت قاعدة قسم بروزوبيس. غير أن محمد رمزى يرى بعد البحث أن مدينة نقيوس هى مدينة أخرى غير ابشادى، وأنها قد زالت ومحلها اليوم الكوم الأثرى الكائن بالجهه البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف المعروف عند الأهالى باسم كوم مانوس أو دقيانوس المحرفين عن نقيوس التى اختفى اسمها من القديم.

كتابا باسم «فتوح مصر» يعد من أقدم الكتب التاريخية التى وصلتنا عن مصر الاسلامية.

عمارة بن وثيمة بن موسى الفارسى، أبو رفاعة. ولد بمصر وتوفى بها عام ٢٨٩هـ/٩٠١م صاحب التاريخ على السنين، ولا نعرف عن مصنفه هذا الا ما ذكره المؤرخون من أنه كان مرتبا على السنين، وقد حدّث عن أبى صالح كاتب الليث بن سعد وعن أبيه وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٢٣٧هـ/٨٥١م

الحسن بن القاسم بن جعفر بن دحية، أبو على الدمشقى، من أبناء المحدثين، كان إخباريا، له فى ذلك مصنفات. توفى بمصر عام ٣٢٧هـ/٩٣٨م

سعيد بن البطريق (ت عام ٣٢٨هـ/٩٣٩م) وهو البطريرك الرومى الملكانى أفتيشيوس، نصب بطريركا على الاسكندرية عام ٣٢١هـ/٩٣٣م وقد عنى بالتاريخ، وكتب فيه مؤلفا مشهورا هو «نظم الجوهر»أو«التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» تحدث فيه عن التاريخ منذ الخليقة الى العصر الذى عاش فيه.

احمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية. توفى حوالى عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، ومن كتبه التى وصلت الينا: كتاب المكافأة، وكتاب سيرة أحمد بن طولون، وكتاب سيرة أبى الجيش خمارويه

على بن الحسين بن على المسعودى المؤرخ. نشأ فى بغداد وتوفى فى الفسطاط عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م.وقد استن فى تأليف التاريخ سنة جديدة ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ فصار لا يرتب الحوادث حسب السنين الهجرية، بل جمعها تحت رؤوس موضوعات من الشعوب والملوك والأسرات، وقد تبعه فى هذه الطريقة بعض المؤرخين ولا سيما ابن خلدون. ومن كتبه :كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتاب «التنبيه والاشراف».

ابو سعيد، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المؤرخ المصرى (٢٨١ ـ ٣٤٧هـ/٨٩٤ ـ ٩٥٨م) وهو الذى يعرف اسمه اختصارا بابن يونس صاحب تاريخ مصر، وقد جمع لمصر تاريخين أحدهما، وهو الاكبر، يختص بالمصريين، والآخر وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر.

محمد يوسف بن يعقوب، أبو عمر الكندى (٢٨٣ـ ٣٥٠هـ/٨٩٦ ـ ٩٦١م)ومن أعظم مؤلفاته «كتاب الولاة» و«كتاب القضاة». ولعل الكندى أول من أرخ لمصر حسب الولاة، فوضع هذا الفن للمؤرخين بعده. وللكندى كتب أخرى منها :«كتاب الخطط»و«كتاب أخبار مسجد أهل الراية الأعظم»، و«كتاب الموالى» إلاأنها فقدت.

عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب. وهو صاحب كتاب «فضائل مصر»، ومن الأخطاء الشائعة أن هذا الكتاب ينسب الى والده الكندى، غير أنه كتب فى مقدمته أن الذى أمره بتأليفه هو كافور الاخشيدى،وأشار الى والده الكندى بين العلماء الذين جمع من كتبهم ما أمره به كافور، ثم ذكره ثانية بين علماء مصر.

الحسن بن ابراهيم بن الحسين المصرى المؤرخ المعروف بابن زولاق ـ ولد بفسطاط مصر عام ٣٠٦هـ/٩١٨م وتوفى عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م.عنى بتاريخ مصر، ووضع ذيلا لكتاب أمراء مصر وقضاتها للكندى، كما الف كتبا فى«فضائل مصر»وفى«خطط مصر» وفى تاريخ مصر على السنين. وكان ابن زولاق مصدرا هاما من المصادر التى اعتمد عليها المؤرخون من بعده، لذلك أطلقوا عليه لقب «مؤرخ مصر» مما يدل على قيمة كتبه وأخباره الصادقة المتعلقة بمصر.

ومن المؤرخين الذين زاروا مصر :

محمد بن جرير بن يزيد،أبو جعفر الطبرى المحدث الفقيه المقرىء المؤرخ(٢٢٤ ـ ٨٣٨/٣١٠ ـ ٩٢٢م). جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات كلها، بصيرا بالمعانى، فقيها فى الأحكام، عالما بالسنن وطرقها،وصحيحها وسقيمها،

وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفا بأيام الناس وأخبارهم. وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك، وله أيضا كتاب فى تفسير القرآن لم يصنف أحد مثله، وكتاب سماه تهذيب الآثار، إلا أنه لم يتمه، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة. وهو أحد المحدثين الذين اجتمعوا فى أيام أحمد بن طولون وهم :

محمد بن اسحاق بن خزيمة[٣١] ومحمد بن نصر المروزى[٣٢] ومحمد بن هارون الرويانى[٣٣] ومحمد بن جرير الطبرى، ولم يبقى عندهم ما يقوتهم، فاجتمعوا فى بيت، واقترعوا على أن من خرجت عليه القرعة يسأل ! فخرجت على ابن خزيمة، فقال لهم : أمهلونى حتى أصلى، فدق الباب، فاذا بغلام من عند أحمد بن طولون يعطى لكل واحد منهم خمسين دينارا بالاسم، ثم حدثهم فقال : إن الأمير كان نائما بالأمس، فرأى فى النوم أن المحامد جياع، فأنفذ اليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم اذا نفدت فعرفونى.

ويعتبر كتابه «أخبارالرسل والملوك» أول كتب التاريخ الشاملة فى اللغة العربية، وقد بدأه بالخليقة، ووقف فيه عند سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م. والمعروف أنه رتبه على السنين الهجرية، واتبع فيه طريقة الاسناد الى رواة الحوادث بالتسلسل. ويظهر فى تاريخ الطبرى الصلة الوثيقة بين علمى الحديث والتاريخ. والمعروف أن الطبرى محدث قبل أن يكون مؤرخا، وأن تاريخه مكمل فى كثير من النواحى لكتابه الكبير فى تفسير القرآن الكريم.

وقد ارتبط بعلم التاريخ نوعان من العلوم : النوع الأول، وهو فن السير، والنوع الثانى وهو فن القصص.

---

(٣١)وهو محمد اسحاق بن خزيمة بن المغيرة الشافعى. كتب الكثير وصنف وجمع، وكتابه الصحيح من أنفع الكتب وأجلها، توفى عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م.

(٣٢) وهو محمد بن نصر، أبو عبد الله المروزى. رحل الى الآفاق، وسمع من المشايخ الكثير النافع، وصنف الكتب المفيدة منها كتابا عظيما فى الصلاة، توفى عام ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م.

(٣٣) وهو محمد بن هارون الرويانى، أبو بكر صاحب المسند المشهور، ذكر أن له تصانيف فى الفقه. توفى عام ٣٠٧هـ/ ٩١٩م.

وبالنسبة للنوع الأول، وهو فن السير، فيقوم على رواية حوادث حصلت لصاحب السيرة لابراز شخصيته، أو ناحية من نواحى شخصيته، فسيرة الشخص هنا ليست ترجمة تامة لحياته منذ ولادته الى وفاته، بل هى رواية شيء من افعاله أوأقواله أوعن علاقته بمعاصريه دون ترتيب زمنى، ولكنها كافية لأن تعطينا صورة صادقة عن هذا الشخص. ولذلك ففن السير يعتبر فرعا من علم التاريخ.

ولقد استأثرت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه باهتمام المؤرخين منذ صدر الاسلام، فكانت الكتب التاريخية الأولى تبحث فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وغزواته، وتجمع أخبار هجرة المسلمين الى الحبشة والى المدينة، وأخبارغزوات النبى صلى الله عليه وسلم والذين اشتركوا فيها.

ومن مؤلفى السيرة النبوية:

محمد بن اسحق (ت عام ١٥١هـ/٧٦٨م) صاحب المغازى والسير، وقد وفد على مصر، وروى فيها سيرته.

عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى (ت عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م وقيل عام ٢١٣هـ/٨٢٨م). نزيل مصر، مهذب السيرة النبوية، فقد سمعها من زياد البكّائى[٣٤] صاحب ابن اسحق، ونقحها، وحذف من اشعارها جملة. وقد وثقه ابن يونس. ومن كتبه : السيرة ـ شرح ما وقع فى أشعار السيرة من الغريب ـ أنساب حمير وملوكها.

محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد الزهرى المصرى، أبو عبد الله، ابن البرقى (ت عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م). كان يحدث بالمغازى، قال عنه النسائى : لا بأس به . وقال ابن يونس :ثقه.

---

(٣٤) ـ وهو زياد بن عبد الله بن الطفيل البكّائى ويكنى أبا محمد. سمع المغازى من محمد بن اسحاق، وقدم بغداد فحدثهم بها وبالفرائض وغير ذلك، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها عام ١٨٣هـ/ ٧٩٩م.

ولم يقتصر التأليف فى السير على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمغازى، وانما تعددتها الى سير الملوك والوزراء.

ومن المؤرخين الذين ألفوا فى سير الملوك والوزراء والأمراء :

عبد الله بن عبد الحكم (ت عام ٢١٤هـ/٨٢٩م) فقد كتب«سيرة عمر ابن عبد العزيز» ثم رواها عنه ابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو عبد الله (المتوفى عام ٢٦٨هـ/٨٨١م).

احمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية (توفى حوالى عام ٣٤٠هـ/٩٥١م) فقد كتب «سيرة أحمد بن طولون»، و«سيرة أبى الجيش خمارويه»،و«سيرة هارون بن أبى الجيش»،و«أخبار ابراهيم بن المهدى» .

الحسن بن ابراهيم بن الحسين المصرى المعروف بابن زولاق (٣٠٦ ـ ٣٨٧هـ/٩١٨ ـ ٩٩٧م) فقد كتب «سيرة محمد بن طغج الاخشيدى»، وكتاب «سيرة كافور» وكتاب«سيرة الماذرائيين»،وكتاب «سيرة جوهر»، وكتاب «سيرة المعز»، وكتاب «سيرة العزيز»، وكتاب «سيرةسيبويه المصرى».

ومن مؤلفى السير الأقباط ساويرس بن المقفع الذى كان أسقفا للأشمونين التى تقع بين المنيا وأسيوط فى الوجة القبلى، وكان من العلماء العاملين، قضى حياته فى التأليف والترجمة.

وبالنسبة لتاريخ وفاته تقول الدكتورة سيدة كاشف :«نحن لا نعرف وفاة ساويرس، ولكن يتضح لنا مما كتبه فى سير الآباء البطاركة أنه عاش حتى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، أى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وفى أواخر القرن العاشر الميلادى.»

وأشهر الكتب التى تركها كتاب «تاريخ البطاركة» أو«سير الآباء البطاركة»، وكان قد جمعه باللغة القبطية من السجلات التى بدير أبى مقار ببرية شيهات،وبدير نهيا بالجيزة، وبدير وادى هبيب (وادى النطرون)، وغيرها من الأديرة.

ويتضح مما كتبه ساويرس أن اللغة العربية كانت هى اللغة السائدة فى ديار مصر فى عصره، وأن غالبية المسيحيين فى مصر أصبحوا يجهلون اللغة القبطية، فيذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة فى ترجمة الوثائق القبطية واليونانية الى العربية، وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كان لهم دراية باللسان القبطى أو اليونانى. وقد اتم كتاب ساويرس من أتى بعده من الكتاب والأساقفة، ولكن الكتاب ينسب الى ساويرس، ولعل ذلك ـ كما ترى الدكتورة سيدة كاشف ـ يرجع الى أن ساويرس كان أول من تكبد جمع السير والوقوف عليها وترجمتها. ويعتبر كتاب ساويرس من نوع كتب التراجم المعروفة فى التاريخ الاسلامى، ولكنه خاص بتراجم البطاركة فى مصر من أيام ظهور المسيحية فيها زمن الامبراطور الرومانى أغسطس قيصر الى بداية حكم الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م.

وبالنسبة للنوع الثانى من العلوم المرتبطة بالتاريخ فهو فن القصص :

وقد استحدث القصص فى صدر الاسلام، وصورة هذا القصص أن يجلس القاص فى مسجد، وحوله الناس، فيذكرهم بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاعن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك، لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب.

قال الليث بن سعد : هما قصصان : قصص العامة وقصص الخاصة، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، فذلك مكروه لمن فعله ولمن سمعه، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية حين ولى رجلا على القصص فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل، وحمده ومجّده، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه ولجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة.

ولقد ارتفع شأن القصص حتى أصبح عملا رسميا، يعهد به الى رجال رسميين، يعطون عليه أجرا.

وكان بمصر من القصاص:

سليم بن عتر التجيبى وكان أول من قص بمصر عام (٣٩هـ/٦٥٩م)، وعندما ولاه معاوية القضاء عام (٤٠هـ/٦٦٠م)جمع بين القضاء والقص

عبد الرحمن بن حجيرة الذى جمع مع القضاء القصص(٦٩ ـ ٨٣هـ/٦٨٨ ـ ٧٠٢م)، وكان رزقه من القصص مائتى دينار.

عقبة بن مسلم التُّجَيبْى، ابو محمد المصرى (ت عام ١٢٠هـ/٧٣٧م) إمام جامع عمرو،وكان يتولى القصص.

توبة بن نمر بن حرمل الحضرمى. تولى القصص بالجامع بعد عقبة وذلك فى عام (١١٨هـ/٧٣٦م) وهكذا جمع له القضاء والقصص، لأنه تولى القضاء عام ١١٥هـ/٧٣٣م.

خير بن نُعَيْم بن مرة الحضرمى المصرى. جمع له القضاء والقصص(١٢٠ ـ ١٢٨هـ/٧٣٧ ـ ٧٤٥م).

الجُلاَح ابو كثير الأموى المصرى (ت عام ١٢٠هـ/٧٣٧م) وهو مولى عبد العزيز بن مروان، وقد جعله عمر بن عبد العزيز على القصص بالاسكندرية.

دَرّاج بن سمعان، أبو السمح المصرى القاص(ت عام ١٢٦هـ/٧٤٣م) وهو مولى عبد الله بن عمرو بن العاص.

عبد الرحمن بن سالم بن أبى سالم الجيشانى (ت عام ١٤٣هـ/٧٦٠م) ولى قضاء مصر والقصص، ثم عزل وولى ديوان الجند.

ابو رجب العلا بن عاصم الخولانى، تولى القصص فى عام ١٨٢هـ/٧٩٨م.

حسن بن ربيع بن سليمان تولى القصص فى جامع عمرو عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م فى زمن المتوكل من قبل عنبسة بن اسحاق والى مصر.

حمزة بن ابراهيم بن أيوب الهاشمى. تولى القصص من قبل الخليفة العباسى المكتفى (٢٨٩ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠١ـ ٩٠٧م)وذلك فى عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م.

أبو الحسن، على بن محمد بن أحمد بن الحسن البغدادى ثم المصرى (ت عام ٣٣٨هـ/٩٤٩م).كان له مجلس وعظ، وله مصنفات كثيرة فى الحديث والوعظ والزهد.

٢ ـ الدراسات الأدبية :

والمقصود بها الشعر والنثر.

أولا : الشعر :

وبالنسبة لظهور الشعر العربى فى مصر يقول الدكتور محمد كامل حسين : من البديهى أن لا ننتظر ظهور الشعر العربى فى مصر بمجرد دخول العرب فيها، فاللغة العربية لم تكن لغة المصريين قبل الفتح، والذين أسلموا من المصريين وعرفوا اللغة العربية كان من الصعب عليهم أن يُعبِّروا بهذه اللغة عن مشاعرهم وأهوائهم فى قالب شعرى عربى، هذا الى جانب أن اتجاه المسلمين فى مصر الى الدراسات الدينية الاسلامية قد صرفهم عن الشعر.

وقد مر الشعر فى مصر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : فترة العصر الأموى، وينتهى بالقرن الثانى للهجرة.

المرحلة الثانية : فترة العصر العباسى، ويضم القرنين الثانى والثالث للهجرة.

وبالنسبة للمرحلة الأولى وهى فترة العصر الأموى فيقول الدكتور محمد كامل حسين : إننا لا نجد فى مصر شعرا له قيمته إلا بعض المقطوعات التى

تسجل الحوادث التى كانت جارية فى البلاد مثل : تنازل عبد الرحمن بن قيسبة عن داره لتكون مسجد الفسطاط، أو هجاء رؤساء القبائل العربية، أو مدح وال لموقف فعله، أو هجاء وال، أو رثاء وغير ذلك. على أننا ـ كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ـ لا نجد شاعراً فى مصر يقف فى صف واحد مع فحول الشعر العربى بالعراق. . .

وهكذا اقتصر شعر هذه المرحلة على وصف الحوادث الجارية فى قالب شعرى، سواء كانت حوادث سياسية أواقتصادية، فهو شعر تقريرى لا غناء فيه من الناحية الفنية، عدا الشعر الذى أنشده الشعراء الوافدون.

وبالنسبة للمرحلة الثانية وهى فترة العصر العباسى، فقد أدى تطور الحياة الأدبية المصرية، لظهور عدد كبير من الموالى ومن العرب الذين حاولوا محاكاة الشعر العربى، الى جانب قيام الثورات ـ فقد أدى ذلك الى ايقاظ روح الشعر فى مصر، فظهر الشعر ذو القيمة الفنية.

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أنه منذ النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ظهر الشعر المصرى(٣٥) الذى تظهر فيه بعض نواحى الشخصية المصرية، فلم يعد شعراء مصر ينشدون فى الحوادث التى وقعت بمصر، أو يفخرون برجال قبائلهم أو هجاء أعدائهم، انما تنوعت أغراض الشعر وتعددت مقاصده، وأسهم شعراء مصر فى كل الأغراض التى عرفها الشعر المصرى.

ومن شعراء مصر فى عصرالولاة :

الشاعر ابن ميّادة المُرىّ، وكذلك الشاعر ابو عثمان السكرى الذى ورد لنا من شعره :

---

(٣٥) لانجد شخصية مصر فى الشعر فى الأوزان، ولا فى القوافى، ولا فى الأسلوب، لأن الشعراء جميعا خضعوا لتقاليد الشعر العربى وخصائصه، بل نجدها فى الأخيلة الشعرية وفى المعانى، فالشعر المصرى صور الحياة المصرية أصدق تمثيل بحث انك اذا قرأت هذا الشعر المصرى لا تستطيع أن تنسبه الى قطر عربى آخر غير مصر.

يا قَيْسَ عَيْلاَنَ إنّى نَاصِحٌ لَكُمُ   أدّوا الخَرَاجَ وخَافُوا القَتْلَ والحَرْبَا
إنّى أحَذّرُكُمْ يَحْيَى وَصَوْلَتَه   فمَا رأَيْتُ لَهُ تقياً اذا غَضِبَا (٣٦)

والشاعر ابو نجاد الحارثى ، والشاعر أحمد الحمراوى.

الشاعر ابو تمام حبيب بن أوس الطائى . (توفى بالموصل عام ٢٢٨هـ/٨٤٢م وقيل عام ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م وقيل عام ٢٣١هـ/٨٤٥م وقيل عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م). وفد على مصر وهو حدث السن، وأقام بالفسطاط يسقى العلماء والمتعلمين الماء فى حلقات الدرس بجامع عمرو، ويقال إن أول شعر أنشده كان فى مصر، لذلك عّده مؤرخو مصر مصرى النشأة والتعليم والشعر، ومع ذلك فحياة أبى تمام فى مصر غامضة كل الغموض، فنحن لا نعلم شيئا عن أساتذته المصريين الذين أخذ عنهم، ولكننا نستطيع أن نقول إنه كان فى مصر فى الوقت الذى نبغ فيه عدد من الشعراء، أمثال : سعيد بن عفير، والمعلى الطائى، ويحيى الخولانى، ويوسف السراج وغيرهم. ومن كتبه : «فحول الشعراء» جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والاسلامية، وكتاب «الاختيارات من شعر الشعراء» وغير ذلك.

وخرج أبو تمام من مصر، ولكنه كان يحن اليها من حين لآخر، فكان يذكرها فى شعره، فهو يقول مرة :

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا   بالرقمتين، وبالفسطاط إخوانى
وما اظن النوى ترضى بما صنعت   حتى تشافه بى أقصى خراسان
خلفت بالأفق الغربى لى سكنا   قد كان عيشى به حلوا بحلوان

الشاعر زرعة بن سعد الله بن ابى زَمَزمة.
الشاعر زياد بن قائد اللَخْمى .

---

(٣٦) والمناسبة التى قيل فيها هذا الشعر هى امتناع أهل الحوف عن اداء الخراج فى ولاية الحسين بن جميل من قبل الرشيد (١٩٠ ـ ١٩٢هـ/ ٨٠٥ ـ ٨٠٧م) فارسل الرشيد جيشا لمحاربتهم بقيادة يحيى بن معاذ.

الشاعر الشمر بن نمير، أبو عبد الله. رحل من قرطبة الى المشرق، واستوطن مصر، روى عنه عبد الله بن وهب (المتوفى عام ١٩٧هـ/٨١٢م) وغيره، وتوفى بها.

سرج الغول، وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة والشعر .

الشاعر سعيد بن عفير. رثى والى مصر عمير بن الوليد (٢١٤هـ/٨٢٩م) بقوله :

سَاقَتْ عُمَيْرَ إلى مصرٍ مَنِيَّتُهُ ... بإمْرةٍ لمْ يَكُنْ فيها بمَسْعُودِ
حَتى أتَتْهُ المَنَايَا وهو مُلْتَحِفُ ... ثَوبَينِ مِن حَبَرَاتِ البأسِ والجُودِ

الشاعر سليمان بن أبان بن أبى حدير الأنصارى ، كان من شعره فى رثاء عبد العزيز بن مروان وابنه الأصبغ :

فَمَنْ ذَا الذى يَبْنى المكَارِمِ والعُلى ... ومنْ ذا الذى يهْدى لهُ بَعْدكَ السَّفْرُ
فَكُنْتَ حَليفَ العُرْفِ والخَيرِ والنَّدَى ... فَمِتْنَ جَميعاً حينَ غَيَّبكَ القَبْرُ

الشاعر عبد الرحمن بن الحكم، والشاعر عيسى بن شافع ، والشاعرالغطريف الحميرى، والشاعر محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، ذو الشامة الذى رثى عبد العزيز وابنه الأصبغ أيضا.

الشاعر محمد بن القاسم، أبو الحسن المعروف بمانى الموسوس. من أهل مصر، ورحل الى بغداد أيام المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦- ٨٦١م)، وصفه ابن زولاق بأنه كان من أظرف الناس وألطفهم. ويقول عنه الأصفهانى : شاعر لين الشعر رقيقه، لم يقل شيئا إلا فى الغزل. ومن شعره :

وقُمْتُ أُناجى القَلْبَ والدَّمْعُ حائرٌ ... بمُقلة موقُوف على الضُّرِ والجَهْدِ
ولم يُعْدنِى هذا الأميرُ بَعْدله ... على ظالمٍ قد لَجَّ فى الهَجرِ والصَّدِّ

وقال أيضا :

فتنفَّسْتُ ثم قُلتُ لطيْفى ... ويك إن زُرْتَ طيْفها إلماما
حَيِّها بالسَّلام سِراً وإلاَّ ... منعوها لشقْوتى أنْ تَناما

ومن الشعراء كذلك في عصر الولاة : الشاعر مرسل بن حمير الذى رثى والى مصر حفص بن الوليد، والشاعر مسرور الخولانى الذى رثى كذلك حفص بن الوليد وأصحابه بقوله .

فَلا خَيْر فى الدُّنيا ولا العَيْش بَعدهُمُ

فكَيف وقد أضحوا بسفح المقطم

الشاعر مُعَلَّى الطائى.

الشاعر معلى بن المعلى الطائى. كان فى مدة هارون الرشيد، ممن عاصر أبا نواس من شعراء المائة الثانية.

شاعر يحيى بن الفضل، وقد ورد لنا من شعره:

بِئْسَ والله مــا صَنَعْتَ إليْنَا	حينَ وَلّيْتَنَا أميراً مُصَابا
خَارِجِيّاً يَدينُ بِالسَّيْفِ فِينَا	ويرى قَتْلَنا جَميعا صَوابَا[٣٧]

ومن الشعراء الوافدين فى عصر الولاة :

الشاعر ايمن بن خُرَيم الأسَدى، دخل مصر أيام عبد العزيز بن مروان(٦٥ـ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ ٧٠٥م).

الشاعر جميل بن عبد الله بن مَعْمَر، أبو عمرو(صاحب بثينة). قدم مصر على عبد العزيز بن مروان مادحا، فأذن له وسمع مدائحه، وأحسن جائزته. وعندما سأله عن بثينة وسمع حكايته وعده بابتناء منزل له ولها، وأمر له بالمنزل وما يصلحه، فما أقام إلا قليلا حتى مات بمصر فى عام ٨٢هـ/ ٧٠١م ومن شعره :

لقد خِفتُ أن يغتالنى الموتُ عَنْوةً	وفى النفس حاجاتٌ اليك كما هيا
وإنى لَتُشْنِينى الحفيظةُ كلّما	لَقِيتُك يوما أن ابثك ما بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى	أظل إذا لم أُسق ريقك صاديا

---

(٣٧) وقد قيل هذا الشعر بمناسبة تولية عنبسة بن اسحاق ولاية مصر من قبل المنتصر (٢٣٨ ـ ٢٤٢هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٥٦م) وكان مشهورا بمذهب الخوارج.

الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات. وفد على عبد العزيز بن مروان فى مصر، وله شعر فى مدحه، ومن شعره الذى ورد الينا :

رُقَىّ بعَيشكم لا تهجرينَا ... ومَنّينا المُنَى ثم امطلينَا
عِدينا فى غدٍ ما شئتِ إنا ... نُحبُّ وإن مَطَلْتِ الواعدينا

الشاعر كُثَيرٌ بن عبد الرحمن، ابو صخر المعروف بكثير عزة. من فحول شعراء الاسلام، من الطبقة الأولى، وفد على عبد العزيز بن مروان، وكان يأتى الى مصر فى زيارات متكررة لرؤية عزة. توفى عام ١٠٥هـ / ٧٢٣م.
ومن شعره :

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفّى غريمَه ... وعزةُ ممطولٌ مُعنًّى غريمهُا

وقال :
لِعَزّة نارٌ ما تَبُوخ كأنها ... اذا ما رمقناها من البعدِ كوكبُ
وقال أيضا :

يُكلِّفها الخِنزيرُ شَتْمى وما بها ... هوانى ولكن للمليك استذلّت

الشاعر نُصَيْب بن رباح، أبو محجن ملى عبد العزيز بن مروان (ت عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م) من الطبقة السادسة من شعراء الاسلام، كان بمصر أيام عبد العزيز بن مروان، وعندما توفى عبد العزيز رثاه بقوله

اصبتُ يومَ الصعيد من سُكَرٍ ... مصيبة ليس لى بها قبلُ
تالله أنسىَ مصيبتى ابداً ... ما اسمعتْنى حنينهُا الإبلُ

الشاعر عمرو بن عبيد المعروف بالحزين الكنانى. وفد على مصر فى ولاية عبد الله بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٠هـ/ ٧٠٥ ـ ٧٠٨م).

الشاعر ربيعة بن ثابت الرَّقّى (ت عام ١٩٨هـ/ ٨١٣ م) وله قصيدة مدح بها يزيد بن حاتم والى مصر عندما جاء اليه فى أثناء ولايته(١٤٤ـ ١٥٢هـ/ ٧٦١ـ ٧٦٩م)، يقول فيها :

لشتَّانَ مابين اليَزيديْن فى النَّدى | يزيد سُليم والأغرُّ ابن حاتم

ومن شعره الذى ورد الينا :

اعتاد قلبَك من حَبيبك عيُدُه | شَوْقٌ عراك فأنت عنه تذُود
والشَّوقُ قد غَلب الفُؤادَ فَقادهُ | والشوقُ يغْلب ذا الهوى فيَقودهُ

الشاعر محمد بن عبد الله بن مسلم، ابن المولى كان مداحا ليزيد بن حاتم، وقد قدم مصر وأنشده بها قصيدة مدح يقول فيها :

ياواحدَ العربِ الذى | اضحى وليس له نظيرُ
لوكان مثلَك آخَرٌ | ما كان فى الدنيا فقيرُ

الشاعر الحسن بن هانىء، أبو على المعروف بأبى نواس (ت عام ١٩٥هـ/ ٨١٠ م وقيل عام ١٩٦هـ/ ٨١١م وقيل عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م) ببغداد، وقد قدم أبو نواس مصر على الخصيب صاحب ديوان خراج مصر عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥م، وقد اتصل هذا الشاعر بالمصريين أكثر من اتصال الشعراء الوافدين، فالمؤرخون يجمعون على أن المصريين عندما علموا بوجوده فى مصر تسابقوا لمصاحبته، وتدوين شعره، لذلك فقد تأثر المصريون به. وقد أقام أبو نواس فى مصر قرابة عام. ومن شعره الذى ورد الينا :

األكل حىٌّ هالكٌ وابنُ هالك | وذو نَسبٍ فى الهالكين عريقِ
اذا امْتُحِنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ | له عن عَدُوٍ فى ثياب صديقِ

ومن شعره أيضا :

يارب ان عظمت ذنوبى كـــثـــرة	فلقـــد علمت بأن عـــفـــوك أعظم
ان كـــان لايدعـــوك إلا مـــحـــسن	فـــمن الذى يرجـــو ويدعـــو المجـــرم
أدعــوك رب كــمـــا أمـــرت تضــرعـــا	فـــاذا رددت يدى فـــمن ذا يـرحـم
مـــالى إليك وســيلة إلا الرجـــا	وجـــمـــيل عـــفـــوك ثم انى مـــسلم

وقال أيضا يخاطب الخليفة محمد الأمين :

بك اســـتـــجـــيـــر من الردى	مـــتـــعـــوذا من سطو باسك
وحـــيـــاة رأسك لاأعـــود	لمثلهـــا، وحـــيـــاة راسك
مـــن ذا يـــكـــون أبـــا نـــواســـك	إن قـــتـــلـت أبـا نـــواسـك

الشاعر دِعْبل بن على الخزاعى، أبو عبد الله (ت عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م). دخل مصر فى ولاية المطلب بن عبد الله الخزاعى، ولم توضح لنا المصادر هل كان دخوله مصر فى ولاية المطلب بن عبد الله الأولى (عام ١٩٨هـ / ٨١٣م) وكانت لمدة سبعة أشهر ونصف، أو فى ولايته الثانية (عام ١٩٩-٢٠٠هـ/ ٨١٤ ـ ٨١٥م). على أية حال فقد ولاه المطلب بن عبد الله على أسوان، غير أن دعبل هجاه بعد ذلك، لأنه ـ كما يقول الأصفهانى ـ لم يرض ما كان منه إليه فأنفذ اليه المطلب كتاب العزل مع مولى له وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة، فاذا علاه فأوصل الكتاب اليه، وامنعه من الخطبة، وأنزله عن المنبر، واصعد مكانه

فلما أن علا المنبر، وَتَنَحْنَح ليخطب، ناوله الكتاب، فقال له دعبل : دعنى اخطب، فاذا نزلت قرأته قال : لا، قد أمرنى أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه، فقرأه، وأنزله عن المنبر معزولا

الشعر فى الدولة الطولونية :

وقد استمر تيار الشعر يقوى فى مصر ـ كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ـ حتى كان النصف الثانى من القرن الثالث، أى فى عصر الطولونيين

والأخشيديين، فنرى عددا كبيرا من الشعراء المصريين ويزعم أحد المؤرخين انه راى كتابا قَدرْ اثنتى عشرة كراسة، مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون، فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة، فكم يكون شعرهم، وبالرغم مما فى هذا القول من مبالغة، فلا نغالى اذا قلنا إن عددا كبيرا من الشعراء تجمعوا فى بلاط الطولونيين الذين كانوا أهل بذخ وكرم، وأرادوا أن يجعلوا من مدينتهم التى بنوها(القطائع) مركزا أدبيا شبيها ببغداد، فكثر حولهم الشعراء المتكسبون الذين سجلوا فى أشعارهم مآثر الطولونيين وما شيدوه من مبانى وغير ذلك.

وقد تطورت فنون الشعر وأغراضه فى الدولة الطولونية، اذ ظهر فن جديد فى مصر لم يسبق اليه أحد وهو فن رثاء الدول. وذلك بعد سقوط الدولة الطولونية وهدم الميدان. فقام جماعة من الشعراء المصريين يبكون الدولة الطولونية ويتحدثون عن أيامها السعيدة والمبانى التى انشأتها، وكيف أصبحت بعد هدمها.

ومن الشعراء فى الدولة الطولونية :

الشاعر احمد بن أبى يعقوب ، والشاعراحمد بن اسحق الذى قال يبكى الدولة الطولونية والميدان :

وإذا مـــا أردتَ أعـــجُـــوبة الدّهْرِ ... تراها فـــانظُرْ إلى الميْـــدَانِ
تَنْظرُ البَثُ والهُـــمُـــوَمَ وأنوَا ... عـــاً تَوالَت بهِ مِن الأشْـــجَـــانِ
يَعْلَمُ العَـالِمُ المُــبَـصـُـر أنْ الدّهْرَ ... فـــيـــمَـــا نَرَاهُ ذُو ألْوَانِ
أيْنَ مـا فِـيــه مِنْ نَعـيمٍ ومِنْ عَـيْـ ... شٍ رخىٍّ ونضْــرةٍ وحـــسَـــانِ

والشاعر احمد بن محمد الحبيشى ، والشاعر اسماعيل بن أبى هاشم ، والشاعر جعفر ابن جدار (أو ابن حذار كما يذكره ياقوت) الذى كان وزيرا للعباس بن احمد بن طولون عندما ثار على أبيه، وعندما قبض على العباس، انتقم أحمد بن طولون من ابن جدار، فضرب ثلاثمائة سوط،

وقطع يديه ورجليه من خلاف، ويقال إنه لم تمض أيام حتى مات. وكانت له قصيدة يحرض فيها العباس منها :

اذا هَمَمْتَ فلا ترجْع وقُمْ وثب ... فأنت أرفع من يسمو الى الرُّتَبِ

الشاعر الحسين بن عبد السلام، أبو عبد الله المصرى المعروف بالجمل الأكبر (ت عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م وقيل عام ٢٥٨هـ/ ٨٧١م). من شعراء الفسطاط فى الدولة الطولونية.

يذكر ابن اياس أنه فى أيام أحمد بن طولون تطايرت النجوم، فأحضر أرباب الفلك وسألهم فلم يجيبوا، فدخل عليه «الجمل» وأنشده هذه الأبيات:

قالوا تساقطت النجومُ ... لحادثابدا عسير
فأجبت عند مقالِهم ... بجواب محنتك خبير
هذى النجومُ الساقطاتُ ... رجومُ أعداءِ الأمير

فتفاءل أحمد بن طولون بذلك، وأخلع عليه خلعة سنية.

كما مدح أحمد بن المدبر صاحب خراج مصر، وكانت من عادته أن الشاعر اذا مدحه إن ارتضى شعره وَصَلَه، وإن لم يرتضه أمر من يحمله الى المسجد حتى يصلى عددا معلوما يفرضه عليه، فرفع له هذه الأبيات المشهورة :

قَصَدْنا فى أبى حَسَنٍ مديحاً ... كما بالمدح تُنْتَجعُ[38] الوُلاةُ
فقالوا يقبل المِدحاتِ لكن ... جوائزَه عليهن الصلاةُ
فقلت لهم وما تغنى صَلاتى ... عيالى إنما الشأن الزكاةُ
فيأمر لى بكسر الصَّاد منها ... فتصبحُ لى الصِّلاَ ةُ هى الصِّلاتُ

فاستطرف مقصده، وأمر له باحسان واشتهرت الحكاية.

الشاعر سعيد القاص ومن شعره فى رثاء الدولة الطولونية والميدان :

وكَأنَّ الميدانَ ثَكْلَى اصِيبَتْ ... بحبيب صباح ليْلة عُرْس

---

(٣٨) انْتَجَعَ فلانا: أتاه طالبا معروفه.

العباس بن أحمد بن طولون. يقول عنه ابن سعيد : إنه كان له شعر يدخل به فى شعراء الملوك والأمراء.

عبد الله بن محمد، أبو العباس الناشئ (ت عام٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) أقام ببغداد مدة، ثم رحل عنها ودخل مصر، وأقام بها حتى مات، وكان شاعرا ماهرا، وله شعر جيد.

القاسم بن يحيى بن معاوية المريمى المصرى. من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم، وكان مختصا بخدمة أبى الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون.

الشاعر قعدان بن عمرو. من شعراء أحمد بن طولون، وله قصائد يمدحه فيها.

الشاعر محمد بن داوعود. من الشعراء الذين كانوا ينقمون على أحمد بن طولون ويسبونه، ومن قصيدته التى قالها بعد وفاة أحمد بن طولون :

وَلَمْ تَبكهِ الأرضُون لكنْ تَبسَّمتْ ... سُرُورا ولوْلا مَوتهِ لم تَبْسَّمِ
يُبَشِّرُهُ إِبْليسُ عنْد قُدُومه ... عليه بأحْمَى بُقْعةِ فى جهنَّمَ
لَقَدْ طُهرَتْ الأرْضُ مِن سُوءِ فِعْلهِ ... ومِنْ وَجْهِهِ ذَاكَ الكَريهَ المُورَّمِ

الشاعر محمد بن طشويه ومن شعره فى رثاء الدولة الطولونية والميدان :

مَن لم يرَ الهَدْمَ للميدانِ لم يَرَهُ ... تبارك اللهُ ما اعلاهُ وأَقْدَرهُ
لَوْ أنْ عَيْن الذى أنْشَاهُ تُبْصرهُ ... والحادثاتُ تعُاديهِ لأكْبرهُ

ويقول فى نفس القصيدة أيضا :

دُكّتْ منَاظرُهُ واجْتُثْ جَوْسَقُهُ ... كأنماَ الخسْفُ فاجاهُ فَدمّره
او هَبَّ إعْصَارُ نَارٍ فى جَوَانِبهِ ... فَعَادَ مَعْرُوفُه للعَيْن مُنْكَرَهُ

ثم يقول :

أَيْنَ ابنُ طُولُونَ بانيـه وسـاكنُهُ　　أمـاتَهُ المَلكُ الأعْلَى فـأقْـبَـرَهُ

الشاعر منصف بن خليفة الهذلى، من شعراء أحمد بن طولون، وكانت له قصائد يمدحه فيها، منها :

يَاغُـرَّةَ الدُّنيـاَ الذّي افْـعَـالُه　　غُـرَرٌ بهـا كُلُّ الورَىَ تَتَـعلُّقُ
أَنْتَ الأمـيـرُ علَى الشـام وثغْـرِها　　والرَّقَّـتَيْنِ ومـا حـواهُ المَشْـرقُ
وَإليكَ مِـصـرُ وبَرْقَـةُ وحِـجـازُها　　كُلٌّ إلِيـْكَ فُـؤَادُهُ مُـتَـشَـوِّقُ

ومن الشعراء الذين توفوا قبل العصر الاخشيدى :

منصور بن اسماعيل، أبو الحسن الفقيه (٣٠٤هـ/ ٩١٦م وقيل عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م) بمصر، كان من علماء الفسطاط، دخل بغداد ومدح بها الخليفة المعتز، كان فقيها ولزمه التعريف بالفقيه، وله مقطعلت كثيرة فى الزهد والحِكَم والامثال، منها قوله:

قـالوا العَـمَى منظرٌ قـبـيحٌ　　قلتُ لفَـقْـدى لكم يهـونُ
تالله مـا فى الأنام خَـيْـرٌ　　تأسَى على فَـقْـده العـيـونُ

الشعر فى الدولة الاخشيدية :

وفى العصر الاخشيدى ظهر نوع جديد من فنون الشعر، وهو فن شعر الديارات، فقد كان الشعراء يخرجون الى هذه الأديرة الكثيرة المنتشرة فى مصر، حيث أقيمت هذه الأديرة فى أماكن هادئة عرفت بجمال طبيعتها، فيصفونها ويصفون بعض مظاهر الطبيعة حولها، كما يصفون لهوهم فيها[٣٩].

---

(٣٩) ومن الديارات التى كانت تقصد للشرب وللتنزه فيها: دير القصير (بالقرب من حلوان)، ودير مرحنا (على شاطئ بركة الحبش)، ودير نهيا (بالجيزة)، وديرطمويه (فى الغرب بازاء حلوان).

ومن شعراء الدولة الاخشيدية :

أحمد بن ابى عاصم، أبو هريرة المصرى من شعراء الاخشيد. من أصحاب النوادر والمجون والادمان على شرب الخمر، وله شعر فى وصف مجالس الشرب

أحمد بن صدقة الكاتب.

أحمد بن محمد بن اسماعيل بن القاسم بن ابراهيم بن طباطبا، أبو القاسم (ت عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م وقيل عام ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م). كان شاعرا ماهرا، وله شعر جيد فى الزهد والغزل. ومن شعره الذى ورد الينا :

عَيَّرتْنِى بالنوم جَوْرا وظُلْمَا	قلتُ: زدت الفؤاد همًّا وغمّا
اسمعى حُجَّتى وإن كنت أدرى	أنّ عذرى يكون عندكِ جُرْمَا
لم أنَمْ لذَّة ولانمتُ إلا	طمعا فى خيالكم ان يُلمَّا

ومن شعره أيضا :

ما اخترتُ تبديلَ المودة ساعة	بعد الذى هجر الحمىَ وجفانى
انا ذاك لا عهدى يُغَيَّرُ بالنَّوىَ	ابدا ولا وجهى يميلُ لثانى
واذا وَثِقْتُ بودِّ من احببته	فبعادُهُ ودنُوهُ سيَّانِ

أبو القاسم سعيد المعروف بقاضى البقر كان من شعراء أبى الجيش بن طولون، وكان يبيت عند الاخشيد يحادثه ويسامره.

صالح بن رشدين.

القاسم بن أحمد الرسى، أبو محمد ابن الشاعر ابن طباطبا. كان حسن الشعر، وقد أدرك الدولة الفاطمية.

محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان، أبو رجاء الاسوانى (ت عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) يقول عند الادفوى : إنه كان أديبا فصيح اللسان، وله نظم، ومن نظمه قصيدة ذكرفيها أخبار العالم، وذكر فيها قصص الانبياء نبيا نبيا.

محمد بن عاصم. يذكر ابن اياس أنه فى زمن كافور وقعت زلزلة عظيمة بمصر، فخاف الناس من ذلك وهربوا الى الصحارى، وظنوا أنها القيامة، فدخل محمد بن عاصم الشاعر على كافور وأنشده قصيدة عظيمة من جملتها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها   لكنها رقصت من عدله طربا

فتفاءل كافور بذلك، وأجاز محمد بن عاصم بألف دينار.

ومنْ الشعراء الوافدين فى الدولة الاخشيدية :

محمود بن محمد بن الحسين، أبو الفتح المعروف بكشاجم (ت عام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م) أقام بمصر، ثم رحل عنها، فكان يتشوق اليها، ثم عاد اليها فقال :

قد كان شوقى الى مصر يُؤرِّقنى   فالآن عُدْتُ وعادت مصرٌ لى دارا

ومن كتبه : كتاب أدب النديم، كتاب الرسائل، كتاب ديوان شعره.

أحمد بن الحسين، أبو الطيب المعروف بالمتنبى (٣٠٣ـ ٣٥٤هـ/ ٩١٥ـ ٩٦٥م). كان المتنبى قد وفد على مصر عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م مادحا أميرها كافور الاخشيدى، وأقام بمصر مدة أربع سنوات، اتصل فيها بعدد كبير من شعراء مصر وأدبائها.

ومن أشهر الأدباء الذين اتصل بهم ونقدوه سيبويه، فقد نقد سيبويه بيتا له من الشعر قال فيه :

ومن نكد الدنيا على الحر أن   يرى عدوا له ما من صداقته به

فقال : الصداقة ضد العداوة، والصداقة مأخوذة من الصدق، ولو كان قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن   يرى عدوا له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود

ثانيا : النثر :

والمقصود بالنثر ـ كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ـ الكتابة الفنية التى يتعمد فيها الكاتب الأناقة فى التعبير، ومحاولة السمو بالأسلوب الى مستوى رفيع هو مستوى كتابة الطبقة التى نالت حظا كبيرا من الثقافات المختلفة، وظهر أثر خيالهم وعاطفتهم فى كتاباتهم، فاذا بنا نرى فى هذه الكتابة صورا فنية لا تختلف عن الصور التى فى الشعر فى شىء.

وقد مر النثر فى مصر (خاصة فى فترة دراستنا من الفتح حتى بداية العصر الفاطمى) بمرحلتين:

المرحلة الأولى : وتمتد من الفتح حتى قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م. **والمرحلة الثانية** : وتبدأ مع قيام الدولة الطولونية على يد مؤسسها أحمد ابن طولون.

وبالنسبة للمرحلة الأولى فلم يكن لهم عناية بديوان الانشاء، ويرجع السبب فى ذلك الى أن الولاة لم يكن لهم سلطة تامة فى شئون البلاد إلا بعد مراجعة مركز الخلافة، هذا بالاضافة الى أن اللغة العربية كانت فى محيط ضيق لايتحدث بها إلا قبائل العرب وبعض الموالى، وأن اللغة الرسمية فى مصر كانت اليونانية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها عام ٨٧هـ/ ٧٠٥م. لذلك فلا يوجد لتاريخ النثر الفنى ما يكفى للحديث عنه فى عصر الولاة.

أما بالنسبة للمرحلة الثانية للنثر فى مصر والتى تبدأ مع قيام الدولة الطولونية ، فقد ترتب ديوان الانشاء بها، مع اهتمام أحمد بن طولون به، بحيث نافس به ديوان الانشاء فى بغداد.

وكان من شدة رغبة أحمد بن طولون أن تصدر الرسائل على درجة كبيرة من الاتقان، أنه أنشأ ديوان «التصفح» لمراجعة ما يكتبه كتاب الانشاء.

وأول من تولى ديوان الانشاء الذى رتبه أحمد بن طولون هو :

محمد بن أحمد بن مَوْدود، أبو جعفر المعروف بابن عبد كان. كان كاتبا لأحمد بن طولون ثم لخمارويه من بعده، وهو أول الكتاب المشهورين بمصر، وقد اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة.

وقدتولى ديوان الانشاء بعد ابن عبد كان :

اسحق بن نُصير، أبو يعقوب الكاتب البغدادى(ت عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م). وكان قد وفد على مصر، فاتصل بابن عبد كان رئيس « ديوان إنشاء مصر، والتمس التصرف، فقال له ابن عبد كان : فيماذا تتصرف؟ فقال اسحق : فى المكاتبات والأجوبة والترسل. وكان بين يدى ابن عبد كان كتب قد وردت فقال لاسحق : خذ هذه وأجب عليها. فأخذها ومضى الى ناحية من الدار فأجاب عنها، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام، وقام ابن عبد كان إلى الحجرة التى له، فاجتاز بأبى اسحق والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها، فلما تأملها جعل يروح اسحق بن نصير حتى انتبه، فقال له :عمن أخذت الكتبة؟ وعينه فى الديوان، وأجرى عليه أربعين دينارا فى كل شهر، فلم يزل يعمل معه حتى توفى ابن عبد كان، فآل أمر ديوان الانشاء الى على بن أحمد الماذرائى فقال لاسحق : ألزم منزلك، فانصرف. فوردت كتب، فأجاب عنها الماذرائى، ودخل بها على أبى الجيش خمارويه، فعرض الأجوبة عليه، فقال له خمارويه: ما هذه الألفاظ التى كانت تخرج منى وعنى! فمضى الماذرائى وعاد اليه مرة أخرى، فلم يقبل خمارويه الأجوبة، فاضطر الماذرائى الى استدعاء اسحق بن نصير، وطلب منه أن يجيب عن الرسائل ففعل، ودخل بها الماذرائى على خمارويه، فقرأ الأجوبة التى كتبها اسحق فقال: نعم، هذا الذى أعرف، ايش الخبر؟ فقال له : كاتب كان مع ابن عبد كان فاعتزل. وأحضرته الساعة، فقال : هاته! فأحضره، فجعل له خمارويه مرتبا شهريا قدره أربعمائة دينار، وأمره أن يلازمه. فمكث اسحق بن نصير فى عمله، ورفع رزقه الى ألف دينار فى الشهر.

ومن كُتاب العصر الطولونى أيضا :

محبوب بن رجاء، أبو الضحاك. وقد استكتبه أحمد بن طولون عام ٢٦٤هـ/ ٨٧٧ م. وقال عنه ابن عبد كان : «لم يكن بالكامل، إلا أنه كان حاضر الذهن، حلو الألفاظ».

وقد حبسه أحمد بن طولون وصادر أمواله، حتى مرض مرضه الذى توفى فيه، فأخرجه من السجن، ورد اليه جميع ما كان أخذ منه.

أحمد بن محمد الواسطى الكاتب. دخل مصر مع أحمد بن طولون، وكان كاتبه وموضع سره.

حسن بن مهاجر. أصله من الرقة، وقد استكتبه أحمد بن طولون، وأمرله بمائة ألف دينار، وقد وصفه ابن عبد كان بقوله : «وأما ابن مهاجر، فوقور النفس، مستصغر لنصيحة من ينصحه، بعيد الغور، لا يؤثر على توفير مال صاحبه».

جعفر بن جدار. كان من الكتاب، وقد سبق ذكره فى الشعراء.

أحمد بن أبى يعقوب يو سف بن ابراهيم الكاتب المعروف بابن الداية توفى حوالى عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، كان من جلة الكتاب بمصر، وممن له دراية بعلوم كثيرة فى الأدب والطب والنجامة والحساب وغير ذلك.

جعفر بن عبد الغفار المصرى ويذكر البلوى أنه لم يكن كفئا فى عمله إلا أن أحمد بن طولون كان يحتمله لأنه مصرى.

يعقوب بن اسحق، أبو يوسف. دخل مصر مع أحمد بن طولون، الا أن ابن طولون سجنه بعد ذلك .

أحمد بن أيمن. وقد ذكر البلوى أن أحمد بن طولون قد سجنه لعدم أمانته، وظل فى سجنه حتى مات أحمد بن طولون.

النثر فى العصر الاخشيدى :

وعن النثر فى العصر الاخشيدى تقول الدكتورة سيدة كاشف :« كان حظ النثرالفنى أعظم من حظ الشعر فى العصر الاخشيدى. وكان فى هذا النثر المسحة العراقية، والميل الى السجع، والمزاوجة مع إطناب فى اللفظ، وتكرار المعنى، واقبال على الجمل القصيرة ».

ومن كتاب العصر الاخشيدى :

ابراهيم بن عبد الله النجيرمى، أبو اسحاق. وكان زعيم الكتاب فى هذا العصر، يقول عنه ابن سعيد : «كان عالما بوجوه الكتابة».

على بن محمد بن كلا الذى كان كاتبا للأخشيد و رسوله الى العراق وثقته، وقد قبض عليه الاخشيد فى آخر عام ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م وصادر أمواله هو وأهله.

ومن أدباء العصر الاخشيدى :

سيبويه المصرى، محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى المصرى، أبو بكر. ولد عام ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م وتوفى عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م. يقول عنه ياقوت : كان عارفا بالنحو والمعانى والقراءة والاعراب والاحكام وعلوم الحديث والرواية، وله معرفة بأخبار الناس والنوادر والاشعار والفقه على مذهب الشافعى، جالس ابن الحداد الفقيه الشافعى، وسمع من أبى عبد الرحمن النسائى، وأبى جعفر الطحاوى، وكان يتكلم فى الزهد وأحوال الصالحين، اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والصلحاء، وبلغ ذلك مبلغا جالس به الملوك، وكان يظهر الكلام فى الأسواق فى الاعتزال، ومرض بمرض السوداء حتى توفى.

وهذا بالنسبة لأنواع الدراسات فى المرحلة الأولى من تاريخ الحركة الثقافية فى مصر، وهى الفترة الممتدة من بداية الفتح العربى حتى بداية حركة الترجمة، وكانت الدراسة فيها ـ كما ذكرنا ـ مقتصرة على نوعين

من الدراسات :

النوع الأول : الدراسات الدينية.

النوع الثانى : الدراسات الأدبية.

وسنتناول فى الصفحات القادمة حركة الترجمة وأثرها فى إضافة نوع جديد من الدراسات ـ وهى العلوم الفلسفية ـ الى الدراسات السابقة، مما دفعنا الى اعتبارها بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الثقافية فى مصر.

حركة الترجمة :

وقد بدأت المحاولات الأولى للترجمة خلال العصر الأموى، إلا أنها كانت فى الغالب جهودا فردية، وعلى نطاق ضيق، واقتصرت على العلوم العملية كالطب والفلك، والعلوم العقلية (كالمنطق والفلسفة والهندسة).

وكان خالد بن يزيد بن معاوية ويسمى حكيم آل مروان، أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء الى العربية. فقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر، ولهم إلمام بالعربية، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية الى العربية،فكان هذا أول نقل الى العربية فى الاسلام. كما طلب منهم أن يترجموا له كتب جالينوس فى الطب، فوضع بذلك أساس التعاليم الطبية.

أما عمر بن عبد العزيز فقد اهتم بالدراسات اليونانية أثناء وجوده فى مصر أثناء خلافة سليمان بن عبد الملك، وفى مصر تعرف بابن أبجر مدرس الفلسفة اليونانية فى الاسكندرية، وكان موجودا فى الاسكندرية منذ زمن الفتح.

وقد شجع عمر بن عبد العزيز تعريب كتب الطب، فأمر بنشر كتاب الطب الشرعى الذى نقله الى العربية طبيب البصرة ماسرجويه (٤٠) فى عهد الخليفة مروان بن الحكم وقد وجده فى خزائن الكتب بالشام.

---

(٤٠) ذكره ابن ابى أصيبعة باسم (ماسرجيس) وقال : كان ناقلا من السريانى الى العربى، ومشهورا بالطب، وله من الكتب : كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها ـ كتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها.

وما لبثت حركة الترجمة أن اتسعت فى العصر العباسى الأول فى خلافة المنصور(١٣٦ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٣ـ ٧٧٤م) الذى كان شغوفا بالطب والهندسة ويعتقد بالنجوم.وقد راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث اليه كتاب اقليدس (٤١)، وبعض كتب الطبيعيات، وجمع حوله العلماء، وشجعهم على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى. فهو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية، ككتاب كليلة ودمنة واقليدس.

وقد زادت العناية بترجمة الكتب فى عهد هارون الرشيد(١٧٠ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ـ ٨٠٨م) بعد أن وقع فى حوزته بعض المدن الرومية الكبرى، فأمر بترجمة ما عثر عليه من كتب اليونان. كما نشطت حركة الترجمة فى عهده بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين، وإدرار الأرزاق عليهم.

وفى عهد المأمون (١٩٨ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصة من اليونانية والفارسية الى العربية. ولكى يتم هذا النقل على أكمل وجه أنشأ فى بغداد ما عرف بدار الحكمة أو دار العلم فى عام ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، جمع فيها عددا كبيرا من النساخ والمترجمين، الذين اتقنوا عدة لغات، وألحق بها مكتبة. ومن أغرب ما وصل الينا عن هذا الخليفة أنه ترك الجهاد، وتداخل مع ملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا لقاء أن يرسلوا اليه بالمخطوطات، ممايدل على اهتمامه بنشر الثقافة. كما أخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة، فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث أن ينزل للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة فى القسطنطينية، وكان من بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس فى الفلك، فأمر المأمون بتعريبه وسماه المجسطى (٤٢) .

كما روى ابن النديم أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، فكتب اليه يسأله الاذن فى انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم.

---

(٤١) وهو اقليدس بن نوقطرس بن برنيقس. كان من ابرز المهندسين، وهو أقدم من أرشميدس وغيره من الفلاسفة الرياضيين.

(٤٢) المجسطى : ومعناه الترتيب الكبير فى علم الفلك وكان المرجع المهم فى الفلك عند المسلمين وعند الأوروبيين فى القرون الوسطى.

فأجاب الى ذلك بعد امتناع. فأرسل المأمون لذلك جماعة، منهم : الحجاج بن مطر(٤٣) و ابن البطريق (٤٤) وسلماصاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه اليه، أمرهم بنقله، فنقل.

وكان قسطا بن لوقا(٤٥) يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية الى العربية، كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة.

ولم تقتصر العناية بالترجمة على المأمون، بل عنى جماعة من ذوى اليسار فى عهده بنقل كثير من الكتب الى العربية، عرف منهم : محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم(٤٦)، فقد أنفذوا حنين بن اسحق(٤٧) وغيره الى بلد الروم ، فجاءوهم بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات فى الفلسفة الهندسة والموسيقى والطب، ويذكر ابن النديم أن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن اسحق، وحبيش بن الحسن(٤٨) وثابت بن قرة(٤٩) وغيرهم ـ فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة.

---

(٤٣) الحجاج بن مطر واسمه عبد المسيح بن عبد الله الحمصى. يقول عنه ابن أبى أصيبعة : كان متوسط النقل، وهو الى الجودة أميل.

(٤٤) وهو يحيى بن البطريق وكان لا يعرف العربية حق معرفتها، ولا اليونانية، وانما كان يعرف لغة الروم، وكتابتها، وهى الحروف المتصلة لا المنفصلة اليونانية القديمة.

(٤٥) قسطا بن لوقا البعلبكى، كان فى أيام المقتدر بالله، ويقول عنه ابن النديم : كان بارعا فى علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى، وكان جيد النقل، فصيحا باللسان اليونانى والسريانى والعربى. توفى بارمينية، وله كتب كثيرة.

(٤٦) بنو شاكر. كان لهم الكثير من الكتب.

(٤٧) حنين بن اسحق، ابو زيد(ت عام ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) كان ماهرا فى صناعة الطب، فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية، وله كتب كثيرة.

(٤٨) حبيش بن الحسن الأعسم. كان نصرانيا، وهو ابن أخت حنين بن اسحق وأحد تلامذته، ومنه تعلم صنعة الطب. وكان حنين يقدمه ويعظمه ويرضى نقله.

(٤٩) ثابت بن قرة بن مروان، أبو الحسن ولد عام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م وتوفى عام ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م.

وقد كان من أثر حركة النقل والترجمة، أن ظهر الى جانب العلماء المتخصصين فى العلوم الاسلامية والأدبية علماء آخرون متخصصون فى العلوم العقلية عن طريق اشتغالهم بدراسة الكتب التى ترجمت الى العربية.

ومن هؤلاء : ابن الداية الذى يقول عنه ياقوت : إنه كان أحد وجوه الكتاب الفصحاء، والحساب والمنجمين، مجسطى أوقليدسى، حسن المجالسة، حسن الشعر». وهو يشير فى كتابه الى انتفاعه بالثقافة اليونانية، وافادته منها، ويبين أنه مغرم بافلاطون بصفة خاصة ويقتبس من حكمه.

وسنعرض فيما يلى العلوم الفلسفية التى جرى الاهتمام بها فى مصر، وأهم علمائها واسهاماتهم فيها.

أولا : الطب :

كان الطب من العلوم الفلسفية التى إشتغل بها رجال مدرسة الاسكندرية، الا أن الذين عرفوا بمهارتهم فى هذا الفن قبيل الفتح هم جماعة السريان الذين نشطوا فى الاسكندرية وفى الأديرة الخاصة بهم، وكان لهم نشاط علمى ملحوظ، فقد كتب أهرن القس كتاب «الكناش» فى الطب، الذى ترجم الى اللغة العربية بأمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز. وهذا الكتاب من أقوى الكتب الطبية التى اعتمد عليها المسلمون فى دراساتهم الطبية.

وقد استمرت دراسة الطب فى مصر بعد الفتح العربى، خاصة عند اليهود والنصارى، وذلك بتشجيع الخلفاء لهم، حتى إننا نلاحظ أنه فى الوقت الذى كانت تصدر فيه أوامر الخلفاء بعدم استخدام أهل الذمة فى الأعمال التى تخص الدولة، كان يستثنى منها ممارسة الطب، فيذكر أبو المحاسن أن الخليفة المقتدر وخاصة فى عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م أثناء ولاية عيسى النوشرى على مصر ـ أمر الا يستخدم أحد من اليهود والنصارى الا فى الطب والجهبذة.

ومن الأطباء فى مصر :

الطبيب يحيى النحوى (يوحنا) : كان أسقفا فى بعض كنائس مصر، وقد شاهد فتح مصر وأكرمه عمروبن العاص. يقول عنه ابن أبى أصيبعة فى كتابه : إنه كان طبيباحكيما، وله مصنفات كثيرة فى الطب وغيره. وقد عرف بيحيى النحوى لأنه بدأ بدراسة علم النحو فنسب اليه واشتهر به، كما درس علم اللغة والمنطق.

الطبيب السريانى أريباسيوس :شاهد فتح العرب لمصر، وترك عدة أبحاث طبية، وعرفه الباحثون المسلمون باسم «صاحب الكنانيش»، وترجم له الى اللغة العربية سبع مقالات عن علل النساء.

الطبيب عبد الملك بن ابجر الكنانى : كان طبيبا عالما ماهرا، وكان فى أول أمره مقيما فى الاسكندرية لأنه كان المتولى فى التدريس بها، وقد أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز عندما كان أميرا، فلما أفضت اليه الخلافة، نقل تدريس الطب الى انطاكية وحران وتفرق فى البلاد. وكان عمربن عبد العزيز يعتمد على ابن أبجر فى صناعة الطب.

الطبيب بليطيان : كان طبيبا مشهورا بديار مصر، نصرانيا، وفى خلافة المنصور(١٣٦ ـ١٥٨هـ/ ٧٥٣ ـ ٧٧٤م) صيربطريركا على الاسكندرية. وفى أيام الخليفة الرشيد(١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٨م) اعتلت جاريته بعلة عظيمة، فعالجها الأطباء فلم تشف، فبعث الرشيد الى عبيد الله بن المهدى ليختار له من أحذق أطباء مصر، فأرسل اليه بليطيان فعالجها وشفيت. وتوفى بليطيان فى عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م.

الطب فى الدولة الطولونية :

عرف فى الدولة الطولونية نظام «الكونسلتو» الموجود فى الوقت الحاضر، والمقصود به ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف عن البلوى ـ أن الطبيب اذا رأى حالة مستعصية كان يرى من الأفضل أن يجتمع عدد من الأطباء

للوصول الى رأى، كما نفعل نحن اليوم. ويذكر البلوى أن كل طبيب كان له أعوان ومساعدون كان اسمهم (الشاكرية)، وكان وظيفتهم دق العقاقير وعجن الأدوية حسب أمر الأطباء، أو نفخ النار تحت الأدوية المطبوخة. وكان الأطباء يقومون بتركيب الأدوية اللازمة للمريض، كذلك كانت لهم وسائلهم فى الفحص والعلاج، كما كانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة التى يتناولها أثناء مرضه.

ومن الأطباء فى الدولة الطولونية :

الطبيب سعيد بن توفيل :

وقد اختلفت المصادر فى اسمه، فمنهم من قال سعيد بن نوفل، ومنهم من قال سعيد بن توفيل. على كل حال فقد كان طبيبا نصرانيا، وكان فى خدمة أحمد بن طولون من أطباء الخاص يصحبه فى السفر، وقد تغير عليه قبل موته، فدعا بالسياط فضربه مائتى سوطا وطاف به على جمل، ونودى عليه : هذا جزاء من ائتمُن فخان، ومات بعد يومين، وذلك فى سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م بمصر. وقيل فى عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م.

الطبيب هاشم بن سعيد بن توفيل :

وهو ابن الطبيب سعيد بن توفيل ويقول عنه ابن أبى أصيبعة: إنه كان «حسن الصورة، زكى الروح، حسن المعرفة بالطب.فتقدم أحمد بن طولون الى سعيد أول ما صحبه أن يرتاد متطببا يكون لحرمه، ويكون مقيما بالحضرة فى غيبته، فقال له سعيد : لى ولد علمته وخرجته، قال : أرنيه . فأحضره، فرأى شابا رائقا، حسن الأسباب كلها، فقال له أحمد بن طولون: ليس يصلح هذا لخدمة الحرم، احتاج لهن حسن المعرفة، قبيح الصورة. فأشفق سعيد أن ينصب لهم غريبا فينبو عنه[٥٠] ويخالف عليه، فأخذ

---

(٥٠) ينبو عليه الأمر أو الصاحب .لم ينقد له.

هاشما وألبسه دراعة (وهى جبة مشقوقة المقدم) وخفين ونصبه للحرم». وقد تمكن هاشم من الحرم باصلاحه لهم ما يوافقهم من عمل أدوية الشحم والحبل، وما يحسن اللون ويغزر الشعر، حتى قدمه النساء على سعيد (٥١).

الطبيب سعيد بن البطريق :

وكان طبيبا نصرانيا من أطباء فسطاط مصر، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم. وقد عين بطريركا على الاسكندرية سنه٣٢١هـ/ ٩٣٣م وتوفى عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م وله كتب فى الطب.

الطبيب عيسى بن البطريق :

وكان عيسى أخا لسعيد بن البطريق، وكان طبيبا نصرانياعالما بصناعة الطب علمها وعملها، وكان مقامه بمدينة مصر القديمة، وظل بها الى أن توفى.

الطبيب على المطبب المعروف بالديدان :

ويذكرابن الداية فى كتاب المكافاة أنه صحب رجلا من المسلمين الذين اشتغلوا بالطب، واسمه على المطبب المعروف بالديدان وأن هذا الطبيب «كان حسن المعرفة بكتب افلاطون ورموزه، مبرزا فى الطب».

الطبيب الحسن بن زيرك :

وكان طبيبا فى مصر أيام أحمد بن طولون يصحبه فى الاقامة، وتوفى حوالى سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م. يذكر البلوى أنه اشترك فى علاج ابن طولون، وأنه كان يعمد فى تطبيبه، فضلا عن الدواء، الى اراحته وعلاجه نفسيا.

---

(٥١) يذكر البلوى انه لم يكن طبيبا ماهرا، وانه كان احد اسباب موت احمد بن طولون عندما عالجه خطأ.

الطبيب ابراهيم بن عيسى :

كان طبيبا فاضلا معروفا فى زمانه من أطباء بغداد، وقد خدم بصناعة الطب الأمير أحمد بن طولون، وتقدم عنده، وسافر معه الى الديار المصرية، واستمر فى خدمته، وقد أقام فى الفسطاط حتى توفى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م.

الأطباء فى الدولة الاخشيدية :

الطبيب نسطاس بن جريج :

كان نصرانيا عالما بصناعة الطب. وكان فى دولة الاخشيد بن طغج.

الطبيب أبو الفرج البالسى :

كان طبيبا فاضلا متميزا فى صناعة الأدوية المفردة وأفعالها، وله من الكتب كتاب «التكميل فى الأدوية المفردة» ألفه لكافور الاخشيدى. وقد ذكر ابن سعيد فى كتابه طبيبا يسمى «ابن البالسى» وان لم يذكر ترجمة له، فهل كان هو البالسى هذا أم كان ابنا له؟

ومن الأطباء الذين مروا على مصر :

الطبيب محمد بن عبدون الجبلى العذرى من الاندلس، وقد رحل الى المشرق سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م ودخل البصرة ولم يدخل بغداد، وأتى مدينة فسطاط مصر ودبر مارستانها، ومهر بالطب وأحكم كثيرا من أصوله، ورجع الى الاندلس سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

ثانيا : علم النجوم :

كانت الاسكندرية مشهورة بخدمتها لعلم الفلك، وكان فيها من لا يزال يمارس التنجيم، وكان الملوك وحكام البلاد يرسلون من كل أقطار العالم الى رهبان الصحارى لينبئوهم بما فى ضمير الغيب لهم، وكانوا فى ذلك يعتمدون على علم الرهبان بالكواكب أكثر من اعتمادهم على ربانيتهم. وقد ذكرت فى الفصل التمهيدى أن من أكبر علماء الفلك كان اسطفن الاسكندرى، ولا يزال كتابه فى الفلك باقيا.

وبعد الفتح العربى لمصر ظل التنجيم موجودا بها وكان له رجاله ويظهر ذلك بوضوح فى المصادر العربية خاصة عند تولية أمير البلاد.

فيذكر ابن سعيد عن الحسن بن رافع الكاتب أنه عند دخول أحمد بن طولون مصر كانت الناس مجتمعة، وكان من ضمنهم شاب مكفوف فسأله رجل عما يجده فى كتبهم له، فقال : هذا رجل صفته كذا وكذا وهو يتقلد هو وأولاده أربعين سنة. فقال الحسن بن رافع : «فوالله ما تم كلامه حتى مر بنا أحمد بن طولون، فو الله لقد كانت صفته وخلقه وقده وشمائله على ما حكى المكفوف ولم يغادر شيئا منه».

ويذكر ابن سعيد ذلك أيضا عند تولية الاخشيد، فيقول : «وسمعت بعض الشيوخ المصريين من أهل التنجيم يقولون إن الاخشيد دخل إلى مصر بالطالع الذى دخل به أحمد بن طولون».

ويقول الأبشيهى عن كافور إنه فى يوم عندما انتبه من نومه طلب جماعة، وقال : «امضوا الساعة الى عقبة النجارين، واسألوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فان كان حيا، فاحضروه، وان كان قد توفى فسألوا عن أولاده». فوجدوه قد مات، وترك بنتين، احداهما متزوجة والأخرى غير متزوجة. فعندما علم كافور بذلك، اشترى لكل واحدة منهما دارا، وأعطاهما مالا جزيلا، وكسوة فاخرة، وزوج الغير متزوجة. فلما فعل ذلك وبالغ فيه

ضحك وقال : «أتعلمون سبب هذا؟ قلنا : لا . فقال : اعلموا أنى مررت يوما بوالدهما المنجم، وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة، فوقفت عليه، فنظر إلى واستجلبنى. وقال : أنت تصير الى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغا كبيرا وتنال خيرا، ثم طلب منى شيئا، فأعطيته درهمين كانا معى، ولم يكن معى غيرهما فرمى بهما إلىّ وقال : أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين، ثم قال : وأزيدك، أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذكرنى اذا صرت إلى الذى وعدتك به ولا تنسى. فقلت له : نعم، فقال : عاهدنى أنك تفى لى، ولا يشغلك ذلك عن افتقادى، فعاهدته، ولم يأخذ منى الدرهمين.

ثم إنى شغلت عنه بما تجدد لى من الأمور والأحوال وصرت الى هذه المنزلة، ونسيت ذلك. فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام، وقد دخل علىّ. وقال لى : أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك، واتمام وعدك؟ لا تغدر، فيُغدر بك. فاستيقظت، وفعلت ما رأيتم، ثم زاد فى احسانه الى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده ».

وقد ذكرت المصادر العربية إسمين من المنجمين كانوا فى مصر وهما :

ابو الحسن على :

وهو إبنا لأبى سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر، ويذكر عنه ابن كثير أنه كان منجما يرجع اليه أصحاب هذا الفن، كما يرجع أصحاب الحديث إلى أقوال أبيه.

محمد بن إدريس الشافعى :

(ت عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) يذكر ابن الوردى فى تاريخه[٤] أن الشافعى درس علم النجوم وتفوق فيه وكان يحسبه، إلا أنه بعد حادثة ذكرها، أخذ عهدا على نفسه أن لا ينظر فى هذا العلم، ودفن الكتب التى كانت عنده فى النجوم، وأنكر بعد ذلك على أهل الكلام وعلى من يشتغل فيه.

ثالثا : علم تعبير (تفسير) الرؤيا :

يقول عنه ابن خلدون : «هذا العلم من العلوم الشرعية، وهو حادث فى الملة عندما صارت العلوم صنائع، وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا فى السلف كما هو فى الخلف، وربما كان فى الملوك والأمم من قبل، إلا أنه لم يصل الينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام، وإلا فالرؤيا موجودة فى صنف البشر على الاطلاق ولابد من تعبيرها. فلقد كان يوسف الصديق، صلوات الله عليه، يعبّر الرؤيا - كما وقع فى القرآن - (سورة يوسف) وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر رضى الله عنه. والرؤيا مُدْرَك فى مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» وقال :« لم يبق من المُبَشِّرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له»

وقد وُجد فى مصر المعبرون. فتذكر المصادر العربية أن أحمد بن طولون رأى فى منامه كأن الله تعالى قد تجلى ووقع نوره على المدينة التى حول الجامع، إلا الجامع فإنه لم يقع عليه من النور شيء،فتألم وقال : والله ما بنيته إلا لله خالصا، ومن المال الحلال الذى لا شبهة فيه. فقال له معّبر حاذق: هذا الجامع يبقى ويخرب كل ما حوله، لأن الله تعالى قال : فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (٥٢) وقد صح تعبير هذه الرؤيا، فان جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا وبقى الجامع عامرا.

كما تذكر المصادر حلماآخر لأحمد بن طولون، فقد قيل إنه لما فرغ من بناء الجامع رأى فى منامه كأن نارا أنزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله. فلما أصبح، قص رؤياه. فقيل له :أبشر بقبول الجامع، لأن النار كانت فى الزمان الماضى اذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته، ودليله قصة قابيل وهابيل.

---

(٥٢) سورة الاعراف آية رقم ١٤٣ .

وقد ذكر ابن سعيد اسما لأحد هؤلاء المعبرين فى الدولة الاخشيدية وهو محمد بن الحسين المكفوف المفسر، فيقول عنه إنه قال : قال لى الاخشيد: رأيت فى المنام كأنى سلمت الى غلام من غلمانى الكبار شيئا فلم يقم به، ثم نقلته إلى غيره فلم يقم به ، حتى سلمته الى جماعة منهم، ثم سلمته الى كافور، وانتبهت وهو فى يده، فقلت له : هذا الملك يعود الى كافور ويقوم به. فضحك وعجب. فلما نهضت أخذ بيدى غلام، فلما خرجت قال لى الغلام : رأيت مولاى يخاطبك، وينظر إلىّ ويضحك؟! فقلت له : من أنت؟ فقال: أنا كافور. فقلت له : أبقى الله عزك، إن هذا الملك ستملكه واذكرنى.

رابعا : علوم السحر :

وعنها يقول ابن خلدون: «هى علوم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية : والأول هو السحر، والثانى هو الطلسمات. ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر، ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره، كانت كتبها كالمفقود بين الناس ..... وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين، وفى أهل مصر من القبط وغيرهم».

ويذكر ابن النديم أن السحر كان موجودا فى مصر، وأن الكتب المؤلفة فيه كثيرة.

ويقول المقريزى : «وبالصعيد بقايا سحر قديم».

وتذكر المصادر العربية، وخاصة الجغرافية منها، المدن المصرية فى الصعيد التى كان بها سحر من قديم الزمن وهى :

أنْصِنَا : بلدة بالصعيد الأوسط وهى المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون. ويقال إنها مطلسمة وأن بها بقية من السحر .

دَلاص : وهى بصعيد مصر من كورة البهنسا على غربى النيل، وهى كانت مجتمع سحرة مصر.

خامسا : علم الصنعة (الكيمياء) :

وصناعة الكيمياء فى هذا العصر كما يقول ابن النديم هى : صنعة الذهب والفضة من غير معادنها.

ويبدو أن صناعة الكيمياء كانت رائجة فى الاسكندرية، فقد ذكرت آنفا أن خالد بن يزيد دعا جماعة من اليونانيين المقيمين بالاسكندرية لينقلوا له كتب الصنعة من اليونانية والقبطية الى العربية.

ومن العلماء المصريين الذين تخصصوا فى علم الصنعة :

ذو النون المصرى :

وهو أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم. وكان متصوفا، وله أثر فى الصنعة وكتب مصنفة، فمن كتبه : كتاب الركن الأكبر، وكتاب الثقة فى الصنعة.

عثمان بن سويد أبو حرى الاخميمى :

من اخميم قرية من قرى مصر. وكان مقدما فى صناعة الكيمياء ورأسا فيها. وله مع ابن وحشية الكلدانى مناظرات، وبينه مكاتبات. ومن كتبه : كتاب الكبريت الأحمر - كتاب الابانة - كتاب التصحيحات - كتاب صرف التوهم عن ذى النون المصرى - كتاب التعليقات - كتاب آلات القدماء - كتاب الحل والعقد - كتاب التدبير - كتاب التصعيد والتقطير - كتاب مناظرات العلماء ومفاوضاتهم.

أبو العباس، أحمد بن محمد بن سليمان :

وقيل إنه من أهل مصر. ولم يتأتى الينا أنه صح له الصنعة .

سادسا : علم الهندسة :

أبو كامل شجاع بن أسلم بن محمد بن شجاع الحاسب :

من أهل مصر ، وكان فاضلا حاسبا عالما، وله من الكتب : كتاب الفلاح ـ كتاب مفتاح الفلاح ـ كتاب الجبروالمقابلة ـ كتاب العصير ـ كتاب الطير ـ كتاب الجمع والتفريق ـ كتاب الخطائين ـ كتاب المساحة والهندسة ـ كتاب الكفاية.

سعيد بن كاتب الفرغانى المهندس :

وهو الذى تولى فى عهد أحمد بن طولون بناء العين التى بالمعافر، وبناء مقياس النيل، وجامع ابن طولون ـ كماذكرت فى موضع سابق.

وقد وصفه البلوى بأنه «رجل نصرانى، حسن الهندسة، حاذق فيها»، ويرى الدكتور زكى محمد حسن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق، لأنه لو كان من مصر لما أغفل البلوى أو المقريزى أن ينص على أنه قبطى، ولو كان بيزنطى الأصل لقيل إنه رومى. ولا يبعد أن يكون مهندس الجامع قد جاء الى مصر فى ركاب أحمد بن طولون، أو أن ابن طولون أرسل فى استدعائه عندما عقد العزم على تشييد الجامع وغيره من الأبنية.

ولاشك أن هندسة بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس الطولونى أتى من سامرا، أو كان خبيرا بما ازدهر فيها من العمارة والفنون.

الرحلات العلمية والتبادل الثقافى :

وقد كانت هناك حركة دائمة للعلماء، فمصرى يرحل الى المدينة، ومدنى الى الكوفة، وكوفى الى الشام، وشامى الى هنا وهناك وهكذا.

وكان السبب فى هذه الرحلات العلمية أن الصحابة العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين فى أشياء

وينقص فى أشياء أخرى، اذ كان بعض الصحابة يغيبون عن مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الأوقات التى يحضر فيها الآخرون وبالعكس، فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه. فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة فى الاقاليم، أصبح كل اقليم متأثرا بالصحابة الذين علّموا فيه، فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة الى التفقه على علماء الأقاليم الاسلامية الأخرى، فكثرت الرحلة الى الأمصار المختلفة وتقابل العلماء فى مختلف الجهات. فالرحلة ـ كما يقول ابن خلدون ـ لابد منها فى طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.

وهكذا عملت هذه الرحلات العلمية على التبادل الثقافى وبالتالى توحيد الوطن العلمى .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه الرحلات العلمية كانت من أسباب عدم ظهور شخصية مصر فى كتب العلماء المصريين فى العلوم العربية، وبمعنى آخر أن هذه الرحلات الكثيرة كانت سببا فى ألا تتمايز العلوم العربية بتمايز الأقطار حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشارقة وكتب المغاربةإلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم.

ومن علماء مصر الذين رحلوا لطلب العلم :

ابو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق :

ويقال إنه أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث، وقد توفى سنة١٨٤هـ/ ٨٠٠م.

زكريا أبو يحيى الوقار المصرى :

كان من موالى قريش، وقيل من موالى عبد الدار وروى عن ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم وكان مختصا بابن وهب. وقد ذهب الى افريقيةسنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م علّم فيها، ثم عاد الى مصر، وتوفى بها سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م وقيل ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م.

أحمد بن حازم المعافرى المصرى. توفى بالأندلس.

الحارث بن يزيد الحضرمى المصرى :

(ت عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م) نزيل برقة. وثقه أبو حاتم وغيره، قال الليث : كان يصلى كل يوم ستمائة ركعة.

محمد بن بشير بن محمد المعافرى :

(ت عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م) أصله من جند باجه من عرب مصر، واستوطن قرطبة، فقد ولاّه الحكم بن هشام (١٨٠ـ ٢٠٦هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢١م) القضاء بقرطبة، وقد خرج حاجا فلقى مالك بن أنس فجالسه وسمع منه، وطلب العلم أيضا بمصر.

يزيد بن أحمد بن أبى عبد الرحمن :

من أهل مصر، كان فقيها فيها، وفد على عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ٩٦١م) بقرطبة، فاكرم مثواه.

ومن علماء افريقية الذين تلقوا علمهم بمصر :

البهلول بن راشد :

(ت عام ١٨٣هـ/ ٧٩٩م وقيل عام ١٨٢هـ/ ٧٩٨م) وقد أخذ عنه الليث بن سعد.

محمد بن نظيف البراز الافريقى :

(ت عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م)، فقد أقام بمصر فى طلب الحديث، ومذاكرة العلماء مثل أبى اسحق بن شعبان وغيره وتوفى بمصر.

ومن علماء الأندلس :

عيسى بن دينار :

وقد درس فى مصر وكان لا يتقدمه أحد من قرطبة فى الفتيا، وقد نشر مذهب مالك فى الاندلس وتوفى سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م.

قاسم بن محمد بن قاسم الأموى :

بالولاء القرطبى الفقيه المحدث. وقد قيل إنه زار مصر مرتين وتفقه على الحارث بن مسكين وعبد الله بن الحكم.

عباس بن ناصح، أبو المعلى الجزيرى الاندلسى الثقفى :

(توفى بعد سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) كان من أهل العلم بالعربية واللغة والشعر المجوّدين. وكان قد رحل مع أبيه الى مصر.

محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد المعروف بالأفشين القرطبى :

(ت سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م) كان متصرفا فى علم الأدب والخبر، رحل الى المشرق، ولقى بمصر أبا جعفر الدينورى، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية. وله كتب مؤلفة.

- ومن علماء المشرق :

عبدان أبو محمد بن محمد بن عيسى المروزى :

الفقية الحافظ مفتى مرو، وعالمها وزاهدها، وكان قد ارتحل الى مصر وأقام بها سنين، وقرأ على المزنى والربيع وبرع فى المذهب، ثم رحل الى خراسان ونشر بها مذهب الشافعى وتوفى سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٥م.

محمد بن نصر المروزى الامام ابو عبد الله :

أحد [illegible] ولد ببغداد ونشأ بنيسابور، وأقام بمصر مدة من الزمن، وأخذ الفقه فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى قال عنه: «كان محمد بن نصر عندنا إماما».

وقد قال فيه العلماء :« لم يكن للشافعية فى وقته مثله». وقد رجع من مصر واستوطن سمرقند وتوفى سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م.

محمد بن عبد الله بن ابراهيم، أبو بكر الشافعى محدث العراق :

(ت سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) وقد ارتحل الى مصر للحديث.

الدار قطني، أبو الحسن على بن عمر بن أحمد بن مهدى البغدادى :

وقد ارتحل الى مصر وصنف التصانيف، توفى عام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م.

ونلاحظ أن التبادل الثقافى بين الدول فى تلك الفترة لم يكن يقتصر على الرحلات العلمية التى كان يقوم بها العلماء للاستزادة، وانما كانت للتجارة أيضا دور فى هذا التبادل الثقافى ويظهر ذلك بوضوح من كتاب ابن الداية «المكافأة» فقد ورد فيه قصة تاجر عربى، سافر إلى الهند للتجارة فغرقت سفينته وسائر من معه، ووجد نفسه فى جزيرة من جزائر الهند، فوجده قوم الجزيرة وأحضروه إلى ملكهم الذى قال له: «لقد نفذت الموهبة الخارجة عنك، فما معك من الموهبة الثابتة عليك». فقال له: «معى الكتاب والحساب». فقال الملك: «ما بقى لك، أفضل من الذى ذهب منك، والصواب أن تعلم ابنى الكتاب بالعربية والحساب، فارجوان تعوضك أكثر مما فقدته». وبالفعل علم ابنه العربية والحساب.

الفصل الثانى

الفنون

. التغير الذى طرأ على الفنون فى مصر بعد الفتح العربى.

مراحل الفن فى مصر :

. المرحلة الأولى من الفتح العربى الى العصر الطولونى.

. المرحلة الثانية من العصر الطولونى الى العصر الفاطمى.

. التغيرات التى طرأت على فنون بعض الصناعات :

. زخارف النسيج.

. زخارف الخشب.

.النحت والتصوير.

. عمارة المساجد.

الفصل الثانى

الفنون

كان تغير الفن فى مصر ضرورة تحتمها طبيعة النظام العربى الجديد الذى يدين بالديانة الاسلامية، فظهر ما يعرف بالفن الاسلامى فيها.

غير أن هذا الفن الجديد لم يكن فنا عربيا، بقدر ما كان فنا مصبوغا بالصبغة الاسلامية، فالعرب لم يكن لهم ـ كما يقول الدكتور زكى محمد حسن ـ قبل الاسلام أساليب فنية ناضجة، اللهم إلا فى أطراف شبه الجزيرة حيث قامت الممالك والامارات التى اتصلت بالأمم الأجنبية، وتأثرت بأساليبها الفنية تأثرا كبيرا، كما حدث فى اليمن والحيرة وبلاد النبط والغساسنة، فكان طبيعيا اذن أن يكون نصيب العرب فى قيام الفنون الاسلامية روحيا فحسب، وأن يصبح من العسير أن ننسب اليهم أى عنصر فنى فى العمائر والتحف فى بداية العصر الاسلامى، سواء أكان ذلك فى الشكل أم فى الزخرفة أم فى الأساليب الصناعية، وانما تنسب هذه العناصر إلى الشعوب الأخرى التى تألفت منها الامبراطورية الاسلامية عندما فتح بلادها العرب، والتى كانت لها قبل الاسلام أساليب فنية زاهرة، فكانت هذه الأمم أكبر عون للعرب على خلق فن اسلامى طبعه العرب بطابع دينهم، وظهرت فيه شخصيتهم البارزة، ولكن أساسه مدنيات فارس وبيزنطة وآشور ومصر.

والفن الاسلامى يدين بازدهاره للدولة، فالمثالون والمصورون والمهندسون وغيرهم من رجال الفن إنما كانوا يشتغلون بطلب الأمير وتحقيقا لرغبته، واشباعا لشهواته.ونحن ـ كما يقول الدكتور زكى محمد حسن ـ اذا استثنينا الحاكم فلن نجد للفنون الجميلة رعاة إلا من بلاطه وحاشيته، أو فى الأسر القليلة التى تسكن العاصمة وتعتمد فى معيشتها على الحاكم وبيت ماله، لذلك تنسب فنون المراحل المختلفة فى التاريخ الاسلامى الى الأسرات الحاكمة فيقال : فن أموى، وفن عباسى، وفن طولونى، وفن فاطمى، وغيرذلك.

وعندما فتح العرب مصر كان الفن القبطى بها مزدهرا بما فيه من تقاليد بيزنطية وفرعونية وآشورية وفارسية، فنما الفن الاسلامى وتطورفى مصر من التقاليد القديمة، وباشتراك العمال المصريين، واستمر هذا التعاون بين الفاتحين والمحكومين نحو ثلاثة قرون، ولم يقلل من أهميته قدوم أحمد بن طولون ومعه فريق من الصناع والفنانين العراقيين، فان أثر هؤلاء لم يظهر جليا إلا فى نواح خاصة كالعمارة وزخرفة المبانى، ولم يستطع العرب الاستغناء عن معونة الاقباط إلا حوالى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى حين عم الاسلام مصر، وبعد أن تتلمذ المسلمون مدة طويلة فى مدرسة الصناع الوطنيين، تلقوا عنهم فيها أسرار الصناعة وأصول المهنة.

ويمكن تقسيم الفن فى مصرمنذ الفتح العربى حتى مجيء الفاطميين إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : من الفتح العربى إلى العصر الطولونى. والمرحلة الثانية : من العصر الطولونى إلى العصر الفاطمى.

وتعتبر المرحلة الأولى هى مرحلة تطور الفن فى مصر من الفن القبطى الى الفن الاسلامى، ويطلق عليها مرحلة الانتقال، ويتصف انتاجها بالجمع بين العناصر الفنية القديمة، والميول الاسلامية.ويرى الدكتور زكى محمد حسن أن مصر فى هذه المرحلة كانت تابعة للخلافة الاسلامية فى الفن، بقدر ما كانت تتبعها فى السياسة. إلا أن نشأة الفن الاسلامى فى هذه المرحلةكان يحيط بها شيء من الغموض.

أما المرحلة الثانية وهى التى تشمل فترة الدولة الطولونية، فقد ظهر فيها ما عرف بالفن الطولونى، الذى يعتبر أول مرحلة واضحة فى تاريخ الفن الاسلامى بمصر.

والفن الطولونى لم يكن مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية فى ذلك العهد، ولكنه ـ على تبعيته له واشتقاقه منه ـ كان منافسا له، فقد

استطاع بنو طولون أن يتخذوا لأنفسهم بلاطا كبلاط الخليفة فى سامرا وبغداد إن لم يفقه أبهة وعظمة.

والفن الطولونى فن له صفاته ومميزاته المستقلة فى التاريخ الفنى لمصر، فقد أخذ أصوله عن الفن العراقى الذى ترعرع فى سامرا عاصمة الخلافة.

والزخارف الطولونية كبقية الزخارف الاسلامية تستمد أكثر عناصرها من الأشكال الهندسية، ومن الرسوم النباتية التقليدية حينا، أو التى تقرب من الطبيعة حينا آخر. أما تصوير المخلوقات الحية فقليل الظهور، أما الكتابة فلا تلعب فى الزخرفة الطولونية دورا يستحق الذكر، كما وجدت فى الزخرفة الطولونية عناصر قديمة أو قبطية، اذ لا شك فى أن الفنون القديمة والبيزنطية هى المصدر الذى نقل عنه القبط كثيرا من أصول زخرفتهم.

على أيه حال، سنحاول أن نعرض فى الصفحات القادمة التغييرات التى طرأت على الفنون وزخارف بعض الصناعات كنتيجة طبيعية لطبيعة الحكم العربى الذى يدين بالديانة الاسلامية.

بالنسبة لزخارف النسيج:

فقد حذفت منها الشارات والرموز المسيحية مثل الصليب وغيره، وإن ظلت الزخارف القبطية غالبة على المنسوجات المصرية فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة ـ أى من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى ـ وخير دليل على ذلك قطع المنسوجات التى عثر عليها فى بعض المدن بالوجه القبلى وفى الفسطاط وهى من الصوف أو الكتان، وزخارفها متعددة الألوان، وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة، وفيها أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة. فلم تطبع صناعة النسج فى مصر بطابع اسلامى ظاهر إلا فى العصر الفاطمى (أى ابتداء من أواخر القرن العاشر الميلادى).

وكان العرب منذ الفتح يميلون فى الزخرفة الى العناصر الهندسية والنباتية لكرههم تصوير الانسان والحيوان، وكان هذا الميل نفسه قد بدأ فى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى، فلم يجد المصريون صعوبة كبيرة فى إرضاء الفاتحين، وانتاج التحف الفنية التى تتفق ومزاجهم.

على أن النساجين القبط احتفظوا مدة طويلة فى العصر الاسلامى ببعض الموضوعات الزخرفية التى كان الروم قد نقلوها عن الفرس، كالدوائر المتماسة، أو المنعزلة، وكالحيوانين المتقابلين، أو اللذين يولى كل منهما الآخر ظهره، وتفصلهما شجرة الحياة المقدسة أو شجرة الخلد (Homa) ، التى نجدها فى كثير من الزخارف الايرانية.

وقد كان لحركة التعريب (التى تناولتها فى موضع سابق) دور هام فى تمييزالنسيج الاسلامى عن القبطى، عندما ظهرت الكتابة العربية على المنسوجات منذ القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى.

وقد كانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان، وكان الغرض من هذه الكتابات على الأقمشة الملكية بيان الأمير الذى عملت باسمه، أو الشخص الذى خلعت عليه، اظهارا لرضاء الأمير، أو علامة على تولى احدى الوظائف الكبرى فى الدولة. وقد كانت الكتابات على الطراز تشمل اسم الخليفة وألقابه، وبعض عبارات الأدعية، وكثيرا ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز، واسم الوزير، وصاحب الخراج، وناظر الطراز.

ومن أمثلة ذلك قطعة من النسيج ـ فى مجموعة الأقمشة النفيسة بدار الآثار العربية ـ وجدت فى الفسطاط باسم الخليفة الأمين وعليها الكتابة الآتية: « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعته فى طراز العامة بمصر على يد الفضل بن ربيع مولى أمير المؤمنين ».

وفى دار الآثار العربية أيضا قطعة من الكتان الابيض تشبه كثيرا الأقمشة القبطية، وعليها شريط من زخارف به جامات فيها طيور تقليدية ومنسوج على هذه القطعة بالخط الكوفى البسيط سطر بالحرير الأحمر نصه: « هذه العمامة لسمويل بن موسى عملت فى شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين ».

ومن العلامات كذلك التى ميزت النسيج الاسلامى عن القبطى، ظهور الشريط الزخرفى فى وضع أفقى بدلا من الوضع الرأسى.

ومن الملاحظ بوجه عام أن قوام التصميم فى الزخرفة كان شريطا أفقيا أو أشرطة أفقية من الرسوم، توازيه أو توازيها أشرطة من الكتابة فى بعض الأحيان.

والخلاصة أن العرب فى هذه المرحلة، لم يغيروا شيئا فى الموضوعات الزخرفية التى كانت تزدان بها الأقمشة، إلا فيما يتعلق بالموضوعات الدينية المسيحية، فقد منعوها، كما أنهم حرصوا على أن يضيفوا الكتابة العربية الى العناصر الزخرفية القديمة. فزخرفة المنسوجات التى ترجع الى هذا العصر قبطية بحتة لا يفرقها شيء عن تلك التى نسجت قبل الاسلام، ولولا وجود الكتابة العربية عليها، لما تردد الانسان فى نسبتها الى العصر القبطى.

وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لاتزال تسود صناعة النسج، على أن هناك بعض قطع من النسيج عليها زخارف طولونية أوعراقية ظاهرة. وفى دار الآثار العربية قطع عديدة أغلبها سميك ومنسوج فيه رسوم طولونية المسحة. ويوجد فى المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية فى مصر وفى البلدان الأجنبية قطع عديدة ترجع زخرفتها الى عصر الانتقال من الطراز القبطى الى الطراز الفاطمى، ويصعب فى بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية، بينما يندر وجود القطع التى عليها زخارف طولونية بحتة تجعل من اليقين نسبتها الى العصر الطولونى.

أما صناعة الخشب، فقد ورث الفن القبطى مهارة قدماء المصريين فى صناعة الخشب، ونقش الزخارف عليه. وتطورت هذه الصناعة على يد النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطى، فزادت الزخارف فى مصنوعاتهم الخشبية زيادة أكسبتها رونقا وجمالا.على أن التقاليد القبطية فى صناعة الخشب أخذت تتطور شيئا فشيئا بعد الفتح الاسلامى حتى أصبحت فى العصر الفاطمى صناعة اسلامية حقة.

وقد وصلت الينا قطع خشبية ترجع الى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة فى القرن السابع والصناعة الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى، ونقوش هذه القطع مكونة من أوراق وعناقيد عنب وزخارف نباتية، وغير ذلك من النقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر المسيحى، وبعض القطع المذكورة لا نكاد نميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية.

وفضلا عن ذلك، فلا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل كثير من قطع الأثاث القبطية كالدواليب والموائد، ولعلهم أخذوا عنهم أيضا الكرسى الذى يحمل عليه المصحف، والذى يعرفه القبط باسم منجليه(أى محل الانجيل).

أما بالنسبة للتصوير، فقد أجمع المسلمون من سنيين وشيعيين على كراهية النحت وتصوير الأحياء، لما فيهما من تقليد الخالق عز وجل، ولما ورد فى الحديث من أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا تصوير، ومن أن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون، ومن أن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم.

ويذكر الدكتور زكى محمد حسن أن القرآن الكريم لم يأت فيه ما يحرم تصوير المخلوقات الحية أو عمل التماثيل لها، والآية التى كان يفهم منها خطأ أن التصوير محرم فى الاسلام هى قوله تعالى فى سورة المائدة: «ياأيُّها

الَّذِيَن آمنُوا إِنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ولكن الواقع أن المقصود بكلمة «انصاب» في رأى المفسرين هو الأحجار الكبيرة أو الاصنام التى كان العرب يعبدونها ويقدمون لها القرابين، فليس فى هذه الآية اذن أى تحريم للتصوير أو عمل التماثيل.

أما بالنسبة للأحاديث التى نسبت الى النبى صلى الله عليه وسلم تحرم تصوير المخلوقات الحية أو عمل تماثيل لها، فان بعض العلماء فى العصر الحديث يعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفكر فى النهى عن التصوير، وأن التصويركان مباحا فى فجر الاسلام، وأن الاحاديث المنسوبة اليه فى هذا الشأن غير صحيحة، وأنها فى الحق لا تمثل إلا الرأى الذى كان سائدا بين علماء الدين فى بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، وهو العصر الذى كتب فيه صفوة العلماء الذين اشتغلوا بجمع الحديث.

ويرى الدكتور زكى محمد حسن أن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، ثم المتمسكين بالدين من الأمويين والعباسيين، نهوا عن تصوير الكائنات الحية ليحموا المسلمين من الأصنام والتماثيل والصور التى قد تقود البسطاء الى نسيان الخالق، أو الى اتخاذها وساطة يتوسل بها الى الله، أو الى عبادتها لذاتها. فقد أبعدوهم عن كل ما من شأنه أن يقربهم الى عبادة الأوثان، فضلا عن أن الفقهاء كانوا يعتبرون عمل الصور والتماثيل محاولة غير لائقة لتقليد الخالق عز وجل. ولكن بعد أن بَعُد عهد العرب بالوثنية وزوال خطرها، فقد أفتى كثير من العلماء المحدثين ـ كالشيخ محمد عبده والشيخ عبد العزيز جاويش ـ بأن التصوير العلمى والفنى لايتعارض مع تعاليم الدين الحنيف. وعلى كل حال، فان الأحاديث المنسوبة الى النبى صلى الله عليه وسلم فى تحريم التصوير كان لها أثر لا سبيل الى انكاره، سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة.

وهكذا فان الفن الاسلامى، بسبب خضوعه لتحريم التصوير، تخلى عن ميدانين عظيمين من ميادين العبقرية الفنية التى امتازت بها الفنون الأخرى،

لاسيما فنون الغرب التى ورثت الأساليب الفنية الاغريقية، وهذان الميدانان هما : النحت، وتصوير اللوحات الفنية على النحو الذى نعرفه فى الفنون الأوربية وفنون الشرق الأقصى.

ومن هنا فان المساجد والأضرحة والعمائر الدينية عموما، وكل مايتصل بها من أثاث، وكذلك المصاحف، خلت فى زخارفها من رسوم الكائنات الحية، ولم تكن فيها صور أو تماثيل يستعان بها فى توضيح تاريخ الاسلام وشرح العقائد الدينية وسيرة أبطال الملة، كما كان الحال فى الدين المسيحى.

على أن الأمر لم يخل من ظهور بعض الصور الاسلامية التى ترجع الى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادى (الثالث والرابع والخامس الهجرى)، وهى محفوظة الآن فى المكتبة الأهلية بفينا، وهى متأثرة بفن التصوير القبطى، وقد كتب عنها الدكتور جرومان وعلق عليها تعليقا علميا وافيا، وذكر ما فيها من شبه بالتصوير القبطى والحبشى.

كما لم يخل من ظهور بعض التماثيل التى اتخذت للزينة فى القصور والبِرك وتفننوا فى عملها من الحجر والجص والذهب والفضة وغيرها.

ففى ترجمة عبد الله بن عبد السلام الشهير بابن أبى الرداد ـ المتولى مقياس النيل بمصر ـ أن الخليفة المتوكل على الله أمر أحمد بن محمد الحاسب بعمارة المقياس بالجزيرة، فحكى ما عمله فى ذلك، وما كتبه من الآيات الكريمة واسم الخليفة على مواضع من المقياس، وكان مما عمله تمثال سَبْع أقامه على أحد الحيطان فيقول : « واتخذت مثال سَبْع من رخام ركبته فى وجه الحائط، فويقة القناة المطل على النيل، على المقدار الذى اذا بلغ الماء ست عشرة ذراعا دخل الماء فى فيه» .

وقد ذكر المقريزى أن باب الصلاة الذى كان يخرج منه أحمد بن طولون من قصره الى مسجده، كان يسمى أيضا باب السباع، لوجود أسدين من جبس عليه.

وبالنسبة لعمارة المساجد :

فقد كانت المساجد الأولى فى الاسلام بسيطة فى تخطيطها، تناسب شعائر الدين الجديد، فكانت قطعة الأرض تحاط بجدران أربعة، وكان السقف يقام على أعمدة مصنوعة من جذوع النخل، أو مأخوذة من الأعمدة الحجرية فى المعابد والكنائس القديمة والمهجورة فى الأقطار التى فتحها العرب.

على أن عمارة المساجد لم تلبث أن دخلتها زيادات ثانوية قد يكون حدوثها تأثيرا مسيحيا. فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن الحنية التى توجد فى صدر الكنيسة، وغالبا الى جهة الشرق.

ويؤيد هذا الرأى الدكتور زكى محمد حسن، على اعتبار أن مؤلفى العرب أنفسهم فطنوا الى أن المحراب متخذ من حنية الكنيسة. وكتب بعض علمائهم فى ذلك، فقد ألف السيوطى رسالة سماها «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب».

كذلك يظن بعض العلماء أن مآذن الجوامع الاسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس. وليس هذا الظن غريبا فى شىء ـ كما يقول الدكتور زكى محمد حسن ـ وإن كان الواقع أن المؤرخين وعلماء الآثار اختلفوا فى تحديدالتاريخ الذى أدخلت فيه المنارات أو المآذن فى المساجد الاسلامية.

الباب الخامس

حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى

- طبقة البنائين.

الفصل الأول : العمائر المدنية .

الفصل الثانى : العمائر الدينية.

الفصل الثالث : العمائر التجارية

طبقة البنائين

كان كل الذين يقومون ببناء العمارة الاسلامية فى مصر من معماريين وبنائين من أهالى البلاد، وهم الأقباط، فلم يشتغل العرب بالعمل بالبناء بعد فتحهم لمصر.

ولقد اشتهرت مهارة المصريين فى صناعة البناء حتى إن العرب لم يقتصروا على استخدامهم فى بناء أبنيتهم فى مصر، بل كثيرا - كما تقول الدكتورة سيدة كاشف - ما استخدموهم فى الأبنية التى أنشئت فى خارج مصر. ففى كتاب قرة بن شريك الى صاحب كورة أشقوة نراه يحدد أجر أحد العمال الذى سيرسل للعمل بجامع دمشق لمدة ستة أشهر. وفى كتاب آخر منه نراه يطلب عدة رجال من أماكن مختلفة للعمل فى بناء قصر الخليفة الوليد بن عبد الملك. وفى كتاب ثالث يطلب أحد العمال، ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر فى جامع بيت المقدس. ونجد كتابا آخر من قرة يختص بالنفقة على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا فى بناء جامع دمشق. ونجد كتابا آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يعملون فى جامع بيت المقدس وفى قصر أمير المؤمنين . وهناك كتب أخرى تختص بالصرف على العمال الذين يعملون فى بيت المقدس أو دمشق أو قصر أمير المؤمنين.

ويذكر البلاذرى أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبد العزيز، عامله على المدينة، يأمره بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه، وكان ذلك فى سنة ٨٧ هـ/ ٧٠٥م، ويقال فى سنة ٨٨ هـ/ ٧٠٦م.

ويبدو أنه كان من العرف أن يعمل الصانع فى البناء طوال اليوم بلا انقطاع، وقد استمر هذا النظام سائدا حتى زمن أحمد بن طولون الذى حدد

ساعة انتهاء عمل صانع البناء بوقت العصر. واستمر هذا النظام، فيقول المقريزى : «ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء، وكان فى شهر رمضان، فقال : متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم؟ اصرفوهم العصر. فصارت سنة الى اليوم بمصر. فلما فرغ شهر رمضان قيل له : قد انقضى شهر رمضان، فيعودون الى رسمهم، فقال : قد بلغنى دعاؤهم، وقد تبركت به، وليس هذا مما يوفر العمل علينا».

الفصل الأول

العمائر المدنية

- العــــــواصم والمدن .
- الجواسق (القصور) .
- المارســــتــــانات.
- الحـــمـــامـــات .
- مصانع الماء - الفسقيات - العيون - القناطر.

الفصل الأول :

العمائر المدنية

العواصم والمدن

كان من الطبيعي بعد فتح العرب لمصر أن يصطبغ كل شيء فيها بالصبغة العربية، وأن تتحول مصر من ولاية بيزنطية الى ولاية اسلامية فى مظهرها وجوهرها، وتتغير تبعا لذلك أهمية الحواضر والمدن، مع انتقال السيطرة من القسطنطينية فى أوربا الى المدينة فى شبه جزيرة العرب، فبعد أن كانت عاصمة مصر هى الاسكندرية، أصبحت هى الفسطاط.

وقد كان من أهم مظاهر هذا التغيير، هو الذى طرأ على بناء وتشييد المدن، وهو تغيير كان يواكب التغيير الذى طرأ على المجتمع المصرى، وتحول فيه تدريجيا من مجتمع يسكن فى مدن قبطية ويتعبد فى كنائس، إلى مجتمع اسلامى عربى يسكن فى مدن عربية، ويتعبد فى مساجد.

كان أول تغيير فى هذا الشأن هو الذى حدث ببناء الفسطاط على يد عمرو بن العاص فى سنة ٢١هـ/ ٦٤١م، وانتقل به كرسى الحكم من مدينة الاسكندرية التى كانت حاضرة مصر لمدة تزيد على تسعمائة عام، ودار إمارة ينزل بها الأمراء والحكام، الى الفسطاط التى احتلت هذا المركز. ولم تزل على ذلك حتى بُنى العسكر بظاهر الفسطاط، فنزل فيه أمراء مصر وسكنوه، وربما سكن بعضهم الفسطاط، فلما أنشأ أحمد بن طولون القطائع بجانب العسكر سكن فيها، واتخذها الأمراء من بعده منزلا، إلى أن انقرضت دولة بنى طولون فصار أمراء مصر بعد ذلك ينزلون بالعسكر خارج الفسطاط، واستمر ذلك حتى بنيت القاهرة فى عهد الدولة الفاطمية.

على أن الفسطاط ظلت المركز الأعظم للحياة المصرية، ولم تكن القطائع والعسكر فى الحقيقة سوى ضاحيتين أو امتدادا لها، مع أن الناس حينئذ كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها، كما اعتبروا القطائع بعد ذلك.

وسنتناول فى الصفحات القادمة اختطاط كل من الفسطاط والعسكر والقطائع، ثم الجيزة وحلوان والعباسة.

أولا : الفسطاط :

عن سبب بناء الفسطاط يقول ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب : إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها، همّ أن يسكنها، وقال : مساكن قد كُفيناها. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء. قال : نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر الى عمرو بن العاص : إنى لا أحب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف. فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط.

وفى رواية أخرى يقول ابن عبد الحكم إن عمر بن الخطاب كتب الى سعد ابن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى، والى عامله بالبصرة، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية - أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت. فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط.

ويرى الدكتور حسن ابراهيم حسن أن تغير عاصمة مصر تحت الحكم العربى كان أمرا طبيعيا، لأن مدينة الاسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الاسكندر، فلم يكن بد من أن تكون الحاضرة - على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب - إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية، ولما لم تكن العرب أمة بحرية، لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة فى نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب، أضف الى ذلك حكمة عمرو فى اختيار موقع الفسطاط، لأنه كان يستطيع من هذا الموقع أن يشرف على قسمى الديار المصرية شمالا وجنوبا، ثم لقربه من الطريق الى بلاد العرب.

هذا بالاضافة ـ كما يقول ستانلى لينبول ـ الى أن الخليفة عمر بن الخطاب ـ الذى لم يكن يحلم فى ذلك الوقت بتأسيس امبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء ـ كان مولعا بأن يكون على اتصال دائم بجيشه فى مصر، إذ كان ينظر إلى البلد التى تم له فتحها على أنها بمثابة ثكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة.

وعن اختيار موقع الفسطاط وسبب تسميتها بالفسطاط يقول ابن عبد الحكم: إن عمرو بن العاص عندما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه(خيمته)، فاذا فيه يمام قد فرّخ، فقال : لقد تحرم منا بمتحرِّم، فأمر به، فأقره كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الاسكندرية، وقالوا : أين ننزل؟ قال : الفسطاط ـ لفسطاطه الذى كان خلفه بدار الحصى (الحصار كما يقول المقريزى)، عند دار عمرو الصغيرة اليوم.

وعن سبب تسميتها بالفسطاط يقول السيوطى عن ابن قتيبة : إن العرب تقول لكل مدينة : فسطاط ! ولذلك قيل لمصر : فسطاط. وذكر حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالجماعة، فان يد الله على الفسطاط. قال ابن قتيبة : الفسطاط المدينة.

أما بتلر فيرى أن الفسطاط مشتقة من لفظ «فساط»، وهو لفظ رومانى "fossatum" كان شائعا فى وقت الفتح على العسكر، وكان الرومانيون فى حصن بابليون اذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه الفساطوم، فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ .

وعن موقع الفسطاط يقول المقريزى : إعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر، كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة، ينزل به المتولى على مصر من قبل القياصرة

ملوك الروم، عند مسيره من مدينة الاسكندرية، ويقيم فيه ما شاء ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية.

ويقول ابن دقماق عن الفسطاط : هى مدينة مستطيلة على ضفة النيل الشرقية، تحط فى ساحلها المراكب، والفسطاط فى الاقليم الثالث، وبينها وبين مدينة القاهرة قدر ميلين.

وتدل أوصاف الخطط وتقدير الأبعاد ـ كما يقول عبد الله عنان ـ على أن موقع الفسطاط القديمة، كان يشغل مسطحا طوله نحو خمسة آلاف متر، حده من الشمال جبل يَشْكُر الذى يقع عليه جامع ابن طولون الآن، ومن الجنوب دير الطين (أو دير مار يوحنا)، وفى وسطه جامع عمرو، ممتدا على ضفة النيل مقابل الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة الروضة، وأن عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر لأن النيل حدّه الغربى. وكان مجرى النيل يومئذعلى ما يظهر أقرب الى الفسطاط من موضعه الحالى.

وعن اختطاط الفسطاط تذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص قد اختط موضع الفسطاط داره وأمر المسلمين أن يحيطوا حول فسطاطه، ففعلوا، واتصلت العمارة بعضها ببعض. وعندما تنافست القبائل بعضها الى بعض فى المواضع، ولى عمرو بن العاص على الخطط ـ كما ذكرت فى فصل سابق ـ معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سمى الغطيفى بن مراد، وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بين القبائل، وذلك فى سنة ٢١هـ/ ٦٤١م.

ويرى محمد عبد الله عنان أنه بتوزيع «الخطط» بين قبائل العرب يبدأ قيام الفسطاط كقاعدة ومدينة اسلامية. وقد نسبت المدينة الى عمرو بن العاص، فقيل : فسطاط عمرو، وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر، فاتخذوها سرير السلطنة.

ويرى محمد عبد الله عنان أنه لم يتح للفسطاط فى عصورها الأولى، ما أتيح لغيرها من قواعد الاسلام من الضخامة والبهاء، لأنها لبثت خلال القرنين الأولين للهجرة، عاصمة لاقليم فقط من أقاليم الخلافة، ومنزلا للحكام المحليين، وقاعدة عسكرية لفتوح أخرى فى الغرب والجنوب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان السبب يرجع أيضا ـ كما تقول د. سيدة كاشف ـ الى عيشة الخشونة التى كانت تغلب عليهم فى أول الأمر، ثم مالبث الرخاء أن طغا عليهم، وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدأوا ينزعون عنهم عيشة البساطة، وينعمون فى حياتهم ومساكنهم.

وسنعرض الآن وصف الرحالة والمؤرخون العرب للفسطاط لنتبين مدى عظمتها. يقول ابن حوقل :«والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها نحو فرسخ، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب فى محالّها، وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام الى ظاهر أنيق، وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة ».

ويقول أيضا : «والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن فى الدارالواحد المائتان من الناس».

وقبل أن نعرض لأسماء بعض الدور فى الفسطاط وموقعها وأسماء الأزقة والشوارع، نقول :إن معظم الدور فى الفسطاط فى بادىء الأمر، كانت ذات طابق واحد، اذ لم يكن هناك داع للارتفاع بالمسكن رأسيا، لتوافر المساحة الأفقية، كما أن عدم موافقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على بناء غرفة، أرادها خارجة بن حذافة فوق داره، تؤكد لنا هذا الأمر.

كانت أول دار بنيت فى الفسطاط هى **دار عمرو بن العاص** : مكان فسطاطه، وهى اليوم عند باب المسجد.

دار عبد الله بن عمرو بن العاص : عند المسجد الجامع، وهى دار كبيرة بناها بنفسه وبنى فيها قصرا على تربيع الكعبة الأولى. وهذا الوصف

يدل على مدى اتساعها بحيث كان يسمح ببناء قصر بداخلها، كما يدل على بساطة تخطيطها على نسق الكعبة فى بداية أمر بنائها.

دار القَنْد : وهى خطة خارجة بن حذافة بن غانم العدوى من الصحابة، وتقع فى غربى دار البركة مع زقاق الأقفال. وكان خارجة أول من ابتنى غرفة بالفسطاط. فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إلى عمرو أن ادخل غرفة خارجة، وأنصب سريرا، وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطَّلع من كُوَاها فاهدمها، ففعل ذلك عمرو، فلم يبلغ الكوى، فأقرها.

وفى رواية ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص: «سلام، أما بعد، فانه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله. والسلام».

دار البِرْكة : وهى دار بناها عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب عند المسجد الجامع، إلا أن عمر بن الخطاب رفض وأرسل اليه يقول : «أنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين». فجعلت سوقا يباع فيها الرقيق ـ كما ذكرت فى موضوع الأسواق.

دار العُمُد : التى اختطها أبو ذَرّ الغِفارى[١]، وكان لها بابان : فى زقاق القناديل، والباب الآخر مما يلى دار بركة.

دار النَّخْلة : وهى كانت لكعب بن يسار بن ضِنَّه العبسى.

دار السلسلة : فى غربى المسجد، وقد بناها عمروبن العاص حين قدم عليه من بنى سهم مَن لم يكن شهد الفتح.

---

(١) أبو ذر الغفارى واسمه جُندب بن جُنادة. اسلم قديما بمكة، وكان من فضلاء الصحابة ونبلائهم وقرائهم. شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرون حديثا، وقد سكن مصر مدة، ثم خرج منها. توفى بالرَّبَذة عام ٣٢هـ/ ٦٥٢م.

دار بنى جُمح : وكان مكانها بركة يجتمع فيها الماء، فقال عمرو بن العاص، خطوا لابن عمى الى جانبى يُريد وهب بن عُمير الجمحى، وهو ممن شهد الفتح فردمت وخطت له.

دار الحَنيةَ ودار الموز: وهما لعبد الله بن سعد بن أبى سرح، أما قصره الكبير المعروف بقصر الجن فقد بناه بعد ذلك فى خلافة عثمان بن عفان(٢٤ ـ ٣٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٥م) وقد أمر ببنائه حين خرج إلى المغرب لغزو افريقية.

دار الفلفل : وهى فى قبلة المسجد الجامع، وقد اختلف المؤرخون فى مالكها، فمنهم من قال : إنه قيس بن سعد بن عبادة عندما ولى البلد من قبل على بن أبى طالب، ومنهم من قال : إنها لنافع بن عبد القيس، ومنهم من قال : إنها لعقبة بن نافع فأخذها قيس بن سعد منه، ومنهم من قال : إنها لسعد ابن أبى وقاص.

على أية حال، فقد سميت بدار الفلفل، لأن أسامة بن زيد التنوخى عندما كان على خراج مصر، إبتاع من موسى بن وردان فلفلابعشرين ألف دينار بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك، ليهديه الى صاحب الروم، فخزنه فى هذه الدار.

دار الرمل : ويقول عنها ابن عبد الحكم إن عقبة بن عامر قد بناها لرَمْلَة بنت معاوية،فكتب اليه معاوية يقول : لا حاجة لنا بها، فاجعلها للمسلمين. وبرملة سميت دار الرمل، لأنهم كانوا يقولون : دار رَمْلَة فحرفت العامة ذلك، وقالوا دار الرمل. وهناك رأى آخر يقول : إنما سميت دار الرمل لما ينقل إليها من الرمل لدار الضرب.

الدار البيضاء : وقد اختطها عبد الرحمن بن عُديّس البلوى، ويقال : بل كانت الدار البيضاء صَحنًا بين يدى المسجد ودار عمرو بن العاص، موقفا لخيل المسلمين على باب المسجد، حتى قدم مروان بن الحكم مصر فى سنة

٦٥هـ/ ٦٨٤م، فبناها لنفسه دارا، وقال : «ما ينبغى للخليفة أن يكون ببلد ليس له بها دار». فبنيت له فى شهرين.

الدار المذهبة : وهى غربى المسجد الجامع بسوق الحمام، وقد أمر ببنائها عبد العزيز بن مروان سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م عندما كان واليا على مصر، ويبدو أنها عرفت بدار الذهب لأنه جُعل لها قبة مذهبة، يقول عنها القلقشندى : اذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفا على بصره. كما كانت تعرف «بالمدينة»، لسعتها وعظمتها، فقد كان يصب لمن فيها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وكان فيها خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها.

دار ابن رمانة : وقد بناها عبد العزيز بن مروان لابن رمانة» فيقول ابن عبد الحكم : كان ابن رمانة مع عبد العزيز بن مروان فى الكتّاب» وكان عبد العزيز قد وهب لابن رمانة خاتما كان له، فلما صار عبد العزيز الى ما صار اليه قدم عليه ابن رمانة من الحجاز، وأخرج له الخاتم فعرفه، وبنى له هذه الدار.

دار بدر الخفيفى : غلام ابن طولون وكانت بالفسطاط، ويقال إن أحمد ابن طولون هو الذى بناها، وقيل اشتراها له، ثم سخط عليه واتهمه بمكاتبة الموفق فقتله بالسياط.

دار المرصدى : وهى التى عند البزازين، وتعرف بدار تحرير الخاصة، كان كافور أمير مصر يسكنها قبل انتقاله الى دار الحرم. ويقال إن بانيها هو محمد بن أحمد الأعور المادرائى المتوفى سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م.

دار الفيل : هى الدار التى على بركة قارون، وكان كافور أمير مصر قد اشتراها، وبنى فيها دارا، ذُكر انه أنفق فيها مائة الف دينار، وقد سكنها فى رجب عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م الى أن مات ودفن بها. وقيل إنه لم يسكن فيها إلا عدة أيام، حتى عمّروا له دار خمارويه المعروفة بدار الحرم فانتقل اليها

وسكنها عام ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م وأقام فيها عشر سنين الى أن توفى عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م. وقيل إن سبب انتقاله من دار الفيل بخار البْركة، وقيل وباء وقع فى غلمانه، وقيل ظهر له بها جان.

دار الضيافة : يذكر المقريزى أن أول من بنى دارا للضيافة بمصر للناس عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى أحد من شهد فتح مصر من الصحابة. وكان ميدان القصر الغربى الذى هو الآن الخرنشف، دار الضيافة بحارة برجوان. وكان أول من اتخذ دار ضيافة فى الاسلام عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره.

هذه أسماء بعض الدور التى بناها العرب بالفسطاط، ومنها يتضح أن الفسطاط كانت مدينة عربية يسكنها العرب فقط.

يقول المقريزى فى كتابه : إن الفسطاط كان به ثمانية آلاف شارع مسلوك، وعند وصف أزقة الفسطاط وشوارعها يقول:«وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة».

وعن الدروب التى بالفسطاط يذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط درب يعرف «بدرب المعاصر»،وموقعه بالمصاصة على يسرة من سلك من سويقة اليهود الى «درب محرس بنانه»، وكان هذا الدرب (أى درب المعاصر) يسكن به «أكابر أعيان المصريين»، مما يشير الى أنه كان من الأحياء الراقية.ومن الدروب أيضا «درب السراجين»، و«درب دار حوى» و«درب الزجاج».

ومن الأزقة التى كانت بالفسطاط «زقاق القناديل»[٢]، ويذكر ابن عبد الحكم أن زقاق القناديل كان يقال له «زقاق الأشراف» لأن عمرا بن العاص كان على طرفه مما يلى المسجد الجامع .وكان يوجد بالفسطاط أيضا «زقاق

---

(٢) عرف بهذا الاسم لأنه كان به منازل الأشراف، وعلى أبوابهم قناديل، وقيل: إنما قيل له زقاق القناديل، لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو بن العاص .

البلاط»، و«زقاق عبد الملك بن مَسْلمة »و« زقاق السمى»، و«زقاق المكى»، و «زقاق ابن رفاعة»، و«زقاق أبى حكيم»، و«زقاق وردان»و«زقاق أشهب» ،و «زقاق حَمْد بن غافق»و «زقاق الموزة»، و «زقاق الأقفال»، و «زقاق ابن لؤلؤ» وكان لؤلؤ من قواد الاخشيد، وكان هذا الزقاق يقابل «زقاق الكلبى»، «وزقاق الروّاسين».

ثانيا : العسكر :

لما سقطت الدولة الأموية وجاءت دولة بنى العباس، اختط العباسيون مدينة العسكر.فقد فر بنو أمية الى مصر وعلى رأسهم مروان بن محمد آخر خلفائهم، فتتبعتهم جيوش بنى العباس الى مصر بقيادة صالح بن على بن عبد الله عباس، وأبى عون عبد الملك بن يزيد، فظفرت به. وقد بنوا فى الموضع الذى عسكروا فيه مدينة، فسميت لذلك بالعسكر، وكان ذلك عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م. ويذكر المقريزى أن هذا الموضع كان فى صدر الاسلام يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوى، وهى كما تقدُم : خطة بنى الأزرق، وخطة روبيل، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم، ثم دثرت هذه الحمراء وصارت صحراء، وعندما جاءت جيوش العباسيين عسكروا فيها، وبنوا فيها مدينة سميت بالعسكر.

وكان اختاط العسكر ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف ـ إما لرغبة العباسيين فى أن يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق اليه غيرهم، وإما لأن مروان ابن محمد كان قد أضرم حريقا خرب جانبا كبيرا من الفسطاط، كما يقال فى بعض الروايات.

وقد بنى أبو عون فيها دارا للامارة، كما بنى مسجدا عرف بجامع العسكر، كما كانت مقرا للشرطة، وقيل لها الشرطة العليا.

وكانت العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة، وفيها بنى أحمد بن طولون بيمار ستانه، كما بنى الجامع المعروف باسمه على جبل يشكر. ولما

بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر، وكانت عمارة عظيمة كما يقول المقريزى.

وكان من أهم الدور التى بنيت بالعسكر الى جانب دار الامارة :

دار كافور الأخشيدى : يذكر المقريزى أنه بناها بالعسكر على بركة قارون، وقد أنفق عليها مائة ألف دينار، وسكنها فى سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، ثم انتقل منها بعد أيام لوباء وقع فى غلمانه من بخار البركة.

قبة الهواء : وهى دار شيدها حاتم بن هرثمة أحد ولاة مصر(١٩٤ ـ ١٩٥هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٠م) من قبل الخليفة الأمين محمد ـ على جبل المقطم، وقد استمرت قائمة حتى عصر الطولونيين. وقد شيدها من الحجارة وغيرها من مواد البناء.

ثالثا : القطائع :

استمر أحمد بن طولون بدار الامارة التى بالعسكر حتى كثرت عساكره وعبيده، وضاقت بهم مدينة الفسطاط فأمر بحرث قبور اليهود والنصارى التى كانت فى سفح جبل يشكر، وبنى مدينة شرقى مدينة الفسطاط وسماها «القطائع» وذلك فى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م. وقد سميت كل قطيعة باسم من سكنها، سواء ممن تجمعهم رابطة الجنسية أو رابطة العمل. «فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم، وبنى القواد مواضع متفرقة».

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن أحمد بن طولون كان حكيما فى إنشاء القطائع، فقد أمكنه بذلك ابعاد جيشه غير المتجانس عن الأحياء العربية المصرية، وتجنب بذلك ما كان ممكنا حدوثه من الشغب بسبب اختلاط جنده بالتجار وغيرهم من سواد الشعب، على نحو ما حدث لجند الخليفة المعتصم فى بغداد، وكان سببا فى انشاء سامرا.

كما يرى الدكتور زكى محمد حسن أن تخطيط مدينة القطائع أو اسمها لم يكن غريبا، اذ كان يشبه الى حد كبير تخطيط سامرا، كما كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامرا التى بناها المعتصم، اللهم إلا القصور الملكية.

وعن موقع القطائع ومساحتها يقول أبو المحاسن : وكان موضعها من قبة الهواء، التى صار مكانها الآن قلعة الجبل، الى جامع ابن طولون وهذا طول القطائع، وأما عرضها فانه كان من أول الرُمَيْلة من تحت القلعة الى الموضع الذى يعرف الآن (أى فى زمان أبى المحاسن) بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين، وكانت مساحة القطائع ميلا فى ميل. وكان تحت قبة الهواء قصر ابن طولون، وموضع هذا القصر الميدان السلطانى الآن تحت قلعة الجبل بالرميلة. وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستانا . ويجاورها الميدان الذى يُعرف اليوم بالْقَبَيْنان، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون المعروف به، ويجوار الجامع دار الامارة فى جهته القبلية، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة المحيطة بمُصَلّى الأمير الى جوار المحراب. وهناك دار الحرم.

وقد عمرت القطائع «عمارة حسنة» كما يقول البلوى، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبنيت فيها المساجد الحسان، والطواحين. والحمامات والأفران، وسميت أسواقها، فسمى منها : سوق العيارين، يجمع فيه البزازين والعطارين، وسوق الفاميين، يجمع فيه الجزارين والبقالين والشوائين. وكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن،وسوق الطباخين، يجمع فيه الصيارفة والخبازين وأصحاب الحلواء. ثم لكل صنف من جميع الصنائع أفرد له سوق حسن عامر. «فكانت هذه المدينة أعمر من مدينة كبيرة من مدن الشام وأكبر وأحسن».

وكانت أهم الدور التى بنيت فى القطائع فى الدولة الطولونية على النحو الآتى :

قصر أحمد بن طولون :

وعن وصف قصر أحمد بن طولون تقول المصادر العربية : وبنى أحمد بن طولون قصره ووسعه وحسنه، وجعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالجة، فسمى القصر كله الميدان من أجل الميدان، فكان كل من أراد الخروج من صغيرأو كبير اذا سئل عن ذهابه يقول: الى الميدان، وقد عمل للميدان أبوابا وسمى كل باب منها باسم وهى: باب الميدان، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وقد ذكر البلوى فى كتابه أن باب الميدان كان يسمى أيضا باب الصوالجة، فى حين أن المقريزى عد باب الصوالجة من ضمن أبواب القصر، على أية حال فقد كان يوجد أيضا باب الخاصة، لا يدخل منه إلا خاصته. وباب الجبل لأنه كان مما يلى المقطم. وباب الحرم لا يدخل منه الا خادم خصى أو حرمه. و باب الدرمون سمى باسم حاجب كان يجلس عليه يقال له الدرمون لأنه كان رجلا أسود، عظيم الخلقة، يتقلد النظر فى جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط .

وباب دعناج سمى باسم حاجب كان عليه يقال له دعناج. وباب الساج عرف بذلك لأنه كان مصنوعا من خشب الساج. وباب الصلاة فى الشارع الأعظم، كان يخرج منه الى الجامع الذى بناه، وهو يعرف أيضا بباب السباع لأنه صور عليه سبعين من جبس. وكان الطريق الذى يخرج منه أحمد بن طولون، وهو الذى يعرج منه الى القصر، طريقا طويلا، فقطعه بحائط وعمل فيه ثلاثة أبواب كأكبر مايكون من الأبواب، وكانت متصلة بعضها ببعض، واحد بجانب الآخر. وكان أحمد بن طولون اذا ركب لعيد أو لغيره يخرج معه عسكر متكاثف الخروج على ترتيب حسن بغير زحمة، ويخرج ابن طولون من الباب الأوسط من الأبواب الثلاثة، لا يختلط به أحد، فتلك السكة الى اليوم تسمى ثلاثة أبواب، ومن هذه الأبواب واحد قائم الى اليوم، ودخل البابان الاخران فى بناء الناس لما خربت القطائع.

وكانت أبواب قصره التى ذكرناها، تفتح يوم عرض الجيش، أو يوم عيد، أو يوم صدقة، أما سائر الأيام فانها تفتح فى وقت وتغلق فى وقت .

وكان لأحمد بن طولون فى قصره مجلس يشرف منه يوم العرض ويوم الصدقة، لينظر من أعلاه من يدخل ويخرج، وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع .

وقد بَنى على باب السباع مجلسا يشرف منه ليلة العيد على القطائع، ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم، فاذا رأى فى حال احد منهم نقصا أو خللا أمر له فى الوقت بما يتسع له ويزيد فى تجمله، وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط.

بيت الذهب

بُنى فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون، ويحدثنا المقريزى عن جدرانه أنها كانت مطلية بطبقة من الذهب، فيها نقوش اللازود، وجعل فيه، على مقدار قامة ونصف، صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على روءسهن الأكاليل من الذهب الخالص، والكوادن(٣) المرصعة بأصناف الجواهر، وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، وهى مسمرة فى الحيطان ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الاصباغ العجيبة. فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا.

---

(٣) الكودن جمع كوادن: البرذون الهجين .

بركة الزئبق:

وجاءت فى وسط بيت الذهب، وكان خمارويه قد شكا الى طبيبه كثرة السهر، فقال له تأمر بعمل بركة من الزئبق! فعملت بركة - كما يقول المقريزى - يقال إنها خمسون زراعا طولا فى خمسين زراعا عرضا، وملأها من الزئبق! فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة، وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة، وعمل فرشا من أدم يحشى بالهواء حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه، ويلقى على تلك البركة الزئبق، وتشد زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة، وينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يتحرك بحركة الزئبق مادام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به، فكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب اذا تآلف نور القمر بنور الزئبق، وقد أقام الناس بعد خراب القصر مدة يحفرون لاخذ الزئبق من شقوق البركة.

الدكة:

وقد بنى خمارويه فى القصرأيضا قبة تضاهى قبة الهواء سماها «الدكة» فكانت أحسن شىء بنُى كما يقول المقريزى - وجعل لها الستر التى تقى الحرو البرد، فتسبل اذا شاء وترفع اذا أحب، وفرش أرضها بالفرش، وعمل لكل فصل فرشا يليق به، وكان كثيرا ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان وغيره، ويرى الصحراء والجبل وجميع المدينة .

دار الحرم:

وبنى خمارويه أيضا دار الحرم، ونقل اليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده، وأفراد لكل واحدة حجرة واسعة، وقد تكلف بناؤها وأجرة الصناع سبعمائة ألف دينار.

وقد خربت القطائع على يد محمد بن سليمان الكاتب، فى أيام الخليفة المكتفى بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠١ ـ ٩٠٧م)، حنقـا على بنى طولون عـام ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، وأبقى الجامع .

وسنتناول الآن بناء كل من مدينة الجيزة وحلوان والعباسة.

أولا: الجيزة.

وهى مدينة اسلامية بنيت فى سنة ٢١هـ/ ٦٤١م، وقيل فرغ من بنائها سنة ٢٢هـ/ ٦٤١م، وعن سبب بنائها والقبائل التى سكنتها أنظر الموضوع الخاص بالقبائل العربية .

ثانيا : حلوان .[٤]

وعن سبب بنائها تذكر المصادر العربية أنه عندما وقع بمصر طاعون فى سنة ٧٠هـ/ ٦٨٩م خرج والى مصر عبد العزيز بن مروان من مصر، ونزل بحلوان، فأعجبته، فاتخذها سكنا ، وجعل بها الحرس والأعوان والشرط، وبنى بها الدور والمساجد، وعمرها أحسن عمارة، وبنى بها دارا للامارة وكان عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار.

ثالثا: العباسة .

وهى تقع شمالى بلبيس على نحو مرحلة منها، وهى محدثة سميت باسم عباسة بنت أحمد بن طولون، عندما خرجت مودعة بنت أخيها قطرالندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لتتزوج المعتضد، فضربت عباسة فساطيطها بهذا الموضع، ثم بنيت به قرية وسميت عباسة باسمها.

---

(٤) تعرف الان باسم حلوان البلد، وهى تابعة لمركز الجيزة بمديرية الجيزة. وهى من أقدم القرى التى انشأها العرب فى مصر، واقعة على الشاطىء الشرقى للنيل، غربى مدينة حلوان الحمامات بمقدار ثلاثة كيلو مترات وجنوبى القاهرة على بعد عشرين كيلو مترا من مصر القديمة.

دار الامارة:

يجدر بنا بعدما تعرضنا لنشأة المدن الاسلامية الجديدة فى مصر الاسلامية تحت الحكم العربى، أن نشير الى دار الامارة التى كانت مقرا للأمراء ينزلونها فى هذه المدن، سواء كانت بالفسطاط أو العسكر أو القطائع أو حلوان.

تذكر المصادر العربية أن الامراء لم يكن لهم فى بادىء الأمر بالفسطاط مقر معين، أو دار للامارة مخصوصة، فنزل عمرو بن العاص، أول أمراء مصر، بداره التى بالقرب من الجامع، وظل الأمراء من بعده ينزلون بداره الى آخر الدولة الأموية عندما تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مروان، فقد بنى دارا عظيمة بالفسطاط عام ٧٧هـ/ ٦٩٦م وسماها دار الذهب ـ كما ذكرنا ـ فكان عبد العزيز ينزلها، ثم نزلها بنوه بعده. غير أن المصادر العربية تشير الى أنه فى ولاية عبد العزيز بن مروان تعرضت مصر لطاعون وقع بها سنة ٧٠هـ/ ٦٨٩م ـ كما ذكرت سابقا ـ كان من أثره أن رحل الى حلوان وبنى فيها دار للامارة سكنها. على أيه حال فيبدو لنا أن هذه الدار كانت مؤقته حتى انتهاء الطاعون أو انتهاء مدة ولايته.

وعندما بنيت العسكر فى ولاية على بن صالح بن على الهاشمى فى خلافة السفاح أول خلفاء بنى العباس، ابتنى فيها دارا للامارة ونزلها. وكان لهذه الدار بابان ـ كما يذكر البلوى ـ أحدهما بالحارة المعروفة بحوض أبى قديرة (أو ابن قديد كما يقول ابن دقماق) والمعروف الى اليوم بباب الخاصة، وبابها الآخر الملاصق للشرطة الفوقانية، وكان باب الشرطة أيضا أحد أبوابها، وكانت كلها دارا واحدة، ولها باب الى المسجد الملاصق للشرطة .

وقد صارت هذه الدار منزله للأمراء بعده حتى ولاية يزيد بن حاتم لمصر، فقد كتب اليه الخليفة أبو جعفر المنصور يأمره بأن يتحول من العسكر الى الفسطاط، وكان ذلك فى عام ١٤٦هـ/ ٧٦٣م، وقد استمر هذا الوضع حتى قدم أحمد بن طولون أميرا على مصر، فنزل بدار الامارة التى بالعسكر،

والتى بناها صالح بن على بعد هزيمة مروان بن محمد وقتله، ثم تحول منها الى قصره بالقطائع عندما بنى وذلك فى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م.

وكانت دار الامارة التى بناها أحمد بن طولون بجوار جامعه ـ كما يقول المقريزى ـ فى الجهة القبلية منه، وكان لها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة بجوار المحراب والمنبر. وقد جعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج اليه من الفرش والستور والالات ، فكان ينزل بها اذا ذهب الى صلاة الجمعة، فانها كانت تجاه القصر والميدان، فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه .

وترى الدكتورة سيدة كاشف أن تفكير أحمد بن طولون فى ترك دار الامارة التى بمدينة العسكر، أو التى فى الفسطاط، يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر، وفى رغبته فى منافسة بلاط العباسيين.

وعندما تولى خمارويه بن أحمد بن طولون مصر بعد أبيه، حوّل دار الامارة التى بالعسكر ـ كما تذكر المصادر العربية ـ ديوانا للخراج.

وقد ظل أمراء الدولة الطولونية ينزلون بالقصر الذى بناه أحمد بن طولون، حتى سقطت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب، الذى هدم القصر، كما هدم أيضا دار الامارة التى بالعسكر ـ أو كما تقول المصادر العربية فرقت «حجرا حجرا» .

لذلك عندما تولى مصر محمد بن سليمان (٢٩٢ هـ / ٩٠٤م)، سكن دار بدر الخفيفى غلام أحمد بن طولون ، وكانت بالفسطاط ـ كما ذكرت سابقا ـ ثم سكنها عيسى النوشرى أمير مصر بعده (٢٩٢ ـ ٢٩٧هـ/ ٩٠٤ ـ ٩٠٩م)، فأصبحت منزلة للأمراء، إلى أن ولى الاخشيد مصر، فزاد فيها وعظمها، وعمل لها ميدانا، وجعل لها بابا من حديد وذلك فى عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م. وقد ظلت منزلة للأمراء إلى أن جاءت الدولة الفاطمية وبنيت القاهرة .

الجواسق (٥)

ومن الجواسق التى بالقرافة :

جوسق بنى عبد الحكم : كان جوسقا كبيرا له حوش ، وكان فى وسط القرافة بحضرة مسجد بنى سريع الذى يقال له الجامع العتيق، وهو أحد الجواسق الثلاثة. وهو جوسق عبد الله بن عبد الرحمن الفقيه الامام.

جوسق الماذرائى : هذا الجوسق - كما يقول المقريزى - لم يبق من جواسق القرافة غيره، وهو جوسق كبير جدا على هيئة الكعبة بالقرب من مصلى خولان فى بحريه، على جانبه الممر من مقطع الحجارة. بناه أبو بكر محمد بن على الماذرائى فى وسط قبورهم من الجبانة، وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد، ويوقد جميعه فى ليلة النصف من شعبان كل سنة وقودا عظيما ، ويتحلق القراء حوله لقراءة القرآن . فيمر للناس هنالك أوقات فى تلك الليلة وفى الأعياد بديعة حسنة .

---

(٥) الجَوْسَق جمع جواسق وجواسيق : وهى كلمة فارسية ، بمعنى القصر . قال ابن سيده: الجوسق الحصن، وقيل هو شبيه بالحصن، معرب. وقال الشريف محمد بن اسعد الجوانى النسابة فى كتاب النقط على الخطط: الجواسق بالقرافة والجبانة كانت تسمى القصور.

المارستان (بيت المرضى)

تميزت المدن العربية فى مصر ببناء المارستانات، فلم تكن موجودة قبل الفتح العربى، وإنما استحدث بناؤها بعد الفتح، وهذا يدل على عناية الدولة الإسلامية بصحة رعاياها. وكان الوليد بن عبدالملك هو أول من بنى المارستان فى الإسلام فى عام ٨٨هـ/٧٠٦م ـ كما يقول المقريزى ـ وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

وقد بُنى فى مصر عدد من المارستانات، وهذه المارستانات هى:

البيمارستان أو المارستان العتيق :

المارستان العتيق بمصر ويعرف بالأعلى، أنشأه أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م وقيل فى سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م، وهو أول مارستان أنشئ بمصر. وعن موقعه يقول المقريزى: «وهذا المارستان موضعه الآن فى أرض العسكر، وهى الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر، وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين مصر، وقد دُثر هذا المارستان».

ويقول البلوى إن مبلغ ما انفق عليه وعلى مستغله ستون ألف دينار.

وقد كان لهذا المارستان أوقاف كثيرة، فقد حبس عليه دار الديوان والقيسارية وسوق الرقيق، حتى قيل كان له فى كل يوم من المصروف ألف دينار.

وقد شرط فى المارستان أن لا يعالج فيه جندى ولا مملوك.

وقد أدخل أحمد بن طولون فى هذا المارستان ضروبا من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر ـ كما تقول الدكتورة سيدة كاشف. فقد اشترط على أنه « إذا جئ بالعليل تنزع ثيابه ونفقته،

وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابا ويفرش له، ويغْدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجا ورغيفا أمر بالانصراف، وأعطى ماله وثيابه»، كما عمل بالمارستان حمامين احداهما للرجال والآخر للنساء.

ويبدو أنه كان لهذا المارستان عيادة خارجية (كما فى الوقت الحاضر)، إلا أنها كانت فى يوم معين من الأسبوع، ومخصصة للفقراء فقط، فيقول ابن اياس: «وكان يجلس على باب المارستان فى كل يوم جمعة طبيبان برسم الفقراء».

وعن خزائن الأدوية يقول البلوى: ان المارستان كان يضم فى «خزائنه من العقاقير النفيسة الخطيرة، والدرياقات المعروفة التى ليست إلا فى خزائن الملوك والخلفاء، فلم يكن يُعدم فى مارستانه شىء من الأدوية ولا العقاقير الرئيسية، مثل : دواء المسك وغيره مما لا يوجد مثله، واشترى له المستغلات النفيسة التى يفى بعضها بجميع حوائجه». وقد أقام أحمد بن طولون على هذه الخزائن خادما أسود خصيا.

وقد بلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى أنه كان يقوم بالاشراف عليه بنفسه، فيمر كل يوم جمعة عليه، يتفقد خزائنه وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى والمحبوسين من المجانين. ويقال إنه لم يعاود الاشراف عليه مرة أخرى بعد تعرضه للموت على يد أحد المجانين، عندما أخبره أنه ليس مجنونا، وأنه يتمنى أن يأكل رمانة عريشية، فأمر له بها، فعندما أخذها غافله ورمى بها فى صدره، فنضحت على ثيابه، ولو كانت قد تمكنت منه لأتت عليه.

مارستان كافور :

ويعرف بالمارستان الأسفل، وقد بناه الخازن بأمر من كافور القائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الاخشيد بمدينة مصر فى سنة

٣٤٦هـ/٩٥٧م. وقال القضاعى إن أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على هذا المارستان والميضأتين والسقايتين وأكفان الموتى.

وذكر شيوخ المصريين المؤرخين أن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار، والبرانى، والقدور النحاس، والهواوين، والطشوت وغير ذلك ما يساوى ثلاثة آلاف دينار. وقد نقل إليه من المارستان الأعلى الذى بناه ابن طولون أضعاف ذلك.

مارستان فى زقاق القناديل :

وقيل أنه كان فى عصر الولاة مارستان فى زقاق القناديل دار أبى زبيد.

مارستان المغافر :

وهذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر، وبين مصلى خولان التى بالقرافة. بناه الفتح بن خاقان فى أيام المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/٨٤٦ ـ ٨٦١م) وقد باد أثره.

الحمامات

كانت المدن الإسلامية تزود بحمامات - مفردها حمام - وهى فى معناها اللغوى تعنى الماء الحار. وهى ليست من ابتكار المسلمين - كما يقول الدكتور عبد المنعم ماجد - ولكنها أخذت من الشعوب التى كانت قبلهم وبخاصة اليونان، فحينما دخل العرب الاسكندرية، وجدوا فيها آلاف الحمامات. وقد دخل الحمام ضمن نظام الإسلام منذ عهد مبكر لارتباطه على الخصوص بفريضة الوضوء، بحيث أن الفقهاء اعتبروه من الأماكن الدينية، فنص الإسلام على النظافة، واعتبرها من جوهر العقيدة.

وتذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما فتح الاسكندرية وجد بها أربعة الاف حمام. وكان بالفسطاط كما يذكر المقريزى ألف ومائة وسبعون حماما. ويقول ابن اياس: إن مدينة تنيس كان بها ثلاثون حماما.

وقد كان يقوم بالخدمة فى هذه الحمامات عمال أو (بلان) كما يقول ابن دقماق، ويورد لنا ابن دقماق قصة عن دخول أحد الأشخاص أحد الحمامات فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون، يظهر منها أن عدد العمال المشتغلين فى أحد الحمامات فى مصر فى تلك الفترة، قد بلغ سبعين عاملا، كما يظهر لنا نظام الخدمة فى الحمامات والتى توضح ضغط العمل حتى إن العامل يضطر إلى خدمة اثنين أو ثلاثة معا فيقول:

كان بالفسطاط فى جهته الشرقية حمام من بناء الروم، أدركتُها عاملة زمن أحمد بن طولون، وكانت ملكا لنجح الطولونى أحد قواد خمارويه، ثم توفى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م فانتقلت لديوان خمارويه. قال: فدخلتها فى زمن خمارويه سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، وطلبت بها صانعا يخدمنى، أى بلانا، فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى، وقيل لى إن كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة، فسألت: كم فيها من صانع؟ فأخبرت أن بها سبعين، أقل من معه ثلاثة. سوى من قضى حاجته وخرج، قال: فخرجت، ولم أدخلها لعدم من

يخدمنى بها، ثم طفت غيرها، فلم أقدر على من أجده فارغا إلا بعد أربعة حمامات، وكان الذى خدمنى معه ثان، وإنها ألف ومائة وسبعون حماما.

كما كان يقوم بالخدمة فى الحمامات إلى جانب هؤلاء العمال حراس للملابس، ويذكر الكندى أن أبا صالح يحيى بن داؤود الشهير بابن ممدود عندما تولى مصر من قبل المهدى (١٦٢ ـ ١٦٤هـ/٧٧٨ ـ ٧٨٠م) «منع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال: من ضاع له شىء فعلى اداؤه. فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه، ويقول: يا أبا صالح احفظها. فكانت الأمور على هذا مدة ولايته».

وقد انقسمت أنواع الحمامات فى مصر إلى:

حمامات عامة ـ حمامات خاصة ـ حمامات للسيدات.

وبالنسبة للحمامات العامة :

فقد كان أول حمام بنى فى مصر بعد الفتح العربى هو **حمام الفأر**، وقد اختطه عمرو بن العاص وهو بسويقة المغاربة، وقيل إنه سمى حمام الفأر لأن حمامات الروم كان حجمها كبيرا، فلما بنى هذا الحمام، ورأوا صغر حجمه، قالوا: من يدخل هذا؟ هذا حمام الفأر.

حمام بُسْر:

وهو بسر بن أبى أرطاة القرشى(٦)، وهذه الحمام من خطته، ولم يبق له أثر.

---

(٦) بسر بن أرطاة: كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد فتح مصر، واختط بها، وكان من شيعة معاوية، شهد صفين معه، وولى البحرين له. وقدارسله معاوية والى الشام على رأس أسطول للاشتراك مع الاسطول المصرى فى صد الروم، وكان ذلك فى موقعة ذى الصوارى عام ٣٤هـ/ ٦٥٤م. ويقال إن بسر كان اذا ركب البحر قال: انت بحر وأنا بسر، على وعليك الطاعة لله، سيروا على بركة الله. وقد اختلفت الاراء فى تاريخ وفاته وفاته.

حمام ابن نصر السراج:

عند حبْس بنُانة، هى من خطة زياد بن ذهل من بنى سامد بن لؤي، ثم صارت إلى حويت بن جناد مولىّ بنى سمح، وقيل هو مولى عتبة بن أبى سفيان، بناها حمامين، ثم اشتراها عاصم بن أبى بكر بن عبدالعزيز. ثم بيعتا فى الصوافى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وانتقلتا إلى أبى نصر السراج فبناها حمامين: إحداهما تعرف الآن ـ كما يقول ابن دقماق ـ بحمام الكعكى، والثانية تعرف بحمام التكاررة.

حمام السوق الكبير:

وهي من خطة خولان الذى حازه الوليد بن عبدالملك، وتعرف الآن ـ كما يقول ابن دقماق ـ بحمام الصافى.

حمام القبو:

هو من فضاء الراية، وكان بشر بن مروان قد حازه فيما حازه، ثم أقطع ذلك كله المهدى لمنارة مولى أبى جعفر المنصور، ثم اشتراه الحكم، ثم تنقلت، وهى الآن فى حبس السرِّى، وتعرف بالكنيسة لقربها من كنائس أبى شنودة.

حماما الزياتين:

من الفضا لابن الجصاص ابتاعهما من الصوافى، وهما اليوم من جملة الأحباس.

حمام أبى مرة:

كان خطة لرجل من تَنُوخ هو جدّ ابن علقمة، فسأله إياه عبدالعزيز بن مروان، فوهبه له فبناه حماما لَزيّان بن عبدالعزيز. وأبو مرة هو اسم الصنم الذى على بابه، وكان هذا الصنم من رخام على خلقة المرأة، وقد كسر فى سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م عندما أمر يزيد بن عبدالملك بكسر الأصنام. وهو يعرف الان ـ كما يقول ابن دقماق ـ بحمام بثينة.

حمام نقاشى البلاط:

هذا الحمام يعرف بحمام أبى الفرج بن الكاتب، حبسه على أئمة الجامع العتيق.

حمام سوق وردان:

هو من الفضاء، وكان من إقطاع مسلمة بن مخلد الأنصارى من الصحابة، ثم صار هذا الحمام إلى بنى أبى بكر بن عبدالعزيز بن مروان من قبل أمهم، ثم قبض عنهم، فاشتراه ابن أبى خلف، ثم تنقل. وهو الآن ـ كما يقول ابن دقماق ـ جار فى ديوان أحباس الجامع العتيق بمصر.

حمام الخشابين:

وتعرف بحمام الجزرى، هى حمام عمر بن على بن أبى عبد الرحمن الفهرى، وقد خربت.

حمام جنادة:

بالقرافة. قال القاضى إنه ما كان يتوصل إليه إلا بعد عناء من الزحام، وإن قبالته فى كل يوم جمعة خمسمائة درهم.

حمام الكَبْش:

وهو الحمام الذى يعرف اليوم ـ كما يقول ابن عبدالحكم ـ بحمام السوق.

أما بالنسبة للحمامات الخاصة: ويقصد بها حمامات البيوت:

فقد ذكرت سابقا عند الحديث على الدار المذهبة وهى الدار التى أمر ببنائها عبدالعزيز بن مروان أنه كان بها حمامان.

ومن الدور أيضا التى امتازت بوجود حمام بها:

دار مسلمة بن مخلد:

يقول ابن عبدالحكم: «فلما ولى مسلمة بن مخلد سأله معاوية داره (دار الرمل وهى خطة مسلمة مع أبو رافع مولى رسول الله (ص) مع عقبة بن عامر) فأعطاه إياه، وخط له فى الفضاء داره ذات الحمام».

دار العُمُد:

يقول ابن عبد الحكم: «واختط أبو ذر الغفارى دار العُمُد ذات الحمام».

دار عبدالأعلى بن ابى عَمْرة:

وهو مولى لبنى شيبان، وكانت داره ذات حمام، يقال له حمام التبن.

دار السلسلة:

«قال عبدالملك بن مسلمة: أقطعها عبدالعزيز الفهرى مولى ابن رمانة حين قدم عليه، وبناها له يزيد بن رمانة، وهى الدار التى تعرف اليوم: بدار السلسلة».

أما بالنسبة للحمامات الخاصة بالسيدات:

فلم تذكر المصادر العربية منها ـ فى حدود علمى ـ سوى حمام سهل. وكان بعض الولاة يمنعون النساء من الخروج من بيوتهن، والتوجه إلى الحمامات، كما حدث فى ولاية أيوب بن شرحبيل (٩٩ ـ ١٠١هـ/٧١٧ ـ ٧١٩م) من قبل عمر بن عبدالعزيز، فقد منع النساء من دخول الحمامات. أيضا فى ولاية مزاحم بن خاقان من قبل المعتز (٢٥٣ ـ ٢٥٤هـ/٨٦٧ ـ ٨٦٨م) الذى منع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات.

مصانع الماء ـ الفسقيات ـ العيون ـ القناطر

أولا : بناء مصانع الماء:

المقصود بالمصانع حياض الماء، وهى أشبه بالأحواض التى تبنى فى الأرض لتخزين المياه وحفظها، ولجمع مياه المطر.

ومن البلاد التى بنيت بها المصانع وذكرتها المصادر:

الفسطاط:

وكان بها الكثير من المصانع منها:

المَصْنُعَة المعروفة بدكيلة (أو بدليلة كما يقول المقريزى): وكانت بحضرة العقبة التى يصار منها إلى يحصب.

المَصْنُعَة المعروفة بسمينة: وكانت فى وسط يحصب، وهى ذات عمد رخام.

المَصْنُعة ريا: وكانت بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة.

كما كان بالفسطاط مَصْنُعَة مقابلة للميدان من دار الامارة فى طريق المصلى القديم، ومَصْنُعَة تحت مسجد عمرو بن العاص المقابل لدار عبدالعزيز، ومَصْنُعَة مقابلة لمسجد التربة المجاورة للمسجد الأخضر.

تنيس:

ذكر ابن بسام أنه كان بتنيس ـ على أيامه ـ مصنعان عظيمان من مصانع المياه ينسبان إلى عمرو بن حفص، أحد من تولى أمرها، كذلك أشار إلى وجود مصنع فى وسط المدينة بناه عبدالعزيز الجروى، وكان يسع ثلاثة آلاف وستمائة جرة من الماء.

وكان أحمد بن طولون قد بنى بتنيس صهاريج لحفظ المياه، وذلك عندما دخلها عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م.

ثانيا : بناء الفسقيات:

فِسْقِّية المعافر :

وقد بناها يزيد بن حاتم فى أثناء ولايته على مصر من قبل أبى جعفر المنصور (١٤٤ ـ ١٥٢هـ/٧٦١ ـ ٧٦٩م) وأجرى إليها الماء من ساقية أبى عون، وذلك بعد شكوى قبيلة المعافر إليه من بُعد الماء عنهم.

وقد أنفق على بنائها «مالا عظيما». فقال له أبو جعفر المنصور: «لم انفقت مالى على قومك؟».

الفسقية المعروفة بزوف :

وهم بنو زوف بن زاهر بن عامر من مراد. وقد بناها أبو بكر محمد بن على الماذرائى فى سنتى ثلاث وأربع وثلاثمائة، على يد عمه الحسين بن أحمد ويعرف بأبى زنبور. وقد اشتهرت بزوف لأنها فى خطتهم.

ثالثا : بناء العيون :

العين التى بالمعافر :

بناها أحمد بن طولون. وقد تولى بناءها المهندس النصرانى الذى بنى جامع أحمد بن طولون بعد ذلك، وهو سعيد بن كاتب الفرغانى. ويقال إنه عندما انتهى من بنائها، ركب أحمد بن طولون ليراها، فاستحسن جميع ما شاهده فيها، إلا أن قدم فرسه غاصت فى موضع، لرطوبة الجير، فوقع أحمد ابن طولون، وتصور أن النصرانى أراد به سوءا، فأمر بضربه خمسمائة سوط، ثم وُضع بالسجن، واستمر به حتى عرض على أحمد بن طولون بناء الجامع بلا عمد إلا عمودى القبلة. كما ذكرت عند الكلام على جامع ابن طولون.

ويذكر البلوى أنه أنفق على العين التى بالمعافر مائة الف وأربعون ألف دينار.

وقد كانت هذه العين مفتوحة طول النهار - كما يقول البلوى - لمن كشف وجهه للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، والليل كله للضعفاء والمستورين والمستورات، فهى لهم حياة ومعونة، واتخذ لها المستغل الذى فيه فضل عن الكفاية. وقد حاول الماذرائيون تقليدها وعمل مثلها، فأنفقوا الأموال الضخمة فى ذلك لكنهم فشلوا.

رابعا : بناء القناطر :

قنطرة عبدالعزيز بن مروان :

كانت فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى. وقد بناها عبدالعزيز بن مروان بن الحكم فى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م، وابتنى قناطر عليها. وقد كتب عليها: «هذه القنطرة أمر بها عبدالعزيز بن مروان الأمير، اللهم بارك له فى أمره كله، وثبت سلطانه على ما ترضى، وأقر عينه فى نفسه وحشمه. آمين. وقام ببنائها سعد أبو عثمان، وكتب عبدالرحمن فى صفر سنة تسع وستين».

ثم زاد فيها تكين أمير مصر فى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م ورفع سمكها، ثم زاد عليها الاخشيد فى سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م، وموضعها الان - كما يقول المقريزى - خلف خط السبع سقايات.

قناطر أحمد بن طولون :

قال القضاعى: قناطر أحمد بن طولون بظاهر المعافر. وكان السبب فى بناء هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمر بمسجد الأقدام وحده، وتقدم عسكره، وقد كدّه العطش، وكان فى المسجد خياط. فقال: ياخياط أعندك ماء؟ فقال: نعم. فأخرج له كوزا فيه ماء، وقال: اشرب ولا تمد! يعنى لا تشرب كثيرا. فتبسم أحمد بن طولون، وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره، ثم ناوله

إياه، وقال: يا فتى سقيتنا وقلت لا تمد! فقال: نعم أعزك الله، موضعنا ها هنا منقطع، وإنما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية. فقال له: والماء عندكم ها هنا معوز. فقال: نعم. فمضى أحمد بن طولون فلما وصل داره. قال: جيئونى بخياط فى مسجد الأقدام، فجاءوا به. فلما رآه قال: سر مع المهندسين حتى يخطّوا عندك موضع سقاية، ويجروا الماء، وهذه ألف دينار خذها. وابتدأ فى الانفاق، وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير، وقال له: بشرنى ساعة يجرى الماء فيها. فجدوا فى العمل، فلما جرى الماء أتاه مبشرا، فخلع عليه وحمله، واشترى له دارا يسكنها، وأجرى عليه الرزق السنى الدار. وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش. فقال: هذه العين لا تعرف أبدا إلا بأبى خليد، وانى أريد أن استنبط بئرا. فبنى عينه التى بالمعافر، وبنى عليها القناطر.

ولما بنى أحمد بن طولون هذه السقاية ـ كما يقول المقريزى ـ بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها، فدعا إليه محمد بن عبدالله بن عبدالحكم الفقيه الذى يقول: «كنت ليلة فى دارى اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون، فقال لى: الأمير يدعوك. فركبت مذكورا مرعوبا، فعدل بى عن الطريق.

فقلت: أين تذهب بى؟ فقال: إلى الصحراء، والأمير فيها. فأيقنت بالهلاك، وقلت للخادم: الله الله فىّ، فانى شيخ كبير ضعيف مسن، فتدرى ما يراد منى، فارحمنى. فقال لى: احذر أن يكون لك فى السقاية قول! وسرت معه، وإذا بالمشاعل فى الصحراء، وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية، وبين يديه الشمع. فنزلت وسلمت عليه، فلم يرد علىّ. فقلت: أيها الأمير إن الرسول أعنتنى وكدنى، وقد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب! فأراد الغلمان أن يسقونى. فقلت: انا آخذ لنفسى. فاستقيت وهو يرانى، وشربت، وازددت فى الشرب حتى كدت انشق، ثم قلت: أيها الأمير سقاك الله من أنهار الجنة، فلقد أرويت وأغنيت ولا ادرى ما اصف: أطيب الماء فى حلاوته وبرده؟ أم صفاته أم طيب ريح السقاية؟ قال: فنظر إلىّ وقال: أريدك لأمر، وليس هذا

وقته، فأصرفوه! فصُرفت. فقال لى الخادم: أصبت. فقلت:: أحسن الله جزاءك، فلولاك لهلكت!

ويذكر المقريزى أن «مبلغ النفقة على هذه العين ومستغلها أربعين الف دينار». ويبدو أن المقصود بالعين هذه القناطر، خاصة وأننى ذكرت سابقا عن البلوى أنه أنفق على العين مبلغ مائة ألف وأربعين ألف دينار. فهل المائة ألف وأربعون ألف دينار - التى ذكرها البلوى - هى مجموع الانفاق على العين والقناطر؟ أم كل له مصروفه؟

الفصل الثانى

العمائر الدينية

. الجوامع والمساجد
. الكنائس.
.المصليات.
.الرباطات.

الفصل الثانى
العمائر الدينية

تمشيا مع السياسة الدينية للدولة الحاكمة، كان بناء أى عاصمة يقتضى بناء جامع أو مسجد لها، فانتشرت الجوامع والمساجد فى مصر تبعا لديانة العرب المسيطرين على الحكم وهى الديانة الاسلامية، وفى المقابل تعرضت الكنائس التى بنيت فى العهود السابقة للهدم، غير أننا نرى أن عملية هدم الكنائس أو بنائها كانت ترجع إلى سياسة كل من الوالى أو الخليفة، ولم تكن تبعا لعرف سائد.

وسنتناول فى الصفحات القادمة أهم الجوامع والمساجد التى بنيت، وفى الوقت نفسه القرارات التى اتخذت بشأن بناء أو هدم الكنائس، ثم آراء الفقهاء فى ذلك.

ولكن قبل الخوض فى موضوع بناء الجوامع والمساجد، يجدر بنا أولا أن نبين الفرق بين الجامع والمسجد فى ذلك العصر.

فالجامع - كما تقول المصادر العربية - هو الذى يقام فيه صلاة الجمعة، وذلك بعكس المسجد. يقول المقريزى : إن صلاة الجمعة كانت تقام فى جامع عمرو بن العاص، إلى أن بنُى جامع العسكر بالعسكر، فصارت الجمعة تقام فى جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر، واستمر ذلك الوضع حتى بنى جامع أحمد بن طولون، فصارت الجمعة تقام فى جامع عمرو وفى جامع ابن طولون، وتلاشى أمر جامع العسكر إلى أن قامت الدولة الطولونية.

ثم يقول فى موضع آخر : «لما افتتح عمر البلدان، كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فاذا كان يوم الجمعة، انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك.» كما يقول فى موضع آخر نقلا عن القضاعى : « ولم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بن العاص بشئ من أرض مصر إلا فى هذا

الجامع، قال أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس : جاء نفر من غافق (١) إلى عمروبن العاص فقالوا : إنا نكون في الريف، أفنجمع في العيدين الفطر والأضحى ويؤمنا رجل منا ؟ قال : نعم.

قالوا : فالجمعة؟ قال : لا، ولا يصلي الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود، وأخذ بالذنوب، وأعطى الحقوق».

وسنتناول الآن أهم الجوامع والمساجد بمصر:

أولا : الجوامع

١ ـ جامع عمرو بن العاص ـ المسجد الجامع ـ الجامع العتيق:

وهو أول جامع بنى في مصر تحت الحكم العربي، وقد شرع عمرو بن العاص في بنائه بعدما فرغ من بناء مدينة الفسطاط، وكان ذلك في سنة ٢١هـ/ ٦٤١م.

ويذكر ابن دقماق أن مكان الجامع كان جنانا ملك قيسبة بن كلثوم التجيبي، ويكنى أبا عبد الرحمن، أحد بني سُوم، وأن عمرو بن العاص قد طلب منه أن يجعله مسجدا، فوافق قيسبة وتصدق به على المسلمين.

تذكر المصادر العربية أن عمرو بن العاص عندما وضع قبلة هذا الجامع، كان واقفا عليه نحو ثمانين رجلا من الصحابة، منهم : الزبير بن العوام، والمقداد بن الاسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وأبو بَصْرَة الغفاري ومحمية بن جزء الزبيدي، ونبيه بن صواب وغيرهم.

وعندما بنى عمرو بن العاص الجامع اتخذ فيه منبرا، وهو أول من اتخذ المنبر، فكتب إليه عمر بن الخطاب يقول : أما بعد، فانه بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين، أمَا بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك؟ فعزمت عليك لما كسرته! فكسره عمرو.

---

(١) في الاصل : (بحافق)، وليس لها معنى في القاموس اللغوي، كما انه لايوجد قبيلة دخلت مصر باسم بحافق، وإنما توجد قبيلة باسم غافق، ولذلك أوردناها بالمتن.

وعن وصف جامع عمرو بن العاص عندما بنى يقول المقريزى : «قال أبو سعيد الحميرى : أدركت مسجد عمرو بن العاص، طوله خمسون ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا، وجعل الطريق يطيف به من كل جهه، وجعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص(فى شرقيه) وجعل له بابان فى بحريه وبابان فى غربيه، وكان الخارج اذا خرج إلى زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقى محاذيا لركن دار عمرو بن العاص الغربى، وذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ، وكان طوله من القبلة إلى البحرى مثل طول دار عمرو بن العاص، وكان سقفه مطاطا جدا، ولا صحن له، فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية، وبينه وبين دار عمرو سبع أذرع.» وكان سقفه من جريد، وأعمدته من جذوع النخل.

الزيادات فى جامع عمرو بن العاص:

زيادة مسلمة بن مخلد :

وأول من زاد فى جامع عمرو بن العاص مسلمة بن مخلد سنة ٥٣هـ/ ٦٧٢م وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية. وكان سبب الزيادة أن الأهالى شكو اليه ضيق المسجد، فكتب إلى معاوية فى ذلك، فأرسل اليه يأمره بالزيادة فيه، فزاد فيه من الجهة الشرقية مما يلى دار عمرو بن العاص، كما زاد فيه من الجهة البحرية، وجعل له رحبة فى الجهة البحرية منه، وبيّضه وزخرف جدرانه وسقوفه.

وقد أمر ببناء منار المسجد الذى بالفسطاط وهو أول من أحدث المنار بالمساجد. وقيل إن معاوية أمره ببناء الصوامع(٢) للأذان، فجعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربعة وهو أول من جعلها فيه.

---

(٢) عرف المسلمون المكان الذى يلقي منه الاذان باسم المنارة أو الصومعة أو المئذنة. وكلمة منارة تعنى مئذنة مهما كان شكلها، اما الصومعة فتتفق والمنارة فى نفس هذا المعنى، ولكنها مئذنة يغلب عليها الشكل المربع، ولا تختلفان إلا فى درجة الارتفاع، وفى أن الصومعة يمكن أن تطلق على مئذنة المسجد كما يمكن أن تطلق على برج الكنيسة. أما اسم مئذنة فقد اطلق على برج المسجد فى وقت متأخر عندما اخذ شكل الصومعة الأولى فى التطور إلى الشكل المألوف للمئذنة.

كما فرشه بالحصر وهو أول من فعل ذلك أيضا، وكان قبل ذلك مفروشا بالحصباء.

زيادة عبد العزيز بن مروان :

وفى أثناء ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٤ ـ ٧٠٥م)من قبل أخيه عبد الملك، زاد فى المسجد الجامع سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م من ناحيته الغربية، وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى جهته البحرية، ولم يجد فى جهته الشرقية موضعا يوسعه به، وذكر الكندى : أنه زاد فيه من جوانبه كلها، وأن ذلك كان فى سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦م.

زيادة عبد الله بن عبد الملك:

وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك من قبل أخيه الوليد، أمر برفع سقف المسجد الجامع، وكان مطأطأ وذلك فى سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م.

زيادة قرة بن شريك :

وقد ولى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م، فلم يزل بها إلى أن مات فى سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م، وقد هدم المسجد فى مستهل سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م بأمر الوليد بن عبد الملك، وابتدأ فى بنائه فى شعبان من السنة المذكورة، وقد جعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر بن لؤى، فكانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه وذلك فى شهر رمضان سنة ٩٣هـ/ ٧١١م.

وزيادة قرة كانت فى الجهة القبلية وفى الجهة الشرقية، فقد أخذ دار عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو، فأدخله فى المسجد، وأخذ منهما الطريق الذى بين المسجد وبينهما، وعوضهما بما هو فى أيديهم اليوم من الرباع التى فى زقاق مليح فى النحاسين والعداسين وغير ذلك.

وصار للجامع أربعة أبواب فى الجهة الشرقية آخرها باب إسرائيل وهو باب النحاسيين، وأربعة أبواب فى الجهة الغربية شارعة فى زقاق كان يعرف بزقاق البلاط، وثلاثة أبواب فى الجهة البحرية.

كما أنه نصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م، ونزع المنبر الذى كان فى المسجد، وذكر أن عمرو بن العاص كان قد جعله فيه، فلعله بعد وفاة عمر بن الخطاب، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان، وذكر أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر، وقيل إن زكريا بن مرقنى (أو برقنى) ملك النوبة أهداه إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وبعث معه نجاره حتى ركبه، واسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة، فلم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد فيه قرة ابن شريك، فنصب منبره الجديد كما ذكرت سابقا. ولم يكن يخطب فى القرى إلا على العصى، إلى أن ولى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمى مصر من قبل مروان بن محمد، فأمر باتخاذ المنابر فى القرى وذلك فى سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، وذكر أنه لايعرف منبرا أقدم من منبر قرة بن شريك بعد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفى سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م أمر المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور بتقصير المنابر، فجُعلت على مقدار منبر النبى صلى الله عليه وسلم، ثم أعيدت بعد ذلك.

وأمر قرة أيضا بعمل المحراب بعمل المجوف (٣)، وقيل إنه لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو بن العاص محراب مجوف، فقد كان قرة بن شريك هو أول من جعل المحراب المجوف، وكان أول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ عامل الوليد بن عبد الملك.

كما أحدث فيه المقصورة، ويقول ابن دقماق :وأول ما علمت المقاصير بالجامع بمصر فى زمن معاوية (٤٠ ـ ٦٠هـ / ٦٦٠ ـ ٦٧٩م)، ولعل قرة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة، وفى سنة ١٦١هـ / ٧٧٧م أمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الأمصار.

وعندما تولى موسى بن أبى العباس مصر من قبل أشناس (٢١٩ ـ ٢٢٤هـ/ ٨٣٤ ـ ٨٣٨م) أخرج المؤذنين خارج المقصورة، وهو أول من أخرجهم، وكانوا قبل ذلك يؤذنون بين يدى الامام يوم الجمعة من داخل المقصورة.

---

(٣) المحراب هو عادة ما يتوسط جدار القبلة، ويشير إلى اتجاه القبلة جهة الكعبة المشرفة، وقد تميز بتجويفه فى جدار القبلة.

زيادة صالح بن على بن عبد الله بن عباس :

ثم زاد فيه صالح بن على بن عبد الله بن عباس، وهو يومئذ أمير مصر من قبل أبى العباس السفاح - أربعة أساطين . ويقال إنه أدخل فى الجامع دار الزبير بن العوام وكانت غربى دار النحاس، وكان الزبير قد تخلى عنها ووهبها لمواليه، فأدخلها فى المسجد، وقد أدت هذه الزيادة إلى فتح باب خامس من الجهة الشرقية للجامع عرف باسم باب الكحل، كما عمر صالح ابن على أيضا مقدم المسجد الجامع عند الباب الأول موضع البلاطة الحمرا.

زيادة موسى بن عيسى الهاشمى :

ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشمى عندما تولى مصر سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م من قبل الرشيد، فقد زاد فى المسجد الجامع الرحبة التى فى المؤخرة من حدّ شباك النحاسين إلى نهاية ثلاثة أبواب من الأبواب الشارعة من الشارع إلى هذه الزيادة وهى نصف الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب، ولما ضاق الطريق بهذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهرى ووسع بها الطريق.

زيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين :

وقد تولى مصر من قبل المأمون سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م، وقد أمر بالزيادة فى المسجد الجامع فى نهاية عام٢١٢هـ/ ٨٢٧م، فزيد فيه من الجهة الغربية، وكانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير، وما فى الجهة الغربية إلى حد زيادة الخازن، فأدخل فيه الزقاق المعروف بزقاق البلاط، وقطعة كبيرة من دار الرمل، ورحبة كانت بين يدى دار الرمل ودور أخرى. وبهذه الزيادة أصبح مساحة طول الجامع ١٩٠ذراعا بذراع العمل، وعرضة ١٥٠ذراعا. كما نصب فيه اللوح الأخضر وهو أول من نصبه، فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح، فوضع أحمد بن محمد العجيفى لوحا أخضر بدلا منه فى نفس المكان، وذلك فى ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون.

زيادة أبى ايوب، احمد بن محمد بن شجاع :

وهو أحد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون، وكانت زيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب والمحراب المنسوب اليه هو الغربى من هذه الزيادة عند شباك الحذائين، وكان بناؤها فى سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧١م. وقد ادخل أبو أيوب فى هذه الزيادة بعض دار خارجة بن حذافة، وبعض دار أبان بنت الحارث بن مسكين. ويذكر ابن دقماق أن هذه الزيادة كانت بسبب حريق وقع فى مؤخر المسجد الجامع «فعمر وزيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون».

زيادة خمارويه بن احمد بن طولون :

وكان قد وقع حريق فى الجامع فى صفر سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م، أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب إسرائيل إلى رحبة الحارث بن مسكين، فهلك فيه أكثر زيادة عبد الله بن طاهر، والرواق الذى عليه اللوح الاخضر، فأمر خمارويه بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفى، فاعيد على ما كان، وكتب اسم خمارويه فى دائرة الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، وكانت عمارته فى السنة المذكورة، وقد أنفق فى اصلاحه ستة آلاف وأربعمائة دينار.

زيادة أبى حفص عمر بن الحسن القاضى العباسى :

وكانت ولايته للقضاء فى سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، وكان إمام مصر والحرمين، واليه إمامة الحج، وقد ظل قاضيا بمصر خلافة عن أخيه إلى أن صرف الخصيبى وذلك فى ذى الحجة سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، وقد زاد الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح.

زيادة أبى بكر محمد بن عبد الله الخازن :

ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن رواقا واحدا من دار الضرب، وهو الرواق ذو المحراب، والشباكين المتصل برحبة الحارث، ومقداره تسعة أذرع، وكان قد بدأ فى بنائه سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م، وتم الانتهاء منه سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م على يد ابنه على بن محمد.

٢ - جامع العسكر :

وهذا الجامع كان يقع بينْ جامع أحمد بن طولون وكوم الجارح بظاهر مصر، وكان إلى جانب شرطة العسكر التى كان يقال لها الشرطة العليا، كما كان إلى جانب دار امارة العسكر، وكان يصل هذه الدار بالجامع باب. وكان يجمع فيه الجمعة، وفيه منبر ومقصورة. وقد بناه الفضل بن صالح بن على ابن عبد الله بن عباس فى ولايته على مصر عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) من قبل المهدى. وقد زاد فى عمارته عبد الله بن طاهر فى أثناء ولايته على مصر من قبل المأمون عام ٢١١هـ/ ٨٢٦ م. وقد ظل هذا الجامع يقام فيه شعائر الجمعة حتى بنى جامع أحمد بن طولون، كما استمر وجود هذا الجامع إلى ما بعد الخمسمائة من سنى الهجرة.

٣ - جامع أحمد بن طولون :

كان سبب بنائه أن أهل مصر شكوا إلى أحمد بن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه، فأمر ببناء هذا الجامع بجبل يشكر وهو يشكر بن جزيلة من لخم.وكان يشكر، المنسوب اليه هذا الجبل، رجلا صالحا، وكان الصالحون يصلون على القطعة البارزة منه، الخالية من البناء، التى فى الحدّ القبلى منه، والمجاورة للباب، ويقال إن فى هذه البقعة قبر هارون عليه السلام، كما كان يقال إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات. لذلك فعندما أراد أحمد بن طولون بناء هذا الجامع أشار عليه جماعة من الصالحين بأن يبنيه على هذا الجبل، وذكروا له فضائله، فقبله منهم وبناه، وأدخل بيت يشكر العبد الصالح فيه.

وقد اختلف المؤرخين فى تاريخ بناء هذا الجامع فيذكر الكندى انه بدأ فى بنائه سنه٢٦٤هـ/ ٨٧٧ م وانتهى بناؤه سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩ م، أما ابن دقماق فيقول إنه بدأ فى بنائه سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢ م، ويذكر المقريزى انه بدأ فى بنائه سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، وفرغ منه سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م. وترى الدكتورة سيدة كاشف أن السنين التى ذكرها المؤرخون متقاربة، ولكنها تؤكد أن أحمد بن طولون لم يبدأ فى منشآته العامة ومشاريعه العمرانية، إلا بعد أن

أصبحت مصر كلها تحت سلطانه. ومع ذلك فإن الصواب - كما يقول الدكتور زكي محمد حسن - أن الفراغ من بناء هذا الجامع كان في سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م، وهذا التاريخ وارد في الكتابة التاريخية التي وجدت في الجامع منقوشة بالخط الكوفي على لوح من الرخام.

وقد طلب أحمد بن طولون أن يبنى هذا البناء إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى - كما تقول المصادر العربية - فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار إلى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار، فبناه هذا البناء.

ويعتقد بعض علماء الآثار أن سبب ذلك أن المهندس عراقى الأصل، وأن اللبن(الطوب النيئ) والآجر خاصة من خواص العمارة فى العراق لقلة الحجارة. وعلى أية حال فان اللبن والآجر كانا معروفين فى العمارة منذ عهد الفراعنة.

وتذكر المصادر العربية أنه عندما أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود، فقيل له ماتجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب، فتحمل منها، فانكر ذلك. وبلغ ذلك (سعيد بن كاتب الفرغانى) المهندس النصرانى الذى تولى بناء العين له وكان بالسجن، فكتب إليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد، إلا عمودى القبلة. وعندما حضر بين يديه، قال له : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمودى القبلة، فأمر بأن تحضر له الجلود، فأحضرت، فصوره له، فأعجبه، وأطلق له للنفقة عليه مائة الف دينار وقال له : أنفق، وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك. فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى فيه وهو جبل يشكر، فكان ينشر منه، ويعمل الجير، ويبنى، إلى أن فرغ من بنائه، فبيّضه، وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال، وفرش فيه الحصر، وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء.

وتذكر المصادر العربية أن هذا الجامع كان من المال الذى عثر عليه أحمد بن طولون فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون. وقد قدّرت نفقات بنائه ـ كما يذكر البلوى ـ بمائة وعشرين ألف دينار.

ويتكون جامع أحمد بن طولون من صحن مربع مكشوف طول كل ضلع فيه نحو اثنين وتسعين مترا، أى أن مساحته تبلغ نحو ٨٤٨٧ مترا مربعا،وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة، وتقع القبلة فى أكبر هذه الأروقة. وبين جدران الجامع وسوره الخارجى ثلاثة أروقة خارجية تسمى الزيادات، وقد أمر أحمد بن طولون ببنائها عندما ضاق المسجد بالمصلين.

وقد بناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة، كما عمل به منطقة بها عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية. ويقول ابن اياس : إنه علق بهذا الجامع عشرة آلاف قنديل من الزجاج المذهب، وكان فى صحنه قبة، على عشرة عمد من رخام أبيض، وهى مفروشة بالرخام الملون، كما كان على صحنه شبكة من جميع جوانبه لأجل العصافير. وكان تحت القبة التى فى الصحن قصعة رخام فَسْحَتها أربعة أذرع، فى وسطها فوارة تفور بالماء ليلا ونهارا برسم الضوء. كما عمل فى مؤخرة الجامع ميضأة [٤] وخزانة شراب فيها جميع الأشربة والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للمصلين.

ويذكر ابن دقماق أن المقصورة التى به، والتى تعرف بمقصورة فاطمة الزهراء، سميت بذلك لأن رجلا ـ على حسب قوله ـ رأى فى المنام كأن فاطمة الزهراء رضى الله عنها تصلى فى مكان من هذا الجامع، فأصبح، فاخبر الناس بذلك، فصلوا فيه، وعملوا عليه مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء.

---

(٤) الميضأة : من العناصر الضرورية للطهارة فى أداء شعائر الصلاة بالمنشآت الدينية. وللفقهاء آراء عديدة بشأنها من اهمها انه يجوز بناء المطاهر بالقرب من المساجد والتوضئة منها. وكانت الميضأة تبنى خارج المسجد، وكان يراعى فى وضع بنائها أن تكون خاضعة لظاهره الرياح حسب الموقع الجغرافى، حتى لا يتأذى الناس داخل المساجد منها.

وتذكر المصادر العربية أنه عندما فرغ من بنائه، لم يصل فيه أحد من الناس، وقالوا : هذا بُنى من مال حرام، ولايجوز فيه الصلاة! فلما بلغ الأمير أحمد بن طولون ذلك، جمعهم فى يوم جمعة وطلع المنبر، فخطب خطبة أقسم فيها بالله العظيم أنه مابنى هذا الجامع من ماله، وإنما بناه من كنز ظفر به عند الأهرام، فلما سمع الناس ذلك اجتمع خلق كثير، وصلوا الجمعة فيه. كما قيل إنه عندما بنى عاب بعض الناس على قبلته، وقالوا إنها ضيقة، خاصة وأنها مخالفة للمحاريب المجاورة لها! وقال آخر : مافيه عمود! وقال آخر : ليست له ميضأه! فاجتمع أحمد بن طولون بهم وخطب يقول : إنه عندما شرع فى عمارتها، اختلف المهندسون فى تحريرها، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام تلك الليلة وهو يقول : «ياأحمد، ابن قبلة الجامع على هذا الوضع، وخط فى الأرض صورة ما يعمل». فلما كان الفجر صليت، ومضيت مسرعا إلى الموضع الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بوضع القبلة فيه، فوجدت القبلة مصورة، وأن النمل قد طاف على ذلك الخط، فوضعت أساس المحراب عليه، لذلك فهو يسمى محراب النمل! وأما العمد والسوارى، فالسوارى لاتكون إلا من مسجد خراب أو كنيسة، وأنا بنيته من حلال من كنز وجدته، فكرهت أن أدخل فيه شائبة. أما عدم وجود الميضأه به فقد أردت تنزيهه عن النجاسة فطهرته منها، وسأبنيها خلفه، فبناها عند دار الفيل.

ويقول ابن دقماق : إنهم عندما خرجوا من عنده، أشاعوا ذلك، فعظُم شأن الجامع، وضاق على المصلين حتى زاد فيه أحمد بن طولون.

٤ ـ جامع الجيزة :

وقد بناه محمد بن عبد الله الخازن فى المحرم سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م بأمر الأمير على بن عبد الله بن الاخشيد، فتقدم كافور إلى الخازن ببنائه ـ وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد همدان ـ وقد أشرف على بناء هذا الجامع، مع أبى بكر الخازن، أبو الحسن بن أبى جعفر الطحاوى، ويقال : إنهم احتاجوا إلى عمد للجامع فمضى «الخازن» فى الليل إلى

كنيسة بأعمال الجيزة، فقلع عمدها، ونصب بدلها أركانا، وحمل العمد إلى الجامع، مما دفع أبا الحسن بن الطحاوى إلى ترك الصلاة فيه بسبب ذلك.

٥ ـ جامع الفيوم :

بناه قرة بن شريك عندما تولى مصر عام (٩٠ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٨ ـ ٧١٤م) من قبل الوليد بن عبد الملك.

ثانيا : المساجد

وهى التى بنتها القبائل العربية أو الأشخاص، ولا تقام بها صلاة الجمعة.

وسنتناول فى الصفحات القادمة أسماء المساجد التى بنيت فى الفترة التى يتناولها البحث.

مسجد الرحمة :(٥)

بالاسكندرية، وقد بناه عمرو بن العاص بعد هزيمته للروم فى الاسكندرية عندما نقضت الاسكندرية، فعندما أمر برفع السيف عنهم، بنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا. وقد عرف بمسجد الرحمة، وذلك لرفع عمرو السيف هناك.

مسجد عبد الله :

بالفسطاط، وقد بناه عبد الله بن عبد الملك بن مروان فى أثناء ولايته على مصر(٨٦ ـ ٩٠هـ/ ٧٠٥ ـ ٧٠٨م).

ومن المساجد التى بنيت بالفسطاط وذكرها ابن عبد الحكم :

مسجد القرون، **مسجد بنى عَوْف** وهم من قبيلة بلى، **مسجد العيثم** وقد بناه الحكم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان. **مسجد مهرة**. **مسجد حاء** وكان عند دار اسحق بن متوكل وهو ذو منارة.

---

(٥) ولعل مكانه الآن بحديقة الشلالات مكان ضريح سيدى عمرو بن يحيى .

مسجد العُتَقَاء. مسجد فَهْم. مسجد حُذْران وحذران بطن من غافق. مسجد أَحْدُب. مسجد الزمام. مسجد أبو موسى الغافقى وكان فى زقاق حَمْد.

مسجد سيبان وسيبان من مهرة وهو المسجد ذو القبة الذى عند دار خالد بن عبد السلام الصدفى. مسجد الزنج. مسجد بادى. مسجد ابراهيم القراط. مسجد الزينة.

مسجد تجيب وخولان :

يقول ابن دقماق :

إنه فى ولاية موسى بن مخلد أمر ببناء المنار فى جميع المساجد، كان ذلك ما عدا مسجدين وهما : مسجد تجيب وخولان.

مسجد القلعة :

يقول ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير : إنه فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٤م) أرسل اليه عماله : «أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس، فكتب اليهم أن ابنوا المساجد. فأول مسجد بنى بفسطاط مصر، المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان، قُبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس، يعرف بمسجد القلعة».

مسجد الأقدام :

يقول المقريزى : هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر، قال القضاعى : ذكر الكندى أن الجند بنوه وليس من الخطط. وسمى بالأقدام لأن مروان بن الحكم لما دخل مصر، وصالح أهلها وبايعوه امتنع من بيعته ثمانون رجلاً من المغافر سوى غيرهم، وقالوا : لا ننكث بيعة ابن الزبير، فأمر مروان بقطع أيديهم وأرجلهم وقتلهم على بئر بالمغافر فى هذا الموضع. فسمى المسجد بهم لأنه بنى على آثارهم، والآثار الأقدام، يقال جئت على قدم فلان، أى على أثره. وقيل بل أمرهم بالبراءة من على بن أبى طالب فلم يتبرؤوا منه فقتلهم هناك. وقيل إنما سمى مسجد الاقدام لأن قبيلتين اختلفتا فيه، كل تدعى أنه من خطتها، فقيس ما بينه وبين كل قبيلة بالأقدام، وجعل لأقربهما منه!

والقديم من هذا المسجد هو محرابه والأروقة المحيطة به، وأما خارجه فزيادة الاخشيد، والزيادة الجديدة التى فى جهته البحرية تمت فى فترة متأخرة عن بحثنا.

جامع محمود بالقرافة :

وينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل من أجناد السرى بن الحكم، فهو الذى بنى هذا المسجد. وذلك ـ كما يقول المقريزى ـ أن السرى بن الحكم ركب يوما فعارضه رجل فى طريقه فكلمه ووعظه بما غاظه، فالتفت عن يمينه، فرأى محمودا فأمر بضرب عنق الرجل ففعل، فلما رجع محمود إلى منزله تفكر وندم، وقال : رجل يتكلم بموعظة بحق فيقتل بيدى، وأنا طائع غيره مكره على ذلك فهلا امتنعت. وكثر أسفه وبكاؤه، وآلى على نفسه أن يخرج من الجندية، ولا يعود فيها، ولم ينم ليلته من الغم والندم، فلما أصبح غدا إلى السرى، فقال له : إنى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل، وأنا اشهد الله عز وجل وأشهدك أنى لا أعود إلى الجندية، فأسقط اسمى منهم، وخرج من بين يديه وحسنت توبته وأقبل على العبادة واتخذ المسجد المعروف بمسجد محمود، وأقام فيه.

مسجد القبة :

وهو مسجد بَنى عبد الله بن مانع بن مورع، وكان موضعه عند فتح مصر بخطة المغافر.

مسجد الفارسيين بالجيزة.

مسجد التنور :

هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم، بناه أحمد بن طولون فى صفر سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م وبنى فيه المنارة كما جعل فيه صهريجا فيه الماء، وجعل الانفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر والعين التى بالمغافر. وقد هدم هذا المسجد على يد قائد من قواد أحمد بن طولون يدعى وصيف قاطر ميز، وحفر تحته، متصورا أن تحته مالا فلم يجد فيه شيئا.

مسجد فائق :

مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، كان فى سفح جبل المقطم، مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام.

مسجد موسى : بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات فى سفح جبل المقطم.

مسجد الفقاعى : هو أبو الحسن علي بن عبد الله، وهو مسجد كبير بناه كافور الاخشيدى، وكان فى وسط هذا المسجد محراب مبنى بطوب يقال إنه من بناء حاطب بن أبى بلتعة رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس، ويقال إنه أول محراب اختط فى مصر.

من المساجد أيضا **مسجد الريح**، و**مسجد الزمام**، و**مسجد ابن عمروس**.

المصليات

وكانت تبنى المصليات لتقام بها صلاة العيد. يقول المقريزى : وفى هذه المصلى مشهد الأعياد. ويؤم الناس ويخطب بها فى يوم العيد خطيب جامع عمرو بن العاص.

وعندما فتح العرب مصر كان مصلى العيد، وهو مصلى عمرو بن العاص، مقابل اليحموم، وهو الجبل المطل على القاهرة، فلما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، أمر بتحويله فحوّل إلى موضعه المعروف بالمصلى القديم عند درب السباع، ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥م، ثم بناه أحمد بن طولون فى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م.

وفى امارة عنبسة بن اسحاق على مصر فى أيام المتوكل (٢٣٨ - ٢٤٢هـ/ ٨٥٢ - ٨٥٦م) ضاق المصلى القديم وهو مصلى عمرو بن العاص - بالناس، فأمر عنبسة بابتناء المصلى الجديد، فابتدئ فى بنائه فى العَشْر الأخير من شهر رمضان عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، وصلى فيه صلاة عيد الاضحى من هذه السنة، وهو المصلى الذى بالصحراء عند الجارودى، ثم جدده الحاكم وزاد فيه، وجعل له قبة وذلك عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م.

وقد عرف المصلى الجديد بمصلى خولان، وهم من قبائل اليمن، وقد شهدوا فتح مصر.

تعرضنا فى الصفحات السابقة لأهم الجوامع والمساجد التى بنيت فى مصر كنتيجة طبيعية لانتشار الدين الاسلامى دين الدولة الحاكمة، وفى المقابل سنتناول سياسة الدولة الحاكمة بشأن بناء أو هدم الكنائس التابعة لديانة أهل البلد الأصليين وهم الاقباط، وآراء الفقهاء فى مثل هذه القرارات.

بناء الكنائس فى مصر

تذكر المصادر العربية أن أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر، كانت هى الكنيسة التى خلف القنطرة وذلك فى ولاية مسلمة بن مخلد مصر (٤٧ ـ ٦٢هـ/ ٦٦٧ ـ ٦٨١م) من قبل الخليفة معاوية. ويذكر ابن عبد الحكم أن الجند أنكروا ذلك على مسلمة، وقالوا له : «أتُقر لهم أن يبنوا الكنائس؟ حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر، فاحتج عليهم مسلمة يومئذ فقال : إنها ليست فى قيروانكم، وانما هى خارجة فى أرضهم، فسكتوا عند ذلك».

وفى ولاية الوليد بن رفاعة (١٠٩ ـ ١١٧هـ/ ٧٢٧ ـ ٧٣٥م) من قبل هشام بن عبد الملك، أذن للنصارى عام ١١٧هـ/ ٧٣٥م فى بناء «كنيسة يومنا» أو «أبو مينا» ـ كما يقول الكندى ـ بالحمراء، وتعرف الحمراء اليوم ـ كما يقول المقريزى ـ بخط قناطر السباع فيما بين القاهرة ومصر. وقد كان السماح ببناء هذه الكنيسة سببا فى قيام ثورة يتزعمها «وهيب اليحصبى» ضد الوالى الوليد بن رفاعة، أدت إلى مقتل وهيب اليحصبى. ثم هدأت الثورة بعد ذلك.

وفى ولاية موسى بن عيسى الأولى(١٧١ ـ ١٧٢هـ/ ٧٨٧ ـ ٧٨٨م) من قبل الخليفة هارون الرشيد أذن للنصارى فى بنيان الكنائس التى قد هدمها الوالى على بن سليمان، وتذكر المصادر العربية أن بناء هذه الكنائس كانت بعد مشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة اللذين اعتبرا هذه الكنائس

«هى عمارة البلاد»، وقد احتجا بأن الكنائس التى بمصر لم تُبنَ إلا فى الاسلام فى زمان الصحابة والتابعين. ويعلق أبو المحاسن على ذلك بقوله «وهذا كلام يتأول»، كما أنه يعتبر تصرف موسى بن عيسى بشأن هذه الكنائس من الأمور الغير معقولة.

ويذكرساويرس أنه فى أثناء خلافة المعتز(٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ٨٦٨م) ذهب وفد من الأقباط اليه، ليسألوه «فى أمر البيَع، وشرحوا له ما فعله ابن المدبر وما جرى منه». فكتب لهم سجلا يتضمن موافقته، والسماح لهم ببناء البيع « فى كل أرض مصر»، ثم يذكر ساويرس أن الخليفة المعتز توفى قبل أن يختم هذا السجل، فطلبوا من الخليفة الذى تولى بعده الاقرار بهذا السجل، فوافق وعندما وصل السجل إلى أرض مصر، طلب الأنبا شنودة من متولى أرض مصر فى ذلك الوقت، أن يتمم أمر الملك، فكتب له إلى جميع البلاد ببناء جميع البيعْ فى كل المواضع حسب ماورد به أمر الملك (٦) .

أما الاسكندرية، التى كان بها أعظم كنائس الروم حتى إن ملك الروم كان يخشى من استيلاء العرب عليها كما يقول ابن عبد الحكم، فنلاحظ أن المصادر العربية ـ فى حدود علمى ـ قد أغفلت ذكر القرارات التى تتعلق ببناء أو هدم كنائسها، اللهم إلا ماذكره المقريزى من بناء كنيسة مرقص بالاسكندرية فى ولاية عمرو بن العاص الثانية (٣٨ ـ ٤٣هـ/ ٦٥٨ـ ٦٦٣م)، وأنها ظلت قائمة حتى هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب (٥٩٦ ـ ٦١٥هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٨).

وعندما انشأ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان سمح لكاتبه (أثناسيوس) ببناء كنيسة فى قصر الشمع، فلم يكتف اثناسيوس بواحدة بل شيد اثنتين هما : كنيسة مارجرجس، وكنيسة أبى قير.

---

(٦) أخطأ ساويرس فى ذكر اسم الخليفة الذى تولى الخلافةبعد المعتز فقد ذكر أنه المستعين بالله، ومن المعروف أن المستعين بالله تولى الخلافة عام(٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م) وأنه قتل عام ٢٥٢هـ، وأن الخليفة الذى تولى بعد المعتز هو المهتدى بالله وكان ذلك عام (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ/ ٨٦٨ ـ ٨٦٩م).

أما بالنسبة لقرارات هدم الكنائس فى مصر :

يذكر ابن النقاش أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على مصر يأمره بهدم بيع النصارى المستجدة. ويذكر أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز قد أرسل كتابا إلى عماله يقول فيه :«لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولابيت نار، ولاتحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار.»

وفى سنة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م هدم أسامة بن زيد التنوخى الكنائس، والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك.

وعندما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة كتب إلى والى مصر بأن يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد. فمضى البطريرك قزما kosmas إلى هشام، واستطاع بمعونة بعض العلماء أن يحمل الخليفة على أن يرد له الكنائس الملكانية بمصر، وهى الكنائس التى كان الأقباط قد استولوا عليها، فكتب هشام إلى واليه بمصر بأخذ هذه البيع من اليعاقبة.

كما تذكر المصادر العربية أنه فى ولاية على بن سليمان على مصر(١٦٩ ـ ١٧١هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٧م) من قبل الهادى، أصدر قرارا بهدم الكنائس المحدثة بمصر، فهدم كنيسة مريم الملاصقة لكنيسة أبى شنودة، وهدم كنيسة مَحْرَس (محارس) قسطنطين، على الرغم من أن النصارى عرضوا عليه فى المقابل خمسين ألف دينار ليتركها، إلا أنه امتنع.

وفى عام ١٩١هـ/ ٨٠٦م أمر الخليفة الرشيد بهدم الكنائس والديور.

وفى سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل أيضا بتخريب كنائس النصارى المحدثة فى الاسلام، وأكد هذا الأمر فى عام ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م.

كما يذكر ابن سعيد أنه فى عام سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م انهدمت قطعة من كنيسة أبى شنودة، فبذل النصارى للاخشيد مالا ليطلق عمارتها فقال لهم : خذوا فتيا الفقهاء. فأفتى ابن حداد بألا تعمر، وبذلك أفتى اصحاب مالك، وافتى محمد بن على بأن لهم أن يرموها ويعمروها، واشتهر ذلك عنه، فحملت الرعية إلى داره النار، وأرادوا قتله، فاستتر منهم وندم على فتُياه، وشغبت الرعية وأغلقت الدروب وأحاطت بالكنيسة، فأرسل الاخشيد

عساكره، ثم دعا بأبى بكر بن الحداد الفقيه وقال له : «اركب إلى الكنيسة فان كانت تبقى فاتركها على حالها، وان كانت مخوفة فاهدمها .»فذهب اليها ودخلها ثم قال : «تبقى كذا خمسة عشر سنةثم يسقط منها موضع، ثم تقيم إلى تمام أربعين سنة ويسقط جميعها». وعندما علم الاخشيد بذلك تركها ولم يعمرها.

هذا بالنسبة لقرارات بناء أو هدم الكنائس فى مصر تحت الحكم العربى، والسؤال الآن : هل كانت هذه القرارات تتفق مع الدين الاسلامى ؟ اتفق كل من الماوردى وأبى يوسف وأبى عبيد على عدم استحداث كنائس فى دار الاسلام، فيقول الماوردى :« ولا يجوز أن يحدثوا فى دار الاسلام بيعة ولاكنيسة، فان أحدثوها هدمت عليهم، ويجوز أن يبنوا ما استهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة».

ويقول أبو يوسف :« ويمنعوا من أن يحدثوا بناء بيعة أو كنيسة فى المدينة، إلا ما كانوا صولحوا عليه، وصاروا ذمة، وهى بيعة لهم أو كنيسة، فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم».

ويقول أبو عبيدة عن توبة بن النمر الحضرمى قاضى مصر عن غيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«لاخصاء فى الاسلام ولاكنيسة». كما يقول هذا الحديث أيضا عن عمر بن الخطاب.

أما بالنسبة للمذاهب الأربعة، فيقول ترتون :

إن الأئمة يتفقون على عدم استحداث بيع أو كنائس فى دار الاسلام، ويرى مالك والشافعى وابن حنبل أنه لا يجوز إحداث كنيسة فيما قارب المدن والأمصار بدار الاسلام، أما أبو حنيفة فيقول بالمنع اذا كان المكان قريبا من المدينة ولا يبعد عنها بأكثر من ميل، فان زاد عن ذلك جاز للذميين البناء، أما اذا انهدم شئ من كنائسهم وبيعهم فى دار الاسلام وأرادوا ترميمه أو تجديده جاز لهم ذلك فى رأى ابن حنبل والشافعى ومالك، أما أبو حنيفة فيجيزه لهم اذا كانت الكنيسة أو البيعة فى أرض فتحت صلحا، أما اذا كانت قد فتحت عَنْوَة فانه لا يجوز لهم ذلك، وقد ذهب بعض أصحاب أحمد

وجماعة من أعلام الشافعية كأبى سعيد الاصطخرى وأبى على بن أبى هريرة إلى أنه لايجوز للذميين ترميم ما تشعث، ولا تجديد بناء على الاطلاق، ولأحمد رواية ثانية أنه يجوز ترميم ما تشعث دون ما استولى عليه الخراب، أما الرواية الثالثة فهى تجيز ذلك لهم على الاطلاق.

واذا كان كتاب الأم للشافعى يورد آراء الشافعى وليس آراء تلاميذه ـ كما يقول تريتون ـ فقد كان المفهوم سنة ٢٠٠هـ عدم استحداث كنائس فى أمصار مصرها المسلمون، اما إن كانوا فى قرية يملكونها منفردين، فلم يكن هناك مايمنعهم من إحداث الكنائس.

وهكذا يظهر لنا أن قرارات بناء أو هدم الكنائس كانت تتوقف على طبيعة الفتح العربى للبلد لذلك يقول القلقشندى فى كتابه تحت عنوان :

(فى ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته فى عقد الذمة).

«ومنها ـ أنهم لأيحدثون كنيسة ولا بيعة فيما أحدثه المسلمون من البلاد: كالبصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، ولا فى بلد أسهم أهلها عليها : كالمدينة واليمن. فان أحدثوا فيها شيئا من ذلك نُقض، نعم يترك ماوجد منها ولم يعلم حاله لاحتمال اتصالَ العِمارات به.

وكذلك لا يجوز إحداث الكنائس والبيع فيما فُتح عنْوة، ولا إبقاء القديم منها لحصول الملك بالاستيلاء. أما ما فتح صلحا بخراج على أن الرقبةلهم، فيجوز فيها إحداث الكنائس وابقاء القديمة منها، فان الأرض لهم. وأن فتحت صلحا على أن تكون لنا : فان شرط إبقاء القديمة بقيت وكأنهم استثنوها، ويجوز لهم إعادة المتهدمة منها، وتَطْيين خارجها دون توسيعها».

وبالنسبة لمصر فقد اختلف المؤرخون فى طبيعة الفتح العربى لمصر، وبعد دراستنا لطبيعة الفتح العربى لمصر ـ وذلك فى فصل سابق ـ وجدنا أن مصر فتحت صلحا اذا نظرنا إلى العلاقة بين العرب والاقباط أهل البلاد، كما أنها فتحت عَنْوَة اذا نظرنا إلى العلاقة بين العرب والروم المسيطرين على الحكم. على أية حال، فقد نص الصلح الذى تم بين عمرو بن العاص والأقباط ـ كما ذكرنا سابقا ـ على الآتى : هذا ما أعطى عمرو بن العاص لأهل مصر

من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لايدخل عليهم شئ من ذلك ولاينتقض».

كما ذكرت سابقا أيضا أن شروط صلحهم كانت ستة شروط كما أشارت إليها المصادر العربية : لايخرجون من ديارهم، ولا تنزع نساؤهم ولا أبناؤهم، ولا كنوزهم، ولا ظأراضيهم، ولايزاد عليهم، ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم. وهكذا نستطيع أن نقول تبعا لنص الصلح وللشروط الستة أن الأقباط فى مصر كان لهم الحق فى بناء كنائس جديدة لأن الأرض ملكهم.وقد ذكرنا سابقا أن الأقباط كانوا يملكون الأراضى، وقد ضربنا المثل بالمرأة القبطية التى كانت تملك أراضى شاسعة فى قرية طاء النمل، لذلك فعندما أنكر الجند على مسلمة موافقته على بناء كنيسة لهم، أخبرهم أنها فى أرضهم.

كما كان لهم الحق بالتالى فى الابقاء على الكنائس القديمة وترميمها، لأنهم أعطوا الأمان عليها.

وهكذا لم يكن هدم أو بناء الكنائس فى مصر تبعا للصلح الذى تم فى وقت الفتح بين عمرو بن العاص والأقباط، وانما يتوقف على سياسة الحاكم واليا كان أم خليفة، وهو ما يفسر لنا التناقض فى قرارات الولاة فى هذا الشأن، حيث كان بعضهم يبيح وبعضهم يمنع.

وفى ختام هذا الموضوع يجدر بنا أن نشيرإلى أن بناء المساجد، كان يستلزم نقل كثير من الأعمدة والتيجان من الكنائس، لاستخدامها فى بناء المساجد، وترى الدكتورة سيدة كاشف أنه لا يجب أن يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء فى المساجد، وخاصة فى العهد الأول للاسلام، وانما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى.

على أننا نلاحظ أنه على الرغم من أن نقل الأعمدة من الكنائس إلى المساجد كان أمرا شائعا، إلا أنه لم يكن موضع ترحيب دائما، فقد ذكرنا

سابقا أن احمد بن طولون عندما أخبروه أن جامعه يحتاج إلى حوالى ٣٠٠ عمود لبنائه، وبالتالى يستلزم أخذها من الكنائس التى فى الأرياف والضياع الخراب، لم يتحمس للفكرة، حتى عرض عليه المهندس النصرانى بنائه بلا عمد إلا عمودى القبلة، وقد ذكر بعد ذلك فى خطبة له انه رفض استخدام أعمدة الكنائس لانه لم يكن يحب أن يدخل فيه شائبة.

كما ذكرنا أن أبا الحسن بن الطحان ترك الصلاة فى جامع الجيزة، لأن محمد بن عبد الله الخازن أخذ عمده من كنيسة، وذلك على الرغم من أنه كان يصلى فى جامع عمرو بن العاص والذى كانت أكثر أعمدته من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر كما ذكر المقريزى .

الرباطات

يقصد بالرباطات بيوت المسنين فى العصر الحاضر، وهى خاصة بالسيدات المسنات، ويقول المقريزى: كان بالقرافة الكبيرة عدة دور يقال للدار منها رباط، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يكون فيها العجائز والأرامل العابدات، وكانت لها الجرايات والفتوحات، وكان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ ».

ومن الرباطات التى كانت بالقرافة:

رباط الأشراف:

كان برحبة جامع القرافة يعرف بالقراء، وببنى عبد الله، وبمسجد القبة، وهو شرقى بستان ابن نصر. بناه أبو بكر محمد بن على المادرائى ووقفه على نساء الأشراف

الفصل الثالث

العمائر التجارية

. القيساريات .

. الفنادق .

الفصل الثالث

العمائر التجارية

اقتضى النشاط التجارى فى مصر، بناء العمائر التجارية التى كانت ـ فى فترة بحثنا ـ تنقسم إلى القيساريات والفنادق.

أولا : القيساريات:

وكانت القيساريات تتكون عادة من مجموعة من المبانى العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن وأحيانا مساكن وبها كذلك أروقة. والكلمة مشتقة من لفظ يونانى معناه السوق الامبراطورية، مما يدل بوضوح على أنها كانت من إنشاء الدولة، أما فى مصر الإسلامية فيبدو أنها كانت من إنشاء التجار وكبار رجال الدولة .

ومن القيساريات التى بنيت فى مصر فى فترة بحثنا، يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان بنى قيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، كما بنى قيسارية عبد العزيز التى كانت تختص ببيع البز، وقد سماها العامة قيسارية أبى مرة وهى خطة كعب بن عدى العبادى فاشتراها عبد العزيز منه وبنى بها حماما لابنه زبان كما ذكرت سابقا ، ويبدو أنه أطلق عليها قيسارية عبد العزيز نسبة له. كذلك يذكر ابن عبد الحكم أن هشام بن عبد الملك قد بنى قيسارية تعرف بقيسارية هشام، وكان يباع فيها البَزّ الفسطاطى، وكانت تقع فى الفضاء بين القصر وبين البحر. وعن سبب بناء هذه القيسارية يقول الكندى :« كتب الحر (أى الحر بن يوسف) إلى هشام يعلمه أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها، فان الناس مضطرون اليها. فأذن له فى بنائها قيسارية، فابتدأ فى بنائها فى رجب سنة سبع ومائة، وفرغ منها فى سنة ثمان ومائة، وهى قيسارية هشام التى عند الجسر ».

قيسارية نكا. وربما كانت نسبة الى نكا الأعور الذى تولى مصر من قبل المقتدر بالله عام ٣٠٢ ـ ٣٠٧ هـ/ ٩١٥ ـ ٩١٩م.

قيسارية ابن أبى الثريا. ويقول عنها ابن دقماق إنها كانت من خطة النضر بُشَير بن عمرو المزنى، ثم إلى ابنه بشير، وكان قاضيا بمصر زمن عبد العزيز بن مروان عام (٦٨ ـ ٦٩هـ/ ٦٨٧ ـ ٦٨٨م)، ثم صارت فى أيدى جماعة من مزينة، ثم صار بعضها لأبى الثريا أحد غلمان محمد بن تكين أمير مصر (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م)، وتوفى أبو الثريا فى عام٣٦٩هـ/ ٩٧٩م.

قيسارية الأنماط القديمة . وهى خطة عمرو بن أبى سحابة اليحصبى، وقد صارت إلى الشريف أبى عبد الله الحسن بن محمد طباطبا الحسينى فبناها، وسكنها أصحاب الأنماط فى عام ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م.

قيسارية نحرير. بعقبة بنى فليج وهى منسوبة إلى نحرير الأزغلى.

القيسارية المقابلة لمسجد جبر بن القاسم .كانت قديما لعلى بن محمد الأسدى الكاتب، من أصحاب خمارويه بن أحمد بن طولون، وقد توفى عام ٣٢٠هـ/ ٣٣٢م.

قيسارية بدر الخفيفى.

ثانيا: الفنادق :

أما الفنادق، فيقصد بها العمائر التى أنشئت لا قامة التجار الأجانب، تسهيلا لاقامتهم فى البلاد، وقيامهم بالصفقات التجارية، وكانت إدارة الجمارك بالموانىء (الديوان) هى الهيئة التى تشرف على هذه الفنادق، وتكلف بالسهر على سلامتها ودفع إيجارها واصلاحها. وكان كل فندق يشرف عليه موظف يعرف بالفندقى تختاره الجالية التى يتبع لها الفندق وهو الذى يمثلهم أمام السلطات.

وكان يسمح لبعض الفنادق أحيانا بايواء الأجانب المارين بمصر أو الاسكندرية والشام، أو لحجاج بيت المقدس وسيناء لبعض ليال نظير دفع نفس الأجر الذى يدفعه التاجر عن كل ليلة يقضيها.

والفندق هو بناء ضخم مربع على شكل الحصن، امتدت خارجه حدائق غرست بها بعض الأشجار. وكان الفندق يتألف من عدة طوابق، وفى الدور الأرضى منها كانت توجد المخازن والحوانيت التى تطل على فناء داخلى فسيح يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها، بينما تضم أدواره العليا مساكن التجار الذين كانوا ينامون فيها، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. وكلمة فندق كلمة يونانية الأصل.

ومن الفنادق التى ظهرت بفسطاط مصرفى فترة بحثنا (من الفتح العربى الى بداية الدولة الفاطمية):

فندق حوى بن حوى العذرى : وكان يوجد بعقبة النجارين، وكان نافذا الى دار العنقود، فسد الباب، وهو الباب الحجر المقابل لدار العنقود. وحوى هذا من أهل وادى القرى، ذكره ابن يونس، وقد توفى بمصر سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م.

فندق ابن حرمه : وهو بأول سوق العداسين، وكان أمراء مصر ينزلون فى المسجد الذى على بابه من زمن الفتح الى أيام يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ/ ٦٧٩ - ٦٨٣م).

الخاتمة

بعد أن تتبعنا فى الأبواب والفصول السابقة التحول الذى طرأ على المجتمع المصرى بعد الفتح العربى، يجدر بنا هنا أن نوجز مظاهر هذا التحول كما أسفرت عنها هذه الدراسة.

لقد أبقى العرب بعد دخولهم مصر على جميع الأنظمة التى كانت سائدة فيها فى العصر البيزنطى، نظرا لأنه لِم يكن لديهم أنظمة أفضل منها يطبقونها من ناحية، ولأن هذه الأنظمة كانت تخدم مصالحهم من ناحية أخرى.

وبالنسبة للملكية العقارية فى مصر، فقد اختلف المؤرخون فى طبيعة الفتح العربى لمصر وانقسموا الى ثلاث فرق:

الفريق الأول : يرى أن مصرقد فتحت صلحا.

الفريق الثانى : يرى أن مصر قد فتحت صلحا ما عدا الاسكندرية وثلاث قرى هى : سلْطَيْس، ومِصيل، وبَلْهِيب.

الفريق الثالث : يرى أن مصر قد فتحت عَنْوَة.

وقد تبين لى من بحث هذه الآراء أن فتح العرب لمصر كان عنوة وصلحا فى نفس الوقت، فهو عنوة من زاوية العلاقة بين العرب والبيزنطيين، وهو صلح اذا نظر اليه من زاوية العلاقة بين العرب والأقباط.

وكان السؤال الذى طرحته كيف انعكست طبيعة الفتح العربى على الملكية العقارية فى مصر؟

لقد كانت الأراضى فى مصر قبل الفتح العربى تنقسم الى ثلاثة أنواع:

النوع الأول : أراضى التاج البيزنطى، وأراضى الاقطاعات العسكرية وأراضى الاقطاعات التى منحت للشخصيات الكبيرة المنتمية للحكم السابق.

النوع الثانى : الأراضى المقدسة سواء التى خصصت للكنائس أو التى خصصت للأديرة.

النوع الثالث : الأراضى التى كانت مع الأقباط.

وبالنسبة للنوع الأول فقد استولت عليها الخلافة العربية، أما النوع الثانى فلم تتخذ حكومةالعرب أى موقف تجاهها إلا فى إمارة عبد العزيز على مصر (٦٥ـ ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ ٧٠٥م) الذى فرض الخراج على الأراضى التى تمتلكها الكنائس والأديرة.

أما بالنسبة للنوع الثالث وهى الأراضى التى كانت مع الأقباط، فقد اختلف المؤرخون المحدثون فى شكل الملكية العقارية فيها، هل كان للمصريين حق الملكية التامة او كان لهم حق الانتفاع فقط؟ وقد وجدت أن هذا الخلاف لم يكن فقط يرجع الى الاختلاف حول شكل الملكية العقارية فى مصر قبل الفتح، بل يرجع أيضا الى الاختلاف حول طبيعة الفتح العربى لمصر.

على أية حال فقد اتفق المؤرخون على أن أراضى مصر سواء فتحت صلحا أم عنوة هى أرضى خراجية .على أن هذا لم يمنع فى رأيى من وجود الأراضى العشرية نتيجة لا ستيلاء الدولة الحاكمة على أراضى البيزنطيين والأراضى التى تركها أهلها أو أراضى من قتل منهم فى الحرب، وجميع الأراضى التى ليس لها صاحب .

وقد تمثلت أشكال الحيازة العقارية فى مصر بعد الفتح العربى فى ثلاثة أشكال :

الشكل الأول : الاقطاع، وكانت هناك الى جانب اقطاعات العرب، اقطاعات أخرى للاقباط .

الشكل الثانى : الأحباس أو الأوقاف، وكانت توقف على المشروعات الخيرية، ويشرف عليها القضاة .

الشكل الثالث : نظام القَبَالات، وهو منح حق جباية الضرائب، وخاصة خراج الأرض، فى مزادات علنية .

أما بالنسبة للنظام المالى المتمثل فى جباية الخراج والجزية، فقد كان استمرارا للنظام البيزنطى وذلك من نص أورده ابن عبد الحكم يقول فيه: «كان عمرو بن العاص، لما استوثق له الأمر، أقر قبطها على جباية الروم».

وبالنسبة للجزية فكان يدفعها أهل الذمة، وإن كان بعض عمال الخراج عمدوا الى تحصيلها ممن أسلم منهم، على اعتبار أن الاسلام أضر بالجزية.

وبالنسبة لطبقة الفلاحين، فقد كانت عند الفتح العربي من الأقباط، وظلت كذلك بعد الفتح العربي حوالى قرن من الزمان خاصة مع تحريم عمر بن الخطاب على الجند فى مصر العمل بالزراعة، ثم دخل العرب فى هذه الطبقة مع مجيء قبيلة قيس إلى مصر عام ١٠٩ هـ /٧٢٧م، ونزولها بلبيس فقد كان مجيئوها مشروطا بعملها بالزراعة، وبعد مرور حوالى قرن آخر على مجيءقبيلة قيس أسقط المعتصم العرب من الديوان، فلم يكن أمامهم سوى الاشتغال بالحرف المختلفة التى كان من ضمنها الزراعة.

أما بالنسبة لطبقة الصناع التى كانت تتكون من الأقباط فقد استمرت فى عملها بالصناعة بعد الفتح العربى لمصر، وحتى بعد سقوط العرب من الديوان وعملهم فى شتى مجالات الحياة المختلفة.

وبالنسبة لطبقة التجار التى كانت تتركز فى الاسكندرية وتتكون من اليهود خاصة ومن الروم والاقباط والسوريين وعناصر أخرى، فبعد الفتح العربى لمصر أضيفت إليها طبقة من التجار العرب الذين استوطنوا مصر.

كما أضيفت إليها طبقة من تجار فارس فى الدولة الطولونية، وفى الدولة الاخشيدية أضيفت إليها أيضا طبقة من اليهود من سوريا.

وقد استطاعت طبقة التجار أن تكون ثروات طائلة من عملها بالتجارة، انعكس بالتالى على نفوذها السياسى، اذ استطاعت أن تتولى أعلى المناصب فى الدولة.

وبالنسبة للنظام الادارى فقد أبقى العرب على الموظفين فى وظائفهم، وكان هؤلاء الموظفون إما عمال من القبط أو عمال من الروم، واحتفظوا لأنفسهم بالمناصب الرئيسية مثل : الوالى وصاحب الخراج وصاحب الشرطة وغيرها ـ التى تمكنهم من تأكيد سيطرتهم، كما تضمن لهم خدمة مصالحهم.

ثم مـا لبث أن تغـيـر هذا الوضـع ـ بعـد فـتـرة من الفـتـح ـ تحت عـاملين أساسيين هما :

١ ـ تعريب الدواوين.

٢ ـ تحريم الخلفاء استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة.

وكان الدافع وراء هذين العاملين ـ كما أثبتنا ـ هو توافر طبقة من العرب يسـتطيـعـون أن يتـولوا الوظائف بدلا من أهل الذمـة. على أن الحـاجـة الى اسـتـخـدام الأقباط فى الوظائف الحكومية ظلت قـائمـة، والدليل على ذلك ما ذكرته المصادر من أسماء لموظفين أقباط طوال الحكم العربى.

وقد اختلف الأمر بالنسبة للنظام الحربى، فقد حل الجيش العربى مـحل الحاميات العسكرية الرومانية، وحرم على جنوده العمل بأى مهنة أخرى غير الجهاد حتى يظل على أهبة الاستعداد للحرب. ولكن الى جانب هذا الجيش النظامى، كان هناك جيش من المتطوعة كانوا أحرارا فى العودة الى ديارهم وأعمالهم بعد انتهاء الحرب. و لم يشترك المصريون الأقباط فى الجيش، بل كانوا يدفعون الجزية لقاء اعفائهم من الجندية.

على أن هذا الجيش العربى قد أصـابه الكثير من التغير على مر الزمن وفقا للتطورات التى حدثت فى الخـلافـة نفسـهـا من حيث سـيطرة العرب أو الفـرس أو الترك، فـعندمـا كـانت هذه السـيطرة فى يد العـرب، كـان الجنس العربى هو المكون للجيش، وقد استمر ذلك حتى نهاية الدولة الأموية، فلما سـقطت هذه السـيطرة فى يد الفرس مـع الدولة العـباسـيـة، لم يعـد الجنس العربى وحده هو المكون للجيش، حتى اذا مـاوصلنا الى زمن المعتصـم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م) الذى استكثر من الترك، وانتقلت السيطرة اليهم، وجدنا المعـتـصم يأمـر واليه على مـصـر كيـدر نصـر بن عـبـد الله (٢١٧ ـ ٢١٩هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٣٤م) باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم وكان ذلك عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م، وكان من نتيجة ذلك تحول العرب من طبقة عسكرية الى طبـقة مـدنيـة، فـاحـتـرفـوا الزراعـة والصـناعـة والتـجـارة وغيـرها من المهن والحرف التى كانت حتى ذلك الوقت وقفا على أهالى البلاد .

هذا فيما يتعلق بالجيش أما فيما يتعلق بالأسطول، فلم يختلف الوضع عما كان عليه في مصر البيزنطية، فقد اعتمد العرب اعتمادا كليا على الاقباط في العمل على الأسطول كملاحين وعمال وليسوا كمقاتلين، كما استمروا على سياسة الدولة البيزنطية في الاستعانة بخبرة الأقباط في تصنيع السفن .

وبالنسبة للنظام القضائي فقد تغير في مصر بعد الفتح العربي وفقا لشريعة الفاتحين الجدد وهي الشريعة الاسلامية، ولكنه احتفظ بالهيكل القديم مع تغيير مسمياته ووظائفه.

لقد كان النظام القضائي البيزنطي يقوم على أربعة أنواع من المحاكم:

النوع الأول : وهو المحاكم العادية.

النوع الثاني : وهو محكمة الامبراطور.

النوع الثالث : وهو القضاء الكنسي أو المحاكم الكنسية.

النوع الرابع : وهو المحاكم العسكرية .

وقد أبقى العرب على هذا الهيكل مع تغيير مسمياته ووظائفه كما ذكرنا، وهو ما أثبتناه في الرسالة، فكان في العصر الاسلامي أربعة أنواع من المحاكم:

النوع الأول : وهو المحاكم العادية، وكانت هذه المحاكم تتبع الشريعة الاسلامية سواء في اختيار قضاتها أو في أحكامها أو غير ذلك.

النوع الثاني : وهو محكمة الخليفة أو كما تسميه المصادر العربية النظر في المظالم، وكانت تقابل محكمة الامبراطور في العصر البيزنطي .

أما النوع الثالث : فهو محاكم أهل الذمة، وقد أثبتنا أن هذه المحاكم تقابل المحاكم الكنسية في العصر البيزنطي، وكان يتولى القضاة فيها رجال الدين من أهل الذمة، الذين ترك لهم العرب أمر قضائهم.

وقد تقلصت سلطة هؤلاء القضاة الذميين لأن العقوبات التي كانوا يحكمون بها كانت عقوبات دينية فقط، وأصبح من مصلحة الذمي اللجوء الى القضاء الاسلامي لأنه أنفذ وألزم.

أما النوع الرابع والأخير وهو قضاء الجند، فقد اختلف عن المحاكم العسكرية فى الدولة البيزنطية، ففى حين كانت هذه المحاكم دائمة، فان محاكم قضاء الجند فى الدولة الاسلامية اقتصرت على وقت الحرب فقط.

أما بالنسبة لتعريب المجتمع المصرى،فقد جرى هذا التعريب من خلال العوامل الآتية:

١ـ هجرة القبائل العربية.

٢ـ انتشار اللغة العربية.

٣ـ انتشار الاسلام.

وقد ارتبطت هذه العوامل ببعضها البعض، فقد أدى نزوح القبائل العربية الى مصر ونزولها فى الريف الى اختلاطها بالأهالى، وهذا أدى الى انتشار اللغة العربية. كما أدى الى انتشار الاسلام .

وقد اختلف الأمر بذلك عما كان عليه قبل الفتح العربى، فلم يختلط الرومان أو البيزنطيون بالمصريين، وانما عاشوا فى مصر كطبقة حاكمة، ولذلك لم يكن لهم تأثير على المصريين سواء من حيث العادات والتقاليد أو اللغة .

وقد تبع التحول فى المجتمع المصرى من مجتمع قبطى ـ بيزنطى الى مجتمع عربى تحول فى العادات والتقاليد، وفى الأعياد والمواسم، وفى الطعام والشراب وغير ذلك .

وفى الوقت نفسه حدث تحول كبير فى الحركة الفكرية فى مصر. فقد كانت مركز الحركة الفكرية قبل الفتح العربى الاسكندرية، وعندما فتح العرب مصر انتقل هذا المركز من الاسكندرية الى الفسطاط العاصمة الجديدة للعرب، وإن لم يتأثر مركز الاسكندرية كثيرا بهذا الانتقال خصوصا فيما يتعلق بالعلوم الفلسفية.

وقد مرت الحركة الفكرية فى مصر بعد الفتح العربى بمرحلتين:

المرحلة الأولى : من بداية الفتح حتى بداية حركة الترجمة، وقد عنيت بالعلوم الاسلامية والأدبية.

والمرحلة الثانية: ما بعد حركة الترجمة، وقد عنيت بالعلوم الفلسفية.

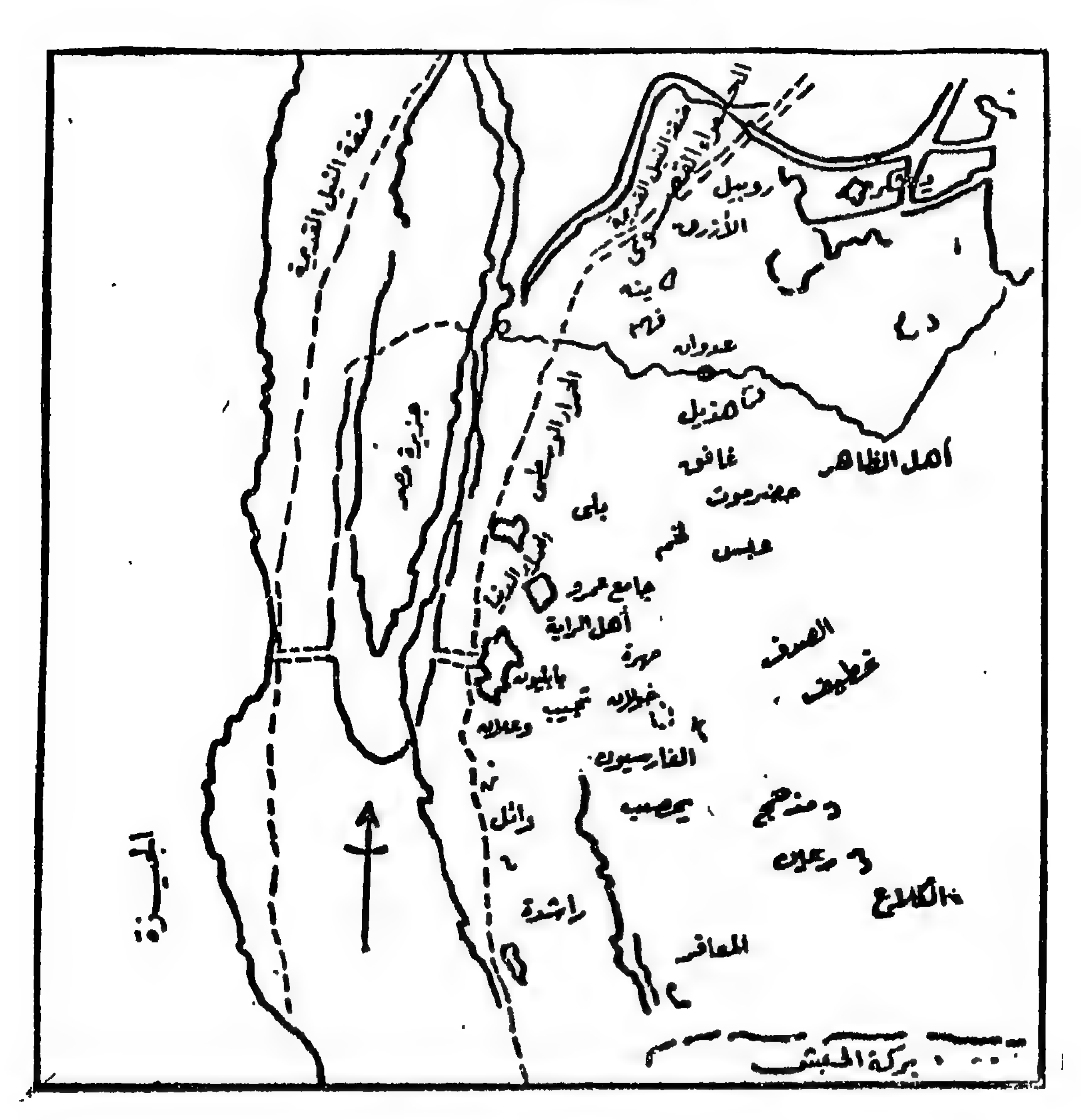
كذلك كان من أهم الميادين التى حدث فيها تحول كبير ميدان الفنون. فقد كان تغير الفن فى مصر ضرورة فرضتها طبيعة النظام العربى الجديد الذى يدين بالديانة الاسلامية، فظهر ما يعرف بالفن الاسلامى، ولم يكن فنا عربيا بحتا وانما هو فن مصرى اسلامى، طبعه العرب بطابع دينهم.

وقد تأثرت بهذا التحول أيضا حركة البناء والتشييد فى المجتمع المصرى، وان ظل يقوم بها البناءون الأقباط. وقد كان من نتيجة التحول العربى للمجتمع المصرى أن تغيرت أهمية الحواضر والمدن مع انتقال السيطرة من القسطنطينيةفى أوربا الى المدينة فى شبه جزيرة العرب، فبعد أن كانت عاصمة مصر هى الاسكندرية أصبحت هى الفسطاط. فتناولت بناء كل من العواصم والمدن الجديدة فى المجتمع المصرى العربى الجديد.

وقد ظهرت فى هذا المدن المساجد والجوامع تبعا لديانة العرب المسيطرين على الحكم، وفى المقابل تعرضت الكنائس التى فى العهود السابقة للهدم، ولكن عملية الهدم هذه لم تكن سياسة ثابتة، وإنما خضعت لسياسة كل من الوالى أو الخليفة.

ومن هذا العرض يتضح حجم التحول الهائل الذى طرأ على المجتمع المصرى بعد الفتح العربى .

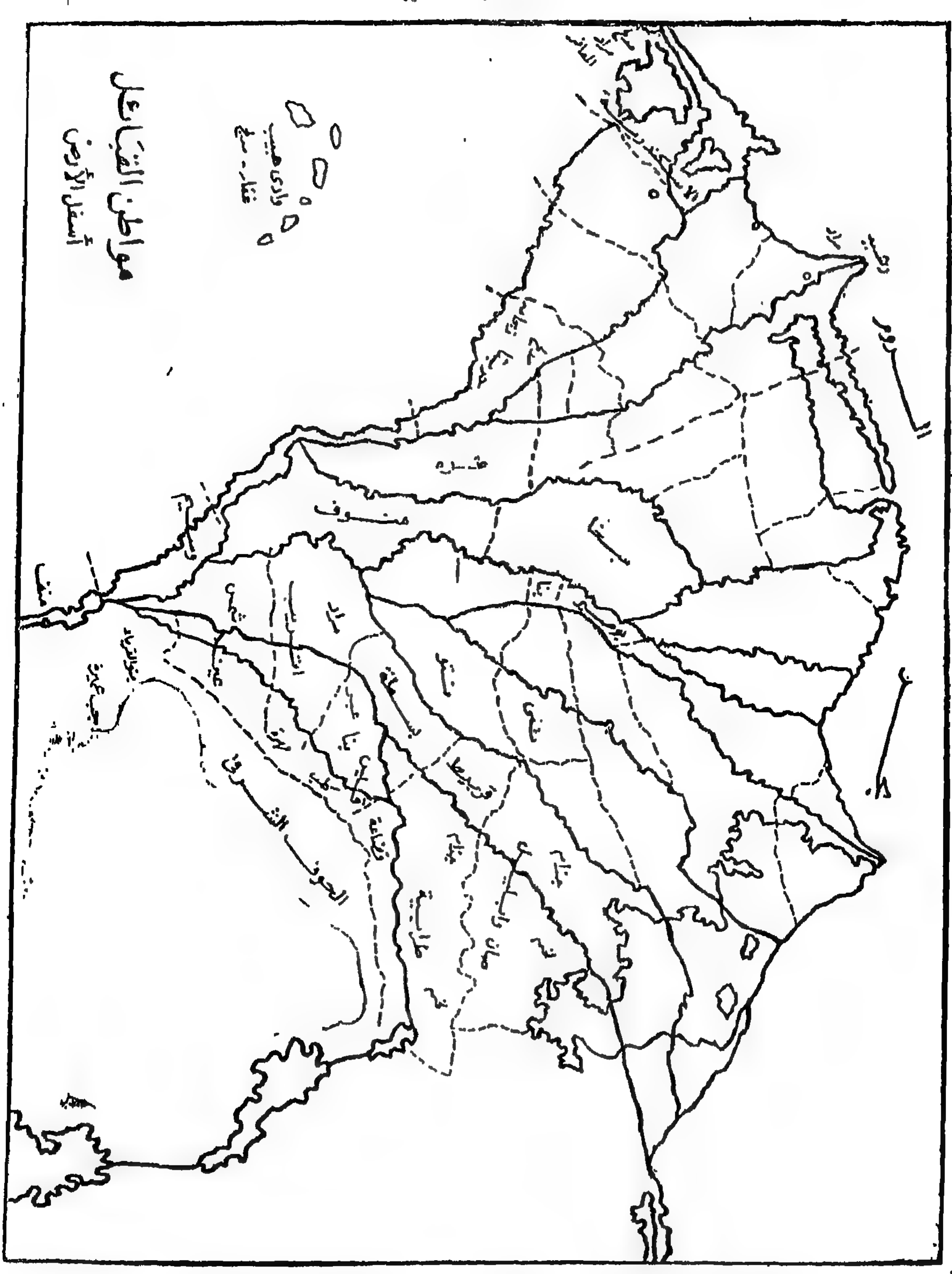
ملحق رقم (٣)



خطط الفسطاط سنة ٢١ هـ

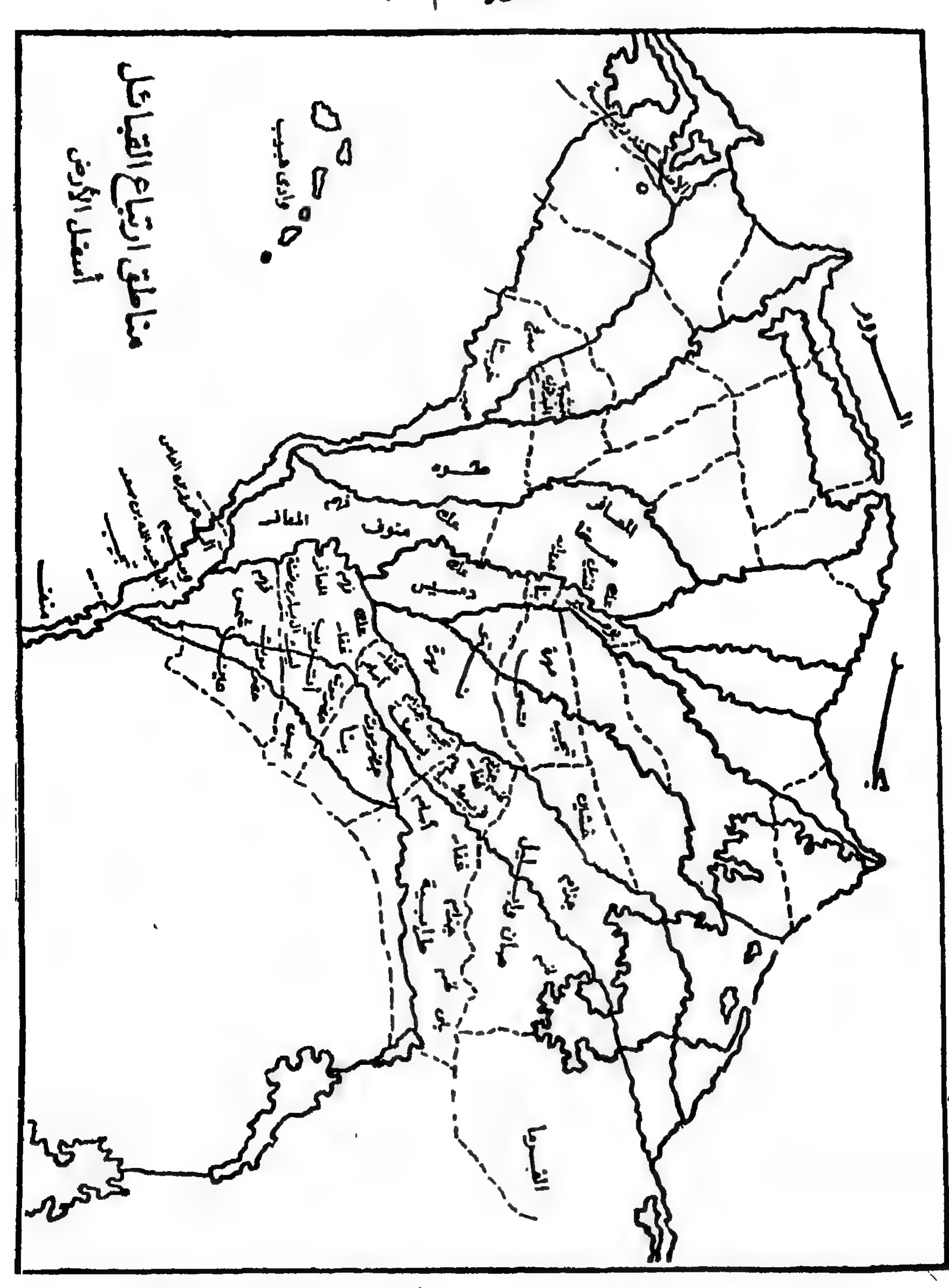
من كتاب مصر فى فجر الإسلام - للدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف

ملحق رقم (٤)



من كتاب القبائل العربية في مصر ـ للدكتور عبدالله خورشيد

ملحق رقم (٥)



من كتاب القبائل العربية في مصر - للدكتور عبد الله خورشيد

ملحق رقم (٦)

عقد الزواج رقم ١٥٩ مؤرخ فى شهر ربيع الأول سنة ٢٥٩ هـ.

[جرومان: أوراق البردى العربية، السفر الأول]

١ بسم الله ا[لرحمن الرحيم]

٢ [هـ]ـذا ما أصدق إ[سـ]ـمعيل مولى أحمـد] بن مروان القر[شـ]ـى بمدينة أشمون عايشة

٣ [ابـ]ـنت يوسف السا[كنة . . . . عند ما خطبهـ]ـا الى نفسها وهـ[ـى ا]مرأة أيم بالغ بعد أن فو[ضت]

٤ [امـ]ـرها الى جدّهـ[ـا يعقوب] بن اسحق الـ[ـ. . . . و] أشهدت له شهود

٥ [بتـ]ـوكيلها إياه فقبل وكـ[ـالتهـ]ـا وانفذ [نكاحها وأصـ]ـدقها إسمعيل مولى

٦ [ا]حمد بن مروان القرشى أربعة دنانير مثاقيل طرا جياد وازنة يعجل لها

٧ [ا]سمعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجلا ويبقى لعا[يشـ]ـة ابنت يوسف

٨ على زوجهـا إسمعيل مولى أحمـد بن مروان دينرين مؤخرين الى خـ[ـمسة] سنين

٩ أولهم شهر ربيع الـ[أول] سنة تسع وخمسين ومائتين وشرط اسمعيل مولى

١٠ أحمد بن مروان لامرأته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة

١١ كما أمر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على

١٢ الإمساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان وشرط اسمعيل

١٣ مولى أحمد أن كل امرأة يتزوّجها على إمرأته عايشة ابنت يوسف

١٤ [تقـ]ـام تلك المرأة بيد عايشة تطلق كيف [شـ]ـات من الطلاق

١٥ وولى عقدة هذا النكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وأنفذ

١٦ النكاح ورضى اسمعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط المسمات

١٧ فى هذا الكتاب وألزم ذلك نفسه فى صحة عقله وبدنه وجواز

١٨ أمره لا علة به من مرض ولا عرة فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع

١٩ وخمسين ومائتين وشهـ[ـد على] ذلك

ملحق رقم (٧)

عقد الزواج المرموز له برقمي ١٤٠ + ٨٦ مؤرخ في العشر الأواخر من شهر شعبان سنة ٢٧١ هـ.

[جرومان: أوراق البردي العربية، السفر الأول]

١ [بسم الله الرحمن الرحيم]

٢ هذا ما أصدق ي[حنس بن شنوده الساكن م]دينة أشمون دروا ابنت

٣ شنوده [الساكنة مدينة كذا عند ما خطبها الى نفسه]ا وهى امرأة أيم بالغ تلى

٤ نفسها . . [. . . . . فلان بن فلان البقـ]ـال وأشهدت له شهودا

٥ بتوكيلها إياه فى إن[كاحها] ن فأصدقها أ[ر]بعة دنانير

٦ عينا ذهبا لمرأته في[ل اصابته بها] ودخوله عليها دينرين نقدا جياد

٧ معجلا وأخرت . . [ ] صداقها على زوجها يحنس بن شنوده

٨ خمسة سنين متواليات أ[ولهن شعبان من سنة إحـ]ـدى وسبعين ومايتين وعليه تقوا

٩ الله وحده لا شريك له و[احسان صحبتها] وقد أوصل يحنس بن شنوده الدينرين

١٠ المعجلين الى امراته دروا [ابنت شنوده . . . . .] لله وأقرت بوصولهما اليها وذلك

١١ فى العشر الأواخر من شعبا[ن سنة إحد]ى [و] سبعين وماتين شهد على ذلك

١٢ ا[بر]ا[هـ]يم . . . .]

١٢ [أن يـ]تق الله وحده لا شريك له ويحسن صحبتها وعشرتها ولا يضار بها ويفعل ما أمره الـ[ـله]

١٣ [وسنة مـ]حمد صلى الله عليـه وسلم على ما أمر الله به من الامساك بالمعروف أو التسريح باحسـ[ان]

١٤ [ ] اسحق بن سرى بانفاذه هذا النكاح على ما ذ[كرو] فسر . . . . [بعد ان قرى]

١٥ [عليهم] حرفا حرفا عرفوا ما فيه فاقروا بفهمه [ومعر]فة ما فيه من تعرفهم بأ[سمائهم وأنسابهم]

١٦ [وذلك فى] العشر الأواخر من جمـادى الآخرة من سنة تسع وسبعين وماتين شهـ[ـد فلان بن فلان على]

١٧ [اقرار اسـ]حق بن سرى وعلى اقرار يعقوب بن اسحق بن يحيي بجميع ما فى هذا الكتاب النكاح [وذلك فى جمادى الآخر سنة ٢٧٩]

١٨ [ ] . . . على اقرار هنيدة ابنت اسحق بن سرى وعلى اقرا[ر] ا . . [ ]

١٩ [ ] بجميع ما فى هذا الكتاب وذلك فى جمادى الآخر [من سنة تسع وسبعين وماتين شهد فلان بن فلان على قرار يعقوب]

٢٠ [بن اسحق النسا]ج وعلى اقرار اسحق بن سرى الطراف الأب [وذلك فى جمادى الآخر من سنة تسع وسبعين وماتين]

٢١ [شهد] . . . . بن العباس على اقرار ا[سحق بن سرى . . . وعلى اقرار يعقوب بن]

٢٢ [اسحق و] كتب شهادته فى جمادى الآخر من سنة [تسع وسبعين وماتين]

٢٣ [ ] . . . . على اقرار اسحق [بن سرى]

ملحق رقم (٨)

عقد الزواج رقم ١٢١ مؤرخ فى العشرة الأيام الأخيره من شهر جمادى الآخرة سنة ٢٧٩ هـ. [جروهمان : أوراق البردى العربية باسفر الأول]

١ [بسم الله الرحمن الرحيم]
٢ [هـذا ما أصد]ق يعقوب بن [اسـ]حق بن [يـ]حيى النساج الساكن مدينة أشمون هنيدة ابنت [اسحـ]ق بن [سرى]
٣ [عند مـ]ـا خطبها الى نفسها وهى يومئذ امرأة أيم بكـ[ـر با]لغ بعد أن فوضت أمرها الى ... [ ]
٤ [وتوكيـ]ـلها إياه فى إنكاحها مـ[ـن] يعقوب بن اسحق بن يحيى [بالـ]صداق العاجل والآجل [لهـ]ـا [عليه]
٥ [عجّل لهـ]ـا من ذلك قبل اصابته بها ودخوله عليها دينرين نقدا حالا معجلا ... هنيدة ابنت اسحـ[ـق بن سرى]
٦ [بعد ا]ن خلين خمسة سنين متواليات أولهن جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين وما[يتين]
٧ [وشرط اسحـ]ق بن سرى شروطا أوجبها على نفسه بعد أن عقد عقدة نكاحها .. [ ]
٨ [او] ذمّية فأمرها بيد امرأته هنيدة ابنت اسحق تطلقها عليه ما شات من [الطلاق]
٩ [جايز] عليه ولازم له وكل جارية يتخذها عليها ... [يـ]ـكون بيعها بيد امرأته هـ[نيدة ان شاءت عتقت]
١٠ [وان شاءت بيـ]ـعت فعتقها وبيعها جايز عليه ولازم له ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها [منها]
١١ [اسحـ]ـق بن سرى بأمرها ورضاها بعد أن أشهدت له شهودا بتوكيلها إياه [وعايه]

ملحق رقم (٩)

عقد الزواج رقم ١٤٤ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجرى.

[جروهمان : أوراق البردى العربية ، السفر الأول]

١ بسم الله الرحمن الر[ر]ح[يم]

٢ هذا ما أصدق حميد بن شهران أص[دق من العين]

٣ الجيد [المصرى ع]شرين دينارا . [تاما]

٤ [وافي]ا وابراته من ذلك براة قبض واستيفى ويبقى لها [كذا دين]ارا مؤخر لها عليه الى انقضى ثمانية حجج متواليات

٥ أولهن تاريخ هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وج[ل فيها ويحسن صحبتها بـ]المعروف كما أمره الله تبارك وتعالى

٦ به فى كتابه وسنة محمد رسوله صلى الله عليه وعلى آ[له .... فيـ]ـما عليه من ذلك ودرجة زايدة كقول

٧ الله تعالى وللرجال عليهن درجة والل[ـه] عزيز حكيم وتولى تزويجها ... . وبأمرها

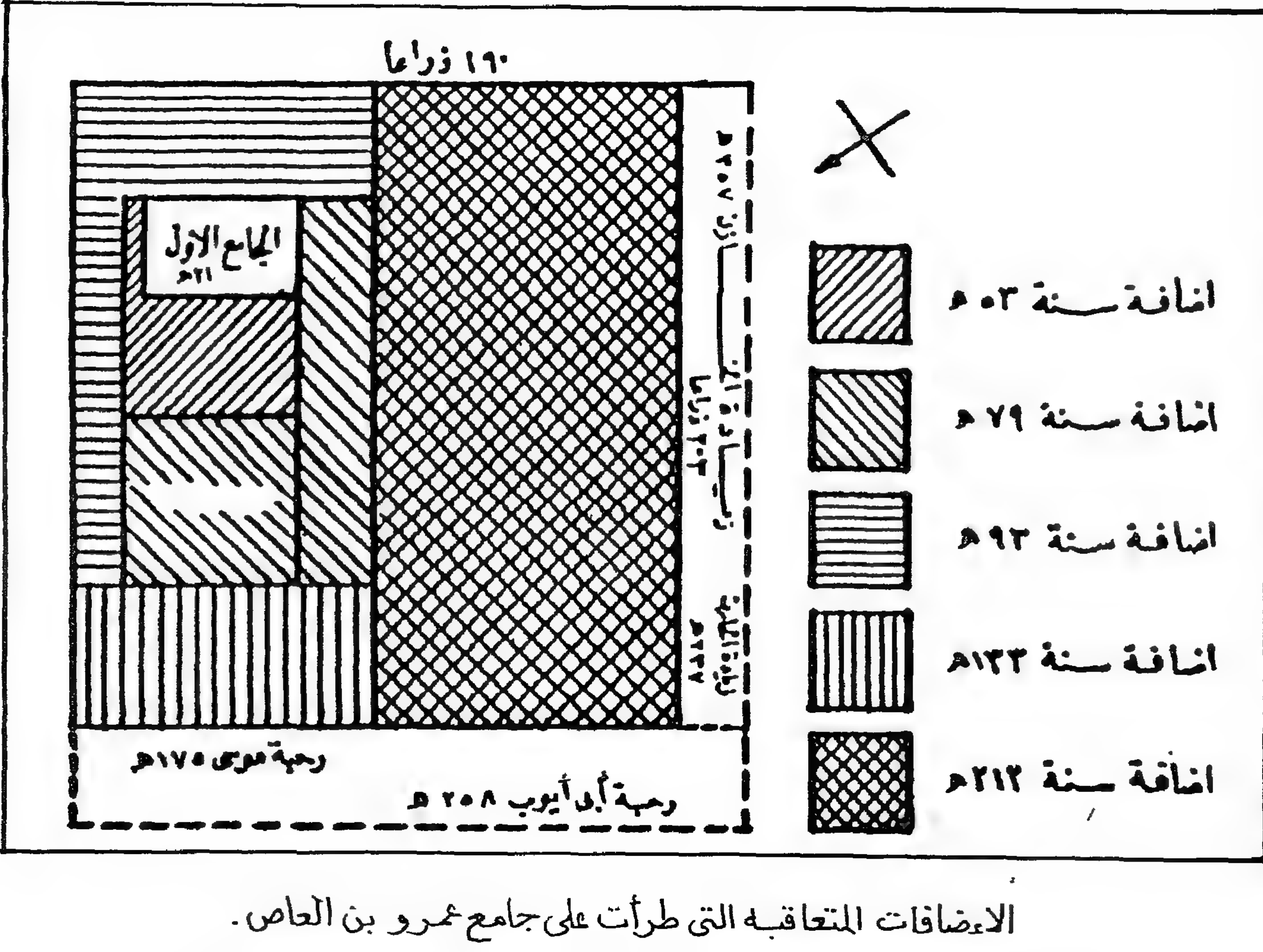
٨ ورضائها وتوكيلها إياه بذلك وإشهادها لها [وعلي]ها وهى يوميذ بنت بكر بالغ صحيحة العقل

٩ والبدن جايزة الأمر لها وعليها فـ[ـرضى حميد بن شهران بهذا] الصداق المذكور عاجله وآجله

١٠ وعلى الشرايط المذكورة فيه وقبل ا[لزوج المذكور هذا النكاح] المقر بما شرط له وعليه

١١ بزوج .. [فى صحة عقولهم وابدانهم وجواز أمورهم طايعين غير مكرهين] و[لا مجـ]ـبرين ولا [مضـ]ـطهدين

١٢] [....



الاضافات المتعاقبة التى طرأت على جامع عمرو بن العاص.

من كتاب العمارة الاسلامية فى مصر - للدكتور كمال الدين سامح.

المصادر والمراجع العربية والمعربة

أولا: المصادر العربية:

ابن الأبار

(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكرت عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) :

١ ـ التكملة لكتاب الصلة ٢٠ جزء. مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببيروت ـ جـ١ ١٩٥٥م، جـ٢ ١٩٥٦م.

ابن أبى اصيبعة

(موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى ت عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م):

٢ ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . تحقيق الدكتور نزار رضا.

دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥م.

ابن الأثير

(عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد الشيبانى ت عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):

٣ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة . دار احياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ).

٤ـ الكامل فى التاريخ . ١٢ جزء. دار صادر ـ بيروت ١٤٠٢هـ هـ/ ١٩٨٢م.

ابن الأخوة

(محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م):

٥ ـ معالم القرية فى أحكام الحسبة . تحقيق الدكتور محمد محمود شعبان والأستاذ صديق أحمد عيسى المطيعى .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٦م.

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ت عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م):
٦ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور. الجزء الأول من القسم الأول. تحقيق الأستاذ محمد مصطفى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب عاش قبل عام ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م):
٧ـ نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. تحقيق الأستاذ حسام الدين السامرائى. مكتبة المعارف ـ بغداد ١٩٦٨م.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى ت عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
٨ ـ رحلة ابن بطوطة. دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

ابن البيطار (ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسى المالقى ت عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م):
٩ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. مكتبة المثنى ببغداد (بدون تاريخ).

ابن تيمية (تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن أبى القاسم ت عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م):
١٠ـ الحسبة فى الاسلام. مطبعة المؤيد ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى ت عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م):

١١ـ رحلة ابن جبير. دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن جزى (عبد الله بن محمد بن جزى الكلبى الغرناطى عاش الى أواخر القرن الثامن الهجرى وربما أدرك أوائل التاسع / الرابع عشر ـ الخامس عشر الميلاديين):

١٢ـ الخيل. تحقيق الأستاذ محمد العربى الخطابى . دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ـ لبنان ١٩٨٦م.

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى ت عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م):

١٣ـ سيرة عمر بن الخطاب . تحقيق طاهر النعسان الحموى وأحمد قدرى كيلانى .

المكتبة التجارية الكبرى (المطبعة المصرية) ـ القاهرة (بدون تاريخ).

ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبى ت عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م):

١٤ـ صورة الأرض. دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٩م.

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت فى حدود عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):

١٥ـ المسالك والممالك. مكتبة المثنى ـ بغداد ١٨٨٩م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م):
١٦ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر . ٧ أجزاء .
مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
١٧ـ المقدمة. ٣ أجزاء. تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى .
دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ت عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢ م):
١٨ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ٨ أجزاء .
تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الفكر ودار صادر ـ بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

ابن الداية (أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية ت عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م):
١٩ـ المكافأة وحسن العقبى . تحقيق محمود محمد شاكر .
دارالكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ).

ابن دقماق (ابرهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ت عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م):
٢٠ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار، فى تاريخ مصر وجغرافيتها، ويآخره فهارس كتاب الانتصار. الجزء الرابع والخامس.
تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (بدون تاريخ).

ابن الراهب (أبو شاكر بطرس بن أبى الكرم المهذب المعروف بابن الراهب):
٢١ـ تاريخ ابن الراهب. مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٣م.

ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر بن رسته ت عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م):
٢٢ـ الأعلاق النفيسة. المجلد السابع. طبعة ليدن ١٨٩١م.

ابن زولاق (الحسن بن زولاق ت عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)
٢٣ـ أخبار سيبويه المصرى . تحقيق محمد ابراهيم سعد وحسين الديب. مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

ابن الساعى (تاج الدين أبى طالب على بن أنجب المعروف بابن الساعى ت عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م):
٢٤ـ نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء .
تحقيق الدكتور مصطفى جواد. سلسلة ذخائر العرب العدد (٢٨) ـ دار المعارف القاهرة ١٩٦٨م.

ابن سعد (محمد بن سعد ت عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م):
٢٥ـ الطبقات الكبرى . ٨ أجزاء ، دار صادر ـ بيروت (بدون تاريخ).

ابن سعيد (على بن موسى بن سعيد المغربى ت عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م):
٢٦ـ المغرب فى حلى المغرب. الجزء الأول القسم الخاص بمصر.
تحقيق الدكتور زكى محمد حسن ـ الدكتورة سيدة كاشف ـ الدكتور شوقى ضيف. مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م.

ابن سعيد (على بن سعيد المغربى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م):

٢٧- النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة. القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب. تحقيق الدكتور حسين نصار. دار الكتب - القاهرة ١٩٧٠م.

ابن طباطبا (محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ت عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م):

٢٨- الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية. مطبعة محمد على صبيح وأولاده - ميدان الأزهر - القاهرة (بدون تاريخ).

ابن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم ت عام ٢١٤هـ/ ٨٢٩م):

٢٩- سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن أنس وأصحابه رواية ابنه أبى عبد الله محمد (ت ٢٦٨هـ/ ٨٨١م).
تصحيح وتعليق أحمد عبيد. مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ت عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م):

٣٠- فتوح مصر وأخبارها . مكتبة المثنى - بغداد (بدون تاريخ).

ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى ت عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م):

٣١- تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية - بيروت - لبنان الطبعة الثانية ١٩٥٨ م.

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الحنبلى ت عام ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):

٣٢ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ٨ أجزاء. مكتبة القدسى ـ القاهرة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

ابن فرحون (القاضى برهان الدين بن فرحون المالكى ت عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م):

٣٣ـ الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب . ٢ جزء تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور. دار التراث للطبع والنشر ـ القاهرة جـ١ ١٩٧٢م، جـ٢ ١٩٧٦م .

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى ت عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

٣٤ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. تحقيق دوروتيا كرافولسكى. المركز الاسلامى للبحوث ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ت أو اخر القرن الثالث الهجرى/ أوائل العاشر الميلادى):

٣٥ـ مختصر كتاب البلدان . طبعة ليدن ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت عام ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م):

٣٦ـ عيون الأخبار . ٢ مجلد. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٣م.

ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكرت عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):

٣٧ـ أحكام أهل الذمة . ٢ جزء. تحقيق الدكتور صبحى الصالح .
دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير ت عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):

٣٨ـ البداية والنهاية . ١٤ جزء . مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، من الجزء الثالث إلى الجزء الثامن الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

ابن مماتى (الأسعد بن مماتى ت عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):

٣٩ـ قوانين الدواوين. تحقيق عزيز سوريال عطية. سلسة صفحات من تاريخ مصر العدد (١٢) ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ابن النقاش (أبو امامة محمد بن على بن النقاش ت عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م):

٤٠ـ المذمة فى استعمال أهل الذمة. تحقيق الدكتور سعد بن حسين عثمان. أبها ـ المملكة العربية السعودية ـ الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

ابن الوردى (زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردى ت عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

٤١ـ تاريخ ابن الوردى. الجزء الأول . الطبعة الحيدرية ـ النجف ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

أبو عبيد (القاسم بن سلام ت عام ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م):

٤٢ـ الأموال. تحقيق محمد خليل هراس. دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ١٩٨٦م.

أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى الفداء ت عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):

٤٣ـ تقويم البلدان. دار الطباعة السلطانية ـ باريس ١٨٤٠م.

٤٤ـ المختصر فى أخبار البشر . ٤ أجزاء. المطبعة الحسينية المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٠٧م.

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ت عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):

٤٥ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ١٢ جزء. وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٣م.

أبو يوسف (القاضى يعقوب بن ابراهيم ت عام ١٨٢هـ/ ٧٩٨م):

٤٦ـ الخراج. المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م والطبعة الثانية ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

الأبشيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد بن أبى الفتح ت عام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م):

٤٧ـ المستطرف فى كل فن مستظرف . ٢ جزء. تحقيق الدكتور مفيد محمد قمحة. دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الإدفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعى ت عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

٤٨- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. تحقيق سعد محمد حسن، مراجعة الدكتور طه الحاجرى. الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٦م.

الأصطخرى (ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى المعروف بالكرخى ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) :

٤٩- المسالك والممالك . تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال، مراجعة محمد شفيق غربال.
وزارة الثقافة والارشاد القومى - القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين بن محمد القرشى ت عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م):

٥٠- الاغانى. ٣٠ جزء. تحقيق ابراهيم الأبيارى.
دار الشعب - القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى ت عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م):

٥١- فتوح البلدان. مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى):

٥٢- سيرة أحمد بن طولون. تحقيق محمد كرد على. مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة (بدون تاريخ).

التميمى (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد ت عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م):

٥٣- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار . تحقيق مرزوق على ابراهيم . دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

التنوخى (القاضى أبو المحاسن المفضل بن محمد ت عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م):

٥٤- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم.تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - المجلس العلمى رقم (١٥) - طباعة إدارة الثقافة والنشر بالجامعة - الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

جرومان (أدولف جرومان):

٥٥- أوراق البردى العربية . ٦ أسفار.دار الكتب المصرية - القاهرة. السفر الأول ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن، مراجعة الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٣٤م.

السفر الثالث ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن، مراجعة الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٥٥م.

السفر الرابع ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن، مراجعة الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٦٧م.

السفر الخامس ترجمة الأستاذ عبد الحميد حسن، مراجعة الدكتور محمد مهدى علام ١٩٦٨م.

السفر السادس ترجمة ومراجعة وتعليق الدكتور عبد العزيز الدالى ١٩٧٤م.

الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس ت عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م):
٥٦- الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم الأبيارى - عبد الحفيظ شلبى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

الحافظ ابن رجب (ت عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م):
٥٧- الاستخراج لأحكام الخراج. تحقيق جندى محمود شلاش الهيتى. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

الحميرى (محمد عبد المنعم الحميرى من أبناء القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى):
٥٨- الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق الدكتور إحسان عباس. مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٥م.

الخزرجى (الحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله بن أبى الخير بن عبد العليم بن عبد الله بن على بن حسن الأنصارى صنف هذا الكتاب عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م):
٥٩- خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال . المطبعة الخيرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ/ ١٨٩٤م.

الذهبى (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت عام ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م):
٦٠- تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان. تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمرى. دار الكاتب العربى - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٧ - ١٩٨٨م.
٦١- تذكرة الحفاظ. ٤ أجزاء. دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

٦٢- العبر فى خبرمن غبر ٢ جزء . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. التراث العربى - سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر العدد (٤) - الكويت ١٩٦٠م.
٦٣- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار . ٢ جزء. تحقيق بشار عواد معروف - شعيب الأرناوءوط - صالح مهدى عباس. مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الرازى (محمد بن أبى بكر بن عبد القادر ت عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):
٦٤- مختار الصحاح. دار القلم - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسى ت عام ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م):
٦٥- طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. سلسلة ذخائر العرب العدد (٥٠) - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٣م.

ساويرس (ساويرس بن المقفع عاش حتى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ أواخر العاشر الميلادى):
٦٦- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية أو سير الآباء البطاركة. المجلد الثانى (٣ أجزاء). مطبوعات جمعية الآثار القبطية - مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة جـ١ ١٩٤٣م، جـ٢ ١٩٤٨م، جـ٣ ١٩٥٩م.

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م):
٦٧- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . ١٢جزء. مكتبة القدسى القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

٦٨ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة. ٢ جزء تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ القاهرة الطبعة الأولى جـ١ ١٩٦٤م، جـ٢ ١٩٦٥م.

٦٩ـ تاريخ الخلفاء. المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٧٠ـ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . ٢ جزء. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى جـ١ ١٩٦٧م، جـ٢ ١٩٦٨م.

الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد ت عام ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م):

٧١ـ الديارات. تحقيق كوركيس عواد. مطبعة المعارف ـ بغداد ـ الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

الشعرانى (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الأنصارى الشافعى المصرى من أعيان علماء القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى):

٧٢ـ الطبقات الكبرى . ٢ جزء . مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده مصر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

الشيرازى (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى ت عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م):.

٧٣- القاموس المحيط . ٤ أجزاء .الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

الشيزرى (عبد الرحمن بن نصرت عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م):

٧٤- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. نشره الدكتور السيد الباز العرينى، واشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى ت عام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وقيل عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م):

٧٥- أدب الكتاب. تعليق محمد بهجه الأثرى ومراجعة محمود شكرى الآلوسى. دار الباز للطباعة والنشر - بغداد ١٣٤١هـ/ ١٨٩٦م.

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م):

٧٦- تاريخ الرسل والملوك. ١٠ أجزاء. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. سلسلة ذخائر العرب العدد (٣٠) - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة (بدون تاريخ).

عبد اللطيف البغدادى (ابن يوسف بن محمد بن على موفق الدين ت عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م):

٧٧- الافادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. تحقيق أحمد غسان سبانو.
دار قتيبة - دمشق - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الفيومى (احمد بن محمد بن على ت عام ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م):
٧٨ـ المصباح المنير. مكتبة لبنان ١٩٨٧م.

القرمانى (ابو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى الشهير بالقرمانى):
٧٩ـ أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ. عالم الكتب ـ بيروت (بدون تاريخ).

القلقشندى (ابو العباس أحمد بن على ت عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):
٨٠ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء . ١٤ جزء. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٨١ ـ قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان. تحقيق إبراهيم الأبيارى. دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
٨٢ ـ مآثر الأنافة فى عالم الخلافة. ٣ أجزاء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج . عالم الكتب ـ بيروت (بدون تاريخ).
٨٣ ـ نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب. تحقيق ابراهيم الأبيارى .
الشركة العربية للطباعة والنشر ـ تراثنا العربى (١) ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٥٩م.

الكندى (ابو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى ت عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م):
٨٤ ـ الولاة وكتاب القضاة. دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة (بدون تاريخ) عن طبعة دار الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨م.

الكندى

(عمر بن محمد بن يوسف الكندى المصرى ت بعد عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م):

٨٥ - فضائل مصر . تحقيق ابراهيم أحمد العدوى - على محمد عمر .
دار الفكر - بيروت، ومكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٧١م.

الماوردى

(ابو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ت عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م):

٨٦ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية. دار الكتب العلمية - بيروت لبنان (بدون تاريخ).

المبرد

(محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثماتى الأزدى البصرى ابو العباس المبردت عام ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م وقيل عام ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م):

٨٧ - الكامل فى اللغة والأدب. ٢جزء. المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥- ١٩٤٦م.

محمد بن طلحة

(ابو سالم ت عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م):

٨٨ - العقد الفريد للملك السعيد. المطبعة الوهبية ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٧م.

المسعودى

(ابو الحسن على بن الحسين بن على ت عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

٨٩ - التنبيه والاشراف. مراجعة عبد الله اسماعيل الصاوى. مكتبة الشرق الإسلامية ومطبعتها - القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

٩٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر. ٤ أجزاء . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

المفضل بن سلمة (أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ت عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م):

٩١- الملاهى وأسمائها من قبل الموسيقى. تحقيق غطاس عبد الملك خشبة. الهيئةالمصرية العا مة للكتاب - القا هرة ١٩٨٥م.

المقدسى (محمد بن أحمد المقد سى ت عام ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م) :

٩٢ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها غازى طليمات.المختار من التراث العربى رقم (١٣) - منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى - دمشق ١٩٨٠ م.

المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت عام ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)

٩٣- إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر . دار ابن الوليد - حمص (بدون تاريخ).

٩٤- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. تحقيق الدكتور عبد المجيد عابدين. عالم الكتب - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٦١م.

٩٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية . دارصادر - بيروت (بدون تاريخ).

مؤلف مجهول (كاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى):

٩٦ ـ الاستبصار فى عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب. نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) ـ بغداد ١٩٨٦م.

النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحق المعروف بالوراق ت عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م):

٩٧ ـ الفهرست. تحقيق رضا ـ تجدد ابن على بن زين العابدين.
طهران ١٩٧١م.

الوطواط (محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى ت عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨)م :

٩٨ـ مباهج الفكر ومناهج العبر، صفحات من جغرافية مصر. تحقيق الدكتور عبد العال عبد المنعم الشامى . المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ قسم التراث العربى ـ السلسلة التراثية ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):

٩٩ـ معجم الأدباء.٢٠ جزء دار الفكر ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٠٠ـ معجم البلدان . ٥ أجزاء. دار صادر. بيروت (بدون تاريخ).

يحيى بن آدم	(القرشى ت عام ٢٠٣هـ/ ٨١٨م): ١٠١ـ الخراج. صححه وشرحه ووضع فهارسه الشيخ أحمد محمد شاكر المطبعةالسلفية ومكتبتها ـ القاهرة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، والطبعة الثانية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
اليعقوبى	(أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ت عام ٢٨٤هـ-٨٩٧م): ١٠٢ ـ البلدان. طبعة ليدن ١٨٩١م.
اليمانى	(عبد الباقى بن عبد المجيد ت عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م): ١٠٣ـ إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين. تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ثانيا: المراجع:

ابو صالح الألفى (الدكتور):
١ـ الفن الاسلامى. أصوله ـ فلسفته ـ مدارسه.
دار المعارف ـ القاهرة (بدون تاريخ).

أحمد أمين
٢ـ ظهر الاسلام. ٤ أجزاء . مكتبة النهضة المصريةالقاهرة (بدون تاريخ)جـ٤،٣،١ الطبعة السادسة، جـ٢ الطبعة الخامسة.
٣ـ فجر الاسلام . مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة عشر ١٩٨٧م.

أحمد تيمور باشا
٤ـ التصوير عند العرب . أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن .
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٢م.

أحمد جاب الله شلبى
٥ـ الحضارة الاسلامية خلال الأربعة عشر قرنا الماضية: التعليم والتربية عند المسلمين.
دراسات فى الحضارة الاسلامية بمناسبة القرن ١٥م ـ المجلد الأول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٥م.

أحمد الشرباصى
٦ـ الائمة الاربعة. سلسلة كتاب الهلال العدد (١٦٢) ـ دار الهلال ـ القاهرة سبتمبر ١٩٦٤م.

أجمد عبد الرازق أحمد (الدكتور):
٧ـ وسائل التسلية عند المسلمين.
دروسات فى الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن ١٥م ـ المجلد الأول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٥م.

أحمد عبد السلام ناصف (الدكتور):
٨ـ الشرطة فى مصر الإسلامية.
الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

احمدصادق سعد ٩ ـ تاريخ مصر الإجتماعى ـ الإقتصادى.
دار ابن خلدون ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

آدم متز ١٠ـ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى. ٢ جزء.
ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبدالهادى أبوريدة.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

اسماعيل باشا البغدادى ١١ ـ هدية العارفين ـ أسماء المؤلفين وأثار المصنفين .
٦ أجزاء. .
مكتبة المثنى ـ بغداد عن طبعة استانبول ١٩٥١م.

امينة احمد إمام الشوربجى (الدكتورة) :
١٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١م).
رسالة دكتوراة غير منشورة.
كلية البنات ـ جامعة عين شمس ١٩٩٢م.

الآب انستاس الكرملى	١٣ ـ النقود العربية والإسلامية وعلم النميات.
مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

آيدرس بل	(هـ . آيدرس بل) :
١٤ ـ مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى.
ترجمة الدكتور عبداللطيف أحمد على ـ والدكتور محمد عواد حسين.
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٤م.

بتلر	(الدكتور الفريد . ج . بتلر) :
١٥ ـ فتح العرب لمصر . ٢ جزء.
ترجمة محمد فريد أبوحديد.
سلسلة تاريخ المصريين العددين ٢٧ و٢٨ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٩م.

تريتون	(الدكتور أ. س. تريتون) :
١٦ ـ أهل الذمة فى الإسلام.
ترجمة الدكتور حسن حبشى.
دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

توفيق سلطان اليوزبكى	(الدكتور):
١٧ـ التعريب فى العصرين الأموى والعباسى ـ المجلة المصرية للدراسات التاريخية ـ المجلد الرابع والعشرون ـ القاهرة ١٩٧٧م .

جاستون فييت
١٨ ـ المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى.
ترجمة محمد وهبى.
بحث فى كتاب (فى مصر الإسلامية) مقالات منوعة لطائفة من الأساتذة ـ مطبعة المقتطف والمقطم ـ القاهرة ١٩٣٧م.

جرجى زيدان
١٩ ـ تاريخ التمدن الإسلامى . ٥ أجزاء:
مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس.
دار الهلال ـ القاهرة ١٩٦٨م.

جون مارلو
٢٠ ـ تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ ـ ١٨٨٢م.
ترجمة الدكتور عبدالعظيم رمضان.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٦م.

(الدكتور):
حسن إبراهيم حسن
٢١ـ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى.
٤ أجزاء.
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٥٣م.

٢٢ ـ المجمل فى التاريخ المصرى (حسن إبراهيم حسن وآخرون).
مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.

٢٣ـ النظم الاسلامية (حسن ابراهيم حسن ـ محمد عبد الرحيم مصطفى ـ على إبراهيم حسن).
دار السعد ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٥٠م.

حسن محمود (الدكتور) :
٢٤ ـ العالم الإسلامى فى العصر العباسى (د. حسن محمود ـ د. أحمد إبراهيم الشريف).
دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الخامسة (بدون تاريخ).

حسن محمود الشافعى ٢٥ ـ العملة وتاريخها .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٠م.

حسينى (س. أ. ق حسينى) :
٢٦ ـ الإدارة العربية .
ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوى، ومراجعة عبدالعزيز عبدالحق.
سلسلة الألف كتاب العدد (١٨٦) ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة (بدون تاريخ).

خير الدين الزركلى ٢٧ ـ الأعلام . قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين.
الجزء الخامس.
مطبعة كوستاتسوماس وشركاه ـ الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

درويش النخيلى (الدكتور):
٢٨ ـ السفن الاسلامية على حروف المعجم.
دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

رافت عبد الحميد (الدكتور):

٢٩ـ الدولة والكنيسة، الجزءالأول (قسطنطين) مطبعة أطلس ـ القاهرة ١٩٧٥م.

٣٠ ـ الدولة والكنيسة، الجزء الثانى (أثناسيوس) مطبعة سعيد رأفت ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٩٨٠م.

٣١ ـ ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى. كتاب روزاليوسف ـ العدد الحادى عشر ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م.

زكى محمد حسن (الدكتور) :

٣٢ ـ بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية. مجلة جمعية محبى الفن القبطى ـ المجلد الثالث ١٩٣٧م ـ مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.

٣٣ ـ الفن الإسلامى فى مصر . مطبوعات دار الآثار العربية ـ القاهرة ١٩٣٥م.

٣٤ ـ فنون الإسلام . مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٤٨م.

٣٥ ـ فى الفنون الإسلامية . مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ١٩٣٨م.

٣٦ ـ كنوز الفاطميين . دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧م.

ستانلى لينبول

٣٧ ـ سيرة القاهرة . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور على إبراهيم حسن، وإدوار حليم. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٩٢٤م.

سعاد ماهر محمد (الدكتورة) :
٣٨ ـ البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية .
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٧م.
٣٩ ـ تطور العمائر الإسلامية الدينية بتطور وظائفها .
المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثامن عشر ـ القاهرة ١٩٧١م.
٤٠ ـ الفنون الاسلامية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦م .

٤١ ـ النسيج الإسلامى .
الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ـ مطابع دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٧م.

سعيد اسماعيل على (الدكتور) :
٤٢ ـ تاريخ التربية والتعليم فى مصر .
عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٨٥م.

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :
٤٣ ـ العلم بين المسجد والمدرسة .
بحث فى كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية.
سلسلة تاريخ المصريين العدد (٥١) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٢م.

٤٤ ـ الفلاح والإقطاع فى عصر الأيوبيين والمماليك .
بحث فى كتاب الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور.
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧٤م.

سليم حسن (الدكتور) :
٤٥ ـ مصر القديمة. ٢ جزء.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٢م.

سليمان نسيم (الدكتور) :
٤٦ ـ الأقباط والتعليم فى مصر الحديثة .
تقديم ومراجعة الأنبا غريغوريوس، والدكتور عزيز سوريال عطية.
منشورات أسقفية الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمى (بدون تاريخ).

سهام مصطفى ابو زيد (الدكتورة) :
٤٧ ـ الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٦م.

السيد الباز العرينى (الدكتور) :
٤٨ ـ الحسبة والمحتسبون فى مصر .
المجلة التاريخية ـ المجلد الثالث ـ العدد الثانى ـ أكتوبر ١٩٥٠م.
٤٩ ـ مصر البيزنطية .
دار النهضة المصرية ـ القاهرة (بدون تاريخ).

السيد طه السيد ابو سديرة (الدكتور) :
٥٠ ـ الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى.
(٢٠ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤١ ـ ١١٧١م).
سلسلة الألف كتاب الثانى العدد (٩٥) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩١م.

السيد محمود عبد العزيز سالم (الدكتور):

٥١ـ المآذن المصرية. نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى.
مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ القاهرة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :

٥٢ ـ أحمد بن طولون .
أعلام العرب العدد (٤٨) ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٥م.

٥٣ ـ الأرض والفلاح فى مصر الإسلامية .
بحث فى كتاب (الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور) ـ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧٤م.

٥٤ ـ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى.
المجلة التاريخية المصرية ـ المجلدان التاسع والعاشر ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢م.

٥٥ ـ تعريب مجتمع الأسكندرية .
بحث فى كتاب (مجتمع الأسكندرية عبر العصور) ـ مطبعة جامعة الأسكندرية عام ١٩٧٥م.

٥٦ ـ دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى قبل العصر الفاطمى. مستخرج من (دراسات آثارية إسلامية) ـ المجلد الثانى ـ القاهرة ١٩٨٠م.

٥٧ ـ دراسات فى النقود الإسلامية .
المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى عشر ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م.

٥٨ ـ عبدالعزيز بن مروان .
أعلام العرب العدد (٧٠) ـ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة اكتوبر ١٩٦٧م.

٥٩ ـ العرب والبحار .
حولية كلية البنات ـ جامعة عين شمس ـ العدد الرابع ـ يولية ١٩٦٤م.

٦٠ ـ مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه .
مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٠م.

٦١ ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (٥٧) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٣م.

٦٢ ـ مصر فى عصر الاخشيديين .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (٢٩) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٩م.

٦٣ ـ مصر فى عصر الولاة .
سلسلة تاريخ المصريين العدد (١٤) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٨م.
٦٤ ـ مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية.
دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

عبد الحفيظ محمد على
٦٥ ـ الحركة الديرية فى مصر وأثرها على بلدان البحر المتوسط فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين.
بحث فى كتاب (مصر وعالم البحر المتوسط) إعداد وتقديم الدكتور رؤوف عباس ـ دار الفكر للدراسات والتوزيع ـ القاهرة ١٩٨٦م.

عبد الخالق سيد ابو رابية
٦٦ ـ عمرو بن العاص .
الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

عبد الرحمن زكى
(الدكتور) :
٦٧ ـ الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع.
المكتبة الثقافية العدد (١٥٨) ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ مكتبة مصر ـ القاهرة أول يونية ١٩٦٦م.

عبد الله خورشيد
(الدكتور) :
٦٨ ـ القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة.
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧م.

عبد المجيد عابدين (الدكتور) :

٦٩ ـ لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده.

مطبعة الشبكشى بالازهر ـ القاهرة ـ الطبعة الاولى ١٩٦٤م.

عبدالمنعم سلطان (الدكتور) :

٧٠ ـ تاريخ الشرطة فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة، من الفتح حتى قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ / ٨٦٨م.

القاهرة ١٩٨٥م (بدون مكان للطبع).

٧١ ـ المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، دراسة تاريخية وثائقية.

دار المعارف ـ القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

عبدالمنعم ماجد (الدكتور) :

٧٢ ـ تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى.

مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٣م والطبعة الخامسة ١٩٨٦م.

عطية القوصى (الدكتور) :

٧٣ ـ اضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة.

المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى والعشرون ـ القاهرة ١٩٧٥م.

٧٤ ـ تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية.

دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٦م.
٧٥ ـ من أخبار المدن الإسلامية المندثرة «تنيس».
قبلت للنشر في العدد الأول من (المجلة العربية للعلوم الإنسانية) مجلة كلية الآداب والتربية ـ جامعة الكويت.

عطية مصطفى مشرفة (الدكتور) :
٧٦ ـ القضاء في الإسلام بوجه عام وفي العهد الإسلامي في مصر بوجه خاص إلى سنة ٣٥٨هـ.
مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م

علي إبراهيم حسن (الدكتور) :
٧٧ ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني.
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ يناير ١٩٥٤م.

علي حسني الخربوطلي (الدكتور) :
٧٨ ـ البحر المتوسط بحيرة عربية.
سلسلة إقرأ العدد (٢٤٧) ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٧٩ ـ الحضارة العربية الإسلامية.
مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

عمر رضا كحالة
٨٠ ـ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ٥ أجزاء.
المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٩٥٩م.

فاطمة مصطفى عامر (الدكتورة) :
٨١ ـ استضافة الجيوش الإسلامية أثناء الفتوحات الإسلامية.
دار العلوم للطباعة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

كويلاند (ج . و. كويلاند) :
٨٢ ـ الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا.
ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة.
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

لجنة التاريخ القبطى
٨٣ ـ خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر .
مطبعة المقتطف والمقطم ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٩٢٥م.

محمد رمزى
٨٤ ـ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م. قسمين وفهرس.
دار الكتب المصرية ـ القاهرة.
القسم الأول خاص بالبلاد المندرسة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م.
القسم الثانى أربعة أجزاء (جـ ١ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥م، جـ ٢ ١٩٥٨م، جـ ٣ ١٩٦٠م، جـ ٤ ١٩٦٣م).

محمد ضياء الدين الريس (الدكتور) :
٨٥ ـ الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية.
مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦١م.

محمد عبد الرحمن البكر (الدكتور) :

٨٦ ـ السلطة القضائية وشخصية القاضى فى النظام الإسلامى.
الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

محمد عبد العزيز مرزوق (الدكتور) :

٨٧ ـ الفن المصرى الإسلامى .
سلسلة إقرأ العدد (١١٤) ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٢م.

محمد عبد الله عنان

٨٨ ـ مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية.
دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

٨٩ ـ مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

محمد عبد المنعم خفاجى

٩٠ ـ شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية (٢٠ ـ ٣٥٨هـ).
(محمد عبدالمنعم خفاجى ـ محمد مصطفى الماحى).
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٠م.

٩١ ـ مواكب الحرية فى مصر الإسلامية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧م.

محمد عزة دروزة
٩٢ ـ عروبة مصر فى ظل العروبة الصريحة والإسلام.
الجزء الثانى.
سلسلة كتب قومية العدد (٨٩) ـ مطابع الدار القومية ـ القاهرة ١٧ يناير ١٩٦١م.

محمد قنديل البقلى
٩٣ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.
مراجعة الدكتور عبدالرحمن زكى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٣م.

محمد كامل حسين
(الدكتور) :
٩٤ ـ الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية.
سلسلة الألف كتاب العدد (٢٤٤) ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩م.

محمد كامل مرسى بك
(الدكتور) :
٩٥ ـ الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن.
مطبعة نورى ـ القاهرة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

محمد محمد فياض
٩٦ ـ التقاويم .
سلسلة الألف كتاب العدد (١٦٣) ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٨م.

محمود بن محمد بن عرنوس
٩٧ ـ تاريخ القضاء فى الإسلام .
المطبعة المصرية الأهلية الحديثة ـ القاهرة ١٩٣٤م.

مصطفى جواد
٩٨ ـ سيدات البلاط العباسى.
دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ١٩٥٠م.

مصطفى طه بدر (الدكتور) :
٩٩ ـ مصر الإسلامية . الجزء الأول (من الفتح الإسلامى حتى زوال الدولة الاخشيدية).
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٤م.

مصطفى العبادى (الدكتور) :
١٠٠ ـ الأرض والفلاح فى مصر الرومانية.
بحث فى كتاب (الأرض والفلاح على مر العصور) ـ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧٤م.

١٠١ ـ مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربى.
مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٥م.

مصطفى عبد الله شيحة (الدكتور) :
١٠٢ ـ الآثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى حتى نهاية العصر الأيوبى (٢٠ ـ ٦٤٨هـ / ٦٤١ ـ ١٢٥٠م).
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

المعجم الوجيز
١٠٣ ـ طبعة وزارة التربية والتعليم ـ القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

مليحة رحمة الله (الدكتورة) :
١٠٤ ـ الملابس فى العراق خلال العصور العباسية.
المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثالث عشر ـ القاهرة ١٩٦٧م.

المنجد في اللغة والاعلام ١٠٥ ـ دار المشرق ـ بيروت ـ الطبعة الحادية والعشرون ١٩٧٣م.

المورد ١٠٦ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٧م.

الموسوعة المصرية ١٠٧ ـ الموسوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها.
المجلد الأول، الجزء الثالث تاريخ وآثار مصر الإسلامية.
مطبوعات الهيئة العامة للاستعلامات (بدون تاريخ).

القس منسى يوحنا ١٠٨ ـ تاريخ الكنيسة القبطية.
مكتبة المحبة ـ القاهرة ١٩٨٣م.

نقولا يوسف ١٠٩ تاريخ دمياط منذ أقدم العصور.
مطبعة التحرير ـ القاهرة ١٩٥٩م.

نيكولسون (رينولد . أ. نيكولسون) :
١١٠ ـ في التصوف الإسلامي وتاريخه.
ترجمة أبوالعلا عفيفي.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.

يونان لبيب رزق (الدكتور) :
١١١ ـ أوروبا في عصر الرأسمالية . (د. يونان لبيب رزق ـ د. رؤوف عباس ـ د. عبدالعظيم رمضان).
دار الثقافة العربية ـ القاهرة ١٩٨٣م.

الكشافات

١ ـ كشاف الأعلام
٢ ـ كشاف البلاد والأماكن
٣ ـ كشاف المصطلحات والمعانى

---

* قام بعمل الكشافات هويدا عبدالعظيم رمضان.

١ - كشاف الأعلام

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- م -

٢ ـ كشاف البلاد والأماكن

٣ ـ كشاف المصطلحات والمعانى

المحتويات

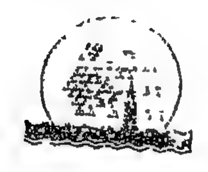
الباب الخامس :

الفصل الأول :

الفصل الثانى :

الفصل الثالث :

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الايداع بدار الكتب ٥٦٤٧/١٩٩٤
I.S.B.N 977-01-3999-8



هذا الكتاب

فى الأصل رسالة ماجستير أعدتها الأستاذة هويدا عبدالعظيم رمضان المدرس المساعد بكلية بنات جامعة عين شمس، وهى تعالج مرحلة ربما كانت أهم مراحل التحول فى تاريخ مصر الطويل، وهى مرحلة التحول من الحكم البيزنطى إلى الحكم العربى، ومن الدين المسيحى إلى الدين الإسلامى، ومن اللغة القبطية ـ اليونانية إلى اللغة العربية، ومن الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية، ومن الشريعة والقوانين المسيحية إلى الشرائع والقوانين الإسلامية، ومن العادات والتقاليد القبطية إلى العادات والتقاليد العربية ـ الإسلامية، ومن الفنون القبطية إلى الفنون الإسلامية. وفى عبارة وجيزة من الحضارة القبطية ـ الاغريقية إلى الحضارة الإسلامية العربية.

مطابع الهيئه المصريه العامه للكتاب

تصميم الغلاف احمد عبد الغفار